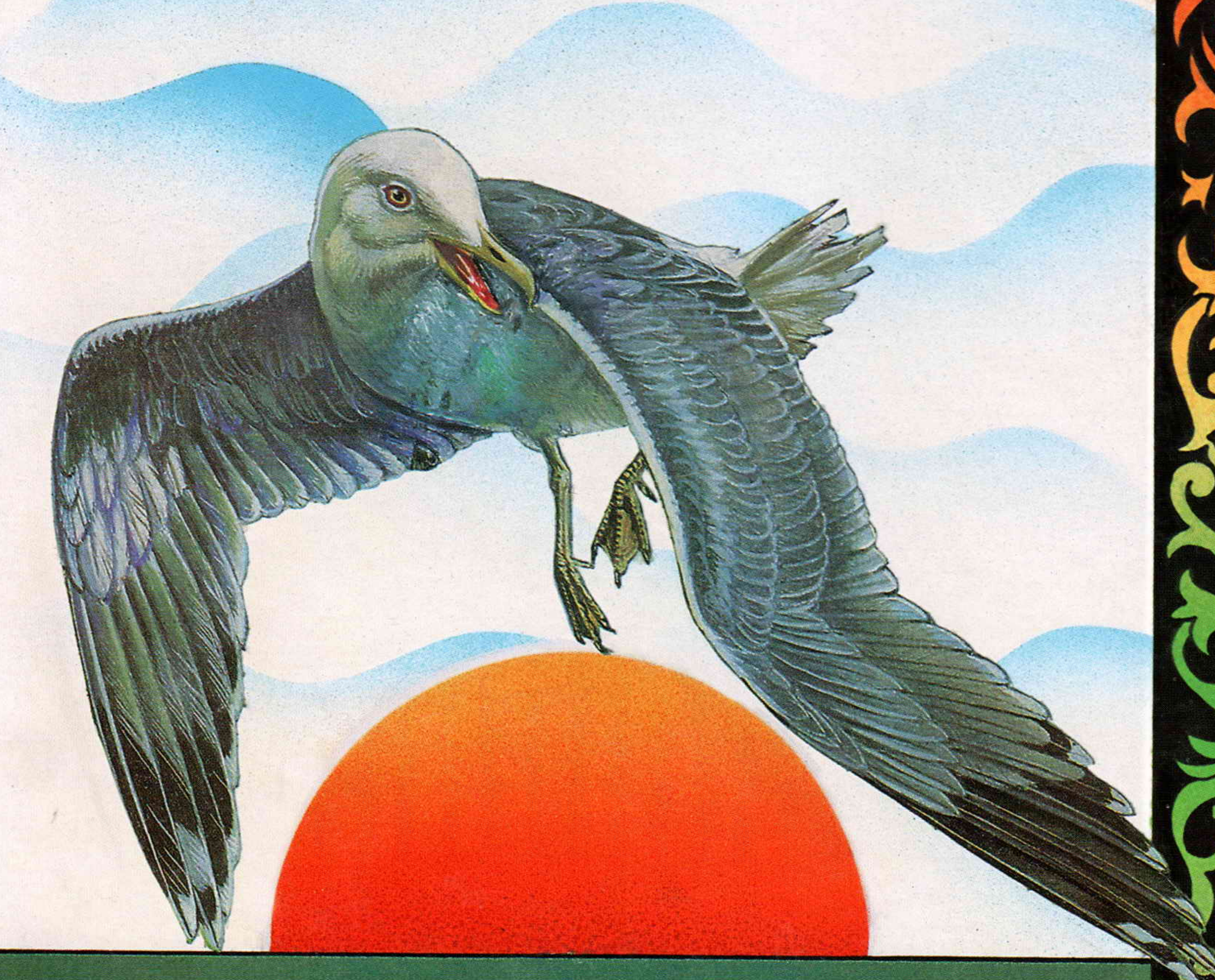
آداب النفس

للعالم العارف الحكيم الكامل السيّد محمد العيناثي العاملي

من أعلام القرن الحادي عشر



منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان
ص. ب. : ٧١٢٠

آدابُ النَّفْسِ



آداب النفس

للعالم العارف الحكيم الكامل السيّد محمّد العيناثي العاملي
من أعلام القرن الحادي عشر

تحقيق
السيّد كاظم الموسويّ المياموي

منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات
بيروت - لبنان
ص.ب ٧١٢٠

الطبعة الأولى

١٤١٥هـ - ١٩٩٥م

مؤسسة الأعلمي للمطبوعات:
بيروت - شارع المطار - قرب كلية الهندسة -
ملك الأعلمي - ص.ب: ٧١٢٠
الهاتف: ٨٣٣٤٤٧ - ٨٣٣٤٥٣

PUBLISHED BY
Al Alami Library
BEIRUT - LEBANON
P.O. BOX 7120

بِسْمِ اللّهِ الرّحمنِ الرّحِيمِ

الحمدُ لله الّذي لا يحصُر آداب فضله ديوان ، ولا يُحصي آفات نفس الإنسان لسان ؛ فالواجب علينا أن نؤدِّب أنفسنا بأحسن الآداب ، ونقمعها عن الزيغ والإرتياب . والمبتلى مثلي قلق لسماع آداب أُولي الألباب ؛ ولأجلها جفا جفني مدى اللّيالي الهُجوع[١] ، واستهلّت من آماقي[٢] الدموع ؛ فلو يراني عاقل لعلم أنّ عيني قد أخذت من العناصر الثلاثة نصيب ، وعوّضها الهواء عن التراب بمضاعفة الماء واللّهيب ، ولرأى من نارها ما يفحّم القلوب[٣] ومن دمعها ما هو البلاء المصبوب ؛ وكيف لا ؟ ونحن لا نعتبر بالمَثُلات الّتي رأتها الأعين ، ولا نزدجر بالآيات الّتي روتها الألسن . لقد أنظرَنا المهلُ[٤] فاستعذبنا مشارعَه[٥] وأفسدَنا الأملُ فاستوطنّا مضاجعه ؛ ومع ذلك بُلينا بزمان نكود[٦] ، ولم نخَف من عقبة كؤود[٧] ، ولم نزل عرضاً لمرامي كلّ ظلوم وحسود .

---

(١) مصدر : هجع يهجع ـ من باب منع ـ النوم بالليل أو مطلقاً .
(٢) جمع الموق ـ بالضم ـ مجرى الدمع من العين .
(٣) أي يصيرها سوداء كالفحم .
(٤) أي أمهلنا الرفق والتؤدة . والمهل ـ بفتحتين أو سكون الثاني ـ مصدر .
(٥) أي وجدنا محل ورود الشاربة منه عذباً .
(٦) أي منوع ، كثير سؤاله وقليل خيره .
(٧) صعبة شاقة المصعد .

ربّ اغفر لي ولوالديّ ولمن دخل بيتي مؤمناً ، واجعلني بوعدك ووعيدك موقناً ؛ اللَّهُمَّ ومن دخل بيتي جاحداً لمودّتي المنعمة ، متجسّساً عليّ معايبي مع إقراري بها بوساوسه المحكمة ، فاخجله في سرّه وعلانيته ، وعاقبه على قوله وعلى نيّته ؛ لأنّه غيّر الثناء بالهِجاء ، والوَلاء بالجَفاء . والعجب العجيب من كلّ نسيب وقريب أن ينفي مودّتي من خاطره ، بما أثبته الحاسد في فاطره ؛ فتغاضبت وقلت : همزة مشاءٍ بنميم ، وغلطة صديقٍ أتجرّعها ولو كانت من حميم ؛ وأخليت من حديثه فمي ومجلس صدري ، وصرفت ذكره عن فكري . اللَّهُمَّ اشغلنا بذكرك عن كلّ ذكر ، واستعمل جوارحنا بشكرك عن كلّ شكر ؛ يا من له الصنع الكريم والفضل العظيم ، والمنّ العميم ، والأمر الحكيم ، واللّطف الّذي يملأ العيون ويملك القلوب ، والعفو الّذي يستر العيوب ويغفر الذنوب ؛ ويا من لا يحيط بكنه عظمته البصائرُ ، ولا يدرك كلَّ رحمته الخواطر ؛ ويا من لا تَنفد حكمته إذا نفد القرطاس ، ولا تُعدَّ نعمته ولو عدّت الأنفاس ؛ ويا من لا يقبل من الأفعال غير صافيها ، ولا يرضى من الأخلاق سوى زاكيها ؛ ولا يؤاخذ المذنب إلاّ بعد إمهالٍ وإنظارٍ ، ولا يعاقب المسيء إلاّ عقيب تحذير وإنذار ! أنت للمستعين حيث الإستعانة ، وللمستغيث حيث الإغاثة ، وللآمل موضع المأمول ، وللسائل الداعي بمرصد المسؤول ؛ ونحن ندعوك عن أضرع دعاءٍ وأخضعه ، وأخبت سؤال وأنجعه[1] أن تقابل لنا هذا الكتاب وكلّ عملٍ صالحٍ بقبولك ، وتفتح لنا كلّ يومٍ باباً إلى مرضاتك ؛ وأن تجعلنا ممّن يحسن بالعمل رعاية ما ارتاد من القول ؛ وتنصب لنا علماً يهدينا ، ونوراً يسعى بين أيدينا ، وشريعةً نردها إلى طاعتك ، وذريعة نتوسّل بها إلى رحمتك ، وسبيلاً ننتهجه أيّاماً إلى الرشاد ، وحبلاً نعتلقه عصاماً من الفساد .

اللَّهُمَّ اجعلنا ممّن يتعرّض في مُفتتح كل أمرٍ أسباب النّجاح ، ويعتمد في مختتم كلّ شيء عواقب الفلاح ؛ اللَّهُمَّ اجعل[2] رجاك أوفى عُدَّتنا ، وأمضى

---

(١) نجع فيه الأمر والخطاب والوعظ : أثر فيه ونفع . مجمع البحرين .

(٢) إجعل اللهم . خ ل .

سِلاحنا ، واجعل أمركَ ونهيك نُصب أعيننا ، والرغبة إليك أصل كلّ تدبيرنا ، والرهبة منك مدار كلّ أُمورنا ، وأدم خيرنا وأبق نعمتك علينا بتقديرنا أُمورنا على قدر الزمان ، وبمقدار الإمكان ، أكرمنا بالصمت في أوانه ، وأيّدنا بالإبلاغ في المنطق في مكانه ، اجمع لنا محبّة القلوب بالتواضع لمن نجالس ، والثقة والطمأنينة بمن نؤانس ، والإستظهار على من دوننا بالتفضّل وعلى نظرائنا بالإنصاف والتحمّل ، وعلى من فوقنا بالإجلال .

اللَّهُمَّ ما وهبتناه من غنىً وقنىً[1] فارزقنا أن نقضي به حقوق الضعفاء ونوفي منه فروض الفقراء ، وأن نكسبها من حلّها ، ونضعها في محلّها ، وما جعلته فينا من قوّة نفسٍ وشدَّة بأس ، في عبادتك اجتهاداً ، وقمع في أعدائك جهاداً ؛ وما منحتناه من جاه ونفادٍ فاجعلنا به نصون وجهاً حييّاً[2] ، ونمون لساناً عييّاً[3] ؛ وما آتيتناه من علمٍ فاثبت بنا أنواره في المقتبسين ، واثبت لنا أسراره إلى الملتمسين ؛ اللَّهُمَّ خذ لنفسك من نفسي ما يخلّصها ، وأبقِ لنفسي من نفسي ما يصلحها ، فإنّ نفسي هالكة أو تعصمها .

اللَّهُمَّ صلّ على محمّد صلى الله عليه وآله وسلم عبدك ورسولك وأمين وحيك والمبلّغ لأمرك ونهيك كما بلّغ رسالاتك ، وصدع بكلماتك وقام بحقّك ، ونصح لخلقك ، صلّى الله عليه وآله الطاهرين أبد الآبدين ودهر الداهرين ، صلّ عليه في الصباح إذا درّ شارقه[4] ، وفي الرواح إذا دبَّ غاسقه[5] صلّ عليه في الأرض ما سقتها السماء ؛ صلّ عليه في السّماء ما صعد إليها الصّلاة والدُّعاء ؛ صلّ عليه في الدُّنيا وفي الملأ الأعلىٰ ، صلاةً تزيده منك قربةً وزلفى .

اللَّهُمَّ صلِّ على ملائكتك وسكّان سماواتك المقرّبين وعلى حملة عرشك

---

(١) قنا المال يقنوه : جمعه واتخذه لنفسه .

(٢) أي ذو الياء ، فعيل من حيي .

(٣) أي نحتمل مؤونة من يعجز عن أداء مقصوده .

(٤) الصواب «ذر» باعجام الذال ؛ قال الزمخشري في الأساس (شرق) : ويقال : طلع الشرق والشارق ، للشمس ، وتقول : لا أفعل ذلك ما ذر شارق ، وما در بارق .

(٥) دب : مشى كالحية ، أو على اليدين والرجلين كالطفل . والغاسق : القمر ، الليل إذا اشتدت ظلمته . وهذه الجملة قليلة الإستعمال .

وخـزنة أمـرك المصطفين المخلصين ، وعلى أهـل طاعتـك الممحّصين من أهل السمـاوات وأهـل الأرضين ، واجعلنـا من محبّيـهم وفـي جمـلتهـم يـا أرحم الراحمين .

وبعد : فقد طال شرح ما في أنفس الإنسان من عجائب الخلق وخصائص الخُلق والآن قد أفردنا مواعظ وآداب تدعو الأنفس إلى التقـوى والرغبـة في الدار الآخرة الباقية ، والزهد في هذه الحـاضرة الفـانية ؛ وتحلّيهـا بالخيـر والرشـاد ، وتخلّيها عن الشرّ والفساد ، وسمّيتها :

آداب النفس

ليزول عنها الوسوسة واللّبس ؛ واخترت لها من كلام الأئمّة ومؤدّبي الأُمّة ، ومن المواعظ وكلام الزهّاد ، وغيرهم من العلماء والعبّاد ما يحصل لنا ذُخرها ، ومن الحكايات ما يحضرنا ذكرها . وبالله التوفيق ، وبيده أزمّة التحقيق .

وهي مرتبة على مقدمة وفصول وخاتمة

أمـا المقـدّمـة

فاعلم أنّ نفس[1] الإنسانيّة تحتاج إلى تأديب وتهذيب وتعنيف وترغيب ؛

---

(١) قال القزويني (٢ : ٩٢) : اعلم أن الإنسان حال ما يكون شديد الإهتمام بالشيء ، يقول : قلت كذا ، وفعلت كذا ، وهو في هذه الحالة عالم بذاته غافل عن جميع أعضائه الظاهرة والباطنة والمعلوم في هذه الحالة هو النفس ، وإنه متقلد لهذه التكاليف ، متعرض لخطر الثواب والعقاب ، باق بعد الموت إما في نعيم وسعادة كما قال الله تعالى : ﴿بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين﴾ وإما في جحيم وشقاوة كما قال عز وجل من قائل : ﴿النار يعرضون عليها غدواً وعشياً﴾ .

وفي اللسان (٧ : ٢٩٤ ، نفس) قال أبو إسحاق : النفس في كلام العرب يجري على ضربين : أحدهما : قولك : خرجت نفس فلان ، أي روحه ، والضرب الآخر معنى النفس فيه معنى جملة الشيء وحقيقته . ثم قال ـ بعد ذكر معان متعددة للنفس هذبها ورتبها الطريحي في مجمع البحرين ـ : روي عن ابن عباس أنه قال : لكل إنسان نفسان : أحدهما نفس العقل الذي يكون به التمييز ، والأخرى نفس الروح الذي به=

قال الله تعالىٰ : **﴿إنّ النفس لأمّارة بالسوء إلاّ ما رحم ربّي﴾**[1] وقال جلّ وعلا : **﴿قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها﴾**[2] أي نقّصها بالذنوب والمعاصي . ولو لم يكن إلاّ قوله عزّ من قائل : **﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾**[3] لكفى بذلك واعظاً ولأنفسنا زاجراً . وغير ذلك من الآيات القرآنية والآداب الدينيّة .

فالواجب على كلّ ذي عقل أن يؤدّب نفسه بمكارم الأخلاق[4] ولذا قيل : تمام السعادة بمكارم الأخلاق ، كما أنّ تمام الشجرة بالثمرة .

وتهذيب الأخلاق باب طويل وعلم شريف يحتاج إلى بسط وكلام كثير لا بدّ أن نذكر منه شمّة يعرف منها ما نحن بصدده من صفات الأنفس البشريّة ؛ فنقول :

وكلّ امرىء ذي عقل يمكنه إصلاح نفسه وتهذيب أخلاقه ، فالخلق ملكة يصدر عنها جميع الأفعال بسهولة من غير رويّة ؛ وزعم بعضهم : أنّ الخُلق كالخَلق لا يمكن تغييره ولا تبديله ، بل الخُلق هو الّذي يقتضيه المزاج المخصوص كحارّ مزاج القلب فإنّه يكون شجاعاً وضدّه جباناً وكذا بقيّة الأخلاق ، وهو ضعيف ، بل الصواب أنّه يمكن تبديله وتغييره بالزيادة

= الحياة . وانظر إحياء العلوم (٣ : ٣) وأخلاق ناصري : ١٣ والفصول لابن فهد : ٤٤ وطهارة الأعراق لابن مسكويه : ٥ وقصيدة شيخ الرئيس في النفس في مجاني الأدب (٦ : ١٧٢) .

(١) سورة يوسف ؛ الآية : ٥٣ .

(٢) سورة الشمس ؛ الآيتان : ٩ ـ ١٠ .

(٣) سورة الذاريات ؛ الآية : ٢١ .

(٤) قال الطريحي في مجمع البحرين (كرم) : ومكارم الأخلاق التي حض النبي صلى الله عليه وآله وسلم بها عشرة : اليقين والقناعة والصبر والشكر والحلم وحسن الخلق والسخاء والغيرة والشجاعة والمروءة ، وفي الحديث : امتحنوا أنفسكم بمكارم الأخلاق فإن كانت فيكم فاحمدوا الله تعالى ، وإلا تكن فيكم فاسألوا الله وارغبوا إليه فيها ، ثم إنه عليه السلام ذكر العشرة السالفة ، وفيه وقد سئل عن مكارم الأخلاق فقال : العفو عمن ظلمك وصلة من قطعك وإعطاء من حرمك وقول الحق ولو على نفسك .

والنقصان ؛ فالاعتدال والانحراف بكثرة مزاولة الأفعال والأقوال والحركات والسكنات والتصوّرات ولولا ذلك لما اجتهدت الأنبياء والأولياء والحكماء في الدعوة إلى الله تعالى بكل طريق ، ولما أمرت بمكارم الأخلاق ، وقد قال سيّد البشر صلى الله عليه وآله وسلم : «بُعثتُ لأُتمّم مكارم الأخلاق»[1] . والعاقل يمكنه أن يعرف ذلك بكثرة التأمّل والتجربة ولنزيد ذلك بياناً :

اعلم أنّ العلماء اختلفوا في أنّ الإنسان هل يمكنه تغيير خلقه أم لا ؟ فالغزاليّ في الإحياء والمحقّق الطوسيّ في الأخلاق[2] على الأوّل ؛ ويعضده قول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم «حسّنوا أخلاقكم»[3] . وبعض الأكابر[4] على الثاني ؛ وعليه قول بعضهم[5] :

لكلّ داءٍ دواء يستطبّ به ... إلّا الحماقة أعيت من يداويها

وقال بعضهم :

يا من تقاعد عن مكارم خُلقه ... ليس التفاخر بالعلوم الفاخرة
من لم يهذّب علمه أخلاقُه ... لم ينتفع بعلومه في الآخرة

وقال آخر :

وكلّ جراحة فلها دواءٌ ... وسوء الخلق ليس له دواءُ

وقال الراغب في الذريعة : من منع من تغيّر الخُلق فإنّه اعتبر القوّة نفسها ، وهذا صحيح ، فإنّ النّوى محال أن يُنبت منه الإنسانُ تفّاحاً ، ومن أجاز

(١) والخبر عنه صلى الله عليه وآله وسلم ذائع مشهور ورواه الغزالي في الإحياء (٢ : ٢٤٦) وفي مجموعة ورام (١ : ٨٩) : بعثت لأتمم محاسن الأخلاق .

(٢) إحياء العلوم (٣ : ٤٠) وأخلاق ناصري : ٥٢ .

(٣) رواه الغزالي (٣ : ٤١) والروايات الواردة عنه صلى الله عليه وآله وسلم في حسن الخلق في الإحياء (٣ : ٣٧) . وأنظر أصول الكافي (٢ : ٩٩، ٣٢١) .

(٤) لعله أراد به جالينوس حيث ذكر الطوسي : ٥٣ أنه قال : بعض الناس أهل الخير طبعاً وبعضهم أهل الشر طبعاً ، وبعض متوسط بينهما قابل لهذا وذاك . أقول : وانظر مقالاته في النفس عند ابن مسكويه : ١٨٦ .

(٥) والبيت عند الأبشيهي في المستطرف (١ : ١٦) راجعه .

تغيّره فإنّه اعتبر إمكان خروج ما في القوّة إلى الوجود وإفساده بإهماله ، نحو النَّوى فإنّه يمكن أن ينعقد فيُجعل نخلاً ، وأن يترك مهملاً حتّى يعفّن ؛ فإذاً اختلافهما بحسب اختلاف نظريهما .

وقد عرفت أنّ الإنسان له قوى[1] ثلاث : القوّة العقليّة ، والقوّة الشهويّة ،

---

(١) قال القزويني (٢ : ١٤٩ ـ ١٥٩) : القوى صنف من الملائكة خلقها الله تعالى لتدبير الأبدان وقوام منافع أعضائها من الأفعال والإدراكات فتشبه أفعالها فيها أفعال صناع البلاد وسكانها ، فإن حال البدن مع الروح وهذه القوى تشبه مدينة عامرة بآلاتها ، مأنوسة بسكانها ، مفتوحة الأسواق مسلوكة الطرقات ، مشتغلة الصناع . وحاله عند النوم وهذه الحواس وسكون الحركات تشبه حال المدينة بالليل إذا غلقت أبوابها ، وتعطلت صناعها ، ونام أهلها .

ثم أخذ في بيان أنواع القوى وأقسامها بشرح بسيط ، ونحن نذكر مقالته باختصار .قال.

النوع الأول : القوى الظاهرة وهي الحواس الخمس : اللمس ، الشم ، البصر ، السمع والذوق .

النوع الثاني : القوى الباطنة ، هي أصناف : الأول النباتية وهي أربع : الجاذبة ، الماسكة ، الهاضمة والدافعة . الصنف الثاني القوى الخادمة ، وهي أربع أيضاً : الغازية ، النامية ، المولدة والمصورة . الصنف الثالث القوى المدركة التي في الباطن ، وهي خمس : الحس المشترك ، المتخيلة ، الوهم ، الحافظة والمفكرة .

النوع الثالث : وهي صنفان : الصنف الأول الباعثة وهي ضربان : شهوية وغضبية ، الصنف الثاني القوة الفاعلة التي يصدر عنها تحريك الأعضاء .

النوع الرابع : القوى العقلية : وهي أربع مراتب : الأولى القوة التي بها يفارق الإنسان البهائم وهي استعداده لقبول العلوم النظرية والصنائع الفكرية . الثانية القوة التي تدخل الوجود للصبي المميز ، وبها يدرك الضروريات والممكنات والممتنعات كالعلم بأن الإثنين أكثر من الواحد فيقال له التصورات والتصديقات الضرورية . الثالثة قوة تحصل بها العلوم المستفادة من التجارب بمجاري الأحوال ، فمن اتصف بها يقال له «عاقل» في العادة ، ومن خلا عنها يقال له «غبي» وهي معان مجتمعة في الذهن فيستنبط بها مصالح الأغراض . الرابعة قوة يعرف بها حقائق الأمور ومباديها ومقاطعها حتى يقطع الشهوة العاجلة للذة الآجلة . ثم قال : والأولان مجبولان . والأخيران مكتسبان ، وقد قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام :

رأيت العقل عقلين	فمطبوع ومسموع
فلا ينفع مسموع	إذا لم يك مطبوع
كما لا تنفع الشمس	وضوء العين ممنوع

=

والقوّة الغضبيّة .

فالأولى : هي الملكيّة وهي مبدأ التميّز والفكر والشوق إلى إدراك الحقائق ويسمّى تهذيبها حكمة نظريّة . **والثانية** : هي النفس البهيميّة وهي مبدأ الشهوة وطلب الغذاء والشوق إلى الالتذاذ بالمآكل والمشارب والمناكح والملابس . **والثالثة** : هي النفس السبعيّة وهي مبدأ الغضب والإقدام على الأهوال والتسلّط والترفّع والجاه والعزّ .

والعدالة هي التساوي بين هذه القوى بحيث لا يخرج عن حدّ الإفراط والتفريط حتّى لا يكون فيها ميل ؛ فإن خرجن إلى الإفراط ، فبالنسبة : إلى الحكمة سفهاً وجرءةً وإلى الشهوة شرهاً ، وإلى الغضب تهوّراً ؛ وإلى التفريط ؛ بالنظر إلى الحكمة بلهاً ، وإلى الشهوة جموداً ، وإلى الغضب جبناً . فإذا اعتدلت فضيلة ثالثة هي العدالة ، وهي الحادثة من تهذيب القوّة العمليّة ، وطرفاها الظلم والإنظلام ، فإذا هذّبت القوّة الشهويّة تسمّى عفّة ، وتهذيب القوّة الغضبيّة تسمّى شجاعة ، وتهذيب العقليّة تسمّى حكمة . فبعد تهذيبها تسمّى بالحكمة والعفّة والشجاعة .

والعدالة هي الوسط[1] بين كلّ طرفين والوسط محصور بين الأطراف ، والأطراف لا تنحصر ولا تقف عند حدّ بل إلى غير النهاية . وكلّ فضيلة فهي وسط بين رذيلتين هما طرفا الإفراط والتفريط ، والوسط هو الصراط المستقيم ؛ صراط أولياء الله وخلفائه المنعم عليهم .

فيجب على طالب الكمال أن لا يتجاوزه فإنّ بتجاوزه بقدر الإنحراف عنه ينحرف عن السعادة الأُخرويّة ، وهذا هو الداء المُعضَل والمرض المشكل الّذي يعجز عنه البشر ، إلاّ الشريد الكامل الفريد من الأفاضل والأماثل ، وهو طريق

انتهى كلامه . وذكر الطوسي فصلاً في القوى أوجز مما ذكره القزويني ، انظر أخلاق ناصري ١٨ ـ ٢٠ وانظر جامع السعادات للمولى النراقي أيضاً (١ : ٢٩) وبعد ما ذكرناه فأنت تقدر على استخراج ما قاله المصنف منها .

(١) وانظر الأقوال في حقيقة العدالة عند النراقي (١ : ٥٢) .

الأنبياء والأولياء وكلامهم فيه كثير ، وهو يدلّ على صعوبة الطريق ، وأنّ الواقف على الوسط قليل ، وأنّ الناس يتفرّقون ويتمرّقون عن حافة الوسط في البرازخ المتعدّدة أنحاءً شتّى : منها ما يقرب إلى الوسط ، ومنها ما يبعد عنه على مراتب لا يمكن حصرها .

ويدخل تحت الحكمة ستّة[1] : **الذكاء** : وهو سرعة إنتاج القضايا وسهولة استخراجها لكثرة مزاولة المقدّمات وصيرورة ذلك ملكة . **وسرعة الفهم** : وهو حركة النفس من الملزومات إلى اللوازم بلا توقّف . **وصفاء الذهن** : وهو استعداد النفس لاستخراج المطالب بلا اضطراب . **وسهولة التعلم** : وهو أن تكون النفس حدّة في اكتساب المطالب بلا ممانعة الخواطر المتفرّقة بحيث تكون بكلّيّتها متوجّهة إليها . **والتحفظ** : وهو أن يكون صور الأمور المدركة بالعقل بقوّة التفكّر والتخيّل مستحصلة بأقلّ نظر . **والتذكر** : وهو أن تلاحظ النفس صور المحفوظ في أيّ وقت شاءت بسهولة من جهة الملكة المكتسبة .

ويدخل تحت الشجاعة : **كبر النفس** : وهو عدم المبالاة بالكرامة والهوان . **والنجدة** : وهي أن يكون الإنسان واثقاً بثبات نفسه عند الخوف من الجزع الموجب للحركات المضطربة . **وعلو الهمة** : وهو أن لا تكون النفس مستبشرة بالسعادة الدنيويّة ولا متضجّرة بها غير خائفة من الموت . **وثبات الهمة** : وهو أن تكون للإنسان قوّة مقاومة الآلام والشدائد . **والحلم** : وهو قوّة تمنع النفس عن الغضب بسهولة . **والسكوت** : وهو أن تكون النفس حريصة على اقتناء الأمور العظيمة لتوقّع الذكر الجميل . **والتحمل** : وهو أن تكون النفس قويّة على استعمال الآلات في اكتساب الأمور اللائقة . **والتواضع** : وهو أن لا تجعل لنفسك مرتبة على من هو دونك في الجاه علوّاً . **والحمية** : وهو أن يحافظ الإنسان على ما يجب محافظته من غير تهاون . **والرقة** : وهو أن تكون النفس متأثّرة من تألّم أبناء الجنس من غير اضطراب .

ويدخل تحت العفّة : **الحياء** : وهو تغيّر يحصل عند استشعار ارتكاب

---

(١) ترى تفصيل هذه الفضائل في طهارة الأعراق راجع .

القبيح احترازاً عن استحقاق المذمّة . **والرفق** : وهو انقياد النفس إلى الأمور الجاذبة على جهة الشرع . **وحسن الهدى** : وهو أن يكون للنفس في تكميل نفسها رغبة صادقة . **والمسالمة** : وهو أن يظهر المجاملة في النفس عند المنازعة في الآراء بلا اضطراب . **والدعة** : وهو أن يكون النفس ساكنة عند حركة الشهوة ، مالكة لزمام نفسها . **والصبر** : وهو مقاومة النفس للأمور الملذّة القبيحة حتّى لا تصدر عنه . **والقناعة** : وهو رضاء النفس بضروريّات البدن . **والوقار** : وهو كون النفس عند توجّهها إلى المطالب خالية عن الاضطراب . **والورع** : وهو أن تكون النفس ملازمة على الأفعال الجيّدة والأعمال اللّائقة . **والانتظام** : وهو أن يكون للنفس تقرير وترتيب بحسب الوجود ورعاية المصالح ويكون ذلك ملكة . **والحرمة** : وهو أن تتمكّن النفس من اكتساب المال من المكاسب الجميلة ويصرفها في الوجوه المحمودة . **والسخاء** : وهو إنفاق المال على وجه الأسهل ، وتحته الكرم وهو أن يسهل على النفس بذل ما يحتاج إليه عند ظهور الاستحقاق . **والعفو** : وهو أن يسهل على النفس ترك المكافأة . **والمروءة** : وهو أن تكون للنفس رغبة في التحلّي بزينة الإفادة وبذل ما لا بدّ منه . **والنبل** : وهو أن تكون النفس مبتهجة بملازمة السيرة الحسنة . **والمواساة** : وهي معاونة الأصحاب والمستحقّين في المعيشة والمال . **والمسامحة** : وهو ترك ما لا يجب تركه من طريق الاختيار وما يدخل تحت العدالة وتهذيب النفس وتحصيل الأجر . **والصداقة** : وهي محبّة صادقة تبعث على تهيّؤ أسباب فراغة الصديق . **والإلفة** : وهي معاونة بعض لبعض في تدبير المعيشة من جهة الاعتقاد في الصحبة، والوفاء في التزام طريق المواساة والمعاونة الغير المتجاوزة . **والشفقة** : أن يكون عند مشاهدة حال غير ملائمة بأحد تهتمّ بإزالة ذلك . **وصلة الرحم** : وهو أن تشرك الأقرباء والمتعلّقين في الخيرات الدنيويّة . **والمكافأة** : وهو أن يقابل الإحسان الّذي صنع به بمثله أو بأكثر منه . **وحسن الشركة** : وهو أن يكون الأخذ والعطاء في المعاملات على وجه الاعتدال الموافق . **وحسن القضاء** : وهو أن تكون الحقوق المتوجّبة عليه يؤدّيها على وجه لا يكون فيها منّة وندامة . **والتودد** : وهو طلب مودّة الأكفاء وأهل الفضل

بحسن النظر والقول . **والتسليم** : وهو أن يكون الفعل المتعلّق بالباري لا يعترض عليه . **والتوكل** : وهو أن تكون الأفعال المتعلّقة بالقدر والكفاية البشريّة يفوّضها إلى الله تعالىٰ بحيث يعلم أنّه المتصرّف فيها والفاعل ، ولا يطلب زيادة ولا نقصاناً ولا تعجيلاً ولا تأخيراً . **والعبادة** : وهو أن يكون الباري تعالىٰ معظّماً عنده في النفوس ممجّداً في القلوب ، وكذلك مقرّبي[1] الحضرة الإلٰهية كالأنبياء والأولياء والملائكة عليهم السلام وطاعتهم .

فهذه أنواع الفضائل الّتي ينبغي للطالب أن يحصّلها بأسرها ويضمّها إلى جميع المحاسن الّتي يهذّب بها نفسه ولا يتساهل في ترك شيء منها فيتساهل في المعاد والله المسؤول لنيل المراد والمأمول للوصول إلى طريق الرشاد .

وقيل[2] : الأدب أدبان : أدب النفس وأدب الدرس . فأدب النفس أشرف من أدب الدرس كشرف النفس على الجسد لأن أدب الدرس ينفع ولا يضرّ ؛ وأدب الدرس بلا أدب النفس فليس يكون عن عقل لكن عن تأديب يجري مجرى تأديب القرد والدبّ والفيل وما يجري مجراها من البهائم ، ولقد أجاد بعض أهل الحكمة في قوله : «اقدعوا هذه النفوس فإنّها ضلعة ، وحادثوها فإنّها سريعة الدثور» .

ويقرّر مع النفس أيضاً أن يحفظ عليها النعم الغير[3] المتناهية والذخائر والمواهب الّتي لا تعدّ ولا تحصى فلا يهمل ذلك بالكسل والتغافل والإغماض ويجاهد نفسه حقّ الجهاد ويعالج منها بعض ما فيها من الأمراض فإنّ الأمراض النفسانيّة أعظم من الأمراض البدنيّة وعلاجها أصعب من علاجها وأنفع وأجدى .

ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقد رجع عن بعض غزواته : «رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر»[4] وعنى بذلك جهاد النفس ، نسأل الله تعالىٰ

---

(١) الصواب : مقربو : بالرفع .
(٢) ذكره ابن منظور في اللسان مادة (أدب) .
(٣) الصواب ، غير المتناهية ، بحذف لام «الغير» ومثله قد مر وسيأتي مراراً .
(٤) ذكره الطريحي في مجمع البحرين مادة (جهد) وورام في مجموعته (١ : ٩٦) .

أن يوفّقنا لذلك إنّه كريم وهّاب .

وروي[1] عن كميل بن زياد ، قال : سألت مولانا أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام قال : قلت : يا أمير المؤمنين ! أُريد أن تعرّفني نفسي ، فقال : يا كُميل ! أيّ النفس تريد أن أعرّفك ؟ قلت : يا مولاي وهل هي إلاّ نفس واحدة ؟ فقال : يا كميل إنّها هي أربعة : النامية النباتيّة ، والحسّيّة الحيوانيّة ، والناطقة القدسيّة ، والملكيّة الإلٰهيّة[2] ، ولكلّ واحدة من هذه خمس قوى وخاصّيّتان .

فالنامية النباتيّة لها خمس قوى : ماسكة ، وجاذبة ، وهاضمة ، ودافعة ، ومربيّة . ولها خاصّيّتان : الزيادة والنقصان ، وانبعاثها من الكبد وهي أشبه الأشياء بأنفس الحيوان .

والحسّيّة الحيوانيّة لها خمس قوى : سمع ، وبصر ، وشمّ ، وذوق ولمس . ولها خاصّيّتان : الرضا والغضب . وانبعاثها من الكبد وهي أشبه الأشياء بأنفس السباع .

والناطقة القدسيّة لها خمس قوى : فكر ، وذكر ، وعلم ، وحلم ، ونباهة ، وليس لها انبعاث وهي أشبه الأشياء بأنفس الملائكة . ولها خاصّيّتان : النزاهة والحكمة .

والملكيّة الإلٰهيّة[3] ، لها خمس قوى : بقاء في فناء ، ونعيم في شقاء ، وعز في ذلّ ، وفقر في غناء ، وصبر في بلاء . ولها خاصّيّتان : الحلم ، والكرم ، وهذه الّتي مبدأها من الله تعالىٰ وإليه تعود لقوله تعالىٰ : ﴿**فنفخنا فيه من روحنا**﴾[4] وأمّا عودها فلقوله تعالىٰ : ﴿**يا أيّتها النفس المطمئنّة ارجعي إلى ربّك راضية مرضيّة**﴾[5] والعقل وسطاً لكيلا يعلم أحدكم شيئاً من الخير والشرّ

---

(١) رواه الطريحي مادة (نفس) بتفصيله .
(٢ و٣) في المجمع : الكلمة الإلٰهية ، في الموضعين .
(٤) سورة الأنبياء ؛ الآية : ٩١ ، سورة التحريم ؛ الآية : ١٢ .
(٥) سورة الفجر ؛ الآية : ٢٨ .

إلاَّ بقياس معقول .

وقال بعض البلغاء في الاهتمام بما هو الأهمّ من إصلاح أمر النفس على تقديم البدن وتقديم طبّها وعلاجها عليه : بأنَّ الإنسان إذا كان قد علم أنّه مركّب من شيئين : أحدهما أشرف وهو النفس والآخر أدنى وهو الجسم ، فاتّخذ للدنيء منها أطبّاء بعالجونه من أمراضه الّتي تعروه ، ويواظبون عليه بأقواته الّتي تغذوه ، ويتعاهدونه بأدويته الّتي تنقّيه ، وترك أن يفعل بالشيء الشريف مثل ذلك ، فقد أساء الاختيار عن بيّنة ، وأتى بالغلط عن بصيرة . وأطبّاء هذه النفس هم الأفاضل العلماء ، وأقواتها الغاذية هي الآداب المأخوذة عنهم وأدويتها المنقّية هي النواهي والمواعظ المسموعة منهم .

واعلم أنّ الإنسان إذا ادّعى معرفة الأشياء وهو لا يعرف نفسه ، فمثله مثل من يطعم الناس وهو جائع ، أو مثل من يكسو غيره وهو عريان ، أو كمثل من يداوي غيره وهو عليل أو كمثل من يهدي الناس طريقاً وهو لا يدري طريقه ، وقد علم أنّ هذه الأشياء ينبغي للإنسان أن يبتدىء فيها أوّلاً بنفسه ثم بغيره .

واعلموا أيّدكم الله ؛ أنّ اسم الإنسان هو واقع على هذا الجسد الّذي هو كالبيت المبنيّ ؛ وعلى هذه النفس الّتي هي كالساكنة فيه وهما كالجزءين له وهو جملتهما والمجموعة منهما ؛ ولكن أحد الجزئين الَّذي هو النفس أشرف وهو اللّبّ ، والآخر الّذي هو الجسد كالقشر . والإنسان الّذي هو جملتهما كالثمرة . ووجه آخر : أحدهما كالراكب وهو النفس والآخر كالمركوب وهو الجسد والإنسان الّذي هو جملتهما كالفارس . فمن أجل هذا يحتاج الإنسان في أن يعرف نفسه ، والشاهد في ذلك قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «من عرف نفسه فقد عرف ربّه» فحينئذٍ معرفة النفس واجبة على كلّ عاقل .

وحقيقة ذلك أن ينظر من وجوه ثلاثة :

أحدها : النظر في حال الجسد ما هو ، وكيف هو من تراكيب أجزائه ، وتأليف أعضائه ، وما الصفات المخصوصة به خِلواً من النفس .

والجهة الأُخرى : النظر في نفس الأمر المجرّدة من الجسد وقواها وما هي

وكيف هي وما الصفات المخصوصة بها .

والجهة الثالثة : بالنظر في مجموعهما ، وما يظهر من جملتهما من الأخلاق والأفعال والحركات والصنايع والأعمال والأصوات وما شاكل ذلك .

ونبتدىء أوّلاً فنذكر من حالات الجسد وصفاته شيئاً مختصراً كيما يكون ذلك دليلاً على أمر النفس وحالاتها ، لأنّ حالات الجسد ظاهرة مكشوفة جليّة مدركة بالحواسّ ، وأمّا أمر النفس وحالاتها وأمراضها وعلاماتها فغايبة عن إدراك الحواسّ ، وباطنة في عمق الجسد مستورة خفيّة ، وإنّما يدرك ذلك بالعقل .

واعلموا أيّدكم الله أنّ الشاهد من حالات الجسد يدلّ على الغائب من حالات النفس ، والظاهر المكشوف على المستور ، والجليّ على الخفيّ ، والمحسوس على المعقول ، فالجسد هو المؤلّف من اللحم والدم والعظام والعروق والعصب والجلد وما شاكلها ، وكلّ هذه أجسام أرضيّة ميّتة مظلمة ثقيلة متغيّرة فاسدة . فأمّا النفس ، فإنّها جوهرة سماويّة روحانيّة حيّة نورانيّة غير ثقيلة ، متحرّكة غير فاسدة ، علّامة درّاكة لصور الأشياءِ .

واعلموا أيّها الإخوان أيّدكم الله وإيّانا بروح منه ، أنّ الله سبحانه لمّا خلق جسد الإنسان وسوّاه ، ونفخ فيه من روحه وأحياه ، ثمّ أسكن فيه النفس وولّاها ، فكان مثال أساس بنية الجسد ، وتركيب أجزائه ، وتأليف أعضائه كمثل أساس بناءِ مدينة بنيت من أشياء مختلفة من حجارة ، ولبن ، وطين ، وآجرّ ، ونورة ، ورماد ، وخشب ، وجذوع ، وحديد وما شاكلها ، فأُحكمت بنيتها ، وشُيّد بنيانها ، وحُصّن سورها ، وقُسّمت محالّها ورُتّبت منازلها ، ومُلئت خزائنها ، وسُكنت دورها ، وسُلكت طُرقاتها ، وأُجريت أنهارها ، وفتحت أسواقها ، واشتغلت صنّاعها ، وقعدت تجّارها ، ودبّرها ملكها ، وخدمه أهلها ، وأسكنها أطبّاءها ، وأرسل إليها أنبياءها ليهدوا أنفس أهلها .

رُئي المسيح عليه السلام يخرج من بيت مومسة[1] فقالوا : يا روح الله ما

---

(١) بهامش الأصل : إسم امرأة فاحشة .

تصنع عند هذه ؟ فقال : إنّما يأتي الطبيب المرضى فسبيل الحازم الّذي يريد أن يستبدل بالشرّ خيراً ويستفيد مكان الرذيلة فضيلة ويقتني من الخطإ صواباً سبيل من أضلّ لؤلؤة ، فجمع ما حول مسقطها من التراب ، ثمّ التمسها حتّى وجدها ، فكذلك هذا يجمع وجوه الرأي في أمره ، ثمّ يضرب بعضه ببعض حتىٰ يخلص إلى رشده ، يوقظ بذلك نفسه كلّ يوم مراراً بالذكرى ، وإن عاقه عائق أن يكون ذلك متواصلة تترى ، فلا يقصّر فيها في وقتين من النهار صباحاً قبل الإشغال بالأعمال ، ورواحاً قبل الميل إلى المنام والجمام[1] . فيعدّل الميل ويقوّم الأود[2] ، ويصلح الفاسد وما دام الطبع في حدّ النشوء والنبات قبل أن يتأصّل ويستحكم ويستفحل فيصير داء لا مطمع في علاجه ، وباباً مُصمَتاً مرصداً لا سبيل إلى رتاجه .

وقال بعض الحكماء : لا ينبغي للعاقل أن يخلّي نفسه في كلّ يوم من أربعة أوقات ، فوقت منها يُناجي فيه ربّه ، ويشكر فضله ، ويحسن عبادته ، ووقت يحاسب فيه نفسه فإن وجد فيه فساداً أصلحه وإن رأى زيغاً قوّمه ، ووقت يكسب فيه لمعاشه الّذي يقيمه ويغنيه أن يكون عيالاً لمثله ، وكلّاً على صاحبه ، ووقت يخلّي فيه بين نفسه وبين حاجتها من غير محرّم ومعاب ويستعين به على سائر الأوقات .

وقال بعض الحكماء : كفّوا عزب أنفسكم ، فطال ما أهرجتموها في البطالات ، وشدَّ ما أمزجتموها في الخسارات ، والقلب إذا انغمس في بحر الشهوات لم يتّقد فيه أنوار الهدايات كالجسد إذا استحكم فيه الدّاء لم ينفعه بعد ذلك الدواء ، فردّوا تنفرة النفوس قبل استفحالها ، وأدملوا جروح الهوى قبل إعيائها وإعضالها ، وتعوّدوا الخير في حال اللّين من أعوادكم ، وإمكان التغيّر والنقل في معتادكم قبل أن يرسخ فيكم الشرّ على مرور الأزمان ، ويستمرّ بكم الفساد على المواظبة والإدمان ، يطاوعكم الكبر للعود على عود عاسي ، وخلق

---

(١) بكسر الجيم جمع الجم : الكثير من كل شيء .
(٢) الأود : الاعوجاج .

جاف جاسي[١] ، وطينة جامدة لم يبق فيها لدونة[٢] ، وقوّة هامدة ما بها على عمل معونة :

اختم وطينك رطب إن قدرت فكم قد أمكن الطين أقواماً فما ختموا[٣]
ولّوا فما رحموا أيّام عزّهم حتّى إذا عزلوا ذلّوا فما رُحموا

فهذا حدّ الأوقات الأربعة في طريق تهذيب الأخلاق . وقال البُحتريّ[٤] :

لم يبق من جلّ هذا الناس باقية ينالـه الوهم إلاّ هذه الصّور
لا يدهمنّك من دهمائهم عدد فإنّ كلّهم أو جلّهم بقر

وقال آخر :

خنازير ناموا عن المكرمات فأيقظهم قدَرٌ لم ينَم
فيا قبحهم في الّذي خُوّلوا ويا حسنهم بزوال النعم!

فلا شيء في هذا الباب كالمعاصي عن هوى ، وفي حال صبىً ؛ فإنّ الإنسان يستقبح عن غيره وينكرها منه غاية الإنكار ، ثمّ إذا تعاطاها بنفسه جاءه صباه بعذره ، وحدّثته نفسه بمغفرة الله له وعفوه عزّ وجلّ عنه ، ولغلبة هذا المعنى على النفوس بأسرها ما ذكر الشاعر هذه الآفة عامّة ولم يخصّ ، وأرسلها مطلقة ولم يقيّد فقال :

أرى كلّ إنسان يرى عيب غيره ويعمى عن العيب الّذي هو فيه
وما خير من يخفى عليه عيوبه ويبدو له العيب الّذي لأخيه

وفي بعض الخطب : استبينوا بعقولكم طريق الصلاح ، واستبصروا برأيكم وجه الفلاح ، فما أبين وجوه الهدى في النهى إن لم تصدأ[٥] بأنفاس

---

(١) عسا النبات يعسو : غلظ وصلب الجاسي من النبات ونحوه : اليابس .
(٢) أي رطوبة .
(٣) قوله «ختم» من ختم الإناء يختمه ـ بالفتح في الماضي والكسر في المستقبل ـ سده بالطين أو غيره .
(٤) انظر ديوانه (٢ : ٦٧٣) وروايته : ينالها الفهم .
(٥) صدأ الحديد : علاه الصدأ ، والصدأ ـ محركة ـ مادة لونها يأخذ من الحمرة والشقرة تتكون على وجه الحديد ونحوه بسبب رطوبة الهواء .

الهوى ! ومن لم يتأمّل الشيء بعين لبّه وقعت ذبابة اقتحامه في سوداء قلبه . ومن أطاع هواه فقد عصى رشده ، ومن وجد مُناه ضلَّ هداه وقصده ، ومن لم يتوخّ محامد الأمور سقط في مهالك الثبور ، وليس الخير إلَّا ما حمده المرء من سواه ، ولا الشرّ إلَّا ما ذمّه ممّن عداه ، فأمّا الّذي يعجبكم من أفاعيلكم فلا تثقوا فيه بأنفسكم حتّى تقدّروه واقعاً عن غيركم ، وكيف تصدّقكم أنفسكم عن سنن تبتكرها وتبيّن لكم جهات خيرها وشرّها ، ومع العقل الهوى والغضب يخالطانه ويغالطانه ، ويجاذبانه ويغالبانه ، ولا يدلو واحد باثنين ، ولا طاقة لمغمور بين الضدّين . فأمّا استقراء فعل الغير في الشرّ والخير ، فهو خالص عن شوب هوى النفس وأربها ، فارغ عن تواري غيظها وغضبها ؛ فتقبّلوا ما استحسنتم منه أو تقيلوا ، وما استهجنتم فاجتنبوه ولا تفعلوه .

وقد روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال : إنّما هو خير يرجى أو شرّ يتّقى ، وباطل عرّف فاجتنب ، وخير تيقّن وطُلب ، وآخرة أطلّ إقبالها فسعى لها ، ودنيا أزف نفادها فأعرض عنها ، أيّها الناس إنّ الأشياء ثلاثة : أمر استبان رشده فاتّبعوه ، وأمر استبان غيّه فاجتنبوه ، وأمر اختلف عليكم فردّوه إلى الله ، أيّها الناس إنّ ما رآه المسلمون حسناً فهو عند الله حسن[1] وما رآه المسلمون سيّئاً فهو عند الله سيّىء .

قال الغزاليّ : فهذا هو المذهب الأتمّ والسبيل الأقوم في استحسان ما استحسنه المسلمون والإقتداء بهم إذا كان ذلك مأموناً من ميل هوى ، وزيغ دواعي الطبع على ما ذكرناه مراراً ، على أنّ لشدّة جواز الخطإ على الإنسان من قبل هواه وكذب النفس فيما يعلمه ويهواه ما كان من مذهب كثير من ذي الرأي والدهاء ، تحرّى رأياً من الآراء ثمّ تنكّبه إلى ضدّه وردّه إلى عكسه ، كما حدّث أبو الفتح البستيّ قال : كنت خارجاً إلى السلطان الماضي عين الدولة بظاهر بلدة نيشابور ، فاستقبلني الراعي العلويّ في بعض الطريق وبيننا مخاضة وكان في

---

(١) بهامش الأصل : قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «إن ما رآه المسلمون حسناً الخ» يعني أكثر المسلمين لا من قل منهم فإن القليل غالباً لا يخلو من الزيغ والضلال والله أعلم بحقيقة الحال . منه .

فصل الربيع ، فلمّا بصر بي خاض تلك المخاضة حتّى حصل في الجانب الّذي كنت فيه منها ، ثمّ أخذ يسألني عن حالي وما أتصرّف عليه في أشغالي وأنا أفاوضه في كلّ فنّ من أمرنا وشأننا ، فقال لي : إنّني إذا استقبلني أمر أشكل عليّ وجه الصواب فيه لم أزل أقلّب الرأي ظهراً لبطن وأفكّر في تبيّن صورة الصلاح ، وسفور وجه النجاح ، فإذا تبيّن لي ذلك خالفته إلى ضدّه فجاءني الأمر كما أريد ، فقلت : وأنا بهذا الحال ولي في ذلك أبيات من قصيدة قلتها :

وإن هممت بأمر ولم تطق تخريجه
فقس قياساً صحيحاً واحكم بضدّ النتيجه

انتهى[1] .

قلت : هذه تعليلات لا فائدة فيها فإنّا رأينا من أهل زماننا هذا يستحسنون القبيح ويستمرّون على فعله زماناً طويلاً حتّى يزول قبحه ، وسبب ذلك ميل النفس إلى الظلم وزيغ الطبع عن الحقّ واتّباع الهوى واختلاف الآراء ، والمثل المشهور[2] : «حبّك للشيء يُعمي ويُصمّ» ومتى أحبّ الإنسان أفعاله القبيحة

---

(١) انظر إحياء العلوم والبستي الذي ذكره الغزالي هو علي بن محمد بن الحسين بن يوسف ، الشاعر المشهور صاحب الطريقة الأنيقة والتجنيس الأنيس ، وكان في عنفوان أمره كاتباً لبايتوز صاحب بست ولما افتتحها ناصر الدين سبكتكين استحضره وفوض إليه مهمات ديوانه ، ثم بقي يكتب عند يمين الدولة محمود بن سبكتكين إلى أن زحزحه القضاء عن خدمته ونبذه إلى ديار الترك فانتقل بها إلى جوار ربه . وله نثر رائق بديع وفصول قصار تجري مجرى الأمثال أشهر قصائده نونيته التي يقول فيها :

زيادة المرء في دنياه نقصان وربحه غير محض الخير خسران
أقبل على النفس واستكمل فضائلها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان
من استعان بغير الله في طلب فإن ناصره عجز وخذلان
أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطال ما استعبد الإنسان إحسان

وهي قصيدة تربو على خمسين بيتاً أوردها الأب شيخو (٤ : ٩٤ ـ ٩٧) ولد البستي سنة ٣٣٩ وتوفي ٤٠٠ هـ انظر وفيات الأعيان (٣ : ٥٨ ، برقم ٤٤٣) ومجاني الأدب (٦ : ٣٠٦) .

(٢) انظر مجمع الأمثال للميداني (١ : ٢٠٥) .

صارت في نظره حسنة مقبولة لا يمكنه العدول عنها ، فإذا رآها من هو في رتبته من الجهل والعمى اقتدى به وفعل مثلها، وهكذا يتسلسل الأمر من واحد إلى آخر حتّى يشتهر ، وتصير تلك البدعة من جملة المستحسنات بل من العبادات المستحبّات كالغناء وسماع المطربات ، كما ذكره ونصّ عليه في كتابه عبد السلام[1] ، وهو كتاب موسم بحلّ الرموز ومفاتيح الكنوز ، بعد أن نقل الأخبار الموضوعة في تجويز الغناء ، فقال :

وقد ثبت النصوص بالغناء في بيته ـ أي بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ـ وضرب الدفّ في حضرته ورقص الحبوش في مسجده ، وإنشاد الشعر بالأصوات الطيّبة بين يديه ، فلا يجوز أن نقول بتحريم الغناء واستماعه على الإطلاق ، بل يختلف ذلك باختلاف الأحوال والأشخاص وأرباب الرياء والإخلاص .

وقال في الكتاب المذكور :

اعلم أنّه تحتّم هٰهنا ، ووجب ذكر السماع ، وما هو منه محظور ، وما هو منه مباح ، وما هو مستحبّ مستحسن ، فإنّ كثيراً من المتعمّقين والمتقشّفين[2] كرهوه وأنكروه أصلاً وفرعاً وحقيقة وشرعاً ، وهذا غلط منهم ، لأنّ ذلك يفضي إلى تخطئة كثير من أولياء الله ، وتفسيق كثير من العلماء ، إذ لا خلاف أنّهم سمعوا وتواجدوا وأفضى بهم إلى الصُراخ والغشية والصعق ، فكيف ينسب إليهم نقص وهم سالكو أتمّ الأحوال ؟ قال أبو طالب المكّيّ[3] : إن طعنّا على السماع فقد طعنّا على سبعين صدّيقاً وقال أبو القاسم الجنيد[4] : السماع لا يُحدث في

---

(١) هو عبد السلام بن غانم المقدسي الشافعي المتوفي سنة ٩٧٨ هـ واسم كتابه «حل الرموز وكشف الكنوز» في التصوف . انظر كشف الظنون ط استنبول (١ : ٦٨٦) .

(٢) بهامش الأصل : التقشف : لبس الثياب الخلقة المرقعة ، المتقشف : الذي يتبلغ بالقوت وبالمرقع .

(٣) هو محمد بن علي بن عطية الحارثي ، واعظ فقيه ، اشتهر بمكة ورحل إلى بغداد فتوفي فيها سنة ٣٨٦ هـ وله كتاب «قوت القلوب» في التصوف ، مجلدان و«علم القلوب» . وفيات الأعيان (٣ : ٤٣٠ برقم ٦٠٢) قاموس الأعلام : ٩٤٤ .

(٤) هو الجنيد بن محمد الخزاز ، أصله من نهاوند ومولده ومنشأه العراق ، قال ابن الأثير : إمام الدنيا في زمانه ، وعده العلماء شيخ مذهب التصوف لضبط مذهبه بقواعد الكتاب =

القلب شيئاً ، وإنّما هو مهيّجٌ ما فيه ، فتراهم يهيجون من حيث وجدهم ، وينقُطون من حيث قصدهم ، ويتواجدون من حيث كامنات سرائرهم لا من حيث قول الشاعر ومراد القائل ، ولا يلتفتون إلى الألفاظ ؛ لأنّ الفهم يبادر إلى ما يتخيّله الذهن . وشاهد ذلك ما حكي أنّ أبا حلمان الصوفيّ سمع رجلاً ينادي : يا سعتر برّي ! فسقط وغشي عليه ، فلمّا أفاق قيل له في ذلك ، فقال : سمعته : إسع ترى برّي . ألا ترى أنّ وجده وحركته من حيث ما هو فيه من وقته لا من حيث قول القائل وقصده . كما روي عن بعض الشيوخ أنّه سمع قائلاً يقول : الخيار عشرة بحبّة ، فغلبه الوجد ، فسئل عن ذلك فقال : إذا كان الخيار[1] عشرة بحبّة ، فما قيمة الأشرار ؟ والذي سمعته من بعض هؤلاء الصوفيّة ، أنّ رجلاً منهم قال لي عند دقّ النقّارات ، والنفخ في البوقات ، والنفير في الأسحار وأواخر النهار : إنّ هذه ليست بملاهي ، وإنّما هي في نفس الأمر عبادات وأذكار مشغولة بذكر الباري سبحانه وتعالىٰ .

فهذه التعليلات وأمثالها لا تجدي نفعاً ولا تقبل عقلاً ولا شرعاً ، وإنّما هي من الموبقات والمناهي المحرّمات . وذكر عبد السّلام في كتابه المذكور غير ذلك ، مثل استشهاده على تجويز الغناء والسماع بما رآه بعضهم من المنامات ، فكيف يحلّ لمسلم أن يترك العبادات المستحبّة بل الواجبة أيضاً ويشتغل بمثل هذه المستحسنات ؟ .

وأمّا أهل الدين ، فمذهبهم أنّها تجرّ الأنفس إلى الكفر والزندقة ، ومنشأ هذا حصل من مخترعات العامّة وتلبيساتهم لأُمور لم يحتملها هذا المختصر ، فالمرجوّ من الخاصّة أن يتّبعوا أقوال أئمّتهم الطاهرين عليهم السلام وأفعالهم الّتي لا يشوبها زيغ ، وهم ـ صلوات الله عليهم ـ أمرونا بضدّ ما نفعله ؛ فإنّه الحقّ

والسنة ، ولكونه مصوناً من العقائد الذميمة ، محميّ الأساس من شبه الغلاة ، سالماً من كل ما يوجب اعتراض الشرع . توفي ببغداد ٢٩٧ هـ انظر كامل التواريخ لابن الأثير حوادث تلك السنة ، ووفيات الأعيان (١ : ٣٢٣ برقم ١٤٠) وشرح المجاني : ٣١٠ وقاموس الأعلام : ١٩٥ .

(١) الخيار هذا جمع الخير ، وما سبق مفرد ، وهو ثمر كالقثاء .

والصواب ويترقّب عليه جزيل الثواب ، وكلّها يعجب النفس وتستحسنه فلا فائدة فيه فينبغي أن يخالفه إلى ضدّه .

ومن هذا قول الأحنف بن قيس[1] : «كفى بالرجل رأياً إذا اجتمع عليه أمران فلم يدر في أيّهما الصواب ، أن ينظر أعجبهما إليه وأغلبهما عليه فيحذره» وكما أنّ مخالفة ما يعجب المرء من الأمرين ، قد غلبته عليه نفسه من الرأيين طريق في استنباط الصواب واستثارة الحقّ ، استشارة ذي الجهل والأفن[2] في الرأي ليخالف ما يشير به إلى ضدّه أيضاً طريقٌ قريبٌ .

وقد جاء به الشرع ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[3] : «شاوروهنّ وخالفوهنّ» وذلك لفتنة أدوائهنّ وضعف عقولهنّ وميل الهوى بهنّ إلى ما هو غير الرشد فعلاً والسداد قولاً .

وقال بوزرجمهر : إذا اشتبه عليك أمران فانظر أحبّهما إلى نفسك فاجتنبه ، وإذا أعياك فشاور امرأة وخالفها .

ولمّا وقعت الفتنة بالبصرة أيّام ابن الزبير ، مرّ أبو الأسود الدؤليّ[4] على مجلس بني قشير ، فقال : على ماذا اجتمع رأيكم في هذه السنة ؟ قالوا : ولِمَ

---

(١) أبو فخر ، الضحاك بن قيس التميمي . لقب بالأحنف لأنه كان يمشي على ظاهر رجله ، وهو من كبار التابعين ، معروفاً بحصانة العقل ، يضرب المثل بحلمه . شهد مع علي عليه السلام وقعة صفين ، وله مع معاوية معاتبات توفي سنة ٦٧ هـ . ترى أحواله وأقواله في الوفيات (٢ : ١٨٦ برقم ٢٨٢) ومجمع الأمثال (١ : ٢٢٩ في : أحلم من الأحنف) ومتفرقات في الأغاني . وانظر المستطرف (٢ : ٨) ومجاني الأدب (٥ : ٦٤) وشرحه ٢٥ ـ ٢٦ .

(٢) أفن يأفن ـ من باب علم يعلم ـ ضعف رأيه ، فهو أفين ومأفون ، ولم يستعمل منه «أفن» .

(٣) وانظر المستطرف (١ : ٧٤) وربيع الأبرار للزمخشري باب مشاورة النساء .

(٤) ظالم بن عمرو بن سفيان الكناني ـ وفي اسمه ونسبه خلاف ـ واضع علم النحو والنقط في القرآن ، كان معدوداً من الفقهاء والأمراء والفرسان ، رسم له علي عليه السلام شيئاً من أصول النحو فكتب فيه أبو الأسود ، سكن البصرة وولي إمارتها [١٦ ق هـ ـ ٦٩ هـ] الأغاني (١١ : ١٠١) الإصابة (٢ : ٢٣٢) معجم المرزباني ٢٤٠ خزانة الأدب (١ : ١٣٦) قاموس الأعلام ٤٥٤ .

تسألنا يا أبا الأسود ؟ قال : لأُخالفه فإنّ الله لا يجمعكم على هدىً[1] . وأُنشد في هذا المعنى :

إذا اشتبه الأمران يوماً وأشكلا ... عليّ ، ولم أعرف صواباً ولم أدر
سألت أبا بكر خليل محمّد ... فقلت له : ما تستحبّ من الأمر؟
فإن قال قولاً ، قلت شيئاً خلافه ... لأنّ خلاف الحقّ قول أبي بكر

ولمّا كان الإنسان قد يغالط غير نفس أيضاً ، إمّا بسبب حبّ ومِقة[2] أو بغض ومقت ، كما قيل :

وإذا كرهتُ فتىً كرهت لقاءه ... وإذا سمعت كلامه لم أطرب

وقال آخر[3] :

فعين الرضا عن كلّ عيب كليلة ... ولكنّ عين السخط تُبدي المساويا

وقال آخر :

وعين السخط تُبصر كلَّ عيب ... كذا عين الرضا عن ذاك تُعمي

وقال آخر :

ويقبح من سواك الفعلُ عندي ... وتفعله فيحسن منك ذاكا

وقال آخر :

ويحسن دَلّها والموت فيه ... كما يستحسن السيف الصقيل

وكان الشبليّ[4] ينشد :

---

(١) وذلك أن بني قشير كانوا أنصار عثمان ، وكانوا يسيئون إلى أبي الأسود ، وله معهم خبر وشعر أورده أبو الفرج في الأغاني (١١ : ١١٢ ـ ١١٣) .

(٢) مصدر قولك : ومقه يمقه ـ بكسر العين فيهما ـ أحبه ، وفي الأصل مشكولاً بفتح الواو وسكون الميم ، وبهامشه «الومقة الرؤية المستحسنة» وهو عجيب !

(٣) البيت عند النراقي (١ : ٢٨٤) بلا عزو .

(٤) أبو بكر دلف بن جحدر الشبلي ـ منسوباً إلى شبلة ، بلدة عظيمة وراء سمرقند ـ صوفي ناسك بغدادي ، كان في مبدء أمره والياً في دنباوند ـ من نواحي رستاق الري المعروف =

ذاب مـمّـا بـفـؤادي بـدنـي — وفـؤادي ذاب مـمّـا فـي الـبـدن
زاد مـن فـرط نـحـولـي حـزنـي — ونـحـولي زاد فـي فـرط الـحـزن
شـجـنـي هـيّـج لـلعـيـن الـبـكـا — والـبـكـا هـيّـج للعـيـن الـشـجـن
فـاقـطعـوا حبلي وإن شئتم صِـلوا — كـلّ شيء منكم عـنـدي حسـن .

واعلم أنّ السبب الباعث على ميل الإنسان إلى اعتبار هذا الحال وانجذابه إلى مثل هذه الأغلاط هو ميله إلى الشهوة والمحبّة المركوزة في جبلّته فيخيّل لـه الشرّ على أنّه خيـر والجور على أنّـه عدل ، والخـطأ على أنّه صـواب ، والهوان على أنّه حلم ، والبخل على أنّه حزم ، والاقتحام على هلاك النفس أنّه نجدة ، والجُبن على أنّه تقيّة . ألا ترى كيف يخيّل للشاعر الحقد عقلاً وفضلاً فقال :

ومـا الـحقـد إلاّ تـوأم الـعقـل لـلفتـى — وبـعض الـسجـايـا ينتسبن إلـى بـعض
إذا الأرض أدّت ربـع مـا أنـت زارع — من الـبـذر فيها ، فهي نـاهيـك من أرض

وهو كما ظنّ آخر فقال :

الـحـلم عـجـز والـتـواضـع ذلّـة — عنـدي ، وبعض الجهـل حلو المُجتنى

وكما ظنّ ابن المعتزّ[1] البخل خيراً وفيه قال :

يـا ربّ جـود فـقـر امـرءاً — فقـام في النـاس مقـام الـذليـل

= اليوم بدماوند ـ ثم ترك الولاية في ٤٠ من عمره وعكف على العبادة وصار من شيوخ الصوفية ، وبالغ في التقشف حتى إنه يكحل عينيه بالملح لكي لا ينام ! ولد ٢٤٧ وتوفي ٣٣٤ هـ . وفيات الأعيان (٢ : ٣٩ برقم ٢١٥) وقاموس الأعلام : ٣١١ .

(١) هو المرتضي بالله عبد الله بن محمد المعتز بالله العباسي ، الشاعر المبدع ولد في بغداد وأخذ الأدب عن المبرد وثعلب واشتغل بالتأليف والتصنيف ، جاءته النكبة من حيث يسعد الناس ، أقبل عليه القواد واصطفوه بالخلافة وخلعوا المقتدر بالله ، فلم يمض عليه أكثر من يوم أن وثب عليه غلمان المقتدر ، فعاد المقتدر وقبض عليه وسلمه إلى خادم له فخنقه ، ولد سنة ٢٤٧ وتوفي سنة ٢٩٦ الأغاني (٩ ؛ ١٣٥) وفيات الأعيان (٢ : ٢٦٣ ، برقم ٣١٤) قاموس الأعلام : ٥٧٨ ومن أحسن ما قال (ديوانه : ٣٣٣) :

خـل الذنوب صغيرها وكبيرهـا فهو التقى — واصنع كماش فوق أرض الشوك يحذر ما يـرى
لا تـحقـرن صـغيـرة ان الـجبـال مـن الـحصـى

فاشدد عرى ما كلّ واسعته   فالبخل خير من سؤال البخيل

واعلم أنّ المنهج الواضح والطريق الجدد الشاعر نحو تهذيب الأخلاق ، هو الاعتماد على أهل الدين والعلماء الراسخين ، الّذين اجتمعت الكلمة فيهم على الصدق وثقابة[1] المعرفة وردع النفس وصرامة[2] الرأي والبعد عن الملق ومحبّة الإكثار ، وعن غشيان الأكابر ومنادمة ذوي اليَسار ، فإنّ المبتلى بهم لا تخلص نصيحته ولا أمانته ؛ إمّا رهبة من الأقرناء أو رغبة في الأغنياء . فإذا ظفرت بواحد ممّن له هذه الشمم والشمائل وهذه الأخلاق والجلائل ، وعرفته مقتصداً في المعيشة ، قانعاً بكفاية الحال ، وترجية الوقت ومدافعة الأيّام تاركاً للفضول ، صادقه ثمّ فاوضه في شأنك والإصطناع لك لله والإحسان إليك بتفقّد أُمورك وإنقاذ روحك من أمراضها الموبية[3] وآلامها المُردية ، طالباً ذلك منه بأبلغ الجوار وأشدّ التضرّع والإنكسار ، وبالغ في السؤال على أوفى الإكرام والإجلال ثمّ إذا أفضى لك الإقبال إلى قبوله ومقابلته إيّاك بما فيك من عيب ونقص فإيّاك والامتعاض[4] لذلك والمحاجّة والاعتذار ، بل الإستفادة في نفسك والشكر له على ما أنعم عليك والسرور له سرور المحبّ بحبيبه ، والإكرام له إكرام المريض لطبيبه :

إنّ المعلّم والطبيب كليهما   لا ينصحان إذا هما لم يكرما

فاصبر لدائك إن جفوت طبيبه   واقنع بجهلك إن جفوت معلّما

وما أحسن ما قال أبو الأسود في تحيكم اللّبيب الودود[5] :

أمنت على الرأي امرءاً غير جازم   ولكنّه والنصح غير مريب

أشاع به في الناس حتّى كأنّه   بعلياء نار أوقدت بشبوب

---

(١) ثقب ـ بالضم ـ ثقابة : أشبه النار في شدة حمرته .

(٢) صرم ـ بالضم ـ السيف أو الرجل صرامة : كان صارماً أي ماضياً .

(٣) اسم فاعل أما من آباه الشيء : جعله يمتنع عنه ، وأما من أوبأ المكان ، والمؤبى منه : القليل من الماء أو المنقطع منه .

(٤) الإمتعاض : الإغتياظ .

(٥) الأبيات خمسة من الأغاني (١١ : ١٠٥) واثنان منها في المستطرف (١ : ٧٣) .

فمـا كـلّ ذي لبّ بمؤتيـك نُصحـه ... ومـا كـلّ مؤت نـصحـه بـلبيـب
ولكن إذا مـا استجمعـا عنـد واحـد ... فـحقّ لـه مـن طـاعـة بـنـصيـب

وفي وصيّة عبد الله بن شدّاد[1] بن الهاد ابنه : لا تصحبنّ إلاّ من تفقّدت موارده ومصادره فإن استطعت العِشرة ورضيت الخِبرة[2] فآخِه على إقالة العَثرة والمواساة في العُسرة وانتصح لنفسك في الانتفاع بعلمه والإقتداء بخُلقه ، وكن كما قال المقنّع الكنديّ [3] :

أبـل الـرجـال إذا أردت إخـاءهم ... وتـوسّـمنّ أُمـورهـم وتـفـقّـد[4]
فـإذا ظفـرت بـذي الأمـانـة والتقى ... فبـه اليـدين قـريـر عين فـاشـدد[5]
فـمتـى يـزلّ ـ ولا محـالـة زلّـة ـ ... حلّي أخيـك بفضـل حمـدك فـازدد

وأُنـشـد :

نصـح الألبّـاء يجلو قلب صـاحبهم ... كمـا يجلّي سـوادَ الـظلمـة القمـرُ
وليس ذو العلم بـالجُلّى كجاهلهـا ... ولا البصيـر كـأعمى مـا لـه بصـر[6]
لا ينفـع العلم قلبـاً قـاسيـاً أبـداً ... وهـل يلين لقـول الـواعظ الحجـر؟

واعلم بأنّ الّذي ذكرناه إنّما هو طريق سياسة العقلاء والخواصّ من الناس في تهذيب أخلاقهم وأحوالهم ، فأمّا العوامّ الّذين لا خلاق لهم ولا موقع للقول النافع عندهم فطريق تهذيب أخلاقم وإصلاح أنفسهم غير هذه الطرق .

وقد قال بعض حكماء الملوك : الناس ثلاث طبقات تسوسهم ثلاث

---

(١) لعله المؤرخ الرحالة ، طاف بلاد الشام وجزيرة العرب ، وصنف رحلة سماها «الأعلاق الخطيرة» انظر قاموس الأعلام : ٥٥٩ .
(٢) خبر الشيء يخبره ـ بالفتح في الماضي والضم في المستقبل ـ خبرة : علمه عن تجربة .
(٣) هو محمد بن عمير ، من بني كندة ، شاعر مقل من شعراء الدولة الأموية ، كان من أجمل الناس وجهاً وأمدهم قامة ، فكان إذا كشف عن وجهه أصيب بالعين ، فكان يتقنع دهره ، فسمي المقنع ترى أحواله وأشعاره في الشعراء (٢ : ٧١٥) والأغاني (١٥ : ١٥١) واللآلیء (١ : ٦١٥) وشواهد المغني : ١٢٨ .
(٤) «أبل» أمر من أبلاه بمعنى اختبره . توسم الشيء : تعرفه وتفرسه .
(٥) قوله «فبه» متعلق بقوله «فاشدد» و «اليدين» مفعوله .
(٦) الجلى مؤنث الأجل : الأمور العظيمة .

سياسات : طبقة من خاصّة الأبرار يسوسهم القول المثبت الرشيد على رشده ، الصارف بالمخطىء عن خطئه ، وطبقة من خاصّة الأشرار يسوسهم الفعل الناكل والعنف المستأصل ، وطبقة هم العامّة يسوسهم مرّة هذا ومرّة ذاك لئلّا يخرجهم غِلظة الفعل بلا إبقاء ، ولا يخرجهم لين القول بلا إرهاب . إذا عرفت ذلك : فينبغي لكلّ مؤمن أن يمرّن نفسه على مكارم الأخلاق[1] .

---

(١) بهامش الأصل بخط المؤلف ـ رحمه الله ـ : «اعلم أن أحوج الناس إلى الإقتباس من العلماء وتوكيل أمرهم إلى الحكماء الملوك ، لتمكنهم من تنفيذ هواهم كما شاءوا واقتدارهم على الإنتقام ممن غضبوه .

وفي وصية كسرى إلى الهرمزان : أما بعد فإنه لو كان الملوك يعرفون من حاجتهم إلى ذوي الرأي مثل الذي يعرف أهل الرأي من حاجتهم إلى الملوك لم يكن عجباً أن ترى مواكب الملوك على أبواب العلماء كما ترى مواكب العلماء على أبواب الملوك ، ولذلك قال الأولون : إذا أراد الله بأمة خيراً جعل الملك في علمائهم والعلم في ملوكهم ، يكاد الملك أن يكون غنياً عن كل شيء إذا كان حكيمها إلا عن شيء واحد : عن نصيح عاقل يسلطه على أمره ويردعه عن فلتات الرأي ونزوات الغضب .

وفي مجامع السياسة : ينبغي للملك أن يجالس العلماء ويباسط الحكماء حتى إن أصاب في أفعاله حمدوه عليها ، وإن أخطأ عرفوه وجه الخطأ وأرشدوه إلى الصواب فيها ، وأضر الأشياء إلى الملك أن يقرب منه واحداً ممن له خلق سخيف أو سيرة مذمومة فالرذائل كالأمراض المعدية وأنشد بعض الشعراء :

لا تصبحن ما عشت أنوك فاسداً	كم صالح بفساد آخر يفسد
عدوى البليد إلى الجليس سريعة	والنار تدفن في الرماد فتخمد

وفي أشعار الفرس :

بـأبدان كم نشين كه صحبت بد	كرچه پاكى ترا پليد كند
آفتاب ارچه بس بزرك اورا	پارهٔ ابر ناپديد كند

وفيها : الملك إنسان وكل إنسان لا يخلو عن عيب قد خفي عليه لمداراته نفسه بسبب هواه ، وأصدق الناس للملك محبة من أراه عيوبه وليس يحتمل الملك ذلك إلا إذا كان فاضلاً ومحباً لأن يزيد في فضائله .

وكان الإسكندر يقول : انتفع بأعدائي فيما لم ينتفع بأصدقائي لأن أعدائي كانوا يعيرونني بالخطإ وينبهونني عليه ، وكان أصدقائي يزينون لي دخلي فأصونه وأسكن إليه .

وسئل أردشير عن سبب اختصاصه رجلاً من أصحابه فقال :لموافقته لنا على زلاتنا وإزالته بذلك العيب في الدنيا والآخرة عنا .

هذه سيرة عقلاء الملوك في زمانهم المتقدم ، وزماننا هذا زمان مجانين الملوك والناس تبع =

واعلم بأنّ الله سبحانه إذا أحبّ خلقاً أهوى إليه خُلقاً من أخلاقه ، وإذا رحم الله عبداً أذن له في عمل من أعمال طاعته ؛ فهذه ثمرة الرّحمة ، وتلك ثمرة المحبّة ، وهذه غاية العصمة ، وتلك غاية الحكمة من التشبّه بالأفعال الإلٰهيّة بأقصى الطاقة الإنسانيّة .

وعن عليّ عليه السلام أنّه قال : لو كنّا لا نرجو جنّة ولا نخشى ناراً ولا ثواباً ولا عقاباً لكان ينبغي لنا أن نطالب بمكارم الأخلاق فإنّها ممّا تدلّ على سبل النجاح ، فقال رجل : فداك أبي وأُمّي يا أمير المؤمنين سمعته من رسول الله ؟ قال ؛ نعم وما هو خير منه : لمّا أتانا سبايا طيىء فإذا فيها جارية حمّاء[1] حوّاء لعساء لمياء عيطاء ، صَلت الجبين ، لطيفة العرنين ، مسنونة الخدّين ، مقرونة الحاجبين ، لمياء الكعبين ، خدلّجة الساقين[2] لفّاء الفخذين ، خميصة الخصرين[3] ، ممكورة الكشحين ، مصقولة المتنين ، فأعجبتني وقلت : لأطلبنّ من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يجعلها في فيئي[4] . فلمّا تكلّمتْ نسيتُ ما

= لملوكهم ، فإن أردنا تأديب أولادنا لا يقلبوا منا نصيحة فضلاً عن حكام الجور ، نسأل الله إصلاح الأعمال وإنجاح الأقوال إنه هو الكبير المتعال .

(١) الحماء مؤنث الأحم ، وهو من الأضداد بمعنى الأبيض والأسود والحواء مؤنث الأحوى : حمرة مائلة إلى السواد أو سواد إلى الخضرة . واللعس : سواد مستحسن في الشفتين ، ولمياء قريبة منها معنى . والعيطاء : طويلة العنق . صلت الجبين : واضحه . العرنين : الأنف . رجل مسنون الوجه : مخروطه ، أو رجل في وجهه وأنفه طول . الخدلج الساق : ممتلؤه . اللفاء مؤنّث الألف : من كثر لحم فخذه . الخصر : وسط الإنسان . ممكورة الكشحين : مستديرة ما بين سرتها إلى وسط ظهرها أو حسنة . المتنين : ما يكتنف الصلب عن يمين وشمال من لحم وعصب .

(٢) في الأصل : «مدلجة الساقين» وهو سهو ، قال حطم القيسي (اللآلي ٢ : ٧٢٩) :

بات يقاسيها غلام كالزلم   خدلج الساقين خفاق القدم

(٣) بهامش الأصل بخط المؤلف : «الخنضرين . خ كذا وجدت» .

(٤) ويظهر من ابن هشام ما يخالفه ، وأن أمير المؤمنين عليه السلام لم يكن يرغب فيها بل كان يحثها على إظهار أمرها وطلب خلاصها ، وهاك نص ابن هشام في السيرة (٢ : ٥٧٩) : فجعلت بنت حاتم في حظيرة بباب المسجد ، كانت السبايا يحبسن فيها ، فمر بها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فقامت إليه ـ وكانت امرأة جزلة ـ فقالت : يا رسول الله ! هلك الوالد وغاب الوافد فامنن عليّ منّ الله عليك . قال : ومن وافدك ؟ قالت : عدي بن =

راعني من جمالها من فصاحتها ، وعذوبة عبلاتها[1] ، فقالت : يا محمّد إن رأيت أن تخلّي عنّي ولا تُشمت بي أحياء[2] العرب ، فإنّي ابنةُ سرّة[3] قومي ؛ كان أبي يفكّ العاني ، ويعطي الغاني[4] ويحمي الذمار[5] ويقري الضيف ويشبع الجائع ويُكسّب المُعدِم[6] ويفرّج عن المكروب ، أنا ابنة حاتم طيّء ، فقال : خلّوا عنها فإنّ أباها كان يحبّ مكارم الأخلاق ، والله يحبّ مكارم الأخلاق ، فقام أبو بردة فقال : يا رسول الله ! الله يحبّ مكارم الأخلاق ؟ فقال : يا أبا بردة لا يدخل الجنّة أحدٌ إلاّ بحسن الخلق .

وممّا جاء في مكارم الأخلاق من بني هاشم الّذين هم كما قال الجاحظ[7] : ملح الأرض ، وسنام العالم ، وصفوة الأمم ، وعزّة العرب ، ولباب البشر ، ومُصاص بني آدم[8] وزينة الدنيا ، وحلية الدهر ، والطينة البيضاء ، والمغرس المبارك ، والنصاب الوثيق ، ومعدن المكارم ، وينبوع الفضائل ، وأعلام العلم ، وأيمان الإيمان .

قول عليّ عليه السلام : للحسنين عليهما السلام [9] : إنّ أشرف الأفعال وأكرم الأخلاق

= حاتم قال : الفار من الله ورسوله ؟ قالت : ثم مضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وتركني ، حتى إذا كان من الغد مر بي فقلت له مثل ذلك ، وقال لي مثل ما قال بالأمس . قالت : حتى إذا كان بعد الغد مر بي وقد يئست منه ، فأشار إليّ رجل من خلفه : أن قومي فكلميه ، قالت : فقمت إليه ، فقلت : يا رسول الله ! هلك الوالد وغاب الوافد ، فامنن عليّ منّ الله عليك ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : قد فعلت فلا تعجلي بخروج حتى تجدي من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك ثم آذنيني ، فسألت عن الرجل الذي أشار إليّ أن أكلمه ، فقيل : عليّ بن أبي طالب . ثم ذكر خبر رجعتها وقدوم أخيها عدي .

(١) جمع عبلة مؤنث العبل : الورق الساقط من الشجر . كنى بها عن كلماتها .

(٢) جمع الحي : القبيلة والطائفة .

(٣) سرة الوادي : وسطه ، أو أفضل مواضعه .

(٤) العاني : الأسير ، والغاني : المقيم في بلد ، وفي الأصل : «الغافي» وهو غلط .

(٥) الذمار : ما يلزمك حفظه وحمايته والدفع عنه .

(٦) المعدم : من افتقر . وفي الأصل : «المعدوم» وهو سهو .

(٧) في كتابه الحيوان (٤ : ١٤٠ ، ٦ : ٧٢) .

(٨) لباب الشيء : مختاره ومصاص القوم أخلصهم نسباً .

(٩) هذا مما أوصى به أهله وولده ، وليس فيه من كلمة «مكارم الأخلاق» ذكر ونحن نورد =

تقوى الله فاتّقياه ، والعزوف عن الهوى فلا تتّعباه ، والدنيا فلا تبغياها وإن بغتكما ، ولا تأسفا على شيء يزوى عنكما ، قولا بالحقّ ، وارحما اليتيم ، وأعينا الضعيف ، وأنظرا المعسر واصنعا للأجر ، وكونا للظالم خصماً ، وللمظلوم عوناً ، تحرزا مكارم الأخلاق .

وقال ﷺ : وقد سئل عن أكرم الأفعال وأحسن الأخلاق : احفظوا عنّي خمساً لو حثثتم المطيّ في طلبها[1] كان يسيراً : ألا لا يرجونّ أحد إلاّ ربّه ، ولا يخاف إلاّ ذنبه ، ولا يستحيي الّذي لا يعلم أن يتعلّم ، ولا يستحيي الّذي لا يعلم أن يقول : «لا أعلم» ولينزّل كلّ أحد الصبر من إيمانه بمنزلة الرأس من الجسد .

وعنه ﷺ : الإنسان عقله دينه ، وكرمه خلقه ، ومروءته حيث يجعل نفسه ، الرزق والأيّام دُوَلٌ والناس من رجل[2] وإنّما الفضل بالأخلاق .

وقال كميل بن زياد النخعيّ : قبض على يدي عليّ ﷺ فقال : قل يا نخعيّ لأهلك يروحوا في كسب المكارم ويدلجوا في حاجة من هو نائم ، فوالّذي وسع سمعه الأصوات ما من أحد أودع قلباً سروراً إلاّ خلق الله من ذلك السرور شخصاً ، فإذا نزلت به نائبة جرى إليها كالماء في انحداره والنجم في انكداره ، وطردها عنه كما يطرد غريبة الإبل .

وقال الحسن بن عليّ ﷺ : «الحلم زينة ، والوقار مروءة والحياء شرف ، والخلق جمال ، والصدق نجاة ، والإكثار صلف ، والعجلة سفه ،

= موضع الحاجة من الوصية بعينها عن شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (٤ : ٥٥ ط بيروت) أوصيكما بتقوى الله وأن لا تبغيا الدنيا وإن بغتكما ، ولا تأسفا على شيء منها زوي عنكما ، وقولا بالحق واعملا للأجر (للآخرة ، خ) وكونا للظالم خصماً وللمظلوم عوناً .

(١) في الأصل «في طلبه» وفي النهج (٤ : ٣٧٧) : أُوصيكم بخمسٍ لو ضربتم إليها آباط الإبل لكانت لذلك أهلا : لا يرجون أحد الخ مع اختلافات أخر يسيرة . وهذه هي الكلمة ٨٢ من حكمه القصار .

(٢) بهامش الأصل : أي من رجل واحد وهو آدم ﷺ .

والسفه ضعف ، والغلظة ورطة ومجالسة أهل الفسق ريبة» وتزعم الرواة أنها ممّا أملته نفسه الطاهرة على لسان مكارمه الوافرة .

وكان الحسين بن عليّ سيد الشهداء عليه السلام كثيراً ما ينشد هذه الأبيات :

لئن كانت الأفعال يوماً لأهلها	كمالاً ، فحسن الخلق أبهى وأكمل
وإن كانت الأرزاق قسماً مقدّراً	فقلّة جهد المرء في الكسب أجمل
وإن كانت الدنيا تُعدّ نفيسة	فدار ثواب اللّه أعلى وأنبل
وإن كانت الأبدان للموت أُنشئت	فقتل امرىء بالسَيف في اللّه أفضل
وإن كانت الأموال للترك جمعها	فما بال متروك به المرء يبخل

وقيل لمحمّد بن عليّ بن الحسين عليهم السلام : من أعظم الناس قدراً ؟ قال : من لم يُبال بالدنيا في يد من كانت .

وقال جعفر الصَّادق عليه السلام : إحسانكم أخلاقكم ، وأكرمكم أتقياؤكم ، والنسب واحد ، من آدم خلقتم . وقال : أكرم الصفايا أشدّها ولهاً إلى أولادها ، وأكرم الإبل أحنّها إلى أوطانها ، وأكرم الأفلاء (؟) أشدّها ملازمة لأُمّهاتها ، وخير الناس أكرمهم خلقاً ، وأشدّهم إلفاً[1] .

وقال محمّد بن الحنفيّة : الكمال في أخلاق ثلاثة : الفقه في الدين والصبر على النوائب والتقدير في المعيشة .

وقال المأمون : «كان في عليّ بن موسى الرضا (عليه السلام) خلال من الخلق ما وجدت مثلها في أحد : كان احتماله للعدوّ كانخفاضه للوليّ ، وكان لا يستحيي من الحقّ ، ويستحيي من ردّ سائله ؛ وما ذمّ أحداً قطّ ، ولا أعرض عن شائنه وحاسده ؛ وكان إذا خاطبه الطالب أجابه بطلبته ، وكان النجم أقرب من سميره إلى أُذنه إلى شيء من أسراره[2] ، وكان يقلّ الدعابة ويكثر الإستغفار» فينبغي لنا أن نؤدّب أنفسنا بمثل هذه المكارم ونرغّبها في الطاعات الباقية ونصرفها عن شهوات الدنيا الفانية .

---

(١) وانظر جامع السعادات (١ : ٣٠٣ ـ ٣١٢) وبحار الأنوار (١٥ : ٢٠٧) .

(٢) السمير : الذي يحدث ليلاً ، يقول : كان النجم ـ مع بعده ـ إلى شيء من أسراره أقرب مكاناً ممن يحدثه ليلاً . وهو كناية عن شدة تحفظه على أسراره .

الفصل الأول

في الترغيب في الطاعات والزهد في الدنيا الفانية

قال بعض الحكماء : أتعرفون الله ثمَّ تعصونه وتشكونه لبلاء ؟ وفضله عليكم لا تحصونه ، يا لها من صحّة أبدان ، وصفوة أذهان مصروفة عن طاعة من برأكم[1] في أحسن تقويم ، وذرأكم لكلّ متاع ونعيم ، إلى كلّ هوىً تعصِف عليكم رياحه بخسران ، ويعقِبكم ارتياحه بندمان فهلّا تعجّلون[2] الاجتهاد غنيمة صحّتكم ، والعمل فرصة قوّتكم ؟ فليس كلّ الزمان مؤاتياً مطاوعاً ، ولا ما فات من العمر معاوداً مراجعاً ، ولكلّ فراغ شغل شاغل ، ووراء كلّ دعة خطب نازل :

بادر إذا الخيرات يوماً أمكنت ... بزوالهنَّ سوابق الآفات
كم من مؤخّر يومه في خيره ... لغد ، وليس غدٌ له بمؤات
تأتي المكاره حين تأتي جمّة ... وترى السرور يجيء في الفلتات

وأيّ شيء أقبح من هوى ساعة يُفسد أمر الغد ، ويكدّر عيش الأبد ؟ وأيّ شيء أبهى من [علم][3] زيّن بالعمل راشده ، ومن عمل حلّى بالعلم زائده ؟

---

(١) برأ الشيء : خلقه .
(٢) كذا في الأصل مشكولاً ، ولعل الصواب : تجعلون .
(٣) زيادة منا ليس في الأصل .

وأيّ شيء أحسن من شباب يضع وارفه[1] ، ويسحب[2] على الهدى مطارفه ؟ وأيّ شيء أجلّ من مشيب روعي بطاعة الله دفاره[3] ، وعوفي عن نزق[4] الهوى وقاره ؟ .

إنّ امرءاً غلب البياض سواده ورمى الزمان بفرقه أنداده
لحري بأن يعصي الهوى وقياده ويعدّ للسفر الطويل عتاده

إنّ زلفته لعمرك تميله (؟) ، وإلى رحمة الله وسيلة . وربّما يعاجل شبابك أن تعمل في المشيب فبادر بالعمل ورداء الشبيبة نشيب[5] ، فالمسعود من أعدّ واستعدّ ، والمجدود[6] من جدّ وأجدّ ، والحازم من لا يركن إلى الخيال الزائر والفيء الزائل ، والعارية المرتجعة والسحابة المقشعة[7] .

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها على أنّهم فيها عراة وجوّع
أراها وإن كانت تحبّ كأنّها سحابة صيف عن قليل تقشّع

وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إنّ هذه الدار دار التواء لا دار استواء ، ومنزل ترح[8] لا منزل فرح ، فمن عرفها لا يفرح لرخاء ولا يحزن لشقاء ، ألا وإنّ الله خلق الدنيا دار بلوى والآخرة دار عقبى ، فجعل بلوى الدنيا لثواب الآخرة سبباً ، وثواب الآخرة من بلوى الدنيا عوضاً ، فيأخذ ليعطي ، ويبتلي ليجزي ، وإنّها لسريعة الذهاب ، وشيكة الإنقلاب ، واحذروا حلاوة رضاعها لمرارة فطامها ، واهجروا لذيذ عاجلها لكرامة آجلها ، ولا تسعوا في عمران دار

---

(١) ورف النبات يرف ـ كوعد يعد ـ نضر واهتز واشتدت خضرته ، فهو وارف .
(٢) سحبه ـ كمنعه ـ جره ، وسحب ذيله : تبختر في المشي .
(٣) الدفار ـ بفتح الدال ـ : الدنيا .
(٤) بفتح الأولين : الخفة في كل أمر ، العجلة في جهل وحمق .
(٥) نشب ـ كعلم ـ الشيء في الشيء : علق . يقول : بادر بالعمل في حال يكون نسوج رداء شبابك مفتولة لم تنفصم ولم تفشل بعد .
(٦) مفعول من الجد ـ بالفتح ـ بمعنى الحظ والبخت .
(٧) قشع ـ من باب منع ـ الريح السحاب : كشفته وفرقته .
(٨) بالفتحتين : الحزن والهم والنقر .

قد قضى الله خرابها ، ولا تواصلوها وقد أراد منكم اجتنابها ، فتكونوا لسخطه متعرّضين ، ولعقوبته مستحقّين .

وقد صحّف المحقّق ملا جلال الدوّانيّ[1] الحديث المشهور ؛ وهو قوله عليه الصَّلاة والسَّلام : «حبّ الدنيا رأس كلّ خطيئة» بقوله : «حبّ الدينار أُسُّ كلّ خطيئة» ولا يخفى حسنه .

ويُقال : إنّ أوّل كلام الحسن[2] أنّه صلّى يوماً بأصحابه ثمّ انفتل وأقبل عليهم ، فقال :

أيّها الناس إنّي أعظكم وأنا كثير الإسراف على نفسي غير مصلح لها ولا حاملها على المكروه من طاعة ربّها قد بلوت نفسي في الضرّاء والسرّاء فلم أجد لها كثير شكر عند الرخاء ولا كثير صبر عند البلاء ، ولو أنّ الرجل لم يعظ أخاه حتّى يُحكم أمر نفسه ويكمل في الّذي خلق له من طاعة ربّه لقلّ الواعظون الساعون إلى الله بالحثّ على طاعته ولكن في اجتماع الإخوان واستماع حديث بعضهم من بعض حياة للقلوب وتذكّر من النسيان ، أيّها الناس إنّ الدنيا دار من لا دار له وبها يفرح من لا عقل له فأنزلوها منزلتها ثم أمسك .

وقال هذا القائل في بعض الخطب :

إنّكم كفيتم مؤونة هذه الحاضرة ، وأُمرتم بطلب دار الآخرة ، فلا أنتم عن طلب ما كفيتم تمسكون ، ولا أنتم طريق ما أُمرتم تسلكون ، فلا أمركم إلاّ كما وصفه القائل :

---

(١) اسمه محمد بن أسعد الصديقي ، وجلال الدين لقبه . قاض باحث ، ولد سنة ٨٣٠ هـ في دوان من بلاد كازرون ، سكن شيراز وولي قضاء فارس وتوفي فيها سنة ٩٠٧ هـ له كتب ورسائل . قاموس الأعلام : ٨٦٣ .

(٢) هو أبو سعيد الحسن البصري ابن يسار مولى زيد بن ثابت الأنصاري وأُمه خيرة مولاة أُم سلمة أم المؤمنين ، جمع كل فن من علم وزهد وورع وعبادة ، وكان فصيحاً جميلاً وسيماً ، وله مع الحجاج مواقف هائلة . ولد سنة ٢١ وتوفي ١١٠ هـ وفيات الأعيان (١ : ٣٥٤ ، برقم ١٤٨) قاموس الأعلام . ٢٤٣ وشرح المجاني ٢١٥ .

ما بال نفسك لا تهوى سلامتها — وأنت في عرض الدنيا ترغّبها
داراً إذا جاءت الآمال تعمرها — جاءت مقدّمة الآجال تخربها
أراك تطلب دنيا ليس تدركها — فكيف تدرك أُخرى ليس تطلبها؟
إذا كان أدنى العيش ليس بحاصل — لذي اللبّ في الدنيا بغير المتاعب
فكيف بأسنى العيش في عالم البقا — لذي الجهل، مع تقصيره في المطالب؟

وقال : من أبصر تصاريف الدنيا أقصر ، ومن عرف غاية المنى اختصر ، ومن رضي بفتنة الآخرين تقيّل ، ومن سمع وصيّة الأوّلين تقبّل . ومن أصلح في السرّ سريرته أصلح الله في الباطن سريرته . ومن أسرّ في قلبه للناس غير ما يُظهره أظهر الله عليه ما يُضمره . ومن ظنَّ أنّه في الخلوة غير مرقوب[١] وعلى طول المهلة غير مطلوب ، فطلبه إثم يوبقه ، واغترار يرهقه :

إذا ما خلوت الدهر يوماً فلا تقل — خلوت، ولكن قل: عليّ رقيبُ
ولا تحسبنّ اللّه يغفل ساعة — ولا أنّ ما تخفيه عنه يغيب

وقال : ما هذا القعود وقد وضح السبيل ؟ ! وما هذا الصدود وقد أُسمع الدليل ؟ ! الجري في الإغترار أمدُّ طلق[٢] ، والركض في الإستكبار أشدّ عنق[٣] . لا يعترض للعين شهوة إلاّ كان الهوى لها شافعاً ؛ ولا يرتكض في معصية إلاّ كان القلب لها طائعاً ؛ فأين الحياء عن الإصحار[٤] بالمحارم ؟ وأين التُقى عن الإمعان في المآثم ؟ وإلى كم هذا التهافت في النار تهافت الفراش في الضرام ؟ والتهالك على الحطام تهالك الصبيّ على الطعام ؟ تُدعون إلى النجاة وأنتم كارهون ! وتُنصحون وأنتم في واد الهلاك تائهون ! أما تعلمون أنّ طالب متاعها خاسر لدينه غبين، وخاطب قماشها ظالم لنفسه مبين . يستقي من مشارعها أشربة الأحزان ، ويستملّ من صحائفها أمثلة الحدثان . ويجتني من

---

(١) أي ليس عليه رقيب .
(٢) الطلق ـ بفتحتين ـ : الشوط الواحد في جري الخيل .
(٣) بالفتحتين ، السير السريع .
(٤) الإصحار بالأمر : إظهاره ، من أصحر خرج إلى الصحراء .

راحتها ثمرة العناء ، ويستأنف من بقائها رائحة الفناء :

أيا شفتي فمّي ! أما من شريعة   من الموت إلّا أنتما توردنيا؟
ويا شفتي فمّي ! أمالي إليكما   سبيل ، وهذا الموت قد حلّ دانيا؟

يسدّ سبيل المُنى عن الإطماع ، ويرحّل المرء عنها بغير متاع . وينبذ أعزّ أبنائها نبذ النواة ، ويطرح أنفس أشيائها طرح القذاة ، وتذر نفوس الأفهار[1] رماد جمراتها ، وقلوبهم أغماد باتراتها[2] .

مزمومة بالغيّ مخطومة   سمّ زعاف درّ أخلافها
ولم تزل تقتل ألّافها   أفّاً لقتّالة آلافها

خطب قطريّ بن الفجاءة [3]؛ فقال :

أُحذّركم الدنيا فإنّها حلوة خضرة حفّت [بالشهوات][4] وراقت بالقليل ، وتحبّبت بالعاجلة ، وجلبت بالآمال[5] ، وتزيّنت بالغرور ، لا تدوم خيرتها ولا يؤمن فجيعتها[6] غرّارة ضرّارة . حائلة زائلة . نافدة بائدة[7] . أكّالة غوّالة . لا تعدو إذا تناهيت إلى أُمنيّة أهل الرغبة[8] فيها والرضا عنها أن تكون كما قال الله تعالىٰ : ﴿**كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيماً تذروه**

---

(١) أي تقطع نفوس الأحجار .

(٢) جمع الباترة ، والباتر : السيف القاطع .

(٣) أبو نعامة قطري بن الفجاءة المازني التميمي ، من رؤساء الأزارقة ، كان خطيباً فارساً شاعراً ، خرج في زمن مصعب بن الزبير لما ولي العراق ، وبقي عشرين سنة في قتال الأمراء ويسلم عليه بالخلافة وله مع الحجاج والمهالبة وقائع هائلة . عثر به فرسه فمات وجيء برأسه إلى الحجاج وقال الدميري (٢ : ٣٥٧) : اسمه : جعونة بن مازن . توفي سنة ٧٨ هـ وفيات الأعيان (٣ : ٢٥٥ ، برقم ٥١٧) قاموس الأعلام : ٧٩٧ . والخطبة في عقد الفريد وعنه في مجاني الأدب (٥ : ٤٠) .

(٤) زيادة أخذناها من المجاني .

(٥) في المجاني وتجلببت بالعاجل وغمرت بالآمال وتحلت بالأماني .

(٦) رواية المجاني : لا تدوم زهرتها ، ولا تؤمن فجعتها .

(٧) في الأصل : نافذة والمهملة أنسب بالكلمة بعدها .

(٨) في الأصل : إذا تناهت إلى أمنية أقل الرغبة فيها .

الرياح وكان الله على كلّ شيء مقتدراً﴾[1] مع أنّ امرءاً لم يكن فيها في حِبرة إلاّ أعقبته بعدها عَبرة ، ولم يلق من شرابها بطناً إلاّ منحته من ضرابها[2] ظهراً . لم تظلّه غيمة رفاء إلاّ هطلت[3] عليه مُزنة بلاء وحريّة[4] إذا أصبحت له منتصرة أن تُمسي له خاذلة متنكرة . وإن جانبٌ منها اعذوذب واحلولى ، أمرّ عليه جانب منها وأوبى[5] وإن أتت امرءاً من غضارتها ورقاً ، أرهقته من نوائبها تعباً . لم يُمس منها امرؤ في جَناح أمن ، إلاّ أصبح فيها على قوادم خوف . غرّارة غرورٌ ما فيها فانية فانٍ من عليها . لا خير في شيء من زادها إلاّ التقوى . من أقلّ منها استكثر ممّا يؤمنه ومن استكثر منها استكثر ممّا يوبقه[6] . كم من واثق بها قد فجعته[7] وذي طمأنينة إليها قد صرعته ، وذي احتيال فيها قد خدعته . وكم ذي أبّهة فيها قد صيّرته حقيراً ، وذي نخوة قد ردّته ذليلاً ، ومن ذي تاج قد كبّته لليدين وللفم . سلطانها دول . وعيشها رنِق[8] . وماؤها أُجاج . وحلوها صبرٌ[9] . وغذاؤها سمام ، وأسبابها رِمام[10]. حيّها بعرض موت ، صحيحها بعرض سقم ، منيعها بعرض اهتمام[11]. مليكها مسلوب ، وعزيزها مغلوب ، وسليمها منكوب ، وجارها محروب . مع أنّ من وراء ذلك[12]سكرات الموت وهول المطّلع والوقوف بين يدي الحاكم العدل ، ليجزي الّذين أساءوا بما عملوا ويجزي الّذين أحسنوا بالحسنى[13] .

---

(١) سورة الكهف ؛ الآية : ٤٦ .
(٢) في المجاني : من سرائها بطناً إلا منحته من ضرائها ظهراً .
(٣) هطل المطر : نزل متتابعاً متفرقاً عظيم القطر .
(٤) في الأصل : وجربة .
(٥) أوبأ المكان : كثر فيه الوباء .
(٦) في المجاني : ومن استكثر منها لم يدم له . وزال عما قليل عنه استكثر مما يوبقه .
(٧) في الأصل : قد جمعته .
(٨) رنق الماء ـ من باب نصر ـ كدر .
(٩) الصبر بفتح الأول وكسر الثاني : عصارة شجر مر ، وفي المجاني : زحام .
(١٠)الرمام بالكسر جمع الرمة : ما بلي من العظم . وفي المجاني : زحام .
(١١)في المجاني : بعرض اهتضام .
(١٢)في الأصل : مع ازدراء ذلك !
(١٣)ما ذكره جزء من خطبته ، وقد نقلها الأب شيخو بتمامها ، راجع مجانيه .

وقال بعض الحكماء : إن مثلها ومثل الراغب فيها ومثل الراغب عنها كمثل رجلين ، يسيران في سفر راكبين ، أحدهما أعمى والآخر صحيح العين ، فنزلا منزلاً وأرادا أن يغلسا سائرين ، وطلب الأعمى مِقرعته فأصاب حيّة سوداء فقال : ما ألينه من سوط ! نعم البدل عن سوطي ، فلمّا برق الإصباح ، وأضاءت للناظرين صور الأشباح ، أبصر البصير الأعمى قد قبض على حيّة رقشاء[1] ففزع له وصاح به ، فقال الأعمى : إنّي أراها ليّناً مسّها ! فهي قاتل نهشها ، حين أراد أن يقنّع بها حماره نهشته نهشة تناثر لها لحمه ، وتخاذل عظمه . ووالله إنّ الدنيا لأشدّ لسعة للمغترّ بها من تلك ؛ إنّ قتيلها شهيد ، وقتيل الدنيا هدر مطلول[2] ، لا عقل ولا قَوَد ولا يُودى ولا يؤسى[3] .

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة وإلاّ فإنّي لا أخالك خاليا

وقال : طهّروا أنفسكم من ذنبها ، وخذوا لها الأمان من ربّها ، إنّ أخذه أليم شديد ، وعذابه غليظ عتيد . ولا يغرّنكم متاع قليل وعمر قصير ، فيفجأكم يوم طويل وخطب كبير . إنّ هذا الشباب وإن راق فتيانه فبعده مشيب ، وإنّ الموت لينظر من بعيد ويختطَف من قريب . ذئب ضار أو عقاب كاسر ، لا ينجو منه ماشٍ ولا طائر . يشرب الحيوان شرب الهيم ، ويحطِم العُمران حطم الهشيم . فأين الّذين كانت لهم أقاليمها وأمصارها ، إلى أمرهم مصيرها وعلى رايتهم مدارها ؟ أين[4] الّذين كنزوا ككُثبان[5] الرمال ، وادّخروها مِلء الأماني والآمال ؟ كم ولا حاجة لهم جمعوها ، وكم من ذي حاجة منعوها . حاسبوا أنفسهم فيها ، ثمّ تركوها لمن لا يحاسب وكم بخلوا على أنفسهم وأهاليهم بأرباحها ثمّ خلّوا أصولها لمن لا يناسب .

---

(١) الرقشاء من الحيات : المنقطة بسواد وبياض .

(٢) طل الدم : هدر أو لم يثأر ، فهو طليل ومطلول .

(٣) العقل : الدية . القود ـ بفتحتين ـ : القصاص . يودى من ودى دية . يؤسى من آسى .

(٤) في الأصل : أن الذين كنزوا .

(٥) جمع الكثيب : التل من الرمل .

كتب سهل بن هارون[1] إلى ذي الرياستين[2] حين استوزر : إنّ للأزمنة فرحاً فكن من ولاة فرحها ، ولأيّامها دولاً فخذ بحظّك منها ، ولدولتها أجزاء فتزوّد منها قبل انصرامها . فإن تعاظمك ما انتهى بك عنه فانظر في جوانبها يأخذك الموعظة من جميع نواحيها ، واعتبر بذلك الاعتبار على أنّك مسلّم ما يسلّم إليك منها كما سلّم إليك من كان أشدّ كلفاً وأعظم شغفاً . انظروا إليهم كيف صاروا رماماً لا يذكر عنهم ، كأنّهم كانوا أحلاماً . انظروا إليهم ساكنين لا يحسّون وساكتين لا ينبسون . حبل حياتهم أنكاث[3] ، وجميع أُمورهم ميراث . عمّرت بهم بطونُ الأرض بعد ظهورها ، واستبدلوا قبورها من قصورها ، ثمّ لا يدرون ما حالهم ، وعلى أيّ جملة إلى الله مآلهم .

لقد خاب إنسان تولّى ، وغرّه	من اللّه دنياً غير باق نعيمها
فياحسرة النفس الّتي كان سعيها	ضلالاً ، إذا لم يبق إلاّ نسيمها

عاد الحسن عبد الله بن أهتم في مرضه الّذي مات فيه فأقبل عبد الله يضرب ببصره إلى صندوق في جانب البيت ، ثمّ قال للحسن : يا أبا سعيد ما تقول في مائتي ألف في هذا الصندوق لم يؤدّ منها زكاة ولم يوصل بها رحم ؟ فقال الحسن : ثكلتك أُمّك فلمَ أعددتها ؟ قال : أعددتها لرعوة الزمان

(١) أبو محمد سهل بن هارون بن راهبون ، الفارسي الأصل ، الدستميساني ، دخل البصرة واتصل بالمأمون فولاه خزانة الحكمة ، وكان أديباً كاتباً شاعراً حكيماً شعوبياً ، يتعصب للعجم على العرب ، وهو من واضعي القصص وكان مشهوراً بالبخل ، وله رسالة في مدحه ، أرسل نسخة منها إلى الوزير حسن بن سهل ، فوقع عليها الوزير : لقد مدحت ما لام الله وحسنت ما قبح . والجاحظ معجب به . وله كتاب ورسائل منها «ثعلبة وعفراء» على نسق كليلة ودمنة ، و «وامق وعذراء» توفي ٢١٥ هـ معجم الأدباء (١١ : ٢٦٦) البيان والتبيين (١ : ٥٢) الفهرست لابن النديم ١٨٠ .

(٢) هو الفضل بن سهل السرخسي وزير المأمون وصاحب تدبيره ، كان حازماً عاقلاً فصيحاً ، اتصل به في صباه وأسلم على يده سنة ١٩٠ هـ وصحبه قبل أن يلي الخلافة فلما وليها جعل له الوزارة وقيادة الجيش معاً ولذا لقب بذي الرياستين ، ولد في سرخس ١٥٤ هـ وتوفي بها بينما كان في الحمام سنة ٢٠٢ هـ . قاموس الاعلام : ٧٧٣ .

(٣) جمع النكث ـ بالكسر ـ ما نقض من الفتل والأكسية ليغزل ثانية .

ومكاشرة[1] الإخوان وجفوة السلطان . ثمَّ مات فحضر الحسن جنازته ، فلمّا دفن ضرب بإحدى يديه على الأخرى ، فقال : إنّ هذا أتاه شيطانه فحذّره روعة زمانه وجفوة سلطانه ومكاشرة[2] إخوانه ممّا استودعه الله إيّاه ثمّ خرج منها حزيناً سليباً لم يؤدّ منها زكاة ولم يصِل بها رحماً .

ثمّ التفت فقال : أيّها الوارث كُل هنيئاً فقد أتاك هذا المال فلا يكون عليك وبالاً آثاره ، ممّن كان له جموعاً منوعاً يلجّج فيه في لجج البحار ومفاوز يلجّج القِفار . من باطل جمعه ، ومن حقّ منعه ، ولم ينتفع به في حياته ، جمعه فأوعاه وشدّه . إنّ يوم القيامة ليوم ذو حسرات ، وإنّ أعظم الحسرات أن ترى مالك في ميزان غيرك ، ذاك رجل آتاه الله مالاً حلالاً فبخل أن ينفقه في طاعة الله فورّثه الله غيره فأنفقه في طاعة الله . فيا لها حسرة لا تُقال ! ورحمة لا تنال ! فإنّا لله وإنّا إليه راجعون[3] .

وقال : ماذا يغرّكم من دارٍ الفَناءُ من صفاتها ، والفنا[4] من عاداتها . والفقر حِلية من حُلاها ، والغرور سجيّة من سجاياها والآلام والأحزان من خِلالها[5] ، والشيب والموت من حالها ، والبكاء حياة داخلها ، والإبكاء زاد راحلها . تبكي المولود فيها مُستهلاً إذا دخل ، ويُبكى على المتوفّى منها ساعة ارتحل . شدائد لو أنّها راعتنا بواحدة منها لكان حقّاً [أن] نتبادر[6] من قربها ، ونتفادى من حبّها ، فكيف وهو مجتمع فِرقها ، وملتقى طرقها[7] ، ثمّ المبيت

(١ و٢) في الأصل في الموضعين «مكاثرة» سهواً .

(٣) ومن حكم أمير المؤمنين عليه السلام ومواعظه القصار (شرح النهج للفيض ١٢٧٦ ، برقم ٤٢١) : إن أعظم الحسرات يوم القيامة حسرة رجل كسب مالاً في غير طاعة الله ، فورثه رجل فأنفقه في طاعة الله سبحانه فدخل به الجنة ، ودخل الأول به النار .

(٤) كذا في الأصل .

(٥) جمع الخلة ـ بالفتح ـ الخصلة .

(٦) كان في الأصل ، لكان حقنا نتبادر الخ .

(٧) يريد : فيها شدائد لو سامحتنا ولم تبتلنا بواحدة منها لكان حقاً أن نتسابق إلى حبها ، ولكن كيف يمكن حبها وهي مجتمع متفرقات الشدائد وطرقها ؟ .

حيث الفراش التراب ، وليس إلاّ الديدان أصحاب . فيالها غمّة مدهشة ، ووحدة موحشة ! . ينادي ملك الأرزاق : نفد الزاد وحان الفراق . ويقول ملك الموت : حقّ الوعد والوعيد ، وذلك ما كنت منه تحيد ، أزف الرحيل ، ووجب التحويل . وحالت الحال ، وزال الجمال . انطفأ المصباح ، وركدت تلك الرياح . ويقول ملك العمل لشيطان الأمل : ثبّتت حبائل الزور ، ونصبت أشراك[1] الغرور . وشغلته بالباطل حتّى جاءت سكرة الموت بالحقّ ، وسأل سائل القبر بالصدق . فالآن يلقى المسكين ربّه بصورة نكير أو صحيفة سوداء ، لم يُعدّ لليوم المحتضر ، ولم ينظر في الآجل المنتظر . جمع ما لم يأكل ، ورجا ما لم ينل . فيا حسرتا على ظلّ انحسر وشمل افترق ؛ أصابته إعصار فيه نار فاحترق . ويا أسفا على رَوح آخره عَنا ، وعذب حاصله عذاب ، ووصل عُقباه اجتناب ، وسكون منتهاه ارتياب .

روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال : إنّما مثلي ومثل الناس كرجل استوقد ناراً فلمّا أضاءت ما حوله جعل الفراش يتهافت[2] فيها جعل ينتزعهنّ عنها ويحول بينها وبينها ، فها أنا آخذهم عن النار وهم يقتحمون فيها .

وقال بعضهم : إنّ الأيدي الباسطة بالجور ستقبضها يد الأيّام ، وإنّ العيون السامية بالكبر سيغضّها ريب الحِمام[3] . وإنّ أعناق العبيد ستخضع لطارق المنيّات ، إنّ الخدود الصعر[4] ستَضرع لمنتقص اللّذّات . أما إنّه لو كُشف الغطاء وبرح الخفاء لأقصر ظالم عن ظلمه ، وأقسط جابر في حكمه وبكى مخذول بملء عينه على ذنبه ، وخاف مسؤول مقام ربّه .

فقد روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم[5] أنّه قال : لا يزول قدم العبد عن مكانه

---

(١) جمع الشرك ـ بفتحتين ـ : حبائل الصيد .
(٢) تهافت الفراش في النار : تفرق .
(٣) الحمام ـ بالكسر ـ الموت .
(٤) صعر وصاعر وأصعر خده : أماله عن النظر إلى الناس تهاوناً وكبراً .
(٥) والمروي في الخصال (١ : ١٧٣) عنه صلى الله عليه وآله وسلم أن السؤال عن أربعة بزيادة «وحبنا أهل البيت» والرواية هنا مضطربة فصدرها ضمير الغائب ثم التفت إلى الخطاب .

حتّى يسأل عن ثلاث : شبابك فيما أبليت ، وعمرك فيما أفنيت ، ومالك من أين جمعته وفيما أنفقته .

وقال هذا القائل في كلامه منها : إنّ تقوى الله أصدق مخيلة ، وطاعته إلى رحمته أقرب وسيلة . والبرّ شربه أخلص وأصفى ، والإنصاف حظّه أوفر وأوفى ، والإسعاف بذله أحقد وأخفى . والحقّ شاهده أصدق ، والحال لسانه أنطق ، ولا يأخذ ما ليس له من[1] بان فضلُه ، ولا يطمع في مال غيره من تمَّ عقله . والحر عبد إذا طمع ، والعبد حر إذا قنع . وإن يكن العُدم مجهدةً فإنّ الجِدة مفسدة . والراحة عُقلة[2] ، والدولة نُقلة[3] والهوى ندامة ، والمُنى سلامة . والمال رائح وغادي ، والصروف عن الآمال غوادي[4] ، والهدى يطرُق[5] الرجل فإن وجد فيه الزهد وإلاّ ارتحل ، والتقى يستقري[6] العمل فإن رآه صالحاً طلع وإلاّ أفل . والحرص نار تحرِّق الواقع فيها ، والأماني بحر يغرّق وارديها . وخير الغرس الخير ؛ لا يذبل[7] عوده ولا يأفل سعوده[8] وشرّ الزرع الشرّ ؛ لا تنال[9] عاقبته وإن طالت مدّته . والرضا إمام أحوال المتّقين . والتسليم زمام أفعال المخلصين . والمنّ يمحو الإحسان محو الريح للسُحب ، والعذر يطوي الذنب طيّ السجلّ للكتب . ورضى الناس غاية يثقل تتبّعها ، ومفارقة العادة شربة يصعب تجرّعها . والطمع إعصار فيه نار ، والهوى خمر كلّه خمار . والصدق مفتاح كلّ غُنية ، والصلاح مصباح كلّ مُنية . والصديق الكذوب

---

(١) «من» فاعل الفعل و «ما ليس له» مفعوله .
(٢) ما يعقل ، أي يربط به كالقيد .
(٣) اسم مصدر بمعنى الإنتقال .
(٤) جمع الغادية : مطرة الصباح ، ويقال له بالفارسية : شبنم .
(٥) الطروق : المجيء بالليل .
(٦) استقرى البلاد : تتبعها وطاف فيها .
(٧) ذبل ـ بالفتح والضم ـ يذبل ـ بالضم ـ النبات : قل ماؤه وذهبت نضارته .
(٨) السعود : اليمن والبركة .
(٩) في الأصل : لا تنام .

كـالسيف الكهام[1] ، والمتملّق الخـدوع كـالغمـام الجهـام[2] والحلم مـا أنضـر زهـره ، وأحلى ثمره ! والعجلة ربحهـا خسران ، وزيـادتها نقصـان والصدق من مقاليد النجاة ، والتواضع من تباشر الدرجات والآنات . لا تطلع ثمرة النجـع إلاَّ من أكمامها ، ولا تـظهر شمس الـظفر إلاَّ عن غمـامها . والتعفّف جـريدة أوّلهـا الطاعة والغنى قصيدة مطلعها القناعة . والورع فلك قطبه الحياء ، والكرم جسـد قلبه الوفاء . ومن ادّرع ثوب العَفاف فقد أمِن من جميع محاذيرها ، ومن استغنى بقـدر الكفاف فقـد ملكها بحـذافيرهـا ومن لزم قـرارة داره ، وأرخى على حـالـه غشاوة أستاره ، وأعرض عن أبواب قوم ودافع يوماً بيوم ، فذلك الّذي درّت عليه أخلاف[3] الراحة واعذوذبت عنده مشارب المعيشة وإن كان صفر الراحة[4] .

---

(١) الكهام والكهيم ـ بفتح الكاف ـ : البطيء الكليل .
(٢) الجهام : السحاب لا ماء فيه .
(٣) جمع الخلف ـ بالكسر ـ والمراد بها هنا حلمة ضرع الناقة .
(٤) أي خالي الكف من المال .

الفصل الثاني

في العزلة والخلوة[1]

لا بدّ لمن آثر الله على من سواه من العُزلة في ابتدائه توحّشاً من غير الله ، ومن الخلوة في انتهائه أُنساً بالله . والتزهّد شجرة استقى عرقُها من منبع التفرّد ، وخرج غصنها من متّبع التوحّد . قد أنبت الله في قرارة الفرد دوحتها[2] ، وأطلع عن زهرة الفاقة ثمرتها وجعل الانقطاع عن غيره من شربها الصافي ، والأُنس به وحده من ظلّه الضافي[3] والاعتصام بحبله من أورع مرعاها ، والتصرّف على حكمه من أطيب جُناها .

قال أبو عثمان المغربيّ : من اختار الخَلوة على الصُحبة فينبغي أن يكون خالياً عن جميع الأذكار إلاَّ ذكره ، وعن جميع الإرادات إلاَّ أمره ، وعن جميع مطالبات النفس إلاَّ حكمه .

وقال يحيى بن معاذ[4] : انظر أُنسك بالخلوة معه أم في الخلوة ؛ فإن كان

---

(١) وانظر الأقوال في العزلة وفوائدها وآفاتها عند الغزالي (٢ : ١٤٩ ـ ١٦٣) .

(٢) الدوحة : الشجرة العظيمة المتسعة .

(٣) الضافي : الممتلىء .

(٤) أبو زكريا ، يحيى بن معاذ الرازي الواعظ، أحد رجال الطريقة ، خرج إلى بلخ وأقام بها مدة ورجع إلى نيسابور ومات بها سنة ٢٥٨ وذكره القشيري في رسالته وقال في حقه : نسيج وحده في وقته ، له لسان في الرجاء وكلام في المعرفة . وفيات الأعيان (٥ : ٢١٤ ، برقم ٧٦٥) وترى أقواله عند ابن خلكان والخطيب في تاريخ بغداد .

أُنسك بالخلوة ذهب أُنسك إذا خرجت منها ، وإن كان أُنسك في الخلوة معه استوت بك الأماكن في الصحاري والبراري . وقال : الوحدة جليس الصدّيقين وأنيس الصادقين . وقال : العبادة حرفة وحوانيتها الخلوة ، ورأس مالها الاجتهاد بالسنّة وربحها الجنّة .

وقال أبو عبد الله الرمليّ : ليكن خدنك[1] الخلوة ، وطعامك الجوع ، وحديثك المناجاة فإمّا أن تموت وإمّا أن تصل . وكان بعض العارفين يصيح ويقول : الإفلاس الإفلاس ! فقيل : وما الإفلاس ؟ قال : الاستيناس بالناس .

وحدّث أبو العبّاس الدامغانيّ قال : أوصاني بعض العارفين ، وقال : الزم الوحدة ؛ وامحُ رسمك عن القوم ، واستقبل الجدار حتّى تموت .

ودخل شعيب بن حرث على مالك بن معول وهو في داره بالكوفة جالس وحده ، فقال : أما تستوحش في هذه الدار وحيداً ؟ فقال : ما كنت أظنّ أنّ أحداً استوحش مع الله .

وعن خلف بن تميم ، قال : جئت لأطلب إبراهيم بن أدهم [2] في يوم مطير [3] فأطلعت ولم أره فإذا هو قاعد تحت السرب وقد فرّ من الوكف[4] فلمّا نظر إليّ قال : ارض بالله صاحباً وذر الناس جانباً .

وكان الفُضيل بن عِياض[5] يقول : كفى بالله محبّاً ، وبالقرآن مؤنساً ، وبالموت واعظاً .

---

(١) الخدن ـ بالكسر ـ الحبيب والصاحب .

(٢) أبو إسحاق إبراهيم بن أدهم بن منصور العجلي البلخي الزاهد وكان ذا ثروة عريضة ، ثم رفض الدنيا وصار إلى الزهد توفي في بلاد الروم سنة ١٦١ . تهذيب التهذيب وصفة الصفوة .

(٣) يوم مطير وماطر ومطر : ذو مطر .

(٤) الوكف ـ بفتحتين ـ : الإصابة بمكروه ونقص .

(٥) أبو علي الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي سنترجم له في خبر له مع هارون الرشيد حين وطىء الجرادة .

وقال أبو الربيع الزاهد لداود الطائيّ[1] : أوصني فقال : صُم عن الدنيا واجعل فطرك الآخرة وفرّ من الناس فرارك من الأسد[2] .

وكتب إلى ابن السمّاك[3] صاحب له : أمّا بعد ، فإنّ الناس كانوا دواء يتداوى به ، فأصبحوا داء لا يقبل الدواء . وفرّ منهم فرارك من الأسد ، واتّخذ الله مؤنساً .

وقال أبو يزيد[4] : من عرف الآخرة فليس له في الدنيا رغبة ، ومن عرف الدنيا فليس له في المعيشة حلاوة ، ومن عرف الله فليس له من الخلوة لذة .

وعن بعض الحكماء : توحّد ما أمكنك ، فمن وطئته الأعين وطئته الأرجل ، وأنشد :

عليك بإقلال الزيارة إنها ... تكون إذا دامت إلى الذلّ مسلكا
فإنّي رأيت الغيث يسأل دائبا ... ويطلب بالأيدي إذا هو أمسكا
فطول مقام المرء في الحيّ مخلق ... لديباجتيه فاغترب تتجدّد
فإنّي رأيت الشمس زيدت محبّة ... إلى الخلق إذ ليست عليم بسرمد

وقال بعض الحكماء : إنّما يستوحش الإنسان بالوحدة لخلاء ذاته وعدم الفضيلة من نفسه فيتكثّر حينئذ بملاقاة الناس ويطرد الوحشة عن نفسه بالكون معهم ، فإذا كانت ذاته فاضلة ونفسه كاملة طلب الوحدة ليستعين بها على الفكرة

---

(١) أبو سليمان داود بن نصر الطائي ، من أئمة المتصوفين ، كان في أيام المهدي العباسي مولده بالكوفة ورحل إلى بغداد فأخذ عن أبي حنيفة وغيره واشتغل بالعلم ودرس الفقه ثم غرق كتبه واختار العزلة وعاش عشرين سنة بثلاثمائة درهم مات بالكوفة ١٦٠ وقال محارب بن دثار : لو كان داود في الأمم الماضية لقص الله تعالى شيئاً من خبره . وفيات الأعيان (٢ : ٢٩ ، برقم ٢١١) قاموس الأعلام : ٣٠٦ .

(٢) في الوفيات : واجعل إفطارك فيها الموت ، وفر من الناس فرارك من السبع .

(٣) أبو العباس محمد بن صبح ، مولى بني عجل الكوفي الزاهد المشهور ، لقي جماعة من الصدر الأول . وفيات الأعيان (٣ : ٤٢٨ ، برقم ٦١) .

(٤) طيفور بن عيسى البسطامي الزاهد المشهور ، كان جده مجوسياً ثم أسلم : وله أخوان زاهدان ومقالاته كثيرة . وفيات الأعيان (٢ : ٢١٣ ، برقم ٢٨٩) .

ويتفرّغ لاستخراج العلم والحكمة .

وقال بعضهم : انسلخوا عن جلودكم انسلاخ الحيّات ، ودبّوا دبيب الديدان ، وتجرّعوا الزعاف[1] تعيشوا واستحبّوا الممات تحيوا ، وطِروا ولا تتّخذوا وكراً ، فمصيدة الطير أوكارها . كونوا نعاماً تلتقم الجنادل المحميّة ، وسمادل تغشى النيران المضطرمة ، وثعابين تسترط[2] العظام الكبار ، وخفافيش لا تبرز نهاراً ، فخيار الطيور خفافيشها . وجانبوا الناس مجانبة السباع الضارية ، فما أكثر ما يقولون وأقلّ ما يفعلون وأكثر ما يسمعون وأقلّ ما ينتفعون ! وشرّ المقال ما ضاع . وبالله الإستعانة وعن الناس البراءة ومن سلك غير هذا الطريق ضلّ وذلّ .

قال ابن هرمة [3] :

إنّ السباع لتهدى عن فرائسها	والناس ليس بهاد شرّهم أبدا
اللّه يعلم أنّي حين أبصرهم	أرى أُناساً ولكن لا أرى أحدا
ما أكثر الناس لكن ما أقلّهم؟	واللّه يعلم أنّي لم أقل فندا
إنّي لأفتح عيني حين أفتحها	على كثير ولكن لا أرى أحدا
بلوت أخلاّء هذا الزمان	فأقللت بالهجر منهم نصيبي
وكلّهم إن تأمّلتهم	صديق العيان عدوّ المغيب
وزنت هذا الناس لا مرّة	بكفّتي خُبري وتجريبي
فكلّهم أروغ من ثعلب	وكلّهم أغدر من ذيب [4]

البستيّ :

دعني فلن أخلق ديباجتي	ولست أُبدي للورى حاجتي

---

(١) سم زعاف ـ بالضم ـ : يقتل سريعاً .

(٢) استرط العظام : ابتلعها .

(٣) البيتان الأولان له في لسان العرب (هدأ) وربما نسبا إلى الشافعي .

(٤) الذيب : الذئب ، سهل همزته .

منـزلتي يحفـظهـا منـزلـي وبـاجـتي تـكـرم ديبـاجـتـي

القاضي أبو الحسن :

مـا تـطعّـمت لـذّة العيش حتّى صـرت في وحـدتي لكتبي جليسـا
لـيس شـيء أجـلّ عـنـديَ مـن نفسي فلم أبتـغ سـواهـا أنيسـا
إنّمـا الـذلّ في مـداخـلة النـاس فـدعـهـا وكن كـريـمـاً رئيسـا

عبد الصمد الطبريّ :

ولقـد لـزمت فنـاء بيتي لابسـاً حُلل الغِنا، إلف القطا الأُفحوصا[1]
لـم أدّرع طـمعـاً ولـم أمـدد يـداً نحـو النـوال، ولا جـررت قلوصـا
وإذا أردت منـادمـاً لـم تـلقنـي إلاّ عـلى عـزّ الـعـلوم حـريصـا
فتـرى الكتاب مجالسـاً لي مـودعـا سمعي فضـولاً تنتفي وفـصـوصـا
لا مُـفـشيـاً سـرّي ولا متـنـمّـراً جهم اللّقـاء، ولا عليّ خـروصـا[2]

أبو سليمان الخطّابيّ [3] :

إذا خلوت صفـا ذهني وعـارضـني خـواطـر كـاطّـراد البـرق في الـظلم
وإن تـوالى صيـاح النـاعقين على أذني، عـرتني منـه حُلكـة العجم[4]

منصور الفقيـه[5] :

---

(١) يريد : لزمت فناء بيتي وألفت به كإلف القـطا الموضـع الذي تفحص التـراب عنه لتبيض فيه .

(٢) جهم ـ بالضم ـ جهامة : صـار عابس الوجه فهو جهم .

(٣) هو حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي ، فقيه محدث ، له «معالم السنن» في شرح سنن أبي داود وشرح البخاري وغيرهما ، ولد ٣١٧ وتـوفي ٣٨٨ هـ . انظر وفيـات الأعيان (١ : ٤٤٣ ، برقم ١٩٦) وقاموس الأعلام ٧٧٦ .

(٤) الحلكة : شدة السواد . والعجم هنا : النواة ، يريدالسواد والظلمة الذي أحاط بها .

(٥) أبو الحسن منصور بن إسماعيل بن عمر التميمي المصري الفقيه الشافعي الضرير ، أصله من رأس عين الجزيرة ، كان أديباً شاعراً مجيـداً متفنناً لـه حظ من كل علم . قـدم مصر وبها توفي ٣٠٦ هـ ترى أحوالـه وأشعاره في الـوفيات (٥ : ٣٧٦ ، بـرقم ٧١٢) ومعجم الأدباء (١٩ : ١٨٥) .

قـد أولـع النـاس بـالتـلاقي | والـمـرء صبٌّ إلـى مُنـاه[1]
وإنّـمـا منـهـمُ صـديـقي | مَـن لا يـرانـي ولا أراه!
كـن لأرض الـبيـت حِلسـاً | وارض بـالـوحـدة أنسـا[2]
لـسـت بـالـوجـد خـلاًّ | أو تـردّ الـيـوم أمـسـا
مـا رأيـنـا أحـداً يـسـ | ـوي على الخِبـرة فلسـا[3]

وقـال :

الـنـاس بـحـر عـمـيـق | والـبـعـد عـنـهـم سـفـيـنـه
وقـد نـصـحـتـك فـانـظـر | لـنـفـسـك الـمسـتـكـيـنـه[4]
كـلّ مـن أصـبـح فـي دهـ | ـرك مـمـن قـد تـراه
فـهـو فـي خـلـفـك مـقـرا | ضٌ وفـي الـوجـه مـراه
ألـم تـر كـيـف قـد قـلّ الـكـرام | وكـيـف انـحطّ في السـفـل الأنـام
وكيف غدت عقـول الناس فـوضى | كـأنّ الـجهـل بـينـهـم اقـتـسـام
فـلا تجـب الـبـلاد فـكـلّ أرض | كـذلـك ، غـالـب فيـهـا اللئـام
وكـن طلقـاً ، لـكـلّ يـدٍ نـوالٌ | كمـا قـالـوا : لكـلّ غـد طعـام
فـإن تـك سـائـلاً عنّي فـإنّي | لأهـل الـفـضـل كـلّهم غـلام
أُحـبّـهـم لأنّـهـم قـلـيـل | وفي الأنـذال والسفل ازدحـام[5]
اعـلم بـأنّ الـنـاس مـن طيـنـة | يصـدق في الثُلب لـهـا الثـالـب
لـولا عـلاج الـنـاس أخـلاقـهـم | إذاً لـفـاح الـحـمـأ الـلّازب[6]
إذا مـا الـنـاس جـرّبـهـم لـبيـب | فـإنّـي قـد أكـلتـهـم ذواقـا[7]

---

(١) الصب : العاشق وذو الولع الشديد .

(٢) في هامش الأصل : «الحلس : البلاس ، وفي الحديث : كن حلس بيتك» والكلمة مصحفة في الأصل والهامش بالخاه المعجمة .

(٣) كذا في الأصل ، ولعل الصواب : لدى الخبرة .

(٤) في الأصل «المسكينة» والتصحيح من الوفيات ومعجم الأدباء .

(٥) في الأصل : وفي السفل .

(٦) فاح المسك : انتشرت رائحته . الحمأ : الطين الأسود .

(٧) ذاق الشيء ذواقاً : اختبر طعمه .

فلم أر ودّهم إلاّ خداعاً ولم أر دينهم إلاّ نفاقا
كلّ الأنام كلاب هرّوا بكلّ طريق[1]
فإن ظفرت بحرّ فاحفظه فهو سلوقي

فإذا كان الشرّ فاشياً ، والآفة عامّة ، والطينة فاسدة ، والعقول مدخولة ، وجب علينا ملازمة الخلوة .

وفي بعض الآثار : وجدنا خير الدنيا والآخرة في الخلوة والقلّة ، وشرّهما في الكثرة والخُلطة . وفي بعضها : إذا أراد الله أن ينقل العبد من ذلّ المعصية إلى عزّ الطاعة آنسه بالوحدة وأغناه بالقناعة ، وبصّره عيوب نفسه ، ومن أُعطي ذلك أُعطي خير الدارين .

ورأى أياس بن قتادة العبشميّ[2] شيبة في لحيته فقال : أرى الموت يطلبني ، وأراني لا أفوته ، أعوذ بك من فجاءة الأمور ، يا بني سعد ! قد وهبت لكم شبابي فهبوا لي شيبتي ولزم بيته ، فقال له أهله : تموت هزلاً ، فقال : لأن أموت مؤمناً مهزولاً أحبّ إليّ من أن أموت منافقاً سميناً .

وقال عمرو بن عُبيد[3] للمنصور : إنّ الله أعطاك الدنيا بأسرها فاشتر نفسك منه ببعضها وإنّ هذا الّذي أصبح بيديك لو بقي في يد من كان قبلك لم يصر إليك[4] ، فاحذر ليلة تمخض بيوم هو آخر عمرك فبكى المنصور . ثمّ

---

(١) هر الكلب : صات دون نباح .

(٢) نسبة إلى عبد شمس .

(٣) أبو عثمان عمرو بن عبيد بن باب ، المتكلم الزاهد المشهور ، مولى بني عقيل . شيخ المعتزلة في عصره كان جده من سبي كابل ، وأبوه نساجاً ثم شرطياً للحجاج في البصرة . أخذ العلم عن الحسن البصري واشتهر بالعلم والزهد وأخباره مع المنصور العباسي ، وفيه قال المنصور :

كلكم يمشي رويد كلكم طالب صيد
غير عمرو بن عبيد

ولد سنة ٨٨ وتوفي ١٤٤ هـ . أنظر الوفيات (٣ : ١٣٠ ، برقم ٤٧٦) .

(٤) في الوفيات : لم يصل إليك .

قال : سلِ حاجتك ، قال : نعم يا أمير المؤمنين ! لا تعطني حتّى أسألك ، ولا تدعني حتّى أجيئك .

وحكي أنّ الرشيد طاف بالبيت فوطىء جرادة فلم يدر ما عليه فيها ، فبعث المأمون إلى الفضيل بن عياض[1] فسلّم عليه ، وقال : أمير المؤمنين يقرأ عليك السّلام ويقول : لنا إليك حاجة فأُحبّ أن تصير إلينا ، فلم يجب الفضيل بشيء ، فرجع المأمون وقال : رأيت رجلاً ليست به إليك حاجة ، فقام الرشيد مغضباً حتّى تخوّفنا على الفضيل ، فقال : رحمك الله قد كان الواجب أن تأتينا وتعرف حقّنا ، إذ ولّانا الله أُموركم ، وصيّرنا الحكّام عليكم ، والذابّين عن حريمكم . وإذ لم تأتنا فقد أتيناك ، إنّي وطئت الآن على جندبة فما ديتها ؟ فبكى الفضيل بكاءً شديداً حتّى علا صوته ، وقال : إذا كان الراعي يسأل الغنم هلكت الغنم وإنّما يجب على الراعي أن يرتاد لغنمه أمن المرعى ، وأجود الكلاء ، فإذا كنت يا أمير المؤمنين عن معالم الدين غافلاً فبأيّ شيء تسوس الرعيّة ؟ فخجل الرشيد حتّى عرق وانصرف .

وممّا يؤنس بالعزلة ويوحش عن الخُلطة ما يحكى عن الحسن أنّه قال : كلمات أحفظهنّ من التوراة : قنع ابن آدم فاستغنى ، واعتزل الناس فسلم ، وترك الشهوات فصار حرّاً ترك الحسد فظهرت مروءته ، صبر قليلاً فتمتّع طويلاً .

وحكى بعضهم قال : كنت في سفينة ومعنا شابّ من العلويّة فمكث معنا سبعاً لا نسمع كلاماً ، فقلنا : يا هذا ! جمعنا الله وإيّاك منذ سبع ولا نراك تكلّمنا ، فأنشأ يقول :

---

(١) أبو علي الفضيل بن عياض بن مسعود التميمي اليربوعي ، شيخ الحرم ، من أكابر العباد الصلحاء ، كان ثقة في الحديث ، أخذ عنه الشافعي وغيره أصله من الكوفة وولد في سمرقند ١٠٥ سكن مكة وتوفي بها ١٨٧ هـ وفي الوفيات : يحكى أن الرشيد قال له يوماً . ما أزهدك ! قال له الفضيل : أنت أزهد مني ، قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأني أزهد في الدنيا ، وأنت تزهد في الآخرة والدنيا فانية والآخرة باقية . انظر الوفيات (٣ : ٢١٥ ، برقم ٥٠٤) وقاموس الأعلام : ٧٧٦ .

قليل الهمّ لا ولد يموت ولا أمر يحاذر أن يفوت
قضى وطر الصبى وأفاد علماً فغايته التفرّد والسكوت

وكان الفضيل يقول : إنّي لأجد للرجل عندي يداً إذا لقيني ألاّ يسلّم عليّ ، وإذا مرضت أن لا يعودني .

وقال إسحاق بن إبراهيم : إذا لم يكن في العزلة أكثر من أنّك لا تجد أعواناً على الغيبة لكفى .

وفي العزلة[1] السَّلامة من آفة الرياء ، والتصنّع للناس ، واستعمال المداهنة لهم ، والمداراة في رضاهم .

وفيها السلامة من المآثم ، والمنكر تراه فلا تغيّره ، والأمان من غوائل أهله وعاقبتهم إذا غيّره . قال الفضيل : من خالط الناس لا يسلم من أحد اثنين : إما أن يخوض معهم إذا خاضوا في الباطل ، أو يسكت إن رأى منكراً فيأثم .

وفيها السلامة من الآفات ، والنظر إلى زينة الدنيا وزهرتها ، والإستحسان لما ذمّه الله من زخرفها ، ومنع النفس من التطلّع إليها ، والاستشراف لها ، وعن مخاتلة أهلها ، ومنافستهم عليها قال الله تعالىٰ : **﴿ولا تمدّن عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه﴾**[2] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «انظروا إلى من هو دونكم ، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم» وأنشد :

إذا كنت تهوى أن تسرّ فلا تكن على حالة إلاّ رضيت بدونها

ونسب الماورديّ[3] هذا البيت إلى الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وليس بصحيح

---

(١) وانظر في فوائد العزلة ومضارها مضافاً إلى إحياء العلوم ، جامع السعادات للنراقي (٣ : ١٩٣ ـ ١٩٨) .

(٢) سورة طه ؛ الآية : ١٣١ .

(٣) القاضي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب ، من علماء الشافعية الباحثين ، كان متبحراً =

لأنّه صلى الله عليه وآله وسلم لم ينظم الشعر ، وقد ذكرت هذا البيت والردّ على من نسبه إليه صلوات الله عليه مستوفى في كتابي الموسوم بالاثني عشريّة .

ومن عزّ العزلة وفوائدها أنّها خالعة عنك ذلّ الإحسان ، وقاطعة رقّ الأطماع ، ومفيدة عزّ اليأس عن الناس . وبحقٍّ ما قال من قال : مَن آثر العزلة حصل العزُّ له ، وقيل : العزلة عن العامّة مروءة تامّة ، وقيل : معاشرة الأشرار تورث سوء الظنّ بالأخيار .

وفي العزلة أنّها تستر الفاقة ، وتكفّ جِلباب التجمّل ، والتجمّل من شيم الأحرار ، وشمائل ذوي الأخطار ، وأنشدوا :

لا عار إن زالت عن الحرّ نعمة ... ولكنّ عاراً أن يزول التجمّل
إنّ الكريم ليُخفي عنكَ خلّته ... حتّى تراه غنيّاً وهو مجهود[1]
كم فاقة مستورة بمروءة ... وخصاصة مطويّة بتجمّل[2]
لو سوّد الهمّ الملابس لم تجد ... بيض الثياب على امرىء في محفل

وفي العزلة فوائد منها أنّها معينة لمن أراد نظراً في علم ، أو إثارة لدفين رأيٍ ، واستنباطاً لحكمة ؛ لأن شيئاً منها لا يتمّ إلاّ مع خلا الذرع وفراغ القلب ، ومخالطة الناس ملغاة ومشغلة .

وقال بعض الحكماء : من الطيور من جعل راحته في اعتزال العمران ، وآثر المواضع النائية عن الناس فليتشبّه به من أراد النظر في كتب الحكمة .

ولمّا أخذ محمّد بن الحسن الشيبانيّ[3] في تصنيف الجامع الكبير ، خلا

في المذهب ، ولد في البصرة ٣٦٤ هـ وانتقل إلى بغداد ، وولي القضاء في بلدان كثيرة ، وجعل أقضى القضاة في أيام القائم بأمر الله العباسي ، نسبته إلى بيع ماء الورد ، توفي ٤٥٠ انظر الوفيات (٢ : ٤٤٤ ، برقم ٤٠١) والأعلام : ٦٩٠ .

(١) الخلة ـ بالفتح ـ هنا : الفقر والحاجة .

(٢) الخصاصة : الفقر ؛ قال تعالى : ﴿**ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة**﴾ (الحشر : ٩) .

(٣) أبو عبد الله إمام الفقه والأصول ، كان من موالي بني شيبان ، وهو الذي نشر علم أبي حنيفة ولد بواسط ١٣١ هـ ونشأ بالكوفة وقدم بغداد فولاه الرشيد القضاء بالرقة ثم عزله ، =

في سرداب وأمر أهله أن يراعوا أمر غذائه ووضوئه فيقدّموا إليه حاجته منهما ، وأن لا يوردوا عليه شيئاً يشغلوا خاطره ، وأقام في ماله وكيلاً ، وفوَّض إليه أمره كلّه ، ثمّ أقبل على تصنيف الكتاب ، فلم يشعر إلاَّ رجل نزل إليه حتّى وقف بين يديه فأنكره ، فقال : من أنت ؟ فقال : أنا صاحب الدار أبيعها[1] من فلان ـ يعني وكيله ـ فاحتاج إلى الانتقال .

وقال بعض الأخيار : لا يتمكّن أحد من الخلوة إلاّ بالتمسّك بكتاب الله ، والمتمسّكون بكتاب الله هم الّذين استراحوا من الدنيا بذكر الله ، الذاكرون الله بالله ، عاشوا بذكر الله وماتوا بذكر الله ولقوا الله بذكر الله .

وقيل لبعض العبّاد : ما أصبرك على الوحدة ! فقال : ما أنا وحدي ، أنا جليس الله جلّ وعزّ ! إذا شئت أن يناجيني قرأت كتابه ، وإذا أردت أن أُناجيه صلّيت .

وقيل لبعضهم : إلى أيّ شيء أفضى بكم الزهد والخلوة ؟ فقال : إلى الأُنس بالله .

وحكى سفيان بن عيينة[2] قال : لقيت إبراهيم بن أدهم في بلاد الشام ، فقلت : يا إبراهيم ! تركت خراسان وبلادك ؟ قال : ما تهنّأتُ بالعيش إلاَّ هٰهنا ، من شاهق إلى شاهق فمن رآني يقول : موسوس أو جمّال أو ملاّح .

وقيل للحسن : يا أبا سعيد ! هٰهنا رجل لم نره قطّ جالساً إلاَّ وحده خلف

= ولما خرج الرشيد إلى خراسان خرجته الأُولى صحبه فمات في الري ١٨٩ هـ يوم موت الكسائي فيه أيضاً ـ على ما قال السمعاني ـ قيل : ان الرشيد قال : دفنا الفقه والعربية بالري . له كتب نادرة منها الجامعان الكبير والصغير في الفروع ، ولهما مرتبة جليلة عند العلماء ، وشرحهما عدة منهم . انظر الوفيات وكشف الظنون ط استنبول (١ : ٥٦١ ، ٥٦٧) .

(١) كذا في الأصل والصواب : ابتعتها .

(٢) ابن ميمون الهلالي الكوفي ، المحدث الحافظ ، قال الشافعي : لولا مالك وسفيان لذهب علم الحجاز ، حج سبعين سنة ، ولد بالكوفة ١٠٧ وتوفي بمكة ١٩٨ هـ . أُنظر وفيات الأعيان (٢ : ١٢٩ برقم ٢٥٣) والأعلام ٣٧٥ .

سارية[1] ، فقال الحسن : إذا رأيتموه فأخبروني به فنظروا إليه ذات يوم فدلّوا الحسن عليه ومضى الحسن إليه وقال له : يا عبد الله! أراك قد حبّبت إليك العزلة فما يمنعك من مجالسة الناس ؟ فقال : أمرٌ شغلني عن الناس ، قال : فما يمنعك أن تأتي هذا الرجل الّذي يُقال له الحسن ؟ فقال : أمرٌ شغلني عن الناس وعن الحسن ، فقال الحسن : وما هذا الشغل رحمك الله ؟ قال : إنّي أُصبح وأُمسي بين نعمة وذنب ، فرأيت أن أشغل نفسي بذكر الله على النعمة والاستغفار على الذنب ، فقال له الحسن : يا عبد الله أنت عندي أفقه من الحسن فالزم ما أنت عليه .

وكان الفضيل يقول : إذا رأيت اللّيل مقبلاً فرحت به ، وقلت : أخلو بربّي ، وإذا رأيت الصبح أقبل استرجعت[2] كراهية لقاء الناس ، وأن يشغلني عن ربّي .

ومن آفات الخلطة : التمضمض بأعراض الناس ، والتفكّه بمعائبهم ، والاسترواح بذكرهم ، فإن خاوضتهم فيه أثمت ، وإن سكتّ شاركت ؛ فالمستمع أحد المغتابين .

ومنها : لزوم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر اللّذين السكوت عنهما معصية ، والوفاء بهما يعرض لصنوف من المكروه ، ربّما يجرّ طلب الخلاص منه إلى معاصي أكبر ممّا نهي عنه ، وقلّ ما يخلو الآمر فيه من إثارة الخصومات وتحريك غوائل الصدور .

وكم سُقت في آثاركم من نصيحة ... وقد يستفيد البغضةَ المتنصّحُ

وما مثله إلاّ كجدار مائل يريد الإنسان أن يقيمه فيوشك أن يسقط عليه ، نعم لو وجد أعواناً يمسكون الحائط حتّى يدعمه استقام ، وأنت اليوم لا تجد الأعوان فدعهم وأنج رأسك .

---

(١) السارية هنا : الأسطوانة .

(٢) بهامش الأصل : أي أقول : إنّا للّه وإنّا إليه راجعون .

ومنها : أنّ من خالط الناس داراهم ، ومن داراهم راياهم وأثنى عليهم بحقّ وباطل ، والمخالط إذا جامل المعاندين صار من شرار الناس الّذين قال فيهم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : «إنّ من شرار الناس ذا الوجهين» يأتي هؤلاء بوجه وهؤلاء بوجه وإن لم يلقهما جميعاً بما يوافقهما ثقل عليهما وعادياه . وأدنى ما يقوله من يلقى الناس المسألة عن الحال والأهل ، والباطن في خلا من الاهتمام بذلك ، ثمّ ذكر الشوق إلى اللّقاء ولعلّه لو عاش سنين لا يذكره ، ولئن كان إليه شيء من المحبّة والميل فالعادة جارية في التزيّد على ما هو عنده .

قال السريّ[١] : لو دخل عليَّ أخ فسوّيت لحيتي بيدي[٢] لدخوله لخشيت أن أُكتب في ديوان المنافقين .

وكان الفضيل جالساً وحده في المسجد الحرام فجاء إليه أخ له ، فقال له : ما جاء بك ؟ قال : المؤانسة يا أبا عليّ ، فقال : هي والله بالمواحشة أشبه ! هل تريد إلّا أن تتزيّن لي وأتزيّن لك وتكذب لي وأكذب لك ، إمّا أن تقوم عنّي وإمّا أن أقوم عنك .

ولقي حاتم الأصمّ حامد اللّفّاف فقال : كيف أنت في نفسك ؟ فقال : سالم معافى فكره حاتم جوابه ، فقال : يا حامد ! السلامة من وراء الصراط ، والعافية في الجنّة .

وقال ابن سيرين[٣] لرجل : كيف مالك ؟ فقال : وما حال من عليه خمسمائة درهم ؟ فقال له : خذ منّي خمسمائة درهم تقضي بها دينك وخمسمائة

---

(١) أبو الحسن سري بن المغلس السقطي ، من أعلام المتصوّفة ، بغدادي المولد والوفاة ٢٥١ هـ وهو خال الجنيد وتلميذ المعروف الكرخي ومن كلامه : من عجز عن أدب نفسه فهو عن أدب غيره أعجز . وفيات الأعيان (٢ : ١٠١ برقم ٢٤٢) والأعلام : ٣٦١ .

(٢) في الأصل : «بيده» وهو سهو ظاهر .

(٣) أبو بكر محمد بن سيرين البصري ، التابعي الفقيه الورع ، اشتهر بالفقه والحديث وتعبير الرؤيا ، أبوه عبد لأنس بن مالك وأُمه صفية مولاة أبي بكر ، كان من أصحاب الحسن البصري ثم تهاجرا ، ولد سنة ٣٣ وتوفي سنة ١١٠ هـ وفيات الأعيان (٣ : ٣٢١ ، برقم ٥٣٧) الأعلام ٩٠٣ .

درهم تغدو بها على عيالك . ولم يكن عنده غيرها . ثمّ قال : والله لا أسأل أحداً عن حاله أبداً وإنّما فعل ذلك مخافة أن يصير سؤاله من غير اهتمام بأمره نفاقاً ورياءً . ولذلك كان سؤالهم أبداً عن أُمور الدين وأحوال القلب في معاملة الله ، وإن سألوا عن أُمور الدنيا فعن اهتمام وعزم على القيام بما يظهر لهم من الحاجة ، وسدّ ما يبيّن من الخلّة .

وقال بعضهم : إنّي لأعرف أقواماً كانوا لا يتلاقون ، ولو حكّم أحدهم على صاحبه بجميع ما يملكه لم يمنعه ، وأرى الآن أقواماً يتلاقون ويسألون عن الدجاجة في البيت ولو انبسط أحدهم بحبّة من ماله لمنعه ، فهل هذا إلّا محض الرياء والنفاق ؟ ومن هذا ترى المتلاقين يقول هذا : كيف أنت ؟ ويقول صاحبه : كيف أنت ؟ فالسائل لا ينتظر الجواب والمسؤول لا يشتغل بالسؤال ولا يعرج على الجواب ، علماً من الجانبين أنّ ذلك سؤال رياء وتكلّف ، لا سؤال اهتمام وتلطّف . ولو لم يكن في الخلطة إلّا استصغار ما في الناس من الأخلاق الذميمة والأفعال القبيحة بسبب طول المشاهدة وكثرة الرؤية ، ولو لم يكن فيها إلّا أحد الشرّين : إمّا مخالقة الناس بأخلاقهم ، أو مقتهم واستثقالهم بالإنكار عليهم لكان في ذلك المحنة العظيمة والبليّة الشديدة والمؤونة الغليظة ، وإذا كانت الرحمة تنزل عند ذكر الصالحين لما يكون عند ذلك من انبعاث القلب على الإقتداء بهم ، والاستنان بسنّتهم ، والتنكّر لما عليه الإنسان من القصور والتقصير ، فعلى مقابلته تنزل اللّعنة عند ذكر الفاسقين لما يعرض ذكرهم من أضداد هذه الخصال . فإذا كان هذا حال الذكر فكيف يكون حال المشاهدة ؟ ولا خفاء بأحوال أهل هذا الزمان وبُعدهم عن مذاهب الصالحين .

وقال بعضهم ـ ونعم ما قال ـ : إنّ رؤية أهل زماننا تميت القلوب ، وذكر الصلحاء السابقين يحيي القلوب ، فليكن الرجل السعيد على ترك لذكرهم ، وبمعزل عن لقائهم فإنّهم يؤذونه مرّة بالغيبة ومرّة بسوء الظنّ والتهمة ، ومرّة بالإقتداحات المجحفة والأطماع الكاذبة ، ومرّة بالنميمة عنك أو الكذب عليك . وربّما يرون من أعمالك ويسمعون من أقوالك ما لا يبلغهم فهمه ، ولا تتناول عقولهم كنهه ، فيظنّون ظنّ السوء ويسيئون بذلك فيفشون بك إلى أعدائك ،

ويتّخذونه وليجة إلى أذائك .

قال بعض الحكماء لصاحب له : أُعلّمك بيتاً هو خير من عشرة آلاف درهم ، ثمّ أنشد :

اخفض الصوت إن نطقت بليل والتفت بالنهار قبل الزوال
ليس للقول رجعة حين يبدو بقبيح يكون أو بجمال
إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه وصدّق ما يعتاده من توهّم
وعادى محبّيه بأوهام نفسه وأصبح في ليل من الشكّ مظلم

وأيضاً ؛ فإنّ ظاهر أحوال الناس جميل والمخالطة تكشف عن عيوبهم وتصرّح العلم بمشوبهم ومن هذا قول أبي الدرداء : أخبر تُقِله[1] وأنشد :

من حمد الناس ولم يبلهم ثمّ بلاهم ، ذمّ من يحمد
وصار بالوحشة مستأنساً يوحشه الأقرب والأبعد

وكان بعض الأعراب يلزم شجراً ويقول : هو نديم إن سمع منّي لم ينمّ عليّ ، وإن تفلت في وجهه احتمل ، وإن عربدت معه لم يغضب ، يحدّثني بحفيفه وينفعني بظلّه ويطعمني من ينعه[2] فسمع الرشيد ذلك ، فقال : زهّدني[3] في الندماء .

وكان بعضهم يلزم الدفاتر والمقابر ، فقيل له في ذلك فقال : لم أر مؤنساً أسلم من وحدة ، ولا صاحباً أوعظ من قبر ، ولا جليساً أمتع من دفتر .

وقال سفيان بن عيينة : قال بعض العارفين في اليقظة في حياته وفي المنام بعد موته أقِلَّ من معرفة الناس ؛ فإنّ التخلّص منهم شديد ، ولا أحسب رأيت ما أكره إلّا ممّن عرفت .

---

(١) من الإقالة . وبهامش الأصل : أي تهجره وتتركه إذا اختبرته .
(٢) بتقديم الياء على النون : ثمر الشجر .
(٣) زهده في الشيء وعنه : ضد رغبه فيه .

وجمع بعض العلماء آداب العزلة فقال : أوّل ذلك أن ينوي المعتزل بعزلته كفّ شرّ نفسه أوّلاً ، ثم طلب السلامة من شرّ الأشرار ثانياً ، ثمّ الخلاص من آفة القصور عن القيام بالحقوق ثالثاً ، ثم التجرّد بكنه الهمّة لعبادة الله رابعاً ، ثمَّ ليكن في خلوته مواظباً على العلم والعمل والذكر والفكر ليجتني من هذه الأشجار الأربعة ثمار العزلة وليمنع من أن يكثروا غشيانه وزيارته فيتشوش وقته ، وليكفّ عن السؤال عن أخبارهم وأحوالهم فوقوع الأخبار في السمع مثل وقوع البذر في الأرض لا بدّ أن ينبت في القلب منه وساوس وهموم وأحاديث ، ويتفرّع فروعها وأغصانها وتتبع أحاديث النفس أحزانها وأشجانها ، والمعتزل عن جميع ذلك بمندوحة[1] ؛ فما أحراه بقطع الوساوس الصارفة عن ذكر الله تعالىٰ ! وليقنع باليسير من المعيشة مطعماً وملبساً ومسكناً وإلاَّ ألجأه التوسّع إلى الناس وليجتنب من مدح الناس اعتزاله وذمّهم أفعاله ، ما يحول بينه وبين قلبه ، وكلّ ما حال وشغل وقف عن السير في طريق الآخرة ، والسير السريع إليها هو بالمواظبة على ورد وذكر مع حضور القلب ، أو بالفكر في جلال الله تعالىٰ وحكمته وقدرته ، أو بالتأمّل في دقائق الأعمال ومفسدات الأحوال ، تخليصاً للقلب عنها وتحرّزاً للنفس منها ، وليعلم أنّ من لا يتمكّن في قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به لم يحتمل وحشة العزلة ، ومن تمكّن في قلبه ذلك لم يحتمل أذى الخلطة ، وتمنّى التوحّد بجهده ويضيق ذرعاً بغيره ، ويكون أُنسه في البوادي والقفار والمواضع الأغفال عن الناس .

وإنّي لأستنعس وما بي نعسة لعلّ خيالاً منك يلقى خياليا
وأخرج من بين الجلوس لعلّني أُحدّث عنك النفس بالسرّ خاليا

وقيل : الانفراد في الخلوة أجمع لدواعي السلوة[2] ، ومنه قولهم : خلاؤك أقنى لحيائك[3] .

---

(١) أي في سعة منها .

(٢) بضم السين وبفتحها : رغد العيش وكشف الهم .

(٣) قنى المال واقتناه : جمعه . الحياء : لزمه والحياء هنا : الحشمة .

وكان بعض العارفين يقول : مكابدة[1] العزلة أيسر من مداراة الخلطة . وكان يقول : من أراد أن يسلم له دينه ويستريح بدنه وقلبه فليعتزل الناس ويستوحش من الأغنياء ، وليجانب السلطان كما يجانب الرجل السباع الضارية والهوامّ العادية .

وسئل عن الخلوة فقال : إنّ السلامة مصاحبة لمن طلب السلامة بترك المخالطة وترك التطّلع إلى ما أوجب العلم مفارقته ، والحياء مجانبته .

وقال ذو النون[2] : لم أر شيئاً أبعث لطلب الإخلاص من الوحدة ، لأنّه إذا خلا لم ير غير الله ، وإذا لم ير غيره لم يحرّكه إلاّ حكمة[3] . ومن أحبّ الخلوة فقد تعلّق بعمود الإخلاص ، واستمسك بركن شديد من أركان النجاة .

ورأى إبراهيم الخوّاص رجلاً في البادية حسن الأدب حاضر القلب فسأله فقال : كنت أعمل بين الناس ، والمعارف في التوكّل والرضا والتفويض ، فلمّا فارقت المعارف لم يبق لي ممّا كان معي من ذلك ذرّة ، حجبت حتّى أُطالب نفسي هٰهنا بدعائها إذا انفردت عن المعلومات والمعارف .

وكان أبو المسيّب من كبرائهم ، وكان ينفرد في المساجد الشعثة ، وصادفه الدرّاج ليلة في المسجد فقال : من أين أنت ؟ فقال : أنا من كلّ مكان ، فقال : ومن كان من كلّ مكان فما علامته ؟ قال : لم يستوحش من شيء ولم يستوحش منه شيء ، قال : فحملت إليه الشبليّ فنظر إليه ، فقال : ليس هذا من دوابّ هذا الإصطبل فأين سمته[4] ؟ .

---

(١) كابد الأمر : قاساه وتحمل المشاق في فعله .

(٢) أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم ، من رجال الطريقة قال ابن خلكان : كان أحد وقته علماً وورعاً وحالاً وأدباً ، وهو معدود في جملة من روى الموطأ عن الإمام مالك ، وكان أبوه نوبياً ـ وقيل : من أهل أخميم ـ مولى لقريش . وكان قد سعوا به إلى المتوكل العباسي فاستحضره من مصر ، فلما دخل عليه وعظه ، فبكى المتوكل ورده مكرماً وتوفي بها ٢٤٥ هـ أنظر الوفيات (١ : ٢٨٠ ، برقم ١٢٦) والأعلام : ١٧٣ .

(٣) كذا في الأصل بالتاء . وأظن أن الصواب «حكمه» بالهاء .

(٤) بهامش الأصل مكان «فأين» : «فأقف ظ أي اتبع» وهو سهو ، والسمت : الطريق والمحجة ، والمعنى ظاهر .

وعن بعض الحكماء حين قيل له : لما رفضت الناس ؟ فقال : لم أر إلاّ عدوّاً يداجيني [(١)] بعداوته ، وصديقاً يعدّ علي معايبي في أيام صداقته ، ثمّ أنشد :

أُناس أمنّاهم فنمّوا حديثنا ... فلما كتمنا السرّ عنهم تقوّلوا
ولم يحفظوا الودّ الّذي كان بيننا ... ولا حين همّوا بالقطيعة أجملوا

آخر :

لا تصحبنّ ممازقاً ... خلط المرارة بالحلاوة
يحصي الذنوب عليك أيّـ ... ـام الصّداقة للعداوة

آخر :

احذر عدوّك مرّة ... واحذر صديقك ألف مرّة
فلربّما انقلب الصديق ... فكان أعرف بالمضرّة

آخر :

اغشش بني آدم فكلّهم ... للّه عاص فكن لهم دغلا
اسقهم المرَّ إن ظفرت بهم ... وامزج لهم من لسانك العسلا
لا تخف بالنازل المقيم ولا ... تبك على ظاعن إذا ارتحلا
من غاب أو حال عن مودّته ... فخلّ عنه واطلب به بدلا
فأنت في الناس واجد بدلا ... إذا طلبت الخلّان والخللا
ولا تقل : أحفظ الذمام ، ولا ... أنس فَلاناً وحسن ما فعلا
ومل مع الريح مثل منتقل ... عن كدر العيش وابتغ الدولا
وكن ذليلاً إذا قُهرت ، فإن ... أحسست عزّاً فكن له بطلا
فقد حلبت الزمان أشطره ... آخذ منه الهموم والجدلا
فلا أرى وافياً بذمّته ... والغدر كلَّ الأنام قد شملا
وكن من الناس من أبيك ـ فلا ... أقرب منه ـ مستوحشاً وجلا

---

(١) داجاه . منعه بين الشدة والرخاء .

إن مستشيراً أتاك منتصحاً … فامدد له كيف ما اشتهى طولا
خلّط على الناس ينسبوك إلى … الظرف وشتّت عليهم السبلا
قدّم وأخّر وآسلك بهم سبلاً … يلقون فيها العثار والزللا
واسخر بهذا الأنام كلّهم … واسرق متاع الرفيق إن غفلا
هذا المساعي وقد أمرت بها … وهي صواب فدونك العملا
إنّ رجال الوفاء قد ذهبوا … لأنّ نجم الوفاء قد أفلا
إنّي رأيت الزمان منقلباً … وكن له من رجاله رجلا
هذا كتابي أخذت نسخته … من فيلسوف بقريتي نزلا

وحديث هذه الأبيات أنّ المأمون مرّ بأنطاكية[١] إلى بلاد الروم فنزل بكوفى - قرية من قرى أنطاكية - فقال : لمن هذا ؟ قالوا : لرجل يُقال له «ابن طلنب» وقال : هو صاحب القصيدة : «اغشش بني آدم» ؟ قالوا : نعم ، قال : وما فعل ؟ قالوا : شيخ كبر ، قال : ائتوني به ، فلمّا مثّل بين يديه استنشده هذا الشعر ، فلمّا بلغ قوله : «إنّ رجال الوفاء قد ذهبوا» قال المأمون : نجوت بهذا البيت بعد أن استحققت التأديب ، اذهب لسبيلك ، فقال : إلى عجائز وصبية يعيّروني بأنّي قد وقفت بين يدي أمير المؤمنين فرجعت صفر اليدين ؟ قال : أو ما ترضى أن تفلت منّا ؟ فقال : لو أضفت هذا الفضل إلى ذلك الفضل ! فضحك المأمون وأمر له بعشرة آلاف درهم .

وممّا جاء من حكايات من آثر الخلوة واختار العزلة ، حديث ذي النون قال : وصفوا لي عابداً بالجزيرة فحملتني نفسي على لقائه فأتيت ممسياً فقلت : السلام عليك يا عابد ، فلم يُجبني ، ثمَّ ناديته فلم يُجبني ، فقلت : بحقّ معبودك إلَّا أشرفت عليّ ، فأشرف علي شيخ ؛ قد سقط حاجباه على عينيه من كبر سنه ، فقلت له : أوصني ، فأومأ بيده إليّ أنّي لا أُكلّم أحداً ، فمكثت عنده يومي فسمعته يقول في مناجاته : إلٰهي عجبت ممّن استأنس بك كيف يستأنس بالمخلوقين ؟ عجبت ممّن عرف خزائن ملكك كيف اتّكل على الآدميّين ؟

---

(١) بهامش الأصل : انطاكية مدينة في بلاد الشام خراب .

فقلت : كفاني من الوصيّة ما قد سمعت فرجعت وأتيت قرية بقربه ، فسألت أهلها : كم هذا الشيخ في هذا المكان ؟ قالوا : منذ تسعين سنة ، قلت : فلمَ لم يكلّمني قالوا : منذ خمسين سنة ما رأيناه يكلّم أحداً ، قلت : من أين طعامه ؟ قالوا : أما رأيت الذي اجتمع حول صومعته : العسل ، ليس يأكل غيره ، وقد عرضنا عليه الطعام غير مرّة فأبى .

وقيل لبعضهم : ههنا أحد يستأنس به ؟ فقال : نعم ومدّ يده إلى مصحف حوله ، فقال : هذا ، وأنشد :

وكتبك حولي لا تفارق مضجعي وفيها شفاء للّذي أنا كاتم
كأنّي سقيم قد أُصيب فؤاده وهنّ حواليّ الرقا والتمائم

وذكر بعضهم قال : بكّرت[1] إلى السريّ يوماً في الشتاء في الليالي الطوال ، فقلت كيف بتّ البارحة ؟ فأنشأ يقول :

أوحش الناس جانبيّ فما أُنسي إلّا بوحشتي وانفرادي

وقال بعضهم : العزلة في الحقيقة اعتزال الخصال المذمومة لا الانقطاع عن الإخوان والتنائي عن الأوطان ، فلهذا قيل للعارف «كائن بائن» أي كائن مع الخلق ، بائن عنهم بالسرّ .

كالبدر يبعد في السماء محلّه وكأنّه معنا لقرب ضيائه

وقال بعضهم : البس مع الناس ما يلبسون ، وتناول ما يأكلون ، وانفرد عنهم بالسرّ ، وعلى هذا لا تتمّ الخلوة ما دام المرء في صحبة النفس وإن عبر دهره وحيداً فريداً .

وسئل بعضهم : كيف الطريق إليه ؟ فقال : زلّ عن الطريق تصل .

وقال أبو سليمان الدرائيّ[2] : ما رجع من رجع إلّا من الطريق ، فإذا

---

(١) أي دخلت عليه بكرة .

(٢) كذا في الأصل والصحيح الداراني وهو نسبة ـ من شواذ النسب ـ إلى «داريا» بتشديد الياء من قرى غوطة دمشق ، اسمه عبد الرحمن بن أحمد بن عطية العنسي ، أحد رجال =

وصلوا إليه لم يرجعوا عنه أبداً .

وسئل عن حقيقة الوصول فقال : أن تزول عنك نفسك ، ولا يأخذ منك وقتك ، ثمّ أنشأ يقول :

ما زلت أعرف أيّامي وأنكرها حتّى استنارت فلا بيض ولا سود
وخاض بي في بحار السكر مختبطا لا القرب قرب ولا التبعيد تبعيد

وممّا يحكى في اعتزال عمل السلطان وترك التصرّف ولزوم البيت واغتنام الكفاية وإعتاق النفس عن ذلّ المطالب أنّ رجلاً من المتصرّفين[1] خرج في عسكر المعتصم وهو يريد مصر ، وقد رأى أن يتصرّف ويتعيّش فلم يحظَ بشيء[2] ممّا أمّل حتّى دخل المعتصم مصر ، قال الرجل : فأصبحت يوماً وقد نفدت نفقتي ، وتقطّعت ثيابي وأنا من الهمّ والغمّ على ما لا يوصف عظماً ؛ فقال لي غلام من غلماني : أيّ شيء تعمل اليوم ؟ فقلت : هذا لجام الدابّة فبعه فإنّه محلّى بالفضّة وابتع مكانه لجاماً حديداً ، واشتر لنا خبزاً سميداً[3] وجدياً سميناً ، فقد والله قرمت إليه[4] وعجّل ولا تدع أن تبتاع ممّا تبتاعه كوز نبيذ شيرويّ[5] ، فمضى الغلام وحصلت مفكّراً في أمري ومن ألاقي وما أعمل ، فإذا بباب الدار قد دقّ دقّاً شديداً حتّى كاد أن ينكسر ، فإذا رهجٌ شديدٌ ، فقلت لغلام لي كان واقفاً بين يديّ : بادر فانظر ما هذا ، فألى[6] ما يفتح الباب فأُكسر وامتلأت الدار من الغلمان الأتراك وغيرهم فإذا بأشناس حاجب المعتصم ومحمّد بن عبد الملك الزيّات وهو الوزير ، في جملة أهل

= الطريقة وأرباب الجد في المجاهدات ، قال ابن خلكان : وله كل معنى مليح أُنظر الوفيات (٢ : ٣١٣ : برقم ٣٣٦) والأعلام : ٤٨٤ .

(١) المتصرف : الحاكم على قطعة من المملكة ، يقال له بالفارسية «آستاندار» .
(٢) حظي بالرزق يحظى ـ من باب علم ـ : نال حظاً منه ، لم يحظ : لم ينل .
(٣) السميد ـ بالدال المهملة والإعجام أفصح ـ : الدقيق الأبيض .
(٤) قرم ـ من باب علم ـ إلى اللحم وغيره : اشتدت شهوته إليه .
(٥) أظن أنه نسبة إلى شروان .
(٦) أي أبطأ وقصر .

العسكر وقد دخلت فطرحت لهم زيوليّة فجلسا عليها ، فإذا معهم حفّارون ، فلمّا رأيت ذلك بادرت فقبّلت أيديهما فسألاني عن خبري فعرّفتهما إيّاه وأنّي خرجت عن سُرّ من رأى طمعاً في التصرّف ، وذكرت حالي وما قد آلت إليه فوعدا جميلاً ، والحفّارون يحفرون في وسط الدار حتّى ترجّل النهار[1] ، وأنا واقف بين أيديهما وربّما حدّثتهما . فالتفت أشناس إلى محمّد بن عبد الملك ، فقال : أنا والله جائع ، فقال له محمّد : أنا والله كذلك ، فقلت له عند ذلك : يا سيّدي عبد[2] خادمكما قد اتّخذ له شيئاً فلو أذنتما في إحضاره ، فقالا : هات ما عندك ، فقدمت الجدي ، وما كان أُصلح وابتيع لنا فأكلا وغسلا أيديهما ، فقال أشناس : عندك من ذلك الفنّ شيء ؟ قلت : نعم فسقيتهما من الكوز ثلاث أقداح وجعل أحدهما يقول لصاحبه : «ظريف ، وما ينبغي أن يضيّعه اليأس» فبينا نحن على تلك الحال ونفسي قد قويت بما وعداه ، إذا ارتفع التكبير من عند الحفّارين فإذا قد كشفوا عن عشرين مرجلاً[3] دنانير ، فوجّهوا بالبشارة إلى المعتصم وأُخرجت المراجل ، فلمّا عزما أن يقوما قال أحدهما للآخر : فهذا الشّقي الّذي أكلنا طعامه وشربنا شرابه وتركناه بلا شيء ، وهو من أسوء الناس حالاً ندعه هكذا ؟ فقال الآخر : نفعل به ماذا ؟ فقال : نحفن له من كلّ مرجل حفنة فإنّها لا تبيّن فيها ونكون قد أغنيناه ونصدق أمير المؤمنين الخبر[4] ، ثمّ قالا : هات حجرك فجعل كلّ واحد يحفن لي من كلّ مرجل حفنة بالكفّين ، ثمّ حملا المال وانصرفا ، فنظرت فإذا قد أعطياني نحو عشرين ألف دينار ، فانصرفت بانصراف المعتصم إلى العراق والمال معي فابتعت ضياعاً ولزمت منزلي وتركت التصرّف .

وذكر أبو الحسين عبد الله بن محمّد الياقطانيّ قال : كنّا نتعلّم ونحن

---

(١) أي ارتفع وعلا وقام على رجليه .
(٢) في الأصل : «عند خادمكما» وهو لا يوافق ما بعده .
(٣) بكسر الميم وفتح الجيم : القدر .
(٤) أي ننبئه الخبر صدقاً .

أحداث في ديوان إسحاق بن إبراهيم بن مُصعب الظاهريّ [1] وكنت ملازماً مجلس فتى من الكتّاب له مروءة وخلق جميل يعرف بأبي غالب ، قد فرَّ جماعة من الكتّاب تزويراً بمال ، وقف إسحاق على خبرهم فطلبهم وظفر ببعضهم وهرب الباقون ، وكان فيمن هرب الفتى الّذي كنت ألزم مجلسه فغاب سنين كثيرة حتّى مات إسحاق .

فبينا أنا ذات يوم في بعض شوارع بغداد إذا أنا به ، فقلت : أبو غانم [2] ! قال : نعم ، وإذا تحته دابّة في نهاية الفراهة وسرج محلّى ، وعليه ثياب حسنة ، فقلت : عرّفني حالك فقال : في المنزل ، فسرت معه إلى منزله ، فاحتبسني ذلك اليوم فرأيت مروءة حسنة وأمراً جميلاً ، فسألته عن خبره بعد مفرّه واستشرحته إيّاه ، فقال لي : لمّا طلبنا إسحاق استترت فلمّا بلغني ما عامل به من كان معي فيما جنيناه ضاقت عليّ بغداد ولم آمن أن يظفر بي فخرجت على وجهي خوفاً منه ومن عقوبته ، فلم أزل مستخفياً إلى أن وافيت ديار مصر ، ثمّ رحلت عنها وقد نفدت نفقتي ، فبعت آلتي وصرت إلى حلب ، ثمّ منها إلى حمص ، وأنا أُريد مصر للتصرّف [3] ، فما زلت أبيع في كلّ بلدة بعض ما معي حتّى دخلت مصر وما معي إلاّ خمسة دنانير ودابّة وسرج ولجام محلّى وثياب قد أُخلقت ، فوجّهت بالسرج واللجام فبعتهما واستأجرت داراً ، وابتعت سرجاً ولجاماً بغير حلية فكنت أركب كلّ يوم وتعذّر عليّ التصرّف وتفرّق عنّي كلّ ما كان معي ومن كان عندي ، فلم يصبر عليّ إلاّ غلام واحد ، وجعلت حالي كلّ يوم ترقّ وتضعف حتّى اضطررت إلى بيع الدابّة فبعتها وبعت السرج وأنفقت

---

(١) الصواب : إسحاق بن إبراهيم بن معصب الخزاعي ، وهو ابن أخي طاهر بن الحسين ذي اليمينين كان صاحب شرطة بغداد أيام المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل ، واستخلفه المأمون على بغداد حين قصد غزاة الروم سنة ٢١٥ هـ ، وسيره المعتصم في جيش كبير لقتال بابك الخرمي توفي ٢٣٥ هـ وجزع المتوكل لموته الأعلام : ٩٦ و «الظاهري» مصحف «الطاهري» نسبة إلى طاهر المذكور ، مع أن صاحب الترجمة ليس من أولاد طاهر .

(٢) كذا بالأصل ، وقد سبق أنه أبو غالب .

(٣) أي للتعيش فيها .

الثمن ، ثمّ جعلنا نبيع ما في البيت فنبيعه حتّى لم يبق في البيت شيء سوى البيت وأيست من الفرج ، وأصبح الغلام ذات يوم فقال : يا مولاي أيش[1] تعمل ؟ فقلت : لا والله ما أدري فخذ منطقتي فبعها وابتع لنا ما نحتاج إليه وابتع لنا لحماً بدرهم واجعلها في التنّور واجعل تحته جوذابه (؟) فقد قرمت نفسي إلى ذلك ، فخرج الغلام وبقيت في الدار وحدي وأُفكّر في أمري وأنا في دار غربة ، لا أحد يعرفني ، ولا إنسان يسعفني[2] ولا لي وجه التصرّف ، ولا شغل يلوح ، فضاق صدري ولحقني ما كاد يغلب على عقلي ، فبينا أنا على تلك الحال ، إذا جرذ[3] قد خرج من كوّة البيت الّذي أنا فيه جالس وفي فيه دينار فوضعه ، ثمّ عاد إلى موضعه فما زال ينقل نحو ثلاثين ديناراً ، فصففها وجعل يتقلّب عليها ويلعب ويرقُص وأنا أنظر إليه ، وقد قويت نفسي وزال الفكر عنّي ، وحدث لي فكر في حفر الموضع وطرح الجرذ عنه ، والجرذ على حاله في رقصه وتقلّبه ، ثمّ ضجر فابتدأ وأخذ ديناراً ليردّه فذهبت وقمت (كذا) فأخذت الدنانير وجمعتها وشددتها ، وجاء الغلام ومعه ما قد ابتاعه فتغدّينا جميعاً ، فقلت له : يا بنيّ قم فابتع لنا فأساً ، قال : لأيّ شيء تريد ؟ هذا والله من عمل الفكر السوداويّ ! فعرّفني قد عزمت على هدم دار القوم ؟ فضحكت وحدّثته بالحديث فكاد يموت فرحاً ومضى وابتاع الفأس ، وأغلقت الباب وحفرنا الموضع فوجدنا برنيّة[4] فيها تسعة آلاف دينار فأخذناها وأصلحنا الموضع ، فقال لي غلامي : إمّا أن أخذت[5] بها سفائح[6] وأنفذني بها وأقمت بموضعك ، فإذا صحّت لنا السفائح ببغداد كتبت إليك فقدمت ، وإمّا أن أخذت السفائح وشخصت وأقمت ، فإذا صحّت كتبت إليّ ، فقلت له : هذا هو الرأي فأخذت سفيحة بالمال بعد أن تركت منه ما أحتاج إليه لمؤونتي ونفقة سفري ، وأنفذت الغلام

---

(١) مخفف «أيّ شيء» .

(٢) أسعفه بحاجته : قضاها له .

(٣) بالضم فالفتح : نوع من الفأر ، وفي الأصل بالدال في جميع المواضع سهواً .

(٤) البرنية : إناء من خزف .

(٥) في الأصل : «أما إذا أخذت» وما أثبتناه أوفق بما يأتي .

(٦) جمع السفيحة ، وهي الكساء الغليظ .

بهـا فلما كتب إليّ بصحّتهـا شخصت فـوافيت وأصلحت منـزلي وتـأثّثت وابتعت ضيعـة ومشتغـلاً وتـركت التصـرّف وتنكّـرت عمـل السلطان ، واغتنمت الـدعـة والفراغ ، فهذا جرى . فدعوت له وانصرفت .

وكـلّ ما ذكـر من أنواع العـزلـة والحثّ عليهـا في هـذا الفصـل فهـو عين العقل ؛ فإنّ العقلاء إنّما اختاروا العزلة لقلّة إخوان الصفا وخُلّان الوفاء وإلّا فهم علمـوا أنّ المعاشـرة مع الأبـرار الصالحين والأخيـار المتّقين أفضل من الـوحـدة والانفراد ، ومن يترك الأخيار اختياراً ابتلي بالأشرار اضطراراً فإن لم نجـد من لم يتحلّ بالعقـل ، ولم يتجمّل بـالعلم[1] والفضل لـزمنا زوايـا البيوت وتـوكّلنا على الحيّ الّذي لا يموت .

---

(١) كذا ، والصواب حذف «لم» من الفعلين .

الفصل الثالث

في صحبة الأنفس الطاهرة ومعاشرتها والانس بالأخلاق الباهرة ومخالطتها

واجب على كلّ أحد أن يحسن ارتياد[1] الأخلاق الطيّبة ، ليستعملها مع الناس في مواضع الصحبة . وأن يخلط نفسه بأهل الخير متخلّقاً بخلائقهم ، ويسيمها[2] في مراعي أُولي الفضل ، سائراً في طرائقهم ويجتهد أن لا يزال القلوب متعلّقة منه بنصيحة أو كفاية في أمر دين أو مهمّ دنيا وأن يستدعي محبّة الناس بالتواضع ومودّة الأخلاء بالمؤانسة والمشاورة والثقة والطمأنينة ، وفائدة العلماء بالخدمة والملازمة ، ونعمة الكبراء بالطاعة والمتابعة يستظهر على من دونه بالإفضال ، وعلى نظرائه بالإنصاف والإجمال ، وعلى من فوقه بالإعظام والإجلال ، وعلى من يناديه ويناويه[3] بحسن الدفع ولين المقال . وليس بحكيم من لا يعاشر من لا يجد في معاشرته بدّاً حتّى يجعل الله له فرجاً ومخرجاً . ومن الأخذ بوثائق الأمور وأزمّة[4] التدبير ، صحبة العقلاء ، فإنّ من استقرى أحوال العاقل فكأنّما يحصي أمواج البحر ، وشآبيب القطر . والعاقل هو الّذي يصافي العاقل ويوافقه ، فأمّا الجاهل فلا يوافق الجاهل ولا العاقل . ومثال ذلك المستقيم من الخطّ الّذي ينطبق على المستقيم فأمّا المعوجّ فإنّه لا ينطبق على

---

(١) ارتاد الشيء : طلبه .

(٢) أسام الماشية يسيمها اسامة : أخرجها إلى المرعى .

(٣) ناواه يناويه ـ وأصله بالهمز ـ : عاداه .

(٤) جمع الزمام : ما يقاد به : وما يشد به .

المعوجّ ولا على المستقيم .

وينبغي أن ينافس[1] الرجل فيمن جرّبته الرجال قبله ، ومحّضه اختبارهم له ، فتعتقده من أنفس العِقد ، وتشربه على الصفو والكدر ، وحسبك أن يكون لك من أخيك أكثره .

كان على عهد كسرى رجل يقول : من يشتري ثلاث كلمات بألف دينار فتطيّر منه[2] حتّى اتّصل خبره بكسرى فأحضره وسأله عنها فالتمس إحضار المال فأُحضر ، فقال الرجل : «ليس في الناس كلّهم خير» فقال كسرى : هذا صحيح ، ثمّ قال : «ولا بدّ منهم» فقال : صدقت وأيّ شيء ؟ قال : «فالبسهم[3] على قدر ذلك» قال كسرى : قد استوجبت المال فخذه ، فقال : لا حاجة لي فيه ، قال : فلمَ طلبت ؟ قال : لأني أردت أن أرى من يشتري الحكمة بالمال ، فاجتهد كسرى في قبول رأيه .

وليجتهد الرجل في صحبة إخوانه إلى الاستقصاء على النفس ، وإلى ترك الإستقصاء عليهم في مطالبتهم بما يلزمهم له . والإستقصاء على النفس لهم ينقسم إلى تسهيل الحجاب لهم ، وإلى حسن كفايتهم ، وإلى القيام بحقوقهم في عيادة المرضى ، وحضور الجنائز ومجامع الأفراح والأحزان ، وإلى بذل المال لهم عند حاجتهم في الحوادث ، وإلى بذل الجاه لهم . وترك الاستقصاء عليهم ينقسم إلى الصبر عليهم ، والاحتمال بهم عند تركهم الواجب عليهم من الحقوق ، وإلى الصفح عن زلّاتهم قولاً وفعلاً .

قال بعضهم : ليسعى الرجل في إخوانه أن يكون جاراً لهم[4] من الحدثان ، فإن لم يمكنه فليجهد أن لا يكون عليهم مع الزمان ، وأُنشد في هذا المعنى لعبد الله بن طاهر :

---

(١) نافس في الشيء : رغب فيه .

(٢) كذا في الأصل . وفسره بهامشه بالتشاؤم . والصواب : فتطاير ، أي شاع خبره وانتشر حتى اتصل بكسرى .

(٣) لبس ـ من باب علم ـ فلاناً : تمتع بعشرته ومصاحبته مدة من الزمان .

(٤) الجار هنا : المجِير .

خليليّ ! لو كان الزمان مساعدي وآذيتماني لم يضق عنكما صدري
فأمّا إذا كان الزمان معاندي فلا تصحبا عوناً عليّ مع الدهر

وقد وفى علقمة بن لُبيد العطارديّ شرط الاستصحاب في وصيّته لبعض أولاده ، فقال : يا بنيّ ! إن نازعتك نفسك إلى صحبة الرجال لحاجتك إليهم فاصحب من إن صحبته زانك ، وإن خدمته أعانك ، وإن قلت له صدّق قولك ، وإن صُلت به سدّد صولك .

إصحب من إن مددت يدك لفضل مدّها ، وإن تخفّفت له صانك ، وإن عرتك مؤونة مانك .

إصحب من إن رأى منك حسنة عدّها ، أو بدت منك ثلمةٌ سدّها .

إصحب من إن سألته أعطاك ، وإن سكتَّ عنه ابتدأك ، وإن نزلت بك ملمّة كفاك ، وإذا احتجت إلى ماله واساك .

وقال مهديّ بن أبان : قلت لولّادة العبديّة ـ وكانت من أعقل النساء ـ : إنّي أُريد الحجّ فأوصني . قالت : أُوجز فأبلغ أم أُطيل فأُحكم ؟ فقلت : ما شئت . قالت : جُد تسُد ، واصبر تفُز ، وقِ[1] دينك بدنياك ، ووفّر عِرضك بعرَضك ، وتفضّل تُخدم واحلم تقدّم . قلت : فبمن أستعين ؟ قالت : بالله . قلت : من الناس ؟ قالت : الجلد[2] النشيط ، أو الناصح الأمين . قلت : فمن أستصحب ؟ قالت : الصديق المسلم ، والمداجي[3] المتكرّم . ثمّ قالت : يا ابناه ! إنّك تفد[4] إلى ملك الملوك فانظر كيف يكون مقامك بين يديه .

وقال عبد الله بن المعتزّ : إنّ إخوان الصدق زينة في الرخاء ، وعُدّة في البلاء ، يتصرّفون مع القلوب تصرّف السحاب مع الحبوب . وإن إخوان السوء

---

(١) أمر من وقى يقي .
(٢) بالفتح فالسكون : الشديد القوي . أرادت : استعن من الناس إما بالشديد القوي الذي يعينك بقوته ، وإما بالناصح الأمين الذي يعضدك بفكره .
(٣) داجاه : داراه وسارّه العداوة .
(٤) مضارع قولك : وفد وفوداً : قدم .

يتصرّفون عنـد النكبة ، ويتقلّبـون مع النعمـة ، ومن شأنهم التـوصّل بـالإخلاص والمحبّـة إلى أن يظفـروا بـالأنس والثقـة ثمّ يـوكّلون الأعين بـالأفعـال والسمـاع بـالأقوال ؛ فـإن رأوا خيراً أو نـالوه لم يـذكروه ولم يشكـروه ، وعملوا على أنّهم خدعوا صاحبهم عنه وقمروه ، وإن رأوا شرّاً أو ظنّوه أذاعوه ونشـروه ، فإن أدمت مصـاحبتهم فهـو الـداء المماطـل المخـوّف على التقـاتـل ، وإن استـرحت إلى مصادمتهم ادّعوا الخبرة بك لطول العشرة ، فكـان كذب حـديثهم صدقـاً وباطله حقّاً .

وأُنشد لإبراهيم بن العبّاس الصوليّ :

وإنّي وإعـدادي لـدهـري محمّـداً	كملتـمس إطفـاء جـمـر بنـافـخ
أخ كـنت آوي منـه عـنـد ادّكـاره	إلـى ظـلّ آبـاء من الـعـزّ بـاذخ
سعت نُـوَب الأيّـام بـيني وبيـنـه	فـأقلعن عنّـا عن ظلوم وصـارخ[1]

واعلم أنّ حسن اللّقـاء عنـد الأحـرار أكبـر من الإعـطاء ، والبُشـر آثـر من البرّ ، وقد جاء في الحديث عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : «إذا التقى المسلمان كان أحبّهما إلى الله أحسنهما بشراً لصاحبه ، إذا تصافحا أنزل الله عليهما مائة رحمـة تسعون منها للّذي بدأ»[2] .

قال بعض العلماء : ذلـك من قبل أنّ المؤمن عليـه سمت الإيمان ووقـاره وبهاؤه وجمالـه ، فأحسنهمـا بشراً أفهمهمـا وأعقلهما لـذلك عن الله عـزّ وجلّ ، وأدركهمـا لما منّ الله بـه عليـه حتّى يـظهـر ببشـره العلم بـالله ، وبمنّـة الله على عبده ، ولأنّ المؤمن عطشـان إلى لقاء ربّـه شوقـاً إليه ، ووروداً عليـه ، فإذا رأى المؤمن أو سمع كلام الله الّذي أنزله أو رأى نبيّه (؟) اهتشّ لذلك روحه ، وتبسّم

---

(١) النوب ـ بالضم فالفتح ـ جمع النوبة ـ بالضم والسكون ـ النازلة والمصيبة . وأراد بالصارخ نفسه وبالظلوم صديقه .

(٢) وجاء في الخبر أن يحيى لقي عيسى عليه السلام يبتسم فقال يحيى : مالي أراك لاهياً ؟ كأنك آمـن ؟ فقال عيسى : مالي أراك عابساً ؟ كأنك آيس ، فقال : لا نبرح حتى ينـزل علينا الوحي فأوحى الله إليهما : أحبكما إليّ الطلق البسام .

قلبه ، روح ما يجد من آثار مولاه الّذي قد قلق تبرّماً من أجل حبسه عنه فيطمئنّ ويبشّر بذلك فيظهر بُشره . وإنّما صار أحبّ إلى الله بما له من الحظّ من الله ، وأمّا الصفاح[1] فهو كالبيعة لأنّ من شرط الإيمان الأُخوّة والصحبة والولاية والخلطة فإذا لقيه وصافحه فكأنّما يبايعه على هذه الخلال ، وكُلّما يلقاه يتجدّد بيعته فيجدّد الله له ثوابها كما يجدّد ثواب المصاب تجديده الاسترجاع ، وكما يزيد النعمة يزيد الحمد[2] .

ففي مراعاة هذه الآداب إقامة حرمة الإسلام ، وتعظيم النور الّذي جعله الله في قلبه وزيّن أحواله به وعلى هذا قول ابن عبّاس : إن الركن يمين الله يصافح عباده ، ولأنّهم يوم الميثاق بايعوا الله فصافحوا الحجر ، فلمّا أنزله الله من الفردوس ووضع في ركن البيت دعوا إليه ليجدّدوا البيعة ، وعن هذا قالوا لذلك التمسّح : «الإستلام» افتعالاً من الإسلام في أدب اللّقاء .

ثمّ نظام أمر الصحبة وقوامها ، وملاك قاعدة العشرة ومساكها في أربعة أشياء : الموافقة والشفقة والإيثار والخدمة وعنوانها الموافقة ، نطاحة الكاتب :

هموم أُناس في أُمور كثيرة | وهمّي في الدنيا صديق مساعد
يكون كروح بين جسمين فرّقا | فجسماهما جسمان والروح واحد

وقيل : ملاك صحبة الأكابر الاحتراز والاحتشام والإعراض عن الاعتراض والإمساك عن كلام يكلّف الجواب ، أو يوجب إعادة الخطاب .

وملاك صحبة الأشكال حسن الاستماع وكثرة الإنبساط ، وملاك صحبة الأصاغر الإحسان إليهم والتجافي عنهم ، على أنّه لا شيء في أدب صحبة الناس كحسن الحديث إذا حدَّث وحسن الاستماع إذا حُدّث ، ومن إحسان الصحبة وكرم العشرة أن تداوي من ساء خلقه حتّى يعذب لك منه ما كان ملحاً ، ويسهل ما كان وعراً[3] .

---

(١) بهامش الأصل : الصفاح هنا بمعنى المصافحة .
(٢) كذا في الأصل والصواب : بزيد الحمد . وهو مصدر «زاد» .
(٣) بفتح الأول وسكون الثاني ـ وقد يفتح ـ : المكان الصلب ، ضد السهل .

قال بعضهم : خطبت[1] امرأةً فأجابت ، فقلت : إنّي سيّىء الخلق ، فقالت : أسوأ خلقاً منك من يلجئك إلى سوء الخلق . وكانت عند الحسن بن الحسن ﵇ امرأة تميميّة ، فضجر يوماً فقال : أمرك بيدك فقالت : أما والله لقد كان في يدك عشرين سنة فحفظته ، أفأضيّعه في ساعة صار في يدي ؟ قد رددت إليك حقّك ، فأعجبه حسن مداراتها ، وأحسن بعد ذلك صحبتها .

وكان أبوه الحسن ﵇ طلّق امرأتين قرشيّة وجُعفيّة ، وبعث إلى كلّ واحدة منهما عشرين ألفاً ، فقالت القرشيّة : جزاه الله خيراً ، وقالت الجعفيّة : «متاع قليل من حبيب مفارق» فراجعها وقال : إنّها لأكرم صحبة .

وممّا يستديم الصحبة ويستبقي الخلّة الإغضاء على العيوب، والتجافي على الإساءة ، والإحسان عند الجفوة :

تجمّل أخاك على ما به ... فما في استقامته مطمع
وإنّي على خلق واحد ... وفيه طبائعه الأربع

أبو العبّاس ثعلب[2] :

إذا أنت وافقت الرجال فكن لهم ... كأنّك مملوك لكلّ رفيق
وكن مثل طعم الماء عذباً وبارداً ... على الكبد الحرّى لكلّ صديق

قالوا : وممّا يعتمد في الصحبة الشرف في النفس ، والصحّة في العقل ، والتجربة في الأفعال ، والحرّيّة في الأخلاق ، وإنّها مثل قوائم السرير لا يكون مستوياً إلاّ بأربع قوائم ، فكذلك لا تطّرد أسباب الصحبة إلاّ بهذه المعاني الأربعة ، ولا يقوم آخرها إلاّ بها ، ولا شيء أعدى لها من أضدادها .

وفي وصايا بعض ملوك العجم أنّه لا شيء أضرّ من معاشرة سخيف أو

---

(١) خطب ـ من باب نصر ـ خطباً وخطبة ـ بكسر الخاء ـ الفتاة : دعاها أو طلبها إلى التزوج .

(٢) أحمد بن يحيى بن زيد بن سيار النحوي الشيباني المنبوذ بثعلب ، إمام الكوفيين في النحو واللغة ، راوية الشعر ، مشهور بالحفظ وصدق اللهجة ، ثقة حجة ، ولد ومات ببغداد ٢٠٠ ـ ٢٩١ هـ وفي الأصل : «تغلب» سهواً .

مخاطبة وضيع ، وأنّه كما أنّ النفس تصلح والعقل يزيد على مخاطبة الشريف الأديب الحسيب ، كذلك تبطل وتفسد على معاشرة الدنيء السخيف حتّى يزيلها ذلك عن فضيلتها ، ويغيّرها عن جبلّتها . وكما أنّ الريح إذا مرَّت بالطيب حملت طيباً تحيي به النفوس وتحيي به الحواسّ كذلك إذا مرّت بالنتن فحملته أملّت به النفوس ، وأضرّ بجوارحها ما اعتلقتها منه . على ما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «مثل الجليس الصالح مثل الداريّ[1] إن فاتك ربحه لم يفتك ريحه[2] ، ومثل الجليس الفاسد مثل صاحب الكير[3] ، إن لم يحدّك شره آذاك بدخانه» . وفي حديث علي عليه السلام[4] : «مقاطعة الأحمق قربان إلى الله» وأنشد[5] :

لا تصحب أخا الجهل	وإيّاك وإيّاه
فكم من جاهل أردى	حكيماً حين واخاه
يُقاس المرء بالمرء	إذا ما هو ماشاه
وللشيء على الشيء	مقاييس وأشباه[6]
وللقلب على القلب	دليل حين يلقاه

وقال آخر :

إن كنت تبغي العلم أو أهله	وشاهد يخبر عن غائب

---

(١) الداري : العطار ، نسبة إلى «دارين» وهي فرضة بالبحرين ، كان يحمل إليها المسك من بلاد الهند .

(٢) وقال عمر بن الخطاب : لو كنت تاجراً لما اخترت على العطر : فإن فاتني ربحه لم يفتني ريحه . مجاني الأدب (١ : ١١٣) .

(٣) زق الحداد الذي ينفخ به .

(٤) أنظر مقاله في «الأحمق» في هذه الأرقام من حكمه ومواعظه القصار : ٣٨ ، ٤٠ ، ٤١ و ٣٤٩ .

(٥) ليست توجد الأبيات في ديوانه عليه السلام ، نعم ذكرها له الأب شيخو في مجانيه (٣ : ١٢٦ ـ ١٢٧) عن عقد الفريد مع اختلاف يسير في روايتها .

(٦) في المجاني : وللناس من الناس مقاييس . وبعد البيت فيه :
وفي العين على العين إذا تنطق أفواه .
وقال في شرحه : أي أن العين تخبر بما في القلب كما يخبر الفم .

فـاعـتبـر الأرض بـأسـمـائـهـا   واعتبـر الـصـاحب بـالـصـاحب

وآخــر[1] :

إنّــي لآمــن مــن عــدوّ عــاقــل   وأخــاف خــلاًّ يـعتـريـه جـنــون
فــالـعقــل فـنّ واحــد وطــريـقــه   أدري فــأرصـد ، والجنــون فنـون

آخــر :

أخ لـم يـزل كـالشـهـد منـه إخـاؤه   يــزيــد عــلى مــرّ الــدهــور وفـاؤه
لــه خـلق لــو مــازج البحــر لم يـكن   أجــاجــاً، وأروى واردي البحــر مــاؤه
فـقــارن إذا قــارنـت شَـرواه، إنّـمــا   يــزين ويــزري بــالفـتى قــرنــاؤه[2]

ومن لا يخاف الله لا يؤمن من غائلته ، ولا يوثق بمخالطته .

وإذا ساء الخلق وإن تمّ العقل فباعتبار الأخلاق السيّئة يكون الرجل مغلوباً في يد غضبه ، مملوكاً في شهواته ، عاجزاً عن تهذيب أحواله وتقـويم أخلاقـه ، فلا خير في صحبة مثله ، ويسند هذا الشعر إلى عليّ عليه السلام :

إنّ أخــاك الــحــقّ مــن كــان مــعــك   ومــن يـضــرّ نــفــســه لــيـنــفــعــك
ومــن إذا ريــب زمــان صــدعــك   شـتّـت شـمــل مــالــه لـيـجـمـعـك

وكـان سهل بن عبـد الله[3] يقول : اجتنبـوا صحبة ثـلاثة نفـر من الناس : صحبة الجبابرة الغافلين ، والقُرّاء المداهنين ، والمتصوّفة الجاهلين .

وقال بشر[4] : الإخـوان ثلاثـة : أخ لآخرتـك ، وأخ لدنيـاك ، وأخ لتأنس به .

---

(١) البيتان في المجاني (٣ : ١٢٩) .
(٢) شروى الشيء : مثله . أزرى به : عابه ووضع من حقه .
(٣) أبو محمد سهل بن عبد الله بن يـونس التستري ، قـال ابن خلكان (٢ : ١٤٩) : لم يكن له في وقته نظير في المعاملات والورع ، لقي ذا النون المصري بمكة ، وكان له اجتهـاد وافر ورياضة عظيمة ولد بتستر سنة ٢٠٠ أو ٢٠١ وتوفي بالبصرة ٢٨٣ .
(٤) أبو نصر بشر بن الحارث بن عبد الرحمن ، المـروزي ، المعروف بـالحافي ، أحـد رجال الطريقة ، ومن كبار الزهاد ، أصله من قرى مـرو ، سكن بغداد وكـان يروي الحـديث . =

وعن المأمون : الإخوان ثلاثة : أحدهم مثله مثل الغذاء لا يستغنى عنه ، والآخر مثل الدواء يحتاج إليه في وقت دون وقت ، والثالث مثل الداء لا يحتاج إليه قطّ .

وقال بعضهم : الناس أربعة : فواحد حلوٌ كلّه ومثله لا يشبع منه ، وآخر مرّ كلّه ومثله لا يؤكل بل يرفض ويلفظ ، وآخر فيه حموضة فخذ منه قبل أن يأخذ منك ، وآخر فيه ملوحة فخذ منه قدر الحاجة فقط .

وقيل : مثل جميع الناس مثل الشجر والنبات ، فمن الشجر ما له ظلّ وليس له ثمرٌ مثل الخلاف والسرور ونحو ذلك ، ومنهم مثلُ [له] ، رواء [1] وما له ثمر وهو مثل الأخ النافع في الدنيا والآخرة ؛ فإنَّ الدنيا ظلّ وحُلمٌ باطل . ومن الشجر ما له ثمر وليس له ظلّ مثل الكرم ؛ فإنّه ليس له ساق يستظلّ تحته ، وفيه النفع الكثير وهو مثل الأخ النافع في أُمور الآخرة ، ينفع من يقرب منه ولا يضرّ أحداً .

وكنت كالكرم من تكرّمه ... تلتفّ أوراقه بما قربا

ومنها ما له ظلّ وثمر ، وهو صاحب العلم والعمل ، فإخاء مثله خير الدنيا والآخرة ، وسعادة أخيه ؛ تعلّماً من علمه ، وتقبّلاً له في عمله ومثله في ذلك ما قيل :

كأنّكم شجر الأُترج طاب معاً ... حِملاً ونوراً وطاب العود والورق

ومنها ما ليس له واحد منهما مثل أُمّ غيلان ، ينفد خباه [2] ولا يستظلّ

وإنما لقب بالحافي لأنه جاء إلى إسكاف يطلب منه شسعاً لأحد نعليه وكان قد انقطع فقال له الإسكاف : ما أكثر كلفتكم على الناس يا أهل الطريقة ! فألقى النعل من يده والآخر من رجله وحلف لا يلبس نعلاً بعدها ولد سنة ١٥٠ وتوفي ٢٢٦ هـ وفيات الأعيان (١ : ٢٤٨ ، برقم ١١١) وشرح المجاني (١ : ٢٩٨) .

(١) بين المعقوفين زيادة منا ليس في الأصل ، والرواء بالضم : حسن المنظر ، ماء الوجه .

(٢) الخباء ـ بالكسر ـ هنا : كمام الزهر . ومحتمل «جناه» وبهامش الأصل : «يفقد خباه : ظ» .

بذراه[1] ويمزّق الثواب فلا يؤمن أذاه ، وأُنشد في هذا المعنى :

الناس شتّى إذا ما أنت ذقتهم لا يستوون، كما لا يستوي الشجر
هذا له ثمر حلوٌ مذاقته وذاك ليس له طعم ولا ثمر

وقالوا في آداب الصحبة وحقوق أهلها : إنّ حقّ الجليس إذا دنا أن يوسّع له ، وإذا حدّث أن يقبل عليه .

وقيل : حقّ جليس الملوك أن يكون حافظاً للسمر[2] صابراً على السهر .

وقيل : أكرم صحب الملوك من حسنت موافقته وقلّت مؤونته .

وفي الحديث : مثل الإخوان مثل اليدين ؛ تغسل إحداهما الأُخرى ، فكما أنّ اليدين تتعاونان على غرض واحد فكذلك الإخوان .

وقالوا في المواساة معهم : إنّها على أربع درجات :

إحداها : إن تنزّله منزلة أهلك وعبيدك ، وتصرف فضلة مالك عن حاجتك إليه من قبل أن تحوجه إلى مسألتك ، وإن أحوجته إلى السؤال فذلك غاية التقصير في حقّ الإخاء .

والثانية : أن تنزّله منزلة نفسك شريكاً لك في مالك . قال الحسن : كان أحدهم يشقّ إزاره باثنين .

والثالثة : هي أن تؤثره على نفسك ، وتقدّم حاجته على حاجتك .

والرابعة : ـ وهي الدرجة العليا ـ هي أن يتعدّى الإيثار من المال إلى النفس ، فتقيه بنفسك ، وتُفديه على حكم الإخلاص بروحك . يحكى أنّه سعي بجماعة من الصوفيّة إلى بعض الخلفاء فأمر بضرب رقابهم ، وفيهم أبو الحسين الثوريّ فبادر إلى السيّاف ليكون أوّل مقتول فقيل له في ذلك، فقال : أحببت أن

---

(١) الذرى ـ بالفتح مقصوراً ـ هنا : الملجأ وكل ما استترت به .
(٢) السمر بالفتح : الحديث بالليل ، وهو كناية عن كتمان ما يجب كتمه مما يقع في مجالس السلطان بالليل .

أوثر إخواني بالحياة ولو بلحظة ، فكان سبّب ذلك تجافي الخليفة عن قتلهم جميعاً .

وفي هذه الدرجة العليا درجة الإيثار أو المشاركة يقول الله تعالىٰ[1] : ﴿وأمرهم شورى بينهم وممّا رزقناهم ينفقون﴾ أي هم خلطاء في الأموال ، لا يتميّز بعضهم في مال وملك عن بعض .

وقال الحسين بن عليّ عليه السلام لرجل : «هل يدخل أحدكم يده في كمّ أخيه أو كيسه فيأخذ منه ما يريد من غير إذن ؟ قال : لا ؛ قال : فلستم بإخوان» .

وكان أبو سليمان الداراني يقول : لو أنّ الدنيا كلّها لي فجعلتها في فم أخ من إخواني لاستقللتها له . وقال : إنّي لألقم اللّقمة أخاً من إخواني فأجد طعمها في فمي .

وفي حديث عليّ عليه السلام : «لعشرون درهماً أُعطيها أخي والله أحبّ إليّ من أن أتصدّق بمائة درهم على المساكين وقال أيضاً : «لأن أصنع صاعاً من طعام وأجمع عليه إخواني في الله أحبّ إليّ من عتق رقبة» .

ويروى أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم دخل غَيضة[2] مع بعض أصحابه فاجتنى منها سواكين : أحدهما معوجّ والآخر مستقيم ، فدفع المستقيم إلى صاحبه ، فقال له : يا رسول الله ! كنت أحقّ بالمستقيم منّي ، فقال : ما من صاحب يصحب صاحباً ولو ساعةً من نهار إلاّ سُئِل عن صحبته هل أقام فيه حقّ الله أو أضاعه ؟ .

وقال عليه السلام : «ما اصطحب اثنان قطّ إلاّ كان أحبّهما إلى الله أرفقهما بصاحبه» .

ودخل محمّد بن واسع ومالك بن دينار دار الحسن والحسن غائب ، فأخرج محمّد سلة فيها طعام تحت سرير الحسن فاندفع يأكل ، فقال له مالك : كفّ يدك حتّى يجيء صاحب البيت ، فلم يلتفت إليه وأقبل على الأكل ، فدخل

---

(١) سورة الشورى ؛ الآية : ٣٨ .

(٢) الغيضة : الأجمة ، مجتمع الشجر .

الحسن فقال: يا مُويلك(١) ! هكذا كنّا لا يحتشم بعضنا عن بعض حتّى ظهـرت أنت وأصحابك .

وقيل : إذا استقضيت أخاك حاجة فلم يقضها فذكّره ثانيـة ، فلعلّه نسي ؛ فإن لم يقضها فكبّر عليه واقرأ هذه الآية ﴿**والموتى يبعثهم الله**﴾(٢) .

وقال ميمون بن مهران : إنّ من لم تنتفع بصداقته لم تضرّك عداوته .

وفي الحديث : «ألا وإنّ لله أواني في أرضه وهي القلوب ، فأحبُّ الأواني إلى الله أصفاها وأصلبها وأرقّها . فأصفاهـا من الذنـوب ، وأصلبها في الـدّين ، وأرقّها على الإخوان» .

قـالوا : ومن حقّ الإخـاء ما هـو في السكوت وفي الكـلام ؛ في السكوت عن ذكر عيوبه حاضراً وغائبـاً ، وترك المماراة والمناقشـة معه ، والتجسّس على أحواله ، وأن لا يبثّ سـرّه ، ولا يذكـر أحداً بقبيـح ، ولا يُبلغه ذلـك عن أحد ، وأن لا يخطر ذلك بباله كما لا يفوّه بلسان . وفي الكلام : التودّد باللّسان وإظهار المساهمة والمواساة في الضرّاء والسرّاء والشـدّة والرخـاء . وفي الحديث : «إذا أحبّ أحدكم أخاه فليخبره» .

قـال عليّ عليه السلام : «من لم يحمـد أخـاه على حسن النيّـة لم يحمـده على حسن الصنيعـة» وأبلغ من ذلك كلّه في جلب المحبّـة الـذبّ عنـه والنصح منـه بـالمغيب . وفي الحديث «المسلم أخـو المسلم لا يظلمـه ولا يسلمه» وإهمـالـه وإسلامه ليمزّق عرضـه كإسـلامه ليمـزّق جلده . وأخسس(٣) بأخ يـراك والكلاب تفتـرسنّك وتمـزّقنّ لحمك ولا تبعثـه بواعث الأُخـوّة على الذبّ عنـك والانتصار لك ! ولذلك شبّه الله الغيبة بأكل لحم الأخ ميتاً(٤) والملك الّذي يمثّل في المنام

---

(١) صغره تحقيراً له .

(٢) سورة الأنعام ؛ الآية : ٣٦ .

(٣) فعل تعجب ، أي ما أحقره ! . وأخسه ـ ببناء باب الأفعال ـ أي وجده خسيساً ، احتقره .

(٤) قال تعالى (الحجـرات : ١٢) : ﴿**ولا يغتب بعضكم بعضاً أيحب أحـدكم أن يأكـل لحم أخيـه ميتاً فكـرهتموه واتقـوا الله إن الله توّاب رحيم**﴾ . وحيث إن القـرآن نزلت أحكـامه على الفطرة المستقيمة قـد جرى هـذا المضمون على لسـان المثقب العبدي أحـد فحول =

ما يطالعه من السماء من الأمثلة المحسوسة بمثل الغيبة بأكل لحم أخيه فإنّه من يرى أنّه يأكل ميّتاً فإنّه يغتاب الناس .

وتذاكر اثنان حديث المخالصة في الأُخوَّة بظهر الغيب ، فقال أحدهما : ما ذكر أخي لي بغيب إلاّ تصوّرته جالساً فقلت فيه ما يحبّ أن يسمعه حاضراً . وقال الثاني : ما ذكر أخ لي إلاّ تصوّرت نفسي في صورته فقلت فيه مثل ما أُحبّ أن يُقال فيَّ .

ونظر أبو الدرداء إلى ثورين يحرثان في فدَّان[1] فوقف أحدهما يحكّ جسمه فوقف الآخر ، فبكى وقال : هكذا الأخوان في الله يعملان في الله ، فإذا وقف أحدهما وقف الآخر .

وقال ذو النون : لا تصحب مع الله إلاّ بالموافقة ، ولا مع الخلق إلاّ بالمناصحة ، ولا مع النفس إلاّ بالمخالفة ، ولا مع الشيطان إلاّ بالمراغمة .

وفي قوله صلى الله عليه وآله وسلم : «أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً وأحسن مصاحبة من صاحبك تكن مؤمناً» إشارةٌ إلى أنّ فضل الصّحبة على الجوار فضل الإيمان على الإسلام .

وقال إبراهيم النخعيّ : لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب بذنبه ، فإنّه يتركه اليوم وتتركه غداً ، وهو من الحديث : «اتّقوا زلّة العالم ولا تقطعوه وانتظروا فيئه» .

ويحكى أنّ أخوين في السلف انقلب أحدهما عن الإستقامة فقيل لأخيه : لا تقطعه ولا تهجره ، فقال : أحوج ما كان إليّ في هذا الوقت ، وأنا حقيق بأن آخذ بيده ، وأتلطّف له في المعاتبة ، وأدعو له بالعود إلى ما كان عليه ، وفي شعر عمر بن [أبي] ربيعة[2] زيادة على هذا وهو :

شعراء الجاهلية وحكمائها في قصيدة له ذكرها المفضل في مفضلياته : ٢٩٤ فقال :

لا تراني راتعاً في مجلس   في لحوم الناس كالسبع الضرم

(١) بفتح الفاء وتشديد الدال وتخفيفها : الثوران ، المزرعة . وهو المراد هنا .

(٢) بين المعقوفين زيادة وتصحيح منا ، وانظر الأبيات في ديوانه ؛ ٤٨٧ و ٤٨٨ .

وخِلٍّ كان عين النصح عنّي ومستمعاً لما أهوى سميعا
أطاف بغيّة فنهيت عنها وقلت له : أرى أمراً شنيعا[1]
أردت رشاده جهدي فلمّا أبى وعصى أتيناها جميعا

وقيل : أكرم من تصحبه الأكابر من حسنت موافقته وقلّت مؤونته .

وقيل : هلاك المرء من صاحب يحسّن القول ولا يحسن العمل .

وقيل : الإخوان كالسلاح ؛ فمنهم كالرمح يطعن به من بعيد ، ومنهم كالسيف الّذي لا يفارقك ، ومنهم كالسهم يرمى به ولا يعود إليك .

وقيل : يستحبّ من الخريف الخصب ، ومن الربيع الزهرة ، ومن الجارية الملاحة ، ومن الغلام الكَيس[2] ومن الصاحب الرفق ، ومن القريب الإنبساط ، ومن الغريب الانقباض .

وممّا قاله بعض العلماء في إحسان الصحبة إنّ الخلق كلّهم سفر[3] يسير بهم العمر سير السفينة براكبها ، وحقّاً ما قيل : إنّ الناس كركب في سفينة يسار بهم وهم نيام . ومن شرط المسافرين أن يحسنوا صحبة من يراقبهم في سفرهم إلى أن يبلغوا مقصدهم .

حدّث أبو بكر بن محمّد السامانيّ قال : ضجرت في بعض أسفاري على غلام لي استقصرته في خدمة وحضرني حرير الطبيب فأنشدني :

أكرم رفيقك حتّى ينقضي السفر إنّ الّذي أنت توليه سينتشر
ولا تكن كلئام أظهروا هجراً إنّ اللّئام إذ ما سافروا ضجروا

ثمّ إنّ الإنسان إمّا أن يكون في دنياه وحده ، أو مع أهله وولده وجاره وذويه ، وإمّا أن يكون مع عموم الخلق ، وحقّ عليه أن يحسن الصحبة في جميع هذه الأحوال ، فإن كان وحده فهو وإن كان في الصورة شخصاً واحداً فهو

---

(١) في الأصل : «بغيبة» والإصلاح من الديوان .
(٢) بالفتح : العقل والظرف والفطنة .
(٣) بالفتح : جمع المسافر .

في الحقيقة كثير ، وفيه من خلق الله جنود واجب عليه أن يحسن صحبتها ، ويقوم بحقوقها : فمن الجنود المجتمعة في الإنسان الشهوة الّتي يجتلب بها إلى النفس ما يقيمها ويغدو بها حيّاً ويعقّب عنها بعد الموت نسلاً ، وغضبه الّذي يحمي به الذمار ، ويدفع عنها المضارّ ، وعقله الّذي يستصلح به الأمور ويستوي منه على حسن التدبير ، فهو من هذه الجهة أنفس ثلاثة مجتمعة متغالبة فالمغلوب منها في يد الشهوة بأمثال الخنازير أشبه ، والثائر الغضبان من السبع الضاري أقرب ، والكريم المحسن إلى الملك أنزع . وليس عليه إبطال الأوّلين من الأصل بل تعديلهما بالثالث ، وإعطاؤهما نصيبها الّذي يحسن معه حالهما حتّى يكون كريم الصحبة مع كلّ واحد منهما ، ولكنّ النصيب العدل على الإنصاف الحقّ ما دام الروح والبدن في هذا العالم مجتمعين مع ما قرنت ما يفترقان . ولله ما قال الأعرابيّ القديم ! فكأنّه ينظر إلى هذا المعنى في قوله :

فأنصف أخاك الدهر ما عشتما معاً ... كفى بالممات فرقة وتنائيا

زوّدينا بحسن وجهك ما ... دام بحسن الوجوه حال يحول

وصِلينا نصلك في هذه الد ... نيا ، فإنّ المقام فيها قليل

فهذا في صحبتك مع نفسك ، فأمّا صحبتك مع أهلك وولدك ومن يضمّه كنفك ويكنفه حفظك فإحسانها بالتوسعة عليهم والتجافي عن الإساءة بهم على أتمّ التوقّي من جنايتهم والجناية عليهم .

وأمّا صحبتك مع الناس فأدنى الأحوال في ذلك كفّ الأذى عنهم ، وأوسطها إدلال الإحسان إليهم ، وأعلاها احتمال الأذى منهم .

نزل جبرائيل على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بقوله تعالىٰ : ﴿**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**﴾[1] فقال : يا محمّد جئتك بأكرم أخلاق الأوّلين والآخرين فصِل من قطعك ، وأعطِ من حرمك ، واعف عمّن ظلمك ، وممّا جاء من الأحاديث في خصال الصحبة مع الخاصّ ومع العامّ قوله عليه السلام في كفّ الأذى : «المسلم من سلم المسلمون من يده ولسانه» فعلى فحوى هذا الحديث

---

(١) سورة الأعراف ؛ الآية : ١٩٨ .

أنّ من لم يسلم الناس من يده ولسانه فليس بمسلم ، فينبغي أن نؤوّله على المسلم الكامل ، أي ليس بكامل في إسلامه وهذا مثل قولهم «الناس العرب» أي أفضل الناس العرب ، وكذلك قولهم : «المال الإبل» وما أشبه ذلك .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم في بسط الإحسان : «الخلق عيال الله فأحبّهم إلى الله أبرّهم بعياله» .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم في معاملة الناس بما يحبّ أن يُعامل به : «من سرّه أن يزحزح عن النار فليأت إلى الناس ما يحبّ أن يؤتى إليه» .

وقال في توقير من يصاحب من المشائخ : «من إجلال الله إكرام ذي الشيبة» .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم في إحسان الخلق معهم : «إنّكم لن تسعوا الناس بأموالكم فسعوهم بأخلاقكم» .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «إنّ الله يحبّ السهل الطلق» .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم في الإصلاح بين المسلمين : «أفضل الدرجات إصلاح ذات البين ، وإفساد ذات البين هي الحالقة» .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم في إقالة العثرات : «من أقال مسلماً عثرته أقاله الله يوم القيامة» .

وقال في ستر عورات الناس : «من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع الله عورته ، ومن تتبع الله عورته يفضحه ولو في جوف بيته» .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم في السعي للمسلمين : «قيامك مع أخيك ساعةً خير من اعتكافك سنة» .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم في التبادر بالسلام والمصافحة : «إذا التقى المسلمان فتصافحا قسّمت بينهما مائة رحمة ، تسعة وتسعون لأحسنهما بشراً» .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم في نصرة المسلم بظهر الغيب : «ما من امرىء ينصر مسلماً

في موضع ينتهك فيه عرضه ويستهلّ حرمته إلاّ نصره الله في موضع يحبّ أن ينصره» .

وقال ﷺ في مداراة أهل الشرّ : «خالطوا الناس بأعمالهم ، وزايلوهم بالقلوب» .

وقال ﷺ : «ما وقى المرء به عرضه فهو له صدقة» .

وقال ﷺ في التحذير عن مجالسة الأغنياء : «إيّاكم ومجالسة الموتى ، ألا وهم الأغنياء» وكان ﷺ إذا رأى في المسجد مسكيناً جلس إليه وقال : «مسكين جلس إلى مسكين» .

وقال في تنزيل الناس منازلهم : «إذا جاءكم كريم قوم فأكرموه» .

وفي معاشرة الناس بأخلاقهم أوحى الله إلى داود : «يا دواد ! خالط أهل الدنيا بأخلاق الدنيا ، وخالط أهل الآخرة بأخلاق الآخرة» .

وفي صحبة الخواصّ قال ﷺ : «أتدرون ما حقّ الجار ؟ إن استعان بك أعنته ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن افتقر عُدت عليه ، وإن مرض عدته ، وإن مات اتبعت جنازته ، وإن أصابه خير هنّأته ، وإن أصابته مصيبة عزّيته ، ولا تستطيل عليه بالبناء ، وإذا اشتريت فاكهة فأهد منها وإلاّ فأدخلها دارك سرّاً ، ولا يخرج ولدك ليغيظ بها ولده ، ولا تؤذه بقُتار(١) قدرك إلاّ أن تغرف له منها» .

وقال ﷺ في القرابة : «قال الله تعالى : أنا الرّحمٰن ، وهذا الرحم ، قد شققت لها اسماً من اسمي ، فمن وصلها وصلته ومن قطعها قطعته» .

وقال ﷺ : «ساووا بين أولادكم بالعطيّة» .

وقال ﷺ في المماليك : «اتّقوا الله فيما ملكت أيمانكم ، أطعموهم ممّا تأكلون واكسوهم ممّا تلبسون ، ولا تكلّفوهم من العمل ما لا يطيقون ، فإنّ الله ملكهم إيّاكم ولو شاء لملككم إيّاهم بدل ملكهم إيّاكم» .

---

(١) بالضم : رائحة المطبوخ .

وقال ﷺ : في الزوجات : «خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي» .

وكان ﷺ من أفكه الناس مع نسائه .

وقال ﷺ في الصحبة : «فوالله يقول الله يوم القيامة : أين المتحابّون فيّ ؟ بجلالي اليوم أظلّهم في ظلّي» .

وقال ﷺ : «إنّ حول العرش منابر من نور ، عليها قوم لباسهم نور ووجوههم نور ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء ، والشهداء ، هم المتحابّون في الله ، والمتزاورون في الله .

وألغز بعض الحكماء كلاماً في اصطحاب الإخوان في الطريق إلى الله ، قال : برزت طائفة تقتنص[١] فنصبوا الحبائل ورتّبوا الشُرك[٢] وهيّؤوا الطُعم ، وتواروا في العُشب[٣] وإنّا في سيرة[٤] طير ترافقنا زماناً إذ لحظونا فصفّروا مستدعين ، فأحسسنا بخَصب وأصحاب ، ما يخالج في صدورنا ريبة ، ولا تزعزعنا عن قصدنا تهمة . فابتدرنا إليهم مقبلين ، وسقطنا خِلال[٥] الحبائل ، فإذا الحلق تنضمّ على أعناقنا[٦] ، والشرك يتشبّث بأجنحتنا ، والحبائل يتعلّق بأرجلنا . ففزعنا إلى الحركة فما زادت إلّا بُعداً فاستسلمنا للهلاك ، وشغل كلّ واحد منّا ما خصّه من الكرب عن الاهتمام لأخيه ، وأقبلنا نتبيّن الحيل في سبل التخلّص حتّى أُنسينا صورة أمرنا ، واستأنسنا بالشرك ، واطمأنّنا إلى الأقفاص .

فأطلعت ذات يوم من خصاصها[٧] فلحظت رفقة من الطير أخرجت رؤوسها من الشرك ، وبرزت من أقفاصها تطير ، وفي أرجلها بقايا الحبائل لا

---

(١) تقنص واقتنص الطير : اصطاده .

(٢) بضم الأولين جمع الشرك بفتحهما : حبائل الصيد .

(٣) العشب بضم الأول : الكلأ الرطب .

(٤) السيرة هنا : الطريقة .

(٥) بكسر الخاء جمع الخلل ـ بفتحها ـ وهو هنا المنفرج بين الشيئين .

(٦) في الأصل «أعناقها» وما أثبتناه هو الصواب .

(٧) بفتح الخاء : الفرج في البناء ونحوه يريد : خرجت الطير التي ترافقنا زماناً من أعشاشها .

يؤودها[1] فتفوتها النجاة ولا تبينها فتصفو لها الحياة .

فذكّرتني ما أُنسيته ، ونفضت إليّ ما ألفته . فكدت أنحلّ تأسّفاً ، وتنسلّ روحي تلهّفاً ، فناديتهم من وراء القفص أن : اقربوا منّي فتوقفوني على حيلة الراحة فقد أعيتني ، فتذكّروا خدع المقتنصين ، فما زادوا إلاّ نفاراً فناشدتهم الخلّة القديمة ، والصحبة المصونة ، والعهد المحفوظ ، حتّى تحلّ بقلوبهم الثقة ، وانتفى عن صدورهم الريبة ، فوافوني حاضرين محضرين فسألتهم عن حالهم فذكروا أنّهم ابتلوا بما ابتليت ، وأمسوا واستأنسوا بالبلوى ، ثمّ عالجتني فنحّيت الحبالة عن رقبتي ، والشبكة عن أجنحتي وفتح باب القفص وقيل لي : استغنم النجاة . وطالبتهم بتخليص رجلي عن الحلقة ، فقالوا : لو اقتدرنا لابتدرنا ، ويشفيك الغليل .

فنهضت معهم من القفص أطير فقيل لي : إنّ أمامك بقاعاً لن تأمن المحذور إلى أن تأتي عليها قطعاً ، فاقتف آثارنا ننج بك ، ونهديك سواء السبيل ، فساوى بهذا الطيران بين صدفي جبل المراد[2] ، في واد مُعشب خصيب ، بل يبيس جديب ، حتّى تخلّف عنّا جنابه[3] وجُزنا جيرته[4] ووافينا هامة الجبل ، فإذا أمامنا ثمان شواهق ، تنبو عن قللها اللواحظ ، ويسقط قبل التحليق[5] إليها الخوافي والقوادم .

وقال بعض لبعض : سارعوا ، فلا نأمن الأعداء إلاّ بعد أن نجوزها ناجين ، فعايقنا النجا[6] حتّى أتينا على ستّ من شوامخها وانتهينا إلى السابع

---

(١) آده الأمر : ثقل عليه .

(٢) مأخوذ من الآية الكريمة : ﴿حتى إذا ساوى بين الصدفين﴾ في قصة ذي القرنين الكهف : ٩٦ . والصدف بفتحتين وبضمتين وبفتح الصاد وضم الدال بالعكس : منقطع الجبل أو ناحيته .

(٣) الجناب ـ بالفتح ـ هنا : الناحية .

(٤) «جزنا» من جاز يجوز بمعنى عبر . والجيرة جمع الجار : أي عبرنا من مجاورته .

(٥) تحليق الطائر : ارتفاعه في طيرانه .

(٦) النجا مقصوراً : الخلاص ، والمناسب هنا الإستراحة .

فلمّا تقلقلنا تخومه[1] قال بعضنا : هل لكم في الجِمام[2] فقد أدهشنا النصب ، وبيننا وبين الأعداء مسافة قاصية ؟ فرأينا أن نجمّ أبداننا ؛ فإنّ الشرود[3] على الراحة أهدى إلى النجاة من الانبيات[4] .

فوقفنا على قلّته فإذا جنان مخضرّة الأرجاء[5] ، عامرة الأقطار ، مثمرة الأشجار ، جارية الأنهار ، يروي بصرَك نعيمُها ، وصور يكاد لبهائها يشوّش ويستنهب الألباب ، ويُشمّك نسيمها روائح لا يدانيها المسك السريّ[6] ولا العنبر الطريّ[7] ، ويُسمعك بأغانٍ شجيّة[8] ، وألحان مطربة فأصبنا من ثماره ، وشربنا من أنهاره .

ومكّننا به ريب ما أطرحنا الإعياء[9] . وقال بعضنا لبعض : لا مخدعة كالأمن ، ولا منجاة كالاحتياط ، ولا حصن أمنع من إساءة الظنون . وقد امتدّ بنا المقام بهذه البقعة على شفا[10] غفلة ، ووراءنا أعداؤنا ، يقتفون أقدامنا ، ويفتقدون مقامنا ، فهلمّوا نحو هذه البقعة ؛ وإن طاب بها الثواء[11] فلا طيب كالسلامة .

وأجمعنا على الرحلة وانفصلنا عن الناحية ، وحللنا بالثامن ، فإذا شامخ غاص برأسه في عنان السماء ، سكن جوانبه طيورٌ لم ألق أعذب ألحاناً وأحسن ألواناً وأظرف صوراً وأطيب معاشرة وأكرم صحبة منها ، ولمّا حللنا في جوارها

---

(١) أي دخلنا حدوده على تعب وشدة .
(٢) الجمام هنا : الإستراحة .
(٣) النفور والخروج عن الطاعة ، والمناسب هنا : الفرار .
(٤) الظاهر أنه من البيتوتة والفعل ليلاً ، إلا أنه لم يشتق منه باب «الإنفعال» .
(٥) جمع الرجا ممدوداً ومقصوراً : الناحية .
(٦) السري : الجيد من كل شيء .
(٧) الغض اللين من كل شيء .
(٨) أي بأغان يشغل البال .
(٩) أي وتطرق بنا ريب ما أطرحنا في المشقات .
(١٠) الشفا ـ بالفتح ـ حرف كل شيء وحدّه .
(١١) ثوى المكان وفيه وبه : أقام .

عرفنا من إحسانها وتلطّفها وإيناسها ما لن يفي[1] بوصف أهونها ، وإن قصرنا عليه مدّة عمرنا ، بل استمددنا إليه أضعافاً .

ولمّا تقرّر بيننا وبينها الإنبساط أوقفناها على ما ألمّ بنا ، فأظهرت المساهمة في الاهتمام ، وذكرت أنَّ وراء هذا الجبل مدينة ينتؤها (كذا) الملك الأعظم ، كلّ مظلوم استعدى به وتوكّل عليه كشف عنه الضرّاء بقوّته ومعونته ، فاطمأننّا إلى إشارتها ، ويمّمنا[2] مدينة الملك حتّى حللنا بفنائه منتظرين لإذنه فخرج الأمر بإذن الواردين وأُدخلنا قصره فإذا نحن بصحن لا يفي[3] بوصف رحبه ، فلمّا جُزناه رفع لنا الحجاب ولحظ الملك في جماله وفرط إشراقه وبهائه عيوننا ، وتعلّقت به أفئدتنا ، ودُهشنا دهشاً عاقنا عن الشكوى ، فوقف على ما غشينا فردّ علينا الجواب بتلطّفه حتّى اجترأنا على مكالمته ، وغمرنا بين يديه عن قصّتنا ، فقال : لن يقدر على حلّ الحبائل عن أرجلكم إلاّ عاقدوها ، وإنّي منفذ إليهم رسولاً يسومهم[4] إرضاءكم وإماطة السوء عنكم ، فانصرفوا مغبوطين .

وهو ذا نحن في الطريق مع الرسل وإخواني متشبّثون بي يطلبون إليّ حكاية بهاء الملك ، وسأصفه وصفاً موجزاً ، فأقول : إنّه الملك الّذي مهما حصّلت في خاطرك كمالاً لا يمازجه نقص ، وجمالاً لا يشاوبه قبح ، صادفتَه مستوفى لديه ، وكلّ جمالٍ بالحقيقة له ، وكلّ نقصٍ ولو بالمجاز فمنفيّ عنه كلّه ، لحسنه وجهٌ ولجوده يدٌ ، من خدَمه فقد اغتنم السعادة القصوى ، ومن حرمه فقد خسر الآخرة والأُولى . هذا ما قاله هذا الحكيم على سبيل الرشد بالصحبة في طريق الآخرة .

ومن أنفاسهم في آداب الصحبة قول ذي النون : لا تصحب مع النفس ولا مع الشيطان إلاّ بالمخالفة ؛ فإنّه يفتح لك تسعة وتسعين باباً من الخير حتى يصطادك عند تمام المائة فقابله بالأضداد ، فإن دعاك إلى الدنيا فقل : هي

(١ و٣) سقط من العبارة فاعل الفعل .
(٢) أي قصدنا وعزمنا .
(٤) من سامه الأمر : كلفه إياه .

فانية ، وإن دعاك إلى الشهوات فقل : هي ندامة ، وإن دعاك إلى الكبر فقابله بمعرفة أصلك وفرعك : حمأٍ مسنون وماء مهين ، وإن دعاك إلى العُجب فقل : كيف أعجب بما ليس منّي ؟ إنّما هو توفيق وعصمة ، وكيف أعجب بعملي ؟ فلا أدري بما يختم لي .

فقال له يوسف بن الحسين عند مفارقته إيّاه : من أُخادن وإلى من أسكن ؟ فقال : من لا يحتاج أن تكتمه ما يعلمه الله منك وإلاّ فاجعل للناس ظاهرك ولله باطنك ، ودارهم في نفسك وخادعهم عن دينك وعاشرهم بالتي هي أحسن .

وسئل أبو الحسن الدينوريّ : ما الّذي يجب على الإخوان إذا اصطحبوا ؟ فقال : التآخي بالحقّ والتواصي بالصبر قال الله تعالىٰ : ﴿**وتواصوا بالصبر**﴾[1] .

وكان شرط إبراهيم بن أدهم مع من يصحبه أن يكون الخدمة والأذان له ، وأن يكون يده في جميع ما يفتح الله عليهم من الدنيا كيدهم .

وكان رحمه الله يعمل بالنهار ، وكانوا يجتمعون باللّيل في موضع وهم صيام ، فكان إبراهيم يبطىء في الرجوع من العمل ، فقالوا : نأكل فطورنا دونه حتّى يعود بعد هذا أسرع ، فأفطروا وناموا ، فلمّا رجع إبراهيم وجدهم نائمين فقال : لعلّهم لم يكن لهم طعام فعمد إلى شيء من الدقيق كان هناك فعجنه وأوقد النار وطرح الملّة[2] فانتبهوا وهو ينفخ في النار واضعاً محاسنه على التراب فقالوا له في ذلك ، فقال : قلت : لعلّكم لم تجدوا فطوراً فأحببت أن تستيقظوا والملّة أُدركت ، فقال بعضهم : أبصروا أيش عملنا وما الّذي به يعاملنا ؟ .

ويحكى أنّه كان في سفر ومعه ثلاثة نفر فبلغوا مسجداً في بعض المفاوز ، وكانت ليلة باردة ولم يكن للمسجد باب ، فلمّا كان وقت النوم ناموا وقام إبراهيم على الباب إلى وقت الصباح فقيل له : لم تنم ؟ قال : خشيت أن يصيبكم البرد فقمت مقام الباب .

---

(١) سورة العصر ؛ الآية : ٣ .

(٢) بهامش الأصل : الملة خبزة من عجين يوضع عليها النار والرماد حتى تشتوي .

وقال أبو عليّ الرباطيّ : صحبت عبد الله المروزيّ وكان يدخل البادية قبل أن أصحبه بلا زاد ، فلمّا صحبته قال لي : أيّما أحبّ إليك أن تكون أنت الأمير أم أنا ؟ فقلت : لا بل أنت ، قال : وعليك الطاعة ؟ قلت : نعم ، فأخذ مخلاةً[1] ووضع فيها الزاد وحمل على ظهره فإذا قلت له : أعطني حتّى أحمله ، يقول : ألست أنا الأمير ؟ فعليك الطاعة ، قال : فأخذنا المطر ليلة ، فوقف على رأسي طول اللّيل إلى الصباح ، وعليه الكساء وأنا جالس يمنع عنّي المطر ، فكنت أقول في نفسي : ليتني متّ ولم أقل أنت الأمير ، ثم قال : إذا صحبك إنسان فاصحبه يا أخي كما رأيتني صحبتك أو انفرد .

وقيل لذي النون : مع من أصحب ؟ قال : من إذا مرضت عادك ، وإذا أذنبت تاب عنك .

إذا مرضنا أتيناكم نعودكم وتذنبون فنأتيكم فتعتذروا[2]

وعن إبراهيم بن شيبان ، قال : كنّا نصحب أبا عبد الله المغربيّ ونحن شباب ، وسافر بنا في البراري والفلوات وكان معه شيخ اسمه الحسين ، قد صحبه سبعين سنة ، وكان إذا جرى من أحدنا خطأ ويتغيّر علينا قلت للشيخ : «نتشفّع بهذا الشيخ» حتّى يرجع لنا إلى ما كان ، إعظاماً لحرمته ومعرفته تقلّد طول صحبته .

ومما يجب من حقوق الصحبة التجافي عن العيوب ، والإغضاء عن الذنوب ، وربّما يجب في صحبة الأحداث ومن لم يرتض برياضات آدابهم التلقّي بالتأديب والتقويم .

وقد جمع أبو عبد الرّحمن السلميّ آداب الصحبة في كتاب وجملتها : حسن الخلق ومعاشرة من يوثق بدينه وتستوثق من أمانته ، والصفح عن عثرات الإخوان وقلّة الخلاف عليهم ، وإحمادهم على حسن نيّاتهم ، والتباعد عن مناقشتهم في نعم الله عليهم ، وأن لا يواجههم بما يكرهون ، ولا يحتجب

---

(١) المخلاة : ما يجعل فيه العشب ، ومنه ما يعلق في عنق الدابة .
(٢) الصواب : إذا مرضتم .

عنهم ، ولا يهجرهم ، ويستحيي منهم في كلّ حال . ويعايشهم ببشاشة الوجه ، وطلاقة اللّسان ، وبسط الكفّ ، وصدق الوعد ، ودوام العهد ، وحفظ الأسرار ، وإيثار الإرفاق ، وقبول الأعذار ، واحتمال الأذى ، وبسط المعروف ، وتليين الكنف ، وتسهيل العطف ، وصدق الوفاء ، وحسن التفاعل ، ونشر المحاسن ، وستر المقابح ، وإظهار الفرح ، وبذل النصيحة وقبولها منهم ، وأن يراعي صلاحهم لأفرادهم ، ويحبّ لهم ما يحبّ لنفسه ، ويكرم كلّ أحد منهم على قدره ، ويسترسل[1] معه على سجيّته ، ولا يُطريه في وجهه . ويكون طوع أمره ونهيه ووفق قوله وفعله ـ . وهذه المعاني أجمع في سلك النظم منها في النثر ، ومحاضرتها بالشعر أعذب وأعجب كما قيل في صدق الموافقة :

تريدين أن أرضى وترضي وتمسكي ... زمامي ما عشنا معاً وعناني
إذاً أبصري الدنيا بعيني ، واسمعي ... بأُذني فيها ، وانطقي بلساني

وقال الموسويّ :

أنت الكرى مونساً طرفي وبعضهمُ ... مثل القذى مانعاً عيني من الوسن[2]
لقد تمازج قلبانا كأنّهما ... تراضعا بدم الأحشاء لا اللّبن

بعض المتقدّمين :

أميل مع الذمام على ابن عمّي ... وأُفضي للصديق على الصديق
وإن ألفيتني ملكاً مطاعاً ... فإنّك واجدي عبد الصديق

القاضي أبو الحسن :

وتركي مواساة الأخلّاء بالّذي ... تنال يدي ظلمٌ لهم وعقوق
وإنّي لأستحيي من اللّه أن أُرى ... بحال اتّساع والصديق مضيق

وقال محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام : أيدخل أحدكم يده في كمّ صاحبه

---

(١) معنى استرسل هنا : انبسط إليه واستأنس .

(٢) الكرى مصدر بمعنى النعاس . والوسن : ثقل النوم .

فيأخذ حاجته من الدنانير ؟ قالوا : لا ، قال : فلستم بإخوان إذن[١] .

وقال حكيم : من ودّك لأمر ولّى مع انقضائه .

كان مع مالك بن دينار[٢] كلبٌ فقيل له : يا أبا يحيى! ما هذا؟ قال : خير من جليس سوء .

وقال [الـ] ـفضيل للثوريّ : دلّني على جليس أجلس إليه ، قال : تلك ضالّة لا توجد .

لقمان : إيّاك وصحابة السوء ؛ فإنّه كالسيف : يعجبك منظره ويقبح أثره .

مرس السعديّ :

أخ لي كأيّام الحياة إخاؤه ... تلوّن ألواناً عليّ خطوبها
إذا عبت منه خصلة فهجرته ... دعتني إليه خصلة لا أعيبها

ثلاثة لا تعرفهم إلاّ عند ثلاثة : الحليم عند الغضب ، والشجاع عند الحرب ، والأخ عند حاجتك إليه .

قيل لرَوح بن زنباع[٣] : ما معنى الصديق ؟ قال : لفظ لا معنى له . الصديق الفاضل من أحبّ صديق صديقه . كلّ مودّة عقدها الطمع حلّها اليأس .

قال رجل لمطيع بن إياس[٤] : قد جئتك خاطباً قال : لمن ؟ قال :

---

(١) وقد سبق عن جده الشهيد عليه السلام ، ولا منافاة .

(٢) أبو يحيى مالك بن دينار البصري من رواة الحديث كان ورعاً يأكل من كسبه ، ويكتب المصاحف بالأجرة ، توفي بالبصرة ١٣١ . أنظر الوفيات والأعلام : ٨٢٦ .

(٣) أبو زرعة روح بن زنباع بن روح بن سلامة الجذامي . أمير فلسطين . قيل : له صحبة ، كان عبد الملك بن مروان يقول : جمع روح طاعة أهل الشام ، ودهاء أهل العراق وفقه أهل الحجاز ، توفي ٨٤ هـ . الإصابة (١ : ٥٠٨ ، برقم ٢٧١٣) .

(٤) مطيع بن أياس الكناني ، شاعر من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، كان ظريفاً مليح النادرة ، متهماً بالزندقة مولده ومنشأه بالكوفة ، وأصل أبيه من فلسطين ، انقطع في العباسية إلى جعفر بن المنصور ، ولاه المهدي الصدقات بالبصرة فتوفي فيها سنة ١٦٦ هـ . الأغاني (١٢ : ٧٥) والأعلام : ١٠٤٩ .

لمودّتك ، قال : أنكحتك إيّاها وجعلت الصداق أن لا تقبل فيّ مقالة قائل .

قال حكيم : ليكن اختيارك من الأشياء جديدها ، ومن الإخوان أقدمهم .

صديق حضارة وصديق عين ... وليس لمن تغيّب بالصديق

امرؤ القيس[1] :

إذا قلتُ : هذا صاحب قد رضيته ... وقرَّت به العينان بدّلت آخرا
كذلك حظّي ما أُصاحب صاحباً ... من الناس إلاّ خانني وتغيّرا

مجاهد : لو لم يكن في الصاحب الصالح إلاّ أنّ حياءه يمنعك عن معصية الله كفاك .

النبي صلى الله عليه وآله وسلم : «أكثروا من الإخوان فإنّ ربّكم حيٌّ كريم يستحيي أن يعذّب عبده بين إخوانه» .

وعنه عليه السلام : «من نظر إلى أخيه نظر مودّة لم يكن في قلبه عليه إحنة ، لم يطرف حتّى يغفر الله له ما تقدّم من ذنبه» .

عليّ عليه السلام : «من كان له صديق فإنّه لا يعذّب ، ألا ترى كيف أخبر الله عن أهل النّار : ﴿**فما لنا من شافعين ولا صديق حميم**﴾[2]» .

وعنه عليه السلام : «لا يكون الصديق صديقاً حتى يحفظ أخاه في ثلاث : في نكبته وغيبته ووفاته» .

وعنه عليه السلام : «أعجز الناس من عجز عن الإخوان ، وأعجز منه من ضيّع من ظفر بهم منهم» .

ثلاث يثبتن الودّ في قلب أخيك : أن تبدأه بالسلام ، وتوسّع له في المجالس ، وتدعوه بأحبّ أسمائه إليه .

---

(١) أُنظر القصائد المختارة : ٤٦ من قصيدة في ٥٤ بيتاً قالها حين توجه إلى قيصر .
(٢) سورة الشعراء ؛ الآيتان : ١٠٠ ـ ١٠١ .

آخــر :

أُحبّ مـن الـفـتـيـان كـلّ مؤاتـي		وكـلّ غضيض الـطرف عن عثـراتـي
يـوافـقـنـي فـي كـلّ أمـر أُحـبّـه		ويـحـفـظني حـيّـاً وبـعـد وفـاتـي
فمن لي بهـذا الشيء إن قـد وجـدتـه		فـقـاسمتـه مـالي ومـن حسنـاتـي

الشـافعيّ :

مـرض الـحـبيـب فـعُـدتـه		فـمـرضت مـن حـذري عليـه
وأتـى الـحـبـيـب يـعـودنـي		فـبـرئت مـن نـظري إلـيـه

آخــر :

كـم صـديـق عـرفـتـه بـصـديـق		صـار أحـظى من الصـديـق العتيـق
ورفـيـق رأيـتـه فـي طـريـق		صـار عنـدي هـو الصـديق الحقيقي

آخــر :

أخـلّاء الـرخـاء هـم كـثـيـرٌ		ولـكـن فـي الـبـلاء هـمُ قـليـلُ

آخــر :

شـفيـعـك من قـلبي شـفيـع مشفّـع		وحـظّك مـن ودّي حـريـم مـمـنّـع
فـلا يـغـررك خـلّة مـن تـؤاخـي		فـمـالـك عـنـد نـائـبـة خـليـلُ
فـلا تـسـألـنّـي فـي هـواك زيـادة		فـأيـسـره مُـرض وأدنـاه مـقـنـع
عـليـك سـلام الـلّه أنـت وديعـتـي		إلـيـه، ومـا يُـسـتـودع الـلّه أودع

آخــر :

تـذلّـل لـمـن إن تـذلّـلت لـه		يـرى ذاك لـلفـضـل لا لـلبـلـه
وجـانـب صـداقـة مـن لا يـزال		على الأصـدقـاء يـرى الفـضـل لـه

آخــر :

وإذا صـاحـبت فـاصـحـب مـاجـداً		ذا وفـاء وحـيـاء وكـرم
قـولـه لـلشـيء: لا، إن قـلـت: لا		وإذا قـلـت: نـعـم، قـال: نـعـم

آخـــر :

لا تـصـحـبـنّ لئـام الـنـاس إنّ لـهـم		عـــدوى وإن كنت من غـرّ منــاجيب[1]
واصحب أخــا كـرم تحــظى بصحبتــه		فـالـطبــع مكتسب من كـلّ مصحــوب
والـريــح آخـــذة مـمّـــا تــمــرّ بـــه		نتنــاً من النتن، أو طيبــاً مـن الـطيب

آخـــر :

بــابــدان كم نشين كـــه صحبت بـــد		كــرچـــه پـــاكـــى تـــرا پـليـــد كـنــد
چـشــمـهٔ آفـتـــاب رخـشـــان را		پـــارهٔ ابـــر نـــاپـــديـــد كـنـــد

آخـــر :

هـيــچ صـحـبـت مـبــاد بــاعــامـت		كـــوچـــوخـــود مختصـر كنـد نـــامت
صـــحـبـت عـــام در بـهـــشـــت آبـــاد		مـــرك بـاشـــد، كـه مـــرك عـــامى بـــاد

آخـــر :

إذا مــا الـــخــلّ لـم يـحــفظ ثــلاثــاً		فــبــعـــه ولـــو بــكــفّ مـــن رمـــاد
وفـــاء لـــلـعـــهـــود وبـــذل مـــال		وكــتــمــان الـســرائــر في الــفـؤاد

آخـــر :

نـــه بـــرادر بـــود بـــنـــرم ودرشـــت		گـــربـــراى شـــكـــم بود همپـــشـــت

آخـــر :

چـــون كـــم آيـــد زراه تـــوشـــهٔ تـــو		نـــنـــگـــرد در كـــلاه گـــوشـــهٔ تـــو

آخـــر :

يـــار «هـم كـــاســـه» هـســت بسـيـــارى		لـيـــك «هـم كـيـســـه» كـم بـــوديـــارى

---

(١) الغر ـ بالضم ـ جمع الأغر وهو هنا : السيد الشريف والمناجيب ـ بفتح الميم ـ جمع المنجاب ـ بكسرها ـ وهو الذي ولد النجباء . يستوي فيه المذكر والمؤنث .

آخـــر :

مــا را بهشت، صحبت يـاران همـدست ديــدار يــار نــا متنــاسب جهـنّمـست
هـردم كه در حضـور عـزيـزى بـر آورى درياب كزحيات جهان حاصل آندمست

آخـــر :

غـائظ صديقـك، تكشف عن ضمـائـره وتهتــك الستر عن محجــوب أســرار
فــالعـود ينبيــك عن مكنــون بــاطنــه دخــانــه حـيـن تـلقـيــه عـلى الـنــار

ولقد أطلنا فصل «الصحبة» نثراً ونظماً ، وختمناه بالأبيات الفارسيّة [ليكون] أحسن ختماً[1] .

واعلم بأنّي عاشرت الناس خمسين سنة فلم أجد أحـداً غفر لي زلّـة وأقال لي عثرة ، ولكنّ الأولى بالصداقة الصديق الّذي أدّب نفسه بهذه الأربعـة : وهي أن ينزّه النفس بالعفّة ، ويقوّيهـا بالتقـوى ويزهّـدها في حُـطام الدنيـا ، ويهذّبهـا بالورع عن المعاصي .

---

(١) بين المعقوفين زيادة منا رعاية لأعراب «ختماً» .

الفصل الرابع

في آداب النفس بالعفة والتقوى والزهد والورع

اعلم أنّ العفّة ضبط النفس عن اللّذّات المشتركة بين عامّة الحيوانات ، من جملة المذوقات والملموسات ، وليس معنى ضبط النفس عنها رفضها بواحدة وقهر الشهوة وحصر الهوى على كلّ حال ، ولو كانت الشهوة مما يُستغنى عنها ويتجزّى بواحدة منها لكان خلقها في أصل التركيب عبثاً ووبالاً على صاحبها ، كيف وإلى المذوقات ضرورة بقاء البدن ، وفي المناكح ضرورة بقاء النسل ؟ ولكن معنى ضبط النفس عنها هو أن يجري أمر تناولها على أربعة أنحاء : أن يتناول منها ما ينبغي ، وفي الوقت الّذي ينبغي ، ومن المقدار الّذي ينبغي ، ومن الوجه الّذي ينبغي . فتكون شهوته تحت طاعة عقله ، وإيثاره الجميل على الكفّ على إيثاره اللّذيذ ، فيستلذّه من حيث هو جميل بما ذكرنا من الأوصاف الأربعة . لا أن يستجمله من حيث إنّه لذيذ بهوى نفسه ، وشهوة جسده ، وضراوة[1] عادته ، وتسويل شيطانه . وكذلك في الغضب حاجة الأنفة من العار والحماية والذمار والقبض على يد الشهوة والأخذ بعنان الهوى ، فيكون عنده كالشيء المحظور الأصل ، المباح الفرع كالرخصة الّتي يستباح بها الشيء مع قيام الحرمة .

وقد قال بعض البلغاء في تمثيل أمرهما أنّهما يجب أن يجريا مع العقل مجرى المركوب الّذي يركب عند الحاجة بأربعة أشياء : بسرج يذلّله ، وشكيمة

(١) ضرى بالشيء ـ كرضي ـ ضراوة : لهج به .

تكبحه[1] ، وعنان يثنيه ، وسوط يحنقه ، فإذا نزل عنه راكبه ألزمه الرباط والشكال لئلّا يجد على حال من الأحوال سبيلاً إلى أن يشرد فيهلك نفسه ، ويجني على غيره ، وكما يخاف من هذا المركوب الشرود فقد يخاف عنه الحران[2] .

وشرود الشهوة الشره ، وحرانه الخمود ، وشرود الغضب التهوّر ، وحرانه الجبن وآفة الشره أغلب من آفة الخمود ، وفي الغضب على العكس ولهذا كانت المواعظ والوصايا في معالجة الشره والجبن أكثر وأبلغ منها في معالجة ضدّيهما ، إلاَّ أنّ الشره أشبه بما يكون طوعاً من الجبن ، والجبن أشبه بما يكون طبعاً من الشره ، ولا يُعذر الشرِه ، وقد يعذر الجبان ويصلح معالجة الشره دون معالجة الجبن ، ويستحكم عادة الإمساك عن الأوطار من غير ركوب الأخطار ، ولا يستحكم عادة الإستهانة بالعظائم إلاَّ بركوب الملاحم .

وأسباب الشره ليس بمرغوب عنها والشره عينه مرغوب عنه ، وأسباب الجبن مرغوب عنها والجبن نفسه ليس بمرغوب عنه ، فبين الشره والجبن والخمود والتهوّر مفارقات من حيث هذه الإضافات والاعتبارات ، ولكن لا مخالفة في المحمود من وسيطهما عنه . ونجده من حيث إنّ ذلك طاعة الشهوة العقل في تناول الملاذّ ، وطاعة الغضب العقل في دفاع المحاذر . فإذاً العفيف لن يشتهي اللذّات الّتي يستغني عنها ، ولا يحزن لفوات الملذّات الّتي يحتاج إليها ، وعكسه الشره فيكون العفيف ضابطً متمالكاً ، والشرِه ساقطاً متهالكاً .

ثمّ قد يعمل الإنسان عمل الأعفّاء من غير أن يكون على إحدى أربع جهات :

أحدها : العلم بالشيء كمن يذوق الأشربة أو يختبر الأطعمة ، فيكون حاله حال العفيف الّذي يكفيه الطفيف[3] ، وهو لو استطاع الأكل لاحتجفه

---

(١) الشكيمة : الحديدة المعترضة في فم الفرس . كبحه : جذبه .
(٢) حرن البغل ـ من باب نصر وكرم ـ : وقف .
(٣) القليل ، غير التام ، الحقير ، الخسيس .

وتخسّفه[1] كالعقاب المسعور[2] ، ولو أمكنه الشرب لاستنقذه واشتفّه ، ولا الرمل الماء (؟) في الودائق[3] .

والثاني : الإمتلاء من الشيء كما لو قدّم طعام بين يدي خليع من الطعام ، نزيف من المدام .

والثالث : فرط العشق ، فإنّ من صدق عشقه لإنسان لم يرتح لغيره وإن كان موجّهاً قال الأصمعيّ : ابتعت جاريةً فقالت : ما تبتغي ؟ فقلت : كلّي بكلّك مشغول ، فقالت : وكلّي بكلّك مبذول، لكن التفت وراءك فإنّ وراءك من لا أعشره[4] فالتفتُّ فصاحت : يا كذّاب لو كنت صادقاً لم تلتفت[5] .

---

(۱) احتجف الشيء : استخلصه وحازه . ولم يعهد باب التفعل من «خسف» والمراد هنا إن العفيف لو لم يعفّ لحاز الطعام وابتلعه ، من قولك : خسف في الأرض : غاب .

(۲) الحريص على الأكل وإن امتلأ بطنه .

(۳) اشتف ما في الإناء : شرب كل ما فيه . والوديقة : الموضع فيه العشب .

(٤) بهامش الأصل :أي لا أحصيه . انتهى . يعني : ليس جمالي عشر جماله .

(٥) ولنعم ما قال الشيخ الجامي :

چهارده ساله بتی برلب بام ... چون مه چارده ، در حسن تمام
برسر سرو ، كله گوشه شكست ... بر گل ازسنبل تر ، سلسله بست
داد هنكامهٔ معشوقی ساز ... شيوهٔ جلوه گيری كرد آغاز
اوفروزان چومهی كرده هجوم ... بر در وبامش اسيران چو نجوم
ناگهان پشت خمی همچو هلال ... دامن از خون شفق ما لا مال
كرد در قبلهٔ او روی اميد ... ساخت فرش ره او موی سپيد
گوهر اشك بمژ گان ميسفت ... وزديده گهرافشان ميگفت:
كای پری! باهمه فرزانگيم ... نام رفت از تو بديوانكيم
لاله سان، سوخنهٔ داغ توأم ... سبزه وش پی سپر باغ توأم
نظر لطف بحالم بگشای ... زنك اندوه ز جانم بزدای
نوجوان حال كهن پير بديد ... بوی صدق از نفس او نشنيد
گفت : كای پير پراكنده نظر ... رو بگردان بقفا باز نگر
كه درآن منظره گلرخساريست ... كه جهان ازرخ او گلزاريت
اوچوخورشيد فلك ، من ما هم ... من كمين بندهٔ او ، اوشاهم
عشقبازان چوجمالش نگرند ... من كه باشم كه مرانام برند؟
پير بيچاره چو آنسونگريست ... تابببيندكه در آن منظره كيست =

والرابع : عدم العلم بالشيء فإنّ من لم يذق اللّحم لم يؤثره على الرية ، ومن لم يجد طعم المآكل سهُل عليه مقاساة الطعم الكريه .

قال عليّ ﵇ متأسّفاً : «إنّ هٰهنا علماً جمّاً لو أجد له حملة»[1] .

وقال ﵇ : «لو أخذت مائة قلوبهم كالذهب المصفّى ثمّ أخذت من المائة عشرة ثمّ من العشرة واحداً أخذت ثمّ اختبرته ببعض ما عندي إذاً لقال : عليٌّ أكذب العرب ، وذلك لأنّ الناس أعداء ما جهلوا ، فإذا طلع لهم باب من العلم تقصر دونه أفهامهم كذّبوا قائله .

فعلى هذا من القسم الأوّل اكتفى أصحاب السلطان من العلم والخير بتقريب العلماء وإجلال الزهّاد ، وبمقدار ما يُعدّون من جملة الأخيار من غير أن يسلكوا في طرائقهم ، أو يتخلّقوا بخلائقهم ، فهو رضي من الجسم بالاسم ، ومن الحميم بالشميم .

ومن الثاني وصيّة النساء والمتزيّنين عند الموت لذي الاستغناء والفوت . قيل لميمون بن مهران : إنّ رقيّة امرأة هشام بن عبد الملك ماتت فأعتقت كلّ مملوك لها ، فقال : يعصون الله تعالىٰ مرّتين : يتجمّلون به وهو في أيديهم بغير حقّ ، فإذا صار لغيرهم أسرفوا فيه .

ومن الثالث رضاء أصحاب الدنيا بمتاع الغرور عن دين النسّاك وأحوال الزهّاد ، يرغبون في الدنيا الفانية ، ويرغبون عن الآخرة الباقية وذلك لجهلهم بها . قيل للعتابيّ : إنّ فلاناً عالم ، قال : إذاً لا يفرح بالدنيا ولا يرغب فيها . وعلى هذا قول محمّد بن الحسن : «إذا أوصى بثلث ماله لأعقل الناس ، صرف ذلك إلى الزهّاد في الدنيا لكمال عقلهم» .

زد جوان دست وفكند از بامش　　داد چون سايه بخاك آرامش
كانكه باماره سودا سپرد　　نيست لايق كه دگرجا نگرد
هست آئين دو بيني زهوس　　قبلهٔ عشق يكى باشد وبس

(١) في الكلمة ١٤٧ من حكمه القصار فيما قاله لكميل النخعي . أُنظر شرح النهج لابن أبي الحديد (٤ : ٤١٩) .

ومن الرابع غفلة الناس عن نعيم الآخرة ، وانصبائهم إلى زخرف الدار الحاضرة ، مع تعبهم ونصبهم فيها وطول شقائهم بها .

أرى أشقياء الناس لا يسأمونها ... على أنّهم فيها عراة وجُوّع
أراها وإن كانت تُحَبّ فإنّها ... سحابة صيف عن قليل تقشّع

توقظهم الغِير ولا يرجعون ، وتعظهم العِبَر ولا يسمعون . لا يهلك أبناؤها إلاّ بحياتهم ولا يحذرونها ، ولا تفني أولادها إلاّ بأقواتهم ولا يسأمونها ، يجدون كلّ مرارة في شرابها ، ويردون كلّ خديعة من سرابها .

والأنفس مع ذلك بغرورها زائدة الولوع ، والأكباد من همومها بادية الصدوع . فياللمرء منها ! لا يبقى قليلها ، ولا يسأمها عليلها . يدوم داؤها ، ويفنى طبيبها . ويكثر نصبها ، ويقلّ نصيبها .

يحكى أنّ سليمان بن عبد الملك دخل المدينة فأقام بها ثلاثاً ، فقال : ما هٰهنا رجل أدرك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم نبعث إليه فيجيئنا ؟ قالوا : بلى هٰهنا رجل صالح يدعى «أبا حازم» فبعث إليه فأتاه فقال له سليمان : يا أبا حازم ! ما هذا الجفاء ؟ قال : وأيّ الجفاء رأيت منّي ؟ قال : أتاني وجوه أهل المدينة ولم تأتني ، قال : أُعيذك بالله أن تقول ما لم يكن ، لم يجر بيني وبينك معرفة آتيك لها ، قال : صدق الشيخ .

ثمّ قال : يا أبا حازم ! لما نكره الموت ؟ قال : لأنّكم أخربتم آخرتكم ، وعمّرتم دنياكم ، فأنتم تكرهون أن تنقلوا من العمران إلى الخراب ، قال : صدقت . فكيف القدوم على الله ؟ قال : أمّا المحسن فكالحميم يقدم على أهله ، وأمّا المسيء فكالعبد الآبق يرد على مولاه ، فبكى سليمان وقال : ليت شعري ! ما لنا عند الله ؟ قال : اعرض عملك على كتاب الله فأنت تعلم به ما لك عند الله ، قال : فأين أُصيب من كتاب الله ؟ قال قوله تعالىٰ : **﴿إنّ الأبرار لفي نعيم وإنّ الفجّار لفي جحيم﴾**[1] قال : فأين رحمة الله ؟ قال : قريب من المحسنين[2] .

---

(١) سورة الإنفطار ؛ الآيتان : ١٣ ـ ١٤ .

(٢) مأخوذ من الآية الشريفة : **﴿إن رحمة الله قريب من المحسنين﴾** . الأعراف ؛ الآية : ٥٥ .

ويحكى أنّ سليمان هذا لبس يوماً أحسن ما عنده من الملابس . وجلس في أبهى المجالس ، ودعا بأحسن جارية يتحظّاها فقال لها : كيف ترين ؟ فقالت :

أنت نعم المتاع لو كنت تبقى ... غير أن لا بقاء للإنسان
أنت خلو من العيوب وممّا ... يكره الناس غير أنّك فاني

فلمّا كان من الغد مرض على فراش الموت ، فأُنيم[1] في غرفة ، فوقع بصره على راعي غنم، فقال : يا ليتني لم أملك هذا الملك وكنت عسيفاً[2] أو راعياً أسعى بحلال رائحاً غادياً فبلغ ذلك أبا حازم فقال : الحمد لله الّذي جعلهم عند الموت يتمنّونا ولم يجعلنا نتمنّاهم .

ولمّا احتضر عمر بن هبيرة الفزاريّ أمير العراقين قال : لله درّ البغلات الموكفات[3] والله إنّي لوددت أنّي راعي إبل لرجل سيّىء الملكة .

فواحسرتا عليهم ! يظلمون أنفسهم ولا يبالون ، يتمنّون حال الصّالحين حين لا ينالون لا يصفو عيش قوم إلاّ وأن يتكدّر على آخرين ، ولا يتمّ مراد حاضر إلاّ بغيبة عن غابرين . ولا يسلم سالم فيما ترى العين إلاّ وسقامه من سلامته ، ولا يزيد زائد في مال إلاّ ونقصانه في زيادته . لا تخلو مع هذا نفس عن إخوان ، ولا نَفَس عن حدثان ، ولا زيادة عن نقصان . ولا ربح عن خسران ، ولا سرور عن حسرات ، ولا راحة عن بليّات .

حدّث بعض الصالحين قال : لقيت عليّ بن محمّد بن جعفر بن أحمد بن جعفر بن زيد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام بالكوفة بعد خلاصه عن حبس الموفّق ـ وكان حبسه مرّتين : مرّةً لكفالته لبعض أهله ومرّة لسعاية عليه ـ وهنّأته بالسلامة ، وقلت قد عُدتَ إلى وطنك الّذي تلذّه ، وإخوانك الّذين تحبّهم ، فقال : يا أبا عليّ ! ذهب الأتراب والشباب

---

(١) مبني للمفعول من «أنام» .
(٢) العسيف : الأجير .
(٣) أي البغلات التي وضع عليها الوكاف ـ بالكسر ـ وهو البرذعة ، وبالفارسية «پالان» .

والأصحاب ، ثمَّ أنشد :

هبني بقيت على الأيّام والأبد ونلت ما شئت من مال ومن ولد
مَن لي برؤية من قد كنت آلفه وبالشباب الّذي ولّى ولم يعد؟

فإلى متى هذا الدؤوب[1] فيها وأنت راحل عنها ، وذاهب منها ، ولاحق بمن تقدّمك من الإخوان ، ومضى قبلك من الخلّان ، بيننا المرء يكدح في سعيه لها دائباً إذا تراه ضريع سعيه وقتيل سيفه ، كدود القزّ ينسج على نفسه إلى أن لا يجد مخلصاً عن نسجه ، ويموت بسبب عمله ، وكذلك العبد لا تزال نفسه بعلائق الدنيا من مال وجاه وأهل وولد وصديق وخول[2] ، فلا يجد لنفسه مخلصاً عنها ولا يمكنه أن يقطع سلسلة من سلاسلها عن نفسه ولو بجهد جهيد ، وسعي شديد ، إلى أن يفرّق طارق الموت بينه وبينها عن آخرها ، والقلب قد نشبت فيه مخالبها ، فهي تجاذبه إلى الدنيا ويد الموت تجذبه إلى الآخرة .

ألم تر أنّ المرء ما دام عائشاً معنّى بأمر ما يزال يعالجه
كدودٌ كدود القزّ ينسج دائماً ويهلك غمّاً وسط ما هو ناسجه[3]

هيهات ! إنّ عين الحسرات تلاحظ جبهة الأمانيّ بالندامات ، وإنّ يد الفناء تنازع أردية الأهواء . وإنّ عقبى أمرها يعصف على زهرات أُنسها بالدثور ، وإنّ حال أهلها تدعو الراغب فيها بالثبور . فتعفّفوا عن محارم ربّكم تكونوا عابدين أتقياء ، وارضوا بما قسّم لكم من الرزق تكونوا زاهدين أغنياء ، وصاحبوا الناس بما تحبّون أن يصاحبوكم به تكونوا عدولاً أزكياء . ولا تتعبوا أنفسكم بالجهد فكلٌّ مستوفٍ أكله ، غير منتقص شيئاً قدّر له ، إنّه كان قبلكم أقوام جمعوا كثيراً وأمّلوا بعيداً ، وبنوا مشيداً ، فأصبح جمعهم بوراً ومساكنهم قبوراً ، وأملهم غروراً .

---

(١) الجد والتعب والإستمرار على العمل .
(٢) العبيد والإماء وغيرهم من الحاشية .
(٣) «كدود» صفة من قولك : كدّ إذا تعب .

لمّا وُضع الإسكندر في تابوته قيل للعلماء : تكلّموا فقد كان يسمع إليكم وينصت لكم وكانوا اثني عشر عالماً .

فقال الأوّل : يا أيّها الساعي المتعصّب ! جمعت ما خانك عند الإجتماع ، وودّعك عند الاحتياج ، فلا قرابة يعضدك ، ولا وزير يفتقدك .

وقال الثاني : قد ذهبت زهرة بهجته كما ذهب شعاع الشمس بنور النبات .

وقال الثالث : هذا الإسكندر صاحب الأُسراء أصبح اليوم أسيراً ! .

وقال الرابع : قد أمنك من كان يخافك ، فهل أمنت من الّذي كنت تخافه ؟ .

وقال الخامس : بل هل أمنت ما كنت تخاف نزوله بك ؟ .

وقال السادس : انظروا إلى حُلم النائم كيف انقضى ، وإلى ظلّ الغمام كيف انجلى .

وقال السابع : قد كان هذا الشخص يسأل عمّا قبله ، ولا يسأل عمّا بعده .

وقال الثامن : ورد علينا هذا الجسد بما كان يستبقيه .

وقال التاسع : ما أرغبنا فيما فارقت ، وأغفلنا عمّا عاينت ! .

وقال العاشر : ما أبعد شبه مكانك الّذي أنت به اليوم من مكانك الّذي كنت به في الأمس ! .

وقال الحادي عشر : لم يقضِ هذا الجسد نهمته[1] من هذه الدنيا حتّى قضت الدنيا نهمتها منه .

وقال الثاني عشر : أنت أمس كان أنطق منك اليوم ، وأنت اليوم أوعظ

---

(١) «قضى منه نهمته» أي شهوته وحاجته .

منك بالأمس[1] .

وقال عامر بن قيس : الدنيا والدة الموت ، ميراث الدول ، أوعية الفجائع ، ناقضة للمبرم مرتجعة للعطيّة . وكلّ من فيها يجري إلى ما لا يدري ، وكلّ مستقرّ فيما غير راض بها ، وذلك شهيد على أنّها ليست بدار قرار .

قيل لزاهد : كيف سخت نفسك عن الدنيا ؟ فقال : أيقنت أنّي خارج منها كارهاً ، فأحببت أن أُخرج منها طوعاً .

وقيل لحكيم : صف لنا الدنيا وأوجز ، فقال : ضحكة مستعبرة .

وسئل بعض العلماء عن رغبة الناس في دنياهم مع شدّة إتعابها إيّاهم ، فقال : ذلك لقلّة معرفتهم بها . كالصبيّ الغِرّ أعجبه من لين الرقشاء لونها ومسّها ، فلم يبرح حتّى قتله نهشها ، ولو أنّهم عرفوها حقّ معرفتها لنظروا إليها نظر المريض إلى وجوه العوّد ، نظر الجزور إلى أشفار الجازر ، نظر المخمور إلى الشراب ، فلا سماعه يطيق إن ذكر بين يديه ولا إذا أُحضر أمكنه النظر إليه ، ولا ذوقه وإن كلّف وأُكره عليه .

وقال بعض الصالحين : من عرف عفّ ، ومن عفّ خفّ :

بلوغ المنى أن لا يفكّر في المنى | ونيل الغنى أن لا يُبالي بالغنى
ومن يك للدنيا أشدّ تصوّراً | تجده من الدنيا أشدّ تصوّنا

وقال بعض الخطباء : أيّها الناس ! لا بدّ من الرحيل قربت أم بعدت المراحل ، ولا قرار دون التحويل في عاجل اليوم أو آجل ، فبطء الفتى أنسأ في الأجل ، وأرخأ لطول المهل ، والأيّام تطلبه شدّاً وتقريباً ، واللّيالي تحثّ به يداً وتعقيباً . لا يبرح واحد ما يشتهي منها حتّى يعود مفقوداً ، والرافل[2] بخيلائه على ظهرها حتّى يصير ملحوداً .

عجباً لقوم يعجبون برأيهم | وأرى بعقلهم الضعيف قصورا

---

(١) وانظر بعض أقوال حكماء أُخر عند موته في مجاني الأدب (٣ : ٣٩) عن زهر الآداب .

(٢) رفل : جر ذيله وتبختر .

هدموا قصورهمُ بدار بقائهم   وبنوا لعمرهم القصير قصورا

أوردهم الردى[1] بعد الغبطة موارد كآبته[2] ، ودعاهم الداعي الّذي لا بدّ من إجابته . سلبوا من بين العزّ والإمكان ، على عين الأنصار والأعوان . أنضر ما كانوا شباباً ، وأوفر ما كانوا أسباباً . كانوا يبصرون العيش غضّ المكاسر ليّن الأفنان ، ويرون اللّهو طيّب الورد قريب المكان ! فانظروا إليهم رمماً بوالي ، وإلى ديارهم رسوماً خوالي ! فيا لغالب صار مغلوباً ! ويا لسالب عاد مسلوباً ! ويا لأكباد باردة راحت حرّى ، وأعين قريرة أمست عبرى ! .

قدمت على المهديّ الخيزرانُ[3] في مائة قبّة ملبّسة ديباجاً ووشياً[4] وحريراً تكاد تترنّح بها[5] الدنيا نضرة وسروراً ، فسأله عليّ بن يقطين ـ رحمه الله ـ أن يتغدّى عنده ففعل وكان يشتكي شيئاً في جوفه وكنّا نظنّ أنّ فرسه ظفر به فانقطع عرق في جوفه[6] ، فتغدّى عنده ولم يمكنه المقام ، فانصرف ومات بعد ثلاثة أيّام فصلّى عليه الرشيد وأخذ البيعة لموسى الكاظم عليه السلام[7] وعادت قباب الخيزران ملبّسة مسوحاً فقال أبو العتاهية :

رحن في الوشي فأ   صبحن عليهنّ المسوح

(١) الردى مقصوراً : الموت .

(٢) الكآبة والكأبة ـ بسكون الهمزة ـ الحزن والهم .

(٣) الخيزران ابنة عطاء أم ولد يمانية الأصل ، زوجة المهدي العباسي وأُم ابنيه موسى الهادي وهارون الرشيد ، أخذت العلم عن الأوزاعي ، وكانت ذات نفوذ كبير في عهد زوجها وابنيها وكانت المواكب تغدو إليها وتروح في أيام الهادي ، فمنعها الهادي من ذلك وسعى في خلع أخيه الرشيد من ولاية العهد فغضبت عليه ودبرت المؤامرة لاغتياله سنة ١٧٠ هـ توفيت في أيام الرشيد سنة ١٧٤ هـ أُنظر تاريخ الطبري والبيان والتبيين (٢ : ٢٦٩) والأعلام ٣٠٢ .

(٤) الوشي ـ بالفتح فالسكون ـ : نقش الثوب ، الثياب الموشية .

(٥) ترنح : تمايل من سكر أو نحوه .

(٦) وذلك أن المهدي ساق خلف صيد فدخل خربة فدق ظهره باب الخربة من قوة سوق الفرس . أُنظر حياة الحيوان للدميري (١ : ٧٥) .

(٧) وهذا من عجيب السهو للناسخ ولم يلتفت إليه المؤلف ـ رحمه الله ـ حين المقابلة ، والصواب «موسى الهادي» وهو الهادي العباسي أخو الرشيد ابن المهدي .

كــلّ نــطّاح عــلى الــ ــدهــر لــه يــوم نــطوح
لــتــمــوتــنّ ولــو عمّــرت مـا عمّــر نــوح
فــعــلى نــفــســك نُــح إن كـنـت لا بــدّ تــنــوح

وقال : إنّ مناهل الأوطار مراحل الأعمار ، فبمَ السكون والأحوال تحول ، وعلامَ القرار والأعمار تزول ؟ تسعون وتدَعون والحاصل حسرة ، والأسف يمنة ويسرة ، غاية الأنس وحشة ، ونهاية الضحك عبرة :

وآخــر إحــســان اللّيــالــي إســاءة وعقبى مســرّات المســاعي مســاءة

وإنّما الحظّ من البقاء كالخطّ على الماء ، والنصيب في الحياة من الآمال كالنصيب في المنام من الخيال ، كم من أناس شهدناهم فغابوا ، ورجال دعوا فأجابوا .

ثمّ انقضت تـلك السـنـون وأهلهـا فـكـأنّـهـا وكـأنّـهـم أحـلام

فبما تتّقون ولمن تجمعون ؟ أما تعلمون النقص من كمالها ؟ أما تجدون البخس في أكيالها ، لا تمهل عاريتها إلاّ ريث[1] انتزاعها ، ولا تهمل عطيّتها عن وخي[2] ارتجاعها . ولا يرجع رائدها بالدفع والتأخير ، ولا يسمع طالبها العلل والمعاذير . لا تُنظر مقتضيها فواقاً ولا يبلع ريقاً ، ولا تُبقي عدوّاً ولا ترى صديقاً .

وكــانــت لــنــا أصــدقــاء سُــراة وأعــداء ســوء فــمــا خــلّدوا[3]
تســاقَــوا جميعــاً بكــأس المنــون فمــات الصــديـق ومــات العــدو

فلما لكم لا تعتبرون بالمثلات الّتي رأتها الأعين ، ولا تزدجرون بالآيات الّتي روتها الألسن ؟ لقد أنظركم المهل فاستعذبتم مشارعه ، وأفسدكم الأمل فاستوطأتم مضاجعه[4] هيهات ! سيعود ظنّكم في البقاء خائباً ، ونجمكم في

---

(١) الريث : مقدار المهلة من الزمن .
(٢) الوخي : القصد والعزيمة .
(٣) جمع السري : صاحب المروءة . السيد الشريف السخي ، الجَيد من كل شيء .
(٤) قد سبق مثل العبارة ومعناها في ديباجة الكتاب .

طول الرجاء غائباً وإنّ هذه الوجوه الناضرة ستعود عن قريب كالحة باسرة[1] ، وهذه الأيدي الناضرة سترجع عن قريب خاذلة قاصرة . وهذه القدود الرائعة ، والأغصان اليانعة . والعيون الدُعج[2] والحواجب الزجُّ .

أضحت قبورهم من بعد عزّهم ... تسفي عليها الصبا والحرجف الشمل[3]
لا يدفعون هواها عن وجوههم ... كأنّهم خشب بالقاع منجدل[4]
ناداهم صارخ من بعد ما قبروا : ... أين الأسرّة والتيجان والحلل؟
أين الوجوه الّتي كانت منعّمة ... من دونها تضرب الأستار والكلل؟
فأفصح القبر عنهم حين ساءله : ... تلك الوجوه عليها الدود يقتتل
قد طال ما أكلوا دهراً وما شربوا ... فأصبحوا بعد طول الأكل قد أُكلوا[5] !

وهذا موضع التعلّل بأخبار من عرف الدنيا حقّ معرفتها ، وتصوّرها بصورتها ، من الملوك الأكياس فعفّ عنها وزهد فيها وتخلّى منها .

يحكى أنّ كيخسرو لمّا رأى طاعة الدنيا له ، ولين أعنّة الأقاليم بيده ، وتقلّب أحوال الزمان على رأيه ومراده . نظر بعين عقله إليها وغمّض عين هواه عن غرورها ، وصمّم رأيه في الإعراض عن أغراضها ، وأقبل ينحرف عن طرق الأملاك إلى طرق النسّاك ، إلى أن أمر بجمع القوّاد والأعضاد ، وحشر الوجوه والأعيان فقال لهم : يا عمومتي وإخوتي وأولادي ! إنّي ذاهب إلى ربّي ، ومشتغل عن معاشكم بمعادي ، ومستخلف عليكم لهراسف هو من أرومتي[6] وأبناء عمومتي ، ومن رضيته لاستقامة أمره ، وصلاح سيرته . وإنّي لا أرتاب أنّه

---

(١) كلح الوجه : عبس وتكشر . وبسر : زوى ما بين عينيه .
(٢) دعجت ـ من باب علم ـ العين : صارت شديدة السواد مع سعتها ، فصاحبها أدعج وجمعه دعج بضم الدال وسكون العين .
(٣) بتقديم الحاء المهملة على الجيم المفتوحتين : الريح الباردة الصحاح .
(٤) المنجدل : المرمي بالأرض .
(٥) الأبيات في ديوان أمير المؤمنين عليه السلام من قصيدة في ٢٥ بيتاً ، وفي المجاني (٣ : ٢٧) : استنشد المتوكل أبا الحسن علي بن محمد عليه السلام فقال : إني لقليل الرواية في الشعر ؟ فقال : ولا بد ، فأنشد القصيدة .
(٦) الأرومة ـ بالضم ـ أصل الشجرة .

حافظ فيكم وصايتي ، فسلوني حوائجكم واضمنوا لي طاعة من أُملّكه عليكم ، فبكوا كثيراً وجزعوا طويلاً وتأسّفوا جميعاً على مفارقة ملك في صورة ملَك .

ثمّ إنّه ولاّهم البلاد وملّكهم الأصقاع وأمر بكِتبة العهود لهم والاستيثاق منهم وقسّم كنزاً من كنوزه بينهم وأعطى «رستم» ثيابه ، و «طوس» دوابّه و «جود رز» ضياعه و «كيّو» أسلحته و «بيژن» فرشته ، وقضى حقّ كلّ أحد بما يقضي به الحقوق . وقسّم كنزاً له آخر في الفقراء والمساكين والعميان والمضطرّين ، وفي الزمنى واليتامى والهرمى والأيامى . وأخرج كنزاً له آخر لعمارة الحصون والرباطات ومواضع العبادات وإصلاح القناطر والجسور وسدّ المراصد والثغور ، ومداواة المرضى والممرودين[1] وإمداد الغارمين .

ثمّ دعا لهراسف فأقعده على سريره ، وتوّجه بتاجه ، وأعطاه خاتم ملكه ، وأمر القوّاد بمبايعته ومتابعته وقال له : إنّما جرت العادة من المتقدّمين بأن يسمّوا أسلافنا الملوك أرباباً ؛ لأنّ أفعالهم إذا وافقت العدل والخير وأدّت إلى المصلحة وراحة الخليقة شابهت أفعال الله في كلّيّة العالم ، فالإلٰهيّة ربوبيّة سماويّة ، والملكيّة ربوبيّة أرضيّة ، ويجب لمنتحل[2] هذا الاسم أن يلزم أحكام تدبير الخالق فيما مكّنه منه وائتمنه من أُمور خلقه ، ويبني على الجود والرأفة والحكمة عامّة أمره ، فيكون خليفة له في أرضه ، وقائماً عنه في مصالح عباده وبلاده . إلى كلام طويل في استعمال العدل والإحسان .

ثمّ ودّعهم وهام على وجهه[3] وساح في الأرض ، فخرج على سمت عقبة «غورك» فلم يوقف له على خبر ولا أثر .

وعن جرير بن عبد الله البجليّ أنّ النعمان بن المنذر الأكبر خرج يتنزّه ومعه عدّي بن زيد ، فمرّ بالقبور بظهر الحيرة . فقال له عديّ : أبيت اللعن[4] !

---

(١) الممرود هنا : من قطع عضو منه .

(٢) انتحل مذهباً : انتسب إليه .

(٣) هام على وجهه : ذهب لا يدري أين يتوجه .

(٤) بهامش الأصل : «أبيت اللعن» أي أبيت أن تأتي بالأُمور القبيحة وما تستوجب به اللعن أقول : والكلمة كانت تقال لملوك حِمْيَر . وأول من حيى بها يعرب بن قحطان . أُنظر تاريخ ابن الأثير ، ومجاني الأدب (٣ : ٢٩٤) .

أتدري ما تقول هذه القبور ؟ قال : لا ، قال : فإنّها تقول :

من رآنا فليحدّث نفسه أنّه مُوف على قرب زوال
ربّ ركب قد أناخوا حولنا يشربون الخمر بالماء الزلال
عصف الدهر عليهم عصفة وكذاك الدهر حال بعد حال

فانصرف من متنزّهه حزيناً كئيباً وقال لعديّ : إذا كان في السحر فاحضر تعرف خبري ، فحضره فوجده قد لبَس المسوح ثمّ ساح على وجهه فلم يعرف له خبر[١] .

ويحكى[٢] أنّ هشام بن عبد الملك خرج ذات يوم مُصحراً[٣] في عام قد بكّر وسيمه[٤] ، وبايع وليّه ، فأخذت الأرض زخرفها من اختلاف أنوارها وفوائح[٥] أزهارها ، فنزل من الرصافة[٦] وادياً كأنّها فرشت بالعبقريّ[٧] وبسطت عليها ثقال الزرابيّ[٨] وسواقي الماء يتسلسل فيها كانسياب[٩] الحيّات في صفاء ماء الحياة ، وقد ضربت له سرادق من حبرات[١٠] كأنّها زهر الربيع .

---

(١) الخبر والأبيات بأكثر مما هنا في الأغاني (٢ : ٣٢ ـ ٣٣) وفي الخبر تخليط حيث إن عدياً لم يكن زمن النعمان الأكبر ، المشهور بالأعور السائح ، بل كان في عهد النعمان المنذر الذي قتله كسرى بسعي عدي هذا . ثم رأيت الأبيات وخبر تنصر النعمان عند الأب شيخو (٣ : ١٨ ـ ١٩) عن الطرطوشي بوجه آخر راجعه .
(٢) حكاه أبو الفرج بالتفصيل في الأغاني (٢ : ٣٣) .
(٣) أصحر : خرج إلى الصحراء فهو مصحر .
(٤) كذا في الأصل ، والصحيح «وسميه» بتقديم الميم ، والوسمي هو أول ما يبدو من المطر في إقبال الشتاء ، على رأي ابن قتيبة ، والولي ثانية وبعدهما : الربيع ثم الصيف ـ بفتح الصاد وتشديد الياء المكسورة ـ ثم الحميم . أنظر فقه اللغة للثعالبي : ٣٤ (الباب الرابع) و ٢٥٧ (الباب الخامس والعشرون) .
(٥) الروائح الطيبة المنتشرة من الطيب ونحوه .
(٦) بالضم : كل منبت في سواد البلدة .
(٧) العبقري هنا : ضرب من البسط الفاخرة .
(٨) كل ما بسط واتكىء عليه . ومن النبت ما اصفر أو احمر وفيه خضرة .
(٩) انساب : مشى مسرعاً ، الحية : جرت وتدافعت في مشيتها .
(١٠) بفتح الثلاثة أو بكسر الحاء : ضرب من برود اليمن .

ثمّ أذن للناس فلمّا أخذوا مجالسهم نظر إلى خالد بن صفوان كالمستنطق له ، فقال خالد : أتمّ الله سرورك يا أمير المؤمنين بنعمه ، وأوزعك[1] أن تشكرها بفضله وكرمه . وتابع لك الله المزيد فيها حتّى تصلها بعد طول التعمير بالنعمة الباقية في الدار الآخرة ، فتكون الآجلة خيراً لك من العاجلة ، يا أمير المؤمنين ! ما أجد شيئاً أبلغ في قضاء حقّك من أن أُذكّرك نعمة الله عليك ، وأُنبّهك لشكره ، ولا أجد في ذلك شيئاً أبلغ من حديث عن بعض سلف الملوك إن أذن لي فيه أمير المؤمنين ، قال هشام : هات، فقال :

بلغني[2] أنّ ملكاً فيما خلا اجتمع له سعة الملك وفتى السنّ وصحّة الطباع وكثرة المال ، وكلّ ذلك يدعو إلى الباطل ، ويبعث على البطر والتناسي ، خرج في عام مثل هذا العام بناحية الخورنق والسدير[3] فأشرف وأبعد النظر حتّى رجع نظره إليه حسيراً لطول ما سافر في عدده وعُدده ورجاله وماله .

فقال لمن حوله : لمن هذا ؟ قالوا : لك أبيت اللعن ! ثمّ نظر إلى نحو بلاد العجم فنظر إلى بياض الأنهار الجارية ، وشواخص الجنان الزاهية ، وأشراف القصور العالية فقال لمن هذا ؟ قالوا : لك أبيت اللعن ! فقال ، عندما

---

(١) أوزعه الله الشكر : ألهمه .

(٢) الخبر والأبيات باختصار عند الأب شيخو (٣ : ١٦ ـ ١٧) وذكر أن الملك هو النعمان الأعور السائح باني الخورنق والسدير .

(٣) الخورنق قصر قرب الكوفة ، والسدير قرب منه ، ذكرتهما العرب في أشعارها وضربت بهما الأمثال في أخبارها . وكانا في ظاهر الحيرة بنى الخورنق أحد مهندسي الروم اسمه سنمار بأمر النعمان بن امرىء القيس (ويقال له المنذر والمحرق) نحو سنة ٤٠٠ م وقال أبو الفرج : إن الذي أمر ببنائه هو يزدجرد ، وذلك لكي ينزل به ابنه الصغير «بهرام جور» خوفاً عليه عن علة أصابته ، فأشار عليه الأطباء أن يخرجه من بلاده إلى بلاد العرب فأنفذه إلى النعمان وأمر ببناء الخورنق وهو اليوم خراب بقي منه بعض الآثار المنبئة عن ضخمه ، واسمه أُخذ من الفارسية ، معناه موضع الأكل والشرب وقال القزويني : بني في ستين عاماً . والسدير قيل : اسمه فارسي معناه القباب المتداخلة . وقيل : بل هو عربي سمي بذلك لكثرة شجره ونخيله . أنظر الأغاني (٢ : ٣٦) ومجاني الأدب (٢ : ٢٢١ ، ٣ : ٣٠٧) وشرحه : ٢٩٨ و ٣٧٠ .

أعجبته نفسه ورأى ما بسط من الملك له : هلى أوتي أحد مثل ما أوتيت ؟ فانبعث له رجل من جملة الحجبة فقال : أبيت اللعن ؟ سألت ما سألت أفتأذن في الجواب ؟ قال : نعم ، قال : أخبرني عمّا أنت فيه ممّا أعجبك أشيءٌ لم يزل ولم تزل فيه ، ولا يزول عنك ولا تزول عنه ؟ أم شيء كان لمن قبلك ثمّ صار إليك ؟ قال : بل شيء كان لغيري ثمّ صار لي . قال : فهل عندك أمان من مثل ما نزل بمن قبلك أن لا ينزل بك ؟ قال : لا ، قال : فلا أراك أعجبت بشيء يبقى ، إنّما سررت بشيء يفنى ، ولا تدوم لك بهجته ، ولا يبقى عليك نعمته ، وتكون مؤاخذاً بتبعته غداً ، وربّما لم تنج عنها أبداً ، قال : صدقت فبما المخرج وكيف المذهب ؟ قال : إلى إحدى الخصلتين : إمّا أن تقيم في ملكك فتعمل بطاعة الله مؤثراً لها على هواك ، وإمّا أن تلبس أمساحاً[1] فتلحق بهذا الجبل حتّى يأتيك أجلك ، قال : فما لي إن فعلت إحدى الخصلتين ؟ قال : ملك عظيم لا يظعن[2] ، ونعيم مقيم لا ينفد ، وشباب ناعم لا يهرم ، وعيش دائم لا يبيد قال : فإنّي ناظر إلى نفسي ومختار لها إحدى الخصلتين ، فإن أقمتُ في ملكي كنتَ وزيراً لا تُعصى ، وإن اخترت بعض الفلوات كنت رفيقاً لا تجفى ، فإذا كان السحر فأتني تعرف رأيي ، قال : فلمّا كان الوقت الموعود أتاه الرجل فوجده قد ألقى عليه أمساحاً وتهيّأ للزهد . فساحا جميعاً . وذلك قول عديّ بن زيد :

أيّها الشامت المعيّر بالدهر ... ءأنت المبرّأ الموفور؟
أم لديك العهد الوثيق من ... الأيّام ، أم أنت جاهل مغرور؟
أين كسرى كسرى الملوك : أنو ... شروان ، أم أين قبله شابور؟
وأخو الخضر إذ بناه وإذ ... دجلة تجبى إليه والخابور[3]

---

(١) جمع المسح ـ بكسر الميم ـ هنا : ما يلبس من نسيج الشعر على البدن تقشفاً .
(٢) ظعن : سار ورحل .
(٣) رواية أبي الفرج «الحضر» بالحاء المهملة . ونذكر خبرها وخبر أخيها من الأغاني (٢ : ٣٥) باختصار ، قال : الحضر كان قصراً بجبال تكريت بين دجلة والفرات ، وأخو الحضر هو الضيزن بن معاوية بن العبيد بن الأجرام من بني قضاعة ، ملك تلك الناحية وسائر أرض الجزيرة وكان ملكه قد بلغ الشام ، وأنه أغار فأصاب أختاً لسابور ذي =

شاده مرمراً وجلّله كَلـ ـساً وللطير في ذراه وكور[1]

وتفكّر ربّ الخورنق إذ أشرف يوماً وللهدى تفكير

سرّه ملكه وكثرة ما يمـ ـلكه والبحر معرضاً والسدير

فارعوى قلبه وقال: وما غبطة حيّ إلى الممات يصير[2]؟

وبنو الأصفر الكرام ملو ك الأرض لم يبق منهم مذكور[3]

ثمّ أضحوا كأنّهم ورق جفّ فألوت به الصبا والدبور

هذا هو الحقّ لمن أبصر الرأي وهو رشيد ، والصدق لمن ألقى السمع وهو شهيد .

ولعلّه يشتبه حقيقة هذا الأمر على النفس إمّا لإظلام نظرها بسبب إحاطة الشبهات بها واكتناف الشهوات لها ، وإمّا لغموض المسلك إليه وخفاء معناه وتشابه أقسامه . نذكر بعض ما قالوا في تحقيقه وتقسيمه وحرّروه من وصفه وتفهيمه .

قالوا : إنّ الزهد هو الرّغبة عن الشيء المرغوب فيه إلى ما هو خير منه ، وفي كتاب الله شاهد على ذلك إذ يقول في إخوة يوسف عليه السلام : **﴿وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين﴾**[4] وصفهم بالزهد إذ أرادوا أن

= الأكتاف وفتح مدينة «نهرشير» وفتك فيهم ثم إن سابور ذا الأكتاف جمع بهم وسار إليهم وأقام على الحضر أربع سنين لا يمكنه الفتح . وأن النصيرة بنت الضيزن حاضت فأخرجت إلى الربض ـ وكذلك كانوا يفعلون بنسائهم إذا حضن ـ وكانت من أجمل أهل دهرها ، وكان سابور من أجمل أهل زمانه فرآها ورأته ، وعشقها وعشقته ، وأرسلت إليه فوعدها أن يجعلها خير نسائه ، فدلته على طلسم المدينة ففتحها وقتل الضيزن . إلى آخر ما ذكره مفصلاً . والخابور نهر بالجزيرة ، ذكره البكري في معجم ما استعجم (٢ : ٤٨١) .

(١) شاد البناء : رفعه . الكلس : ما يقوم به الحجر في البناء ، ويتخذ منه بإحراقه .

(٢) «ما» استفهامية والغبطة هنا : حسن الحال والمسرة وفي الأصل : حتى إلى الممات تصير .

(٣) رواية الأغاني واللسان مادة (صفر) «ملوك الروم» وهو الصواب . قال ابن منظور : وبنو الأصفر : الروم ، وقيل : ملوك الروم ، قال ابن الأثير : لأن أباهم الأول كان أصفر اللون .

(٤) سورة يوسف ؛ الآية : ٢٠ .

يخلو لهم وجه أبيهم ، وكان ذلك أحبّ عندهم من أخيهم ، فباعوه رغبة عنه إلى ما هو أحبّ عندهم منه ، فإذاً من باع الدنيا بالآخرة ، إحداهما بـالأخرى ، فهـو زاهد فيها ، راغب في صاحبتها لغـة ، إلاّ أنّ بيع الـدنيا بـالآخرة هـو الزهـد في عـرف الاستعمـال ، كمـا خصّ الاستعمـال الميـل من الحقّ إلى البـاطـل بلفظ الإلحاد ، ومن كان راغباً عن الأشياء كلّهـا إلى شيء واحد جـاعلاً همّـه كلّه همّاً واحداً بحيث يرفض كلّ شيء عن قلبه ، ولا يـريد غيـره فهو الـزاهد المـطلق ، ومن كان راغباً عن كلّ مرغوب فيه من الدنيا وطـالباً لمـا هو خيـرٌ منه في الآخـرة من نعيم الجنّة الباقية فهو أيضاً زاهد ولكنّه دون الأوّل ؛ لثبوت الرغبة عن الشيء بـالرغبـة في مثله . والّذي يتـرك من حظوظ الـدنيا الشيء دون الشيء ، كـالّذي يرفض المال ويحفظ الجاه ، أو يتقلّل في القنية ، ويتـرفّه في المنعـة ولا يتخطّى قـدر الكفايـة ، أو يجتزي في المـطاعم ولا يدع التـزيّن باللّبسـة ، فدرجتـه بين الزاهدين في الدنيا درجة من يتوب عن بعض الـذنوب دون بعض في التـائبين ، وكمـا أنّ التوبـة عن بعض الذنـوب دون بعض صحيحة فـالزهـد في بعض أمور الدنيا دون بعض صحيح . وربّما يكون صدق العزوف[1] عن بعض متاعها مِرقاة إلى حسن العـزوف عن جميعها ، وكمـا أنّ الإتّصاف بـالرغبـة عن الشيء زهـداً بكونه مرغوبـاً فيه شـرط ، فالقـدرة عليه حتّى تصـحّ الرغبـة عنه مـع التمكّن منه والميل إليه شرط أيضاً .

قيل لعبد الله بن المبارك : يا زاهد ! فقال : الزاهد عمـر بن عبد العـزيز ؛ إذ جاءته الدنيا متبرّجة راغبة فتركها راغمة .

وأمّـا العجوز إذا طـال عن يـدهـا مجنى الإجّـاص[2] . فقـالت : تضـرّني الحموضات ! أو مثل ما قال بعض الشعراء :

مـثـل الـثـعـلب لـمّـا أن أتـى للكـرم رابض[3]

---

(١) العزوف : الملال عن الشيء والزهد فيه .

(٢) بكسر الهمزة وتشديد الجيم : الكمثرى .

(٣) الرابض هنا : العاجز .

قـال لـلعنـقـود لـمّـا لـم ينـلـه : أنـت حـامض

ولا بدّ في إنارة هذه الرغبة عن إحداهما في الأُخرى بحالهما ، وعلى قدر العلم يكون الزهد في إحداهما والقصد للأُخرى ، والدنيا كالماء إلى الحدور في السيلان ، أو كالثلج عند الشمس في الذوبان ، والآخرة كالنجم في بقائه واعتلائه .

وبيع إحداهما بالأُخرى على قدر العلم في قوّته وضعفه حتّى إنّ من قوي علمه وصدق يقينه باع نفسه أيضاً مع بيعه ما فيها بالآخرة ، كما قال الله تعالىٰ : ﴿**إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة**﴾ [1] وقد رغّب عزّ وجلّ هذه المتاجرة . وأدنى أرباح هذه المعاملة كما قال : ﴿**فاستبشروا ببيعكم الّذي بايعتم به**﴾ [2] وعرّفنا ـ معاشر عباده ـ خساسة أحد العوضين ، ونفاسة الآخر فقال عزّ من قائل : ﴿**قل متاع الدنيا قليل**﴾ [3] وقال عزّ وجلّ : ﴿**وقال الّذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير**﴾ [4] .

ولمّا قال رجل من الصحابة : اللّهُمَّ أرنا الدنيا كما تراها قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «لا تقل هكذا ولكن قل : أرنيها كما أريتها الصالحين من عبادك» وذلك من قبل أنّ الله يراها حقيرة كما هي ، إذ كلّ مخلوق بالإضافة إلى جلال الله لا شيء ، وإن جلّ ذلك في نفسه ومقداره ، فكيف بالّذي هو بالإضافة إلى سماء الدنيا حتّى السماوات العلى بمنزلة النقطة الّتي لا حجم لها إلى الدائرة . دع عنك ما وراء السماوات ؛ فإنّ حال السماوات منه حال الأرض منها . فالله عزّ وجلّ يحتقر الدنيا من حيث علمه بها ونظره في ذاتها ، والعبد يحتقرها لا بالنظر في عيبها ولكن بالإضافة إلى ما هو خير منها فيتركها له ، وبايع الفرس وإن رغب عنه حتّى أباعه أي عرضه على البيع رغبة عنه فلا يراد في صورة الحشرات الّتي لا خير فيها ، فالمبايعة من كلّ أحد هو استبداله ما هو خيرٌ عنده

(١ و ٢) سورة التوبة ؛ الآية : ١١٢ .

(٣) سورة النساء ؛ الآية : ٨٦ .

(٤) سورة القصص ؛ الآية : ٨٠ .

بالّذي هو أدنى لديه[1] فكذلك الزهد يقتضي ترك المزهود فيه ليصلح له أخذ بدله .

فيجب ترك الدنيا بأسرها مع أسبابها وأغرضها وعلائقها وزخارفها وتليدها وطارفها فيخرج أوّلاً من القلب حبّها بحبّ الطاعات ، ويخرج جديدها من اليد والعين متاعها ، وصورتها باعتلاق القلب بالعبادات ، والنظر بالاعتبار في الموجودات وقطع مشاهدة الجزئيّات بتصوّر الكلّيّات ، وإلاّ كان المرء فيما يدفع بمنزلة من سلّم المبيع ولم يأخذ الثمن ذلك هو الخسران المبين .

وليس من الزهد ترك الدنيا على سبيل السخا بأموالها ، واستمالة قلوب أهلها بمتاعها فكلّ من ذلك وإن كان محمولاً وفي أحكام الفتوّة معدوداً ولكن لا مدخل لها في الزهد ، ولا بمثل ما يفعله الشيخ محمّد الفتّال من قبوله بعض غسالات أيدي الناس ووقفه ذلك على المسجد الّذي هو حليفه ، والرباط الّذي هو نزيله ، فكلّ ذلك ترقيع خُلقان[2] بخلقان .

إنّما الزهد فيها تركها على أهلها (أهليها ل) بسبب خساستها ، رغبة في الآخرة لأجل نفاستها ، ألا ترىٰ أنّه قد يسخو بها على عفاته (؟) من لا يؤمن بالآخرة ، ويتحلّى بشعار المروءة والفتوّة من لا مركب له في حلبة الزهادة ، ولا ذوق له من شرب الإرادة .

وإنّما الترك لها ينبغي أن يكون مثال ما تركه الزهّاد مثل إبراهيم بن أدهم وأشباهه ، غير الأنبياء والأولياء والأئمّة المعصومين ؛ فإنّهم لمّا أخلصوا العبادة واستبدلوا بالدنيا الآخرة[3] ، واعتاضوا بالنوم السهر ، وبالراحة النصب ، فكان أحدهم يصلّي الفجر بوضوء العِشاء ويؤخّر الغداء إلى العَشاء ، وترك كلّ منهم ما كان له من الأموال ، وأخرجها من ملكه في سبيل الله .

---

(١) الصواب أن يقال : استبداله ما هو أدنى عنده بالذي هو خير لديه ، قال تعالى : ﴿**أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير**﴾ البقرة ؛ الآية : ٦١ .

(٢) جمع الخلق ـ بفتح الخاء واللام ـ : الشيء البالي ، للمذكر والمؤنث .

(٣) الصواب هنا أيضاً : واستبدلوا الدنيا بالآخرة .

ثمّ الزهد في نفسه مختلف متفاوت ؛ فمن زاهد في الدنيا وهو لها مشتهي وإليها ملتفت يُذيب نفسه ثمّ كيسه ، وهو بالمتزهّد أشبه فإنّ الزاهد أوّلاً يذيب كيسه ثمّ يذيب بدنه في الطاعة ، ويذلّ فلسه ثمّ يذلّ نفسه بالزهادة ، لا أنّه يقاسي الصبر على ما فات ، بل يعاني النصب فيما يفعل .

ومن زاهدٍ ترك الدنيا احتقاراً لها بسبب وشك فنائها[1] وخسّة شركائها فيذهب بنفسه من كبرها عنها ، فهو ربما ينظر في نفسه ويلتفت إلى حاله وإباء نفسه ، فيعزف عن محاسنها .

ومن زاهدٍ كما زهد عنها طاوياً كشحه منها ، ولاوياً صفحه دونها ، ولم يعرّج على نفسه ولم ينظر في زهده وهو المبرّ بفضله على الزهّاد ، المطلّ بشأوه على جميع العباد ، العارف بجميع أمور الدنيا والآخرة ، الحائز لشرف الحالين بصدقهما ، ومثله لم يترك ولو بالمجاز شيئاً وأخذ على الحقيقة كلّ شيء ، فيكون كمن ترك روثة وأخذ لؤلؤة فيكاد سروره وطهارة يده عن البعرة[2] يعادل سروره باشتمالها على الدرّة ، ومثل هذا الزاهد مأمون العيب عن أخطار الدنيا بالبال ، سالم الجَيب عن تقلّب الأحوال ، كما أنّ معتاض الدرّة عن البعرة آمن من الاستقالة ، ناج من الوضيعة .

قال أبو يزيد لأبي موسى بن عبد الرحيم : فيما تتكلّم ؟ قال : في الزهد عن الدنيا ، فنفض يده وقال : ظننّا أنّك تتكلّم في شيء ، الدنيا أيش حتّى نزهد فيها ؟ .

ومثال ذلك من قصد إلى دار ملك يتقرّب إليه بسبب جماله وحسن وجهه ، وطيبة المقام في داره ، فمنعه من دخول الباب كلب بالباب فألقى إليه كسرة خبز حتّى اشتغل بها ودخل الرجل الدار ، أفتراه بتلك الكسرة الّتي ألقاها عن يده مع ما انتهى إليه من قرب الملك ونعيم الأبد خسر شيئاً ؟ فالشيطان كلب على باب الله يمنع عنه عباد الله والدنيا لقمة إن تلذّذت بأكلها مضغة تأذيت بثقلها ثمّ نتنها

---

(1) الوشك مصدر بمعنى السرعة .
(2) البعرة ، رجيع ذوات الخف والظلف .

ورجيعها مدّة ، تأكل لحمك كما أكلت ، وتشرب دمك كما شربت ، وتنقّصك الأرض كما نقّصت ممّا عليها ، حتّى تُدال[1] منك ولا تبقي عليك ما لم تفنَ عنها اختياراً أو اضطراراً أو لنسبة جميع الدنيا مدّة حياتها بالإضافة إلى نعيم الآخرة وبقائها أقلّ من نسبة تلك البعرة أو هذه اللقمة إلى جميع زخرف الدنيا ومتاعها ، وكيف يمثّل الفاني البائد[2] بالباقي الخالد ؟ وأنّى تقريب الكدر الشائب بالصافي الخالص ؟ ومن أين تشبيه الجزء الّذي لا يتجزّى بالشيء الّذي لا يتناهى ؟ فإذاً لا يلتفت الزاهد إلى زهده إلاَّ وقد نظر إلى ما زهد فيه واعتدّ به ، ولا يعتدّ به إلاَّ من قصور علمه بما زهد فيه لأجله ، ولا يتمّ عمله [3] إلاَّ بنور من ربّه ، وروح من أمره ، يهدي به من يشاء من خلقه ، ولا يكون زهد مثله لارتياعه[4] من طلب الآخرة ، ولا ارتياحه[5] بنعيم الجنّة كما يكون زهد الخائفين أو ارتياع الراجين .

فأتته، ما ارتاحت بحسن ظبائها ... وهناً، ولا ارتاعت لزأر أُسودها

بل لا يكون ذلك لشيء إلاَّ لله وطلب الزلفى لديه ، والوصول إليه فيكون زهده زهد الموحّدين الّذين أصبحوا وهمومهم همّ واحد لا يطلبون غير الله ولا يأنسون إلاَّ به ، كما قيل : إنّ العارفين وحش الله في الأرض ! لا يأنسون بغيره . ومثل أُولئك الخائفين الراجين وإن وصلوا إلى نعيم الجنّة مثل الصبيّ المستأنس إلى عصفوره ، اللاّعب بحمامه ، المشغول عن نعيم الملك السعيد ، المتبرّج بزينة الدنيا في صحن إيوانه ، ذلك لقصور حاله عن إدراك عزّ الملك ونفاذ الأمر وعلوّ السلطان .

مرغى كه خبر ندارد ازآب زلال ... مِنقار در آب شور دارد همه سال

---

(١) أي ينزع منك ويحول إلى غيرك ما كان لك من الأموال وغيرها . ويحتمل أن يكون الصحيح «تدان» فيكون من المثل المشهور «كما تدين تدان» وهو من ذاته بمعنى جازاه .
(٢) باد الشيء : هلك .
(٣) ولعل الصحيح «علمه» بقرينة ما سبق .
(٤) افتعال من الروع بمعنى الفزع وقد يأتي بمعنى «ارتاح» .
(٥) افتعال من الروح ، أي سر ونشط .

وقد قسّموا ورع الأنفس حسب ما قالوه في زهدها ، ورتّبوه على أربع درجات :

الأولى : هي الورع عمّا يوجب ارتكابه التفسيق ويسقط العدالة عند القضاة وفتوى الفقهاء ، وهذه أدنى درجات الورع .

والثانية : ورع الصالحين ، وهو الحذر عمّا يتطرّق إليه شبهة الحرمة وإن ساغ ذلك في الفتوى، وهو الّذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك» .

والثالثة : ورع المتّقين ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «لا يبلغ الرجل درجة المتّقين حتّى يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس» وقال بعض الصحابة : «كنّا ندع تسعة أعشار الحلال مخافة الوقوع في الحرام» ومن هذا كان بعضهم إذا استحقّ عشرة دراهم اقتصر على تسعة وترك الواحد حاجزاً بينه وبين النار ، وكان آخر يأخذ ما يأخذ بنقصان حبّة ويعطي ما يعطي بزيادة حبّة ، فربما يتورّع المتّقي من الأطعمة الشهيّة ومن لباس الزينة خيفة أن تجمح به النفس الأمّارة بالسوء إلى مواقعة محظور ، وربما لا يمدّ العين إلى ما متّع به الناس لئلّا تتحرّك دواعي الرغبة فيه على ما قال الله تعالىٰ : ﴿**ولا تمدّن عينيك إلى ما متّعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا**﴾[1] وممّا يروى عن المسيح عليه السلام : «لا تنظروا إلى أهل الدنيا فإنّ بصيص[2] ثيابهم وبريق أموالهم يذهب بحلاوة إيمانكم» ومن قولهم : «من رقّ ثوبه رقّ دينه» وفسّر لباس التقوى الّذي وصفه الله بالخير ، بالصوف الخشن .

والرابعة: ورع الصدّيقين وهو توقّي ما لا يُراد بتناوله القوّة على الطاعة أو يلمّ بصاحبه بعض خواطر المعصية ، كما يحكى أنّ ذا النون المصريّ كان محبوساً فكانت تبعث إليه امرأة صالحة بطعام تشتريه بغزلها ، وكان يقاسي الجوع ولا يتناول منه ويقول : إنّه جاء على طبق حرام ـ يريد السجّان ـ ولم يكن

---

(١) سورة طه ؛ الآية : ١٣١ .

(٢) البصيص : البريق واللمعان .

بشر الحافي يشرب ماء الأنهار الكبار الّتي يحتفرها السلاطين ، وأطفأ بعضهم سراجاً أشعله غلامه من دار ظالم ، وشرب بعضهم الدواء وأشير عليه بالمشي فقال : لم أمشِ قطّ في غير طاعة ولا أعرف لمشيتي هذه وجهاً فيها .

وأمثال هذه الأفعال إنّما توجد في غشّ[1] نفس وفت بقول الله تعالىٰ : ﴿ثمّ ذرهم﴾[2] فرأت كلّ ما لم يكن لله حراماً عليها فادّرج أنت عنه يا أخي إلى قِطار[3] الدرجة الأولى من الورع عمّا يقدح في العدالة ويسقط الشهادة .

وأنت يا سيّدي ويا أيّها الصالح المهتدي إيّاك أن تغترّ برخص الفتاوى بأنّ مطامح نظرها مجاري الأمور السياسيّة الدنياويّة من القانون الّذي يستعمله الأمراء والقضاة ومواضع قياساتها الموارد المعتادة من الأحوال المعتورة[4] من الأمر المشاهديّ الّذي يقع به الإمتثال على مفهوم الخطاب ، فينظرون في الزكاة إلى ما يسقط به طلب الساعي ، وفي الصلاة إلى ما تدرء تعزير الوالي وفي أكثر الأحكام إلى ما هو تخلية الأقسام ، ومقصود الصلاة الإزدلاف وليس في الخراج منها ازدلاف ، ومقصود الزكاة النجاة من مهلكة البخل كما في الحديث «ثلاث مهلكات : شحّ مطاع . الحديث»[5] وهبة الرجل ماله من زوجته في آخر الحول واتّهابه مالها ليدرءا بذلك الزكاة عن أنفسهما ثمّ ترادهما هو الشحّ المطاع ، فكيف يتوخّى بمثله للنجاة ؟ .

وكذلك من يلجىء زوجته بإساءة معاشرته إيّاها حتّى تعفو عن صداقها ، فإنّ ذلك حرام محرّم ، وإن كان يفتي الفقيه بصحّة الإبراء مع قول الله : ﴿فإن

---

(١) كذا في الأصل ، والمعنى المناسب للغش هنا : سواد القلب .
(٢) سورة الأنعام ؛ الآية : ٩١ .
(٣) القطار من الإبل : قطعة منها يلي بعضها بعضاً على نسق واحد .
(٤) أي الأحوال المتداولة بين الناس ، من : اعتور القوم الشيء بينهم، أي تعاطوه وتداولوه.
(٥) رواه الحراني في التحف : ٨ والصدوق في الخصال باسناده إلى سعد بن طريف عن الإمام الباقر عليه‌السلام ، قال «وأما الثلاث الموبقات ، فشح مطاع وهوى متبع وإعجاب المرء بنفسه» .

طبن لكم عن شيء منه نفساً﴾[1] .

وكـذلك السؤال على المـلأ حرام فـربّما يعـطى بالحيـاء لا عن طيبة نفس ورضىً ؛ فــإنّ المستحيي يستخفّ ألم إزالــة الملك في جنـب ألم الـحيــاء ، ويستهين بما كفّه لإجماء[2] وجهه ولا فرق بين أن يأخذ ماله بما يؤذي بـه ظاهـره من قوارض[3] اليد وبين أن يأخذ ماله بما يؤذي به باطنه من قوارض القول فالكلّ مصـادرة . وكذلـك إذا سألت من وجـه ورعك وتقـواك فقد أكلت بـدينك ، وإذا اعتضت عن زهـدك في دنياك أوساخ الناس فمـا الّـذي تـطلب بـه من مـولاك ؟ فكلّما بيع فقـد زال عن الملك ، هذا إذا كنت زاهـداً متّقياً ، فـأمّا إذا أكلت بـه وأنت فيه كاذب فقد أخذت العوض عمّا ليس لك ، فليت شعري فما الّذي تفتي فيه الفقهاء[4] ! .

---

(١) سورة النساء ؛ الآية : ٤ .

(٢) جمه وأجمه : حازه وجمعه لنفسه .

(٣) جمع القارضة من قرضه : قطعه .

(٤) ما ذكره ـ رحمه الله ـ إنما هو طريق يرتضيه المتقشفـون الذين أطلق عليهم لفظ «الـزاهد» ولا يليقون به ، وليس هو شيئاً يستوي به أمر الجماعات والحشود من النـاس ، ولو عمـل الأمم بهـذا البرنـامج لاختـل نظامهم وتشتت شملهم وآل الأمـر إلى التوحش ، وتلك إذاً قسمة ضيزى من الحياة ، وقد قـال تعالى في سـورة القصص ؛ الآية : ٧٧ **﴿وابتـغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا﴾** وقـال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (الكـافي ٥ : ٧١) : «نعم العون على تقوى الله الغنى» وقال الإمام الصادق عليه السلام (الكافي ٥ : ٧٢) : «نعم العون الدنيا على الآخرة» فكأن الدنيا والآخرة عـدلان على بعير لا يستقيم الإبتعـاد لهما . وناهيك حجة على ما ذكرنـا ما وصـل إلينا من سيـرة الرسـول وأئمتنا المعصـومين صلوات الله عليه وعليهم .

وأمـا الـزهـد في الـدنيـا فقـد حدد حدوده أهل بيت العصمـة فيمـا روي عنهم فـانظر مـا رواه الكليني رحمه الله في الكافي (٥ : ٧٠ ، كتاب المعيشة) عن أبي الطفيل قال : سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول : «الزهد في الدنيا : قصـر الأمل وشكـر كل نعمـة والورع عن كل ما حرم الله عز وجل» وعن السكوني عن أبي عبد الله عليه السلام «قال : قلت لـه ما معنى الزهد في الدنيا ؟ قال : ويحك ؟ حـرامها فتنكبـه» وعن إسماعيـل بن مسلم عنه عليه السلام : «ليس الزهد في الدنيا بإضاعة المال ولا تحريم الحلال ، بل الزهد في الدنيا أن لا تكون بما في يدك أوثق منـك بما عنـد الله عز وجـل» وهذا هـو الكلم الطيب الـذي يصعد إلى الله ، والأخذ به هو العمل الصـالح الـذي يرفعـه ، وهو المـوافق لمذاق الشـريعة السهلة =

فالأولى بالرجل أن لا يرضى عن نفسه ولا ينظر بعين الإحماد إلى فعله . بل ينبغي أن يراجع عقله ، ويستفتي قلبه كما قال ﷺ : «استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك» .

ومن الأمثلة الّتي ضربوها للزهد في الدنيا والصروف عن زخارفها أنّها كالظلّ الّذي ينحسر وهو في حالة امتداده سائر غير ساكن وذاهب غير ثابت ، وإن كان لا ترى ذهابه وزواله ، فالظلّ متحرّك بالحقيقة ، ساكن في الظاهر ، حتّى يظهر حقيقته ويبطن ظاهره .

وكان الحسن بن عليّ عليه السلام يقول : «إنّ اغتراراً بظلّ زائل حمق» وأنشد :

أحلام نوم أو كظلّ زائل	إنّ اللبيب بمثلها لا يخدع
وإنّ امرءاً دنياه أكبر همّه	لمستمسك منها بحبل غرور

وفي أخبار عيسى عليه السلام أنّه كوشف بالدنيا فرآها في صورة عجوزة شمطاء[1] عليها من كلّ زينة ، فقال لها : كم تزوّجت ؟ قالت : لا أُحصيهم ،

السمحة التي أتاها المتقشفون من غير بابها وأخذوها من غير أهلها فتاهوا وبقوا عمياً حيارى لا يدرون أين يتوجهون .

أما ما ذكره من أفعال مشائخ الصوفية فنحن في ريب من صحتها أولاً ومن حسن جميعها ثانياً ومن وقوعها على غير وجه الرياء ثالثاً ، كيف وقد مر قبيل هذا من بشر الحافي أنه لم يكن يشرب ماء الأنهار الكبار التي يحفرها السلاطين ، مع ما عرفته في ص ٧٢ عند ترجمته أنه طلب من إسكاف شسعاً لأحد نعليه فقال : ما أكثر كلفتكم على الناس يا أهل الطريقة ! وهذا يشعر بأنه إنما طلبه بلا عوض وقد قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم (الكافي ٥ : ٧٢) «ملعون ملعون من ألقى كله على الناس» وأين هذا الطريق من طريق الفقهاء الذين لهم المساس كله مع الناس ،وعليهم إرشادهم في أُمور دينهم ودنياهم ؟ وليث شعري هل الفقيه يفتي من عند نفسه وهوى رأيه أو مما وصل إليه من أدلة أحكام هذه الشريعة السمحة ؟ وهل الإزراء به إلا استهزاء بها ؟

ونعم ما قاله أبو حامد القاضي (يأتي في ص ١٤٢) : ان ما يقوله جفاة الصوفية فهو قول يقولونه لا فعل يفعلونه ، وهل هم إلاّ جملة كلهم على غيرهم ، وتناولهم ما يشتهون من كد غيرهم . فلو صح لهم زهد لزهدوا عما في أيدي الناس وسعوا مع الساعين .

(١) بهامش الأصل : الشمط ـ بالتحريك ـ بياض شعر الرأس يخالط سواده ، والرجل شمط ، والمرأة شمطاء . مجمع البحرين .

قـال : فكلّهم قد مـات عنـك أو كلّهم طلّقـك ؟ قالت : بل كلّهم قتلت ! فقـال عيسى عليه السلام : بؤساً لأزواجك الباقين كيف لا يعتبرون بأزواجك الماضين ؟ .

وقـال العـلاء بن زيـاد : رأيت في النـوم عجـوزاً شـوهـاء[1] ذات لـون حـائل[2] ، وجلد قـاحل[3] وشـدق[4] مائـل ، وفـرج بـائـل[5] ، ورأيت أُنـاسـاً يتهـارشـون عليهـا ويقبلون بكلّيّتهم إليهـا فقلت لهـا : من أنت ؟ قـالت : أو مـا تعـرفني ؟ إنّي أنا الـدنيا ، فقلت : أعـوذ بالله من شـرّك ، قـالت : إذاً فـاهجـر المنقوش ، ودع عنك أمر الغد .

وحدّث الفضيل بن عياض عن ابن عبّاس قال : تؤتى الدنيا يوم القيامة في صورة عجوز شمطاء شوهاء سوداء ، لا يُطاق النظر إليها لقبحها ، ولا الدنوّ منهـا لنتنها ، فيقال : تعرفون هذه ؟ فيتعوّذون بالله من معرفتهـا ، فيقال : هـذه الدنيـا الّتي تشـاجـرتم عليهـا ، ثمّ تقـذف في جهنّم فتنـادي : أي ربّ : أين أتبـاعي وأشياعي ؟ فيقول الله : ألحقوا بها أتباعها وأشياعها .

وفي الحديث تمثيل الدنيا وصاحبها بالماشي في الماء ، هل يستطيع الّذي يمشي في الماء أن لا يبتلّ قدماه ؟ .

وفي حديث آخر : «مثل هذه الدنيا مثل ثوب شقّ من أوّلـه إلى آخره فبقي متعلّقاً بخيط في آخره فيوشك ذلك أن ينقطع» .

وفي آخر : «مثل طالب الدنيا مثل شـارب ماء البحـر كلّما ازداد شرباً زاده عطشاً حتّى يقتله» .

وعن الحسن قـال : بلغني أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قـال لأصحـابـه : «إنّمـا مثلي

---

(١) بهامش الأصل : رجل أشوه : قبيح المنظر ، وامرأة شوهاء .
(٢) بهامش الأصل : حال لونه أي تغير واسود . مجمع البحرين .
(٣) بهـامش الأصل يقـال : قحل ـ من بـابي منع وعلم ـ قحـلاً : إذا التزق جلده بعـظمه من الهزال والبلى . مجمع البحرين .
(٤) بهامش الأصل ، الشدق بالفتح والكسر جانب الفم ، والشدق بالتحريك : سعة الشدق .
(٥) من بال يبول بولاً .

ومثلكم ومثل الدنيا كمثل قوم سلكوا مفازة غبراء ، حتّى إذا لم يدروا ما سلكوا منها أكثر أو ما بقي ، أنفدوا الزاد وخسروا الظهر ومقتوا بين ظهرانيّ المفازة ، لا زاد ولا حمولة ، فأيقنوا بالهلكة ، وبينما هم كذلك إذ خرج عليهم رجل في حَلّة بقُطر رأسه[١] فقالوا : هذا قريب عهد بزِلف[٢] ، فلمّا انتهى إليهم قال : يا هؤلاء ! قالوا : يا هذا ! قال : على ما أنتم ؟ فقالوا : على ما ترى ، قال : أرأيتكم إن هديتكم على ماء رواء ورياض خضر ما تعملون ؟ قالوا : لا نعصيك شيئاً ، قال : أعطوني عهودكم ومواثيقكم ، فأعطوه عهودهم لا يعصونه شيئاً فأوردهم ماءً رواء ورياضاً خضراء فمكث فيهم ما شاء الله .

ثمَّ قال : يا هؤلاء ! قالوا : يا هذا ! قال : الرحيل ، قالوا : إلى أين ؟ قال : إلى ماء ليس كمائكم ، وإلى رياض ليس كرياضكم ، فقال أكثرهم : والله ما وجدنا هذا حتّى ظننّا أن لن نجده ، وما نصنع بعيش خير من هذا ؟ وقالت طائفة ـ وهم أقلّهم ـ : ألم تعطوا هذا الرجل عهودكم بالله لا تعصوه شيئاً ؟ وقد صدقكم في أوّل حديثه فوالله ليصدقنّكم في آخره . فراح[٣] فيمن اتّبعه ، وتخلّف بقيّتهم فيدركهم[٤] عدوٌّ فأصبحوا من بين أسير وقتيل» .

ومن أمثلتهم في هذا الباب قولهم : إنّهم في حال أُناس ركبوا سفينة فانتهت بهم إلى بعض الجزائر ، فخرجوا إليها بحوائج يقضونها ، وحذّرهم ركّاب السفينة الإبطاء .

فمن بين مبادر في الرجوع لم يعوزه أوسع الأماكن وأوفقها .

ومن بين متوقّف يستمتع بأزهارها الفائحة، وأنوارها الضائعة[٥] ، وثمارها

---

(١) الحلة ـ بفتح الحاء ـ هنا الزنبيل الكبير من القصب . والقطر ـ بالضم ـ الناحية والجانب ، أي كان زنبيل على رأسه .

(٢) الزلف ـ بكسر الراء ـ : الروضة .

(٣) أي راح الرجل الذي هداهم .

(٤) الصحيح : فأدركهم .

(٥) الضائعة : المهملة ، أو من تضيع المسك : انتشر .

اليانعة ، وأطيارها الصادحة الشـادية[1] ، وجـواهرهـا ومعادنهـا المختلفة الألـوان والصور والأشكال ، إلاّ أنّه لمخافة[2] أن تسير السفينـة يجدّ معـاجلاً إليهـا أسرع العـود وأعجـل الـرجـوع ، فهـو وإن لم يتهيّـأ لـه من فسحـة المكـان ـ بسبب الاستمتاع بالنظر والاستيناس بالصور ـ ما تهيّأ للأوّل إلاّ أنّه لمّا لم يثقل بـأوزارها لم يصبـه من أثقالهـا ما أصـاب مستصحب تلك الأحجار الـرائقة من معـادنهـا ، والثمار المونقة من أشجارها ، وهذا الّذي حمل منهـا ما حمـل لم تسعه السفينـة خالياً مخفّفاً فكيف مثقلاً ، فهو على أخذ ما أخذ منها نادم ، وعليـه سادم[3] ولا يفارقه المحمول ليستريح ولا هو لحمله يطيق .

فـأمّا من تـوغّل الغيـاض[4] وتولّـج في الـريـاض ، وأبعـد في مسيـره عن السفينـة حتّى نسيها فـلا هو يسمـع نداء الـركّاب ، ولا هـو يأمن ركـوب الآفات والأخـطار ، ولا هـو يتمكّن لكثـرة العـوائق والحـوادث من العـود ، فهم من بين فـريسة السبـاع ومن تائـه على وجهـه حتّى يهيم في أوديـة البليّـات ، بعيـداً عن الوطن عادماً للأهل والسكن ، حاصلاً على شفا جُرُفٍ هارٍ ينهار إلى النار[5] .

فهذه أمثلة طلاّب الدنيا ، وكلّ ذلك يدعو إلى الزهد فيها ، والرغبة عنها ، ولا يتمّ الزهد فيها إلاّ بأربع خصال : صفـاء النفس عن كدورة الـدنيا ، وطهـارة القلب من أدنـاسهـا ، والأنس بـذكـر الله ، والحبّ لله . وصفـاء النفس وطهـارة القلب لا يكـونان إلاّ بـالكفّ عن الشهوات ، والأنس والحبّ لا يتمّـان إلاّ بكثرة الذكر ودوام الفكر .

وكلّ ذلك من الباقيات الواقيات . تناضل عن العبد ، فإذا جاء العذاب من

---

(١) صدح الطائر ـ من باب منع : رفع صوته بغناه فهو صادح . والشادي بمعناه .
(٢) في الأصل : لمخالفة .
(٣) رجل سادم : مغتاظ .
(٤) جمع الغيضة ـ بالفتح ـ وقد ذكـرنا أنها الأجمة ومجتمع الشجر .
(٥) قد تقدم معنى «الشفا» وأنه طرف كل شيء وحدّه . والجرف : الجـانب الذي أكله المـاء من حاشية النهر فهو «هائر» و «هار» كما يقال : شائـك السلاح وشـاكي السلاح . وانهـار البناء : انهدم وسقط .

قبل رجليه جاء قيام الليل يدفع عنه ، وإذا جاء من جهة يديه جاءت الصدقة تدفع عنه . فتكون الأعمال الصالحة من المنجيات .

فأمّا ما يرجع إلى صفاء النفس وطهارة القلب فإنّه من المُسعدات يسعد العبد بالزلفى والقبول ، ويبلّغه مأوى الكرامة المأهول . فهذه السعادة تعجّله عقيب الموت ، أوائلها ، إلى أن تنتهي إلى حقيقة اللّقاء مصائرها ، فإنّه عقيب الموت يصير القبر روضة من رياض الجنّة ، كيف لا ولم يكن له إلاّ مؤنس وإلاّ محبوب واحد ؟ وكانت العوائق تعوّقه ، والموانع تصدّه عن الأُنس بدوام ذكره ومطالعة جماله فقد ارتفعت العوائق ، وانحلّت الشُكل[1] ، وأفلت المسجون ، وتجلّى المحبوب ، فقدم المحبّ عليه مسروراً ناجياً من الآفات ، آمناً من روعة الفراق ، وكلّ ذلك لزهده فيما كان يصدّه منه ، ويعارضه دونه .

فأمّا محبّ الدنيا فكذلك لم يكن له إلاّ محبوب سلب منه ، وغصب عليه ، وحيل بينه وبينه ، وسدّت عليه طريق الرجوع إليه ، وإعمال الحيلة فيه .

ما حال من كان له واحد   يؤخذ منه ذلك الواحد

وليس الموت إلاّ مفارقة أحوال الدنيا وما تحبّه النفس منها ، بالقدوم على الله ، ولا الدنيا شيء سوى ما قرّب من النفس عند استعماله البدن ، ولا الآخرة سوى الإنتهاء إلى ما تأخذ عنها ، ثمّ فاجأها عند ترك هذا الاستعمال . فكلّ دان من النفس دنيا ، وكلّ ما بعد الموت فهو آخرة وهذا العارض بينهما على ما قاله الصديق : أشدّ ما قبله وأهون ما بعده .

فإذاً سالك طريق الآخرة هو المواظب على أسباب هذه الخلال الأربع الّتي هي الصفاء والطهارة والذكر والفكر ، وحاصلها كلّ ما يفطمه عن شهوات الدنيا ويبغّض إليه ملاذّها ويحمله على أعمال الخير ويهوّن عليه صعابها وكلّ ذلك لا يمكن إلاّ بالبدن وقوّته .

ولا بدّ في ذلك من أسباب نصح وتقوى معها فالقدر الّذي لا بدّ في ذلك

---

(١) بضمتين ، جمع الشكال ـ بالكسر ـ حبل يشد به قوائم الدابة .

منه إذا أخذه العبد من الدنيا للآخرة لم يكن من أبناء الدنيا ، وكانت الدنيا في حقّه مزرعة الآخرة ، ومرحلة السفر ، ومناخ الظاعن[١] ، ومنزل الراحل . وإن أخذ ذلك بحظّ النفس وعلى قصد الإخلاد إلى الدنيا والتنعّم بملاذّها صار من أبناء الدنيا والراغبين فيها ، إمّا استخفافاً لعذاب الآخرة ، ويسمّى ذلك حراماً ؛ وإمّا حيلولة بينه وبين الدرجات العلى وتعريضاً لطول الحساب ويسمّى ذلك حلالاً . وطول الموقف للحساب ، فمن نوقش في الحساب فقد عذّب[٢] ، وإذا كان حلالها حساباً كان أيضاً عذاباً إلاّ أنّه عذاب أدنى دون الأكبر ، بل لو لم يعقّب حساباً وإنّما يلحقه فوت الدرجات العلى لكان ما يرد على القلب من هذا التحسير أيضاً عذاباً ، ألا ترى أنّه إذا سبقك أقرانك وأشكالك بسعادات دنياويّة كيف تقطّعت نفسك عليها حسرات ؟ مع أنّها زائلة حائلة ، طيّارة فرّارة ، مشوبة بالكدورات ، محفوفة بالمنغّصات ، فكيف بفوات ما لا يحيط أعلى الوصف بأدناه ، ولا ينتهي من الانتهاء إلى مداه .

وكان سليمان النبيّ عليه السلام يطعم الناس لذائد الأطعمة وهو يأكل خبز الشعير . جعل الملك على نفسه بذلك امتحاناً .

فالصبر عن الشهوات مع الإمكان أشدّ ، والعزوف عنها مع قرب المتناول أشقّ . ومن هذا تُزوى الدنيا عن الأنبياء والأولياء الأمثل منهم فالأمثل ، وهي كما يحمي الأب العطوف ولده ممّا يضرّه من لذيذ الفواكه وشهيّ الحلاويّ حبّاً له لا بخلاً عليه ، فإذاً كلّ ما كان حظّ المرء في العاجل فهو الدنيا ولا يمكن أن يكون لله تعالى ، كما قال الله تعالىٰ : ﴿**اعلموا أنّما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد**﴾[٣] وهذه الأوصاف هي ما ذكره الله تعالىٰ بقوله : ﴿**زيّن للناس حبّ الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضّة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا**﴾[٤] .

---

(١) المناخ : محل إناخة البعير . الظاعن : المسافر .
(٢) أنظر الفائق للزمخشري مادة (نقش) .
(٣) سورة الحديد ؛ الآية : ٢٠ .
(٤) سورة آل عمران ؛ الآية : ١٤ .

ومن الأشياء ما صورته الدنيا وهو لله وهو كلّ ما يستعان بقدر الحاجة منه على التقوي والعبادة ، وإن كان في مطعم يناله ، أو ملبس يصيبه ، وعلى العكس إذا أُريد بالكفّ عنه التشوّق والاشتهار .

وفي الحديث : «من طلب الدنيا حلالاً مفاخراً لقى الله وهو عليه غضبان ، ومن طلبها استعفافاً عن المسألة وصيانة لنفسه جاء يوم القيامة ووجهه كالقمر ليلة البدر» .

وحدّث الطنافسّي قال : كنت على باب بني شيبة في المسجد سبعة أيّام طاوياً فسمعت الليلة الثامنة وأنا بين اليقظة والنوم : ألا ! من أخذ الدنيا أكثر ممّا يحتاج إليه أعمى الله تعالىٰ عين قلبه ، وصرف عنه محاسن نفسه .

وإنّما ذلك من قبل أنّ الدنيا مع العبد علاقتان[1] : علاقة مع النفس وهي حبّه لها ويشتمل ذلك على جميع صفاتها المتعلّقة بالدنيا من الكبر والغلّ والحسد والرياء والمداهنة وسوء الظنّ وحبّ الثناء وإيثار التكاثر والتفاخر . وعلاقة أُخرى مع البدن وهي الاشتغال بإصلاح أعيان موجودة لإتمام أغراض مقصودة ، فيشتمل ذلك على جميع الحرف والمهن .

فالقلب إنّما تعمى عينه عن إبصار ما عليه أمره في الحال والمآل إذا تشبّث به علاقات النفس ، وعلاقات البدن ؛ علاقات النفس بالهوى ، وعلاقات البدن بالشغل . والحاجّ وإن كان قصده زيارة البيت لا ركوب الراحلة ولكنّه لا بدّ [له] في الوصول[2] إلى البيت من مركب يركبه يسير عليه إلى مقصده وهذا البدن أيضاً مركب النفس يقطع به العبد مسافة العمر إلى ربّه ، وهذه الأعيان الّتي هي الدنيا لم تخلق إلّا لعلف هذا المركب الّذي يسير به العبد إلى الله تعالىٰ ، فإنّ البدن لا يبقى إلّا بمطعم وملبس ومسكن ، كما لا تبقى الراحلة في طريق الحجّ إلّا بمثل ذلك .

ومثال العبد في توفّره على البدن ونسيانه أمر المسير إلى الآخرة مثال

---

(١) الصواب : أن للدنيا مع النفس علاقتين .

(٢) بين المعقوفين زيادة منا ليست في الأصل .

الحـاجّ الّذي لا يـزال في طريق الحـجّ على إصلاح أمـر الراحلة مكبّـاً ، ونحـوه تعهّدها وترفيهها في المربع الخصيب والمورد القريب منصبّاً ، حتّى تفوته القافلة غافلاً من الحجّ ، ناسياً للمقصد ، وعلى العكس إذا لم يعرّج[1] على راحلته إلاّ بالقدر الّذي لا بدّ منه من قوّته على السير ويكون نافذ الصريمة[2] مستقرّ العزيمة نحو المقصد ، حتّى يسبق الوُرّاد ويحظى بالمراد . فكذلك الراحل المجـدّ نحو الآخرة على مركب البدن ، لا يقبل عليه ولا يشتغل به إلاّ بقدر الضرورة الداعيـة إليه ، كما يأتي المستفرغُ الكنيف عند الضرورة .

ولا فرق بين إدخال الطعام في البـطن وبين إخراجـه من البطن في أنّ كـلّ واحد منهما ضرورة البدن ، ومن همّـه ما يـدخل في بـطنه فقيمتـه ما يخـرج من بطنه . ولـو عرفـوا لما وقفـوا ولكنّهم جهلوا فغفلوا ، حتّى تتابـع الشغل واتّصـل الكلّ تائهين من كثرة الاشتغال في أودية النسيان ، قانعين من الربح بالخسـران ، ومن الزيادة بالنقصان ، هاوين لا يخلص أحد عن هاوية من مهاويها ، إلاّ ويقـع في أبعـد منها أعمـاقاً ، ولا يفـكّ عن سبب من عـلائقهـا إلاّ ويعتلق بـأمـرّ منهـا إيثاقاً .

ثمّ إنّهم تفرّقوا على ذلك أحزاباً ففرقة لم يتجاوز نظرهم أُمور معـاشهم في الدنيا مـا عاشـوا فهم يكدحـون في كسب القوت ليـأكلوا ، ويأكلون ليقـووا على الكسب ، يتعبون نهاراً ليأكلوا ليلاً ، ويأكلون ليلاً ليتعبوا نهاراً ، تـراهم دائبين ، لا يستريحون إلاّ بالموت .

وفرقة أُخرى كانوا أبعد من هؤلاء نظراً ، فظنّوا أنّه من الغناء دوام الكدّ من غير راحة ، وطـول السير من غيـر جمام ، فـآثروا بمـا في أيديهم قضـاء الأوطار والتمتّع بالمسارّ ، يأكلون كما تأكل الأنعام ، ويلعبون كما تلعب الصبيان .

وأُخـرى ظنّت السعادة في الجمـع والتكـاثـر ، يجمعـون مـا لا يـأكلون ، ويبنون ما لا يسكنون ، يبخلون على أنفسهم بما يجمعونه ، ثمّ يتـركونـه لمن لا

---

(١) عرج على المكان وتعرج : حبس مطيه عليه وأقام فيه .
(٢) الصريمة : العزيمة .

يحمدهم ممّن يورّثونه ولا يعتبر بهم معتبر ، ولا يزدجر عن سوء عاقبتهم مزدجر .

وأخرى ذهبت في ذلك إلى التفاخر والمراء ، ومراعاة دواعي المدح والثناء يصرفون كدّهم ووُكدهم[1] في الملابس الحسنة ، والدوابّ النفيسة ، والغلمان الزوقة[2] ، والدور العالية ، والآلات الفاخرة ، حتّى يقول الناس بأنّهم ذوو مروءة وأصحاب نعمة وثروة ، فهم آناء اللّيل والنهار في تعهّد مواقع نظر الناس .

وأخرى ظنّت السعادة في الجاه والكرامة والمنزلة عند الناس ، وانقيادهم لهم بالتواضع والإعظام ، والتوقير والإكرام ، يستجرّون الناس إلى طاعتهم بتقليد الولايات وإرادة العلوّ في الأرض على الجماعات ، قد شغلهم إيثار تواضع الناس لهم عن التواضع لله وحسن التصرّف على حكم الله .

وأمثال هؤلاء ممّن مال بهم الجهل إلى جانب الزيادة كثير ، وقد نيّفوا[3] على السبعين .

وكذلك من أُنيف[4] منهم إلى طرف النقصان ، حتّى ظنّت منهم طائفة في ترك الدنيا ـ دار المحن والبلايا ـ وإرادة الآخرة ـ مأوى النعم والسعادات ـ إلى أن قتلوا أنفسهم ، وأحرقوا أبدانهم .

وطائفة تحرّفوا عن أمانيّها ، ولكنّهم أماتوا قواهم لشدّة الرياضة ، وعظيم المجاهدة ففسد عقول فرقة منهم ومرض آخرون .

وظنّ قوم منهم عند ذلك أنّ الشريعة تكليفات وتشديدات وأنّ الله مستغن عن عنا المتعنّين وعبادة المتعبّدين ، فعاودوا إلى الشهوات بعد الإقلاع عنها وردع الأنفس منها .

وأخرى ظنّت أنّ العبادات طريق الوصول ، فإذا تمّ الوصول وصحّ

---

(١) الوكد ـ بالضم ـ : السعي والجهد .
(٢) بهامش الأصل : أي لابسين الثياب الجميلة .
(٣) نيف على كذا : زاد .
(٤) أناف على الشيء : أشرف وطال وارتفع .

المحصـول فلا معنى لإتعـاب النفس والرجـوع إلى الطريق كـذلك حتّى تحـزّبوا أيضاً أحزاباً كثيرة .

وإنّمـا الفرقـة الناجيـة واحدة وهي المتّبعـة لما كـان عليه الـرسـول صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة المعصومون عليهم السلام .

والحاصل : فلا يترك من الدنيا ما يكون بلغة له تبلّغـه الآخرة ، ولا يقمـع من ضـروريّات المعـاش ما يكـون زاداً إلى المعاد ، غيـر مجـاوز حـدود الـورع والتقوى والّذي كـان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والأئمّة عليهم السلام عليـه هو القصـد من غير تفـريط وإفـراط ، العدل القـويم المتوسّط بين الـطرفين ، أحبّ الأُمـور إلى الله فيكـون العبد زاهداً فيه لا راغباً عنه بالكلّيّة .

فهذا قول بعض العلماء[1] ، وسلوكه طريق الزهد فيما أوردناه لحاجـة في نفسنا قضيناها .

ثمّ عُدنا إلى ما كنّا أمليناه في هذا الفصـل من الأخبار وآثـار الصالحين في الزهد والتقوى .

قـال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «أشـرف الكلام كتـاب الله ، وأوثق العُرى تقـوى الله ، وأقوى السبل الزهد في الـدنيا . وخيـر الملل ملّة إبراهيم ، وأحسن السنن سنّـة محمّد . وأشـرف الحديث ذكـر الله . وخير الأُمـور عواقبهـا ، وشرّ الأُمـور محدثاتها . وأحسن الهدى هدى الأنبياء . وأشرف القتل قتـل الشهداء ، وأعـظم الضلالة ضلالةُ بعـد هدى . وخيـر الهدى مـا اتبع . وشـرّ العمى عمى القلب . واليد العليا خير من اليد السفلى . وشرّ الندامة ندامة يوم القيامة حيث لا توبة ولا إقالة . وشرّ الناس من لا يـأتي الجماعـة إلّا دبراً ، ولا يـذكر الله إلّا هجـراً[2] . وخير الغنى غنى النفس . ورأس الحكمة مخافة الله ، والنوح من عمل الجاهليّة ، والغلول من جمر جهنّم . والشعر مزامير إبليس . والخمر جوامع الإثم . والنساء حبائل الشيطان . والشباب شعبة من الجنون . وشرّ المكاسب كسب الزنا . وشرّ

---

(١) وما أحسنه من قول وألذه من كلام !

(٢) أي بعد مدة من الزمان .

المآكل مال اليتيم . والسعيد من وعظ بغيره ، والشقيّ من شقي في بطن أمّه . وكلّ ما هو آت قريب . والخير كثير ، ومن يعمل به قليل . والقناعة مال لا ينفد . وخيركم من طال عمره وحسن عمله . وحسن الملكة[1] نماء . وصلة الرحم مِثراة في المال ، منسأة في الأجل . وسباب المؤمن فسوق ، وقتاله كفر ، وحرمة ماله كحرمة دمه» .

وروى أبو أيّوب الأنصاريّ عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال : «حلّوا أنفسكم بالطاعة وألبسوها قناع المخافة . واجعلوا حرثكم لأنفسكم ، وسعيكم لمستقرّكم . واعلموا أنّكم عن قليل راحلون ، وإلى الله صائرون ، فلا مغني عنكم هنالك إلّا عمل صالح قدّمتموه ، أو حسن ثواب حُزتموه إنّكم إنّما تقدمون على ما قدّمتم ، وتجازون ما أسلفتم ، فلا تخدعنّكم زخارف دنيا دنيئة عن مراتب جنّات عليّة ، وكأن قد كشف القناع ، وارتفع الإرتياب ، ولاقى كلّ امرىء مستقرّه ، وعرف مثواه ومقيله» .

وروى مجاهد عن ابن عبّاس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أنّ عيسى مرّ بمدينة خربت عمرانها ، وسقطت بنيانها ، وقال لبعض حواريّه : أتدري ما تقول هذه القرية ؟ قال : لا ، قال : إنّها تقول : جاء وعد ربّي الحقّ ، فيبست أنهاري بعد غزارتها ، وجفّت أشجاري بعد نضارتها ، وخربت قصوري ، ومات سكّاني ، فها هي عظامهم في جوفي ، وأموالهم المجموعة من حلال وحرام في بطني ، ولله ميراث السماوات والأرض .

ثمّ تنفّس عيسى عليه السلام الصعداء[2] وقال : عجبت من طالب الدنيا والموت يطلبه ومن باني القصر والقبر منزله ، ومن الضاحك ملء فيه[3] والنار أمامه ، والجزاء قدّامه . يابن آدم ! لا بالكثير تشبع ، ولا بالقليل تقنع . تجمع لمن لا يرحمك ، وتقدم على من لا يعذرك ، فواحسرتا عليك إذا بعثت من قبرك ،

---

(١) الملكة : الصفة الراسخة في النفس .

(٢) بضم الصاد وفتح العين : التنفس الطويل من هم أو تعب .

(٣) أي يملأ فمه من الضحك .

ووجدت مالك في ميزان غيرك ! .

وقال أيضاً : يا معشر الحواريّين ! إنّي قد أكببت[1] لكم الدنيا على وجهها ، فلا تغشوها[2] بعدي ، فإنّ من نكد[3] الدنيا أنّ الله عُصي فيها ، وأنّ الآخرة لا تدرك إلاّ بتركها . ألا فاعبروها ولا تعمروها .

وقال أبو هريرة : قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يا أبا هريرة ! ألا أُريك الدنيا جميعاً بما فيها ؟ قلت : بلى يا رسول الله ، فأخذ بيدي وأتى بي وادياً من أودية المدينة ، فإذا مزبلة فيها رؤوس ناس وعذرات وخرق وعظام ، ثمّ قال : يا أبا هريرة هذه الرؤوس كانت تحرص كحرصكم وتأمل كآمالكم ثمّ هي اليوم عظام بلا جلد ، ثمّ هي صائرة رميماً ورماداً . وهذه العذرات ألوان أطعمتكم اكتسبتموها من حيث اكتسبوها ثمّ قذفوها من بطونهم فأصبحت والناس يتحامونها[4] . وهذه الخرق البالية كانت رياشهم ولباسهم ، فأصبحت والرماح تصفقها . وهذه العظام عظام دوابّهم الّتي كانت ينتجعون[5] عليها البلاد فمن كان باكياً على حاله من دنياه فليبك . فأجهشنا[6] جميعاً في البكاء .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «إنّ المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى [لا يدري ما الله صانع فيه ، وبين أجل قد بقي] لا يدري ما الله قاض فيه[7] فليتزوّد العبد من نفسه ، ومن دنياه لآخرته ، ومن حياته لموته ، ومن شبابه لهرمه فإنّ الدنيا خلقت لكم وأنتم خلقتم للآخرة . فوالّذي نفسي بيده ! ما بعد الموت مستعتب ، وما بعد الدنيا دارٌ إلاّ الجنّة أو النّار» .

وقال عليّ عليه السلام : «من جمع ستّة خصال لم يدع للجنّة مطلباً ، ولا عن

---

(١) أكبى وجهه : غيره .
(٢) من : غشا يغشو فلاناً: أتاه .
(٣) بالفتحتين : قلة العطاء والخير .
(٤) الصواب : ألوان أطعمتهم اكتسبوها من حيث اكتسبتموها . تحاماه : اجتنبه وتوقاه .
(٥) انتجع البلد : ذهب يطلبه .
(٦) أجهش بالبكاء : تهيأ له .
(٧) بين المعقوفين إصلاح من أُصول الكافي (٢ : ٧٠) باب الخوف والرجاء .

النار مهرباً أوّلها من عرف الله فأطاعه ، وعرف الشيطان فعصاه ، وعرف الحقّ فاتّبعه ، وعرف الباطل فاتّقاه ، وعرف الدنيا فرفضها ، وعرف الآخرة فطلبها» .

وقال عليه السلام : «المدّة وإن طالت قصيرة ، والماضي للمقيم عبرة ، والميّت للحيّ عظة ، وليس لأمس إذا مضى عود ولا المرء من غده ثقة . وكلّ لكلّ مفارق ، وكلّ بكلّ لاحق . اصبروا على عمل لا غنى بكم عن ثوابه ، وارجعوا عن عمل لا صبر لكم على عقابه ، إنّ الصبر على طاعة الله أهون من الصبر على عذابه . اعلموا أنّكم في مهل معدود ، وأمد ممدود وأجل محدود . ولا بدّ للأجل أن يتناهى ، وللنفس أن يحصى ، وللسبب أن يطوى . فاتّقوا الّذي إن قلتم سمع ، وإن أخبرتم علم واحذروا الموت الّذي إن أقمتم أخذكم ، وإن هربتم أدرككم . وانظروا ثمّ انظروا أين من سعى واجتهد ، وأعدّ واحتشد ، وجمع وعدّد ، وبنى وشيّد ، وزخرف ونجّد ، وفرش ومهّد ، فما للمرء ! يسرّه درك ما لم يكن يفوته ، ويسوؤه فوت ما لم يكن ليدركه» .

انظروا إلى انتثار اللؤلؤ من هذا الكلام ، فإنّك ما ترى ما تعجب صدقاً في المعنى ، وترتيباً في اللفظ ، وحلاوة في القلب ، فكأنّه على ما قاله ابن عبّاس : والله لكأنّ هذا الكلام ينزل من السماء .

وقال جعفر بن يحيى[1] : هكذا تكون البلاغة أن يقرن بكلّ كلمة أُختها ، فتلوح الأُولى بالثانية قبل طلوعها ، وتؤكّد الثانية الأُولى قبل انقضائها ، وتزيد كلّ واحدة نور الأُخرى وضياءها .

وكلّ كلام أمير المؤمنين عليّ عليه السلام حلو بليغ جزل شريف ، يأخذ من البلاغة أبهى شعارها ويرتقي إلى أشرف درجاتها .

وسأل سائل بعض الصالحين : كيف ترى الدنيا ؟ فقال : تخلق الأبدان وتجدّد الآمال وتقرّب المنيّة ، وتباعد الأُمنيّة . قال فما حال أهلها ؟ قال : من ظفر بها تعب ، ومن فاتته نصب . قال : فما الغنى فيها ؟ قال : قطع الرجاء

---

(١) ترى قوله عند ابن أبي الحديد ط بيروت (٢ : ١٦٠) ذيل الخطبة الغراء .

عنها . قال فأيّ الأصحاب أبرّ وأرضى ؟ قال : العمل الصالح والتقى . قال : أيّهم أضرّ وأطغى ؟ قال : النفس والهوى . قال : فما المخرج ؟ قال : في سلوك المنهج . قال : أوصني ، قال : قد فعلت .

وكان بعض الصالحين يخرج في بعض لياليه إلى المقابر إذا هدأت الأصوات ، ونامت العيون . فيقول : يا أهل الغربة والتربة ! يا عسكر الأموات ! يا ضيفان الأرض ! قد سلا[1] حميمكم ، وانتهك حريمكم ، وخربت دياركم ، وتعطّلت آثاركم ، فلا تكلّمون أحداً ، ولا ترجعون أبداً ! .

وقال الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام : «لا يزال العزّ قلقاً حتّى يأتي داراً استشعر أهلها الزهد في الدنيا فيوطنها» .

وسئل عليّ بن موسى الرضا عليه السلام عن صفة الزاهد فقال : «متبلّغ بدون قوته ، مستعد ليوم موته ، متبرّم بحياته» .

وقال الحسن : الزهد في الدنيا أن تبغض أهلها وتبغض ما فيها .

وقال بعضهم : هو ترك ما فيها على من فيها .

وقال آخر : هو أن يترك الدنيا كما هي . لا تقول : أبني رباطاً ، وأعمر مسجداً كما خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم منها ولم يبنِ لبنة على لبنة .

وقيل : الزهد ترك اليد . وقيل : هو الرغبة عن حظوظ النفس كلّها .

وقال بشر : الزهد في الدنيا الزهد في الناس .

وقال أبو سليمان الدّارانيّ : الزهد ترك كلّ شيء يشغلك عن الله ، ثمّ قرأ قول الله تعالىٰ[2] ﴿إلاّ من أتى الله بقلب سليم﴾ وقال : هو القلب الّذي ليس فيه غير أمر الله .

وكان حبيب البدويّ يقول : ازهدوا فقد زهد من خشع فقنع ، واقترف فاعترف ، ووجل فعمل ، وحاذر فبادر ، أفاد ذخيرة ، وأطاب سريرة . وقدّم

---

(١) سلا الشيء : نسيه وغفل عنه .

(٢) سورة الشعراء ؛ الآية : ٨٩ .

مهاداً ، واستظهر زاداً .

وقال لأخيه : يا أخي ! أنت طالب ومطلوب ، يطلبك من لا تفوته ، وتطلب ما قد كفيته فكأنّ ما غاب عنك قد كشف لك ، وما أنت فيه قد غفلت عنه . يا أخي كأنّك لم تر حريصاً محروماً ، ولا زاهداً مرزوقاً .

وقال الشبليّ : أيّ مقدار لأقلّ من جناح بعوضة حتّى يزهد بها ؟ يريد الخبر المعروف .

وقيل لبعضهم : لِمَ زهدت في الدنيا قال : لمّا زهد في أكثرها أنفت عن الرغبة في أقلّها .

وقال بعضهم : الدنيا تطلب لثلاثة أشياء : للغنى والعزّ والراحة ، فمن زهد فيها عزّ ومن قنع استغنى ، ومن قلّ سعيه استراح .

وقال أبو الحسن الزنجانيّ : من كان رأس ماله التقوىٰ والورع كلّت الألسن عن وصف ربحه .

وقيل : لم ينظر أحد إلى الورع فضاقت عليه الأُمور إلّا فرغ إلى التقلّل والتعفّف .

وتكلّم أبو سعيد الخرّاز في الورع فمرّ به عبّاس بن المهديّ وقال : أما تستحيي ! تجلس تحت سقف أبي الدوانيق ، وتشرب من بركة زبيدة ، وتتعامل بالمزيفة وتتكلّم في الورع ؟ ثمّ أنشد :

فضع ما كنت حلّيت به سيفك خلخالا فما تصنع بالسيف إذا لم تك قتّالا ؟

وقال سهل بن عبد الله : من لم يصحبه الورع أكل رأس الفيل ولم يشبع .

وقال داود الطائيّ : ما أخرج الله عبداً من ذلّ المعاصي إلى عزّ التقوى إلّا أغناه بلا مال ، وأعزّه بلا عشيرة ، وآنسه بلا أنيس .

وقيل : ترك الدنيا مع ذكرها صفة الزاهدين ، وترك الدنيا مع نسيانها صفة العارفين .

وقال محمّد بن عليّ الكتانيّ : الشيء الّذي لم يخالف فيه كوفيّ ولا مدنيّ ولا شاميّ الزهد في الدنيا ، وسخاء النفس ، والنصيحة للخلق . أي هذه الأشياء محمودة بكلّ لسان . ممدوحة من كلّ إنسان .

قال بشر الحافيّ : الزهد ملك لا يسكن إلّا في قلب خال .

وقال محمّد بن خفيف : الزهد سلوّ[1] القلب عن الأسباب ، ونفض الأيدي عن الأملاك . وقدوة الزهّاد عيسى عليه السلام توسّد يوماً حجراً ، فقال له الشيطان : أما كنت تركت الدنيا فما بدا لك ؟ فقال : ما فعلت ؟ قال : توسّدت حجراً وتنعّمت ، فرمى الحجر وقال خذه فيما تركته لك .

وجلس يوماً في ظلّ حائط فأقامه صاحب الحائط ، فقال : ما أقمتني أنت ، إنّما أقامني الّذي لم يرض أن أتنعّم بظلّ الحائط .

وقال أبو سفيان بن معمر : الزهد في الدنيا معرفة صغر قدرها ، كما فسّر الحسن قوله تعالىٰ : **﴿الّذين يشترون بعهد الله وأيمانهم ثمناً قليلاً﴾**[2] بأنّ الثمن القليل هو الدنيا بحذافيرها ، قال : وإذا عرفت صغر قدرها لم يضرّك التنعّم بها بعد أن تكون عارفاً بقدرها .

وكان أبو بكر الفارسي صاحب كتاب الأُصول على مذهب الشافعيّ بخراسان ينكر أن يكون الزهد ترك التنعّم بمتاع الدنيا ونفض اليد عن زخرفها وزينتها ، عارضهم بقول الله **﴿قل من حرّم زينة الله الّتي أخرج لعباده والطيّبات من الرزق﴾**[3] وأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لا يحرّم ما أحلّ الله وقد قال الله تعالىٰ : **﴿يا أيّها النبيّ لمَ تحرّم ما أحلّ الله لك﴾**[4] والخبر لا يرفع القرآن أساس والخبر بناء وفرع .

وكان أبو حامد القاضي من أصحابهم يقول : لا يصحّ الزهد في الدنيا ،

---

(١) سلا الشيء يسلوه : نسيه ، طابت نفسه عنه وذهل عن ذكره .

(٢) سورة آل عمران ؛ الآية : ٧٧ .

(٣) سورة الأعراف ؛ الآية : ٣١ .

(٤) سورة التحريم ؛ الآية : ١ .

لأنّ الإنسان خلق منها ، وتمّ بها ، وسكن فيها ، ونشأ عليها ، وأُشرب قلبه حبّها ، وجُبل على عمارتها فلا سبيل إلى إسلاخه منها . وما يقوله جفاة الصوفيّة فهو قول يقولونه ، لا فعل يفعلونه وهل هم إلاّ جملةٌ كلّهم على غيرهم وتناولهم ما يشتهون من كدّ غيرهم ، فلو صحّ لهم زهد لزهدوا عمّا في أيدي الناس ، وسعوا مع الساعين في أسباب الرزق .

ويعجبني دأب الّذين ترهّبوا ... سوى أكلهم كدّ النفوس الشحائح
وأعجب من ذا مُطعم في حياته ... سعاة ضلال بين غاد ورائح

وعلى أنّ إقلالهم ضرب من الكسل ، وسؤالهم أصل في الدناءة ومدحهم الفقر من باب الإزراء بنعمة الله تعالىٰ هذا قول القاضي منهم .

وأمّا أبو سعيد البسطاميّ من أصحابهم فهو كان لا يقف في هذا الإنكار على القول دون الفعل كما حدّث عنه أبو بكر الشاشيّ .

قال كان أبو سعيد من أعاجيب الرجال فسئل يوماً عن قول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : «اللّهُمَّ أحيني مسكيناً وأمتني مسكيناً» فاندفع مغضباً يقول : من قال : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان مسكيناً فهو كافر بالله ، ثمّ أقبل على السائل وقال : والله لولا أنّي أعلم جهلك وغرارتك لأمرت بك حتّى تسحب على وجهك ، ويضرب بالسياط جلدك ، ولكنّك تلقّفت هذا من قول هؤلاء الحمقاء المكذّبين المحتالين الملحدين الّذين وصموا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بهذا النعت وبما يجري مجراه . إنّ النبيّ كان غنيّاً ولا أعني بقولي غنيّاً إلاّ غنيّاً بالله ذلك الغنى مربوط بالإيمان والتوحيد والإخلاص والطهارة ، وما أريد به شيئاً من ذلك ، فإنّ كلّ ذلك موفور له في العاجل ، ومذخور له جزاؤه في الآجل ، وإنّما أعني الغنى الّذي هو الأثاث والمتاع والثياب والدوابّ والخدم .

فقيل له : فإنّ الله يقول : ﴿ووجدك عائلاً فأغنى﴾[1] قال : هذا حجّتي فإنّ العائل هو المثقل بالدين وبزراءة الحال وقد كان هذا قبل المبعث فلمّا بعثه

---

(١) سورة الضحى ؛ الآية : ٨ .

أزاح الله علله ، فنوّر قلبه وملأ من الدنيا يده ، وإلاّ فبما جيّش الجيوش وعقد السرايا ، وهادى الملوك ، ونحل الصحابة ، وزوّد الوفود ، وأعطى المؤلّفة ، وأنفق على النساء ، وقرى الضيفان ، وكسّب المحروم ؟ وأين قوله لمن مات من الصحابة «من مات وترك مالاً فلورثته ، ومن ترك ديناً أو كلاًّ فعليَّ وإليّ» وأين من قولهم ما روي في المشاهير أنّه ﷺ كان إذا دخل شهر رمضان أعطى كلّ فقير وفكّ كلّ أسير ، وأين أفراسه وبغاله وسيوفه وراياته وبروده ودروعه الّتي لكلّ منها اسم لحسنه وإيفائه وإنافته على نظرائه وأين ما كان يدّخره لنفقة عامه وقوت عياله والفدك والعوالي ؟ والله ما أُوتيتم إلاَّ من تقليدكم القوم ، تحلّوا عندكم بادّعاء الدين وقاتلوكم عمّا حوته اليدان وأنتم أيّها الأغنياء أشبه برسول الله وبصحابته من هؤلاء الّذين لبسوا هذه المرقّعات يتكفّفون الناس .

ولا نقول إنّه مع غناه لم يكن زاهداً في الدنيا بل كان غناه من غير الوجه الّذي كان زهده ، وكان غناه من جهة انتظام أمره ، وبهجة حاله ، ورفاهية عيش المتّصلين به ، والوافدين عليه ، وكان زهده من حيث إنّه لا يفرح بما يرزق منها ، ولا يأسى على ما يحرم عنها ، ولا يتوسّع في المطعم والملبس ، يلبس الشملة ويجتزىء بالعِلقة[1] ، وإذا جاءه مال لم يبيّته أو لم يقبله ، وكان إذا جاءه في القائلة لم يمسكه إلى اللّيل ضنّاً به ، وإذا جاءه باللّيل لم يمسكه إلى القائلة حبّاً له ، بل كان يتكرّم ويتفضّل ويهب فيجزل .

فهذا من أقوال هؤلاء الفقهاء الفضلاء العلماء كتبناها على ما حضرنا .

ثمّ رجعنا إلى ما كنّا فيه من أنفاس الزهّاد الفقراء الخارجين بجملتهم عن الدنيا وزخارفها ، النافضين عن تالدها وطارفها ، وكانت تورّعت نفوسهم عنها ، والورع الّذي كان في أُولئك الزهّاد لم تصل إليه عقولنا . وقد ذكرنا بعض أحوال الزهّاد المتورّعين في رسالتنا الإثني عشريّة فمن أراد الوقوف على أحوالهم فليطالعها فإنّ فيها غنية لمن أراد الإطّلاع على حقيقة الزهد والورع .

منها ما حكي أنَّ أبا الحسن البوشنجيّ كان في غاية الورع ومن جملة

---

(١) الشملة : كساء واسع . العلقة : الثوب بلا كمين .

ورعه أنّه بقي أربعين سنة لم يأكل لحم الغنم لمّا نهبت التركمان أغنام تلك الناحية ، وكان يأكل السمك فحكي له أنّ بعض الأمراء تغدّى على حافة ذلك النهر الّذي كان يصاد له منه السمك فلمّا فرغوا من الغداء نفضوا فاضل السفرة في النهر المذكور ، فامتنع من أكل السمك .

وقال أبو عبد الله التستريّ : رأيت في النوم كأن القيامة قامت والخلق كلّهم في الموقف فرأيت طيراً أبيض يأخذ واحداً واحداً في الموقف ويدخلهم الجنّة ، فقلت : ما هذا الطير الّذي قد منّ الله به على عباده ؟ قال : فرمي إليّ بزقّ ، ففتحته فإذا فيه مكتوب : «هذا الطير شيء يُقال له الورع طوبى لمن رزقه» .

ومكث مالك بن دينار بالبصرة أربعين سنة فلم يصحّ له أن يأكل من تمر البصرة ولا من رطبها لاستيلاء بعض المتغلّبة عليها ، فلم يذقها حتّى مات ، وكان إذا انقضى وقت الرطب قال لأهل البصرة ـ وكشف عن بطنه ـ : قد خرج الرطب وما أكلته ، وأنا مالك بن دينار ، وهذا بطني ما نقص منه شيء وما زاد فيكم شيء .

وكان شيخنا الفاضل الألمعيّ الكامل التقيّ خالي الشيخ حسن ابن الشيخ زين الدين الشهير بالشهيد الثاني قدّس الله روحيهما في غاية الورع ، وكا له طاحونة لم يأكل من غلّتها ، لاحتمال أن يكون طحن فيها حنطة لم تخرج زكاتها .

وكان يقول : لفقهائنا في هذه المسألة قولان .

أحدهما أنّ الزكاة تتعلّق بعين المال ، والثاني : الزكاة حقّ يلزم الذمّة فهذا لا إشكال فيه . وعلى القول الأول يجتنب ما أُخذ من الأُجرة ، لأنّ الزكاة باقية في تلك الحنطة الّتي لم تخرج زكاتها . وهذا غاية الورع . فاعتبروا يا أُولي الأبصار .

ولنختم هذا الفصل بأبيات تليق به وتدعو إلى الزهد في الدنيا ، والتمسّك بالورع والتقوىٰ :

يا نازل الدنيا تحلّ ... قد حان منها المرتحل
قدّم زاداً مَن عقل ... أين الشباب ما فعل؟
ها هو ذا عاري الطلل ... إن كنت لم تعلم فسل
فهي اللّيالي لم تزل ... تطويننا طيّ الرحل
ما لاح نجم فاشتعل ... إلاّ كما لاح أفل
وإنّما الدنيا دول ... كراحل قيل: نزل
أو نازل قيل: رحل ... سمّ مذوف بعسل
يا نفس! ما هذا العلل ... كم قدر ما يرجى الطول

وقلت قصيدة على هذا الوزن والقافية :

يا دهر قد أفجعتني ... بفراق أحبابي الأُول
الدهرُ خوّان ولا ... يحزنك منه ما فعل
وها أنا متأسياً ... بمن مضى من الدول
وكن يقيناً خاشعاً ... من ميتة على وجل
الموت ضيف نازل ... لا يدفع الموت الحيل
يقتنص الآجال في ... السفح وفي رأس الجبل

ومنها :

من خالط الناس أسى ... من اعتزل فقد علي
من كثرت أمواله ... كان له الناس خِول
من راقب الرّحمٰن في ... أفعاله ، فقد كمل
فأفضل الزاد التقى ... وأفضل التقوى العمل

ومنها :

طوبى لعبد قام في ... محرابه ثمّ ابتهل
وتاب من ذنوبه ... وحطّ عنها ما فعل
ومن يحمد الدنيا بخير يناله ... فسوف لعمري! عن قليل يذمّها
إذا أقبلت كانت على المرء حسرة ... وإن أدبرت كانت كثيراً همومها

وقال الصلصال بن دلهمس في مجلس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه الأبيات ، ولها قصّة[1] :

تخيّر قريناً من فعالك إنّما ... قرين الفتى في القبر ما كان يفعل
ولن يصحب الإنسان من قبل موته ... ولا بعده، إلاّ الّذي كان يعمل
ألا إنّما الإنسان ضيف لأهله ... يقيم قليلاً عندهم ثمّ يرحل

كلّ اجتماع فله فرقة ... لا بدّ يوماً من فراق الخليل
يا عجباً إنّا لنهفو وقد ... نودي في أسماعنا بالرحيل[2]
وإنّ امرءً ابتاع دنياً بدينه ... لمنقلب منها بصفقة خاسر
ألم ترها ترقبه حتّى إذا صبا ... فرت حلقه منها بشفرة جاذر[3]
وللدنيا دوائر دائرات ... فتذهب بالعزيز وبالذليل
وللدنيا يدٌ تهب المنايا ... وتستلب الخليل من الخليل
أيا من قد تهاون بالمنايا ... ومن قد غرّه الأمل الطويل!
ألم تر أنّما الدنيا غرور ... وأنّ بقاء ما فيها قليل
توقّوا من تصاريف اللّيالي ... فإنّ نعيمها دون الرازيا
هما غرسان ليل أو نهار ... ثمارهما البلايا للبرايا
لعمرك ما الدنيا بدار إقامة ... إذا زال عن عين البصير غطاؤها
وكيف بقاء المرء فيها وإنّما ... ينال بأسباب الفناء بقاؤها
أين من كان قبلنا، أين أينا ... من رجال كانوا جمالاً وزينا؟
إنّ دهراً أتى عليهم فأفنى ... معشراً منهم ، سيأتي علينا

---

(١) وهي أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أوصى بني تميم بشيء ، فقال قيس بن عاصم : وددت لو كان هذا الكلام شعراً نعلمه أولادنا ، فقال الصلصال : أنا أنظمه يا رسول الله فأنشد الأبيات . والقصة والأبيات أكثر من هذه الثلاثة في الإصابة (٢ ؛ ١٧٦ ـ ١٨٧) وتراها مع ما أوصى في معاني الأخبار للصدوق ص ٢٣٣ وإرشاد القلوب ص ٥٤ .

(٢) هفا الرجل : طرب وطاش وخفّ .

(٣) صبا إليه : مال وحنّ . و «فرت» من فري الأوداج بمعنى قطعها .

فهم في بطون الأرض بعد ظهورها محاسنهم فيها بوال دواثر
وأنت على الدنيا مكبّ منافس لخطّابها فيها حريص مكاثر

إذا الرجال ولدت أولادها واضطربت من كبر أعضادها
وجعلت أسقامها تعتادها فهي زروع قد دنا حصادها

وما أهل المنازل غير ركب رحيلهم رواح وابتكار
لنا في الدهر آمال طوال نرجّيها وأعمار قصار

الفصل الخامس

في أشياء متفرقة

عن النبيّ[1] صلى الله عليه وآله وسلم : «سبعة يظلّهم الله يوم القيامة في ظلّه يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه : إمام عدل ، وشابّ نشأ في عبادة الله ، ورجل ذكر الله في خلأ ففاضت عيناه ، ورجل قلبه معلّق في المسجد ، ورجلان تحابّا في الله ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال إلى نفسها قال : إنّي أخاف الله ، ورجل تصدّق فأخفى حتىٰ لا تعلم شماله ما صنعت يمينه» .

قال كعب بن عجرة : خرج إلينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونحن تسعة ، خمسة وأربعة ، أحد العددين من العرب ، والآخر من العجم فقال : «اسمعوا هل سمعتم أنّه سيكون من بعدي أُمراء ، فمن دخل عليهم فصدّقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس منّي ولست منه وليس بوارد عليّ الحوض ، ومن لم يدخل عليهم ولم يعنهم على ظلمهم ولم يصدّقهم بكذبهم فهو منّي وأنا منه وهو وارد عليّ الحوض» .

وعن عبيد بن عمير أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال : «ما ازداد رجل من السلطان قرباً إلاّ ازداد من الله بُعداً ، ولا كثرت أتباعه إلاّ كثرت شياطينه ، ولا كثر ماله إلاّ اشتدّ حسابه» .

وقال حذيفة : إيّاكم ومواقف الفتن . قيل : وما مواقف الفتن ؟ قال :

---

(١) رواه الصدوق في الخصال(٢ : ٢) مع اختلاف .

أبواب الأمراء .

وقال بعض المتقدّمين : إذا رأيت القارىء يختلف إلى الأغنياء فاعلم أنّه لصّ .

وقال ميمون بن مهران : في صحبة السلطان خطران : إن أطعته خاطرت بدينك وإن عصيته خاطرت بنفسك ، والسلامة هي أن لا يعرفك .

ويُقال : ما أقبح بعالم يُقال : أين هو ؟ فيقال : عند الأمير .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «لا تزال يد الله على هذه الأمّة ما لم يعظّم أبرارهم فجّارهم ، وما لم يرفق خيارهم بشرارهم ، وما لم يمل قرّاؤهم إلى أمرائهم . فإذا فعلوا ذلك رفع الله عنهم البركة وسلّط عليهم جبابرتهم ، وقذف في قلوبهم الرعب . وألقى عليهم الفاقة» .

وروي أنّ عيسى عليه السلام قال : «يا معشر العلماء ! كما أنّ الملوك تركوا الحكمة عندكم ، فاتركوا ملكهم عليهم» .

وقال الضحّاك بن مزاحم : إنّي لأتقلّب اللّيل كلّه على فراشي ألتمس كلمة أُرضي بها سلطاني ولا أُسخط بها خالقي فما أقدر عليها .

وقال ابن عبّاس رضي الله عنه : اجتنبوا أبواب الملوك ، فإنّكم لا تصيبون من دنياهم شيئاً إلّا أصابوا من دينكم ما هو أفضل منه .

وقال الفضيل : لو أنّ رجلاً لا يخالط هؤلاء ـ يعني السلاطين ـ ولا يزيد على الفرائض فهو أفضل من رجل يخالط السلطان ويصوم النهار ويقوم اللّيل ويحجّ ويجاهد .

قال المسعوديّ[1] : أظهر عبد الله بن الزبير الزهد في الدنيا وملازمة العبادة مع الحرص على الخلافة ، وشبر بطنه[2] فقال : إنّما بطني شبر فما

(١) أُنظر مروج الذهب .
(٢) شبر بطنه : قاسه بالشبر .

عسى أن يسع ذلك الشبر ؟ وظهر عنه شحّ عظيم على سائر الناس ففي ذلك يقول حمزة مولى آل الزبير :

لو كان بطنك شبراً قد شبعت وقد | أفضلت فضلاً كثيراً للمساكين
ما زلت في سورة الأعراف تدرسها | حتّى فؤادي مثل الخزّ في اللّين

وقال الضحّاك بن فيروز الديلميّ :

تخبّرنا أن سوف تكفيك قبضة | وبطنك شبرٌ أو أقلّ من الشبر
وأنت إذا ما نلت شيئاً قصمته | كما قصمت نار الغضا حطب السدر [1]
فلو كنت تجزي أو تثيب بنعمةٍ | قريباً لردّتك العطوف على عمرو [2]

وقال : هو عمرو بن الزبير أخوه ضربه عبد الله حتّى مات وكان مبائناً له .

وقال عليّ عليه السلام [3] : [«ما لابن آدم والفخر ! أوّله نطفة وآخره جيفة ، لا يرزق نفسه ولا يدفع حتفه» [4] فأخذه بعضهم [5] فقال :

ما بال من أوّله نطفة | وجيفة آخره يفخر
يصبح لا يملك تقديم ما | يرجو ولا تأخير ما يحذر

وقال بعض الحكماء : الفخر هو المباهاة بالأشياء الخارجة عن الإنسان ، وذلك نهاية الحمق لمن نظر بعين عقله ، وانحسر عنه قناع جهله فأعراض الدنيا عارية مستردّة ، لا يؤمن في كلّ ساعة أن ترتجع ، والمباهي بها مباهٍ بما في غير ذاته ، وقد قال قائل لبعض من فخر ببزوته [6] ووفره : إن افتخرت بفرسك

---

(١) الغضا : شجر من الاثل ، خشبه من أصلب الخشب ، وجمره يبقى زمناً طويلاً لا ينطفىء .

(٢) جزى ـ من باب ضرب ـ فلاناً : كافأه . أثاب الرجل : أعطاه . والقريب هنا : الحميم .

(٣) من هنا إلى ص ١٧٣ سقط من الأصل .

(٤) الرقم ٤٥٠ من مواعظه وحكمه القصار .

(٥) هو أبو العتاهية في قصيدة يقول فيها :

عجبت للإنسان في فخره | وهو غداً في قبره يقبر

(٦) بهامش الأصل : «ببزته ظ . البزة هي الثياب ، ومنه سمي بيّاع الثياب بزازاً» .

فالحسن والفراهة له دونك ، وإن افتخرت بثيابك وآلاتك فالجمال لها دونك ، وإن افتخرت بآبائك وسلفك فالفضل فيهم لا فيك ، ولو تكلّمت هذه الأشياء لقالت لك : هذه محاسننا فما محاسنك ؟ .

وأيضاً فإنّ الأعراض الدنيويّة كما قيل : «سحابة صيف عن قليل تقشّع» ، وظلّ زائل عن قليل يضمحلّ ، وكما قال الشاعر :

إنّما الدنيا كرؤيا فرّحت ... من رآها ساعة ، ثمّ انقضت

بل كما قال الله تعالى : **﴿إنّما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السّماء فاختلط به نبات الأرض ممّا يأكل الناس والأنعام حتّى إذا أخذت الأرض زخرفها وازّيّنت وظنّ أهلها أنّهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس﴾**[١] .

وإذا كان لا بدّ من الفخر فليفخر الإنسان بعلمه وتشريف خلقه ، وإذا أعجبك من الدنيا شيء فاذكر فناءك وبقاءه ، أو بقاءك وفناءه ، أوفناءكما جميعاً . وإذا راقك ما هو لك فانظر إلى قرب خروجه من يدك ، وبُعد رجوعه إليك ، وطول حسابك عليه ، وقد ذمّ الله تعالىٰ الفخور فقال : **﴿والله لا يحبّ كلّ مختال فخور﴾**[٢] .

وقال الأصمعيّ : بينما أنا أطوف بالبيت ذات ليلة إذا رأيت شابّاً متعلّقاً بأستار الكعبة وهو يقول :

يا من يجيب دعا المضطرّ في الظلم ... يا كاشف الضرّ والبلوى مع السقم[٣]
قد نام وفدك حول البيت وانتبهوا ... وأنت يا حيّ يا قيّوم لم تنم
أدعوك ربّ ! حزيناً هائماً قلقاً ... فارحم بكائي بحقّ البيت والحرم

---

(١) سورة يونس ؛ الآية : ٢٤ .

(٢) سورة الحديد ؛ الآية : ٢٣ .

(٣) والأبيات الأربعة في مهج الدعوات ص ٢٣١ وعنه في البحار (٩ : ٥٦٢) لشاب مشلول رآه أمير المؤمنين عليه السلام يتضرع وينشد هذه الأبيات فعلمه الدعاء المعروف بدعاء المشلول فأفاق . في خبر طويل .

إن كـان جـودك لا يـرجـوه ذو سعـة　　فمن يجـود على العـاصين بـالنـعم؟

ثمّ أنشأ بعد ذلك يقول :

ألا أيّهـا المقصـود في كـلّ حـاجـة !　　شكـوت إليـك الضرّ فـارحم شكـايتي
ألا يـا رجـائي ! أنت تكشف كـربتـي　　فهب لي ذنـوبي كلّهـا واقضِ حـاجتي
أتـيـت بـأعـمـال قـبـاح رديئـة　　فمـا في الـورى عبـد جنـا كجنـايتي
أتحـرقني بـالنـار يـا غـايـة المنى　　فـأيـن رجـائي ثـمّ أين مـخـافـتـي ؟

ثمَّ سقط على الأرض مغشيّاً عليه فـدنوت منـه فإذا هـو زين العابـدين ابن الحسين بن عليّ عليه السلام ، فـرفعت رأسه في حجـري وبكيت فقـطرت دمعـة من دموعي على خدّه ، ففتـح عينه فقـال : من هذا الّـذي يهجم[1] علينا ؟ قلت : عبدك الأصمعيّ ، سيّدي ! ما هذا البكاء والجزع وأنت من آل بيت النبوّة ومعدن الرسالـة ؟ أليس الله تعالى يقـول : ﴿**إنّما يـريد الله ليـذهب عنكم الرجس أهـل البيت ويطهّركم تـطهيراً**﴾[2] فقـال : هيهات يـا أصمعيّ إنّ الله خلق الجنّة لمن أطاعه ولو كان عبداً حبشيّاً ، وخلق النار لمن عصاه ولـو كان شـريفاً قـرشيّاً أليس الله تعالىٰ يقول : ﴿**فإذا نفخ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلـون * فمن ثقلت موازينه فـأُولئك هم المفلحـون * ومن خفّت موازينـه فأُولئـك الّذين خسروا أنفسهم في جهنّم خالدون**﴾[3][4] .

وقـال عليه السلام : «الغنى والفقر بعـد العرض على الله» أي لا يعـدّ الغنيّ غنيّاً في الحقيقة إلاَّ من حصل له ثواب الآخرة الّذي لا ينقـطع أبداً ، ولا يعـدّ الفقير

---

(١) هجم ـ من باب نصر ـ عليه : انتهى إليه بغتة على غفلة منه ، أو دخل بغير إذن .
(٢) سورة الأحزاب ؛ الآية : ٣٣ .
(٣) سورة المؤمنون ؛ الآيات : ١٠١ ـ ١٠٣ .
(٤) وهذا الخبر عجيب من الأصمعي وهـو من هو في بغض أهـل البيت حتى قال في جنـازته أبو قلابة الشاعر (حياة الحيوان ٢ : ٣٥٧ ، النعام) :

لـعـن الـلّه أعـظمـاً حـمـلوهـا　　نـحـو دار الـبـلى عـلى الـخـشـبـات
أعـظمـاً تـبـغض الـنـبـي وأهـل الـ　　ـبـيـت والـطـيـبـيـن والـطـيـبـات

فقيـراً إلاَّ من لم يحصل لـه ذلـك فـإنّـه لا يـزال شقيّـاً معـذّبـاً وذلـك هـو الفقـر بالحقيقة ، فأمّا غنى الدنيا وفقرها فـأمران عـرضيّان زوالهمـا سريـع وانقضاؤهمـا وشيك ، وإطلاق هـاتين اللّفظتين على مسمّاها الدنيـويّ على سبيل المجـاز عند أرباب الطريقة أعني العارفين .

الفصل السادس

في الشكر

قال بعض أصحاب المعاني : قد قطع الله تعالىٰ بالمزيد مع الشكر ولم يستثن فقال : ﴿**لئن شكرتم لأزيدنكم**﴾[1] واستثنى في خمسة أُمور وهي الإغناء والإجابة والرزق والمغفرة والتوبة فقال : ﴿**فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء**﴾[2] وقال : ﴿**بل إيّاه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء**﴾[3] وقال : ﴿**يرزق من يشاء**﴾[4] وقال : ﴿**يغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾[5] وقال : ﴿**ويتوب الله على من يشاء**﴾[6] .

وقال بعضهم : كيف لا يكون الشكر مقاماً جليلاً وهو خُلق من أخلاق الربوبيّة ؟ قال تعالىٰ في صفة نفسه : ﴿**والله شكور حليم**﴾[7] وقد جعل الله تعالىٰ الشكر مفتاح كلام أهل الجنّة فقال : ﴿**وقالوا الحمد لله الّذي صدقنا وعده**﴾[8] وجعله خاتمة كلامهم أيضاً فقال : ﴿**وآخر دعواهم أن الحمد لله ربّ**

---

(١) سورة إبراهيم ؛ الآية : ٧ .

(٢) سورة التوبة ؛ الآية : ٢٩ .

(٣) سورة الأنعام ؛ الآية : ٤١ .

(٤) سورة البقرة ؛ الآية : ٢١٢ وفي موضع آخر .

(٥) سورة النساء ؛ الآيتان : ٤٨ ـ ١١٥ .

(٦) سورة التوبة ؛ الآية : ١٦ .

(٧) سورة التغابن ؛ الآية : ١٧ .

(٨) سورة الزمر ؛ الآية : ٧٤ .

العالمين﴾[1] وقيل[2] للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : قد غفر الله لك ما تقدّم من ذنبك وما تأخّر فلِمَ تقوم اللّيل وتتعب نفسك ؟ قال : «أفلا أكون من الربّ شكوراً» ؟ .

اعلم أنّ الزهد عدم الرغبة في مطلوب يفارقه عند موته وهي الحظوظ الدنيويّة كالمأكل والمشرب والملبس والمنكح والجاه والمال والذكر الحسن والقرب من الملوك وغير ذلك من التكثّرات الّتي هي ملزومات العدم ، ويكون ذلك الزهد لا لعجز وجهل أو غرض من الأغراض ، وذلك هو الزهد في المشهور وهو الّذي يترك متاع الدنيا لمتاع آخر يستأجله وفي الحقيقة هو الّذي لا يكون زهده المذكور للنجاة من النار والفوز بالجنّة ، بل يكون ذلك ملكة له تكبّراً على ما دون الحقّ ، وتقرّباً إلى رضاه ، وتصير تلك الملكة صفة لنفسه تزجرها عن مشتهياتها ، وتروّضها بالأمور الشاقّة حتّى تصير راسخة فيها كما قال وليّ الله عليّ بن أبي طالب عليه السلام[3] : «وأيم الله يميناً أستثني فيها بمشيّة الله لأروضنّ نفسي رياضة تهشّ معها[4] إلى القرص إن قدرت عليه مطعوماً وتقنع بالملح مأدوماً» إلى قوله عليه السلام[5] : «ما لعليّ ونعيم يفنى ولذّة لا تبقى؟» .

وبالجملة : فالنفس أمّارة ولا يمكن تأديبها إلاّ بقطع العلائق البدنيّة والشهوات النفسانيّة كما قال بعضهم نظماً :

إذا شئت أن تحيا فمت عن علائق ... من الحسّ خمس ، ثمّ عن مدركاتها
وقابل بعين النفس مرآة عقلها ... فتلك حياة النفس بعد مماتها

وقال غيره أيضاً في هذا المعنى :

---

(١) سورة يونس ؛ الآية : ١٠ .
(٢) رواه الديلمي في إرشاد القلوب : ١٤٥ عن عائشة مع اختلاف في الألفاظ .
(٣) فيما كتبه إلى عثمان بن حنيف واليه على البصرة يستعتبه . تراه في شرح النهج لعبده طبع مصر (٢ : ٧٦) قوله : «لأروضن» من الرياضة . و «تهش» بفتح الهاء أي ترتاح وتنشط .
(٤) في الأصل : «بها إلى القرص» .
(٥) هذه الجملة ليست مما كتبه إلى عثمان بل من خطبة له يذكر فيها استماحة أخيه عقيل صاعاً من حنطة المسلمين انظر المصدر المذكور (١ : ٤٨١) .

فإن شئت تهوى القوم فاسلك طريقهم وما وصلوا إلاّ بقطع العلائق
وما حمل الهنديّ وهو حديدة على الكتف إلاّ بعد ضرب المطارق[1]

قوله[2] : فصعق همام وأُغمي عليه قال الله تعالىٰ : ﴿**فصعق من في السماوات ومن في الأرض**﴾ [3] .

واعلم أنّ الوجد أمر شريف قد اختلف الناس فيه فقالت الحكماء فيه أقوالاً ، وقالت الصوفيّة فيه أقوالاً .

أمّا الحكماء فقالوا : الوجد هو حالة تحدث للنفس عند انقطاع علائقها عن المحسوسات بغتة إذا كان قد ورد عليها وارد مشوّق ، وقال بعضهم : الوجد هو اتّصال النفس بمباديها المجرّدة عند سماع ما يقتضي ذلك الاتّصال .

وأمّا الصوفيّة فقد قال بعضهم : الوجد رفع الحجاب . ومشاهدة المحبوب ، وحضور الفهم ، وملاحظة الغيب ، ومحادثة السرّ ، وهو فناؤك من حيث أنت أنت . وقال بعضهم : الوجد سرّ الله عند العارفين ، ومكاشفة من الحقّ توجب الفناء من الخلق .

والأقوال فيه متقاربة في المعنى وإن اختلفت العبارة ، وقد مات كثير من الناس بالوجد عند سماع وعظ أو صفقة مطرب . والأخبار في هذا الباب كثيرة جدّاً وقد رأينا نحن في زماننا من مات بذلك فجاءة .

قوله : كانت نفسه فيها أي مات . ونفث الشيطان على لسانك أي تكلّم بلسانك[4] وأصله النفخ بالفم وهو أقلّ من التفل .

---

(١) الهندي : السيف . المطارق جمع المطرقة : آلة يضرب بها الحديد ونحوه ، وهو بالفارسية (پتك) .

(٢) أي قول الراوي بعد ما وصف أمير المؤمنين عليه السلام المتقين لهمام ـ وهو أحد أصحابه ـ في خطبة له من أعلى خطبه عليه السلام مضموناً وانظر شرح النهج لعبده (١ : ٤٢٤) ونص الرضي «فصعق همام صعقة كانت نفسه فيها» وستأتي من المؤلف أيضاً . ولذكر هذا وما بعده مناسبة بعيدة مع ما نحن فيه ولعل هنا أيضاً سقطاً والله العالم .

(٣) سورة الزمر ؛ الآية : ٦٨ .

(٤) خاطب عليه السلام به الذي قال : فما بالك يا أمير المؤمنين ؟ .

وإنّما نهى أمير المؤمنين عليه السلام القائل[1] : «فهلاّ أنت يا أمير المؤمنين؟» لأنّه اعترض في غير موضع الاعتراض ، وذلك أنّه لا يلزم من موت العاميّ عند وعظ العارف أن يموت العارف عند وعظ نفسه لأنّ انفعال العاميّ ذي الاستعداد التامّ للموت عند سماع المواعظ البالغة أتمّ من استعداد العارف عند سماع كلام نفسه ، أو الفكر في كلام نفسه ، لأنّ نفس العارف قوية جدّاً ، والآلة الّتي يحفر بها الطين قد لا يحفر بها الحجر .

فإن قلت : فإنّ جواب أمير المؤمنين عليه السلام للسائل غير هذا الجواب .

قلت : صدقت إنّما أجابه من حيث يعلم هو ، والسامعون لا تصل أفهامهم إليه ، فخرج معه إلى حديث الآجال وأنّها أوقات مقدرة لا تتعدّاها ، وما كان يمكنه عليه السلام أن يذكر الفرق بين نفسه ونفوسهم ، ولا كانت الحال تقتضيه ، فأجابه بجواب مسكت وهو مع إسكاته الخصم حقّ وعدل عن جواب حصل منه اضطراب ويقع فيه تشويش ، وهذا نهاية السداد وصحّة القول . من شرح نهج البلاغة .

قيل للشبليّ : ما يجب في مائتي درهم ؟ قال : أمّا من جهة الشرع فخمسة ، وأمّا من جهة الإخلاص فالكلّ .

كان الرجل من السلف يضع الصدقة ويمثّل قائماً بين يدي السائل الفقير ويسأله قبولها حتّى يصير هو في صورة السائل وكان بعضهم يبسط كفّه ويجعلها تحت يد الفقير العليا .

قال بعض الصالحين : الصلاة تبلغك نصف الطريق ، والصوم يبلغك

---

(١) لا بأس أن نرفع إبهام عبارة الكتاب بذكر تمام ما أورده الرضي في ذيل الخطبة ، قال : «فصعق همام صعقة كانت نفسه فيها ، فقال أمير المؤمنين عليه السلام : أما والله لقد كنت أخافها عليه ، ثم قال : أهكذا تصنع المواعظ البالغة بأهلها ؟ فقال له قائل فما بالك يا أمير المؤمنين ؟ فقال : ويحك ! إن لكل أجل وقتاً لا يعدوه ، وسبباً لا يتجاوزه . فمهلاً لا تعد لمثلها ، فإنما نفث الشيطان على لسانك» قال العلامة الشيخ عبده في ذيل قوله «فما بالك الخ» فما بالك لا تموت مع انطواء سرك على هذه المواعظ البالغة ؟ وهذا سؤال الوقح البارد .

باب الملك ، والصدقة تدخلك عليه بغير إذن .

قال الشعبيّ : من لم ير نفسه أحوج إلى ثواب الصدقة من الفقير إلى صدقته فقد أبطل صدقته ، وضرب بها وجهه .

وكان الحسن بن الصالح إذا جاءه سائل فإن كان عنده ذهب أو فضّة أو طعام أعطاه فإن لم يكن أعطاه زيتاً أو سمناً أو نحوهما مما ينتفع به ، فإن لم يكن أعطاه كحلاً أو خرج بإبرة وخيط يخيط بها ثوب السائل ، أو بخرقة يرقع بها ما تخرّق من ثوبه ، ووقف مرّة على بابه سائل ليلاً ولم يكن عنده ما يدفعه إليه فخرج إليه بقصبة في رأسها شعلة قال : خذ هذه وتبلّغ بها إلى أبواب ناس لعلّهم يعطونك .

الفصل السابع

في المعارف والسعادات النفسية

كان منصور بن عمّار يقول : إنّ الحكمة تنطق في قلوب العارفين بلسان التصديق وفي قلوب الزاهدين بلسان التفضيل ، وفي قلوب العبّاد بلسان التوفيق ، وفي قلوب المريدين بلسان التفكير ، وفي قلوب العلماء بلسان التذكير .

وكان يقول : سبحان من جعل قلوب أهل الدنيا أوعية الأحزان ، وقلوب الزاهدين أوعية التوكّل ، وقلوب المتوكّلين أوعية الإرادة ، وقلوب المريدين أوعية المعرفة ، وقلوب العارفين أوعية الذكر .

قالوا : وأمّا المعارف الصحيحة الصادقة معرفة الله الواحد الحقّ باليقين التامّ الخالص وأمّا الأفعال الصالحة العبادة له والازدلاف إليه وطلب الرضوان عنه وغاية المعرفة الصادقة الاتّصال بالمعروف ، وغاية الأفعال الصالحة الفوز بالنعيم والخلود في جوار الله .

هذا هو الصراط المستقيم الّذي يقع الجواز عليه . فأمّا من هو عن هذا عم[١] فهو في قطيع النَّعم ، وإن كان يتقلّب في أصناف النِعم ، كالكلب كلب عينه[٢] ، ولو احتلى بسلاسل وخلاخل وجلاجل .

---

(١) مخفف «عمي» والعمي : ذو العمى .

(٢) أي ذاته .

رؤوس تحت أعلام ثقال ولكن فوق أحلام خفاف

وقالوا : إنّ الناس على أربعة أصناف :

صنف عقولهم مغمورة بشهواتهم فهم لا يبصرون بها إلاّ حظوظهم العاجلة ، ولذلك يكدحون في تحصيلها ، ويدأبون[1] كلّ جدّ وجهد في تأثيلها[2] . وهذا نعت طالبي الدنيا وعبيدها ، يطعمونها ولا يشبعون ، ويشربونها ولا يرتوون[3] وينظرون إليها ولا يملّون . يطلبونها وهم على يقين من فراقها ، ويركضون إليها وهم لا يشكّون أنّهم من صرعاها .

وصنف عقولهم متنبّهة عن هذه السنة لكنّها مخلوطة بشوائب الجهل ، فهم يحرصون على الخير واكتسابه ، ويهربون من الشرّ بأتمّ اجتنابه ، ولكنّهم يخطؤون كثيراً لعدم كمالهم في أحوالهم وهذا نعت العبّاد الجهلة ؛ فلا عبادة إلاّ عن انتباه ، والعلماءِ الفجرة ؛ فلا علم إلاّ مع شعبة من رشاد .

وصنف عقولهم ذكيّة ، ونفوسهم ملتهبة ، لكنّهم غمّت عليهم حقيقة أمر الآخرة وصورة نعيمها ، ولم يقدّروها حقّ قدرها . فهم يدأبون في نيل الحظوظ الدنياويّة بعلمهم ويأكلون الدنيا بدينهم عن حيلة وإراغة ، لا أكل بني الدّنيا الدّنيا بالسواعد الشداد ، والسيوف الحداد . فأُولئك صدورهم مقتدحة بزند[4] العلم لكنّها غير ثلجة[5] باليقين ، ولا منشرحة بالحقّ ، وإلاّ لما أقبلوا على ما يفارقونه خاسرين كلّ هذا الإقبال .

وصنف أضاءت عقولهم بما أفاء الله عليها من اللّطف الخفيّ والصنع الحفيّ ، فهم صفوته الّذين يحلمون بالدنيا ، ويستيقظون بالآخرة ، تراهم حضوراً وهم غيّب ، أشباهاً وهم متبائنون ، قلوبهم ملأى من المحبّة ، ونفوسهم

---

(١) دأب ـ من باب منع ـ في العمل : جد وتعب واستمر عليه .

(٢) أي في اكتسابها وتثميرها .

(٣) افتعال من الري ضد العطش .

(٤) الزند ـ بفتح فسكون ـ هنا ؛ العود الأعلى الذي يقتدح به النار .

(٥) ثلج به وإليه ـ من باب نصر ـ ثلوجاً : ارتاح به واطمأن إليه .

غـرقى في بحـار الإرادة ، قـد رفضـوا النـاس ومـا هم فيـه ، إلاّ المقـدار الّـذي اضطرّوا إليه . فهم المـوصوفـون بالعفّـة والورع والحـرّيّة والعـدالة والهمّـة وكبر النفس والنجدة ، موقنين أنّ الرّجوع إلى الله ، وأنّ الحياة قليلة ، والجزاء بعدها سرمد ، فلا يكترثون بالممـات ولا يفرحـون بالحيـاة . فيتحلّون عند ذلـك بحلية الشجعـان ، ويحسنون الـدفاع عن حـومة الـدّين ، وينصبون العقـل على الهوى ويحسنون الإقتداء بعباد الله الصّالحين ، وأنبيائه المرسلين .

ثمّ يعلم كـلّ إنسان مـا يتبعه من علم مـا يلزم للصـانـع على المصنـوع ، وللمنعم على المنعم عليه من الطّاعـة وشكر النعمـة ومحض العبادة ، ولا يـدرك ذلك إلاّ بالنـظر الّذي هـو النور المنبثّ من العقـل في العالم جملة ، ثمّ مـا منح منـه كلّ نفس مـرضيّة تختـار فضائلهـا الّتي هي العلم والحكمة والعفّـة والزهـادة والعدل والنجدة والرحمة والوفاء والحيـاء والتواضـع والصدقـة والنصيحة والأمـانة ونحوها .

وعن هذا قال بعض الحكماء : إنّ الواجب على كـلّ إنسان أن يكـون منه على بال في كلّ حال أربع خلال :

إحداها : أن يعلم أنّ نفسه عن قريب فانية وأنّ بنيته عن الانتقاض دانية .

والثانية : أن يعلم أنّ له ربّاً خالقاً إن انقطع إليه أغناه عمّن سواه .

والثـالثة : أن يعلم أنّ للخـالق عنايـةً بليغة بـدقيق ما في العـالم وجليله ، حتّى ينتهي أمر كلّ أحد إلى أحسن أحواله ، وأتمّ أوصافه .

والرابعة : أن يعلم أنّ خـالقه لا يقبـل من قربـاته إليـه ما يشـوبه ، بـل ما يـطيب ويصفو عن الكـدورات ويخلص ولا يمتزج بـالمشوبـات ، كمـا جـاء في الحـديث «إنّ الله طيّب لا يقبل إلاّ الـطيّب» فهذا من المعـاني النـظريّـة الّتي لم يخالف أحد أنّ قـدم الصدق فيهـا للزّهاد ، بحيث لا يحـارون[1] في السّعي إليه والطلب لها ، فـأمّا المعـاني العلميّة المختصّـة بهم فجملتها أن لا يسـأل ولا يردّ

(١) حار : رجع ، تحير .

ولا يحبس ولا يملك ، ولا يكـون لـه اختيـار ولا تـدبيـر ، ولا انـزعـاج إلى الأسباب ، ولا اغترار بالأحوال .

وأصل باب العمل الإعراض عن الاعتراض ، والانخلاع من الحول والطول ، والتجرّد عن شعار الأمل ، وإتعاب النفس بآداب العبوديّة حتّى يموت عنها ، وتعليق القلب بآثار الربوبيّة حتّى يحيا بها .

وعن هذا حدّ الحكماء الأوائل الحكمة بأنّها معاناة[1] تعاطي الموت لا يعنون بذلك الموت الطبيعيّ الّذي هو مفارقة الروح الجسد على ما جبلت عليه الصور من فسادها ، والموادّ من نفادها ، ولكنّهم يعنون به الموت الإراديّ الّذي هو إماتة الشهوات ، وتغليب العقل على الهوى والإرادات ، والخروج عن دواعي النفس ودواعي الدنيا ، وقطع منازعة أهلها ، ومهارشة أصحابها . وهذا في الحقيقة حياة الأفاضل الأخيار ، وهذا الفناء هو البقاء عند أهل التصوّف .

وأمّا المعاني الكسبيّة فهو اقتناء المحاسن في الأفعال ، والمكارم في الأخلاق ، والتوفّر على الأشياء الباقية الجميلة الّتي يفارق الإنسان الدنيا ولا تفارقه ، بل تصحبه في قبره وتؤنسه في وحشته ، وترافقه في يوم بعثه ، وتشفعه عند الله في الدار الآخرة حتّى يجعله أهل لقائه وجزائه . وذلك كلّ خلق كريم وسجيّة روحانيّة وأفعال ملكيّة وزلفة إلٰهيّة ؛ لا العُرى[2] تنزعها ، ولا العدى[3] تسلبها ، ولا الموت يهلكها ، ولا الفوت يدركها ، يعمر بصاحبها النادي[4] والعطف عاطل ، ويعبر به الوادي والمرء راجل .

فلمّا فرّسوا الآيات صاغوا	لها طرقاً كما عقد السحاب
إذا ماتت تورّثه بنيها	وإن تقتل فليس لها استلاب

---

(١) المعاناة : المقاساة والمعالجة .
(٢) جمع العروة ، وهو هنا : ما يعول عليه .
(٣) اسم جمع للعدوّ .
(٤) النادي : مجلس القوم ما داموا مجتمعين فيه .

أمّا المعاني السياسيّة فهي لزوم المجاهدة ، ورياضة النفس على العلم اليقينيّ ، والجمال الحقيقيّ حتّى تستصلح المضغة الّتي هي قلب هذا العالم ولبّه ، فيصلح لصاحبه أمر داريه ، ويوضع في يديه زمام سعادتيه ، وذلك بفطام النفس عن المألوفات ، وكسح عنانها إذا جمحت[1] نحو الشبهات ، فلا يأكل إلاّ عند الفاقة ، ولا ينام إلاّ عند الغلبة ، ولا يتكلّم إلاّ عند الضرورة . يغلق على نفسه باب النعمة ، ويفتح باب الشدّة ، ويصدّ عن جهة العزّ ، علماً بأنّه يورث الذلّ الطويل ، ويقبل إلى قلبه الذلّ ، تيقّناً أنّه يعقّب العزّ العزيز ، ويتجنّب أسباب الثروة ، ويسلك سبيل الفقر والفاقة ، ويميت دواعي النفس ويحيي معالم الروح .

وليس جمال المرء إلاّ بنفسه — وليس جمال الوجه منه بمحتسب
وليس يسود المرء إلاّ بنفسه — وإن عدّ آباءً كراماً ذوي حسب
إذا الغصن لم يثمر ـ وإن كان شعبة — من المثمرات ـ اعتدّه الناس في الحطب

وإذ قد بان الغرض من هذا التقرير ، وتصوّر المعنى في هذا التصوير ؛ فإنّي أعود إلى ما هو الغرض في ذلك من ذكر السعادة وتقسيمها فأقول : إنّها ثلاثة أقسام : أحدها نفسانيّ والآخر جسمانيّ والثالث رياشيّ .

فالسعادة النفسانيّة هي أن يكون الإنسان جيّد النفس ، قويّها على العلم ، أعني أنّها تقوى على درك العلوم ، فإذ أدركها واستوفاها ، وخرج من حيّز القوّة إلى الفعل فحصلت له السعادة النفسانيّة بالعلم .

والجسمانيّة هي أن يكون المرء حسن الخلقة ، مقبول الصورة ، معتدل التركيب والبنية .

والرياشيّ هو أن يكون موفقاً لتحصيل ما يمونه من غير حاجة إلى ازدياد وقلّة ، ولا إلى فضله غاية وكثرة . وإنّما اشترط في الرياشيّ ذلك لأنّ حدّ الفقر هو عدم الكفاية ، وحدّ الغنى وجود ما فوق الكفاية ، فما نقص عن الحاجة فهو

---

(١) جمح الفرس ـ من باب منع ـ : تغلب على راكبه وذهب به لا ينثني .

فقر وإقلال وما زاد عليها فهو فضل ووبال .

غنا المرء ما يكفيه عن سدّ خلّة	فإن زاد شيئاً عاد ذاك الغنى فقرا
ما زاد فوق الزاد خلف ضائع	في حادث أو وارث أو عار
أيا جامع المال! وفّرته	لغيرك إذ لم تكن خالدا
فإن قلت نخشي صروف الزمان	فكن من تصاريفه واحدا

وقد ظنّ قوم أنّ السعادة هي الكرامة ، وأُولئك يلزمهم ضدّ ما يرومونه ، لأنّها في المكرِم دون المكرَم ، فتلك أحقّ بالمكرِم ، وأخصّ بالمفضِل والمنعِم ، ومن قدّر أنّما هي عند الولاية والرياسة فقد أخطأ الحقّ ، وباين الصواب .

وذلك أنّ جلّ الحكماء قد أجمعوا على أنّ الأحاظي والجدود إنّما هي اتّفاقات وبخوت[1] لا يعرف لها أسباب معلومة ، ودواعي مفهومة . وكلّ ما كان وجوده من غير علّة ، فيوشك أن يكون عدمه من غير علّة ، وما لم يؤمن عليه الزوال والانتقال ، فحقيق أن لا يعدّ سعادة ولا يحسب نعمة مستفادة ؛ فالسعادة الحقيقيّة هي القنية النفسانيّة الّتي تعبر معك الوادي ، وتعمر بك النادي ، وإنّ ما سواها فانٍ زائل ودائر سائل .

ثمّ إنّ للنفس والبدن زينتين : زينة النفس العلم ، وزينة البدن المال . وفضل العلم على المال كفضل النفس على البدن[2] ، ولذلك ترى بخل العالم

---

(١) جمع «بخت» وهو الحظ ، والكلمة فارسية .

(٢) قال أمير المؤمنين عليه السلام لكميل النخعي : «يا كميل ! العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال . المال تنقصه النفقة والعلم يزكو على الإنفاق . وصنيع المال يزول بزواله . يا كميل : العلم دين يدان به ، به يكسب الإنسان الطاعة في حياته ، وجميل الأحدوثة بعد وفاته والعلم حاكم والمال محكوم عليه . يا كميل : هلك خزان الأموال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقي الدهر ؛ أعيانهم مفقودة ، وأمثالهم في القلوب موجودة» أنظر النهج الرقم ١٤٧ من حكمه . وفي ديوانه المنسوب إليه عليه السلام :

رضينا قسمة الجبار فينا	لنا علم وللجهال مال
فإن المال يفنى عن قريب	وإن العلم باق لا يزال

ورواية المجاني (١ : ٢٢) : وإن العلم ليس له زوال .

المقلّ بعلمه إن لو خيّر في الجهل والمال أشدّ[1] من بخل الجاهل الغنيّ بماله إن لو خيّر في العلم والإقلال . والنفس والعلم معاً علّتين لانتفاع البدن بالمال ، وإنّما اشترط العلم مع النفس ، من أجل أنّ الصبيان والمجانين لهم نفوس ، وليس لهم علوم ، فهم لا ينتفعون بالقنية والمال ، لإفسادهم إيّاهما بالجهل والخبال ، فمتى ما فارقاه بطل انتفاعه بهما أصلاً ، وزال استمتاعه بمكانهما بتّة ، فالعلّة أفضل من المعلول ، والسّبب أقدم من المسبّب ؛ فالفاعل أشرف من المنفعل ، والسعيد من خيّر له شرف النفس وكرم الطبع ، وسيق إليه الفضائل المذكورة ووقف عليه السعادة الحقيقيّة موفورة ، وجعل مرتاحاً للعلم وذويه ، طمّاحاً إلى الفضل ومنتحليه ، بأخلاق يتراجع عندها قيمة الجوهر العزيز ، ويزيّف معها سبيكة الذهب الإبريز .

فطوبى لمن غنيت نفسه باقتناء السعادات الباقية وتخليقها بالأخلاق الكريمة العالية وتبقية ما خوّل من الخير والسعادة بأداء زكاتها ، والنهوض بأحقّ واجباتها ، وهو التواضع لمن دونه ، وليس في الأخلاق أجلب لمحبّات الصدور ، وأملك لحبّات القلوب من اثنين : أحدهما السماحة ، والآخر التواضع ، أمّا السماحة فلما فيها من الإحسان إلى الإنسان والنفوس مفطورة على حبّ الإحسان ، وأمّا التواضع فمعناه قريب من معنى السماحة ، وذلك أنّ المحمودين على التواضع هم الأكابر الّذين قد ارتفعت منازلهم ، وسمت درجاتهم ومراتبهم عمّن يتواضعون لهم ، ووجدوا بسطة عليهم وفسحة في الاستغناء عنهم ، فأولئك يرونهم أحقّاء بالترفّع على قدر الرفعة والتمكين على حسب المكانة والجدة[2] ، فلا يطمعون منهم ما يطمعون فيه من جهة الأكفاء والنظراء والقائمين في الحال على سواء ، فإذا تواضعوا لهم كانوا قد وضعوا عنهم الإعتداد بزيادة الحال والمحلّ عليهم ، ووصفهم لذلك هبة لتلك الزيادة لهم ، والواهب للشيء محبوب ، والمحسن بأيّ وجه كان محمودٌ .

---

(١) مفعول ثان لقوله «ترى» .

(٢) بكسر الجيم وتخفيف الدال : الثروة .

فهـذا ما قلتـه في السعادة الحقيقيّـة ، فإذا ثبت هـذا وهو الأصـل المسلّم والبناء المسوّس[1] ، فخلق الإنسان من أحكم وأقوم وأحسن وأزين مـا خلقه الله في هذا العالم فلا بدّ أن يكون خلقه لأمر عظيم لا يضـاهيه أمـر وإن عظم ، ولا يـدانيه شـأن وإن فخم ، فيكون ذلـك كمال جـوهره ، وغـاية سعـادته ، ومنتهى غبطته ، فيزعم الفقير أنّ ذلك هو التقنّي بعـد الإقلال[2] ، وأنّ السعـادة العظمى هي إصـابته ، ويـزعم العليل أنّـه الإبـلال[3] بعـد الاعتـلال وأنّـه إذا تمّ بـالبـرء سـلامته ، والـذليل أنّـه العزّة وأنّهـا إدامته ، والجهـول أنه العلم وأنّهـا غزارتـه ، والعـالم أنّه الخيـر وأنّها إفـاضتـه . وحتّى يـظنّ الخليـع المـاجن[4] أنّـه اللّذّات الحيوانيّة ، وأنّها الإنهماك فيها ، والمشوّق العاشق أنّه رؤية العشيق الشائق وأنّها الإمتاع به والعيش معه . وحتّى يرى أصحاب السلطان اليوم معـظم سعادتهم في نحو فاخر الملبوس ، وفـاره المركـوب ، ومستلذّ المأكـول والمشروب ، وإمـلاء البطون من المطبوخات والحلويّات ، وإتيان النسـاء عند هيجـان الشهوة . وهـذا من أفسد الظنون بل من آكد الجنون ، وألأم الأُمور ، كما قيل :

إنّـي رأيـت مـن الـمـكـارم حـظّكـم ... أن تـلبسـوا خـزّ الـثيـاب وتـشبعـوا
فـإذا تـذكّـرت الـمـكـارم مـرّة ... فـي مـجلـس أنـتـم بـهـا فـتـقـنّـعـوا

وقـال آخـر :

تـظنّـون أنّ الـفـخـر أنّ ثـيـابـكـم ... يـلوح عليـهـا حسنهـا وبـصيصهـا
ولـيس الـعـلى درّاعـةٌ ورداؤهـا ... ولا جـبّـة مـوشيّـة وقـمـيـصـهـا
فهـلّا كمـا استنّ الـثـواني إذ جـرت ... عـلى عـادة أثـوابـه وخـروصـهـا
يـروح على الإخـوان غـالي ثيـابـه ... ويصبـح متـروكـاً عليـه رخيصـهـا

وقال الحطيئة في هجاء زبرقان بن بدر :

---

(١) سوس له أمراً : زينه . ولا يناسبه المقام .
(٢) التقني : إدخار الفضل من المال . والإقلال : الفقر والحاجة .
(٣) الإبلال هنا : البرء من المرض .
(٤) الماجن هنا : قليل الحياء .

دع المكارم لا ترحل لبغيتها واقعد فإنّك أنت الطاعم الكاسي[1]

فثبت بما ذكرنا أنّ السعادة الحقيقيّة هي بالجملة التنزّه عن ملاحظة هذه الخسائس[2] ، ومعانقة هذه النقائص .

ثمّ اعلم أنّ كمال النفس وصولها إلى دار كرامته ، ومستقرّ رحمته في دار ثوابه وجزائه ، مع النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أُولئك رفيقاً . ومعلوم أنّ من انتهى بنفسه من أمره إلى هذا الحدّ ، وبلغ بنفسه هذا المبلغ ، ووقف من عمله على هذا الغرض ، تراءت له الدنيا في أوحش صورة ، ونعيمها في أقبح هيئة ، ونظر إلى أهلها بعين الرحمة والإشفاق ، وإلى زخارفها نظر الإزدراء[3] والإطراح ، كما ينظر الرجل العاقل منّا إلى صبيان يتنافسون على خشبة ، أو كلاب يتهارشون على جيفة .

قال محمّد بن الأشعث : إذا بكيت فأتبع بكاءك البكاء على عدم الصدق في البكاء ، فلعلّ بكاءك النافع هو البكاء على البكاء .

وقال أبو عثمان المغربيّ : من أسّس بنيانه على التقوى والورع والمحاسبة جاءت أذكاره صافية وأفعاله خالصة .

وقال أبو سليمان الدارانيّ : طوبى لمن صحّت له خطوة واحدة لا يريد بها إلاّ الله .

وكان معروف الكرخيّ يقول : يا نفس ! أخلصي وتخلّصي .

وقال بشر بن الحارث : إنّ الله يحاسب عباده على صفاء الضمائر ، ونقاء السرائر .

وقال الشبليّ : من أجاب عنه بالعبادة فقد ألحد في أسمائه ، ومن أومأ

---

(١) قيل : إن هذا أهجى بيت في العرب . وقد ذكرنا ترجمة الحطيئة والزبرقان وسبب وقوع الهجاء بينهما في ما علقناه على شرح شواهد مجمع البيان ، والمقام لا يناسب نقلها .

(٢) جمع الخسيسة : الدنيئة ، الناقصة الوزن أو القدر .

(٣) ازدراه : احتقره . وهو من زرى لا من زرأ .

إليه بالإشارة فقد أشرك في دعائه ، ومن نطق فيه عن نفسه فهو غافل ، ومن سكت عنه فهو جاهل ، ومن أوهم أنّه واصل فليس له حاصل ، ومن ظنّ أنه قريب فهو بعيد شارد، ومن تواجد فهو عليم فاقد . وكلّ ما ميّزتموه بأوهامكم وأدركتموه بعقولكم فهو مصروف مردود إليكم محدث مصنوع مثلكم .

وقال مرّة أُخرى : ما شمّ روائح التوحيد من تصوّر عنده التوحيد ، وشاهد المعاني وأثبت الأساميّ .

وقال أحمد بن عيسى الخرّاز : أوّل التحقيق في هذه المقامات فناء ذكر الأشياء عن القلب ، وانفراده بالربّ ، ورفض محبّة الأشياء عن الضمير ، فلا يلتفت إليها ، ولا يلتذّ بها ، ولا يرادها بذواتها، بل بمراد الله منها .

وقال أبو بكر الكنانيّ لأصحاب المرقّعات : إخواني ! لئن كان لباسكم هذا موافقاً لسرائركم لقد أحببتم أن تطّلع الناس عليها ، وإن كان مخالفاً لقد هلكتم وربّ الكعبة .

وقال : لبس الصوف حانوت ، والكلام في الزهد حرفة ، وصحبة القوافل تعرّض ، وهذه كلّها علاقات ومعارضات .

وكان السريّ يذمّ الجلوس في المسجد الجامع ويقول : جعلوا الجوامع حوانيت ليست لها أبواب .

وعن الشبليّ رقّع قلبك ولا ترقع لبستك .

وقال مرّة أُخرى : أهل المعرفة ثلاثة : قوم قالوا : أنا ، وقوم قالوا : هو ، وقوم خرسوا فلم يقدروا أن يقولوا شيئاً ، وهم أفضل الثلاثة .

وقال : احذر أماكن الاتّصال فإنّها خدع كلّها ، وقِف حيث وقف العبوديّة تسلم ثمّ أنشد :

وكذّبت طرفي فيك والطرف صادق ... وأسمعت أُذني فيك ما لم تسمّع
ولم أسكن الأرض الّتي تسكنينها ... لكيلا تقولي أنّني بك مولع

وقال إبراهيم بن أدهم : ترك الدنيا هو علوّ الهمم عمّا تنافست فيه الأُمم ،

مخافة أن تزلّ به القدم ، والزهد فيما أحلّ الله لا فيما حرّم .

روي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال للأنصار : «إنّكم لتقلّون عند الطمع وتكثرون عند الفزع» .

وأنشد عليّ عليه السلام في طلحة بن عبد الله :

فتى كان يدنيه الغنى من صديقه ... إذا ما هو استغنى ويبعده الفقر

وقال آخر :

وجدّك ! إن أيسرت خيّمت عندنا ... مقيماً وإن أسرعت زدت لماما
فما أنت إلاّ البدر إن قلّ ضوؤه ... أغبّ ، وإن زاد الضياء أقاما

قال أبو الحسن الثوريّ : نعت الفقير السكون عند العدم ، والبذل والإيثار عند الوجود .

وقال ذو النون : نعت الزاهد أن يعترف بذنبه ، ويحسّن ذنب غيره ، ويجود بما لديه ويزهد فيما عند غيره ، ويكفّ أذاه ، ويحمل الأذى من غيره ، والفتى يعطي قبل السؤال : فكيف يبخل بعد السؤال ؟ ويعذر قبل الاعتذار ، فكيف يحقد بعد الاعتذار ؟ .

قال السريّ : خمس من رسوم المقرّبين ؟ الرضا عن الله فيما تحبّ النفوس من الحقّ وتكره ، والحبّ لله بالتحبّب إليه فيما يحبّ ، والحيا من الله ، والأنس بالله ، والوحشة من كلّ شيء سوى الله .

الفصل الثامن

في آداب النفس(١)

قال سهل : أوّل ما يؤدّب به المبتدي التبرّي من الحركات المذمومة ، ثمّ التنقّل إلى الحركات المحمودة ، ثمّ التفرّد لأمر الله ، ثمَّ التوقّف ثمّ الرّشاد ، ثمّ الثبات ، ثمّ القرب ، ثمّ المناجاة ، ثمّ المصافاة ، ثمّ الموالاة . ولا يستقرّ هذا بقلبه حتّى يرجع إلى إيمانه ، فيكون العلم والقدرة زاده ، والرضا والتسليم مراده ، والتفويض والتوكّل حاله ، ثمّ يمنّ الله عليه بعد هذا بالمعرفة ، فيكون مقامه عند الله مقام المتبرّين من الحول والقوّة ، وهذا مقام حملة العرش ، وليس بعده مقام .

وسُئِل أبو حفص عن الأدب مع الله فقال : القيام بأوامره على الإخلاص ، وصحّة المعاملة معه على الظاهر والباطن مع الخوف ، والصحبة مع الخلق بالرفق والحلم والسخاء والشفقة ، والأخذ بالفضل ، وصلة القاطع ، والإحسان إلى المسيء ، وتعظيم الجميع وإن ينأ عنه القلب ، وازدرته العين ، فإنّ كلّ

---

(١) وانظر في الأدب ما جمعه العلامة القاضي الطباطبائي في آخر الجزء السادس من تفسيره الكبير الميزان من أدب الله وأدب أنبيائه لا سيما نبينا صلى الله عليه وآله وسلم ، فإن فيه غنى وكفاية لمن أراد أن يتأدب . وفي الأدب أشعار كثيرة نكتفي ببعض ما قاله أمير المؤمنين عليه السلام :

كن ابن من شئت واكتسب أدباً ... يغنك محموده عن النسب
فليس يغني الحسيب نسبته ... بلا لسان ولا له أدب
إن الفتى من يقول : ها أنا ذا ... ليس الفتى من يقول : كان أبي

أحد من المسلمين كائناً من كان لا يخلو من فضل الله ، ولعلّه ممّن يطيع الله .

وقال : كن لربّك عبداً ، ولإخوانك خادماً . واعلم أنّه لا أحد من المسلمين إلاّ وله مع الله سرّ ، فاحفظ حرمة ذلك السرّ .

وقال محمّد بن أبي الورد : آفة الخلق في حرفين : اشتغال بنافلة وتضييع فرض وعمل جوارح بلا مواطأة قلب .

وقيل : إذا غلبك النوم فانو بذلك راحة الخلق عن أذاك ، وعزل النفس عن هواها ، وتخفيف المؤونة على الملكين ، والدخول في العبوديّة ؛ فإنّ النائم لا يدبّر من أمره شيئاً قد ودّع الدنيا والنفس والخلق .

وكان الدقّاق يقول : من أساء الأدب على البساط ردّ إلى الباب ، ومن أساء الأدب على الباب ردّ إلى سياسة الدّواب .

وسُئِل ابن عطا : ما الأدب ؟ فقال : الوقوف على المستحسنات ثمّ أنشد :

إذا نطقت جاءت بكلّ ملاحة وإن سكتت جاءت بكلّ جميل

وبالجملة : الناس في الأدب على أربع طبقات والأدب في نفسه على أربع مراتب .

فأمّا طبقات الناس في الأدب فمنهم أهل الدنيا أكثر آدابهم في الفصاحة والبلاغة والأسمار[1] والأشعار والخطّ والحركة باليد خاصّة ، وبالبدن جملة . وأهل الدين أكثر آدابهم التفقّه في أحكام الشرع ، والتحلّي بالعبادة وأركانها وشرائطها ، والانتهاء في المعاملات إلى مأخذ الشرع ، توفّراً على المباحات وتصوّناً عن المحظورات .

وأهل الإرادة أكثر آدابهم في رياضة النفوس وتأديب الجوارح وحفظ الحدود وترك الشهوات .

---

(١) جمع السمر ـ بالتحريك ـ وهو المسامر ، الذي يحدّث ليلاً .

وأهل المعرفة أكثر آدابهم في طهارة القلوب وحفظ الوقت ومراعاة الأسرار وقلّة التعريج على النفس وخواطرها ، وشدّة التحفّظ في مقامات القربة ومواقعها .

وأمّا مراتب الأدب الأربع فهي أن يحافظ في المعاملات بحيث لا يعيب عليه الكبراء، ولا يأخذ من الدنيا ما يعيب عليه الزهّاد ، ولا يقع من إيثار الأمور ما يعيب عليه الحكماء ، وتكون الصلاة في مراعاتها بحيث لا يعيب عليه الحفظة ؛ فإنّ الصّلاة مناجاة الربّ فلا ينظر سرّه إلاّ إلى مولاه ، ولا يطلب من الدارين إلاَّ رضاه ، فهذا في معرفة الأدب .

فأمّا مجاري أحوال القوم في هذا المضمار وارتكاضهم في هذا الميدان فمن آدابهم الطهارة ، وأن يكون دهرهم عليها سفراً وحضراً ، ولا يدرون متى يأتيهم الموت ، فيفارقون الدنيا على الطهارة ، وربّما جدّدوا الوضوء لكلّ صلاة من غير أن يتخلّل وضوءهم حدثٌ ، والقيام إلى الصلاة عمل والكون على الوضوء سنّة مؤكّدة ، وقد ورد في بعض الأحاديث أنّ رجلاً شكا من ضيق المعاش فأُمر بالمداومة على الوضوء ، فرزق رزقاً واسعاً .

ومن آدابهم في الصَّلاة تأهّبهم لها قبل وقتها ، حتّى لا يفوتهم الوقت الأوّل . ثمّ منهم من يتعرّف الأوقات بالعلامة الدالّة عليها في الجوّ ، ومن مقدار ظل الزّوال في النهار كلّ وقت وبكلّ ناحية . معتبراً ذلك بمقدّمة كم يزيد وكم ينقص ، ومن النجوم ثوابتها وسيّاراتها . ومنهم من يتعرّف ذلك بأوراده من ليله ونهاره على ما اعتادها في الأوقات والأيّام على اختلاف الفصول من الأعوام ويجتهدون في مصاحبة النيّة التكبير فلا تسبقه ولا يسبقها .

وأكثر سعي[1]] العارفين في أعمال الصلاة هو في الإخلاص بحضور القلب عند كلّ عمل فلا يقول الإنسان «الله أكبر» وفي قلبه شيء أكبر من معبوده . ولا يقول : «وجّهت» إلاّ وقلبه متوجّه إلى الله . ولا يقول «الحمد لله» إلاّ وقلبه منعّم بشكر نعمائه . ولا يقول «إيّاك نعبد وإيّاك نستعين» إلاّ وهو متبرّىء

(١) هنا ينتهي ما اختص به النسخة (ر) .

من حوله وحول كلّ أحد إلاّ ممّن له الخلق والأمر ، كذلك يستشعر الخشوع في كلّ ما يفعله ويتفهّم معاني ما يقوله ويعمله إلى أن ينتهي إلى التشهّد فيكون في نهاية الإقبال .

وقد سُئِل أبو سعيد الخرّاز : كيف الدخول في الصَّلاة ؟ فقال : هو أن تقبل على الله كإقبالك عليه يوم القيامة ووقوفك بين يديه للمحاسبة ، فإنّه مقبل عليك ومناج لك فاعلم بين يدي من أنت .

وقال : إذا رفعت يدك في التكبير فلا يكون في قلبك إلاّ كبرياؤه حتّى تنسى الدنيا والآخرة في كبرياء الله ، ومعناه أنّه إذا كان في قلب العبد شيء غير الله لم يكن صادقاً في قوله «الله أكبر» .

ثمّ أدب التلاوة أن يشاهد بسمع قلبه كأنّه سمع من الله ، أو كأنّه يقرأ على الله ويكون معه الخشية والهيبة ما يكاد أن يذوب من غير أن يقول ويفعل .

وكان سهل ضعيف الحركة ، فلم يكن يبرح الأرض ، وكان لا يكاد يقوم من مكانه حتّى إذا دخل وقت الصَّلاة تردّ إليه قوّته فيقوم في المحراب مثل الوتد فإذا فرغ من صلاته رجع إلى حال ضعفه .

وأما آدابهم في الزكاة فما ينبغي لهم أن تفرض عليهم ، لأنّ الله قد زوى عن الزهّاد أموال الدنيا فلا يقتنون زخرفها .

وسئل الشبليّ : كم في مائتي شاهيّة ؟ فقال : خمسة منها في واجب الأمر ، وفيما يلزمنا كلّها[1] .

وكان محمّد بن منصور إذا أُعطي شيئاً منها لم يأخذه ولم يفرّقه على أصحابه من الفقراء ويقول : شيء لم أرضه لنفسي كيف أرضاه لغيري[2] ؟ وإذا حمل إليه ولم يعلم أنّه زكاة وصدقة قبلها .

ورأيت في رقعة كتبها رجل غنيّ إلى فقير من الزهّاد : يا أخي ! قد أنفذت

---

(١) بهامش الأصل : هذا كلام لا يلتفت إليه .

(٢) وفي النسخة (ر) : لا أرضاه ، مكان «كيف أرضاه» .

إليـك شيئاً ليس من الـزكاة ولا من الصـدقة ولا لأحـد غير الله عليـك فيه منّـة ، فأسألك أن تستثيب الله في إدخالك على قلبي السرور بقبوله . انتهى .

فينبغي أن يتلطّف كـلّ مؤمن عند من يتصـدّق عليـه بـأنـواع التلطّف حتّى يقبلهـا الفقير من ذلـك الغنيّ ، لأنّ المحتاج لا يقبلهـا إلاّ عن فقر ، فيكـون قـد حمل زاداً ليوم يحتاجه .

كمـا روي عن زين العبّاد عليّ بن الحسين عليه السلام أنّـه كـان إذا وقف عليـه السائل قال له : مرحباً بمن يحمل زادي .

وروي أيضاً أنّه كان يعول عن محاويج أهل المدينة خمسمائـة بيت سرّاً لم يطّلع عليه أحـد إلاّ بعد وفـاته عليـه الصّلاة والسّـلام . فعرفـوا ذلك بقـرينتين : الأولى أنّه انقطع عنهم ما كان يـوصل إليهم بسبب مـوته ، والقـرينة الثـانية أنّهم رأوا على كتفه الشريف أثر ما كان يحمله على عاتقه يشبه ركبة البعير .

وكان أئمّتنا عليهم السلام يأمرون شيعتهم بصدقة السـرّ ، ويقولـون : إنّها تـطفىء غضب الـربّ[1] . فـالـواجب علينـا أن نقتـدي بـأفعـالهم وأقـوالهم صلوات الله عليهم .

وآدابهم في الصـوم[2] : صحّة مقـاصـدهم ، ومبـاينـة شهـواتهم ، وحفظ أطـرافهم وصفـاء مـطعمهم ، ورعـايـة قلبهم ، ودوام ذكـرهم ، وقلّة اهتمـامهم بالمضمون من رزقهم ، وترك ملاحـظتهم لصومهم ، واعتيـادهم الجوع من غيـر اكتراث في عامّة أوقاتهم حتّى في أيّام الصوم .

وحـدّث عن رويم[3] قـال : اجتـزت في الهـاجـرة الّتي تشـوي كـلّ شيء

---

(١) وفي نهـج البلاغـة ط مصر بشـرح عبده (١ : ٢٣٣) في خـطبة ذكـر عليه السلام فيها أفضـل ما توسل به المتوسلون إلى الله عز وجل : «وصدقة السر فإنها تكفر الخطيئة وصدقة العلانية فإنها تدفع ميتة السوء» .

(٢) وانظر جامع السعادات للنراقي (٣ : ٣٧٥ ـ ٣٧٧) .

(٣) بضم الـراء وفتح الـواو ـ مصغراً ـ ابن أحمـد بن زيد بن رويم ، صـوفي شهيـر ، من جلة مشائخ بغداد ، من كلامه «الصبر ترك الشكوى والرضا استلذاذ البلوى» الأعلام : ٣٢٩ .

ببعض سكك بغداد ، وعطشت فتقدّمت إلى باب دار فاستسقيت فإذا بجارية قد فتحت باب الدار وبيدها كوز جديد من الماء البارد ، فلمّا أردت أن أتناول من يدها قالت لي : صوفي يشرب بالنهار ؟ فاستحييت من نفسي وضربت بالكوز الأرض ، ونذرت أن لا أفطر أبداً[١] .

ومن آدابهم في الصوم أن لا يصوم واحد منهم في جماعتهم إلاّ بإذنهم لئلاّ يشغل قلوب أصحابه بفطوره وهم على غير معلوم ، وإنّما أرزاقهم من الغيب ، ثمّ إن صام واحد منهم من بين الجماعة [برضاهم][٢] وحضر الّذين لا يصومون بمطعوم فليس لهم أن ينتظروا وقت إفطار ذلك الواحد الصائم فربّما كان في الجماعة صاحب فاقة ، ولعلّ الله يفتح وقت إفطاره شيئاً آخر . والأحسن أن يصوم الفتيان بصوم الشيخ ويفطرون بإفطاره . وليس للصائم أيضاً أن يأخذ نفساً لنفسه يدّخره لوقت إفطاره لأنّه ضعف في حاله[٣] .

يحكى أنّ الشبليّ قال لرجل : يحسن أن يصوم الأبد ، فقال الرجل : كيف ؟ قال : تجعل ما بقي من عمرك يوماً وتصوم .

ولا بدّ في طريقتهم من ضمّ كفّ الجوارح إلى الكفّ عن المطاعم والمشارب ؛ فيحفظ اللّسان عن الغيبة ، والعين عن النظر بالريبة ، والقدم عن المشي إلى ما لا ينبغي ، ونحو ذلك إلى أن ينتهي الأمر إلى كفّ القلب عن الخواطر المزعجة والوساوس الملهية عن ذكر الله تعالىٰ .

ومن آدابهم في الحج[٤] أن لا يقعدوا عنه وهم عادمون للزاد والراحلة[٥] إلاّ أن يقعدهم فرض لازم أو مرض قادح[٦] وعامّتهم دائبون في قطع العلائق ومفارقة الأوطان ومهاجرة الإخوان ، فيحولون[٧] نحو بيت الله من غير نفقة ولا

(١ و٣) بهامش الأصل : هذا كلام لا يلتفت إليه .
(٢) زيادة من النسخة (ر) .
(٤) وانظر فيه جامع السعادات (٣ : ٣٨٠ ـ ٣٩٤) .
(٥) بهامش الأصل : هذا كلام لا يلتفت إليه .
(٦) أي مرض مضرّ لا يطاق معه السير .
(٧) في الأصلين : فيحوبون .

زاد ، ولا يسألون عن الطريق ، ولا يعرّجون على الرفيق ، لا يقضون من الحجّ وطرهم ، ولا يقطعون عن تلك المعاهد أثرهم .

سلام على تلك المعاهد إنّها شريعة وردي أو مهبّ شمالي

ومن عاداتهم إذا دخلوا البادية لا يكادون يقصرون الصَّلاة[1] ولا يتركون شيئاً من أورادهم في الحضر ، إذ ليس لأسفارهم مدّة معلومة ، والحاضرة والبادية عندهم واحدة .

فكأنهم خرجوا عن حدّ التكاليف الشرعيّة بسلوكهم هذا الطريق بغير زاد وراحلة ، وعدم تقصيرهم في الصَّلاة هو تمام التقصير . اللَّهُمَّ إلَّا أن يكون سفرهم أكثر من حضرهم فيجب عليهم الإتمام وضابطه أن لا يقيم المسافر في بلدة عشرة أيّام ، فإذا أقام عشرة ثمّ سافر يجب عليه التقصير ، وإذا لم يقم وكان دائم السفر أتمَّ الصَّلاة .

وكذلك لا يمشون بالأميال والمراحل والأعلام والمنازل ، إذا أقامتهم الحقيقة أقاموا وإذا سارت بهم ساروا ، وإذا نزلت نزلوا . وإذا بلغوا الميقات غسلوا رؤوسهم بالماء وقلوبهم بالتوبة . وإذا نزعوا ثيابهم وتجرّدوا عن ملابسهم نزعوا عن أسرارهم الغلّ والحسد ، وعن قلوبهم الهوى ومحبّة الدنيا ، ولا يعودون إلى ما خرجوا عن ذلك . وبعد أن قالوا : «لبّيك اللَّهُمَّ لبّيك !» لم يجيبوا داعي النفس ومنادي الهوى وإذا نظروا إلى البيت بأعين رؤوسهم ، فمن الآداب أن ينظروا إلى من دعاهم إلى البيت بأعين قلوبهم ، وإذا طافوا حوله بأبدانهم تذكّروا قول الله تعالىٰ ﴿**وترى الملائكة حافّين من حول العرش**﴾[2] فكأنّهم ينظرون إلى ذلك بعيونهم ، وإذا بلغوا المقام علموا أنّه مقام عبد وفى الله بعهده ، وندب الأوّلين والآخرين إلى متابعة قدمه ، فحرصوا على الوفاء بعهده وإذا استلموا[3] الحجر علموا أنّ الحجر ملك يشهد لمن حجّ البيت. وإذا.

---

(١) بهامش الأصل : هذا كلام لا يلتفت إليه .

(٢) سورة الزمر ؛ الآية : ٧٥ .

(٣) في الأصلين : استسلموا .

صعـدوا الصفا فمن الأدب أن لا يعتـرض كدورة بعـد الصفا . وإذا هَـرولـوا بين الصفا والمروة فمن الأدب أن يحيد[1] المفرّ عن نفـوسهم وأهوائهم . وإذا وافـوا منى فمن الأدب أن يتأهّبوا للِّقـاء ، فعسى أن يظفروا بالمُنى . وإذا وافوا عرفـات فمن الأدب أن يتعرّفوا إلى الواحد المعروف ولا ينصرفوا عن أمره بعد الوقوف .

وإذا دفعـوا إلى المـزدلفـة فمن الأدب أن يجعلوا الـدنيـا والآخـرة وراء ظهـورهم . وإذا رموا بـالجمار رمـوا معهـا بـالإرادات والشهـوات ، وإذا حلقـوا رؤوسهم حلقوا عن باطنهم حبّ الثناء ، وعن ظاهرهم إرادة الريـاء . وإذا ذبحوا بدأوا بذبح أنفسهم عن هواهـا . وإذا رجعوا إلى طـواف الزيـارة وتعلّقوا بـأستار الكعبـة من الأدب أن يلزمـوا بـابـه ، ويفتـرشـوا جنـابـه ويتبرّأوا من الأسبـاب ، ويعرضوا عن سائر الأبواب .

ومن آدابهم في قراءة القرآن[2] أن يجلسوا لها على طهارة ساكنين مطرقين مستقبلين القبلة غيـر متّكئين ولا متـربّعين ، فيقرأونـه كـذلـك بتـرتيـل ، بغيـر هذرمة[3] مستشعرين أنّهم قارئو كتابه وكلامه ومطالعو جمال علمه وحكمته .

ومن كـان منهم ذا علم ومعرفـة بالقـرآن فلا يقـرأه إلاّ عن تدبّـر لمعانيـه ، وتردّد في رياض فوائده ، وما صدر من قراءته عن غفلة فـلا يعتبر بـه من عمله ، وربّما يعيده موقناً أنّ تـردّد آية واحـدة وتدبّـرها خيـر له من ختمـات خاليـات عن التدبّر ، وكـان بعض العارفين يقـول : لي في كلّ جمعـة ختمة ، وفي كـلّ شهر ختمة ، وفي كلّ سنة ختمة ، ولي ختمة منذ ثلاثين سنة فمـا فرغت عنهـا بعد . وذلك بسبب درجات التدبّر فبذلك تجتنى ثمـرات المعرفـة على اختلاف ألـوانها وتشابهها في الحسن والبهاء من جميع أوصافها ولا أن يكـون ذلك مقصـوراً على اقتبـاس الأنوار دون الأحـوال ، حتّى يكون بحسب كـلّ منهم حال عنـد كلّ علم ووصف .

---

(١) حاد عن الطريق : مال عنه وعدل .

(٢) وانظر فيه أُصول الكافي (٢ : ٥٩٦ ـ ٦٢٧) وجامع السعادات (٣ : ٣٦٤ ـ ٣٧٤) .

(٣) الهذرمة : السرعة في المشي .

ومن آدابهم في سائر أحوالهم ما نورده على سبيل الحكاية عنهم :

قال بعضهم : لا يكمل الرجل حتّى يساوي باطنه ظاهره في النظافة . وحتّى يستوي في قلبه المنع والعطاء والعزّ والذلّ .

وقال إبراهيم بن فاتك : نعت الفقير السكوت عند العدم ، والبذل والإيثار عن الوجود .

وقيل لمعروف الكرخيّ[1] في موته : أوص ، قال : تصدّقوا بقميصي فإنّي أُريد أن أخرج من الدنيا عرياناً كما دخلتها .

وقال أبو تراب النخشبيّ : الفقير قوته ما وجد ، ولباسه ما ستر ، ومسكنه حيث نزل .

وقال يحيى بن معاذ : الورع ورعان : ورع الظاهر فلا يتحرّك إلّا لله ، وورع الباطن فلا يدخل قلبه شيء سوى الله .

وقال أبو يزيد : قمت ليلة أُصلّي فجلست ومددت رجلي ، فسمعت هاتفاً : من يجالس الكبراء ينبغي أن يجالسهم بحسن الأدب .

وقال محمّد بن حامد : حسن الأدب مع الخلق أن يعذرهم فيما يجري عليهم من القضاء ولا يعيّرهم إلّا في مخالفة فريضة أو سنّة .

وقال محمّد بن الفضل[2] : من استعمل آداب الظاهر تأدّب بظاهره ظاهر أصحابه ، ومن استعمل أدب الباطن وقعت له الهيبة في القلوب .

---

(١) أبو محفوظ ، معروف بن فيروز الكرخي أحد أعلام الزهاد والمتصوفين كان من موالي الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام ، وكان أبواه نصرانيين ، ولد في كرخ بغداد ونشأ وتوفي بها سنة ٢٠٠ هـ اشتهر بالصلاح وقصده الناس للتبرك به حتى كان أحمد بن حنبل في جملة من يختلف إليه .

انظر الوفيات (٤ : ٣١٩ ، برقم ٧٠٠) وكلامه هذا فيه .

(٢) محمد بن الفضل بن العباس البلخي ، صوفي شهير من أجلة مشائخ خراسان ، أصله من بلخ وأخرج منها فدخل سمرقند ومات بها سنة ٣١٩ . الأعلام : ٩٦٤ .

وقال الفضيل بن عياض : إنّي لأعصي الله فأعـرف ذلك في خلق خـادمي وحماري .

وصحبه أبو عليّ الرازيّ ثلاثين سنة فما رآه ضاحكاً ولا باسماً إلّا يوم مات ابنه عليٌّ فقلت (كذا) له في ذلك ، فقال : إنّ الله أحبّ أمراً فأحببت ذلك .

وجمـع السريّ آداب الفقراء في كلمة فقال : أن لا يسأل من أحد شيئاً ولا يكون معه شيء يعطي أحداً .

وقال سهل : الاشتغـال بوقت مـاض يضيع وقت ثـان . وقال : وقتـك أعزّ الأشياء ، اشغله بأعزّ الأشياء .

وقـال سفيان : حسـرة أُمور قـد مضت وتدبيـر أُمور مـا أتت ، ذهبا ببـركـة عمرك .

وقال محمّد بن أبي الورد : آفة الخلق في حرفين : اشتغال بنـافلة وتضييع فرض ، وعمل جوارح بلا مواطأة قلب .

وقال سهل بن عبد الله : من أخلاق الصـالحين أن يحلفوا بـالله لا صادقين ولا كـاذبين ولا يغتابـون ولا يغتاب عنـدهم ، ولا يشبعون بـطونهم ولا يمزحـون أصلاً .

وقيـل : ارجع عنـد حمد النـاس وذمّهم لك إلى شهـادة الله عليك وعلمـه بك ، وإذا أردت النهي والتحذير فاذكـر الصفة لا المـوصوف ، تسلم من الغيبـة والوحشة ، والعلم كثير والعمر قصير ، فعليك من العلم بمـا لا يصلح العمل إلّا به ولا بدّ لك من مكان تأوي إليه ، وسبب لمعـادك ومعاشـك ، ورفيق يؤنسك ، وعلم يدلّك ؛ فاطلب من الموضع السلامة ، ومن الرفيق المؤانسة ، ومن السبب حسن العاقبة .

وقال أبو الحسن الخوارزميّ : إنّما سمّوا أبدالاً لأنّهم أبـدلوا من كـلّ خلق دنيء بخُلق سنيّ ، وكلّ حال يباعد عن الله بحال يوصل إلى الله .

وقال الحسين بن منصور[1] من أراد أن يذوق شيئاً من هـذه الأحوال فليكن كما كان في بطن أمّه مدبَّراً غير مدبِّر ، مرزوقاً من حيث لا يعلم ، أو يكون كما يكون في القيامة .

وقال : من الأدب أن يكون مراد العبد مراد الله فيه ، فلا يقول فيما يقول : «أنا» و «نحن» و «لي» فإنّه إن قال العبد : «أنا» قال الله : تعست بل أنا ، وقال العبد : لا بل أنت يا مولاي ، قال المولى : بل أنت يا عبدي[2] .

وقال السريّ من أطاع من فوقه أطاعه من دونه ، ومن عجز عن أدب نفسه كان عن أدب غيره أعجز . وقال : خير الأدب الورع ، وخير الورع حفظ اللسان عن المدح والذمّ ، وقال : اتّباع الشهوات مذلّة في الدنيا ، وندامة في الآخرة ، وعمىً في القلب ، وحجاب العبد عن الله . وقال : من النذالة أن يأكل الرجل بدينه .

وذكر بعضهم آداب التكلّم فقال : أدب الكلام أن يكون حديثك مع الناس إمّا تنفيساً عن ملهوف أو تفريحاً لمحزون ، أو تذكيراً لغافل ، أو تعليماً لجاهل .

وقالوا في أدب العلم : أن يزيّن علمه بنفسه لا نفسه بعلمه، ويعلم أنّ قلبه لا يسعه العلوم فيودع فيها ما يصلح أن يكون زاده إلى ربّه ، وما يدلّه على القيام بأوامره، وأنّ أخلاقه لا تسع استعمالها مع الخلق فيستعمل خواصّ أخلاقه مع من يوافقه ويعاشره في طريقه ، ويبذل للباقين عشرته وطلاقته ويستعمل الورع بشرائطه وهو أن يكون قيامه إلى العمل بلا فتنة ، وزهده بلا رغبة ، ويقينه بلا شكّ وتيقّظه بلا غفلة ، حليماً حمولاً إن جهل عليه جاهل تجافى عنه ، وإن ظلمه لم يظلمه . وإن كُذب عليه لم يغضب ، وإن مُدح لم يفرح . يعطي أخاه النافلة ، ولا يسأله الفريضة . ويوجب على نفسه التفضّل لمن يمنعه الإنصاف ولا يأسى على شيء فاته ، فإنّ ما بين طرفي الفناء فانٍ «وكلّ الّذي فوق التراب تراب» ويلزم نفسه خدمة من أطاع ربّه بكلّ جهده ، ويفوّض أمره كلّه إلى مدبّره

---

(١) هو الحلاج الملحد ، ولعلنا نترجم له في موضع آخر .
(٢) بهامش الأصل : هذا كلام لا يلتفت إليه .

ويحفظ أوقاته وأحواله وأنفاسه ، فلا يضيّع منها شيئاً ، وعلى كلّ حال يستأنس بربّه ، ويستوحش من الخلق ، ويراعي ظاهره ويراقب باطنه ، ويحفظ لسانه . وينظر في الحقّ بعين وامقة ، ويسمع من العِبَر بأُذن عاشقة ، ويتلقّى الخير بنفس قابلة ، وطبيعة جاذبة مائلة . يكون في الدنيا كالغريب الّذي لا يجزع من ذلّها ، ولا يشارك أهلها في عزّها . للناس حال وله حال أُخرى ، قد أهمّته نفسه ، وعمل لما يبقى له ، فالناس منه في عافية ، ونفسه منه في شغل[1] .

وبالجملة لا يصحّ أدب إلّا بالتأديب من إمام يدلّه على عوراته ، ويوقفه على عثراته ، فإنّ من قتل نفسه في المجاهدة وأفنى أوقاته في الزهادة يكون مصحوب نفسه ، لا يعرف عيب ما فيه إلّا أن يدلّه عليه من سلك المقامات ونازل الأحوال وأصابته بركات المشائخ وأنوار صحبة الأخيار ، فإن أخطأ مثل هذا السالك المرشد الهادي المهتدي رجع إلى عالم ناصح عامل بعلمه ، معرض عن دنياه ، مقبل على أمر دينه ، وإصلاح حاله ، وتهذيب نفسه . فإن عدمه أيضاً رجع بالكلّيّة إلى ربّه ، فعساه أن يرحمه وينقذه . ولله سبحانه الحمد والمنّة ، ويتضرّع إليه كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «اللّهُمَّ فكما حسّنت خَلقي فحسّن خُلقي» .

(١) وانظر النهج بشرح عبده (١ : ٣٥٢) آخر الخطبة ١٧٤ .

الفصل التاسع

نذكر فيه نبذة من آداب السفر

الزهّاد منهم طائفة تميل إلى الإقامة إلاَّ سفراً لفرض حجّ الإسلام حتّى قال أبو يزيد لابن خضرويه ـ وكان دائم السفر والسياحة ـ : إلى كم تسيح كأنّك المسيح ؟ فقال : إنّ الماء إذا مكث أنتن ، فقال أبو يزيد : كن بحراً لا ينتن ولا يتغيّر .

ودادٌ كماء المزن لا يتكدّر   وعهد كعهد النجم لا يتغيّر

وكان بعضهم يقول : الإنتقال من صفة إلى صفة مترقّياً نحو أبعد الدرجات في الخيرات أولى من الانتقال من بقعة إلى بقعة ، وكم ترى من يسافر بنفسه في البقاع النائبة وقلّ ما يُرى من مسافر بروحه في الأحوال العالية .

جسمي معي غير أنّ الرّوح عندكم   فالجسم في غربة والروح في الوطن
فليعجب الناس منّي : إنّ لي بدناً   لا روح فيه ، ولي روح بلا بدن

وقال رجل للربيع بن برد : لهممت أن أشتري بالقرب منك داراً ليكثر لقائي إليك فقال : يا أخي إنّ مودّة يغيّرها قلّة اللقاء لمدخولة[1]، إنّما المودّة بالقلوب لا بالأبدان . وأنشد :

---

(١) ولكن في الحديث «زر غباً تزدد حباً» وقال الهذلي (شرح شواهد مجمع البيان ١ : ٣٠٩) :

إذا لم يكن بين الخليلين ردة   سوى ذكر شيء قد مضى درس الذكر

تـوهـمـنـيـك الـودّ حتّـى كـأنّـمـا أُنـاجيـك من قـربي وإن لم يكن قـربي

أمـا والّـذي لـو شـاء لم يخلق النـوى لئن غبت عن عيني لمـا غـبت عـن قلبـي

قـد تحقّقتـك في سـرّي فنـاجـاك لسـاني فـاجتمعنـا لمعـاني وافتـرقنـا لمعـاني

إن يكن غيّبـك التعـظيم عن لحظ العيـان فلقـد صيّـرك الـوجـد عن الأحشـاء داني

فـأمّا الّـذين يؤثرون السفـر فإنّمـا ذلك بعـد استيفائهم آداب الحضـور من المجاهدات فأرادوا أن يضيفوا إليها آداب السفر استصلاحاً لقلوبهم ، واستكشافاً لأحـوالهم ، واهتمـامـاً لأوصـافهم ، وريـاضـة لنفـوسهم حين أخـرجـوهـا عن المعلومـات ، وحملوها على نمـارقـة[1] المعهـودات . وأنّهم كيف يعيشـون بـلا عـلاقة ولا وسـاطة ، ولا سكن ولا وطن . وأنّ النفس ربّمـا أظهرت الإنقيـاد في الحضـر ، وأجابت في المصـر إلى صـدق المـورد والمصـدر ، فـإذا وقعت إلى اتّصال الأسفار خرجت عن معيار ذلك المعيار ، فتكـون للنفس أحوال تعـرف بها خبايا أُمورهم ، ومكامن صدورهم . ويكون ذلك من خبء الله الّذي يخرجه الله تعـالىٰ بمحبّتـه عبـاده كيف شـاء ومتى شـاء كمـا قـال ﴿**يخـرج الخبء في السماوات**﴾[2] .

وكان سعيد بن المسيّب يسـافر الأيّـام في طلب الحديث ، حـديث واحد، وبه كان يفسّر قوله تعالى ﴿**السائحون**﴾[3] أي المسافرون في طلب العلم ، وفيه جـاء الحـديث : «من خـرج من بيتـه في طلب العلم فهـو في سبيـل الله حتّى يرجع» .

وكان عبد الله المغربيّ يسافر أبداً مع أصحابه محرماً ، فكان إذا تحلّل من إحرامه أحرم ثانياً، ولم ير قطّ اتّسخ له ثوب أو طال له ظفر أو شعر وكان يجتـزي بأُصول النبـات وقيل لـه في طول هـذه الأسفار ، فقـال : أرد معاهـده لعلّي أجد شاهده ، وأستأنس بأثره وإن لم يغنني عن نظره . وأنشد :

---

(١) كان في الأصل «زمارقة» ولم نجده في اللغة . والنمرقة وسادة صغيرة يتكأ عليها .

(٢) سورة النمل ؛ الآية : ٢٥ .

(٣) سورة التوبة ؛ الآية : ١١٢ .

وقد زعموا أنّ المحبّ إذا دنا أفاق؛ فإنّ النأي يشفي من الوجد
بكلّ تداوينا فلم يشف ما بنا على ذاك قرب الدار خير من البعد

وكما أنّ بعض آيات الله في أنفس العباد كما قال : **﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾**[1] فبعض آياته في أقطار البلاد كما قال : **﴿وفي الأرض آيات للموقنين﴾**[2] وقد جاء في الحديث : «البلاد بلاد الله والخلق عباد الله فحيثما وجدت رزقاً قم واحمد الله» وتنعّم بنعمته وتردّد في آياته ، فمن جعلت آياته في نفسه وقف عليها ولم يعرّج على غيرها فأبصر وتبصّر ، ومن جعلت له الآيات في الآفاق تردّد في أقطار الأرض ذات الطُول والعرض ، فشرب ونقّب[3] وسرى وأسرى كما قال تعالىٰ : **﴿ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها﴾**[4] وقال : **﴿فسيروا في الأرض فانظروا﴾**[5] وقال : **﴿وإنّكم لتمرّون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون﴾**[6] وقال : **﴿وكأيّن من آية في السماوات والأرض يمرّون عليها﴾**[7] وقال : **﴿وهو الّذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها﴾**[8] أمر بالمشي في مناكب بساطه ، والرتوع في أكلأ أرزاقه .

وفي بعض الآثار أنّ الله يوكّل بالمسافر[ين] ملائكة ينظرون إلى مقاصدهم فيعطي كلّ واحد على نيّته ، فمن كان نيّته في طلب الآخرة وأهلها أُعطي من البصيرة والفطنة ، وفتح له من التذكرة والعبرة بقدر نيّته ، وجمع له همّه ، وكفاه بالقناعة والزهد ما همّه وأهمّه ، ودعت له الملائكة بالرحمة

---

(١) سورة الذاريات ؛ الآية : ٢١ .
(٢) سورة الذاريات ؛ الآية : ٢٠ .
(٣) بهامش الأصل : نقب أي أحاط بنواحي الأرض ، قال الشاعر :
لقد نقبت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالإياب
(٤ و٥) سورة النحل ؛ الآية : ٣٦ .
(٦) سورة الصافات ؛ الآية : ١٣٧ .
(٧) سورة يوسف ؛ الآية : ١٠٥ .
(٨) سورة الملك ؛ الآية : ١٥ .

والمغفرة وهذه النيّة تختلف باختلاف همّاتهم[1] .

فمنهم من همّته في سفره طلب العلم .

ومنهم من يسافر للقي الصالحين والالتقاء مع رجال الدين ، وخاصّة في سفر الحجّ فإنّه توجّه إلى الله ومهاجرة إلى بيت الله .

ومنهم من يخرج عن الأمصار بدينه ليفارق الناس والرسوم الدنياويّة والحظوظ النفسانيّة .

ومنهم من يريد الفرار من الإلف ، والصدود عن الحبّ ، ونسيان العهد على طول العهد .

ومنهم من يريد التوحّد الذاتيّ حتّى يقوى يقينه ويطمئنّ قلبه ، فيستوي عنده الأماكن والأقوام . قال الثوريّ : هذا زمان سوء لا يؤمن فيه على الخامل فكيف المشهورين ؟ هذا زمان رجل ينتقل من بلد إلى بلد كلّما عرف في موضع تحوّل إلى موضع .

ومنهم من يخرج لطلب الرخص إيثاراً للتقلّل وتقليل الهموم بالقوت ، كما يحكى أنّ داود الطائيّ خرج من الكوفة إلى البصرة لرخص الأسعار بها فأقام على سبعة عشر درهماً ورثها برهة من الزمان حتّى إذا انتهى منه أكله انقضى عند ذلك أجله .

وذكر أبو نعيم قال : رأيت الثوريّ وقد وضع جرابه[2] على ظهره ، فقلت : إلى أين يا أبا عبد الله ؟ ! فقال : بلغني عن قرية فيها رخص ، فأريد أن أقيم فيها فقلت : وتفعل هذا يا أبا عبد الله ؟ قال : نعم إذا بلغك عن قرية رخص فأقم بها فإنّه أسلم لدينك وأقلّ لهمّك .

ومنهم من يسافر إلى الثغور للجهاد والرباط .

ومنهم من يسافر لزيارة الأخيار من عباد الله . وفي الحديث أنّ رجلاً زار

---

(١) كذا في النسخة (ر) وفي الأصل الآخر «همامهم» والصحيح «هممهم» .

(٢) الجراب ـ بكسر الجيم ـ هنا : وعاء من جلد .

أخاً له في قرية أُخرى فأرصد الله له على مدرجته ملكاً فقال له : أين تريد ؟ فقال : أخ لي في هذه القرية ، فقال : أبينك وبينه رحم تصلها ؟ قال : لا ، قال : فله عليك نعمة تربّها ؟ قال : لا ، إلاّ أنّي أحببته في الله ، فقال : قال : إنّي رسول الله إليك يبشّرك بالجنّة ، ويخبرك بالمغفرة .

ومنهم من يقصد بسفره زيارة أحد المشاهد المشرّفة الّتي هي مدافن الأئمّة الأطهار عليهم السلام ، أو زيارة أحد المساجد الأربعة[1] مسجد الحرام ومسجد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وحائر الحسين ومسجد الكوفة . وربّما يريد أن يصلّي في جميعها في سنة واحدة فليستوجب على الله المغفرة .

فهذه موارد أسفارهم ، وهم في جميع ذلك مراعون لهممهم . حافظون لقلبهم . طريقهم فيه صدق التوكّل ، وزادهم خالص التقوى ، ورفيقهم الصبر على البلاء ، والرضا بالتصريف على ساق القضا . يتقلّبون من التوكّل في يد الوكيل كيف شاء ، فالتوكّل هو الرضا بأمر الوكيل ، والصبر هو التصرّف على إرادة الصبور ، والتسليم هو الرضا بحكم الحاكم كما قال عزّ من قائل : **﴿الّذين صبروا وعلى ربّهم يتوكّلون﴾**[2] وقال : **﴿إن الحكم إلاّ لله عليه توكّلت﴾**[3] .

وقال أبو محمّد الحريريّ : كمال الرجل في الغربة ليذلّ نفسه ، والصحبة ليتخلّق بأخلاق الرجال ، والفطنة ليميز .

وقال إبراهيم بن المولّد : السياحة بالنفس لآداب الظواهر علماً وشرعاً وخلقاً ، والسياحة بالقلب لآداب البواطن حالاً ووجداً وكشفاً وكان يقول : نفسك سائرة وقلبك طائر فكن مع أسرعهما وصولاً .

وقال ذو النون : سافرت سفرة فجئت بعلم يعلمه الخاصّ والعامّ ثمّ سافرت الثاني فجئت بعلم يعرفه الخاصّ وينكره العامّ ، ثمّ سافرت الثالثة فجئت

---

(١) وهي التي يخير المسافر فيها بين القصر والإتمام .
(٢) سورة النحل ؛ الآية : ٤٢ .
(٣) سورة يوسف ؛ الآية : ٦٧ .

بعلم ينكره العامّ والخاصّ وصرت به وحيداً شريداً طريداً .

وحيدٌ من الخلّان في كلّ بلدة ... إذا عظم المطلوب قلّ المساعد
متى يشتفي من لاعج الوجد في الحشا ... محبّ لها في قربها متباعد[1]

روى أبو القاسم الدمشقيّ قال : سمعت أبا عمرو الدمشقيّ يقول لرجل يوصيه في سفر يريده : يا أخي لا تصحب غير الله ، فإنّه يكفيك المهمّات ، ويشكرك على الحسنات ويستر عليك السيّئات ، ولا يفارقك في خطرة من الخطرات .

وقال أبو يعقوب السّوسيّ يحتاج المسافر إلى أربعة أشياء في سفره : علم يسوسه ، وخُلق يصونه ، وورع يحجزه ، وجدّ يحمله .

وقيل : راحة القلب بأربعة : دوام السّفر ، وصفاء المطعم ، ومباينة الأيّام ، وإسباغ الوضوء .

وروي أنّ رجلاً جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله إني أُريد سفراً ، فقال : «في حفظ الله وكنفه . زوّدك الله التقوى ، وغفر ذنبك ، ووجّهك للخير حيث كنت» فانظر إلى هذه الأربعة في هذا الدعاء الشريف الّتي فاقت على غيرها من الرباعيّات .

وقال رجل لرويم : إنّي أُريد سفراً ولكن منعني أنّه ليس عندي شيء ، فقال : لا يمنعنّك[2] العدم من سفرك واخرج لقصدك ، فإن لم يعطك ما لغيرك لم يمنعك ما لك .

وقال بعض الحكماء : التقلّب في الأمصار والتوطّن في المجامع والتصرّف في الصناعات واستماع فنون الأقوال ممّا يزيد الإنسان بصيرة وحكمة ، وتجربة ، ويقظة ومعرفة وعلماً . فقيل : ما البصيرة ؟ فأجاب : لحظ النفس الأُمور ،

---

(١) اللاعج : الهوى الشديد المحرق .
(٢) كذا في النسخة (ر) وفي الأصل «لا يمنعك» بدون نون التأكيد .

والحكمة بلوغ القاضية[1] في ذلك اللّحظ ، والتجربة كشف الغطاء عن الأمر ، والمعرفة تحصيل ما شاهد به الحسّ بنور الفعل ، والعلم كمال النفس .

وقيل : إنّما سمّي السفر سفراً لأنّه يسفر عن آيات الله .

وقيل : لأنّه يسفر عن أخلاق الرجال .

وممّا أنشدني بعض الأصحاب في السير والسفر :

ماذا يريني اللّيل من أهواله ... أنا ابن عمّ اللّيل وابن خاله
إذا دجى دخلت في سرباله ... لا كالّذي يفرق من خياله
يا ويح قلبي ! لا يزال يروعه ... ممّن يعزّ عليك وشك فراق
تتقاذف البلدان بي فكأنّني ... ولّيت أمر مساحة الآفاق
وطول مقام المرء في الحيّ مُخلِقٌ ... لديباجتيه ، فاغترب تتجدّد
ألم تر أنّ الشمس زيدت محبّة ... إلى الناس أن ليست عليهم بسرمد
ما للمعيل وللمعالي؟ إنّما ... يسعى إليهنّ الدؤوب الفارد
كالشمس في أفق السماء تجوبها ... وأبو البنات النعش فيها راكد[2]

الجمع والفرق له أربعة معان : أحدها أنّ الفرق ما نسب إليك والجمع ما سلب عنك . قال الأبهريّ : والجمع جمع المتفرّقات ، والفرق تفرقة المجموعات . فإذا جمعت قلت : الله ولا سواه ، وإذا فرّقت نظرت إلى الكون .

والثاني أنّ الفرق شهود أحوال العبد في العبادة والجمع ظهور ألطاف الربّ في العون والتوفيق فقوله تعالىٰ : ﴿**إيّاك نعبد**﴾ إشارة إلى الفرق ﴿**وإيّاك نستعين**﴾ إشارة إلى الجمع قال الجنيد : إذا نظرت إلى نفسك فرّقت ، وإذا نظرت إلى ربّك جمعت .

والثالث جمع الجمع وهو الاختطاف بشهود الحقّ عن شهود الخلق .

---

(١) كذا في الأصل وفسره بهامشه بالموت والقاطعة ، وأظن أن الصواب «القاصية» بالمهملة أي إلى نهاية اللحظ .

(٢) جاب البلاد يجوبها : قطعها .

قيل : الجمع عين اليقين ، والتفرقة علم اليقين ، وجمع الجمع حقّ اليقين . فمعنى علم اليقين أحكام الإسلام وما كان بشرط البرهان ، وعين اليقين آداب الإسلام وما كان بحكم البيان ، وحقّ اليقين ما كان بنعت العيان من حقائق الإيمان . فعلم اليقين يقع فيه باضطراب واختلاف ، وعين اليقين عن موافقة وسكون ، وحقّ اليقين عن فناء واستغراق . فإذا انفرد علم اليقين عن عين اليقين وقعت فيه الشبهات ، وإذ انضمّ إليه عين اليقين ظهرت البيّنات ، وإذا زانهما حقّ اليقين انتهى صاحبه إلى أعلى الدرجات .

وأمّا الرابع فهو الفرق الثاني عن الجمع الثالث ، وهو الردّ إلى شهود الحال بالثبات الأوّل عند أوقات أداءِ الفرائض رجوعاً لله بالله لا للعبد بالعبد . وأنشد الجنيد :

إن يكن غيّبك التعظيم عن لحظ عياني　　　فلقد صيّرك الوجد من الأحشاء داني

ومن ذلك الفناء والبقاء وهو على أربعة معان أيضاً :

أحدها : سقوط الأوصاف المذمومة وقيام الأوصاف المحمودة فلا يخلو العبد عن أحدهما بوجود الآخر فإنّه متى فني عن شهوته بقي بإخلاصه في عبوديّته .

والثاني : الغيبة عن الأغيار لا عيناً ولا أثراً فيقال فني عن الخلق وبقي بالحقّ .

والثالث : فناء بعض الأوصاف ببعضها ؛ قال الله تعالى[1] : **﴿فلمّا رأينه أكبرنه وقطعن أيديهنّ﴾** لم يجدن عند لقاء يوسف ألم قطع الأيدي وهو موجود ، ووجدن حالاً أخرى غير موجودة ، حتّى **﴿قلن ما هذا بشراً﴾** ولقد كان بشراً وقلن : **﴿إن هذا إلاّ ملك كريم﴾** ولم يكن ملكاً .

والرابع : فناء عن شهود فنائه عند استهلاكه في وجود بقاء الحقّ ، فيظهر ذلك البقاء الخفيّ ويفني ذلك الفناء الحقيقيّ فتزهر أنوار وتنطفىء نار .

---

(١) سورة يوسف ؛ الآية : ٢١ .

ويحصل يوم ذو أهاضيب ماطر　　ويخضرّ في يوم المسرّة عود [1]
ويحدث أمر ليس يقدر قدره　　وعيش جديد لا يزال جديد
سقى اللّه أيّاماً نعمنا بطيبها　　وصال وقرب دائم وشهود
سلام عليها لا سلام مودّع　　ولكن سلام لا يزال يزيد

ومن ذلك الغيبة والحضور كلاهما أيضاً على أربع مراتب :

غيبة عمّا يجري عن أحوال الخلق لوارد خوف أو رجاء من تذكّر ثواب أو عقاب كما يروى[2] أنّ عليّ بن الحسين عليه‌السلام كان في سجوده فوقع حريق في داره فلم ينصرف عن صلاته فسُئِل عن حاله فقال : «ألهتني النار الكبرى عن هذه النار» .

وغيبة عن تصوّر سلطان الحقيقة بكماله لعدم طاقته واحتماله ، كما يحكى [3] أنّ رجلاً وافى حيّاً من أحياء العرب فأضافه شابّ ، فبينا الشابّ في خدمته إذ غشي عليه فسأل الفقير عن حاله ، فقال : بنت عمّه قد علقها ، يسمع حديثه وجرس حركته فغشي عليه فمضى الضيف إلى باب الخيمة فقال : إنّ للغريب فيكم حرمة وذمّة ، وقد جئت إليكم مستشفعاً في أمر هذا الشابّ الهالك الحرص ، فقالت المرأة : أنت سليم القلب ، إنّه لا يطيق شهود غبار ذيلي فكيف يطيق صحبتي ؟ .

وغيبة عن دوام سلطان الحقيقة كما قال صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم[4] : «إنّه ليغان على قلبي حتّى أستغفر الله في اليوم سبعين مرّة» والغين الغيم ، والاستغفار طلب الستر والغفر الستر ومنه المغفرة والغفيرة ، فكأنه عليه‌السلام يطلب الستر والشدّ على القلب عند تجلّي سلطان الحقيقة بمقدار ما تؤوب إليه النفس فلا بقاء مع دوام التجلّي .

---

(١) الأهاضيب جمع الأُهضوبة ـ بضم الهمزة ـ : الدفعة من المطر .
(٢) رواها المحدث القمي في منتهى الآمال (٢ : ٨) عن عين الحياة .
(٣) الحكاية مضطربة العبارة والمقصود واضح .
(٤) رواه ابن الأثير في النهاية مادة (غين) والغزالي في الاحياء (٤ : ١٠) .

وأمّا الحضور فهو أيضاً على أربعة أوجه :

حضور القلب للربّ باستدامة الذكر ، والإقبال على الفكر ، والإعراض عن أمور الدنيا .

وحضور بالحقّ إذا غاب عن الخلق بالغيبة عن أغراض النفس ، كما يحكى أنّ ذا النون بعث واحداً من أصحابه إلى أبي يزيد لينقل إليه صفته فورد بسطام ودخل عليه فقال أبو يزيد : ما تريد ؟ قال : أريد أبا يزيد ، فقال : من أبو يزيد ؟ أين أبو يزيد ؟ أنا في طلب أبي يزيد . فخرج الرجل وقال : هذا مجنون ، فرجع إلى ذي النون فأخبره بما شهد فبكى وقال : ذهب أخي أبو يزيد في الذاهبين إلى الله .

وحضور القلب بنعت البيان غير محتاج إلى ناقل الدليل ، وتطلّب السبيل ، فيكون مبسوطاً بصفاته ، غير مربوط بآناته ، كما أنشد :

ليلي بوجهك مشرقٌ وظلامه في الناس ساري
والناس في سدف الظـ ـلام ونحن في ضوء النهار[1]

وحضور بمشاهدات الذات ، والغيبة عن جميع الصفات ، عند توالي أنوار التجلّي ؛ توالي بروق لا ينقطع آخرها عن أوّلها ، كما يطلع الصباح على المصباح فيصير المخطوف[2] مألوفاً والوميض[3] شهاباً .

فلمّا استبان الصبح أدرك ضؤوه بأنواره أنوار ضوء الكواكب
تجرّعهم كأساً لو ابتلي اللظى بتجريعه طارت كأسرع ذاهب[4]

---

(١) السدف ـ بفتحتين ـ الظلمة ، الضوء (ضد) .
(٢) المخطوف : الشيء الذي استلب بسرعة .
(٣) وميض البرق : لمعانه خفيفاً .
(٤) اللظى : النار أو لهبها .

الفصل العاشر

يشتمل على مواعظ

قال أبو ذرّ رحمه الله : قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فيما يروي عن ربّه عزّ وجلّ : «قل يا عبادي إنّي حرّمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرّماً فلا تظلموا .

يا عبادي ! كلّكم ضالّ إلاّ من هديته ، فاستهدوني أهدكم .

يا عبادي ! كلّكم جائع إلاّ من أطعمته فاستطعموني أُطعمكم .

يا عبادي ! كلّكم عارٍ إلاّ من كسوته فاستكسوني أكسكم .

يا عبادي ! إنّكم تخطؤون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعاً فاستغفروني أغفر لكم . لو أنّ أوّلكم وآخركم ، لو أن جنّكم وإنسكم كانوا على أتقى قلب واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً .

يا عبادي ! لو أنّ أوّلكم وآخركم جنّكم وإنسكم في صعيد واحد وسألني كلّ واحد منهم مسألة فأعطيته ما نقص ذلك ممّا عندي إلاّ كالمخيط إذا دخل في البحر .

يا عبادي ! إنّما هي أعمالكم أُحصيكم وأُوفيكم إيّاها يوم القيامة ، فمن وجد خيراً فليحمد الله ، ومن وجد غير ذلك فلا يلومنّ إلاّ نفسه» .

وعن حذيفة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال : كان رجل ممّن كان قبلكم يسيء الظنّ بعمله فقال لأهله : إذا أنا متّ خذوني فأحرقوني واذروني في البحر في يوم

صائف ففعلوا به ذلك ، فجمعه الله ثمّ قال له : ما حملك على الّذي صنعت ؟ قال : ما حملني إلاّ مخافتك ، فغفر له .

وعن إبراهيم بن الأشعث قال : سمعت فضيلاً يقول : الخوف أفضل من الرجاء ما دام صحيحاً فإذا نزل به الموت فالرجاء أفضل من الخوف . فذكرت ذلك لأبي عبيدة بن فضيل فقال : سمعت إبراهيم يقول : قال الفضيل : إذا كان في صحّته مسيئاً ساء ظنّه عند الموت ، ولم يعظم رجاؤه ، وإذا كان في صحّته محسناً عظم رجاؤه عند الموت وحسن ظنّه .

وقيل : إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم حين خرج إلى الطائف مرّ بقبر ، قال : «هذا قبر أبي رغال[1] قد دخل مكّة في بعض حوائجه فسلم بعد قومه مدّة طويلة ، فلمّا خرج من الحرم [أصابه ما][2] أصاب قومه من الهلاك» .

وروى هشام بن عروة عن أبيه عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال : «إنّ الشيطان يأتي أحدكم فيقول له : من خلق السماوات ؟ فيقول : الله ، فيقول : من خلق الأرض ؟ فيقول : الله ، فيقول : من خلق الله ؟ فإذا أحسّ أحدكم [من ذلك][3] شيئاً فليقل : آمنت بالله ورسوله» .

وقال أبو سعيد المقيري ! مفتاح المحبّة لله المنّة من الله ، ومفتاح الجهد

---

(١) هذا هو الصحيح : وفي الأصلين : «ابن أبي رعال» وهو من ثقيف طائف ، توجه إليهم أبرهة ليخرب بيتهم اللات ـ وكانوا يعظمونه نحو تعظيم الكعبة ـ فقالوا له : أيها الملك إنما نحن عبيدك سامعون لك مطيعون ، ليس لك عندنا خلاف ، وليس بيتنا هذا البيت الذي تريد ، إنما تريد البيت الذي بمكة ، ونحن نبعث معك من يدلك عليه . فبعثوا معه أبا رغال يدله على الطريق إلى مكة ، فخرج أبرهة ومعه أبو رغال حتى أنزله المغمس ـ بتشديد الميم من باب التفعيل ، وهو موضع بطريق الطائف على ثلثي فرسخ من مكة ـ فلما أنزله به مات أبو رغال هناك ، فرجمت قبره العرب ، فهو القبر الذي يرجم الناس بالمغمس . أُنظر سيرة ابن هشام (١ : ٤٧ ـ ٤٨) وذكره ابن منظور في اللسان (رغل) وقال : اسمه زيد بن مخلف . وقيل فيه وفي سبب موته غير ذلك . وانظر معجم ما استعجم ومعجم ياقوت .

(٢) بين المعقوفين منا رعاية لقوله «فسلم بعد قومه» .

(٣) زيادة من النسخة (ر) .

في الأعمال التقصير في الآمال ، ومفتاح التوبة مجلس الموعظة ، ومفتاح السخاوة حبّ الضيافة ، ومفتاح السلامة كظم الغيظ ، ومفتاح الظفر الصبر ، ومفتاح الغنيمة القناعة ، ومفتاح الحكمة ترك الشهوة ، ومفتاح الفراغ قلّة المعرفة ، ومفتاح الراحة ترك الفضول ، ومفتاح التواضع تقريب الفقراء ، ومفتاح الملامة ترك المشورة ، ومفتاح الوقوع في الهلاك ترك العمل بالعلم ، ومفتاح البلاء ترك الدعاء .

وعن عمر بن ميمون قال : افتتحنا بفارس مدينةً فدلّلنا على مغارة وذكر لنا أنّ فيها أموالاً فدخلناها ومعنا من يقول بالفارسيّة ، فصرنا إلى بيت شبيه بالأزج[1] عليه صخرة عظيمة فقلّبناها فإذا فيها سريرٌ من الذهب عليه رجل وعند رأسه لوح فيه كتابة ، فقرئت لنا فإذا فيها :

يا أيّها العبد المملوك ! لا تتجبّر على خالقك ، ولا تتعدّ قدرك الّذي جعله الله لك . إنّ الموت غايتك ، وإن طال عمرك ، وإنّ الحساب أمامك وإنّك إلى مدّة معلومة متروك ، ثمّ تؤخذ بغتة أحبّ ما كانت الدنيا إليك فقدّم لنفسك خيراً تجده محضراً ، ولا تتزوّد من متاع الغرور إلّا ليوم فاقتك .

أيّها العبد المملوك ! اعتبرني فإنّ فيّ معتبراً وعليك من الله فيّ حجّة ، أنا بهرام بن بهرام ملك فارس ، من أغناهم بطشاً وأقساهم قلباً ، وأطولهم أملاً ، وأرغبهم في الدنيا لذّة ، وأحرصهم على حبّ الدنيا . دوّخت[2] البلاد ، وقتلت الملوك ، وهزّمت وذلّلت المقاول[3] ، وجمعت من الدنيا ما لم يجمعه أحد قبلي ، ثمّ لم أستطع أن افتدي به من الموت إذا نزل بي[4] .

وروي عن أمير المؤمنين عليّ عليه السلام أنّه قال : «يوجد عقل ابن آدم وعمره في حسابه ، فإذا بلغ من السنين عشراً استدار في المحافل كاستدارة عقد

---

(١) بيت يبنى طولاً ، ويقال له بالفارسية «أوستان» . (لسان العرب) .
(٢) دوخ البلاد : قهرها أي استولى على أهلها .
(٣) جمع المقول ـ بكسر الميم وفتح الواو ـ الملك من ملوك حمير .
(٤) في النسخة (ر) : إذ نزل بي .

العشـرة ، فإذا بلغ العشـرين توسّط المحـافـل كتـوسّط الإبهـام بين المسبّحـة[1] والـوسـطى ، فـإذا بلغ الثـلاثين انقفلت[2] لحيتـه كـانقفـال الأشيـاء ، وإذا بلغ الأربعين اعتمـد عليه أهله كـاعتماد الإبهـام على المسبّحة ، فـإذا بلغ الخمسين انحنى كـانحناء الإبهـام ، فإذا بلغ الستّين ركبـه من كـان يعتمـد عليـه كـركـوب المسبّحـة للإبهـام ، فـإذا بلغ السبعين لصق بـالأرض ، فـإذا بلغ الثمـانين أخـذ العصا ، فإذا بلغ التسعين ضاقت عليه الأرض بحذافيرهـا ، فإذا بلغ المـائة عـاد كيومه في العشرة» .

وروي عن الصَّـادق عليه السلام أنّه قـال : «إذا بلغ المؤمن أربعين سنة آمنـه الله تعالىٰ من الأدواء الثلاثة الجنون والجذام والبرص ، فـإذا بلغ الخمسين خفّف الله عنـه حسابـه ، فإذا بلغ الستّين رزقـه الله الإنابـة ، فـإذا بلغ السبعين أحبّـه أهـل السماء ، فإذا بلغ الثمانين أمر الله عزّ وجلّ بإثبات حسنـاته وإلقـاء سيّئاتـه ، فإذا بلغ التسعين غفـر الله له مـا تقـدّم من ذنبـه ومـا تـأخّـر ، وكتب : أسيـر الله في أرضه ، فإذا بلغ المائة فذلك أرذل العمر» .

وقـال الحسن البصـري : العلم خيـر ميـراث ، والأدب أزين لبـاس ، والتقوىٰ خير زاد ، والعبادة أربح بضاعة ، والعقل خير قائد ، وحسن الخلق خير قرين ، والحلم خير وزيـر ، والقناعـة أفضل غنى ، والتـوفيق خير عـون ، وذكر الموت خير مؤدّب .

وقال خطّاب العابد : قـال بعض المتعبّدين : طلب الجنّـة بلا عمـل ذنب من الذنوب ، وانتظار الشفاعة بلا سبب نوع من الغرور ، وارتجـاء الرحمـة ممّن لا يُطاع حمق وجهالة .

وقـال لقمـان عليه السلام لابنـه : «يـا بنيّ خـلـق الإنســان عـلـى ثـلاثـة أثلاث[3] ثلث لله وثلث لنفسه وثلث للدود والتراب فأمّا الثلث الّذي لله فـروحه ،

(١) بكسر السين ، الأصبع السبابة . وبمعناه السباحة بتشديد الباء .

(٢) انقفـل الباب : انغلق ، الغـزاة : رجعـوا ، الـرجـل : مضى لمـا هـو فيـه . وكلهـا غيـر مناسب .

(٣) في النسخة (ر) : على ثلاثة أصناف (اثلاث . ل) .

والّذي لنفسه فعمله ، والّذي للدود والتراب فجسده . فالعاجز الخاسر من يتعصّب ويسعى للدود والتراب» .

وقال عيسى ﷺ : «إلى متى توعظون ولا تتّعظون ؟ لقد كلّفتم الواعظين تعباً» .

وقال الحسن البصريّ : ما من يوم يمرّ على ابن آدم [1] إلّا قال : إنّي يوم جديد ، وإنّي على ما تعمل فيّ لشهيد فتزوّد فيّ فلو قد غابت شمسي لم أرجع إليك إلى يوم القيامة . وأنشد في ذلك :

مضى أمسك الماضي شهيداً معدّلاً ... وخلّفت في يوم عليك شهيد
فإن كنت بالأمس اقترفت إساءة ... فثنّ بإحسان وأنت حميد
ولا تُرج فعل الخير يوماً إلى غد ... لعلّ غداً يأتي وأنت فقيد

وقال الحسن :

يا عجباً لألسنة تصف ، وقلوب تعرف ، وأعمال تخالف ! .

وقال بعض الحكماء : ليس للدين عوض ، ولا للأيّام بدل ، ولا للبدن خلف . ومن كانت مطيّته الليل والنهار فإنّه يُسارُ به وإن لم يسر .

وقال ذو النون المصريّ : إن أردت أن تذهب قساوة قلبك فأدم الصيام ، فإن وجدت قساوة فأدم القيام ، فإن وجدت قساوةً فدع الحرام ، فإن وجدت قساوة فصِل الأرحام فإن وجدت قساوة فالطف الأيتام .

وقال الأنطاكيّ [2] : خمسة أشياء دواء القلب : مجالسة الصالحين ، وقراءة القرآن وخلاوة البطن ، وقيام الليل ، وتضرّع عند الصبح .

---

(١) في النسخة (ر) : على الناس . ل .

(٢) هو داود بن عمر الأنطاكي الضرير ، عالم بالطب والأدب ، ولد في إنطاكية ، وحفظ القرآن وقرأ المنطق والرياضيات وشيئاً من الطبيعيات ، ودرس اللغة اليونانية فأحكمها ، هاجر إلى القاهرة فأقام بها مدة ، ثم رحل إلى مكة ومات فيها ١٠٠٨ هـ ، وله كتب منها «تذكرة أولي الألباب» و «تزيين الأسواق» . الأعلام : ٣٠٥ .

وسُئِل أبو القاسم الحكيم بسمرقند : هل من ذنوب تنزع الإيمان من العبد ؟ قال : نعم ، ثلاثة من الذنوب تنزع الإيمان من العبد : أوّلها أن لا يشكر الله على ما أكرمه من الإيمان ، والثاني أن لا يخاف فوت الإيمان عنه ، والثالث أن يظلم أهل الإسلام .

وقال عليّ عليه السلام[1] ، «ثلاث من كنّ فيه فقد تمّت مروءته : من تفقّه في دينه ، واقتصد في معيشته ، وصبر على النائبة إذا نزلت به» .

وقال عليه الصّلاة والسّلام لعمر بن الخطّاب : «ثلاث إن حفظتهنّ وعملت بهنّ كفيت ما سواهنّ ، وإن تركتهنّ لم ينفعك شيء سواهنّ» قال : وما هنّ ؟ قال : «إقامة الحدود على القريب والبعيد ، والحكم بكتاب الله تعالىٰ في الرضا والغضب ، والقسم بالعدل بين الأحمر والأسود» . قال عمر : لقد أوجزت وأبلغت .

وقال عليه السلام : «ثلاث لا يزيد بهنّ الله إلاّ خيراً : التواضع لا يزيد [الله] به إلاّ ارتفاعاً ، وذلّ النفس في الله لا يزيد [الله][2] به إلاّ عزّاً ، والتعفّف لا يزيد الله به إلاّ غناءً» .

وقال عليه السلام : «المؤمن إن احتاج إليك أعفاك ، وإن احتجت إليه كفاك ، ومن كثر ضجره عذّب نفسه» .

وقال عليه السلام[3] : «أمّا بعد فإنّ الدنيا قد أدبرت وآذنت بوداع ، وإنّ الآخرة قد أقبلت وأشرفت باطّلاع . ألا وإنّ اليوم المضمار[4] وغداً السباق ، والسبَقة الجنّة و الغاية النار[5] ، أفلا تائب من خطيئته قبل موته ؟ ألا عامل لنفسه قبل يوم بؤسه» .

---

(١) أُنظر الخصال للصدوق (١ : ٦١) .
(٢) زيادة «الله» في الموضعين من النسخة (ر) .
(٣) ابتداء الخطبة ٢٨ . أُنظر شرح النهج لابن أبي الحديد طبعة بيروت (١ : ١٧١) .
(٤) المضمار هنا : مدة تضمير الفرس ليتهيأ للسباق .
(٥) السبقة ـ بالتحريك ـ الغاية التي يحب السابق أن يصل إليهما . قال الرضي ـ رحمه الله ـ =

ومن كلامه عليه السلام[1] : «الغاية أمامكم وإنّ وراءكم الساعة تحدوكم . تخفّفوا تلحقوا ، فإنّما ينتظر بأوّلكم آخركم» .

ومن كلامه عليه السلام[2] : «ألا إنّ اللسان بضعة من الإنسان ، فلا يشغله[3] القول إذا امتنع ، ولا يمهلة النطق إذا اتّسع . وإنّا لأُمراء الكلام ، وفينا انتشبت عروقه ، وعلينا تهدّلت غصونه[4] .

واعلموا رحمكم الله أنّكم في زمانٍ القائل فيه بالحقّ قليل ، واللسان عن الصدق كليل ، واللاّزم للحقّ ذليل . أهله معكوفون على العصيان ، مصطلحون على الإدهان[5] فتاهم عارم[6] ، وشائبهم آثم[7] ، وعالمهم منافق ، وقارئهم

بعد ذكر الخطبة : ومن أعجبه قوله عليه السلام : «ألا وإن اليوم المضمار وغداً السباق ، والسبقة الجنة والغاية النار» فإن فيه مع فخامة اللفظ وعظم قدر المعنى وصادق التمثيل وواقع التشبيه سراً عجيباً ومعنى لطيفاً وهو قوله عليه السلام : «والسبقة الجنة والغاية النار» فخالف بين اللفظين لاختلاف المعنيين ، ولم يقل : والسبقة النار ، كما قال : والسبقة الجنة ؛ لأن الإستباق إنما يكون إلى أمر محبوب وغرض مطلوب ، وهذه صفة الجنة ، وليس هذا المعنى موجوداً في النار نعوذ بالله منها فلم يجز أن يقول : والسبقة النار ، لأن الغاية ينتهي إليها من لا يسره الإنتهاء ومن يسره ذلك .

(١) في النسخة (ر) : ومن عجيب كلامه . وهذه هي الخطبة ٢١ من خطبه عليه السلام . أُنظر شرح النهج لعبده (١ : ٦٥) وتراها في الخطبة ١٦٥ إلا أنه قال هناك : فإن الناس أمامكم ، وإن الساعة تحدوكم من خلفكم . قال الرضي ـ رحمه الله ـ : وأما قوله عليه السلام «تخففوا تلحقوا» فما سمع كلام أقل منه مسموعاً، ولا أكثر محصولاً ، وما أبعد غورها من كلمة ، وأنقع نطفتها من حكمة ! أقول : قول الرضي : أنقع من النقع وهو إطفاء العطش والنطفة هنا : الماء الصافي .

(٢) الخطبة ٢٣١ في شرح عبده (١ : ٤٨٩ ـ ٤٩٠) مع اختلاف يسير .

(٣) كذا الأصلان : وفي النهج فلا يسعده القول .

(٤) في الأصلين «تهذلت» بالذال المعجمة ، والتصحيح من النهج . وتهدلت : تعلقت واسترسلت .

(٥) أدهنه : خدعه وختله ، وأظهر له من خلاف ما يضمره .

(٦) في الأصلين «غارم» بالمعجمة . والعارم : المرح الشرس الفاسد .

(٧) الشائب : المبيض الرأس ، من الشيب . وفي الأصلين «شبانهم» ولا يناسبه وحدة «آثم» ولا فيه لطف «شائب» فإن الإثم من الشيخ المبيض الرأس أقبح من إثم الشاب بمراتب .

مماذق[1] . لا يعظّم صغيرهم كبيرهم ، ولا يعول غنيّهم فقيرهم» .

وممّا ينسب إليه من النظم قوله عليه السلام[2] :

أبنيّ ! إنّ من الرجال بهيمة ... في صورة الرجل السميع المبصر
فطناً بكلّ مصيبة من ماله ... فإذا أُصيب بدينه لم يشعر
ذهب الرجال المقتدى بفعالهم ... والمنكِرون لكلّ أمر منكر
وبقيت في خلف يموّه بعضهم ... بعضاً ليستر مُعوِر عن معور

وله عليه السلام[3] :

ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى ... عدوّاً له ما من صداقته بدّ
فتبصره يبدي رضاً تحته قلىً ... ويظهر وصلاً في جوانبه صدّ[4]
وكم يمكن الأعداء قلب ابن حرّة ... إذا نام عنه الغيظ أيقظه الحقد
رويداً ! لعلّ الصبر يعقب راحة ... وصبراً ! لعلّ النحس يعقبه سعد

وعن الباقر عن أبيه عن جدّه صلوات الله عليهم أجمعين أنّه سمع أمير المؤمنين عليّاً صلوات الله عليه يقول :

إذا عقد القضاء عليك أمراً ... فليس يحلّه غير القضاء
فما لك قد أقمت بدار ذلّ ... ودار العز واسعة الفضاء ؟
تبلّغ باليسير فكلّ شيء ... من الدنيا يؤول إلى انقضاء

وسمع بصفّين يرتجز ويقول[5] :

أنا عليّ صاحب الصمصامه ... وصاحب الحوض لدى القيامه
أخو نبيّ اللّه ذي العلامه ... قد قال إذ عمّمني العمامه :

---

(١) ماذقه في الود : لم يخلص له الود .
(٢) البيتان الأولان في ديوانه ص ٥٠ والأخيران بزيادة بيت فيه ٥٧ باختلاف يسير .
(٣) وقال الشافعي (معجم الأدباء ١٧ : ٣٠٨) :
من البلية أن تحب ولا يحبك من تحبه ... ويصدّ عنك بوجهه وتلح أنت فلا تغبه .
(٤) القلى ـ بالكسر ـ مصدر قلى الرجل يقلوه ويقليه : أبغضه .
(٥) بزيادة أربعة أشطار في ديوانه ص ١٣٢ .

أنـت أخـي ومـعـدن الـكـرامـه   ومـن لـه مـن بـعـدي الإمـامـه

وفي هذا دليل على أنّه عليه السلام قد كان يذكّر الناس ما وقع من النصّ عليه وينبّئهم على ما قيل فيه ، وهذا يبطل قول من قال : لو كان النصّ حقّاً لاحتجّ به المنصوص عليه .

وذكر أنّ معاوية كتب إليه كتاباً يظلمه فيه ، فأجابه عنه وكتب من جملة الجواب هذه الأبيات[1] :

تـنـام ولم تـنم عـنـك الـمـنـايـا   تـنـبّـه لـلـمـنـيّـة يـا نـؤوم !
تـروم الـخلد في دار الـمـنـايـا   فـكـم قـد رام قـبـلك مـا تـروم
إلى ديّـان يـوم الـديـن نـمـضـي   وعـنـد اللّه يـجتـمـع الـخـصـوم
سيُعلم في الـمعـاد إذا الـتقـيـنـا   غـداً عند الحسـاب : من الـظلوم

قال قيس بن سعد[2] : سمعت عليّاً عليه السلام ، يقول : «أنا أوّل من يجثو يوم القيامة بين يدي الله عزّ وجلّ للخصوم» وأنشد عليه السلام[3] :

إذا الـمـشـكـلات تـصـدّيـن لـي   كـشفـت غـوامـضـهـا بـالـنـظر
وإن بـرقـت فـي مـحـلّ الـصـوا   ب عـمـيـاء لا يـجتـلـيهـا الـبـصـر
مـقـنّـعـة بـغـيـوب الـعـلوم   بـعـثـت عليـهـا صحيـح الفـكـر
لـسـانـاً كـشـقـشـقـة الأرحبيّ   أو كـالحُسام اليمـان الـذكـر[4]

أرحب قبيلة من همدان ينسب إليها الجمال الأرحبيّة .

---

(١) من كلمة في الديوان ص ١٢٨ ـ ١٢٩ في عشرة أبيات وتسعة منها في المجاني (٣ : ٢٥ .

(٢) رواه الشيخ الطوسي عنه في أماليه ص ٥٢ مسنداً . وفي الأصلين «قيس بن سعيد» وهو سهو .

(٣) بزيادة ونقيصة في ديوانه ص ٤٩ ، وللأبيات خبر ذكره الشيخ في أماليه ٣٢٧ وعنه البحار في كتاب العلم (١ : ٨٥) باب آداب التعلم والأبيات للشافعي في معجم الأدباء (١٧ : ٣٠٩) .

(٤) الذكر من الحديد : أجوده ، وهو خلاف الأنيث ، وسيف ذكر : شفرته حديد ذكر ومتنه .

ولست بإمّعة في الرجال أسائل هذا وذا: ما الخبر؟

الإمّعة الّذي يكون لضعف رأيه مع كلّ واحد والمدرى[1] القرن في موضع السنان .

ولكنّني مدره الأصغرين أقيس بما قد مضى ما غبر[2]
وسيّاق قومي إلى المكرمات وجلّاب خير ودفّاع شرّ[3]

ومن كلامه عليه السلام[4] : «وإنّما لك من دنياك ما أصلحت به مثواك ، فأنفق في يُسرك ، ولا تكن خازناً لغيرك» .

وقوله عليه السلام[5] : «من أيقن بالخلف جاد بالعطيّة» .

وقوله عليه السلام[6] : «كن سخيّاً ولا تكن مبذّراً ، وكن مقدّراً ولا تكن مقتّراً» .

وقوله : «لكلّ شيء ثمرة وثمرة المعروف تعجيل السراح» .

وقوله : «الجود خير من البخل ، والمنع خير من المطل» .

وقوله : «الردّ الجميل خيرٌ من المطل» .

وقوله عليه السلام : «الوعد مرض ، والإنجاز برؤه ، والمطل حتفه» .

وقوله : «عوّد نفسك السماحة ، وتخيّر من كلّ خلق أحسنه ، وربّ[7]

---

(١) هذا تفسير للفظ «مدره» في البيت الآتي ، وهو سهو اشتقاقاً وتفسيراً .

(٢) المدره ـ بكسر الميم وفتح الراء ـ السيد ، زعيم القوم المتكلم عنهم وربما يروى «مذرب» من الذرب ـ بالتحريك ـ تقول : لسان ذرب ـ بكسر الراء أي فصيح . والأصغرين القلب واللسان ، لصغر حجمهما ، ومنه المثل : المرء بأصغريه . أنظر مجمع الأمثال (٢ : ٢٥٠) .

(٣) في النسخة (ر) : «وسباق» وما أثبتناه ألطف معنى .

(٤) الجملة الأولى والجملة الثالثة في ما كتبه لابنه الحسن عليه السلام شرح عبده (٢ : ٥٧ ، ٤٧) .

(٥) الرقم ١٣٨ من حكمه عليه السلام .

(٦) الرقم ٣٣ من حكمه ، وفي النهج : كن سمحاً .

(٧) أمر من التربية .

معروفك بإماتة ذكره» .

وقوله : «غاية الجود أن تعطي من نفسك المجهود» .

وقوله : «أظهر الكرم صدق الإخاء في الشدّة والرخاء» .

وقوله : «خطأ الجود أحسن في الناس من صواب المنع» .

وقوله : «أجود الناس من جاد بالحقوق من غير مسألة» .

وذكر الهرويّ[١] في كتاب الغريبين : في حديث عليّ صلوات الله عليه[٢] : «لنا حقّ إن نُعطه نأخذه ، وإن نمنعه نركب أعجاز الإبل وإن طال السرى» قال القتينيّ[٣] أعجاز الإبل مآخرها جمع عجز ، وهو مركب شاقّ ومعناه : إن منعنا حقّنا ركبنا مركب المشقّة صابرين عليه .

وقال الأزهريّ : لم يرد عليّ عليه السلام ركوب المشقة ولكنّه ضرب أعجاز الإبل مثلاً لتقدم غيره عليه ، وتأخيره عن الحقّ الّذي كان يراه له ، فيقول : إن قُدّمنا للإمامة تقدّمنا وإن أُخرنا عنها صبرنا على الأثرة[٤] وإن طالت الأيّام .

وقال عليّ عليه السلام[٥] «شتّان بين عملين : عمل تفنى لذّته وتبقى تبعته ، وعمل تذهب مؤونته ويبقى أجره» .

إذا متّ كان الناس صنفان شامت وآخر مثن بالّذي كنت أصنع[٦]

---

(١) أبو عبيد بن أحمد بن محمد الهروي المتوفى سنة ٤٠١ هـ صنف كتابه في غريب القرآن والحديث أنظر كشف الظنون ط استنبول (٢ : ١٢٠٦ و ١٢٠٩) .

(٢) الرقم ٢١ من حكمه وانظر ما قيل في تفسيره أكثر مما هنا في اللسان والنهاية (عجز) قال ابن الأثير : وقيل : يجوز أن يريد : وأن نمنعه نبذل الجهد في طلبه .

(٣) كذا ، وأظنه سهواً ، والصواب «القتيبي» وهو ابن قتيبة الدينوري الأديب اللغوي .

(٤) الأثرة : المكرمة المتوارثة والفعل الحميد .

(٥) الرقم ١٢١ من حكمه ومواعظه .

(٦) البيت لعجير بن عبد الله السلولي من تسعة أبيات له في الأغاني (١١ : ١٤٦) . واسم «كان» على هذه الرواية ضمير الشأن ، وروي «صنفين» و «نصفان» وترجمة الشاعر وشرح البيت في شرح شواهد مجمع البيان (٢ : ٢٩٠) بطرتي .

وقيل : سُئِل أمير المؤمنين عليه السلام عن الخير ما هو ؟ فقال[1] : «ليس الخير أن يكثر مالك ، ولكنّ الخير أن يكثر علمك[2] ، وأن يعظم حلمك ، وأن تباهي الناس بعبادة ربّك ، فإن أحسنت حمدت الله ، وإن أسأت استغفرت الله ولا خير في الدنيا إلاّ لرجلين : رجل أذنب ذنوباً فهو يتداركها بالتوبة ، ورجل يسارع في الخيرات» .

وقال عليه السلام : «لا يقلّ عمل مع تقوى ، وكيف يقلّ ما يتقبّل»[3] ؟ .

وقال عليه السلام[4] : «إنّ وليّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم من أطاع الله ، وإن بعُدت لحمته[5] ، وإنّ عدوّ محمّد من عصى الله وإن قربت قرابته» .

وقال عليه السلام[6] ـ وقد سمع حروريّاً يتهجّد ويقرأ ـ : «نوم على يقين خير من صلاة في شك» .

الظنّ والشكّ والتحرير[7] نظائر ، إلاّ أنّ الظنّ فيه قوّة على أحد الأمرين دون الآخر ، وجدّ ما قوى عند الظانّ كون المظنون على ظنّه ، مع تجويزه أن يكون على خلافه ، فبالتجويز ينفصل عن العلم ، وبالقوّة ينفصل عن الشكّ والتقليد وغير ذلك ، في قوله تعالى : ﴿**وأمّا الّذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم**﴾[8] فسمّى الشكّ في الدين مرضاً لأنّه فساد يحتاج إلى

---

(١) أُنظر النهج الرقم ٩٤ من حكمه .

(٢) في الأصلين : عملك ، والأوفق ما أثبتناه عن نهج البلاغة .

(٣) نهج البلاغة الرقم ٩٥ من حكمه .

(٤) نهج البلاغة الرقم ٩٦ من الحكم .

(٥) بضم اللام : النسب .

(٦) الرقم ٩٧ من الحكم . والحرورية هم المحكمة الأُولى الذين خرجوا على أمير المؤمنين عليه السلام حين جرى أمر الحكمين ، واجتمعوا بحروراء (بفتح الحاء والراء) من ناحية الكوفة ، ومن رؤسائهم ابن الكواء وعتاب بن الأعور ، وعبد الله بن وهب الراسبي ، وعروة بن جدير ، ويزيد بن عاصم المحاربي ، وحرقوص بن زهير المعروف بذي الثدية . أُنظر الملل والنحل (١ : ١٧٢) .

(٧) أراد بالتحرير الإطمئنان والعلم ، من حرر المعنى : استخلصه .

(٨) سورة التوبة ؛ الآية : ١٢٦ .

علاج ، كالفساد في البدن يحتاج إلى مداواة ، ومرض القلب أعضل وعلاجه أعسر ودواؤه أعزّ وأطبّاؤه أقلّ ، والرجس والنجس واحد . وسمّى الكفر رجساً على وجه الذمّ له ، وأنّه يجب تجنّبه كما يجب تجنّب الأنجاس ، وإنّما أضاف الزيادة إلى السورة لأنّهم يزدادون عندها ، ومثله «كفى بالسلامة داء» كما قال حميد بن ثور الهلاليّ :

أرى بصري قد رابني بعد صحة وحسبك داء أن تصحّ وتسقما

وقال ﷺ لابنه الحسين ﷺ[1] : «يا بنيّ ! خف الله تعالىٰ خوفاً ترى أنّك لو آتيته بحسنات أهل الأرض لم يقبلها منك ، وارج الله تعالىٰ رجاء ترى أنّك لو آتيته بسيّئات أهل الأرض غفرها لك» .

وهذا مثل قول لقمان ﷺ لابنه[2] : «يا بنيّ ! كن ذا قلبين : قلباً تخاف به الله عزّ وجلّ خوفاً لا يخالطه تفريط ، وقلباً ترجو به الله رجاء لا يخالطه تغرير» .

وعنه ﷺ يرفعه[3] : «يقول الله : يا بن آدم : ما تنصفني أتحبّب إليك بالنعم ، وتتمقّت إليّ بالمعاصي خيري إليك منزل ، وشرّك إليّ صاعد ، ولا يزال ملك كريم يأتيني عنك في كلّ يوم وليلة بعمل قبيح . يا بن آدم ؟ لو سمعت وصفك من غيرك وأنت لا تعلم الموصوف لأسرعت إلى مقته» .

وعنه ﷺ : «فأكرم نفسك عن كلّ دنيئة وإن شاقتك إلى الرغائب ؛ فإنّك لن تعتاض بما تبذل من نفسك عوضاً . ولا تكن عبد غيرك وقد جعلك الله حرّاً» .

وقال : «ذروة الإيمان أربعة : الصبر للحكم ، والرضا بالقدر ، والإخلاص في التوكّل والإستسلام للربّ» .

وقال محمّد بن كرّام[4] : دع التدبير من خلقك تسترح ، ومن لم يرض

---

(١) رواه صاحب جامع الأخبار في باب الخوف ص : ١١٠ .
(٢) روي بغير هذه الألفاظ في الإرشاد ص ١٦٨ ـ ١٦٩ وجامع الأخبار ص ١١٠ ـ ١١١ .
(٣) رواه الديلمي في الإرشاد ص ٥٦ باب التخويف والترهيب ، باختلاف يسير .
(٤) أبو عبد الله السجزي ، إمام الكرامية ـ من فرق الإسلام ـ كان يقول بأن الله تعالى مستقر =

بالقضاء فليس لحمقه دواء .

وقال بعض الحكماء :

سيكون الّذي قضي ... كره العبد أو رضي
فدع الهمّ يا فتى ... كلّ همٍّ سينقضي

وأنشد بعضهم[1] في معناه :

هوّن عليك فإنّ الأمور ... بكفّ الإله مقاديرها
فليس بآتيك منهيّها ... ولا صارف عنك مأمورها

وقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : «ليقلّ همّك ، ما قدّر يكون ، وما ترزق يأتيك» .

وقال بشر بن الحارث : قال لي الفضيل : يا بشر ! الرضا عن الله أكبر من الزهد في الدنيا ، قلت : وكيف ذلك : ؟ قال : يكون المنع والإعطاء بمنزلة ، والراضي لا يتمنّى فوق منزلته .

وقال يحيى بن معاذ : عجبت من ثلاثة رجال : رجل يريد تناول رزقه بتدبيره ، ورجل شغله همّ غده عن غنيمة يومه وهو محتاج إلى غنيمة يومه شاكّ في حياة غده ، ومن عالم مفتون يعيب على زاهد مغبوط .

وقال أبو تراب : ربّ مسرور بهلاكه ، ومحزون بنجاته .

وقال شقيق بن إبراهيم : سألت سبعمائة عالم عن خمسة أشياء فكلّهم أجابوا بجواب واحد ، قلت : من العاقل ؟ قالوا : من لم يحبّ الدنيا ، قلت : من الكيّس ؟ قالوا : من لا تغرّه الدنيا ، فقلت : من الغنيّ ؟ قالوا : الّذي يرضى بما قسم الله له ، فقلت : من الفقير ؟ قالوا : الّذي قلبه مع طلب الزيادة ، فقلت : من البخيل ؟ قالوا : الّذي يمنع حقّ الله من ماله .

= على العرش وأنه جوهر ، ولد في سجستان وجاور بمكة خمس سنين وورد نيسابور فحبسه طاهر بن عبد الله ثم انصرف إلى الشام وعاد إلى نيسابور فحبسه محمد بن طاهر وخرج منها سنة ٢٥١ إلى القدس فمات فيها ٢٥٥ هـ . الأعلام : ٩٦٦ .

(١) البيتان في الديوان المنسوب إلى أمير المؤمنين عليه السلام ص ٥٣ .

وقيل : سخط الله على العبد في ثلاثة أشياء : أحدهـا أن يقصّر عمّـا أمره الله تعالىٰ به ، والثاني أن لا يرضى بمـا قسّم الله تعالىٰ لـه ، والثالث أن يـطلب شيئاً فلا يجده فيسخط على ربّه .

قـال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[1] : «من كـانت له مـظلمة من أخيـه من عرضـه أو شيء فليستحلّه قبل أن لا يكون دينار ولا درهم كان له عمل صالح أُخذ منه بقدر مظلمته ، وإن لم يكن له حسنات أُخذ من سيّئات صاحبه فحملت عليه» .

وعنه صلى الله عليه أنّه قال : «يا ابن آدم ! عندك ما يكفيك فلمَ تطلب ما يطغيك ؟ لا بقليـل تقنع ، ولا من كثيـر تشبع . إذا أصبحت آمنـاً في سـربـك معـافى في بدنك ، معك قوت يومك فعلى الدنيا العفا» .

وفي بعض الروايات : «من أصبح آمناً في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فكأنّما خيّرت له الدنيا بحذافيرها» .

وقيل دعي حذيفة إلى مائدة فرأى بعض زيّ العجم فانصرف وهـو يقول : من تشبّه بقوم فهو منهم .

ودعي أبو ذرّ رضي الله عنه إلى وليمة فسمع صوتاً فانصرف وقال : من كثّر سواد قوم فهو منهم ، ومن رضي عمل قوم فهو شريكهم .

وقال لقمان عليه السلام لابنه : «احضر المآتم ، ولا تحضر الولائم ؛ فإنّ المآتم تذكّر الآخرة ، وإنّ الولائم تذكّر الدنيا» .

قيل : «ودعا بعض الأُمراء بعض السلف إلى طعامه فاعتلّ ولم يأته ، فقيل لـه في ذلك فقـال : فقدُ أُكلة أيسـر عليّ من بـذل ديني لهم ، والله لا ينبغي أن يكون بطن الرجل أعزّ عليه من دينه .

وقال حاتم : مذمة الناس الرجل اليوم بثلاث مدح : أن يُقال فلان لا يقبل

---

(١) الرواية مضـطربة لفـظاً ، والكتاب غيـر مصون من السقط فلعلهـا كانت هكـذا «. . . ولا درهم فإن لم يكن له دينار ولا درهم وكان له عمل الخ» .

ولا يسأل ولا يجيب[1] .

وقال موسى بن طلحة : أرسل إليّ بعض الخلفاء بمال أمرني أن أوزّعه على الفقراء فأتيت أبا رزين بعشرة آلاف درهم وهو مجهود ، فكأنّي ألقيت عليه العقارب ، فقال : لا حاجة لي في عطاء أمير المؤمنين فأبى أن يقبله .

وعن ميمونة قالت : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : «من أدان[2] ديناً وهو يحدّث نفسه بقضائه أعانه الله عليه» .

وقال أمير المؤمنين[3] عليه السلام : «أكثر مصارع العقول تحت بروق الأطماع» .

وقال عليه السلام : «العبيد ثلاثة : عبد رقّ ، وعبد شهوة ، وعبد طمع . من أراد أن يعيش حرّاً أيّام حياته فلا يسكن الطمع قلبه» .

قيل : أتى أعرابيّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله ! هل للإسلام منتهى ؟ قال[4] : «فمن أراد الله به خيراً من العرب والعجم أدخله عليهم ، ثمّ وقع الفتن كالظلل تعودون فيها أساود صبّاً ، يضرب بعضكم رقاب بعض ، وأفضل الناس يومئذ في شعب من الشعاب يتّقي ربّه ، ويدع الناس من شرّه» .

«صبّاً» ذكر الأزهريّ أنّه من الصبّ وقال : الحيّة السوداء إذا أرادت أن تنهش ارتفعت ثمّ صبّت .

وقال طاوس بن كيسان : خير الناس في آخر الزمان رجل معتزل يؤدّي حقّ الله عليه .

وروي أنّ عبد الله بن مسعود مرّ بطير قد صيد ، فقال من صيّد هذا الطير لا يكلّمني بشرّ ولا أُكلّمه (كذا) ، فقال بعضهم في هذا المعنى :

---

(١) بهامش الأصل : أي لا يجيب داعي ضيافة .
(٢) بهامش النسخة (ر) : من استدان . ظ .
(٣) أنظر نهج البلاغة الرقم ٢١٩ من الحكم .
(٤) ترى بعض الحديث ومعنى «الصب» في لسان العرب مادة (صبب) .

يـا ليتني كنت هـذا الـطائـر الـفـردا ... عـن الـبـريّـة مـنـحـازاً ومـنـفـردا
مـا إن يـؤرّقـه هـمٌّ لـرزق غـد ... ولا عليـه حسـاب فـي المـعـاد غـدا
طـوباك من طـائـر طـوبـاك ويحك طـر ... من كـان مثلك في الـدنيـا فقد سعـدا

وعن أبي الـدرداء قـال : قـال رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «نعم صـومعـة المؤمن بيته ، يكفّ فيه سمعه وبصره وقلبه ولسانـه ويده . وإيّـاك والجلوس في الأسواق فإنّها تلهي وتلغي» .

وقال بعض المتقدّمين : الوحدة مُنية الصدّيقين .

وقال حذيفة بن اليمان رضي الله عنه : لوددت أنّي أغلقت عليّ بـابي فلم يدخل عليّ بشر ، ولم أخرج إليه حتّى ألقى الله عزّ وجلّ .

وقـال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام : «سيكـون أقوام لا يستقيم لهم الملك إلاّ بالقتل والتجبّـر ، ولا يستقيم لهم الغنى إلاّ بالبخـل والظلم والبـطر ، ولا يستقيم لهم المحبّة في الناس إلاّ باتّباع الهوى والاستخراج من الـدين ، فمن أدرك ذلك فصبر على الفقر وهو يقدر على الغنى وصبر على الذلّ وهو يقدر على العزّ وصبر على البغضـة في النـاس وهـو يقـدر على المحبّـة ، أعـطاه الله ثـواب خمسين صدّيقاً» .

وقال أبو الدرداء : اتّقوا الله واحذروا الناس ، فإنّهم ما ركبوا ظهر بعيـر إلاّ دبروه ، ولا ظهر جواد إلاّ عقـروه ، ولا قلب مؤمن إلاّ خرّبوه .

وكان الربيع بن خيثم يقول : تفقّهوا ثمّ اعتزلوا وتعبّدوا .

وقال ابن عبّاس : خيـر المجالس مجلس في قعـر بيتك حيث لا تـرى ولا تُرى .

وقال الدارانيّ : صاحب العيال أعظم أجراً من المتفـرّغ ، والمتفرّغ يجـد من حلاوة العبادة ما لا يجده المتأهّل لأنّه يشتغل عنه .

وقال مالك بن دينار : من لم يأنس بمحادثة الله عن محادثة المخلوقين فقد قلّ عمله وضاع عمره .

وقال وهب : أوحى الله تعالىٰ إلى بعض أنبياء بني إسرائيل : إن أحببت أن تلقاني غداً في حظيرة القدس فكن في الدنيا محزوناً مهموماً فريداً وحيداً مستوحشاً ، بمنزلة الطير الواحد الّذي يطير في أرض القفار ، ويأكل من ورق الأشجار ، ويشرب من ماء القراح ، وإذا جنّه الليل آوى إلى غوامض الأوكار استيناساً بربّه ، واستيحاشاً بالناس .

وقال سفيان الثوريّ : العزلة أفضل العبادة وفيها الراحة من خلطاء السوء .

وقيل : كان رجل يغشى السلطان ، وكانت له منزلة فلزم بيته ورفضهم فكلّمه بنوه وأهله ، وقالوا له : تركت حظّك من السلطان ومنزلتك منه ، فلم يلتفت إليهم فقالوا : والله لئن دمت على هذا لتموتنّ هزيلاً ، فقال : والله لأن أموت مؤمناً مهزولاً أحبّ اليّ من أن أعيش فاسقاً سميناً .

فقال الحسن : علم والله أنّ القبر ـ أو قال : النار ـ يأكل الشحم ولا يأكل الإيمان .

وقال بقيّة[١] : من أراد أن يخشع قلبه فليأكل في نصف بطنه[٢] .

وقال الحسن : كانت فاكهة أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم خبز الحنطة .

وقال يحيى بن معاذ : يا معشر الصدّيقين ! جوّعوا أنفسكم لوليمة الفردوس ؛ فإنّ شهوة الطعام على قدر تجويع الأنفس .

وقيل ليوسف عليه السلام : أتجوع وفي يدك خزائن الأرض ؟ قال : «إنّي أخاف أن أشبع فأنسى الجيّاع» .

وقال الفارانيّ : أحلى ما تكون العبادة إليّ إذا لصق بطني بظهري .

---

(١) أبو يحمد بقية بن الوليد الكلاعي الحميري الحمصي الحافظ ، كان محدث الشام في عصره ، واسع العلم بالحديث ، كيساً ظريفاً . توفي ١٩٧ . الأعلام ١٥٠ .

(٢) وعن النبي صلى الله عليه وآله : «اشربوا وكلوا في أنصاف البطون فإنه جزء من النبوة» رواه النراقي في جامع السعادات (٢ : ٧) وقال الشاعر :

كلوا في نصف بطنكم تعفوا ... فإن زمانكم زمن خميص

وقال سعيد بن أحمد : إن اللّقمة السمينة تطفىء نور الحكمة .

ويُقال : إنّ الحكمة كالعروس تريد البيت الخالي .

قال[1] لقمان عليه السلام لابنه : «إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة ، وخرست الحكمة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة» .

وقال بعضهم : لولا ما نذكره من شدّة الحساب لشاركناكم في لين عيشكم .

أبو هريرة قال : دخلت على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وهو يصلّي جالساً فقلت : يا رسول الله ! أراك تصلّي جالساً فما أصابك ؟ فقال : الجوع والضعف يا أبا هريرة ؛ فإنّ شدّة القيامة لا تصيب الجائع إذا احتسب في دار الدنيا .

وقال هرمس : إنّ المعدة إذا أُعطيت حظّها من الشبع نهضت كلّ جارحة من الجوارح في طلب حظّها من اللّهو ، وقويت بذلك فحاربت العقل ، وقهرت النفس الناطقة ، واستخدمتها في تحصيل حظوظها ، فتحصل النفس الشريفة الحيّة خادمة للجسم الخسيس الميّت الخبيث ، ويجري بها في طريق الهلكة والرذائل والموت من العيش العقليّ . وإذا منعت المعدة الشبع قصرت الجوارح عن طلب حظّها من اللهو وكانت النفس الناطقة حرّة مستريحة من استخدام الحواسّ لها ويخلّص العقل ممّا يحاربه أو يفسد عليه مقصده فيكون مجدّاً في خلاص النفس من عالم الطبيعة .

وقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : «من قلّ طُعمه صحّ بطنه وصفا قلبه ، ومن كثر طعمه سقم بطنه وقسا قلبه» .

وقال عيسى عليه السلام : «يا بني إسرائيل ! لا تكثروا الأكل ، فإنّه من أكثر الأكل أكثر النوم ، ومن أكثر النوم أقلّ الصّلاة ، ومن أقلّ الصّلاة كتب من الغافلين» .

وقال الأسود وعلقمة : دخلنا على أمير المؤمنين عليه السلام وبين يديه طبق من

---

(1) رواه النراقي (٢ : ٥) . وكلمة «قال» ليست في النسخة (ر) .

خوص ، وعليه قرص أو قرصان من شعير ، وإنّ أشطار النخالة لتبين في الخبز وهو يكسر على ركبته ويأكل بملح جريش[1] فقلنا لجارية اسمها فضّة : ألا نخلت[2] هذا الدقيق لأمير المؤمنين ؟ فقالت : أيأكل هو المهنّأ ويكون الوزر في عنقي ؟ فتبسّم عليه السلام وقال : أنا أمرتها ألاّ تنخله[3] ، قلنا : لِمَ ؟ قال : ذلك أجدر أن تذلّ النفس ، ويقتدي به المؤمن ، وألحق بأصحابي .

وسُئِل حكيم : بما تدرك الحكمة ؟ فقال : بقلّة الأكل .

وسُئِل عابد : ما وجه العبادة ؟ قال : قلّة الأكل .

وسُئِل زاهد : بما ينال الزهد ؟ قال : بقلّة الأكل .

وسُئِل عالم : بما يدرك العلم ؟ قال : بقلّة الأكل .

وسُئِل بعض الملوك : بما ينال الأدبَ الملكُ ؟ قال : بقلّة الأكل .

وسُئِل بعض الأطبّاء : بما ينال الصحّة ؟ قال : بقلّة الأكل .

وقال لقمان عليه السلام لابنه : «يا بنيّ ! الشبع يمنعك عن نظر الاعتبار ، ويمنع لسانك عن الحكمة ، ويثقلك عن العبادة» .

وسأل رجل ابن سيرين فقال : علّمني العبادة ، فقال له : كيف تأكل ؟ قال : آكل حتى أشبع ، قال : هذه عادة الدوابّ ، يجب عليك أن تتعلّم الأكل ثمّ العبادة .

وقال الحكماء : اللقمة خمسة : لقمة حلال ، ولقمة حرام ، ولقمة شبهة ، ولقمة شهوة ، ولقمة عادة .

فأمّا اللقمة الحرام فإنّها تورث في القلب العداوة ، وتجري على لسانك الكذب والغيبة .

---

(١) الجريش : ما لم يطحن جيداً .

(٢ ـ ٣) بالحاء في النسخة (ر) سهواً .

وأمّا لقمة[1] الشبهة فتورث في القلب الشكّ والوسوسة ، وتجري على لسانك فضول الكلام ، وتقسي القلب وتبعث على اتّباع الهوى .

وأمّا لقمة الشهوة فتورث في القلب الأمل ، وتجري على لسانك فضول القول .

وأمّا لقمة العادة فتورث القناعة في القلب ، وتجري على لسانك كلام الحكماء ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وأمّا اللقمة الحلال فتورث في القلب رضا الربّ .

وقال يحيى بن معاذ : لم أجد شيئاً أدعى إلى الزهد من هذا الفقر ، ولا أعوان على ذكر الآخرة من الجوع .

وقال يحيى بن بكّار[2] : من خبّرك أنّه شبع ويطيق القيام فلا تصدّقه .

وقال بعض الحواريّين : أجمع رأي سبعين صدّيقاً أنّ كثرة النوم من كثرة شرب الماء .

وقال الثوريّ : من أحبّ أن لا ينام فليأكل ولا يشرب .

وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال : «لا يزال العبد من الله والله منه ما لم يبغض أهل الجوع والعطش ، فإذا أبغضهم أبغضه الله عزّ وجلّ وقلاه . وجعل قلبه في غلاف لا يسمع الحكمة» .

وقال ابن عبّاس : قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : «لا يزال العبد في ستر من الله ما لم يبغض أهل الجوع والعطش فإذا أبغضهم هتك الله ستره ومقته» .

وقال ابن عبّاس : قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : أولياء الله من خلقه أهل الجوع والعطش فمن استذلّهم فآذاهم في الدّنيا بقول أو بفعل ، انتقم الله منه وهتك ستره وحرّم عيشه وكسبه .

---

(١) في الأصلين «اللقمة» في الجميع ، وهو غلط في غير الأول والخامس .
(٢) في النسخة (ر) علي بن بكار .

وعن ابن عمر أنّه قال : قال رسـول الله ﷺ : «من ألان القول والكلمـة لأهل الجوع والعطش في الدنيـا كانت لـه درجة في الآخـرة ، ومن أحبّهم أعطاه الله قرّة عين في الآخرة وكان من الآمنين يوم القيامة» . ثمّ قـال رسول الله ﷺ «من أحبّ قوماً جاء معهم يوم القيامة» .

وقـال رسول الله ﷺ : «خيـار أُمّتي في كـلّ قـرن خمسمـائـة والأبـدال أربعـون فلا الخمسمـائة ينقصـون ولا الأربعون ، كلّمـا مات رجـل من الأربعين أبدل الله من الخمسمائة مكانه وأدخل من العامّة مكانهم» قالوا : يا رسـول الله ! دلّنـا على أعمالهم قـال : «يعفون عمّن ظلمهم ، ويحسنـون إلى من أساء إليهم ويواسون فيما آتاهم الله عزّ وجلّ» .

وعن حذيفة بن اليمـان قال : قـال رسول الله ﷺ : «إنّ في كـلّ طائفـة من أُمتي قوماً شعثاً غبراً إيّـاي يريـدون ، وإيّاي يتّبعـون ، وكتاب الله يقيمـون ، أُولئك منّي وأنا منهم وإن لم يروني» .

وقـال ذو النون بن إبـراهيم المصري إنّ لله لصفـوةً من خلقـه ، وإنّ لله لخيـرة ، وقيل : له : يا أبا الفيض ! فما علامتهم ؟ قـال : إذا خلع العبد الـراحة فـأعطى المجهود في الطاعة وأحبّ سقوط المنزلة ، ثمّ قال :

مـنـع الـقــرآن بــوعــده ووعــيــده	مقــل العيــون بليـلهـا أن تهجــع[1]
فهمــوا عن الملك الكــريـم كــلامــه	فهمــاً تــذلّ لــه الــرقــاب وتخضــع

فقـال له بعض من كـان في المجلس حاضـراً : يا أبـا الفيض ! من هؤلاء القوم يرحمك الله ؟ فقال : ويحـك ! هؤلاء قوم خـالط القرآن لحـومهم ودماءهم فعـزلهم عن الأزواج وحرّكهم بـالأدلاج[2] ، فوضعـوا على أفئدتهم فـانفرجت ، وضمّـوا إلى صدورهم فـانشـرحت ، وتصـدّعت هممهم بـه فكـدحت ، فجعلوه

---

(١) المقل ـ بضم ففتح ـ جمع المقلة . هجع : نام . وفي الأصلين : فليلها .
(٢) جمع الدلج ـ بالتحريك ـ الساعة من آخر الليل .

لظلمتهم سراجاً ، ولنومهم مهاداً ، ولسبيلهم منهاجاً ، ولحجّتهم أفلاجاً[1] يفرح الناس ويحزنون . وينام الناس ويسهرون ، ويفطر الناس ويصومون ، ويأمن الناس ويخافون . فهم خائفون حذرون وجلون مشفقون سمرون[2] ، يبادرون من الفوت ويستعدّون للموت .

قال البراء بن عازب : قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «إنّ للّه خواصّاً يسكنهم الرفيع من الجنان . كانوا أعقل الناس» قلنا : يا رسول الله ! وكيف كانوا أعقل الناس ؟ قال : «كانت همّتهم المسابقة إلى ربّهم ، والمسارعة إلى ما يرضيه ، وزهدوا في فضول الدنيا وزينتها ونعيمها وهانت عليهم ، فصبروا قليلاً واستراحوا طويلاً» .

وقال الحسن : لولا الأبدال لخسفت الأرض بمن فيها ، ولولا الصالحون لفسدت الأرض ، ولولا العلماء لصار الناس مثل البهائم ، ولولا السلطان لأكل الناس بعضهم بعضاً ولولا الحمقى لخربت الدنيا ، ولولا الريح لأنتن ما بين السماء والأرض .

وقال الفضيل : ما من نبيّ إلاّ وله نظير في أُمّته .

وروي عن أبي عبيدة أنّه قال : رأيت امرأة على ساحل الفرات فقلت لها : ما مقامك في هذا الموضع وليس معك أحد ؟ فصرخت وقالت : يا بطّال ! لو علمت من معي ومن يحفظني لتقطّع قلبك حسرة على ما فاتك ، قلت : فأين تريدين ؟ قالت : الحجّ ، قلت : إنّه ساقط عنك ، قالت : لا ، بل هو ساقط عن أصحاب الأموال واجب عليّ ، قلت : وما حقيقة ذلك ؟ قالت : لأنّهم اكتسبوها من الحرام فسقط عنهم فرض الحجّ ، ووجب عليّ لأنّي لا أستعين إلاّ بالله عزّ وجلّ ، مركبي قدماي وزادي تقواي ، قال : ثمّ خرجت وقالت : من لم يكسر لله شهوته لم يقرب طريقه في مسيره ، ثمّ أخرجت صرّة معها فيها حبّ مجموع من الحمّص والعدس ، فقالت لي : تحبّ أن تتغذّى من هذا ؟ قلت : ما

---

(١) فلج ـ من باب ضرب ونصر ـ على خصمه : غلبه .
(٢) قد سبق أن معناه من يحدث بالليل ، وهو هنا كناية عن السهر في الليل .

أكره ذلك فإن أعطيتني شيئاً ، فأكلته فلم يلحقني جوع ولا عطش أيّاماً في طريقي .

وقال بعضهم : إيّاك والاغترار بالدنيا والركون إليها ؛ فإنّ أمانيّها كاذبة ، وآمالها خائبة وعيشها نكد ، وصفوها كدر ، وأنت منها على خطر ، إمّا نعمة زائلة وإمّا بليّة نازلة وإمّا مصيبة موجعة ، وإمّا منيّة مفجعة .

وقال آخر : صاحب الدنيا في حرب مكائد الأهواء لتنقدع[1] ، والجهالة لتنقمع ، والأدواء لتندفع ، والآمال لتنال ، والمكروه ليزال ، وبعض ذلك عن بعض شاغل ، والمشتغل عنه ضائع . فلمّا رأى الحكماء أنّه لا سبيل إلى إحكام ذلك تركوا ما يفنى ليحرزوا ما يبقى .

وقال سقرط : إنّما الإنسان في الدنيا كفرخ في عُشّ ، لمّا تمّ ريشه طار عن العشّ وتركه لغيره .

وقال : إنّما الدنيا كفخّ منصوب ، فيه طعم يسير ، مرّ عليه طائر كثير ، فلم يقع في ذلك الفخّ إلاّ طير شرهت نفسه إلى طعمه فكان شرهه سبب حتفه .

وقال : ما أسرع خيانة الدنيا لمن ائتمنها ! وأقلّها لمن اطمأنّ إليها ! .

وقال : من رغب في الدنيا طال حزنه وكثر عدوّه ، ومن زهد فيها استراح قلبه وقلّ حسّاده .

وقال : من زهد في الدنيا أحبّه أهلها ، ومن أحبّ الآخرة ناله خيرها وحمد حسن عاقبتها .

وقال : طالب الدنيا إن نال ما أمّل تركه لغيره ، وإن لم ينل مات بغيظه .

وقال : الدنيا معبر إلى غيرها فمن استعدّ زاد السفر أمن من المفاوز الّتي يخاف فيها غيره ، ومن قصّر عن استعداد زاده قطع طريقه ، وعجز عن اللّحوق بمن سبقه .

---

(١) انقدع : انكفّ . وفي الأصلين بالذال المعجمة ، ولم يستعمل منه باب الإنفعال ، مضافاً إلى عدم تناسب معناه وهو الفحش .

وقال : ما أوفر حظّ من باع الفاني بالباقي ، والعاجلة بالآخرة .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام[1] : «إنّ الله تعالىٰ يسائلكم ـ معشر عباده ـ عن الصغيرة من أعمالكم والكبيرة ، والظاهرة والمستورة ، فإن يعذّب فأنتم أظلم ، وإن يعف فهو أكرم واعلموا عباد الله أنّ المتّقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة ، فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم ، ولم يشاركهم أهل الدنيا في آخرتهم ، سكنوا الدنيا بأفضل ما سكنت وأكلوها بأفضل ما أُكلت ، فحظوا من الدنيا بما حظي به المترفون ، وأخذوا منها ما أخذه الجبابرة المتكبّرون ، ثمّ انقلبوا عنها بالزاد المبلّغ والمتجر الرابح . أصابوا لذّة هذه الدنيا في دنياهم وتيقّنوا أنّهم جيران الله تعالىٰ غداً في آخرتهم . لا يردّ لهم دعوة ، ولا لهم نصيب من لذّة فاحذروا عباد الله الموت وقربه ، وأعدّوا له عدّته[2] فإن يأتي أمر عظيم وخطب جسيم إمّا بخير لا يكون معه شرّ أبداً ، أو شرّ لا يكون معه خير أبداً . فمن أقرب إلى الجنّة من عاملها ومن أقرب إلى النار من عاملها ؟ وأنتم طرداء[3] الموت إن أقمتم له أخذكم ، وإن فررتم منه أدرككم، وهو ألزم لكم من ظلّكم ، الموت معقود بنواصيكم ، والدنيا تطوى من خلفكم ، فاحذروا ناراً قعرها بعيد ، وحرّها شديد ، وعذابها جديد . دار ليس فيها دعوة ، ولا يفرّج فيها كربة ، فإن استطعتم أن يشتدّ خوفكم من الله تعالىٰ وأن يحسن ظنّكم به ، فاجمعوا بينهما فإنّ العبد إنّما يكون حسن ظنّه بربّه على قدر خوفه من ربّه ، فإنّ أحسن الناس ظنّاً بالله عزّ وجلّ أشدّهم خوفاً منه»[4] .

وقال سقراط : الدنيا كلحم الميتة ، من قلّ تناوله منها كثرت سلامته

---

(١) فيما كتبه لمحمد بن أبي بكر حين قلده مصر . أُنظر شرح النهج لعبده (ص ٥١٦) .

(٢) كذا في النسخة (ر) والنهج ، وفي الأصل الآخر «عدة» .

(٣) كذا في النهج ، وكان في الأصلين «طرد الموت» قال ابن أبي الحديد (٣ : ٦٦) : «قوله طرداء الموت : جمع طريد أي يطردكم عن أوطانكم ، ويخرجكم منها لا بد من ذلك ، إن أقمتم أخذكم ، وإن هربتم أدرككم . وقال الراوندي : طرداء هنا جمع طريدة وهي ما طردت من الصيد أو الوصيفة» انتهى موضع الحاجة .

(٤) وقد ورد في عدة روايات اعتدال الخوف والرجاء في المؤمن .أُنظر أُصول الكافي(٢ :٦٧) .

ودامت عافيته ومن كثر تناوله منها كثر عطبه[١] ودامت شقاوته ، ومن زهد في الدنيا أحبّه العالم الأعلى ، والعالم الأدنى ، فأمّا محبّة العالم الأعلى فلتبرّيه من رذائل عالم الطبيعة ، ورفض اللّذّات الجسمانيّة ، وانتسابه بذلك إليهم ، وتشبّهه بهم ، وأمّا محبّة العالم الأدنى فبتركه لهم ما في أيديهم ، وترك مشاركتهم فيما أحبّوه منها .

وقال : الدنيا لدور من ساعة[٢] يتبعها شقاء طويل ، والآخرة صبر قليل يتبعها راحة طويلة ومواصلة الدنيا حلاوة يسيرة قصيرة يتبعه مرارة كثيرة ، ومقاطعتها[٣] مرارة يسيرة قصيرة يتبعها حلاوة عظيمة طويلة . وعجباً لمن عرف سرعة انتقال الدنيا واستحالة أحوالها كيف يحزن عليها ، وعجباً لمن رأى تنكّد العيش فيها كيف لا يرضى بالحقير منها ، وحقّ على من عرفها أن يزهد فيها ، وحقّ على من عرف ثمرة الزهد أن لا يرغب فيها .

وقال : الدنيا تنصح تاركها وتغشّ طالبها .

وقيل له : لِمَ زهدت في الدنيا يا سُقراط ولم تأخذ منها حظّاً ؟ قال : أتدرون ما قالت العنكبوت لمّا قيل لها : ألا تحلّين[٤] رجليك بخلخال ؟ قالت : أخاف تغصّ[٥] بها ساقي .

وقال : صاحب الدنيا دائم البطنة ، قليل الفطنة ، ساهي العقل لاهي النفس . همّته بطنه وفرجه ، فهو إذا نام ميّت ، وإن انتبه بهيمة .

وقال : الزمان مكشوف العوار[٦] عند من تأمّله ، فلن يغترّ به إلاّ من جهله ،

---

(١) عطب ـ من باب علم ـ هلك .

(٢) في النسخة (ر) لدن ساعة . ولعل الصحيح : لذة ساعة .

(٣) كذا في النسخة (ر) وفي الأصل «مقاطعها» .

(٤) في النسخة (ر) لم لا تحلّين .

(٥) غص الشيء ـ من باب نصر ـ قطعه .

(٦) بتثليث العين : العيب ، الخرق والشق في الثوب .

وهو واعظ لمن بقي بمن مضى ، حوادثه غبطة لقوم وهلاك لآخرين .

وقال : السكون إلى الدهر نهاية العجز والثقة به غاية الغرور وسوء الظنّ به أكبر الحزم ، وهو جديد لا يبلى ، وآكل لا يشبع ، وخاذل لا يكلّ وخائن لا يوثق به ، وجائر لا ينصف .

قال هرمس : الحكمة وحبّ الدنيا لا يجتمعان أبداً ، والحكمة لا يثبت في القلب حتّى يتفرّغ من الدنيا .

وقال : ينبغي للعاقل أن يكون في الدنيا كالمريض الّذي لا بدّ له من قوت ولا يوافقه كلّ الطعام ، فهو في كلّ وقته بين مداواة وحمية ، ومن عرف نفسه لم يكن للدنيا عنده قدر .

وقال : أعقل الناس من ترك الدنيا للآخرة .

وقال : الدنيا اسم لما يكون ويزول .

وقال : الدنيا عقوبة العقلاء ونعيم الأشقياء .

وقال : الدنيا غفلة مفتون وصفقة مغبون . تصل العطيّة[1] بالرزيّة والمنحة بالمحنة . مغمورة بالألم والسقم والهرم والعدم . سلامتها عطب ، وراحتها تعب ، وملكها سلب ، وحياتها موت ، ودركها فوت ، رغب منها من جهل ، ورفضها من عقل .

وقيل اجتمع عند رابعة[2] العدويّة عدّة من الفقهاء والزهّاد فذمّوا الدنيا وهي ساكتة ، فلمّا فرغوا قالت لهم : من أحبّ شيئاً أكثر ذكره إمّا بحمد وإمّا بذمّ فإن كانت الدنيا في قلوبكم لا شيء فلِمَ تذكرون ؟ .

إذا أبقت الدنيا على المرء دينه ... فما فاته منها فليس بضائر

---

(١) في النسخة (ر) : «العطبة» . وهي خرقة تؤخذ بها النار .

(٢) أم الخير ، رابعة بنت إسماعيل العدوية البصرية ، مولاة آل عتيك ، صالحة مشهورة ، لها في العبادة والنسك أخبار كثيرة ، مولدها في البصرة ورحلت إلى القدس فتوفيت فيها ١٣٥ هـ من كلامها : «اكتموا حسناتكم كما تكتمون سيئاتكم» . الأعلام : ٣١٤ .

وقال داود الطائي : إنّما اللّيل والنهار مراحل ، فإن استطعت أن تقدّم في كلّ مرحلة زاداً لما بين يديها فافعل ، فإنّ انقطاع السفر عن قريب ، والأمر أعجل من ذلك[1] وكأنّك بالأمر قد بغتَك .

وعنه : لا تمهر الدنيا دينك ، فإنّ من أمهرها دينه وقب[2] إليه الندم .

قيل : بنى ملك في بني إسرائيل مدينة فتنوّق[3] في بنائها ، ثمّ صنع للناس طعاماً ونصب على باب المدينة من يسأل عنها فلم يعبها إلاّ ثلاثة عليهم الأكسية فإنّم قالوا : رأينا عيبين فسألهم فقالوا : تخرب ويموت صاحبها . فقال : فهل تعملون داراً تسلم من هذين العيبين ؟ قالوا : نعم ، الآخرة . فخلّى ملكه وتعبّد معهم زماناً ثمّ ودّعهم فقالوا : هل رأيت منّا ما تكرهه ؟ قال : لا ، ولكن عرفتموني فأنتم تكرموني فأصحب من لا يعرفني .

وقال ابن السمّاك : من جرعته الدنيا حلاوتها بميله إليها جرّعته الآخرة مرارتها بتجافيه عنها .

وقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : «إذا عظّمت أُمّتي الدنيا نزع الله منها هيبة الإسلام» .

وقال الفضيل : لو أنّ الدنيا بحذافيرها عرضت عليّ حلالاً لا أُحاسب عليها في الآخرة لكنت أتقذّرها كما يتقذّر أحدكم الجيفة إذا مرّت به أن تصيب ثوبه .

إبراهيم بن أدهم : فرّغ قلبك من ذكر الدنيا يفرغ قلبك الرضا إفراغاً .

وقفت أعرابيّة على قوم فقالت : تيسّروا للقاء الله عزّ وجلّ لأنّ هذه الأيّام تدرجنا إدراجاً .

وقال أنس : إنّ الله جعل الدنيا دار بلوى وجعل الآخرة دار عقبى فجعل بلوى الدُّنيا لثواب الآخرة سبباً ، وثواب الآخرة من بلوى الدُّنيا عوضاً ، فيأخذ

---

(١) هذه الجملة من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حين بنى المسجد فأُشير إليه في تنويقه .
(٢) وقب الرجل ـ من باب وعد ـ أقبل وجاء .
(٣) تنوق في ملبسه أو مطعمه أو أُموره : تجوّد فيها واهتم بها .

ليعطي ويبلي ليجزي .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام[1] : «الدنيا دار ممرّ ، والآخرة دار مستقرّ ، والناس فيها رجلان : رجل باع نفسه فأوبقها ، ورجل ابتاع نفسه فأعتقها» .

وعنه عليه السلام[2] : «أنتم في هذه الدنيا غرض تنتضل[3] فيه المنايا ، مع كلّ جرعة شرقة[4] ، ومع كلّ أُكلة غصّة ، لا تنالون منها نعمة إلاّ بفراق أُخرى» .

وقال عليّ بن الحسين عليه السلام[5] «من هوان الدنيا على الله أنّ يحيى بن زكريّا عليه السلام أُهدي رأسه إلى بغيّ في طست من ذهب» تسلية لحرّ فاضل يرى الناقص الدنيء يطعم من الدنيا بالحظّ السنيّ كما أصابت تلك الفاجرة تلك الهديّة العظيمة .

إذا امتحن الدنيا لبيبٌ تكشّفت   له من عدوّ في ثياب صديق

قال عيسى بن مريم عليه السلام : «من ذا الّذي يبني على موج البحر داراً ؟ تلك الدنيا ، فلا تتّخذوها قراراً» .

قال بشر بن الحارث : اجعل الآخرة رأس مالك فما أتاك من الدنيا فهو ربح .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام[6] : «الدنيا قد نعت إليك نفسها ، وتكشّفت لك عن مساوئها فإيّاك أن تغترّ بما ترى من إخلاد أهلها إليها ، وتكالبهم عليها ؛

---

(١) أُنظر النهج بشرح عبده (٢ : ١٧٥) الرقم ١٣٣ من الحكم والمواعظ القصار ، وفيه : دار ممر إلى مقر .

(٢) صدر الخطبة ١٤٣ في شرح عبده (١ : ٢٨٢) .

(٣) تنتضل فيه : تترامى إليه . وفي نسخة (ر) : عرض ينتصل .

(٤) شرق ـ من باب علم ـ بريقه : اعترض في حلقه منه شيء فمنعه من التنفس .

(٥) بل من كلام أبيه سيد الشهداء في مكة حين جاء إليه عبد الله بن عمر يشير إليه بصلح أهل الضلال أُنظر اللهوف ص ١٨ .

(٦) من وصية كتبها لابنه الحسن عليه السلام . أُنظر شرح النهج لعبده (٢ : ٥١) مع تقديم وتأخير في الجمل .

فإنّهم كلاب عاوية ، وسباع ضارية ، يهرّ[1] بعضها على بعض ، يأكل عزيزها ذليلها ، ويقهر كبيرها صغيرها . نَعم معقّلة ، وأُخرى مهملة قد أضلّت عقولها ، وركبت مجهولها» .

وقال أمير المؤمنين صلوات الله عليه وسلامه[2] : «فأُحذّركم الدنيا فإنّها دار قُلعة[3] ، وليست بدار نجعة[4] . دارٌ هانت على ربّها فخلط خيرها بشرّها ، وحلوها بمرّها . لم يرضها لأوليائه ، ولم يضنّ بها على أعدائه» . ربّ[5] فعل حسن يصاب به وقته فيكون حسنة ، ورب خطإٍ يصاب به وقته فيكون سيّئة .

سلام بن مسكين قال : قال لنا الحسن : يا معشر الشباب ! عليكم بطلب الآخرة فقد والله رأينا أقواماً طلبوا الآخرة فأصابوا الدنيا والآخرة ، وما رأينا من طلب الدنيا فأصاب الآخرة . قال أبو العتاهية :

يا عاشق الدنيا يغرّك وجهها ... ولتندمنّ إذا رأيت قفاها

وقال أمير المؤمنين عليه السلام[6] : «الدنيا دار صدق لمن صدقها ، ودار عافية لمن فهم عنها ، ودار غناء لمن تزوّد منها . مسجد أنبياء الله ، ومصلّى ملائكته ، ومهبط وحيه ، ومتجر أوليائه ، اكتسبوا فيها الرحمة ، وربحوا فيها الجنّة . فمن ذا يذمّها وقد آذنت ببينها ، ونادت بفراقها ، ونعت نفسها وأهلها ، فمثّلت لهم ببلائها البلاء ، وشوّقتهم بسرورها إلى السرور ، راحت بفجيعة وابتكرت بعافية تحذيراً وترغيباً وتخويفاً ، فذمّها رجال غداة الندامة ، وحمدها آخرون يوم القيامة . ذكّرتهم الدنيا فتذكّروا فصدقوا أيّها الذامّ للدنيا المغترّ بغرورها ! متى استدامت لك الدنيا ؟ بل متى غرّتك ؟ أبمضاجع آبائك من البلى ، أم بمصارع أُمّهاتك تحت الثرى ، كم قد علّلت بكفّك وأمرضت بيدك ،

---

(١) هرّ ـ من بابي فرّ ومدّ ـ مقت وكره .
(٢) ابتداء الخطبة ١١١ في النهج بشرح عبده (١ : ٢٣٩) .
(٣) القلعة : من لا يثبت على السرج أو من يزل قدمه عند الصراع ، أي هي دار من لا يستقر .
(٤) النجعة ـ بالضم ـ طلب الكلاء في موضعه .
(٥) ظاهر العبارة أنه من كلام أمير المؤمنين عليه السلام ، ولم نجده في النهج .
(٦) الرقم ١٣٢ من الحكم بتقديم وتأخير في الألفاظ . أنظر شرح النهج لعبده .

تبغي له الشفاء ، وتستوصف له الأطبّاء ، لم تنفعه بشفائك ولم تسعف له بطلبتك ، وقد مثّلت لك الدنيا به نفسك وبمصرعه مصرعك ، غداة لا ينفعك بكاؤك ، ولا يغني عنك أحبّاؤك» .

وقال بعضهم : سمعت الشافعيّ وقد وعظ أخاً له في الله وخوّفه بالله تعالى فقال : يا أخي ؟ إنّ الدنيا دحض مزلّة ودار مذلّة ، عمرانها إلى الخراب صائر . وساكنها إلى القبور زائر شملها على الفرقة موقوف وغناؤها إلى الفقير موصوف . والإكسار[1] فيها إعسار ، والإعسار فيها يسار ، فافزع إلى الله ، وارض برزق الله ، لا تستسلف من دار بقائك في دار فنائك ، فإن عيشك فيء زائل ، وجدار مائل . أكثر من عملك وقصّر من أملك .

وقيل : إنّه مرّ رجل براهب فناداه فأشرف عليه فقال له : يا راهب متى تخلو القلوب من حبّ الدنيا ؟ قال : فصرخ الراهب صرخة انحطّ منها مغشياً عليه فلم يزل الرجل يراعيه حتّى أحسّ بإفاقته فناداه : أنا منذ اليوم منتظرك ، فقال : يا هذ ! ما تريد منّي ؟ والله لا يخلو القلب من حبّ الدنيا ، والعين تنظر إلى أهلها ، والأُذن تسمع كلامهم هو والله ماأقول لك حتّى يأوي مريد الله في أكهاف الجبال وبطون الغيران[2] يظلّ مع الوحوش ومواردها ، ويأكل أجنية الشجر في أظلّتها ، ولا يرى في ذلك أنّ النعمة أتمّ على أحد منها عليه .

وقال الحسن : ما يغترّ بالدنيا ويسكن إليها أو يأمن منها التغيّرات وحلول النكبات إلاّ جاهل مغرور ، وهي دار لا يدوم فيها سرور ، ولا يؤمن فيها محذور ، وقرنت مع السرّاء بالضرّاء ، والشدّة بالرخاء ، والنعيم بالبلاء ، فمع نعيمها البأساء ، ومع سرورها الترحاء[3] ، ومع صحّتها السقم ، ومع وجودها العدم ، ومع فرحاتها الترحات ، ومع سلامتها الآفات .

ولقد أشرنا في الفصل الأوّل من هذه الرسالة إلى بعض آفات الدنيا ورزاياها ، وكذلك هنا أطلنا الكلام في ذكر بلاياها بأحسن موعظة فأين أُذن واعية ، طوبى لمن يسمعها ، فهي لعمري كافية .

---

(١) كذا الأصلان والصحيح «الإكثار» بمعنى جمع المال .

(٢) الأكهاف جمع الكهف . والغيران جمع الغار .

(٣) الحزن والهم .

الفصل الحادي عشر

يشتمل على محاسن آداب النفس والمواعظ والأحاديث النبوية وأحوال الزهاد وأقوالهم وفي العجب

فلنقدّم العجب[1] لأنّه من الآفات المهلكة والموت بعده . روى أبو هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : كان رجلان في بني إسرائيل متواخيين ، وكان أحدهما مذنباً والآخر يجتهد في العبادة ، وكان المجتهد لا يزال يرى الآخر على الذنب فيقول له : أقصر فوجده يوماً على ذنب فقال له : اقصر ، فقال له : خلّني وربّي ، أبعثت عليّ رقيباً ؟ فقال له : والله لا يغفر الله لك ولا يدخلك الجنّة ، فقبض الله أرواحهما واجتمعا عند ربّ العالمين فقال لهذا المجتهد : أكنت بي عالماً أو كنت على ما في يدي قادراً ؟ فقال للمذنب : اذهب فادخل الجنّة برحمتي ، وقال للآخر : اذهبوا به إلى النار .

فقال بعضهم : لقد تكلّم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته يقول : إنّ المعصية بمنزلة السمّ القاتل ، والطاعة بمنزلة الترياق وهو سبب النجاة والخلاص ، لكنّ العاقل لا يشرب السمّ معتمداً على الترياق .

وهذا المجتهد إنّما استحقّ النار بمعصيته لا باجتهاده . وطاعته ومعصيته هٰهنا نوعان أحدهما : الإعجاب بعمله ، والإعجاب من المهلكات ، والثاني : هو أنه تألّى على الله بقوله : «والله لا يغفر الله لك ، ولا يدخلك الجنّة» والتألّي

(١) أنظر فيه أُصول الكافي (٢ : ٣١٣) .

على الله من أعظم الذنوب والخطايا ، قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم[1] : «ويل للمتألّين من أمّتي» .

وعن وهب قال : كان قبلكم رجل عبد الله عزّ وجلّ سبعين سنة يفطر من سبت إلى سبت فطلب إلى الله حاجة فلم يعطه فأقبل على نفسه فقال : لو كان عندك خير لقضيت حاجتك ، وإنّما أتيت من قِبلك ، فنزل عليه ملك من ساعته ، فقال له : يا ابن آدم ! إنّ ساعتك الّتي أزريت فيها على نفسك خير من عبادتك الّتي قد مضت .

وقال الشعبيّ : كان رجل إذا مشى أظلّه سحاب ، فقال رجل : لأمشينّ في ظلّه فأعجب الرجل بنفسه ، فقال : هذا يمشي في ظلّي فلمّا افترقا ذهب الظلّ مع ذلك الرجل .

وقال بعضهم : إنّ من صلاح توبتك أن تعرف ذنبك ، وإنّ من صلاح عملك أن ترفض عجبك ، وإنّ من صلاح شكرك أن تعرف تقصيرك .

وروي أنّ عمر بن عبد العزيز كان إذا خطب فخاف العجب قطع ، وإذا كتب فخاف العجب مزّق ، وقال : اللّهُمَّ إنّي أعوذ بك من شرّ نفسي .

وعن مطرّف بن عبد الله قال : لأن أبيت نائماً وأصبح نادماً أحبّ إليّ من أن أبيت قائماً وأُصبح معجباً[2] .

وروي أنّ شابّاً في بني إسرائيل رفض دنياه واعتزل الناس وجعل يتعبّد في بعض النواحي فخرج إليه رجلان من قومه ليردّاه إلى منزله فقالا له : يا فتى أخذت بأمر شديد لا تصبر عليه ، فقال الشابّ : قيام الناس بين يدي الله أشدّ من قيامي هذا فقالا له : إنّ لك أقرباء فعبادتك فيهم أفضل ، فقال الشابّ : إنّ ربّي إذا رضي عنّي أرضى عنّي كلّ قريب وصديق ، فقالا له : أنت شابّ لا

---

(١) رواه ابن الأثير في النهاية مادة (ألى) قال : يعني الذين يحكمون على الله ويقولون : فلان في الجنة وفلان في النار .

(٢) ذكره الشعراني في طبقاته الكبرى (١ : ٢٩) .

تعلم ، وإنّا قد جرّبنا هذا الأمر ونخاف عليك العجب ، فقال الشابّ : من عرف نفسه لم يضرّه العجب ، فنظر أحدهما إلى صاحبه وقال لـه : قم ، فإنّ الشـابّ قد وجد ريح الجنّة فلا يقبل قولنا .

وذكر في الخبر أنّ داود ﷺ خـرج إلى ساحـل البحر فعبـد ربّه سنـة فلمّا تمّت السنة قال : يا ربّ قد انحنى ظهري وكلّت عيناي ونفدت الدموع فلا أدري إلى مـا يصير أمـري فأوحى الله تعـالىٰ إلى ضفدع : اجيبي عبـدي داود ، فقـال الضفدع : يا نبيّ الله أتمنُّ على ربّك في عبادة سنـة ؟ والّذي بعثـك بالحقّ نبيّـاً إنّي على ظهـر برّيّـة منذ ستّين سنـة أُسبّحه وأحمـده وإنّ فرائصي[1] لتـرعـد من مخافة ربّي . فبكى داود ﷺ عند ذلك .

وقـال مسروق : كفى بـالمرء علمـاً أن يخشى الله وكفى بالمـرء جهـلاً أن يعجب بعمله .

وقال المسيح ﷺ : «يا معشر الحواريّين ! كم من سراج أطفـأه الريـح ، وكم من عابد أفسده العجب» .

ويُقال : أعسر العيوب إصلاحاً العجب واللّجاجة .

وقال حذيفـة المرعشيّ : إن لـم تخش أن يعـذّبك الله على أفضـل عملك فأنت هالك .

وقال أُويس القرنيّ رحمـه الله : كن في أمر الله تعـالىٰ كأنّـك قتلت الناس جميعاً .

وقـال حفص بن حميد : قلت لابن المبـارك : رجل قتـل رجلاً بين يـديّ فوقع في نفسي أنّي أفضل منه ، فقال : أمنك على نفسك شرّ من ذنبه .

وقال بعضهم : إذا رأيت العبد لجوجاً ممـارياً معجبـاً بنفسه فقـد استكمل الخسارة .

---

(١) جمع الفريصة : اللحمة بين الجنب والكتف أو بين الثدي والكتف ترعد عند الفزع .

وقال أبان بن أبي عيّاش : لا يكره الرخص إلاّ صاحب هوى أو معجب .

وأُثني على بعض الصحابة فقال : اللَّهُمَّ إنّي أعوذ بك من شرّ ما يقولون فاجعلني خيراً ممّا يظنّون ، ولا تؤاخذني بما لا يعلمون ، فإنّك تعلم ولا يعلمون .

وقال رجل لعائشة : متى أعلم أنّي محسن ؟ قالت : إذا علمت أنّك مسيء ، قال : ومتى أعلم أنّي مسيء ؟ قالت : إذا علمت أنّك محسن .

وقال خُليد بن دعلج : شهدت بكر بن عبد الله ومطرّفاً بالموقف ، فقال مطرّف : اللَّهُمَّ لا تردّهم اليوم من أجلي خائبين وقال بكر : ماأشرفها من موضع وأرجاها لهم لولا أنّي فيهم .

وقال يحيى بن معاذ : قد رأيت الرجل بلغ من العجب أنّه يقول : لو عرضت عليّ الحور العين ما التفتّ إليهنّ ، ولو[1] نظر إلى وصيفة جميلة يبلغ صياح قلبه العرش .

وقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : «إنّما هلاك الرجل منكم إعجابه بنفسه واستكثاره لعمله واستقلاله ذنوبه» .

وقال يحيى بن معاذ : ذنب أفتقر به إليك أحبّ إليّ من طاعة أدلّ بها عليك[2] .

وكان داود عليه السلام إذا أراد أن ينوح على نفسه يمسك عن الطعام والشراب وغشيان النساء سبعة أيّام ، ثمّ يأمر بمنبر يخرج إلى البرّيّة ويأمر سليمان عليه السلام أن يرتقي عليه وينادي أيّتها الوحوش والسباع ! أيّها الرجال والنساء أيّها الزهّاد والعبّاد ويا أصحاب الصوامع والأديار ! هلمّوا إلى سماع الزبور من دواد قال : فيجتمعون في تلك البرّيّة فيرتقي داود المنبر فيأخذ في قراءة الزبور حتّى إذا أتى ذكر الموت وأهوال القيامة جعلوا يبكون ويتضرّعون حتّى مات منهم خلق كثير

---

(١) الواو مع الجملة بعدها حالية .

(٢) أي افتخر بها عليك .

من كلّ جنس ، فلمّا رأى سليمان ذلك قال : يا نبيّ الله تقطّعت الأحشاء وتصدّعت القلوب من بكائك على ذكر الذنوب وبالبكاء ارتفعت الأصوات وكثرت الأموات فماذا عليك لو قصّرت ؟ قال : فأخذ داود في الدعاء فناداه أحد زُهّاد بني إسرائيل : ما أسرع ما أخذت في طلب الأجر ! فخرّ داود مغشيّاً عليه فقام سليمان ونادى : يا معشر الناس ! جهّزوا موتاكم ، من كان له صاحب فليقم إلى حبيبه وجهّزوهم ، فقد قتلهم ذكر الجنّة والنار .

وروي أنّه حضر مجلس داود أربعمائة من العذارى المتعبّدات اللاّبسات المسوح فلمّا أخذ داود في الوعظ وقراءة الزبور صحن جميعاً صيحة واحدة وفارقن الدنيا .

وروى شعيب بن حرب قال : كانت امرأة من حواريّي عيسى عليه السلام في متعبّد لها ، فأشرفت يوماً على ثمانية رهط من الحواريّين في صوامعهم ، فنادت بصوت جهوريّ :

ألا إنّما الدنيا كظلّ سكنته فلا بدّ يوماً أنّ ظلّك زائل

قال : فصعق الجميع فمات منهم ستّة وبقي اثنان .

وعن عبد الله بن وهب عن أبيه أنّ عابداً في بني إسرائيل كان في صومعة يتعبّد فإذا نفرٌ من الغواة قالوا : لو استنزلناه بشيء ، فذهبوا إلى امرأة بغيّ فقالوا لها : تعرّضي له قال : فجاءته في ليلة مظلمة وهو قائم يصلّي ، ومصباحه ثابت فلم يلتفت إليها ، فقالت : يا عبد الله ! الظلمة والغيث آوني إليك فلم تزل به حتّى أدخلها إليه ، فاضطجعت وهو قائم يصلّي ، فجعلت تتقلّب وتريه محاسن خلقها ، حتّى دعته نفسه إليها فقال : لا والله حتّى تنظر كيف صبرك على النار ، فدنا من المصباح فوضع إصبعاً من أصابعه حتّى احترقت ، ثمّ رجع إلى مصلاّه فدعته نفسه إليها فعاد إلى المصباح فوضع إصبعه حتّى احترقت ثمّ رجع إلى الصّلاة فدعته نفسه إليها فعاد إلى المصباح فوضع إصبعه حتّى احترقت فلم يزل كذلك حتّى احترقت أصابعه وهي تنظر إليه فصعقت فماتت ، فلمّا أصبحوا غدوا لينظروا إليها وماذا صنعت فإذا بها ميّتة ، فقالوا : يا عدوّ الله يا مرائي ! وقعت

عليها ثمّ قتلتها ؟ ! فذهبوا به إلى ملكهم وشهدوا عليه ، فأُمر بقتله ، فقال : دعوني حتّى أُصلّي ركعتين قال : فصلّى ثمّ دعا ، فقال : أيّ ربّي ! إنّي أعلم أنّك لم تؤاخذني بما لم أفعل ، ولكن أسألك أن لا أكون عاراً على القرّاء بعدي .

قال : فردّ الله عليها روحها ، فقالت : انظروا إلى يده ثمّ عادت ميتة .

روي أنّ في التوراة مكتوباً «يا ابن آدم ! لا تشتهي أن تموت حتّى تتوب، وأنت لا تتوب حتّى تموت» .

وقال أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب عليه السلام[1] : «من أكثر ذكر الموت رضي من الدنيا باليسير» .

وروي[2] أنّ أمير المؤمنين صلوات الله عليه سمع إنساناً يقول : «إنّا لله وإنا إليه راجعون» فقال : قولنا : «إنّا لله» إقرار منّا لك بالملك[3] ، وقولنا : «وإنّا إليه راجعون» إقرار على أنفسنا بالهلك .

وقيل : من عجائب الدنيا أنّك تبكي على من تدفنه وتطرح التراب على وجه من تكرمه .

كأنّي برهطي يحملون جنازتي	إلى حفرة يحثى عليّ كثيبها[4]
وباكية حرّى تنوح وإنّني	على غفلة عن صوتها لا أُجيبها
أيا هادم اللّذّات ! ما منك مهرب	تحاذر نفسي منك ما سيصيبها
رأيت المنايا قسّمت بين أنفس	ونفسي سيأتي بعد ذلك نفيسها

روي[5] عن جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام عن جدّه قال : سأل

---

(١) من الرقم ٣٤٩ من حكمه في شرح عبده (٢ : ٢٢٧) .
(٢) الرقم ٩٩ من الحكم . المصدر المذكور (٢ : ١٦٣ ـ ١٦٤) .
(٣) في النهج : إقرار على أنفسنا بالملك .
(٤) حثا التراب : صبه . الكثيب : التل من الرمل .
(٥) قد ختم الديلمي كتابه إرشاد القلوب بهذه الرواية بتفصيلها مع اختلاف . راجعه ص ٣٢٩ ـ ٣٤٠ .

النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الله عزّ وجلّ فقال : أي ربّ ! أيّ الأعمال أفضل ؟ قال : ليس شيء عندي أفضل من التوكّل عليّ والرضا بما قسمت لهم .

يا أحمد ! وجبت محبّتي للمتحابّين فيّ ، ووجبت للمتقاطعين فيّ ، ووجبت للمتواصلين فيّ ، ووجبت كمال محبّتي للمتوكّلين عليّ ، وليس لمحبّتي علّة ولا غاية ولا نهاية ، كلّما رفعت لهم علماً لم يخطر على قلوب الناس ، أُولئك الّذين نظروا إلى المخلوقين بنظري إليهم ، ولم يرفعوا الحوائج إلى الخلق . بطونهم جائعة من أكل الحلال ، نعيمهم من الدنيا ذكري ومحبّتي ورضائي عنهم .

يا أحمد إن أحببت أن تكون أورع الناس فازهد في الدنيا وارغب في الآخرة ، فقال عليه السلام : كيف أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة ؟ فقال جلّ جلاله : خذ من الدنيا حظاً من الطعام والشراب واللباس ، ولا تحبس شيئاً لغد ، وداوم على ذكري ، فقال : يا ربّ ! كيف أدوم على ذكرك ؟ فقال : بالخلوة من الناس ، وتركك للحلو والحامض ، وفراغ بيتك وبطنك من الدنيا .

يا أحمد ! واحذر أن تكون مثل الصبيّ إذا نظر إلى الأخضر والأصفر أحبّه ، وإذا أُعطي شيئاً من الحلو والحامض اختزنه . قال عليه السلام : يا ربّ دلّني على شيء أتقرّب به إليك قال عزّ وجلّ : اجعل ليلك نهاراً ونهارك ليلاً ، فقال : يا ربّ كيف أكون كذلك ؟ قال تعالىٰ : اجعل نومك صلاة واجعل طعامك جوعاً .

يا أحمد ! وعزّتي وجلالي ما من عبد ضمن لي أربع خصال إلاّ أدخلته الجنّة : يطوي لسانه فلا يفتحه إلاّ بما يعنيه ويحفظ قلبه من الوسواس ، ويحفظ علمي ونظري إليه ويكون قرّة عينه الجوع .

يا أحمد ! لو ذقت حلاوة الجوع والصمت والخلوة ، وما ورث الناس منها ! قال : ما ميراثها ؟ قال : الحكمة وحفظ القلب ، والتقرّب إلى الله والخوف الدائم وخفة المؤونة بين الناس وقول الحق وأن لا تبالي عشت بيسر أو بعسر ، يا أحمد ! هل تعلم بأيّ وقت يتقرّب العبد إليّ ؟ قال : يا ربّ لا ،

قال : إذا كان جائعاً أو ساجداً .

يا أحمد ! العجب من عبد له قوت يوم من الحشيش أو غيره وهو يهتمّ لغد ، وعجبت لعبد لا يدري أنّي راض عنه أو ساخط وهو يضحك .

يا أحمد إنّ في الجنّة قصر من لؤلؤة ودرّة فوق درّة ، ليس فيها نظم ولا وصل ، فيها الخواصّ ، أنظر إليهم في كلّ يوم سبعين مرّة وأُكلّمهم ، كلّما نظرت إليهم ازداد ملكهم سبعين ضعفاً ، وإذا تلذّذ أهل الجنّة بالطعام والشراب تلذّذ أُولئك بذكري وبكلامي وبحديثي . قال : يا ربّ ! ما علامة أُولئك في الدنيا ؟ قال : هم مسجونون قد سجنوا ألسنتهم من فضول الكلام وبطونهم من فضول الطعام .

يا أحمد ! المحبّة لله المحبّة للفقراء والتقرّب إليهم ، قال : من الفقراء ؟ قال : الفقراء الّذين رضوا بالقليل وصبروا على الجوع ، وشكروا على الرخاء ، ولم يشكوا جوعهم ولا ظمأهم ، ولم يكذبوا بألسنتهم ، ولم يغضبوا على ربّهم ، ولم يغتمّوا على ما فاتهم ، ولم يفرحوا بما أتاهم .

يا أحمد ! لا تزيّننّ نفسك بأنبن اللباس[1] ، وبطيب الطعام ، وبلين الوطاء[2] ، فإنّ النفس مأوى كلّ سوء ، وهي رفيق السوء لا تجرّها إلى طاعة الله إلّا وتجرّك إلى المعصية ، تخالفك في طاعة الله ، وتطيعك فيما كره الله ، تطغى إذا شبعت ، وتشكو إذا جاعت ، وتغضب إذا افتقرت ، وتتكبّر إذا استغنت ، لأنّ النفس لا تذهب إلى خير ، وهي قرينة الشيطان ، فمثل النفس كمثل النعامة إذا حمل عليها لا تطير ، وهي إذا أُطعمت أكلت كثيراً ، وكمثل الدفلى[3] لونه حسن وطعمه مرّ .

يا أحمد ! أبغض الدنيا وأهلها ، وإنّ أهل الدنيا من كثر أكله وضحكه ونومه وغضبه ، قليل الرضا لا يعتذر إلى من أساء إليه ولا يقبل عذر من اعتذر

---

(١) كذا في الأصلين ، ولعل الصواب : أنبل اللباس ، أي أفضله .

(٢) بكسر الواو وفتحها : ما يفترش .

(٣) بكسر الدال وفتح اللام : نبت له ورد معجب لونه ، يقال له بالفارسية «خر زهره» .

إليه ، كسلان عند الطاعة ، شجاع عند المعصية . أمله بعيد ، وأجله قريب لا يحاسب نفسه ، قليل المنفعة كثير الفرح ، قليل الخوف عند الكلام . إنّ أهل الدنيا لا يشكرون عند الرخاء ولا يصبرون على الشدّة كثير الناس عندهم قليل يحمدون أنفسهم بما لا يعلمون ، ويتكلّمون بما لا يتمّون ، ويدّعون ما ليس لهم ، ويذكرون مساوي الناس ، ويخفون حسناتهم .

فقال صلى الله عليه وآله : يا ربّ كلّ هذا العيب في أهل الدنيا ؟ قل : يا أحمد ! إنّ عيب أهل الدنيا كثير ، فيهم الجهل والحمق ، لا يتواضعون لمن يتعلّمون منه ، وهم عند أنفسهم عقلاء ، وعند العارفين حمقاء ، وإنّ أهل الآخرة رقيقة وجوههم ، كثير حياؤهم ، قليل حمقهم ، كثير منفعتهم قليل مكرهم ، الناس منهم في راحة ، وأنفسهم منهم في تعب . كلامهم ضرورة ، محاسبون لأنفسهم متعبون لها . تنام أعينهم ولا ينام قلوبهم . أعينهم باكية ، وقلوبهم ذاكرة إذا كتب الناس من الغافلين كتب أولئك من الذاكرين ، في أوّل النعمة يحمدون ، ويشكرون في آخرها ، دعاؤهم عند الله مرفوع ، وكلامهم عند الله مقبول . تفرح الملائكة وتدأب دعوتهم تحت الحجب . ويحبّ الربّ أن يسمع كلامهم ، كما يحبّ الوالد الولد . لا يشغلهم شيء عن ذكر الله طرفة عين ولا يريدون كثرة الطعام ، ولا كثرة الناس . الناس عندهم موتى ، والله عندهم حيّ كريم يدعو المريدين كرماً ، ويزيد المقلّين تلطّفاً . إنّ أهل الآخرة لا يهنأهم الطعام منذ عرفوا ربّهم ، ولا يشغلهم مصيبة منذ عرفوا سيّئاتهم ، يبكون على خطاياهم ، يتعبون أنفسهم ولا يريحونها ، إنّ راحة أهل الآخرة في الموت والآخرة مستراح العابدين ، تؤنسهم دموعهم الّتي تفيض على خدودهم ، وجلاّسهم الملائكة الّذين عن أيمانهم وعن شمائلهم ، ومناجاتهم مع الجليل الّذي فوق عرشه . إنّ أهل الآخرة قلوبهم في أجوافهم قد قرحت ويقولون : من يستريح من دار الدنيا إلى البقاء ؟ .

يا أحمد ! هل تعرف ما للزاهدين عند الله ؟ قال صلى الله عليه وآله : يا ربّ ؟ لا أعرف ، قال الله تعالىٰ : يبعث الخلق ويناقشون في الحساب ، وهم من ذلك آمنون ، إنّ أدنى ما أُعطي الزاهدون في الدنيا أن أُعطيهم مفاتيح الجنان كلّها ،

حتّى يفتحوا أيّ باب شاءوا ، ولا أحجب عنهم وجهي ، ولأُنعمنّهم بألوان التلذّذ من كلامي ، ولأُجلسنّهم في مقعد صدق ، فأُذكّرنّهم ما صنعوا وتعبوا في دار الدنيا ، وما صنع بهم ، وأفتح لهم أربعة أبواب : باب يدخل عليهم منه الهدايا بكرة وعشيّاً من عندي ، وباب ينظرون إليّ كيف شاءوا بلا صعوبة ، وباب منه يطلعون إلى النار فينظرون إلى الظالمين كيف يعذّبون ، وباب يدخل عليهم الوصائف [و][1] الحور العين .

قال ﷺ : يا ربّ ! ما هؤلاء الزاهدون الّذين وصفتهم ؟ قال عزّ وجلّ : الزاهد الّذي ليس له بيت يخرب فيغتمّ بخرابه ، ولا له ولد يموت فيحزن لموته ، ولا له مال إذا ذهب حزن لذهابه ، ولا يعرف إنساناً يشغله عن ذكر الله طرفة عين ، ولا له فضل طعام فيسأل عنه ، ولا يرى عليه ثوباً ليّناً .

وجوه الزاهدين مصفرّة من تعب اللّيل وصوم النهار ، وألسنتهم كلال من ذكر الله تعالىٰ ، قلوبهم في صدورهم مطعومة من كثرة ما يخالفون أهواءهم ، قد ضمّروا أنفسهم من كثرة صمتهم ، قد أُعطوا المجهود من أنفسهم لا من خوف نار ولا من شوق جنّة ، ولكن نظروا في ملكوت السماوات والأرضين كما ينظرون إلى قومها ، قد صارت الدنيا والآخرة عندهم واحدة سواء . تموت الناس مرّة ، ويموت أحدهم في كلّ يوم سبعين مرّة من مجاهدة أنفسهم وأهوائهم والشيطان الّذي يجري في عروقهم . لو تحرّكت ريح لزعزعته ، فإن قام بين يديّ كأنّه بنيان مرصوص . لا أرى في قلبه شغلاً لمخلوق . فوعزّتي لأُحيينّه حياة طيّبة حتّى إذا فارق روحه جسده ، لا أُسلّط عليه ملك الموت ولا يلي قبض روحه غيري ، ولأفتحنّ لروحه أبواب السماء كلّها ، ولأرفعنّ الحجب كلّها دوني ولآمرنّ الجنان فلتتزيّننّ ، والحور العين فلتشرفنّ ، والملائكة فليصلّينّ ، والأشجار فلينمونّ ، وأثمار الجنّة فليبذلنّ ، ولآمرنّ ريحاً من الرياح الّتي تحت العرش فلتحمل جبالاً من الكافور فليذرينّ ومن جبال المسك فلينشرنّ ، وعوداً من غير نار فليدخننّ ، ولا يكون بيني وبين روحه ستراً ،

---

(١) زيادة من إرشاد القلوب .

ويقـول له عنـد قبض روحه : أهـلاً ومرحبـاً بقدومـك عليّ ، اصعـد بـالكـرامـة والبشرى ، وبالرحمة والرضوان ، وجنّات لهم فيها نعيم مقيم ، خالدين فيها .

فلو رأيت يا أحمد الروح كيف تُرنّي[1] بين الحجب ، ولو رأيت الملائكـة كيف يأخذها واحد ويعطيها آخر .

قال ﷺ : يا ربّ ! هل تعطي أحداً من أُمّتي مثل هذا ؟ قال : يا أحمد ! هذه درجة الأنبياء والصدّيقين لأمّتك ولأُمّة غيرك ولأقوام من الشهداء .

قال ﷺ : يا ربّ ! أيّ الزهّاد أكثر ، أزهّاد أُمّتي أم زهّـاد بني إسرائيـل ؟ قال تعالى : إنّ زهّاد بني إسرائيل في زهّاد أُمّتك كشعرة بيضاء في بقرة سوداء[2] قال ﷺ : وكيف ذلك فإنّ عدد بني إسـرائيل أكثـر من أُمّتي ؟ قال تعـالىٰ : إنّ أكثر بني إسرائيل ارتدّوا إلى الكفر بعد الإيمـان وشكّوا بعـد اليقين وجحدوا بعـد الإقرار .

قال ﷺ : فحمدت الله كثيراً ، وشكرت الله كثيراً ، ودعوت لهم فقلت : اللَّهُمَّ احفـظهم وارحمهم واحفظ عليهم دينهم الّـذي ارتـضيـت لهـم ، اللَّهُـمَّ ارزقهم إيمان المؤمنين الّذي ليس بعده شكّ ، وورعـاً ليس بعده رغبـة ، وخوفـاً ليس بعـده حمق ، وقربـاً ليس بعده بُعـدٌ ، وخشوعـاً ليس بعده ضجـر ، وحلماً ليس بعـده عجلة ، وعلماً ليس بعـده جهل ، وعقـلاً ليس بعـده جنـون . وامـلأ قلوبهم بالحياء منـك حتّى يستحيـوا منـك في كـلّ وقت وحين ، واصـرف عنهم آفات الدنيا وآفات الآخرة وآفات أنفسهم ووسواس الشيطان ، فإنّك تعلم مـا في نفسي إنّك أنت علاّم الغيوب .

قال : يا أحمد ! عليك بالورع فإنّ الورع رأس الـدين ووسط الدين وآخـر الدين وتقرّب إلى الله تعالىٰ بالورع فالورع كالشنـوف[3] بين الحليّ ، وإنّ الورع زين المؤمنين وعماد الدين وإنّ الورع مثله كمثل السفينـة ، كما أنّ من البحـر لا

---

(١) رنى يرني : غنّى .
(٢) في الإرشاد والنسخة (ر) : كشعرة سوداء في بقرة بيضاء .
(٣) جمع الشنف ـ بالفتح ـ ما علق في الأذن أو أعلاها من الحلي .

ينجون إلاَّ بالسفينة ، كذلك لا يقدر الزاهدون أن ينجوا من الدنيا إلاَّ بالورع .

يا أحمد ! ما عرفني عبد إلاَّ خشع لي ، وما يخشع لي عبد إلاَّ خضع .

يا أحمد ! إنّ الورع يفتح على العبد أنواع العبادة كما يفتح أبواب السماء للملائكة إنّ العبادة يكرم بها العبد عند الخالق ويصل بها إلى الله .

يا أحمد ! عليك بالصمت فإنّي أعمر مجلس قلوب الصامتين وأنا أُخرّب حلس المتكلّمين بما لا يعنيهم .

يا أحمد ! إنّ العبادة عشرة أجزاء تسعة منها في طلب الحلال فإذا طيّبت مطعمك ومشربك فأنت في حفظي وكنفي . قال ﷺ : يا ربّ ! ما أوّل العبادة ؟ قال : أوّل العبادة الصوم ، هل تعلم يا أحمد ما ميراث الصوم ؟ قال : لا يا ربّ . قال : ميراث الصوم قلّة الأكل وقلّة الكلام ، والعبادة الثانية الصمت ، ويورث من المعرفة اليقين ، فإذا استيقن العبد لا يُبالي كيف أصبح وأمسى بيسر أم بعسر ، فهذا مقام الراضين ، فمن عمل برضائي يلزمه ثلاث خصال : أُعرّفه علماً لا يخالطه الجهل ، وذكراً لا يخالطه النسيان ، ومحبّة لا يؤثر على محبّتي محبّة المخلوقين ، وإذا أحبّني حبّبته إلى خلقي وأفتح له عين قلبه إلى نور جلالي ، فلا أُخفي عليه علم خاصّة خلقي ، وأُناجيه في ظلم اللّيل وضوء النهار حتّى يقطع حديثه مع المخلوقين ، ومجالسه معهم فأُسمعه كلامي وكلام ملائكتي وأُعرّفه سرّي الّذي آثرته عن خلقي ، وأُلبسه الحياء حتّى يستحيي منه الخلق كلّهم ، ويمشي على الأرض مغفوراً له وأجعل قلبه وعاء ينظر بنظر قلبه إلى النار حتّى لا أُخفي عليه شيئاً من النار ، وأفتح عليه ما يمرّ على الناس في القيامة من الهول والشدّة ، وما أُحاسب به الأغنياء والفقراء ، والجهّال والعلماء ، وأُنوّمه في قبره ، وأُنزل عليه منكراً ونكيراً حتّى يسألاه ، ويرى غُمرة القبر واللّحد وهول المطّلع[1] وحسرة البلقع[2] ثمّ أنصب له ميزانه ، وأنشر ديوانه ثمّ أضع كتابه في يده يقرأ مبشّراً ، ثمّ أجعل بيني وبينه ترجماناً

---

(١) المطّلع ، موضع الإطلاع من إشراف إلى انحدار .

(٢) البلقع : الأرض القفر .

أرفعه إليّ فينكبّ مرّة ويقوم مرّة ، ويقعد مرّة ويسير مرّة .

والله الموفق والمسدد والمعين والمؤيّد فله الحمد على نعمائه .

هذا ما وجدته في كتاب المحاسن وليس هو محاسن البرقيّ[١] والّذي ذكر هنا شبيه بالمعراجيّة[٢] .

والآن نشرع في أحوال الزهّاد والعبّاد وكلامهم وأخبارهم ومواعظهم .

قال أبو عبد الله جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام[٣] : إنّ داود عليه السلام قال : يا ربّ ! أخبرني بقريني في الجنّة ، ونظيري في منازلي فأوحى الله تعالىٰ : إنّ ذلك متّى أبو يونس قال : فاستأذن الله عزّ وجلّ في زيارته فأذن له ، فخرج داود وسليمان ابنه صلّى الله عليهما حتّى أتيا موضعه ، فإذا هو في بيت من سعف[٤] ، فقيل لهما : هو في السوق فسألا عنه أهل السوق فقيل لهما : اطلباه في الحطّابين فقال لهما جماعة من الناس : نحن ننتظره ، الآن يجيء فجلسا ينتظرانه إذ أقبل وعلى رأسه وقر[٥] من حطب ، فقام إليه الناس فألقى عنه الحطب وحمد الله وقال : من يشتري طيّباً بطيّب ؟ فساومه واحد وزاده آخر حتّى باعه من بعضهم ، قال : فسلّما عليه فقال لهما : انطلقا بنا إلى المنزل ، واشترى طعاماً بما كان معه ، ثمّ طحنه وعجنه في نقير[٦] له ، ثمّ أجّج ناراً وأوقدها ، ثمّ جعل العجين في تلك النار وجلس معهما يتحدّث ثمّ قام وقد نضجت خبزته ، فوضعها في النقير وفلقها[٧] ، وذرّ عليها ملحاً ووضع إلى جنبه

---

(١) هو أحمد بن أبي عبد الله محمد بن خالد البرقي من «برقة» من أعمال قم ، المتوفى نحو ٢٧٤ هـ .

(٢) بهامش الأصل : المعراجية هي التي روتها العامة عن علي عليه السلام سمعها عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم لما عرج به إلى السماء .

(٣) الحديث مرسلاً في إرشاد القلوب ص ١٩٣ باب القناعة .

(٤) الصواب : فإذا هو بيت من سعف . كما في الإرشاد وضمير «هو» للموضع .

(٥) الوقر ـ بكسر الواو ـ الحمل الثقيل .

(٦) ما نقر وحفر من الحجر والخشب ونحوهما .

(٧) فلق الشيء : شقه وفي النسخة (ر) : فلفها .

مطهرة ملىء ماءً ، وجلس على ركبتيه ، وأخذ لقمة ، فلمّا رفعها إلى فيه قال : بسم الله ، فلمّا ازدردها[1] قال : الحمد لله ، ثمّ فعل ذلك بأخرى وأخرى ، ثمّ أخذ الماء فشرب منه فذكر اسم الله ، فلمّا وضعه قال : الحمد لله ربّ العالمين ، يا ربّ ! من ذا الّذي أنعمت عليه فأوليته مثل ما أوليتني ؟ قد صحّحت بدني وبصري وسمعي وقوّيتني حتّى ذهبت إلى شجر لم أغرسه ولم أهتمّ لحفظه ، جعلته لي رزقاً ، وسقت له من اشتراه منّي فاشتريت بثمنه طعاماً لم أزرعه ، وسخّرت لي النار فأنضجته[2] وجعلتني آكله بشهوة أقوى به على طاعتك فلك الحمد . قال : ثمّ بكى .قال داود لسليمان : قم فانصرف بنا ، فإنّي لم أر عبداً قطّ أشكر لله عزّ وجلّ من هذا . صلّى الله عليهم أجمعين .

دخل داود عليه السلام غاراً من غيران بيت المقدس فوجد حزقيل يعبد ربّه ، وقد يبس جلده على عظمه فسلّم عليه ، فقال : أسمع صوت شبعان ناعم فمن أنت ؟ قال : أنا داود قال : الّذي له كذا وكذا امرأة وكذا أمة ؟ قال : نعم ، وأنت في هذه الشدّة ؟ قال : ما أنا في شدّة ولا أنت في نعمة حتّى تدخل الجنّة .

جعفر بن محمّد الصَّادق عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «من عرف الله تعالىٰ منع فاه من الكلام ، وبطنه من الطعام ، وعنّى نفسه[3] بالصيام والقيام» .

قالت رابعة القيسيّة : ما سمعت الأذان إلاَّ ذكرت منادي يوم القيامة ، ولا رأيت الثلج إلاَّ ذكرت تطاير الصحف ، ولا رأيت الجراد إلاَّ ذكرت الحشر[4] .

قال بعض الحكماء[5] الّذين وقفوا على تابوت الإسكندر : انظر إلى حلم

---

(١) ازدرد اللقمة : بلعها .
(٢) كذا في النسخة (ر) وفي الأصل انضحته ـ بالحاء ـ سهواً .
(٣) عنى نفسه : حبسها .
(٤) مأخوذ من الآية ﴿**يخرجون من الأجداث كأنهم جراد منتشر**﴾ القمر ؛ الآية : ٧ .
(٥) سبق كلامهم ص ١٠٩ . راجعه .

النائم كيف انقضى ، وإلى سحاب الصيف كيف انجلى .

وقال نبيّ الله صلى الله عليه وآله وسلم لجبرائيل : ما لي [لا][1] أرى ميكائيل ضاحكاً قطّ ؟ قال : ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار .

وقيل : إنّ جهنّم تزفر زفرة لا يبقى ملك ولا نبيّ إلاَّ خرّ ترعد فرائصه ، حتّى إنّ إبراهيم عليه السلام ليجثو على ركبتيه فيقول : ربّ لا أسألك إلاَّ نفسي .

الخدريّ يرفعه : لو ضرب بمقمع من مقامع الحديد الجبل لتفتت فعاد غباراً .

وقال الحسن البصريّ : إنّ الأغلال لم تجعل في أعناق أهل النار أنّهم أعجزوا الربّ ولكن إذا طغى بهم اللّهب أرستهم[2] في النار . ثمّ خرّ الحسن مغشيّاً عليه ثمّ قال : ودموعه تحادر[3] : يا ابن آدم ! نفسك ، فإنّما هي نفس واحدة إن نجت نجوت ، وإن هلكت هلكت ولم ينفعك من نجا ، كلّ نعيم دون الجنّة حقير ، وكلّ بلاء دون النار يسير .

آخر : يا من الكلمة تقلقه والبعوضة تسهره ! أمثلك يقوى على وهج[4] السعير أو تطيق صفحة خدّه على نفخ سمومها ، ورقّة أمعائه على خشونة ضريعها ، ورطوبة كبده على تجرّع غسّاقها .

أمير المؤمنين عليه السلام[5] : «اعلموا أنّه ليس لهذا الجلد الرقيق صبر على النار ؛ فارحموا أنفسكم ، فإنّكم قد جرّبتموها في مصائب الدنيا ، فرأيتم جزع أحدكم من الشوكة تضنيه[6] ، والعثرة تدميه ، والرمضاء[7] تحرقه ، فكيف إذا

---

(١) زيادة منا ، ليست في الأصلين .
(٢) أرسى الوتد في الأرض : ضربه فيها .
(٣) تحادر الدمع : نزل . وفي الأصلين : تجادر ـ بالجيم ـ غلطاً .
(٤) وهجت النار ـ من باب وعد ـ : اتقدت .
(٥) من الرقم ١٨١ من خطبه . أنظر شرح عبده (١ : ٣٦٩) .
(٦) أضنى المرض فلاناً : أثقله وألزمه الفراش . وفي ما حضرنا من نسخ النهج وشروحه «تصيبه» وما في الأصلين أوفق مع ما بعده .
(٧) الرمضاء : شدة الحر ، الأرض الحامية من شدة حر الشمس .

كان بين طابقين[1] من نار ، ضجيع حجر وقرين شيطان ، أعلمتم أنّ مالكاً إذا غضب على النار حطم بعضها بعضاً لغضبه ، وإذا زجرها وثبت بين أبوابها جزعاً من زجرته ، أيّها اليفن[2] الكبير الّذي قد لهزه القتير ! كيف أنت إذا التحمت أطواق النار بعظام الأعناق ، وتشبّثت[3] الجوامع حتّى أكلت لحوم السواعد» .

وقال عليه السلام[4] : «فلو رميت قلبك نحو ما يوصف لك من الجنّة لعزفت نفسك[5] عن بدائع ما أُخرج إلى الدنيا من شهواتها ولذّاتها ، وزخارف مناظرها بالفكر في اصطفاف[6] أشجار غيّبت عروقها في كثبان[7] المسك على سواحل أنهارها ، وفي تعليق كبائس[8] اللؤلؤ الرطب في عساليجها وأفنانها[9] ، وطلوع تلك الثمار المختلفة في علوّ أكمامها تجنى من غير تكلّف فتأتي على مُنية مجتنيها ، ويُطاف على نزّالها في أفنية قصورها ،بالأعسال المصفّية[10] والخمور

---

(١) في الأصلين «طابقتين» قال ابن أبي الحديد (٢ : ٨٣٣) : «الطابق ـ بالفتح الآجرة الكبيرة ، وهو فارسي معرب ، وضجيع حجر يومَأ فيه إلى قوله تعالى ﴿**وقودها الناس والحجارة**﴾ .

(٢) في الأصلين «اليهن» وهو سهو . واليفن ـ بالتحريك ـ الشيخ المسن . ولهزه : خالطه والقتير : الشيب .

(٣) في النهج : «نشبت» وهو أحسن والجوامع جمع الجامعة . ومنها الغل الجامعة .

(٤) من الخطبة ١٦٣ بشرح عبده (١ : ٣٣٠) .

(٥) عزف ـ بالعين والزاي من بابي ضرب ونصر ـ عن الشيء : زهد فيه وكرهه ، وهي رواية ابن أبي الحديد (٢ : ٧٣٩) وفي شرح عبده «لغرفت» بالغين والراء ، وقد أتعب نفسه في تفسيره فقال : «غرفت الإبل ـ كفرح ـ اشتكت بطونها من أكل الغرف وهو الثمام ، أي لكرهت بدائع الدنيا كما تكره الإبل الثمام . أو لتألمت نفسك من النظر والتناول لما تراه من بدائع الدنيا كما تألم بطون الإبل من أكل الثمام» ولا يخفى ما فيه من التعسف والتكلف .

(٦) افتعال من الصف . وفي شرح عبده «اصطفاق» من اصطفق العود : تحركت أوتاره .

(٧) جمع الكثيب : التل من الرمل وغيره .

(٨) في الأصلين «كنائس» والكبائس جمع الكباسة ـ بالكسر ـ العذق من النخل وغيره .

(٩) العساليج جمع عسلوج ـ بالضم ـ ما لان من قضبان الشجر . والأفنان جمع فنن ـ بالتحريك ـ الغصن .

(١٠) في شرح عبده «المصفقة» وهما بمعنى .

المروّقة . قوم لم تزل الكرامة تتمادى بهم حتّى حلّوا دار القرار ، وأمنوا نقلة الأسفار» .

وقال الرشيد لابن السّماك : عظني ، فقال له : احذر أن تصير إلى جنّة عرضها السماوات والأرض ولا يكون لك فيها موضع قدم .

أبو هريرة يرفعه : ما من أحد إلّا وعلى بابه رايتان : راية بيد ملك وراية بيد شيطان ، فإن خرج في طاعة الله تعالىٰ تبعه الملك برايته حتّى يعود إلى بيته ، وإن خرج فيما يكره الله تبعه الشيطان برايته فلم يزل تحت راية الشيطان حتّى يرجع .

وبعضهم : مثّلت نفسي في النار ، أُعالج أغلالها وسعيرها وزقومها وزمهريرها ، فقلت : يا نفس ! أيشَ تشتهين ؟ قالت : أن أرجع إلى الدنيا فأعمل صالحاً أنجو به من هذا العذاب ، ومثّلتها في الجنّة مع حورها ألبس من سندسها وحريرها . فقلت : أيشَ تشتهين ؟ قالت : أن أرجع فأعمل عملاً أزداد به في الثواب ، فقلت لها : فأنت في الدنيا ، وفي الأمنة فاعملي .

وقال عيسى عليه السلام لعابد[1] : ما تصنع ؟ قال : أتعبّد ، قال عليه السلام : فمن يعود عليك ؟ قال : أخي ، قال عليه السلام : أخوك أعبد منك .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام[2] : «كونوا بقبول العمل أشدّ اهتماماً بالعمل ، فإنّه لا يقبل عمل إلّا بالتقوى وكيف يقلّ عمل يتقبّل ؟» .

وقال بعضهم : صفّ عملك من الآفات وإن قلّ ، تسعد به في الدارين ، ومن لم يتّق الآفات في عمله فإنّه لا يكاد يفلح وإن أكثر اجتهاده ، وإنّما ارتفع القوم لاعتنائهم بإصلاح سرائرهم فعند ذلك أيّدهم بالنصر على الشيطان وبصّرهم مكائده .

وقال بعضهم : لأن أدخل النار وقد أطعت الله أحبّ إليّ من أن أدخل

---

(١) في النسخة (ر) : لرجل .

(٢) سبق جزء منه ص ٢٠٤ وهو الرقم ٩٥ من حكمه عليه السلام .

الجنّة وقد عصيت الله .

وقيل ليعقوب عليه السلام : إنّ بمصر رجلاً يطعم المسكين ويملأ حجر اليتيم ، فقال : ينبغي أن يكون منّا أهل البيت ، فنظروا فإذا هو يوسف عليه السلام .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام[1] : «من تردّد في الريب[2] وطئته سنابك الشياطين ، أُوصيكم بتقوى الله وإدامة التفكّر ، فإنّ التفكّر أبو كلّ خير وأُمّه» .

وعنه عليه السلام : «من عرف الله أحبّه ، ومن عرف الدنيا زهد فيها ، والمؤمن لا يلهو حتّى يغفل ، فإذا تفكّر حزن» .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «أوّل ما يحاسب العبد به يوم القيامة أن يُقال له : ألم أصحّ بدنك وأروك من الماء البارد ؟» .

وقال أمير المؤمنين عليه السلام في قوله تعالىٰ : ﴿لتسألنّ يومئذ عن النعيم﴾[3] قال : «الأمن والصحّة والعافية» .

وقال فيدخة بن ذؤيب : كنّا نسمع نداء عبد الملك من وراء الحجرة في مرضه : يا أهل النعم ! لا تستقلّوا شيئاً من النعم مع العافية .

وروي أنّه لمّا حضرته الوفاة أمر وصعد به إلى أرفع سطح في داره ، فقال : يا دنيا ! ما أطيب ربحك ! يا أهل العافية لا تستقلّوا شيئاً منها .

وقال بعضهم : إذا كان السرب[4] آمناً لم يكن الشرب آجناً[5] .

وقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : «من فتح على نفسه باب مسألة من غير فاقة نزلت

---

(١) إلى قوله «الشياطين» من الرقم ٣١ من حكمه في شرح عبده (٢ : ١٥٠ ـ ١٥١) .
(٢) في الأصلين «من تردد في الذنب» وهو سهو ، وللكلام صدر في النهج يعين صحة «الريب» . قال العلامة عبده : «الريب : الظن ، أي الذي يتردد في ظنه ولا يعقد العزيمة في أمره تطؤه سنابك الشياطين ، جمع سنبك ـ بالضم ـ طرف الحافر ، أي تستزله شياطين الهوى فتطرحه في الهلكة» .
(٣) سورة التكاثر ؛ الآية : ٨ ، والرواية في تفسير البرهان (٤ : ٥٠٤) عن ورام .
(٤) بالفتح : الطريق ، وبالتحريك : القناة يدخل منها الماء .
(٥) أجن الماء ـ من باب علم وضرب ونصر ـ : تغير لونه وطعمه .

به ، أو عيال لا يطيقهم ، فتح الله تعالىٰ عليه باب فاقة من حيث لا يحتسب» .

ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ : «من تقبّل لي واحدة أتقبّل له الجنّة» فقلت : أنا فقال : «لا تسأل الناس» فكان ثوبان إذا سقط ثوبه لم يأمر أحداً أن يناوله ، وينزل هو فيأخذه .

وقال ذو النون المصريّ : خرجت حاجّاً إلى بيت الله الحرام ، بينا أطوف إذا أنا بشخص متعلّق بأستار الكعبة يبكي ويصيح ويقول : بلائي من غيرك ، وشوقي إليك إلٰهي عجباً لمن عرفك كيف يسلوك[1] ، ولمن ذاق حبّك كيف يجفوك ، ثمّ سجد فسمعته يعاتب نفسه ويبكي ويقول : أمهلك فما ارعويت[2] ، وستر عليك فما استحييت ، وسألك حلاوة المناجاة فما باليت . ثمّ رمى بطرفه إلى السّماء فقال :

روّعت قلبي بالفراق ولا أرى ... شيئاً أمرّ من الفراق فأوجعا
حسب الفراق بأن يفرّق بيننا ... قد كان ما قد كنت فيه مروّعا

وقال المزنيّ[3] : دخلت على الشافعيّ في مرضه الّذي مات فيه فقلت له : كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت من الدنيا راحلاً ، ولإخواني مفارقاً ، ولسوء فعالي ملاقياً ، وبكأس المنيّة شارباً ، وعلى الله وارداً . فوالله ما أدري أروحي إلى الجنّة تصير فأُهنّئها ، أو إلى النار فأُعزّيها ثمّ بكى وأنشأ يقول :

فلمّا قسا قلبي وضاقت مذاهبي ... جعلت رجائي نحو عفوك [سُلّما
تعاظمني ذنبي فلمّا قرنته ... بعفوك ، ربّي ! كان عفوك] أعظما[4]
فما زلت ذا عفو عن الذنب لم تزل ... تجود وتعفو منّة وتكرّما

وقال المزنيّ : سمعت الشافعيّ يقول : لو أنّ الدنيا علّقت تباع في السوق

---

(١) سلا الشيء وسلا عنه : نسيه .
(٢) ارعوى عنه : كف .
(٣) هو أبو إبراهيم إسماعيل بن يحيى . ذكره مع الخبر والأبيات ياقوت في معجم الأدباء (١٧ : ٣٠٣) . والغزالي في الاحياء (٤ : ٤٨٣ - ٤٨٤) .
(٤) بين المعقوفين من النسخة(ر) .

لما اشتريتها برغيف ، لما أرى فيها من الآفات .

وقال الربيع : سمعت الشافعيّ يقول : يحتاج طالب العلم إلى ثلاث أشياء : أحدها طول العمر ، والثاني سعة اليد ، والثالث الذكاء .

وكان الشافعيّ يقول : لا تشغل قلبك بمن لا يشغل قلبه بك .

وذكر أهل التاريخ[(١)] أنّ محمّد بن إدريس الشافعيّ ولد سنة خمسين [ومائة][(٢)] في السنة[(٣)] الّتي مات فيها أبو حنيفة[(٤)] وكان من المغالين في محبّة أمير المؤمنين عليّ بن أبي طلب عليه السلام حتّى نسبه كثير من جهّال العامّة إلى الرفض . فيدلّ على ذلك قوله :

إذا نحن فضّلنا عليّاً فإنّنا ... روافض بالتفضيل عند ذوي الجهل
وفضل أبي بكر إذا ما ذكرته ... رميت بنصب عند ذكري للفضل
ولا زلت ذا رفض ونصب كلاهما ... بحبّيهما حتّى أُوسّد في الرمل

وقال أيضاً :

قالوا: ترفّضت، قلت: كلّا ... ما الرفض ديني ، ولا اعتقادي
لكن تواليت غير شكّ ... خير إمام وخير هادي
إن كان حبّ الوليّ رفضاً ... فإنّني أرفض العباد

حكى أبو بكر البيهقيّ[(٥)] في الكتاب الّذي صنّفه في مناقب الشافعيّ أنّ

---

(١) أُنظر معجم الأدباء (١٧ : ٢٨٢) ووفيات الأعيان (٣ : ٣٠٥ ، برقم ٥٣٠) وغيرهما .
(٢) زيادة صحيحة من النسخة (ر) .
(٣) وقال ياقوت : في اليوم الذي مات فيه أبو حنيفة .
(٤) بهامش الأصل : ومن جملة خرافات العامة أنهم قالوا : إن الشافعي لبث في بطن أُمه أربع سنين لم يخرج رعاية للأدب مع أبي حنيفة فلما مات ولد بعد موت أبي حنيفة في ذلك اليوم .
(٥) الأبيات وخبر البيهقي في الفصول المهمة : ٣ ـ ٤ وفيه ثلاثة أبيات أُخر لم يذكرها المؤلف وهي هذه :

يا راكباً قف بالمحصب من منى ... واهتف بقاعد خيفها والناهض
سحراً إذا فاض الحجيج إلى منى ... فيضاً كملتطم الفرات الفائض =

الشافعيّ قيل له : إنّ أناساً لا يصبرون على سماع منقبة أو فضيلة لأهل البيت عليهم السلام وإذا أحد يذكر شيئاً من ذلك قالوا : تجاوز عن هذا فإنّ هذا رفض ، فأنشأ الشافعيّ يقول :

إذا في مجلس ذكروا عليّاً وسبطيه وفاطمة الزكيّه
فأجرى بعضهم ذكرى سواهم فأيقن أنّه لسلقليّه[1]
إذا ذكروا عليّاً أو بنيه تشاغل بالروايات العليّه
وقال : تجاوزوا يا قوم هذا فهذا من حديث الرافضيّه
برئت إلى المهيمن من أناس يرون الرفض حبّ الفاطميّه
على آل الرسول صلاة ربّي ولعنته لتلك الجاهليّه[2]

وذكر هذا صاحب كتاب «الفصول المهمّة في معرفة الأئمّة» وهو كتاب ألّفه بعض[3] علماء العامّة في فضائل أهل البيت عليهم السلام .

حكي أنّ عبد الله بن خالد أُكره على قضاء إصبهان ، وكان من المتعبّدين الورعين قال يحيى بن مطرّف : مرّ عبد الله بن خالد يوماً يريد مجلس الحكم وجونته[4] على عنق غلام له ، فوقع الرجل حمله عن حمار له فقال : أعينوني على حمل هذا ، فقال عبد الله لغلامه : ضع الجونة ووضع عبد الله كساه عن عاتقه ، فحمل مع غلامه على حمار الرجل ، ثمّ لبس كساه وتوجّه إلى المجلس . وجلس يوماً بالمدينة للقضاء فحكم بشيء فقال المحكوم عليه : أيّها القاضي ازخدا بترس فوضع يده على رأسه وجعل يضرب بيده على رأسه ويقول : قاضي خاكش بسر قاضي خاكش بسر فختم جونته وديوانه وهرب ولم ير

= إن كان رفضاً حبّ آل محمد فليشهد الثقلان أني رافضي
وذكرها ياقوت (١٧ : ٣١٠) عن الربيع بن سليمان عن الشافعي .

(١) بهامش الأصل : السلقلقية المرأة التي تحيض من دبرها .
(٢) وبعض هذه الأبيات في مناقب ابن شهر آشوب (١ : ٣) .
(٣) هو نور الدين علي بن محمد بن أحمد بن عبد الله الصفاقسي المشهور بابن الصباغ المالكي المكي ، أصله من مدينة غزة ، ولد في ذي الحجة سنة ٧٨٤ وتوفي ٨٥٥ هـ أُنظر مقدمة كتابه المذكور .
(٤) بالضم : سلة مغشاة بالأدم ، تكون عند العطارين .

بعده إلَّا يوماً في الثغر حارساً .

وقال الإمام محمّد بن عليّ الباقر عليه السلام [1] : «ما دخل قلب امرىء شيء من الكبر إلَّا نقص من عقله مثل ما دخله من ذلك ، قلّ ذلك أو كثر» .

وقال عليه السلام[2] : «الغنى والعزّ يجولان في قلب المؤمن : فإذا وصلا إلى مكان التوكّل أوطناه» .

وقال عليه السلام [3]: «عالم ينتفع بعلمه أفضل من ألف عابد» .

وقال عليه السلام[4] : «أوصاني أبي فقال : لا تصحبنّ فاسقاً فإنّه بائعك بأُكلة فما دونها قلت : يا أبت ! وما دونها ؟ قال : يطمع فيها ثمّ لا ينالها . ولا تصحبنّ البخيل . فإنّه يقطعك في ماله أحوج ما كنت إليه . ولا تصحبنّ كذّاباً فإنّه بمنزلة السراب يبعّد منك القريب ويقرّب منك البعيد . ولا تصحبنّ أحمق فإنّه يريد أن ينفعك فيضرّك . ولا تصحبنّ قاطع رحم فإنّي وجدته ملعوناً في كتاب الله في ثلاثة مواضع»[5] .

وقال عليه السلام : «سلاح اللّئام قبيح الكلام» .

وقال لابنه عليه السلام : «إيّاك والكسل والضجر ، فإنّهما مفتاح كل شرّ ، إنّك إن كسلت لم تؤدّ حقّاً، وإن ضجرت لم تصبر على حقّ» .

وقال[6] : «إيّاكم والخصومة فإنّها تفسد القلب وتورث النفاق [وتكسب الضغائن]» .

---

(١) وانظر في الكبر أُصول الكافي (٢ : ٣٠٩ و ٣٢٨) وجامع السعادات (١ : ٣٤٦) .

(٢) رواه الكليني عن الصادق عليه السلام ، أنظر أُصول الكافي (٢ : ٦٥) باب التوكل .

(٣) رواه عن الباقر عليه السلام في جامع السعادات (١ : ١٠٤) فصل شرف العلم والحكمة .

(٤) من وصية أوصى بها الإمام زين العابدين ابنه الباقر عليه السلام ينهاه عن مجالسة خمسة رواها الكليني بطولها في أُصول الكافي (٢ : ٦٤١) باب من تكره مجالسته ومرافقته .

(٥) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٧ ، الرعد ؛ الآية : ٢٥ ، ومحمد ؛ الآية : ٢٣ .

(٦) رواه الكليني (٢ : ٣٠١) عن الصادق عليه السلام مع زيادة جعلناها بين المعقوفين .

وقال ﷺ في قوله تعالىٰ : ﴿وإذا رأيت الّذين يخوضون في آياتنا﴾[1] : «هم أصحاب الخصومات» .

وقال ﷺ : «ما من عبادة أفضل من عفّة بطن وفرج ، وما من شيء أحبّ إلى الله تعالىٰ من أن يسأل ، وما يدفع القضاء إلاّ الدعاء . وكفى بالمرء عيباً أن يبصر من الناس ما يعمى عليه من نفسه . وأن يأمر الناس بما لا يستطيع التحوّل عنه ، وأن يؤذي جليسه بما لا يعنيه» .

كرز بن وبرة العابد سكن جرجن وبها مات، وقال صاحب تاريخ جرجان : دخل كرز جرجان غازياً مع يزيد بن المهلّب سنة ثمان وتسعين ، ثمّ سكن جرجان ، واتّخذ بها مسجداً وهو باق إلى اليوم بقرب قبره ، وكان معروفاً بالزهد والعبادة . روى عن أنس بن مالك والربيع بن خيثم .

روي عن ابن فضيل عن أبيه قال : لم يرفع كرز رأسه إلى السماء أربعين سنة حياء من ربّه تعالىٰ .

وعن ابن فضيل عن أبيه أنّ كرز بن وبرة كان يصلّي حتّى ورم قدماه ، فيحفر الحفيرة ثمّ يقوم فيها من تورّم قدميه .

وعن ابن شبرمة قال : صحبنا كرزاً وكان لا ينزل منزلاً إلاّ ابتنى مسجداً فقام يصلّي فيه وقال :

لو شئت كنت ككرز في تعبّده ... أو كابن طارق حول البيت والحرم
قد حال دون لذيذ العيش خوفهما ... وسارعا في طلاب الفوز والكرم

قال ابن شبرمة : سأل كرز ربّه[2] عزّ وجلّ أن يعطيه الاسم الأعظم على أن لا يسأل به شيئاً إلاّ أعطاه الله ذلك فسأل أن يقوى أن يختم القرآن في اليوم واللّيلة ثلاث مرّات .

وعن أبي بشر قال : كان كرز من أعبد الناس في زمانه ، وكان قد امتنع

(١) سورة الأنعام ؛ الآية : ٦٨ .
(٢) الخبر مضطرب ، والمقصود واضح .

من الطعام حتّى لم يوجد عليه من اللّحم إلاَّ قدر ما يوجد على العصفور ! وكان يطوي أيّاماً كثيرة ، وكان إذا دخل في الصَّلاة لا يرفع طرفه يميناً ولا شمالاً وكان من المحبّين لله[1] .

قال مالك بن دينار : خرج الناس من الدنيا ولم يذوقوا أطيب شيء فيها ، قالوا : وما هي يا أبا يحيى ؟ قال : معرفة الله عزّ وجلّ .

وقال مالك : ما تنعّم المتنعمون بمثل ذكر الله عزّ وجلّ .

وقال : قرأت في التوراة : «أيّها الصدّيقون ! تنعّموا بذكري في الدنيا فإنّه لكم في الدنيا نعيم وفي الآخرة جزاء» .

وقال مالك : إنّ الصدّيقين إذا قرىء عليهم القرآن طربت قلوبهم إلى الآخرة .

وقال : وجدت في بعض الكتب سبّحوا الله أيّها الصدّيقون بأصوات حزينة .

وقال مالك : لا يبلغ الرجل منازل الصدّيقين حتّى يترك زوجته كأنّها أرملة[2] ويأوي إلى منازل الكلاب .

وقيل لمالك : ألا تتزوّج ؟ قال: لو استطعت لطلّقت نفسي .

وقال مالك : إنّ البدن إذا سقم لم ينجع فيه طعام ولا شراب ولا نوم ولا راحة ، وكذلك القلب إذا علقه حبّ الدّنيا لم تنجع فيه الموعظة .

وقال مالك : في بعض الكتب : إنّ الله تعالى قال : «إنّ أهون ما أنا صانع بالعالم إذا أحبّ الدنيا أن أُخرج حلاوة ذكري من قلبه» .

وقال محمّد بن عمر : ما كان لمالك إلاَّ درهمان درهم لورقة كاغذ ، ودرهم يشتري به خوصاً يعمل به ، وكان أُدمه كلّ سنة ملحاً بفلسين ، وكان يكتب المصاحف ولا يأخذ عليها من الأجر أكثر من عمل يده ، وكان يكتب

---

(١) بهامش الأصل : «المخبتين . ظ» .

(٢) المرأة التي مات زوجها .

المصحف أربعة أشهر .

وقال : أُعطي البقّال كلّ شهر درهماً ودانقين فـآخذ منـه ستّين رغيفاً لكـلّ ليلة رغيفين .

وقال ابن المبارك : وقع حريق بالبصرة فأخذ مالك المصحف وأخذ بطرف كسائه يجرّه ، وقال : هلك أصحاب الأثقال .

وقال مالك : قال عيسى عليه السلام : «خشيـة الله وحبّ الفردوس يتبـاعدان من زهرة الدنيا ويورثان الصبر على المشقّـة ، وإنّ أكل الشعيـر والنوم على المـزابل مع الكلاب لقليل في طلب الفردوس» .

وقال مالك : لولا أن يقول الناس : «جُنّ مالك» للبست المسوح ووضعت الرماد على رأسي أُنادي في الناس : من رآني فلا يعص ربّه .

وقال مالك : كلّ جليس لا تستفيد منه خيراً فاجتنبه .

وقال : كان الأبرار يتواصون بثلاث : بسجن اللســان ، وكثرة الإستغفـار ، والعزلة .

وقال مالك : مثل قرّاء هذا الزمان مثل مرقة الطبّاخين ، ريحها طيّبة وليس لها طعم .

وقال : لئن يردّ الرجل درهماً من حرام خير له أن يتصدّق بمائة ألف .

وقـال مالـك : إذا رأيت قسـوة في قلبك ووهنـاً في بدنـك ، وحرمـاناً في رزقك فاعلم أنّك تكلّمت فيما لا يعنيك .

وقال : ما ضرب العبد بعقوبة أعظم من قسوة القلب .

وقال مالك[١] :

أتـيـت الـقـبــور فـنــاديـتــهــا : أيـن الـمـعــظّم والـمــحـتــقــر؟

---

(١) أُنظر إحياء العلوم (٤ : ٤٨٧) .

وأيـن الـمـلبّـي إذا مـا دعـا ... وأيـن الـعـزيـز إذا مـا افـتـخـر؟
وأيـن الـمـدلّ بـسـلطانـه ... وأيـن الـقـويّ إذا مـا قـدر؟

فأجابه هـاتف :

تـفـانـوا جميعـاً فـمـا مخبـر ... ومـاتـوا جميعـاً ومـات الخبـر
تـروح وتـغـدو بـنـات الـثـرى ... فتمحـو محـاسن تلك الـصـور
فيـا سـائلي عـن أُنـاس مضـوا ... أمـالـك فيمـا مضى معتبـر؟

وجعل يقول : أُفّ للدنيا وطالبها .

وفي بعض الكتب : من ادّعى محبّتي وهو يجد لذّة الطعام والشراب فقد كذب .

يـا نـائمـاً والجـليـل يحـرسـه ... مـن كـلّ سـوء يـديـن فـي الـظلم
كـيـف تـنـام الـعـيـون عـن مـلك ... تـأتـيـك مـنـه فـوائـد الـنـعـم

وقال ذو النون المصريّ : رأيت غلاماً نحيفاً مصفرّ اللّون يمشي في البرّيّة بلا زاد ولا نعل فسلّمت عليه وقلت له : أراك على هذه الحالة! فبكى ثمّ قال :

ذاب مـمّـا فـي فـؤادي بـدنـي ... وفـؤادي ذاب مـمّـا فـي الـبـدن
اقـطعـوا حبـلي وإن شئـتـم صِـلوا ... كـلّ شيء مـنـكـم عـنـدي حـسـن

ثمّ غاب فلم أره .

وقال الحلّاج : ما ذكرناك إلّا عن غفلة ؛ لأنّ العبد إذا كان حاضراً لا ينطق بذكرك ، لأنّ مشاهدتك تحجب عن ذكرك فذكرك للغافلين لا للعارفين .

كتب زرّ بن حُبيش[1] إلى عبد الملك بن مروان كتاباً يعظه فيه ، وكان في آخره لا يطغيك في طول الحياة ما يظهر من صحّة بدنك ، فأنت أعلم

---

(١) زر بن حبيش بن حباشة بن أوس الأسدي ، تابعي من جلتهم ، أدرك الجاهلية والإسلام ولم ير النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكان فاضلاً عالماً بالقرآن ، كان ابن مسعود يسأله عن العربية ، سكن الكوفة . وعاش مائة وعشرين سنة وتوفي سنة ٨٣ بوقعة بدير الجماجم . الأعلام : ٣٣٣ .

بنفسك ، واذكر ما تكلّم به الأوّلون :

إذا الرجال ولدت أولادها   وبليت من كبر أجسادها
وجعلت أسقامها تعتادها   تلك زروع قد دنا حصادها

فلمّا قرأ عبد الملك الكتاب بكى حتّى بلّ طرف ثوبه ثمّ قال : صدق زر لو كتب إلينا بغير هذا كان أرفق .

وقال بقيّة عن إبراهيم بن أدهم أنّه قال : أقمت بمكّة سنة من السنين فأتت عليّ ليلة شديدة الظلمة ، شديدة المطر فقلت : خلا لي الطواف فلم أزل أطوف إلى وقت السحر الأعلى ورفعت يدي إلى السماء فقلت : اللّهُمَّ إنّي أسألك أن تعصمني عن كلّ ما تكره ، وإذا بقائل يقول : من الهوى أنت تسألني العصمة ، وكلّ عبادي يسألوني العصمة ، فإذا عصمتهم فعلى من أتفضّل ؟ قال شاعرٌ :

تربت يد سألت سواك ، وأجدبت   أرض بغير سحاب جودك توسم[1]
فالعزّ إلاّ من لديك محرّم   والمال إلاّ من يديك محرّم

احتضر عابد[2] فقال : ما تأسّفي على دار الأحزان والغموم والبلايا والخطايا والذنوب ، وإنّما تأسّفي على ليلة نمتها ، ويوم أفطرته ، وساعة غفلت فيها عن ذكر الله .

هذه الدنيا وإن سرّت قليل من قليل   إنّما العيش جوار اللّه في ظلّ ظليل
حيث لا تسمع من يؤذيك من قال وقيل

كان عليّ عليه السلام يتمثّل :

ومن يصحب الدنيا يكن مثل قابض   على الماء خانته فروج الأصابع

وقال[3] عليّ عليه السلام : قال لي يهوديّ : ما دفنتم نبيّكم حتّى اختلفتم فيه فقال له : إنّما اختلفنا عنه لا فيه . ولكنّكم ما جفّت أرجلكم من البحر حتّى

---

(١) ترب الرجل : افتقر . وسم الوسمي الأرض : أصابها ، والوسمي أول مطر الربيع .
(٢) أورده الديلمي في الإرشاد : ٣٠٩ .
(٣) الرقم ٣١٧ من الحكم في شرح عبده (٢ : ٢٢٠) قال العلامة عنده في تفسيره : أي اختلفنا في أخبار وردت عنه لا في صدقه وأصول الإعتقاد بدينه .

قلتم : ﴿**يا موسى اجعل لنا إلٰهاً كما لهم آلهة**﴾[1] .

رفع[2] رجل رجلاً إلى عليّ عليه السلام وقال : إنّ هذا زعم أنّه احتلم على أُمّي فقال : أقمه في الشمس فاضرب ظلّه .

قال رجل لصاحب منزل : أصلح خشب هذا السقف فإنّه يتفرقع[3] قال : لا تخف إنّما هو تسبيح قال : أخاف أن تدركه رقّة فيسجد .

دخلت أمّ أفعيّ العبديّة على عائشة فقالت : يا أُمّ المؤمنين ما امرأة قتلت ابناً لها صغيراً ؟ قالت : وجبت لها النار ، قالت : فما تقولين في امرأة قتلت من أولادها الكبار عشرين ألفاً ؟ قالت: خذوا بيد عدوّة الله. قال عبد الله بن المبارك :

يا ربّة الهودج! يا أُمّنا قتلت أولادك، ما ذنبنا؟
هبي جعلناك إماماً لنا فمن إذا حضت يصلّي بنا؟

خطب معاوية فقال : إن الله يقول : ﴿**وإن من شيء إلاّ عندنا خزائنه وما ننزّله إلاّ بقدر معلوم**﴾[4] فعلامَ تلومونني إذا قصّرت في إعطائكم ؟ فقال الأحنف : إنّا والله لا نلومك على ما في خزائن الله ، ولكن على ما أنزله لنا من خزائنه فجعلته أنت في خزائنك وحُلت بيننا وبينه .

وقال داود : إلٰهيْ كن لابني سليمان من بعدي كما كنت لي فأوحى إليه يا داود قل لابنك سليمان : يكون لي كما كنتَ لي حتّى أكون له كما كنت لك .

قال جميع بن عمير[5] : دخلت على عائشة فقلت : من كان أحبّ الناس إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ قالت : فاطمة ، قلت : إنّما أسألك عن الرجال ، قال : زوجها ، وما يمنعه ؟ إنّه كان لصوّاماً قوّاماً ولقد سالت نفس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في يده ، فردّه إلى فيه ، قلت : فما حملك على ما كان ؟ فأرسلت خمارها على وجهها وبكت وقالت : أمرٌ قضي عليّ .

---

(١) سورة الأعراف ؛ الآية : ١٣٧ .
(٢) رواه ابن شهر آشوب في المناقب (١ : ٤٨٩) باب قضاياه في عهد أبي بكر .
(٣) فرقع الأصابع : أنقضها فخرج منها صوت .
(٤) سورة الحجر ؛ الآية : ٢١ .
(٥) رواه إلى قولها «إلى فيه» السيد ابن طاوس في الطرائف ٣٨ وعنه البحار ط تبريز (٩٨ : ٣٩٠) وروي بعضه في المناقب (١ : ٣٩٢) وعنه البحار تبريز (٩ : ٣٨٦) .

الفصل الثاني عشر

في المـوت وما يتصـل به من ذكـر القبـر والنعش والتعزية والمرثية والنعي وغير ذلك

روى ابن عبّاس قـال : قـال رسـول الله ﷺ : إذا مـات لأحـدكم ميّت فحسّنوا كفنه ، وعجّلوا إنجاز وصيّته ، واعملوا له في قبره ، وجنّبـوه جار السـوء قيل : يا رسول الله ! وهل ينفع الجار الصالح في الآخرة ؟ قال : وهـل ينفع في الدنيا ؟ قالوا : نعم ، قال : وكذلك ينفع في الآخرة .

وفي وصيّته ﷺ لأبي ذرّ رضي الله عنه[1] : «زُر القبور تذكّر بها الآخرة ، ولا تردها باللّيل واغسل الموتى يتحرّك قلبك فـإنّ الجسد الخـاوي عظة بليغـة ، وصلّ على الجنائز لعلّ ذلك يحزّنك فإنّ الحزين في ظلّ الله» .

عن محمّد بن سعيد المدنيّ : مرّ رسـول الله ﷺ بمقبرة فقـال : «يا أهـل القبـور ! ألا أُحدّثكم بمـا حدث بعـدكم ؟ تزوّج نسـاؤكم ، وبيعت مسـاكنكم ، وقُسمت أمـوالكم ، فهل أنتم مخبـرون بما عـاينتم»؟ ثمَّ قال : «أمـا إنّهم لو أُذن لهم في الجواب لقالوا : وجدنا خير الزاد التقـوى» .

لمّا مات الحسن ﷺ بلغ موته معـاوية سجـد وسجد من حـوله ، فـدخل عليه ابن عبّاس فقال : له : يا بن عبّاس ! أمات أبو محمّـد ؟ قال : نعم يـرحمه الله ، بلغني أنّـك سجـدت . والله يـا ابن آكلة الأكباد ! لا يسـدّ حسـدك إيّـاه

---

(١) رواه الغزالي (٤ : ٤٩٠) باب زيارة القبور .

حفرتك ، ولا يزيد انقضاء أجله في عمرك .

لمّا مات عثمان بن مظعون كشف النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الثوب عن وجهه فقبّل ما بين عينيه وبكا طويلاً فلمّا رفع على السرير فقال : طوباك يا عثمان لم تلبسك الدنيا ولم تلبسها[1] .

بينا حسّان جالس وفي حجره صبيّ له يطعمه الزبد والعسل إذ شرق الصبيّ بهما فمات فقال :

اعمل وأنت صحيح مطلق مرح	ما دمت ـ ويحك يا مغرور ! ـ في مهل
يرجو الحياة صحيح ربّما كمنت	له المنيّة بين الزبد والعسل

قال أفلاطون : وكثير ما يعدّ الناس مصيبة الموت نقمة ويكرهونه ، ولو تدبّروا أمر الموت لعلموا أنّه محمود غير مذموم ؛ لأنّ الموت تمام طبعنا فلو لم يكن موت لم يكن إنسان لأنّ حدَّ الإنسان وصفته هو «الحيّ الناطق الميّت» فإن لم يكن بميّت فليس بإنسان ، ومع هذا فهو البريد إلى دار الآخرة ، وإن كانوا يكرهون ذلك . ومثل ذلك في الحقيقة لو أنّ إنساناً وهو نطفة ممازج القوّة ثمَّ خيّر نقله من نفس الطبع الممازج له لم يكن يختار غير ما هو فيه . ثمَّ إذا سبقت ـ المشيّة من بارئه والإرادة من خالقه نقله إلى أن صار في الأُنثيين ، فلو خيّر الانتقال لم يختر ذلك . ثمَّ ينقل إلى الرحم ، وهو أوسع محلّاً من الأُنثيين ، ولو خيّر لاختار الثبات . ثمَّ ينقل كرهاً بعد كره إلى الأحشاء والمشيمة[2] لتمام الكمال والكون ، فلو خيّر نقله إلى نسمة العالم لاختار مقامه . ثم إنّه لو سئم الرجوع إلى ما كان عليه من ضيق الرحم ومن قبل اختياره ما سواه هل كان يؤثر العود إليه ؟ ثمّ إذا قصدت الإرادة إزعاجه من جوف أُمّه وخروجه إلى نعيم هذا العالم إنّما ذلك على الكره منه ، ولو قيل له بعد مشاهدته فسحة العالم : ترجع إلى جوف أُمّك وما كنت عليه شحيحاً ؟ لكره ذلك وأباه ، وكذلك إن نقل إلى عالم البقاء وفسحته وإن كرهه لكلفة النقلة وكلفة المعرفة لما

(١) قريباً منها في الإستيعاب (٣ : ٨٧) .
(٢) في الأصلين «البشيمة» سهواً . والمشيمة غشاء يخرج مع الولد حين الولادة .

هو إليه صائر من الاغتباط بدوام البقاء الروحانيّ ، ثمّ لو خيّر بعد مشاهدته عالم البقاء الرجوع إلى الدنيا وتكون له بجميعها إلى انقضائها كان كمن قيل له : ارجع إلى جوف أمّك من بعد مشاهدته هذا العالم ، وليس الموت مكروهاً لمن قدّم وعقل وتدبّر إذ نحن في عالم محدود وملك محصور ، ودار زوال وسكنى انتقال .

قال أبو نواس :

غرّ جهولاً أمله ... يموت من جا أجله
ومن دنا من يومه ... لم تغن عنه حيله
وكيف يبقى آخر ... قد مات عنه أوّله؟
لا يصحب الإنسانَ من ... دنياه إلّا عمله

وفي الحديث المرفوع : «الموت راحة» .

قال بعض السلف : ما من مؤمن إلّا والموت خير له من الحياة [لأنّه إن كان محسناً فالله يقول : ﴿والآخرة خير] وأبقى﴾[1][2] وإن كان مسيئاً فإنّ الله تعالىٰ يقول : ﴿إنّما نملي لهم ليزدادوا إثماً﴾[3] .

وقال بعض الفلاسفة : لا يستكمل الإنسان حدّ الإنسانيّة إلّا بالموت ؛ لأنّ الإنسان حيّ ناطق ميّت .

وقال آخر : الصالح إذا مات استراح والطالح إذا مات استريح منه .

وقال آخر : ربّ موت كالحياة . وقال الشاعر :

وما الموت إلّا رحلة غير أنّها ... من المنزل الفاني إلى المنزل الباقي

وفي الحديث المرفوع[4] : «اذكروا هادم اللّذّات» يعني الموت .

---

(١) زيادة صحيحة من النسخة (ر) .
(٢) سورة الأعلى ؛ الآية : ١٧ .
(٣) سورة النساء ؛ الآية : ١٧٨ .
(٤) إحياء العلوم (٤ : ٤٥٤) إرشاد القلوب : ٧١ .

يــا مــوت مــا أجــفــاك مــن نــازل يــنــزل بــالــمــرء عــلى رغــمــه
يـسـتـقـلب الـعـذراء من خـدرهـا ويـأخـذ الـواحـد مـن أمّـه

وسئل بعض الفلاسفة عن الموت فقال : مفازة من ركبها ضلّ خبره .

وقال بعضهم[١] : الناس في الدنيا أغراض تنتضل فيها سهام المنايا .

وقال بعض السلف : الموت [ما أصعب][٢] ما قبله وأهون ما بعده .

ونظر الحسن إلى ميّت يدفن فقال : إنّ شيئاً هذا آخره لحقيق أن يزهد في أوّله .

وقال ابن معتزّ : كأنّ من غاب لم يشهد ، وكأنّ من مات لم يولد .

وقال : الميّت يقلّ الحسد له ويكثر الكذب عليه .

وقال المؤبذ[٣] لقباد حين مات : كان الملك أمس أنطق منه اليوم ، وهو اليوم أوعظ منه أمس[٤] .

وقال نادب الإسكندر ـ فإنّه لمّا مات بكى من بحضرته ، فقال نادبه ـ : حرّكنا سكونه .

والموت غير القتل ، والّذي يدلّ عليه قوله تعالىٰ : **﴿أفإن مات أو قتل﴾**[٥] وقوله تعالىٰ : **﴿ولئن متّم أو قتلتم﴾**[٦] وقوله سبحانه : **﴿ما ماتوا وما قتلوا﴾**[٧] وليس يجوز أن يكون التأكيد والتكرير في لفظين يرجعان إلى معنى

---

(١) مأخوذ من كلام أمير المؤمنين عليه السلام «غرض تنتضل فيه المنايا» راجع ص ٢٢١ .
(٢) زيادة منا ليست في الأصلين .
(٣) في الأصلين «قال المؤيد» مصحفاً . والمؤبذ كبير المجوس وقاضي القضاة ، على ما قاله المسعودي . وأول من أقام المؤبذان أردشير بن بابك ، وكان رتب المراتب فجعلها سبعة أفواج : أولها الوزراء ثم المؤبذان ، وكانوا يقومون بأمور الدين ، ويحكمون على الهرابذة ، وهم القوام بأمور الدين في سائر المملكة والقضاة والمصرفون للأحكام ، فلما ملك هرمز بن أنوشروان أزال أحكام المؤبذان وتحامل عليهم وقتل منهم كثيرين أنظر شرح المجاني : ٤٥ ـ ٤٦ .
(٤) وقد سبق ص ١٠٩ أنه مما قيل في موت الإسكندر .
(٥ ـ ٦ ـ ٧) سورة النساء ؛ الآيات : ١٤٤ ، ١٥٦ ، ١٥٨ .

واحد ، ويدلّ على ذلك أيضاً العلم بأنّ الله تعالىٰ ليس بقاتل من مات حتف أنفه ، ولو قال قائل في ميّت : إنّ الله قتله لأعاب العقلاء عليه ، والموت والقتل عرضان وليسا بجسمين .

وقد قال المفيد رحمه الله : انّ القتل متولّد عن الأسباب ومحلّه محلّ حياة الأجسام . والموت معنى يضادّ حياة الفاعل المخلوق ، ولا يصحّ حلوله في الأجسام . قال : وهذا مذهب يختصّ بي . والقتل عند جميع أهل العدل من مقدورات العباد ، والموت لا يقدر عليه أحد إلاّ الله عزّ وجلّ .

قيل[1] : دخل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم على شابّ وهو في الموت فقال له : كيف نجدك ؟ فقال : أرجو الله يا رسول الله وأخاف ذنوبي ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : «لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلاّ أعطاه الله تعالىٰ ما يرجو وآمنه ممّا يخاف» .

وعنه عليه السلام : «إنّ الله إذا أحبّ عبداً ابتلاه ليسمع تضرّعه» .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «لا يتمنّينّ أحدكم الموت فإنّ هول المطلع شديد ، وإنّ من سعادة المرء أن يطول عمره ويرزقه الله عزّ وجلّ الإنابة»

وقيل للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : ما يُقرأ عند المحتضر ؟ قال : «يقرأ الصافّات فإنّها لم تقرأ عند مكروب إلاّ عجّل الله عزّ وجلّ راحته ، وإذ قضى فقل : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، اللّهُمَّ اكتبه عندك من المحسنين ، وارفع درجته في علّيين ، واخلف على عقبه في الغابرين احتسبه عندك يا ربّ العالمين» .

وقال سقراط : ينبغي لك أن تغتمّ بالحياة الطبيعيّة ، وتفرح بالموت الإراديّ لأنّا نحيا لنموت ونموت لنحيا .

قيل : كان بحمى نعزبه[2] عجوز من بني بكر بن كلاب يتحدّث قوم عن

---

(١) رواه الغزالي (٤ : ٤٦٦) والديلمي : ٣٠٤ .

(٢) الحمى ـ بالكسر ـ الموضع من مواضع الكلاء التي كانوا يحمونها لدوابهم مثل «حمى ضرية» التي حماه عمرو من بعده ولم نظفر برسم الحمى الذي ذكره المؤلف . أنظر مراصد الإطلاع (١ : ٤٢٨ ـ ٤٢٩) .

سرورها وعقلها ، فذكر من حضرها وقد مات ابن لها ، وكان واحدها[1] وقد طالت علّته ، وأحسنت تمريضه ، فلمّا فاض[2] قعدت بفنائه وحضرها قومها ، فأقبلت على شيخ منهم وقالت : يا فلان ! ما أحقّ من أُلبس العافية ، وأُسبغت عليه النعمة واعتدلت به الفطرة ، لا يعجز عن التوفيق لنفسه قبل حلّ عقدته ، والحلول بعقوبته والحيال بينه وبين نفسه ، ثمّ أنشأت تقول :

هوائي وأُنسي أجره لي ، وعزّني على نفسه ربٌّ إليه ولاؤها[3]
فإن أحتسب أُوجر ، وإن أبكه أكن كباكية لم يغن شيئاً بكاؤها

قال الشيخ : إنّا لم نزل نسمع أنّ الجزع إنّما هو للنساء فلا يتأنّثنّ رجل في مصيبة ، ولقد كرم صبرك ، وما أشبهت النساء ، فأقبلت عليه بوجهها وقالت : إنّه ما خيّر امرؤ بين جزع وصبر إلاّ وجد بينهما منهجين بعيدي التفاوت في حالتيهما : أمّا الصبر فحسن العلانية ، محمود العاقبة ، وأمّا الجزع فغير معوّض عوضاً مع مآثمه ، ولو كانا في صورة رجلين لكان الصبر أولاهما بالغلبة بحسن الصورة وكرم الطبيعة في عاجله في الدين وآجله في الثواب ، وكفى بما وعد الله فيه لمن ألهمه إيّاه .

قال هرمس الحكيم : الموت سهم مرسل وعمرك بقدر مسيره .

قيل : لمّا مات المهلّب[4] بن أبي صفرة ووري[5] في حفرته ندبته أُخته عجيبة فقالت : الحمد لله هذا ما وعدنا الله ورسوله ، كلّ من عليها فان ، ويبقى وجه ربّك ذي الجلال والإكرام ، هذا والله سبيل الأوّلين والآخرين ، طوبى

---

(١) أي لم يكن فيهم مثله .

(٢) فاض الرجل : مات .

(٣) الرب : الزوج ، والضمير في «ولاؤها» للنفس .

(٤) أمير جواد عظيم البطش ، كان يعاب بالكذب . ولد عام الفتح سنة ٨ هـ في دبا ونشأ بالبصرة ، وتولى إمارتها من قبل مصعب بن الزبير . أكثر أخباره مع الخوارج ، استقصى أكثرها المبرد في الكامل ، وكان بنوه في أيام بني أمية كما كانت البرامكة في العباسية . توفي ٨٣ هـ أنظر الإصابة (٣ ؛ ٥٠٦ ، برقم ٨٦٣٥) والوفيات (٤ : ٤٣٢) والكامل .

(٥) في الأصلين «ووارى» سهواً .

للمتّقين ، وويل للظالمين ، وإنّا لله وعليك يا يوسف (كذا) راجعون ، رحم الله وحدتك ، وآنس وحشتك في حفرتك ، ولقّنك حجّتك في وقت حاجتك ، وحشرك مع أئمّتك ، وألهمك معرفة أن لا إلٰه إلّا الله وحده لا شريك له وأنّ محمّداً عبده ورسوله ، يا مهلّب ! وإن كان الله أعلم بك ، لنعم السيّد كنت لجيرانك ، لقد كنت عند الغضب حليماً ، وعند الظفر كريماً ، وعند المسألة رحيماً ، قريب من الحقّ ، بعيد عن الباطل ، لا تأخذك في الله لومة لائم . فتقبّل الله منك أحسن ما قدّمت وتجاوز لك عن سيّىء ما أسلفت ، وألحقك بنبيّ الرحمة وسراج الأمّة ، وأحسن إلينا بعدك الخلافة ، وأستغفر الله لي ولك ولجميع المسلمين وأنشدت :

أعزّى، وتأبى النفس أن تقبل العزى ... وتحت الحشايا نار جمر تلهّب
وحقّ لنفس شقّ منها شقيقها ... تموت فتطفأ أو تموت فتذهب
وكم قد تمنّيت المنيّة قبله ... ولكنّ نفسي بالحياة تعذّب
تعجّب منّي إن عميت من البكا؟ ... فإن لم أمت من حسرة فهو أعجب
فكيف وقد واريت في الترب من أخ ... أخا طيبة من طيّب المسك أطيب [1]
فتى كان للجارات كهفاً ومعقلاً ... وحصناً يصان الجار فيه ويحجب
فتى كان كالطود المنيف، تخاله ... على رأسه تاج يلوح ومرقب
تغيّرت الدنيا علينا بفقده ... ومات بنوها يوم مات المهلّب

وتوفّي لعبد الله بن العبّاس ولد فعزّاه أمير المؤمنين عليه السلام فقال له : «يا ابن عمّ مصيبة في غيرك لك أجرها خير من مصيبة بك لغيرك ثوابها ، فكان لك العزاء ولا عنك ولك[2] الأجر ولا بك ، وعوّضك الله منه مثل الّذي عوّضه منك والسَّلام» .

وسمع بعضهم صراخاً على ميّت فقال : العجب من قوم مسافرين يبكون مسافراً قد بلغ منزله .

---

(١) الترب ـ بضم التاء وبفتحها ـ : التراب .

(٢) الأصلين «ولا الأجر» .

وعزّى أمير المؤمنين صلوات الله عليه الأشعث بن قيس عن ابن له فقال[1] : «يا أشعث ! إن تحزن على ابنك فقد استحقّت ذلك منك الرحم ، وإن تصبر ففي الله من كلّ مصيبة خلف ، يا أشعث ! إن صبرت جرى عليك القدر وأنت مأجور ، وإن جزعت جرى عليك القدر وأنت مأزور[2] ، سرّك وهو بلاء وفتنة ، وحزنك وهو ثواب ورحمة» .

وقال أبو تمّام [3] يعزّي مالك بن طوق :

وقال عليٌّ في التعازي لأشعث	وخاف عليه بعض تلك المآثم :
أتصبر للبلوى عزاء وحسبة	فتوجر ، أم تسلو سلوّ البهائم
خلقنا رجالاً للتجلّد والأسى	وتلك الغواني للبكا والمآتم

وقال أمير المؤمنين صلوات الله عليه على قبر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ساعة دفن[4] : «إنّ الصبر جميل إلّا عنك ، وإنّ الجزع لقبيح إلّا عليك ، وإنّ المصاب بك لجليل ، وإنّه قبلك وبعدك لجلل» .

وقال النبيّ عليه السلام : «ينزل الصبر على قدر المصيبة ، ومن ضرب يده على فخذه عند مصيبة حبط أجره» .

قرىء على قبر بعض الملوك :

لقد كان لا يلقى الثرى بيمينه	ولا يمسح المسك الذكيّ ببرده
لعزّته ، حتّى إذا حان يومه	تدانى إلى مسّ التراب بخدّه

ووجد على قبر مكتوب :

قد كان صاحب هذا القبر جوهرة	مكنونة صاغها الباري من النطف
جاءت فلم تعرف الأيّام قيمتها	فردّها غيرة منه إلى الصدف

---

(١) الرقم ٣٩١ من الحكم في شرح عبده (٢ : ٢١٦) .
(٢) أي مقترف للوزر وهو الذنب . كذا فسره الشيخ عبده .
(٣) من كلمة في ديوانه ٢٤١ ـ ٢٤٢ في ٢٠ بيتاً يعزي مالكاً عن أخيه القاسم بن طوق .
(٤) الرقم ٢٩٢ من حكمه في شرح عبده (٢ : ٢١٦) . وقوله «لجلل» أي عظيم .

قال قسّ بن ساعدة[1] :

في الذاهبين الأوّلين من ... القرون لنا بصائر
لمّا رأيت موارد ... للموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها ... يمضي الأكابر والأصاغر
لا يرجع الماضي إليّ ... ولا من الباقين غابر
أيقنت أنّي لا محالة ... حيث صار القوم صائر

وله أيضاً :

يا ناعي الموت والأموال في جدث ... عليهم من بقايا برّهم خرق
دعهم فإنّ لهم يوماً يصاح بهم ... كما تنبّه من نومانه الصعق
منهم عراة ومنهم في ثيابهم ... منها الجديد ومنها الأورق الخلق

قيل : إنّ عمرو بن عبيد عزّى رجلاً عن ابن له فقال : إنّ أباك كان

---

(١) قس بن ساعدة بن عمرو بن عدي بن مالك الإيادي ، أحد حكماء العرب في الجاهلية ، واسقف نجران ، وأول عربي خطب متوكئاً على سيف أو عصا ، وكتب «من فلان إلى فلان» وأول من قال في كلامه «أما بعد» وكان يفد على قيصر الروم زائراً فيكرمه ويعظمه ، وهو معدود في المعمرين ، طالت حياته وأدركه النبي قبل النبوة ، وسئل عنه فقال : يحشر أمة واحدة . توفي نحو ٢٣ ق هـ . الأعلام : ٧٩٥ . والأبيات الرائية في الأغاني (١٤ : ٤٠) ولها خبر نذكره لما فيه من الموعظة الحسنة ، قال أبو الفرج : لما قدم وفد إياد على النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : ما فعل قس بن ساعدة ؟ قالوا : مات يا رسول الله ، قال : كأني أنظر إليه بسوق عكاظ على جمل له أورق وهو يتكلم بكلام عليه حلاوة ما أجدني أحفظه ، فقال رجل من القوم : أنا أحفظه يا رسول الله ، قال : كيف سمعته يقول ؟ قال : سمعته يقول : أيها الناس ! اسمعوا وعوا ، من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو آت آت . ليل داج ، وسماء ذات أبراج . بحار تزخر ، ونجوم تزهر . وضوء وظلام ، وبرّ وآثام . ومطعم ومشرب ، وملبس ومركب . مالي أرى الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ ! أرضوا بالمقام فأقاموا ، أم تركوا فناموا ؟ واله قسّ بن ساعدة ! ما على وجه الأرض دين أفضل من دين قد أظلتكم زمانه ، وأدرككم أوانه : فطوبى لمن أدركه فاتبعه ، وويل لمن خالفه ، ثم أنشأ الأبيات . فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم يرحم الله قساً إني لأرجو أن يبعث يوم القيامة أمة واحدة . **أقول** : قوله «عوا» أمر من وعى . و «آثام» جمع الإثم بمعنى الذنب . وقوله «واله قس بن ساعدة» قسم .

أصلك ، وإنّ ابنك كان فرعك ، وإنّ امرءاً ذهب أصله وفرعه لحريّ أن يقلّ بقاؤه .

وقال عمر بن عبد العزيز :

من كان حين تصيب الشمس جبهته ... أو الغبار يخاف الشين والشعثا
ويألف الظلّ كي تبقى بشاشته ... فسوف يسكن يوماً راغماً جدثا
في قعر مقبرة غبراء مظلمة ... يطيل تحت الثرى في غمّها اللّبثا
تجهّزي بجهز تبلغين به ... يا نفس قبل الردى، لم تخلقي عبثا

وكان بعض السلف إذا رأى جنازة لا يحدّث نفسه بشيء سوى ما هو به مفعول مشغول ، وما هو صائر إليه ، ونحن لا ننظر الآن إلى جماعة يحضرون الجنائز إلاّ وأكثرهم يضحكون ويلهون ، ولا يتكلّمون إلاّ في تراثه وما خلّفه لورثته ، ولا يتفكّر واحد منهم ـ إلاّ ما شاء عزّ وجلّ ـ في جنازة نفسه وفي حاله إذا صار إليه ، ولا سبب لهذه العلّة إلاّ قسوة القلب بكثرة المعاصي والذنوب ، حتّى نسينا الله تعالىٰ واليوم الآخر والأهوال الّتي بين أيدينا ، فصرنا نلهو ونغفل ونشتغل بما لا يعنينا ، فنسأل الله تعالىٰ اليقظة من هذه الغفلة .

وإنّ أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز بكاؤهم على الميّت ، ولو عقلوا لبكوا على أنفسهم لا على الميّت كما قال بعض العقلاء :

ويبكي على الموت ويترك نفسه ... ويزعم أن قد قلّ عنهم عزاؤه
فلو كان ذا عقل ورأي وفطنة ... لكان عليه لا عليهم بكاؤه

وقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم[1] : «ما رأيت منظراً إلاّ والقبر أفظع منه» .

وقيل[2] : أوّل ما يكلّم ابن آدم حفرته فيقول لها : يا بيت الدود وبيت

---

(١) احياء العلوم (٤ : ٤٨٥) وكان في الأصلين «ما رأيت مبطراً إلا والقبر أقطع منه» ثم فسر البطر بهامشهما ! والإصلاح من الاحياء .

(٢) قاله مجاهد . ذكره عنه الغزالي (٤ : ٤٨٤) .

الوحدة وبيت الغربة وبيت الظلمة ! [فتجيبه][1] : هذا ما أعددت لك فما أعددت لي ؟ .

وكان[2] جعفر بن محمّد عليه السلام ربّما يأتي القبور ليلاً ويقول : يا أهل القبور ! ما لي إذا دعوتكم لا تجيبوني ؟ ثمّ يقول : حيل والله بينهم وبين الجواب وكأنّي أكون مثلهم . ثمّ يستقبل القبلة إلى طلوع الشمس .

وكان بعض السلف [3]يقول : أيّها المقبور في قبره ، والمتخلّي في القبر بوحدته ، والمستأنس في بطن الأرض بأعماله ! ليت شعري بأيّ أعمالك استبشرت ، وبأيّ إخوانك اغتبطت ؟ ثمّ يبكي حتّى يبلّ عمامته ، ثمّ يقول : استبشر والله بأعماله الصالحة ، واغتبط بإخوانه المتعاونين على طاعة الله تعالىٰ . وكان إذا نظر إلى القبور خار[4] كما يخور الثور .

وجد على القبر مكتوباً[5] :

تناجيك أجداث وهنّ سكوت وسكّانها تحت التراب خفوت :
أيا جامع الدنيا لغير بلاغة لمن تجمع الدنيا وأنت تموت؟

وكان بعضهم[6] يقول : يا أُمّاه ! ليتك كنت عقيماً، إنّ لابنك في القبر حبساً طويلاً ومن بعد ذلك منه رحيلاً .

وقال آخر[7] : يا ابن آدم ! دعاك ربّك إلى دار السّلام . فانظر من أين تجيبه ، إن أجبته من دنياك واشتغلت بالرحلة إليه دخلتها ، وإن أجبته من قبرك منعتها .

---

(١) زيادة صحيحة في الأصل ولا توجد في النسخة (ر) .
(٢) ذكره عنه الغزالي أيضاً .
(٣) هو يزيد الرقاشي على ما ذكره الغزالي .
(٤) خار الثور : صوت .
(٥) البيتان عند الغزالي (٤ : ٤٨٧ ـ ٤٨٨) .
(٦) هو بكر العابد أنظر الاحياء .
(٧) هو يحيى بن معاذ . ذكره الغزالي .

وجد على قبر طبيب مكتوباً[1] :

قد قلت لمّا قال لي قائل: قد صار نعمان إلى رمسه :
فأين ما يوصف من طبّه وحذقه في الماء مع حسّه؟
هيهات ! لا يدفع عن غيره من كان لا يدفع عن نفسه

وليس هذا الشعر ممّا يدلّ على منع صناعة الطبّ ، ولا إيرادنا له ممّا ينقض علينا ما ذكرناه من تجويز علم الطبّ أيضاً ، فالمراد بهذا الشعر أنّه إذا انقضت المدّة وحضر الأجل لا يبقى للطبّ فائدة ، ولا للطبيب حيلة ، لا في نفسه ولا في غيره ، وهذا فما خالف فيه أحد من العقلاء ولا غيرهم .

ووجد على قبر مكتوباً[2] :

يا أيّها الناس كان لي أمل قصّر بي عن بلوغه الأجل
ما أنا وحدي الّذي خصصت به كلّ إلى مثل ذا سينتقل
فليتّق اللّه ربّه رجل أمكنه في حياته العمل

وحقّ[3] لمن مات ولده أو قريب من أقاربه أن يتذكّر في نفسه في تقدّمه عليه في الموت ، ويعلم أنّهما كانا في سفر فسبقه ولده إلى البلد الّذي كان فيه مستقرّه ووطنه ، فإنّه لا يعظم عليه تأسّفه ويعلم أنّه لا حق به على القرب ، وليس بينهما إلاّ تقدّم وتأخّر وهكذا الموت ؛ فإن معناه السبق إلى الوطن إلى أن يلحق به المتأخّر ، وإذا اعتقد هذا قلّ جزعه ، ولا سيما قد ورد في موت الولد من الثواب ما يعزّى به كلّ مصاب .

وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : «لأن أُقدّم سقطاً أحبّ إليّ من أن أُخلّف مائة فارس كلّهم يقتلون في سبيل الله عزّ وجلّ» وإنّما ذكر السقط تنبيهاً بالأدنى على الأعلى وإلاّ فالثواب على قدر محلّ الولد .

---

(١) أُنظر الاحياء (٤ : ٤٨٨) .

(٢) الأبيات في الاحياء (٤ : ٤٨٨) .

(٣) من هنا إلى رثاء الخنساء مأخوذ من الغزالي (٤ : ٤٨٩) بأدنى تغيير .

قيل(١) توفّي لداود ﷺ ولد فحزن عليه حزناً شديداً فقيل له : ما كان عدله عندك ؟ [قال] ملء الدنيا ذهباً [قيل له :] إنّ لك في [الآخرة من] الأجر مثل ذلك(٢) .

وقالت الخنساء(٣) ترثي أخاها صخراً :

إنّي أرقت فبتّ اللّيل ساهرة … كأنّما كحلت عيني بعوّار(٤)
أرعى النجوم ما كلّفت رعيتها … وتارة أتغشّى فضل أطماري(٥)
اذهب فلا أبعدنك اللّه من رجل … درّاك ضيم وطلّاب لأوتار(٦)
لمّا سمعت فلم أنهج به خبراً … ومخبراً قام ينبو رجع أخبار
قالوا : ابن أمّك أمسى في الضريح وقد … سدّوا عليه بأعوار وأحجار
أشمّ أزهر مثل البدر صورته … جلد المريرة ، حرّ وابن أحرار(٧)
فسوف أبكيك ما ناحت مطوّقة … وما أضاءت نجوم اللّيل للساري(٨)
ولن أسالم قوماً كنتَ حربهم … حتّى يعود بياضاً حُلكة القاري(٩)

---

(١) قاله زيد بن أسلم . ذكره الغزالي .

(٢) بين المعقوفين إصلاح من الاحياء .

(٣) لقب تماضر بنت عمرو بن الحارث بن الشريد ، الرياحية السلمية ، من مضر ، أشهر شواعر العرب ، وكان رسول الله ﷺ يستنشدها ويعجب بشعرها .
عاشت أكثر عمرها في الجاهلية ، وأدركت الإسلام فأسلمت ، أكثر شعرها وأجوده رثاؤها لأخويها صخر ومعاوية لا سيما صخراً ، وكانا قد قتلا في الجاهلية ، وكان لها أربعة بنين شهدوا حرب القادسية سنة ١٦ هـ وقتلوا جميعاً بها فقالت : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم . توفيت سنة ٢٤ هـ . أُنظر الإستيعاب (٤ : ٢٨٧) والإصابة (٤ : ٢٧٩) والأغاني (١٣ : ١٢٩) وخزانة الأدب (١ : ٢٠٩) وصخر هذا كان أخوها لأبيها ، وكان حليماً جواداً محبوباً في العشيرة ، شريفاً في قومه وخبر قتله في الأغاني والخزانة .
وبعض الأبيات الرائية في زهر الآداب (٤ : ٦٩) .

(٤) العوار ـ بضم العين ـ : القذى .

(٥) تغشى : تغطى . الأطمار جمع الطمر ـ بالكسر ـ : الثوب البالي .

(٦) الضيم : الظلم . الأوتار جمع الوتر ـ بالكسر والفتح ـ وهو هنا : الإنتقام .

(٧) الأشم : المرتفع العالي . المريرة : العزم .

(٨) المطوقة : الحمامة ذات الطوق .

(٩) الحلكة : السواد . القار : القير : والياء تولدت من إشباع الكسرة .

وقالت أيضاً[1] :

ألا يا صخر لا أنساك حتّى أُفارق عيشتي ويذوب رمسي[2]
ولولا كثرة الباكين حولي على أحبابهم لقتلت نفسي[3]
ولولا يبكون مثل أخي ولكن إذا عظم الأسى حسن التأسّي

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[4] : «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم إلّا كانوا جُنّة من النار» فقالت امرأة عنده : أو اثنان ؟ قال : أو اثنان .

وليخلص الوالد الدعاء لولده فإنّه أرجى دعاء وأقربه[5] إجابة .

وقف بعضهم[6] على قبر ولده فقال : اللَّهُمَّ إنّي أصبحت أرجوك وأخافك عليه ، اللَّهُمَّ فحقّق رجائي وآمن خوفي .

ووقف آخر[7] على قبر ولده فقال : اللَّهُمَّ إنّي قد وهبت له ما قصّر فيه من برّي فهب لي ما قصّر فيه من طاعتك .

إذا أنت لم ترحل بزاد من التقى ولاقيت بعد اليوم من قد تزوّدا
ندمت على أن لا تكون كمثله وأنّك لم ترصد لما كان أرصدا

قال الجاحظ[8] استأذن عبد الملك بن صالح الهاشميّ على الرشيد فقال له الآذن : عزّه [وهنّئه][9] فقد أُصيب بولد وقد وُلد له ولد ، فلمّا دخل عليه

---

(١) من كلمة لها في أمالي القالي (٢ : ١٥٩) في ١١ بيتاً وثلاثة منها في زهر الآداب (٤ : ٧٠) وهذه الثلاثة في المستطرف (٢ : ٢٨٧) .

(٢) الرمس : القبر . ولا يناسبه «يذوب» والصواب إما رواية الأمالي «يشق» أو رواية المستطرف «أزور» .

(٣) في الأصلين «كثرة الباكون» وهو عجيب !

(٤) ذكره الغزالي (٤ : ٤٨٩) .

(٥) في الأصلين «وأوفر به» والتصحيح من الاحياء .

(٦) هو محمد بن سليمان . ذكره الغزالي .

(٧) تراه في الاحياء .

(٨) لم نجده عند الجاحظ نعم ذكره الأبشيهي في المستطرف (٢ : ٢٨٧) بدون البيتين .

(٩) زيادة يحتاج إليها الكلام .

قال : سرّك الله يا أمير المؤمنين فيما ساءك ، ولا ساءك فيما سرّك ، وجمع لك بين الحسنين : حسن الأجر في الماضي وحسن الخلف في الباقي ، وأنشد في عقب كلامه وكان زاهداً :

إنّي أعزّيك لا أنّي على ثقة ... من البقاء، ولكن سنّة الدين [1]
ليس المعزّي بباق بعد صاحبه ... ولا المعزّى، وإن عاشا إلى حين

شاعر :

مضى ابن سعيد بعدما شاع ذكره ... وشرّق في أقصى البلاد وغرّبا [2]
وما كان إلاَّ كالسحابة أقلعت ... وقد تركت في الناس مرعى ومشربا

وقال مسلم بن الوليد [3]:

كم رأينا من أُناس هلكوا ... وبكوا أحبابهم ثمّ بكوا
كم رأينا من ملوك سوقة ... ورأينا سوقة قد ملكوا
قلّب الدهر عليهم وركاً ... فاستداورا حيث دار الفلك [4]

آخر :

وإنّي رأيت الدهر منذ صحبته ... محاسنه مقرونة بمعائبه
إذا سرّني في أوّل الأمر لم أزل ... على حذر من غمّه في عواقبه

---

(١) البيتان في المستطرف (٢ : ٢٨٥) للشافعي يعزي بهما صديقاً له .
(٢) أظن أن ابن سعيد هذا هو سفيان الثوري . قال الغزالي (٤ : ٥٠٩) : روى أبو حاتم الرازي عن قبيصة بن عقبة قال : رأيت سفيان الثوري ـ في المنام ـ فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال :

نظرت إلى ربي كفاحاً فقال لي : ... هنيئاً رضائي عنك يا ابن سعيد

إلى آخر ما ذكره من الأبيات .
(٣) هو صريع الغواني . والأبيات له في الشعر والشعراء لابن قتيبة (٢ : ٨١٨) .
(٤) الورك ـ بالفتح ثم الكسر ـ ما فوق الفخذ . وفي الشعراء : فلكاً .
(٥) هو إسحاق بن إبراهيم الموصلي . البيتان له في المستطرف (٢ : ٦٠) .

قال أبو العيناء[1] قال : حدّثنا الأصمعيّ قال : لمّا مات محمّد بن سليمان بن عليّ الهاشميّ دخلت على أخيه جعفر بن إسماعيل وقد حزن عليه حزناً شديداً ولم يطعم ثلاثاً فأنشدته لابن أراكة الثقفيّ :

لعمري لئن اتبعت عينك ما مضى ... به الدهر أو ساق الحمام إلى القبر[2]

لتستنفدن ماء الشؤون بأسره ... ولو كنت تمريهنّ من ثبج البحر[3]

فقلت لعبد الله إذ حنّ باكياً : ... تعزّ، وماء العين منهمر يجري[4]

تبيّن، فإن كان البكا ردّ هالكاً ... على أحد، فاجهد بكاك على عمرو

ولا تبك ميتاً بعد ميت أجنّه ... عليّ وعبّاس وآل أبي بكر[5]

قال : فأمر جعفر بن سليمان فجيء بالطعام فأكل من ساعته .

وقال أُفنون التغلبيّ[6] يرثي نفسه وهو يجود بها :

ألا لست في شيء فروحاً معاويا ... ولا المشفقات إذ تبعن الحوازيا[7]

---

(١) ترى الخبر والأبيات في أمالي الشريف المرتضى (١ : ٤٦١) وترجمة الشاعر في تعليقاتنا على شرح شواهد مجمع البيان (١ : ٢٨٧) وهناك تخريج الأبيات من الكامل (٢ : ٢٦٥) وأمالي ابن الشجري ١٣٨ والزجاجي ٧ وأبي علي القالي (٢ : ٢) وشرح النهج (١ : ١٤٠) وديوان الحطيئة : ١٧٦ .

(٢) الحمام ـ بالكسر ـ الموت .

(٣) تستنفدن من النفاد بمعنى الإفناء وفي الأصل «لتستفذن» وفي النسخة (ر) : لتستفدن . الشؤون : مجتمع قطع الرأس ومنها يجري الدمع إلى العين . تمريهن من المري بمعنى مسح ضرع الناقة للحلب . الثبج : وسط الشيء ومعظمه ، وفي الأصلين «نتج» سهواً .

(٤) حنّ : رفع صوته بالبكاء . وقال السيد المرتضى : قال قوم : الخنين ـ بالخاء المعجمة ـ من الأنف ، والحنين ـ بالحاء ـ من الصدر .

(٥) في الأصلين «أحبه» وهو سهو . والمراد بالذي أجنوه وواروه في التراب هو رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

(٦) هو صريم بن معشر بن ذهل ، من بني تغلب ، شاعر جاهلي مشهور بلقبه أفنون ، ترجم له صاحب الخزانة (٤ : ٤٦٠) وغيره ، والأبيات الخمسة ذكرها المفضل في مفضلياته ص ٢٦١ . وفي الأصلين «الثعلبي» وهو سهو .

(٧) الفروح ـ بالفتح ـ كثير الفرح . و «معاوية» اسم أخ له يخاطبه ، و «الحوازي» بالحاء والزاي ، جمع «حاز» بمعنى الكاهن وفي الأصلين «الجواريا» .

ولا خير فيما يكذب المرء نفسه ... وتقواله للشيء : يا ليت ذاليا [1]
فطأ معرضاً إنّ الحتوف كثيرة ... وإنّك لا تبقى بمالك باقيا
لعمرك ما يدري امرؤ كيف يتّقي ... إذا هو لم يجعل له اللّه واقيا
كفى حزناً أن يرحل الركب غدوة ... وأصبح في أعلى إلاهة ثاويا [2]

عزّى رجل الرشيد فقال : آجرك الله على الباقي ، ومتّعك بالفاني ، فظنّ أنّه غلط وقال : ويلك ما تقول ؟ فتلا [3] : ﴿**ما عندكم ينفد وما عند الله باق**﴾ .

قال إبراهيم بن المهديّ في ولده :

وإنّي وإن قدّمت قبلي لعالم ... بأنّي وإن أُخّرت عنك قريب
وإنّ صباحاً نلتقي في مسائه ... صباح إلى قلب العداة حبيب [4]

وقال عمرو بن معدي كرب [5] :

---

(١) التقوال مصدر بمعنى القول ، وقياسها بالفتح لأنه لم يسمع على هذا الوزن بالكسر إلا لفظتان وهما «تبيان» و«تلقاء» إلا أن الأصمعي رواها بكسر التاء . أنظر شرح الشافعية للرضي (١ : ١٦٧) وشرح المفضليات .
(٢) الاهة جبل صغير بالسماوة من دار كلب . معجم ما استعجم (١ : ١٨٦) ثاوياً أي مقيماً .
(٣) سورة النحل ؛ الآية : ٩٦ .
(٤) في الأصلين «في قلبي الغداة» ولا معنى له . والعداة جمع العادي وهو العدو .
(٥) أبو ثور عمرو بن معد يكرب الزبيدي من فرسان الشعراء والشجعان ، وفد على النبي صلى الله عليه وآله وسلم سنة ٩ وأسلم ثم ارتد بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وحارب عماله ثم رجع إلى الإسلام وشهد الفتوح ، وأبلى فيها بلاء حسناً ، أُصيبت عينه في اليرموك . قتل بالقادسية أو مات بالفالج سنة ٢١ . ترجم له في الإصابة (٣ : ١٨ برقم ٥٩٧٢) وغيره من كتب الصحابة ، والأغاني (١٤ : ٢٤) والشعراء (١ : ٣٣٢) ومعجم الشعراء للمرزباني : ٢٠٨ والمزهر للسيوطي (٢ : ٤٢٥) وخزانة الأدب للبغدادي (١ : ٤٢٥) والمؤتلف للآمدي : ١٥٦ والإشتقاق لابن دريد : ٤١٠ . وهذان البيتان من قصيدة ذكرها أبو تمام في حماسته تراها في شرح الحماسة للمرزوقي (١ : ١٧٤ ـ ١٨١ ، برقم ٣٤) في ١٦ بيتاً وستة منها في شرح شواهد مجمع البيان (٢ : ٢٦٠) ومعظمها في المجاني (٤ : ١٩٤ ـ ١٩٥) .

كم من أخ لي حازم بوّأته بيديّ لحدا
أعرضت عن تذكاره وخُلقت يوم خلقت جلدا

وعزّى رجل رجلاً عن ابنه فقال له : أكان يغيب عنك فقال : كانت غيبته أكثر من حضوره ، قال : فأنزله غائباً عنك فإنّه إن لم يقدم عليك قدمت عليه .

قالت فاطمة عليها السلام [1] لمّا زارت قبر أبيها صلوات الله عليه وآله فأخذت حفنة من تراب القبر تشمّها وأنشأت :

ماذا على المشتمّ تربة أحمد أن لا يشمّ مدى الزمان غواليا
صبّت عليّ مصائب لو أنّها صبّت على الأيّام صرن لياليا

وقالت أروى [2] بنت الحارث بن عبد المطّلب ترثي عليّاً عليه السلام :

ألا يا عين ويحك ! أسعدينا ألا فابكي أمير المؤمنينا
رزينا خير من ركب المطايا وفارسها ومن ركب السفينا
ومن لبس النعال ومن حذاها ومن قرأ المثاني والمئينا [3]
فلا والله لا أنسى عليّاً وحسن صلاته في الراكعينا
إذ استقبلت وجه أبي حسين رأيت البدر راع الناظرينا [4]
وفي شهر الصيام فجعتمونا بخير الناس طرّاً أجمعينا

---

(١) الأبيات من أبيات سبعة في المناقب لابن شهر آشوب (١ : ١٦٨ - ١٦٩) .
(٢) بل الأبيات مما قاله أبو الأسود الدؤلي ولها خبر ذكره المسعودي وأبو الفرج في الأغاني (١١ : ١١٧) وترى الأبيات معزوّة لأبي الأسود في المناقب لابن شهر آشوب (٢ : ٨٣) والإستيعاب (٣ : ٦٦) أيضاً .
(٣) إشارة إلى ما رواه العياشي عن سعد الإسكاف عن الباقر عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أُعطيت الطوال مكان التوراة وأُعطيت المائين مكان الإنجيل وأُعطيت المثاني مكان الزبور وفضلت بالمفصل سبع وستين سورة (تفسير البرهان ١ : ٥٢) والطوال سبع سور من القرآن أولها البقرة وآخرها الأنفال والمائين أولها التوبة وآخرها سورة محمد ، وباقي القرآن المفصل لكثرة تفصيلها بالبسملة ، وسمى فاتحة الكتاب بالمثاني لأنها تثنى في الركعتين .
(٤) راعه : أفزعه .

فلا تشمت معاوية بن حرب! ... فلا قرّت عيون الشامتينا
مضى بعد النبيّ فدته نفسي ... أبو حسن وخير الصالحينا
كأنّ الناس إذ فقدوا عليّاً ... نعام ظلّ في بلد سنينا
لقد علمت قريش حين كانت ... بأنّك خيرها حسباً ودينا

وقالت البراء ابنة صفوان ترثي عليّاً صلوات الله عليه وسلامه :

يا للرجال لعظم هول مصيبة ... فدحت، فليس مصابها بالباطل[1]
الشمس كاسفة لفقد إمامنا ... خير الخلائق والإمام العادل
يا خير من ركب المطيّ ومن مشى ... فوق التراب بحافر أو ناعل
حاشا النبيّ! لقد هددت قواءنا ... فالحقّ أصبح خاضعاً للباطل

وقالت أُمّ سنان بنت خيثمة ترثي عليّاً صلوات الله عليه وسلامه :

أمّا هلكت أبا الحسين فلم تزل ... بالحقّ تعرف هادياً مهديّا
فلأبكينك ما حييت، وما دعت ... فوق الغصون حمامة قمريّا
قد كنت بعد محمّد خلفاً لنا ... أوصى إليك بنا فكنت حفيّا
فاليوم لا خلف يؤمّل بعده ... هيهات يمدح بعده إنسيّا

وقالت دارميّة الجحونيّة ترثي عليّاً صلوات الله وسلامه عليه :

صلّىٰ الإلٰه على جسم تضمّنه ... قبر فأصبح فيه العدل مدفونا
قد حالف الحقّ لا يبغي به بدلاً ... فصار بالحقّ والإيمان مقرونا

المنصور الخليفة[2] ويسمّى الطويل أُمّة أُمّ ولد تدعى سلّامة بربريّة ، مولده في ذي الحجّة سنة خمس وتسعين ، بويع[3] له بالخلافة يوم توفّي أخوه السفّاح في ذي الحجّة، وكانت خلافته اثنين وعشرين سنة إلاّ ثلاثة أيّام ، وتوفّي

---

(١) يقال : نزل به أمر فادح ومصيبة فادحة ، أي صعب مثقل .
(٢) اسمه ترى ترجمته في التواريخ حوادث السنين الآتية .
(٣) في الأصلين «توقع له» .

في ذي الحجّة ، قبره ببئر ميمون[1] بمكّة ، وعمره ثلاثة وستّون سنة ، وكان يخضب بالسواد ، وقيل : إنّه كان يخضب لمّته[2] في كلّ شهر بألف مثقال مسك وكان ذا دهاء ورأي ، قد عركته[3] الأيّام . أمر بتوسعة المسجد الحرام من ناحية باب الندوة ، وبنى مسجد الخيف ، وفي أيّامه خرج محمّد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن عليه السلام بالمدينة ، فوجّه إليه عيسى بن موسى فقتله في رمضان ، وخرج إبراهيم بن عبد الله أخوه متوجّهاً إلى البصرة أو إلى الكوفة فلقيه عيسى فقتله في ساعته ، وفي أيّامه توفّي الإمام جعفر بن محمّد الصّادق عليه السلام سنة ثمان وأربعين .

ومن أحسن ما سمعت له من الحكايات أنّه طلب أبا العيناء في بعض الليالي وكان موالياً لأهل البيت عليهم السلام ، فلمّا سمع بذلك تأهّب للموت ، لأنّ المنصور كان معانداً ، فلمّا حضر بين يديه قال : يا أبا العيناء ما تحفظ عن أهل البيت من الأخبار ؟ فقال : أحفظ لهم مائة ألف خبر ، فقال : إلاّ ما أُخبرك به فلست تحفظه ، اعلم أنّه لمّا كنت هارباً في دولة مروان بن الحكم[4] ، وكان قد عزم أن لا يخلّي من ولد عليّ وعبّاس أحداً فكنت ألتجىء إلى المقابر في الليل والنهار ، أختبي[5] في السراديب ، فبينما أنا بعض الليالي في المقبرة وإذا

---

(١) ومن عجيب أمر وفاته ما ذكره الشريشي عن الفضل بن الربيع أنه قال : كنت مع المنصور في السفر الذي مات فيه ، فنزلنا بعض المنازل فدعا بي وهو في قبته إلى حائط وقال : ألم أنهكم أن تدعوا العامة تدخل هذه المنازل فيكتبون فيها ما لا خير فيه ؟ قلت : وما هو ؟ قال : ألا ترى ما على الحائط مكتوباً :

أبا جعفر! حانت وفاتك وانقضت ... سنوك، وأمر الله لا بد نازل
أبا جعفر! هل كاهن أو منجم ... يرد قضاء الله، أم أنت جاهل

فقلت : والله ما على الحائط شيء وإنه لنقي أبيض ، قال : إنها والله نفسي نعيت إلى الرحيل . إلى آخر ما ذكره . أُنظر المجاني (١ : ١٢٩ ـ ١٣٠) .

(٢) بكسر اللام : الشعر المجاوز شحمة الأُذن ، الشعر الذي دخل بعضه في بعض .

(٣) أي دلكته وحنكته فصار ذا تجربة .

(٤) كذا في الأصلين ، والصواب : مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، آخر ملوك بني أمية ، المعروف بالحمار .

(٥) افتعال من الخبى بمعنى الإختفاء .

بمشاعيل عظيمة ورهج وغُلبة [1] يأتون نحو المقبرة ، فلم أشكّ أن قد علموا خبري وقد أتوا نحوي فخفت خوفاً عظيماً وأتيت إلى سرداب فدخلت إليه فما كان إلاّ ساعة وأتت الغلبة إلى باب السرداب ، فأيقنت أن يأخذوني ففتحوا باب السرداب، وأدخلوا تابوتاً فيه ميّت ، فلمّا رأيت الميّت ـ وأنا قد اضطجعت بين الموتى لكي لا يروني ـ أمن خاطري ، فوضعوه على جنب دكّة ومضوا ، وسرّجوا السرداب ، فبينما أنا مفكّر في أمري وإذا برجل قد أقبل ، لا أعلم من أين أتى ، ومعه رجلان آخران فجلس عند رأسه وجلسا عند رجليه ، فقال لهما : اعتبروا الرجل فقالا : بل أنت أولى بالاعتبار فقال : بل اعتبراه واحكوا لي حاله ، فاعتبروا بصره فقالوا : لا حول ولا قوّة إلاّ بالله ! ما بصر يوماً فيما يرضي الله تعالىٰ ، فقال : اعتبروا شمّه فاعتبروه فقالوا : لا حول ولا قوّة إلاّ بالله ما شمّ رائحة ترضي الله تعالىٰ ، فقال : اعتبروا سمعه فقالوا : لا حول ولا قوّة إلاّ بالله ما سمع يوماً ما فيه رضى الله تعالى ، قال : اعتبروا ذوقه فقالوا : لا حول ولا قوّة إلاّ بالله ! ما ذاق طعاماً يرضي الله تعالىٰ ، فقال : اعتبروا يداه فقالوا : لا حول ولا قوّة إلاّ بالله ! ما بطش بهما في رضى الله تعالىٰ ، فقال : اعتبروا رجليه فقالوا : لا حول ولا قوّة إلاّ بالله ؟ ما سعت يوماً في رضى الله تعالى ، فقال : اعتبروا قلبه فقالوا : لا حول ولا قوّة إلاّ بالله ؟ ما خشع لله تعالىٰ ، فقال : انظروا وسط قلبه فنظروا فإذا هم مستبشرون فرحون [2] فقال : ما لكم ؟ فقالوا : إنّ فيه ذرّة من حبّ عليّ بن أبي طالب عليه‌السلام ، فقال : اكتبوه من أهل الجنّة ، يا أبا العيناء ! قُم وارو ذلك عنّي .

ومات الحجّاج بن يوسف ـ لا رحمه الله ـ بواسط في رمضان سنة خمس وتسعين وعمره ثلاثة وخمسون سنة ، وكانت له ولاية العراق عشرين سنة ، ورأيت في بعض التواريخ أنّ عدّة من قتله الحجّاج صبراً [3] مائة ألف وعشرون ألفاً ، وأنّه مات في حبسه خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة .

---

(١) جمع الغالب .

(٢) في الأصل «مستبشرين فرحين» وفي النسخة (ر) مستبشرون فرحين .

(٣) لم يتضح لي ما حداه إلى ذكر خبر الحجاج في هذا المقام .

رجعنا إلى بقيّة ما نذكره من المراثي .

قال أبو ذؤيب وهو خويلد بن خالد بن محرّث [1] :

قالت أُميمة : ما لجسمك شاحباً ... منذ ابتذلت، ومثل مالك ينفع [2]

أم ما لجسمك لا يلائم مضجعاً ... إلاّ أقضّ عليك ذاك المضجع [3]

فأجبتها : أمّا لجسمي أنّه ... أودى بنيّ من البلاد فودّعوا [4]

أودى بنيّ وأعقبوني حسرة ... بعد الرقاد، وعبرة لا تقلع

سبقوا هويّ وأعنقوا لهواهم ... فتخرّموا ولكلّ جنب مصرع [5]

فغبرت بعدهم بعيش ناصب ... وأخال أنّي لاحق مستتبع [6]

ولقد حرصت بأن أُدافع عنهم ... فإذا المنيّة أقبلت لا تدفع

وإذا المنيّة أنشبت أظفارها ... ألفيت كلّ تميمة لا تنفع [7]

---

(١) أحد المخضرمين ، أدرك الإسلام فأسلم وحسن إسلامه ، عاش إلى زمن عثمان وشهد الفتوح ومات مرجعه من غزو الروم في الطريق ولموته قصة طريفة في الأغاني (٦ : ٦١) وترى ترجمته في الإصابة لابن حجر (٤ : ٦٩) والإستيعاب لابن عبد البر (٤ : ٦٨) واللآلىء للبكري (١ : ٩٨) والخزانة (١ : ٢٠٣) . والأبيات من قصيدة يرثي بها بنين له خمسة ، أصابهم الطاعون فهلكوا في عام واحد ، وكانوا رجالاً ذوي بأس ونجدة ، وهي في المرتبة العليا من الشعر ، وفيها أبرع بيت قالته العرب :

والنفس راغبة إذا رغبتها ... وإذا ترد فبالقليل تقنع

وهي في ٦٧ بيتاً في ديوان الهذليين (١ : ٢١) وختم بها المفضل كتابه المفضليات .

(٢) الشاحب : المهزول أو المتغير اللون . أي مالك هزلت وتغير لونك منذ مات من كان يكفيك ؟ والحال أن عوض مالك ـ بأن تشتري منه عبداً ـ يكفيك وينفعك .

(٣) في الأصلين «إما لجسمك» سهواً . أقض عليك ، أي صار مثل قضيض الحجارة ، يعني الحجارة الصغيرة .

(٤) أما لجسمي أصلها «أن ما» و «ما» موصولة . أودى : هلك .

(٥) هويّ : هواي بلغة هذيل ، أي ماتوا قبلي . أعنقوا : أسرعوا . تخرموا : أخذوا واحداً واحداً .

(٦) في الأصلين : فعبرت ـ بالمهملة ـ سهواً ، وغبرت : بقيت ، والغابر : الباقي والماضي (ضد) . ناصب : ذو نصب : وتعب وشدة .

(٧) التميمة خرزة أو ما يشبهها كانوا يضعونها على أولادهم وقاية للعين .

فالعين بعدهم كأنّ حداقها سملت بشوك ، فهي عور تدمع [١]
حتّى كأنّي للحوادث مروة بصفا المشرّق كلّ يوم تقرع [٢]
وتجلّدي للشامتين أريهم أنّي لريب الدهر لا أتضعضع

وقال ابن الديدبان المدائنيّ يرثي الحسين بن محمّد الحسينيّ نقيب العلويّين بالمدائن :

يعطي الجزيل إذا استميح وينثني لا بالمدلّ به ولا بالتائه[٣]
يستكتم الماء النوال كأنّه عيب يخاف عليه من إفشائه [٤]
قد قلت للرجل المولّي غسله إلاّ أطاع ، وكنت من نصحائه[٥] :
جنّبه ماءك ثمّ غسّله بما أجرت عيون المجد عند بكائه [٦]
وأزل أفاويه الحنوط وطيبه عنه ، وحنّطه بطيب ثنائه [٧]
لأتوه أعناق الرجال بحمله يكفيك ما فيهنّ من نعمائه [٨]

شاعر :

فلا والّذي لو شاء لم يخلق الردى لئن غبت عن عيني لما غبت عن قلبي
يذكّرنيك الشوق حتّى كأنّني أناجيك من قرب ولست بذي قرب

---

(١) في الأصلين «شملت» سهواً . تقول : سمل عينه : فقأها .
(٢) المروة : حجارة بيض يقدح منها النار . المشرق : المصلى . يقول : أنا من كثرة المصائب كمروة يقرعها مرور الناس بها ، وإنما خص المشرق لكثرة مرور الناس بها . واستفدنا في تفسير الأبيات من شرح المفضليات كثيراً .
(٣) انثنى : انعطف . المدل : الذي يفتخر . التائه : المتكبر ، يقول : يعطي ويتواضع حين الإعطاء لا يفتخر بإعطائه ولا يتكبر .
(٤) أي يكتم الرطوبة الحاصلة من العطاء على اليد .
(٥) المولى من التولية . و «إلا» هنا بمعنى الواو .
(٦) في الأصلين «ماء آل» ولا يستقيم عليه الوزن ولا له معنى يناسب المقام .
(٧) الأفاويه جمع الأفوواه نوافج الطيب ، والنافجة الجلدة التي يجتمع فيها المسك .
(٨) كذا في الأصلين ، ولعل الصحيح «لا توّه» بأن يكون «لا» حرف نفي ، و «توه» أمراً من توهه : أهلكه ، إلا أن فيه إشكال السكتة في البيت .
(٩) بنتم وبنّا : من البين وهو الفرقة .

وقال ابن اللبانة المغربيّ :

بِنتم وبنّا فما ابتلّت جوانحنا ... شوقاً إليكم ولا جفّت مآقينا[1]
نكاد حين تناجيكم ضمائرنا ... يقضي علينا الأسى لولا تآسينا
حالت لفقدكمُ أيّامنا فغدت ... سوداً ، وكانت بكم بيضاً ليالينا[2]
إذ جانب العيش طلق من تألّفنا ... ومورد اللهو صاف من تصافينا[3]
وإذ هصر ناغصون الأُنس دانية ... قطوفها ، فجنينا منه ماشينا[4]
ليسق عهدكم عهد السرور، فما ... كنتم لأرواحنا إلاّ رياحينا
من مبلغ الملبسينا بانتزاحهم ... ثوباً من الحزن لا يبلى ويبلينا
إنّ الزمان الّذي ما زال يضحكنا ... أُنساً بقربكم ، ما زال يبكينا
غيظ العدى من تساقينا الهوى فدعوا ... بأن نغصّ ، فقال الدهر : آمينا
فانحلّ ما كان معقوداً بأنفسنا ... وانبتّ ما كان موصولاً بأيدينا[5]
وقد نكون ولا يخشى تفرّقنا ... واليوم نحن ولا يرجى تلاقينا
لم نعتقد بعدكم إلاّ الوفاء لكم ... رأياً ، ولم نتقلّد غيره دينا
لا تحسبوا نأيكم عنّا يغيّرنا ... أن طال ما غيّر النأي المحبّينا[6]
واللّه ما طلبت أرواحنا بدلاً ... منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
ولا استفدنا خليلاً عنك يشغلنا ... ولا اتّخذنا بديلاً منك يسلينا[7]
يا ساري البرق غاد القصير فاسق به ... من كان صرف الهوى والودّ يسقينا[8]
ويا نسيم الصبا ! بلّغ تحيّتنا ... من لو على البعد حيّاً كان يحيينا

وقيل : إنّ عمر بن عبد العزيز لمّا مات ابنه عبد الملك خطب الناس

---

(١) المآقي : مجاري الدمع من العين .
(٢) حالت : تغيرت . غدت : أصبحت .
(٣) الطلق ـ بتثليث الطاء ـ : غير المقيد . التصافي : إخلاص الود .
(٤) هصر ـ من باب ضرب ـ الغصن : عطفه وكسره من غير بينونة ما شينا : ما شئنا .
(٥) انبت من البت بمعنى القطع .
(٦) النأي : البعد . «أن طال» أي من أجل أن طال ، علة للمنفي لا للنفي .
(٧) أسلاه الشيء : أنساه إياه ، وقد سبق معناه .
(٨) كذا في الأصلين .

فقال : الحمد لله الّذي جعل الموت حتماً على عباده ، سوّى به بين ضعيفهم وقويّهم ، ورفيعهم ودنيّهم ، فقال تبارك وتعالى : ﴿**كلّ نفس ذائقة الموت**﴾[١] فعلم ذوو النهى منهم أنّهم صائرون إلى قبورهم ، مجازون بأعمالهم . واعلموا أنّ لله مسألة فاحصة ، قال تبارك وتعالىٰ : ﴿**فوربّك لنسألنّهم أجمعين عمّا كانوا يعملون**﴾[٢] وقال القائل[٣] :

عجبت لصبري بعده وهو ميّت ... وقد كنت أبكيه دماً وهو غائب
على أنّها الأيّام قد صرن كلّها ... عجائب حتّى ليس فيها عجائب

وقال رجل من قريش وهو العتبيّ[٤] يرثي ابنه :

بأبي وأُمّي من عبأت حنوطه ... بيدي ، وودّعني بماء شبابه[٥]
كيف السلوّ وكيف صبري بعده ... وإذا دعيت فإنّما أُكنى به[٦]

آخر :

وليس صرير النعش ما تسمعونه ... ولكنّه أصلاب قوم تقصّف[٧]
وليس نسيم المسك ريّا حنوطه ... ولكنّه ذاك الثناء المخلّف[٨]

وأحسن ما قيل في هذا قول بعض الأعراب[٩] :

---

(١) سورة آل عمران ؛ الآية : ١٨٥ .
(٢) سورة الحجر ؛ الآية : ٩٢ .
(٣) أول البيتين في المستطرف (٢ : ٢٩٠) .
(٤) أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الله البصري ، من ولد عتبة بن أبي سفيان ، شاعر مجيد أديب فاضل ، استوفينا ترجمته في ما علقنا على شواهد مجمع البيان (٢ : ٣٢٧ - ٣٢٨) راجعه .
(٥) عبّأه : هيأه .
(٦) السلو مصدر سلا يسلو .
(٧) تقصف : تتكسر . وأصله : تتقصف .
(٨) الريا : الريح الطيبة .
(٩) أنشده علي بن الجهم البرمكي بحضرة المأمون في خبر طريف ذكره أبو الفرج في الأغاني (١٣ : ١٥) . وبهامش النسخة (ر) إن قائله المجنون .

أرادوا ليخفوا قبره عن وليّه وطيب تراب القبر دلّ على القبر

وقال القرشيّ :

قد كنت أبكي على ما فات من سلفي وأهل ودّي جميعاً غير أشتات
فاليوم إذ فرّقت بيني وبينهم نوى ، بكيت على أهل المودّات[1]
وما بقاء امرىء صارت مدامعه مقسومة بين أحياء وأموات ؟ !

وقيل : قدم أعرابيّ من البادية فلمّا صار بجبل سنام[2] مات له بنون فدفنهم هناك وقال :

دفنت الدافعين الضيم عنّي برابية مجاورة سناما[3]
أقول إذا ذكرت العهد منهم : بنفسي تلك أصداء وهاما[4]
فلم أر مثلهم ماتوا جميعاً ولم أر مثل هذا العام عاما

ومن أحسن القول في هذا المعنى قول زين العابدين عليه السلام حيث مات ابنه فلم ير منه جزع فسئل عن ذلك فقال : «أمر كنّا نتوقّعه فلمّا وقع لم ننكره» .

وفي هذا الكلام زيادة نظر وفضل تسليم لقضاء الله عزّ وجلّ . والعرب تقول : الحذر أشدّ من الوقيعة .

وقال بعض الحكماء : إنّما الجزع والإشفاق قبل وقوع الأمر فإذا وقع فالرضا والتسليم .

وقال أحمد الورّاق : وجدت[5] على قبر مكتوباً :

---

(١) النوى هنا : بعد المكان .

(٢) جبل مشرف على البصرة ، إلى جانبه ماء يقال : إنه يسير مع الدجال ، وإنه أول ماء يرده الدجال من مياه العرب . معجم ما استعجم (٣ : ٧٥٨) مراصد الإطلاع(٢ : ٧٤٢) .

(٣) الرابية : ما ارتفع من الأرض .

(٤) الأصداء جمع الصدى ـ بالفتح مقصوراً ـ نوع من البوم عظيم الرأس ، وكان عرب الجاهلية يزعمون أنه يخلق من رأس المقتول ، ولا يزال يصيح في رأسه إذا لم يؤخذ بثأره : «اسقوني اسقوني» حتى يقتل قاتله والهام جمع الهامة بمعنى الصدى .

(٥) في نسخة (ر) : وجد على .

الموت أخرجني من دار مملكتي   والترب مضطجعي من بعد تنزيف[1]
هذا مصير بني الدنيا وإن نعموا   فيها، وغرّهم طول التشاويف[2]

وعزّى أعرابيّ رجلاً عن أبيه فقال : ما مات من خلّفك ، ولا خاب من أمّلك ، ولا توحّد من أهّلك ، إنّ من كنت بقيّته لموفور ، ومن كنت ثماله لمحبور[3] ، ومن كنت وليّه لمنصور .

عن أنس : يقول الله : إنّي إذا وجّهت على عبد من عبادي مصيبة في أهله أو ولده أو بدنه فاستقبل ذلك بصبر جميل استحييت منه يوم القيامة أن أنشر له ديواناً ، وأنصب[4] له ميزاناً .

وقيل : أُصيبت امرأة بابن لها فأحسنت العزاء ، فقيل لها : ما رأيناك جزعت على ابنك ، فقالت : بلى ، ولكنّي آثرت طاعة الرحمن على طاعة الشيطان .

وعزّى عبد الله بن داود رجلاً فقال له : اعلم أنّ حرمان الأجر على المصيبة أعظم من المصيبة ، وقد فاتك ما أُعطيت فلا يفوتك ما عوّضت .

وقال حاتم الأصمّ : إذا رأيت صاحب المصيبة قد مزّق ثوبه، وأظهر جزعه فعزّيته فقد شركته في إثمه ، إنّما هو منكر تحتاج أن تنهاه .

وقال أبو سعيد البلخيّ : من أُصيب بمصيبة فمزّق ثوبه أو ضرب صدره فكأنّما أخذ رمحه يريد أن يقاتل [به][5] ربّه .

وقيل : أُصيب ابن المبارك بمصيبة فمرّ به رجل من المجوس فعزّاه فقال له : ينبغي للعاقل أن يفعل اليوم ما يفعله الجاهل بعد خمسة أيّام . فقال ابن المبارك : اكتبوا هذا .

---

(١) أنزف الرجل : لم يبق له شيء . ولم أظفر على باب التفعيل منه .
(٢) جمع التشويف : التزيين .
(٣) ثمال القوم : غياثهم الذي يقوم بأمرهم . المحبور : المسرور .
(٤) في النسخة (ر) : أو أنصب .
(٥) زيادة من النسخة (ر) .

اصبر لدهر نال منك ... فهكذا مضت الدهور
فرحاً وحزناً تارة ... لا الحزن دام ولا السرور

قيل : حدّث صالح الناجي عن عليّ بن يقطين أنّه قال : أصبح المهديّ يوماً فقال : أصبحت جائعاً ، ائتوني بلحم قد طبخ وأرغفة ، قال : فأتوه فأكل ثمّ قال : إنّي داخل هذا اليوم فنائم فيه فلا تنبّهوني حتّى أُنبّه فدخل فنام ونمنا خارجاً ، فاستيقظنا على بكائه ، قال : فدخلنا فسألناه عن حاله فقال : أما رأيتم الشيخ ؟ قلنا : ما رأينا ، قال : بلى شيخ وقف على باب النهو (؟) لو رأيته في مائة ألف ما خفي عليّ فقال :

كأنّي بهذا القصر قد باد أهله ... وأوحش منه ركنه ومنازله
وصار عميد القصر من بعد هجعة ... وملك إلى قبر عليه جنادله
فلم يبق إلاّ ذكره وحديثه ... تنادي بليل معولات حلائله

قال : فوالله ما مضت عشرة حتّى دفنّاه .

وقالت ليلى الأخيليّة [1] :

لعمرك ما بالموت عار على الفتى ... إذا لم تصبه في الحياة المعاير
وما أحد حيٌّ وإن كان سالماً ... بأخلد ممّا غيّبته المقابر
ومن كان ممّا يحدث الدهر جازعاً ... فلا بدّ يوماً أن يرى وهو صابر
وليس لذي عيش على الموت مذهب ... وليس على الأيّام والدهر غابر
فلا الحيّ ممّا يحدث الدهر معتب ... ولا الميت إن لم يصبر الحيّ ناشر
وكلّ شباب أو جديد إلى بلى ... فكلّ امرىء يوماً إلى الله صائر
وكلّ قرينَي إلفة لتفرّق ... شتاتاً ، وإن ضنّا وطال التعاشر

---

(١) بنت عبد الله بن الرحال ، شاعرة فصيحة ، غلبت النابغة الجعدي في الهجاء ، اشتهرت بأخبارها مع توبة بن الحمير ـ بضم الحاء وتشديد الياء ـ الذي ذكرته في البيت الأخير . كانت تفد على الحجاج فيكرمها . عدها الأصمعي أشعر من الخنساء توفيت نحو ٧٥ هـ ترى ترجمتها في الأغاني (٤ : ١٢٩ ، ١٠ : ٦٣) واللآلىء (١ : ٢٨٣) وزهر الآداب للحصري القيرواني (٤ : ٧٢) والإشتقاق : ٢٥ : ٢٩٩ والموشح : ٨١ والأبيات التسعة من ١٢ بيتاً في الأغاني (١٠ : ٧٣) .

فأقسمت لا أنفكّ أبكيك ما دعت ... على فنن ورقاء أو طار طائر[1]
فلا يبعدنك اللّه يا تَوب! هالكاً ... أخا الحرب إن دارت عليه الدوائر[2]

الخنساء ترثي أخاها صخراً[3] :

ألا! ما لعينك أم مالها ... لقد أخضل الدمع سربالها
وأقسمت آسى على هالك ... وأسأل نائحة مالها[4]
أبعد ابن عمرو من آل الشريـ ... ـد حلّت به الأرض أثقالها
فتعلم أنّ منايا الرجا ... ل بالغة حيث يملى لها
وكلّ جميع إلى فرقة ... ولن تسبق النفس آجالها
فزال الكواكب من فقده ... وجللت الشمس إجلالها
هممت بنفسي بعضّ الهموم ... فأولى لنفسي أولى لها
لأحمل نفسي على آلة ... فإمّا عليها وإمّا لها

اعلم يا أخي أنّ ماهيّة الموت والحياة نوعان ، إمّا جسدانيّ وإمّا نفساني ، فالحياة الجسدانيّ ليست شيئاً سوى تركها استعماله . فأمّا النفس فحياتها ذاتيّة لها ، وذلك أنّ جوهرها حيّة بالعقل علّامة بالقوّة فعّالة بالطبع في الأجسام والأشكال والنقوش والصور طبعاً ، وأنّ موتها هو جهالتها بجوهرها وغفلتها عن معرفة ذاتها ، وإنّ ذلك عارض لها من شدّة استغراقها في بحر الهيولى لبعد ذهابها في هاوية الأجسام ، ولشدّة غرورها في الشهوات الجسمانيّة فإنّ أكثرهم لجهالتهم بجوهر نفوسهم وغفلتم عن حياتها الأبدية ليس يعرفون إلاّ هذه الحياة الدنيا الجسدانيّة الدنيّة المنقطعة وصاروا يريدون البقاء في الدنيا ، ويتمنّون الخلود فيها كما ذكر الله سبحانه بقوله : ﴿**يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون**﴾[5] وقال عزّ من قائل :﴿**ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنّوا بها**

---

(١) الفنن : الغصن .
(٢) في الأصلين «توب» وهو سهو ، وقد ذكرنا انه توبة بن الحمير .
(٣) تراها في الأغاني (١٣ : ١٣٦) من ٢٠ بيتاً .
(٤) في الأصلين «فائحة» والإصلاح من الأغاني .
(٥) سورة الروم ؛ الآية : ٧ .

والّذين هم عن آياتنا غافلون﴾[1] وقال تعالىٰ : **﴿تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة﴾**[2] وقال : **﴿والآخرة خير وأبقى﴾**[3] وقال : **﴿إنّ الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون﴾**[4] وآيات كثيرة في ذمّ الّذين يريدون الحياة الدنيا الّتي هي حياة الجسد ويغفلون عن الحياة الآخرة الّتي هي حياة النفس .

واعلم أنّ النفس لا تحسّ بتلك الحال الّتي تنتقل إليها إلّا بعد مفارقة الجسد ، كما أنّ الجنين لا يحسّ بهذه الدنيا إلّا بعد الولادة ، فمن أجل هذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا»[5] وإنّما نومهم غفلتهم عمّا بعد سكرة الموت فإذا جاءت سكرة الموت الّتي هي مفارقة النفس الجسد عاينت حقيقة ما كانوا يوعدون كما قال تعالىٰ : **﴿فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد﴾**[6] وقال سبحانه لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم : **﴿واعبد ربّك حتّى يأتيك اليقين﴾**[7] يعني الموت بمفارقة النفس الجسد ، وقال تعالىٰ : **﴿كلّ نفس ذائقة الموت ثمّ إلينا ترجعون﴾**[8] فإذاً الموت حكمة ؛ إذ لا رجوع لنا إلى ربّنا الرحيم الغفور إلّا بعد الموت ولا وصول للنفس إلى ما وعد الله إلّا بعد مفارقتها الجسد كما ذكر الله سبحانه : **﴿يا أيّتها النفس المطمئنّة ارجعي إلى ربّك راضية مرضيّة﴾**[9] إلى آخر السورة . فإذاً الموت حكمة .

واعلم يا أخي أنّ في الموت حكمة أيضاً . إنّ كلّ نشور وكون فله أوّل وابتداء ، وغاية وانتهاء إليها يرتقى ، ولغايته ثمرة تجتنى ، فمسقط النطفة كون

---

(١) سورة يونس ؛ الآية : ٧ .
(٢) سورة الأنفال ؛ الآية : ٦٨ .
(٣) سورة الأعلى ؛ الآية : ١٧ .
(٤) سورة العنكبوت ؛ الآية : ٦٤ .
(٥) أنظر ما ذكر حول الرواية في التقدمة .
(٦) سورة قٓ ؛ الآية : ٢٢ .
(٧) سورة الحجر ؛ الآية : ٩٩ .
(٨) سورة العنكبوت ؛ الآية : ٥٧ .
(٩) سورة الفجر ؛ الآية : ٢٧ .

قد ابتدأ ، وغايته الولادة الّتي إليها المنتهى ، والولادة أيضاً كـون ابتداء والمـوت غـايته الّتي إليهـا المنتهى . وكما أنّ ثمـرة مسقط النطفـة بعد الـولادة تكـون لأنّ الطفل لا يتمتّع إلاَّ بعد الولادة فهكذا النفس لا تتمتّـع إلاَّ بعد مفـارقة الجسـد ؛ لأنّ موت الجسد ولادة النفس وهي الروح وذلك أنّ موت الجسد ليس شيئاً سوى مفارقة النفس له كما أنّ ولادة الجنين ليست شيئاً سوى مفارقة الرحم فإذاً الموت حكمـة ، كما أنّ الـولادة حكمة . وكمـا أنّ الجنين إذا تمّت في الرحم صـورتـه وكملت هنـاك خلقته انتفـع بالـولادة في الحياة الـدنيا كـذلـك النفس إن أُكملت صورتها وتمّت فضائلها بكونها مع الجسد انتفعت بعد مفارقتها الجسد في الحياة الآخرة ، كما انتفعت في الحياة الدنيا فإذاً الموت حكمة .

واعلم يـا أخي أنّ مثـل النفس من الجســد كمثـل الصبيّ في المكتب ، ليتعلّم ويتأدّب ويرتاض ، فإذا أحكم ذلك فليس له إلاَّ الخـروج من المكتب لأنّه قد تمّ ما يُراد منه وبقي الإكرام والمجازاة . وهكـذا حكم النفس مع الجسـد إذا أحكمت ما يُراد منها بكونها معه فليس إلاَّ المفـارقة ، كمـا وأنّ الصبيّ إذا أحكم ما يُراد منـه في المكتب استغنى عن حمل اللّوح والقلم ونقلهمـا والمداد ، لأنّـه كـان يكتب ويقرأ ويمحـو ليحصّل العلم في نفسـه محفوظـاً من القـرآن والشعـر والنحـو واللغة ومـا شاكلهـا ممّا يحفظ صبيـان المكاتيب فهكـذا حكم النفس مع الجسـد إذا هي أحكمت أمر المحسـوسـات بـطريق الحـواسّ وأمـر المعقـولات بـطريق الفكر والـرويّة ، وعـرفت أُمور حقـائق هذ العـالم من الكـون والفسـاد ، وارتفعت بعد ذلك بطريق الرياضات الّتي هي البراهين إلى معرفـة الأُمور الفـائتة عن الحـواسّ وارتاضت فيهـا وعرفتهـا حقّ معرفتهـا ، واستبان لهـا أمـر عـالمهـا ومبدئها ومعـادها وعـاينت بعين البصيرة أحـوال أبناء جنسهـا من السابقين الّـذين مضـوا على سنن الهدى وارتقـوا إلى السماء وفسحـة الأفـلاك وسعـة السمـاوات اشتاقت هي عند ذلـك إلى الصعود هنـاك واللحوق إلى أبنـاء جنسها ولا يمكنهـا ذلك بهذا الجسد الثقيل إلاَّ بتركها له ، ومفارقتها إيّاه وهو بالمـوت ، ولو لم يكن الموت لكانت ممنوعة عن الوصول إلى هناك . فإذاً الموت حكمة ورحمـة ونعمة من الله سبحانه للنفوس الخيرة المستبصرة .

واعلم يا أخي أنّ في الموت حكمة أُخرى وهو أنّ الجسد كالسفينة والنفس كالملّاح والأعمال الصالحة كالبضاعة والأمتعة للتجّار ، والدنيا كالبحر ، وأيّام الحياة كالمعبر والموت كالساحل ، والدار الآخرة كمدينة التجّار ، والجنّة هي الربح ، والله الملك المجازي . وكما أنّ التاجر إذا عبر البحر ، وسلمت أمتعته وبضاعته إن لم يخرج من السفينة لا يمكنه الدخول في المدينة للتجارة ، ويفوته ربح بضاعته فهكذا حكم النفس مع الجسد أيضاً ، وذلك أنّها إذا قطعت أيّام الحياة الدنيا بالأعمال الصالحة وسارت سيرة عادلة وتخلّقت بأخلاق جميلة ، واعتقدت آراء صحيحة ، ونظرت في الأُمور المحسوسة ، وعرفتها معرفة صحيحة وبحثت عن حقائق المعقولات وأحكمتها ، وبلغت آخر العمر ، وهرم الجسد فليس إلاّ الفراق الّذي هو موت الجسد ، فلو لم يكن الموت لما أمكنها الصعود إلى الملكوت ولا الدخول في زمرة الملائكة ، ولا الوصول إلى الجنّة وكان يفوتها لقاء الله ونعيم الدار الآخرة فإذاً الموت حكمة ونعمة ورحمة ، إذ لا وصول إلى ربّنا إلاّ بعد الموت الّذي هو مفارقة الجسد كما ذكر سبحانه : **﴿كلّ نفس ذائقة الموت ثمّ إلينا ترجعون﴾**[1] .

واعلم يا أخي أنّ في الموت حكمة أُخرى وهو أنّ الدنيا كالميدان ، والأجساد خيل عتاق ، والنفوس السابقة إلى الخيرات فرس فره ، والله الملك الجواد المجازي ، وكان الفارس السابق إذا بلغ باب الملك إن لم ينزل عن فرسه لا يمكنه الدخول إلى حضرة الملك ، ويفوته الجائزة والخلع والكرامة ، فهكذا حكم نفوس السابقين في الخيرات والأعمال الصالحة ؛ إذا قطعوا أيّام الحياة الدنيا سبقت إلى الخيرات كما مدحهم الله سبحانه بقوله : **﴿إنّهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين﴾**[2] فإذا فني العمر وهرم الجسد وشاخ ، وشابت النفس وكملت ، إن لم تفارقه لا يمكنها الصعود إلى ملكوت السماء ، لأنّ هذا الجسد المتغيّر الفاسد لا يليق بذلك المكان العليّ الشريف ، بل النفس هي الّتي يمكنها الصعود إلى هناك لتجازى

---

(١) سورة العنكبوت ؛ الآية : ٥٧ .

(٢) سورة الأنبياء ؛ الآية : ٩٠ .

بما عملت من خير ، فإذاً الموت حكمة ورحمة ونعمة .

واعلم يا أخي أنّ في الموت حكمةً أُخرى وهي أنّ الدنيا كالمزرعة وأرحام النساء الحرث ، قال الله سبحانه : **﴿نساؤكم حرث لكم﴾**[1] والنطفة كالبذر والولادة كالنبت وأيّام الشباب كالنشوء وأيّام الكهولة كالنضج ، وأيّام الشيخوخة كاليبس والجفاف ، والموت كالصرام[2] والحصّاد ، والآخرة كالبيدر[3] فكما أنّ على البيدر يُجمع الزرع من كلّ جنس ويداس وينقّى ويتميّز القشور والورق والتبن من الحبّ والثمر ويجعل علفاً للدوابّ وحطباً للنيران ، فهكذا يجتمع في الآخرة الأُمم من كلّ دين ، وتنكشف الأسرار ويميز الله الخبيث من الطيّب ، ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنّم كقوله : **﴿وينجّي الله الّذين اتّقوا بمفازتهم لا يمسّهم السّوء ولا هم يحزنون﴾**[4] وهذا كلّه بعد الموت ، فإذاً الموت حكمة ورحمة لأوليائه ، فمن أجل هذا يتمنى أُولئك الموت كما عاتب من ظنّ أنه منهم بقوله : **﴿قل يا أيّها الّذين هادوا إن زعمتم أنّكم أولياء لله من دون الناس فتمنّوا الموت إن كنتم صادقين﴾**[5] فدلّ بهذه على علامة أولياء الله الّذين يتمنّون الموت إن علموا أنّهم يرجعون إلى ربّهم بعد الموت . فإذاً الموت حكمة .

واعلم يا أخي أنّ في الموت حكمة أُخرى وهي أنّ النفوس كالصنّاع ، والأجساد كالدكاكين ، وأعضاء الجسد كالأدوات . واعلم أنّ الصنّاع يجتهدون في الصنائع ، ويتحمّلون مشقّة العمل لكسب المال وطلب الغنى ، فإذا استغنى واحد منهم ترك الدكّان والأدوات واستراح من العمل ، فهذا حكم النفوس إذا هي أحكمت ما يُراد منها مع الجسد من الزاد للآخرة ، واستغنت عن الجسد ،

---

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٢٣ .

(٢) الصرام مبالغة الصارم بمعنى القاطع .

(٣) البيدر : الموضع الذي يجمع فيه الزرع المحصود ليداس .

(٤) سورة الزمر ؛ الآية : ٦١ .

(٥) سورة الجمعة ؛ الآية : ٦ .

واستقلّت بذاتها ، فلو لم يؤخذ منها الجسد لكان وبالاً عليها ومانعاً لها عن الصعود إلى ملكوت السماء ، والدخول في زمرة الملائكة والسيحان في عالم الأفلاك ، والسريان في فسحة فضاء السماوات ، والتنسّم من ذلك الروح والريحان المذكور في القرآن . فإذاً الموت حكمة ونعمة من الله سبحانه لعباده المؤمنين .

وقال يوسف على نبيّنا وعليه السَّلام : **﴿ربّ قد آتيتني من الملك وعلّمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليّي في الدنيا والآخرة توفّني مسلماً وألحقني بالصالحين﴾**(١) أما ترى أنّه تمنّى الموت بقوله : **﴿توفّني﴾** لمّا علم أنّ اللحوق بالصالحين لا يكون إلّا بعد الموت فإذاً الموت حكمة .

وقال إبراهيم خليل الرّحمٰن عليه السلام : **﴿الّذي يميتني ثمّ يحيين * والّذي أطمع أن يغفر لي خطيئتي يوم الدّين * ربّ هب لي حكماً وألحقني بالصالحين * واجعل لي لسان صدق في الآخرين * واجعلني من ورثة جنّة النعيم﴾**(٢) فإذاً الموت حكمة ، إذ كانت وراثة الجنّة لا تكون إلّا بعد الموت .

واعلم أنّ هذه الكرامة للنفس لا للجسد ؛ لأنّ جسدهما قد بلي في التراب وإنّما أُلحقت بالصالحين نفساهما(٣) .

إذا تقرّر ذلك فلنبيّن لك يا أخي معنى الصراط . اعلم أنّ أجسام الأركان الأربعة تستحيل إلى أجسام النبات ، وأجسام النبات تستحيل إلى أجسام الحيوانات ، وأشرف الحيوان الإنسان ، فصورة النبات صراط منكوس إلى العمق وقد جازتها النفس الحيوانيّة ونجت منها ، وصورة الحيوان صراط ممدود على السطح وقد جازتها النفس الإنسانيّة ونجت منها ، وصورة الإنسان صراط مستقيم كالخطّ قائماً منتصباً بين الجنّة والنار ، وهي آخر باب في جهنّم ، فأيّ نفس جازتها نجت من جهنّم ودخلت الجنّة الّتي هي صورة الملائكة ، وإلّا ردّت

---

(١) سورة يوسف ؛ الآية : ١٠١ .

(٢) سورة الشعراء ؛ الآيات : ٨١ ـ ٨٤ .

(٣) في الأصلين «نفسيهما» .

إلى أسفل السافلين إلاَّ الّذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون .

فانظر يا أخي في هذا الباب وتفكّر فيه فإنّك على خطر ، قد بلغت قريباً من باب الجنّة . فإن بادرت قبل مفارقة النفس الجسد ، فاستعددت وتزوّدت بالأعمال الصالحة ، والآراء الصحيحة ، والأخلاق الجميلة ، والعلوم الحقيقيّة رجوت لك أن تنجو من نيران الّتي في عالم الكون والفساد ، وتصل إلى الجنّة بالصعود إلى عالم الأفلاك وفسحة السماوات وعالم الدوام والبقاء والخلود في النعيم مع النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أُولئك رفيقاً .

واعلم يا أخي أنّ الجسد مسوّس والنفس ساوس ، فأيّ نفس ارتاضت في سياسة جسدها كما يجب ، أمكنها سياسة الأهل والخدم والغلمان ، ومن ساس أهله بسيرة عادلة أمكنه أن يسوس قبيلته ، ومن ساس قبيلته أمكنه أن يسوس أهل المدينة كلّهم ، ومن ساس الناموس الإلٰهيّ أمكنه الصعود إلى عالم الأفلاك وفسحة السماوات ، ليجازى هناك بما عمل من خير ، فإذاً الموت حكمة . وإن لم يسبق لك يا أخي سياسة الناموس الإلٰهيّ فكن خادماً فيه لعلّك تنجو من نار جهنّم بشفاعة أهله وتصعد إلى ملكوت السماوات بمعاونتهم وتدخل الجنّة برحمة الله وفّقك الله أيّها الأخ للصواب ، وهداك إلى الرشاد وجميع إخواننا حيث كانوا في البلاد .

واعلم يا أخي أنّ عيوب الجسد ومثالبه كثيرة غير أنّ فيه محاسن ممّا يستفيد من النفس بكونها معه من الحكمة والعلم والفوائد ، وما يرتاض في اتّخاذ الصنائع والسياسات والمداومة على الطاعات بحسب الطاقة البشريّة ، إذا أخذت النفس الطريق ذات اليمين ؛ لأنّ هذا الجسد لهذه النفس كصراط ممدود بين الدنيا والآخرة ، فإذا عبرت النفس على هذا الصراط وسلمت من آفاته سهل عليها سائر ما بعد ذلك ، فمن عيوب هذا الجسد أن يكون النفس معه في كنيف لأنَّ الكنيف بالحقيقة هو هذا الجسد ، لأنّه ينبوع لكلّ قاذورة من وسخ وبول وغائط ومخاط[1] وبزاق ودم وصديد ولعاب وعرق وبخر وصُنان[2] وإنّ كلّ ما في

---

(١) المخاط : ما يسيل من الأنف .

(٢) البخر ـ بالتحريك ـ : نتن الفم . والصنان ـ بالضم ـ نتن الإبط .

الكنيف فمنه يخرج ، وفيه يتكون ، فأوّله نطفة مذرة[1] وآخره جيفة قذرة ، وفيما بين الحالين مملوء عذرة ، والنفس على دوام الأوقات في تنظيفه وغسله وتنقيته ومداواته وستر عوراته ، وحفظه من آفات الحرّ والبرد والجوع والعطش والصدمة والضربة والآفات العارضة الّتي لا يحصى عددها . وبالجملة فليس للعالم نتن ولا نجاسة ولا قاذورة إلاّ منه .

ومن وجه آخر مثل النفس مع الجسد كعابد صنم يعبده ليلاً ونهاراً ، وذلك أنّ النفس إذا تركت تعلّم العلم وعبادة الله والنظر في أُمور معادها بعد فراق الجسد والاستعداد له والتزوّد للرحلة من الدنيا إلى الآخرة ، واشتغلت بما يكون به صلاح الجسد من الأكل والشرب واللباس والمسكن والمركب وما شاكلها ، فتصير كأنّها هو ذا تعبد صنماً كما ذكر الله سبحانه : ﴿**أفرأيت من اتّخذ إلٰهه هواه**﴾[2] .

ووجه آخر كأنّه كافر محجوب عن الله ، لا يعرف ولا يدري من خلقه ورزقه .

ووجه آخر كأنّه صاحب بدعة يدعو إلى هواه ، ويريد أن يكون الأمر بمراده .

ووجه آخر كأنّه جاهل عجول لا ينظر في العواقب .

ووجه آخر كأنّه عدوّ للنفس يظهر الصداقة ويكتم العداوة .

ووجه آخر كأنّه الشيطان من كثرة الوسواس .

ووجه آخر كأنّه إبليس يدعو إلى الغيّ .

ووجه آخر كأنّه ميّت على جنازة حملتها النفس على كتفها لا تستريح منه إلاّ إذا دفنته في التراب .

ووجه آخر كأنّه غيم بين أبصار الناظرين ونور الشمس ؛ لأنّ ظلمات

---

(١) الفاسدة الخبيثة .

(٢) سورة الجاثية ؛ الآية : ٢٢ .

أخلاط الجسد تمنع عن النظر إلى نور العقل ، وتنظر الآمال وتنسى الآجال .

ووجه آخر مثل هذه النفس الجزئيّة مع شرف جوهرها وما هي عليه من غوايتها في هذا العالم الّذي تحت الكون والفساد وما ابتليت به من آفات الجسد وفساد هيولاه كمثل رجل حكيم خيّر في بلد غربة قد ابتلي بعشق امرأة رعناء فاجرة جاهلة سيّئة الأخلاق رديئة الطبع ، فهي دائماً تطالبه بالمأكولات الطيّبة والمشروبات اللّذيذة واللباس الفاخر والمسكن المزخرف والشهوات المردية ، وإنّ ذلك الحكيم من شدة محنته بمحبّتها وعظيم بلائه بصحبتها قد صرف كلّ همّته إلى إصلاح أمرها ، وأكثر عنايته بتزيين شأنها حتّى قد نسي أمر نفسه ، وصلاح شأنه وبلدته الّتي خرج منها وأقربائه الّذين نشأ معهم ونعمته الّتي كان فيها بدءاً .

واعلم يا أخي أنّ جوهر النفس جوهر سماويّ ، وعالمها روحانيّ وهي حيّة بذاتها غير محتاجة إلى الأكل والشرب واللباس وما شاكل هذه الأمور ممّا يحتاج إليه الجسد في قيام وجوده المستحيل الفاني ، البالي الفاسد ، ولإصلاح شأنه وقوام وجوده وجرّ المنفعة إليه ودفع المضرّة عنه ، وهو لا يثبت على حال واحد طرفة عين .

واعلم أنّ النفس ما دامت مع هذا الجسد إلى الوقت المعلوم متعوبة بكثرة همومها لإصلاح أمر هذا الجسد ، شقيّة بشدّة عنائها فيما تتكلّف من الأعمال الشاقّة والصنائع المتعبة لاكتساب المال والمتاع والأثاث وما يحتاج إليه الإنسان في طول الحياة الدنيا .

واعلم أنّ النفس لا راحة لها دون مفارقتها هذا الجسد ، كما أنّ ذلك الرجل الحكيم المبتلى بعشق تلك المرأة الفاجرة الرعناء ، لا راحة له ممّا قد ابتلي به إلّا بمفارقتها ، والتسلّي عن عشقها وحبّها ، فإذاً الموت حكمة ورحمة لنفوس الأخيار وبوار للأجساد .

وقد قيل : إنّ بعض ملوك الهند لمّا دنت وفاته وكان مؤمناً أحضر ولداً كان له قد أهّله للملك بعده ، ولم يكن له ولد سواه ، وكان قد درسه نبذة من

العلم ، ومرّنه شيئاً من سياسة المملكة فقال له : يا بنيّ ! أُوصيك بتقوى الله وطاعته والخوف منه ، وعليك في أمر دينك بعشر خصال تنتفع بها في الآخرة .

أوّلها : الإقرار بالله وبتوحيده ، والإبتهال إليه ، وبالدعاء والتضرّع إليه باللّيل والنهار .

والثاني : الإقرار برسله وتصديقهم والقبول منهم .

والثالث : التصديق بالكتب المنزلة عليهم من عنده .

والرابع : حفظ الناموس وسياسة الناس .

والخامس : التواضع لله وترك التجبّر .

والسادس : ترك الظلم والجور ، فإنّ من ظلم عباد الله كان الله خصمه ، ومن كان الله خصمه فهو مخذول لا محالة .

والسابع : ترك كثرة مخالطة النساءِ والاجتماع معهنّ والإصغاء إليهنّ لحديثهنّ والإقبال على قولهنّ ؛ فإنّهن يفسدن عقول الرجال [المائلين .ظ] إليهنّ .

والثامن : ترك الشراب المسكر فإنّه عدوّ العقل ، وهو خليفة الله معك ، فمن سلّط على خليفة الله عدوّه دمّره الله ونزع عقله بإدخاله عدوّه عليه ، فإذا ذهب العقل فلا دين ولا مروءة ولا حياء ولا مراقبة ، ومن عدم هذه الخصال كان موته صلاحاً عامّاً .

والتاسع : الكرم والسخاء وسماحة النفس والتفضّل على سائر الناس صديقاً كان أو عدوّاً فإنّه خلق يشرّف صاحبه .

والعاشر : صدق العقول وأداء الأمانة إلى البرّ والفاجر .

وعليك بعشر خصال تنفعك في دنياك وترى بها الخير والبركة والزيادة والرزق :

أوّلها : حسن الخلق .

وثانيها : حسن الأدب .

وثالثها : صدق الوعد والوفاء بالعهد .

ورابعها : العفو عند القدرة .

والخامس : اصطناع المعروف للرجال وترك الحسد .

والسادس : تحرص أن لا يكون لك عدوّ ، وإن كان لك عدوّ فيكون إحسانك إليه عقوبتك له ، فإنّ الله يكفيك مؤونته ويمكّنك من ناصيته .

والسابع : ترك التفريط فيما لديك من وديعة الله وأن لا تفعل فيه إلاّ ما يقرّبك إليه .

والثامن : مروءتك غالبة على شهواتك .

والتاسع : أن لا تؤثر دنياك على آخرتك ، فإنّ الله سبحانه إذا علم ذلك منك أعطاك الدنيا فإنّه تعالىٰ أوحى إلى الدنيا : «من خدمك فاستخدميه ومن خدمني فاخدميه» .

والعاشر : ترك النظر فيما لا يعنيك وأن لا تشتغل إلاّ بما شغلك الله فيه .

وعليك بعشرة خصال يصلح الله بها ملكك ويديم بها سلطانك :

أوّلها : أن تكون متفقّداً لأهل مملكتك حتّى لا يغيب عليك شيء من أُمور صغيرهم وكبيرهم ، ولتكون محيطاً بجميع أعمالهم .

والثاني : أن تقابل كلّ أحد من رعيّتك على قدر عمله .

والثالث : أن يكون عدلك شاملاً لهم .

والرابع : أن لا تجور عليهم .

والخامس : أن لا تساوي بين علمائهم وجهّالهم في العطيّة والمنزلة .

والسادس : أنّ تولّي على الناس من قِبلك الأخيار والأحرار ، وإيّاك أن تولّي عليهم العبيد والمماليك وأولاد الزنا . واعلم أنّ أعمال ولاتك[1] منسوبة

---

(١) كذا في النسخة (ر) وفي الأصل «ولايتك» .

إليك ، إن عدلوا فيك قالوا : عدل السلطان وإن جاروا فيك قالوا : جار السلطان .

والسابع : أن لا تستعمل من أصحاب الرأي والمشورة من هو مخالف لك في دينك فإنّه لا ينصحك وإن نصحك في أوّل أمره غدرك في آخره .

والثامن : أن يكون وزيرك أرفع أهل زمانك درجة في الدين والدنيا جميعاً ، ويكون هو من الأخيار فقد قيل «من لا أصل له لا فرع له ، ومن لا فرع له لا ثمرة له وشجرة لا تثمر فالنار أولى بها» .

والتاسع : إنصاف المظلوم من الظالم ومنع القويّ عن التعدّي على الضعيف .

والعاشر : ردّ الحقّ إلى أهله والانتصار لهم .

فإذا كملت هذه الثلاثون خصلة فيك رجوت لك كمال الأُمور في الدين والدنيا جميعاً والملك أيضاً ، واستوجبت أن تكون ملكاً عادلاً فتنال بذلك الدرجة عند الله وحسن العاقبة في المعاد والمنقلب .

فتأمّل يا أخي هذه الوصيّة وتدبّرها وانظر شفقة هذا الملك العادل على ولده ، وكيف رضي له ما رضي لنفسه كذلك يجب على الحكيم أن يوصي تلاميذه ، وعلى كلّ رئيس أن يوصي رعيّته ومن يخلفه ويقيم مقامه من بعده .

وكان ممّا وصّى به رعيّته ما سنذكره في هذا الموضع :

ويُقال : إنّه لمّا فرغ من وصيّته إلى ولده الّذي أهّله للملك بعده جمع علماء مملكته وأهل الفضل والشرف وهم من أهل المنازل والرتب الّذين هم أصحابه وأربابه فقال :

أيّها العلماء الّذين كانوا ولاة أمري وأهل نصيحتي قد كنتم لي نصحاء وعبيداً حسب طاعتكم لي بنيّة صادقة فكانت ألسنتكم بشكري والدعاء لي وحسن الثناء عليّ ناطقة ، وكنت لكم مكرماً ، وبحقّكم عارفاً ، وعليكم مشفقاً ، وإلى جماعتكم محسناً ، فكونوا لهذا الغلام كما كنتم لي يكون لكم

مثل ما كنت لكم .

ثمّ قال لجميع الناس : اتّقوا الله وأصلحوا ذات بينكم ، واجمعوا على التقوى كلمتكم وتودّدوا بينكم ، وليرحم كباركم صغاركم ، وأطيعوا ولاتكم . وإيّاكم والنفاق والخلاف والعداوة والمنازعة والمجادلة في أديانكم ومذاهبكم ، فإن في ذلك صلاحاً لأنفسكم ، واجتماعاً لشملكم ، ودعة لقلوبكم ، ودفاعاً عن بلادكم ولا يطمع فيكم عدوّكم ، ويخرّب بلادكم ولا تفاوتوا في المذاهب ، ولا تلاعنوا فتهلكوا عن بكرة [أبيكم . ظ][1] .

واعلموا أنّ في اجتماع الكلمة وترك الخلاف بركة لمن أقبل عليه وحسناً لمن التجأ إليه ، فإنّ القضبان إذا جمعت ضعافاً وضمّ إليها من جنسها الضعاف حتّى يكون قبضة عسر كسرها فإذا فرّقت كسرت في أهون سعي . وقد علمتم الّذي عاهدتموني عليه وما وصّيتكم به من أمر هذا الغلام الّذي رُبّي بينكم ، وإيّاكم والتغيير عليه ونقض العهد فإنّه ليس المنكوث عليه بأسوء حالاً[2] من الناكث ، فعليكم بالسمع والطاعة ، وتمّموا له ما بدأتم به يتمّم الله لكم أفضل الأمور ويحسن حالكم على يديه وهذا ملككم وأخذ بعضده ودعا له وأشهد بعضهم على بعض وأشهد الله عليهم ، ولحقته سكرة الموت ، واعتقل لسانه ، وضعفت حياته ، وعرق جبينه ، واعتنقه ولده ، وفاضت روحه في يده ،وحزن عليه أهل مملكته ، ثمّ قضى الله سبحانه فيمن بعده بما أحبّ وتصرّفت بهم الأحوال .

اعلم يا أخي أنّ النفوس الشريرة بعد مفارقة الأجساد تكون من جنود إبليس وحزب الشياطين فإن الإنسان العاقل إذا سمع بأوامر الشارع ونواهيه ووعده ووعيده وزواجره ، ثمَّ لم يأتمر بحدوده ولم ينفذ أحكامه ، ثمّ أهمل أمر نفسه وأعرض عن النظر في مصالحها بعد مفارقتها الجسد ، بل جعل أكثر عنايته في إصلاح شأن هذا الجسد ، وأكبر اهتمامه في تربيته ، واشتغل الليل والنهار

---

(١) أي في صباح اليوم الذي مات في ليله أبوكم .

(٢) كذا في النسخة (ر) وفي الأصل «بأسوء حال» .

بما يصلح الجسد من المأكولات والملبوسات والمراكب والمساكن وجمع الأثاث والمال وزينة الدنيا واستغرق في الشهوات الجسمانيّة ، وغاص في اللّذّات الجرمانيّة لا يفكّر في غيرها ، ولا يهمّه سواها ، وتمنّى الخلود في الدنيا مع علمه بأنّه لا يترك هناك ، وأفنى عمره كلّه ساهياً لاهياً إلى الممات ، ثمّ جاءت سكرة الموت الّتي هي مفارقة النفس الجسد على كره منها وبقيت عند ذلك نفسه بلا جسد قد سلبت إلاّ الحواسّ الّتي كانت تنال بها اللّذّات الجسمانيّة وقد اعتادتها بطول الدربة[1] فيها وانطبع في وهمها وهمّتها النزوع إليها ، ولا وصول لها إليها إلاّ بهذا الجسد وأعضائه . وقد منعت ذلك فيكون مثلها عند ذلك كمثل من سملت عيناه[2] ، وصمّت أذناه ، وخرس لسانه وسدّت منخراه ، وشلّت يداه ، وقطعت رجلاه ، وعمي قلبه ، وفارقه أحبّاؤه ، وجفاه أصدقاؤه ، وتركه إخوانه ، وهجره جيرانه ، وظفر به أعداؤه ، وشمت به حسّاده ، وما بقي معه إلاّ الروح بلا جسد معذّباً ، فلا هو حيّ يلتذّ بالعيش ، ولا ميّت فيستريح من العذاب ، كما ذكر الله سبحانه ﴿**لا يموت فيها ولا يحيا**﴾[3] فتبقى كلّ النفوس عند ذلك تائهة بوهمها ، هائمة بهمومها في طلب ما قد فاتها ممّا قد اعتادته من لذّات هذه المحسوسات وقد منعت الوصول إليها والعود ، تتمنّى وتقول بهمّتها : ﴿**يا ليتنا نردّ ولا نكذّب بآيات ربّنا**﴾[4] وقال : ﴿**وهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نردّ فنعمل غير الّذي كنّا نعمل**﴾[5] وقال الله سبحانه : ﴿**ولو ردّوا لعادوا لما نهوا عنه**﴾[6] فعند ذلك تبقى بحسرتها وندامتها مؤتلمة بذاتها معذّبة من سوء عاداتها عمياء في جهالتها دون فلك القمر سابحة في قعر الأجسام المدلهمّة ، غريقة في بحر الهيولى هائمة في هاوية عالم الكون والفساد ، مع أبناء جنسها من الأمم الخالية إخوان الشياطين وجنود إبليس أجمعين ، ملعونين كما ذكر الله

---

(١) الدربة : الخبرة والتجربة .

(٢) في الأصلين «سلمت عيناه» سهواً .

(٣) سورة الأعلى ؛ الآية : ١٣ .

(٤) سورة الأنعام ؛ الآية : ٢٧ .

(٥) سورة الأعراف ؛ الآية : ٥٢ .

(٦) سورة الأنعام ؛ الآية : ٢٨ .

سبحانه : ﴿**كلّما دخلت أُمّة لعنت أُختها**﴾[1] إلى آخر الآية ، وهم متعلّقون بأبناء جنسهم من النفوس المتجسّدة بالوسوسة لها إلى طلب شهوات هذه اللّذّات المحسوسات ضالّين مضلّين في جهنّم خالدين ، كما ذكر الله سبحانه فقال : ﴿**فكبكبوا فيها هم والغاوون * وجنود إبليس أجمعون**﴾[2] وأمّا اللّذّات الروحانيّة فهي بضدّ تلك الشهوات .

وإذ قد فرغنا من ذكر الآلام الّتي تصل إلى النفوس الشريرة بعد مفارقتها أجسادها الّتي هي سجون لها فاعلم[3] يا أخي أنّ اللّذّة والراحة والسرور والنعيم الّتي تجدها النفوس الخيرة الفاضلة الملكيّة بعد مفارقتها أجسادها يقصر الوصف عنه بحقائقها ، ولا يبلغ فهم البشر كنه معرفتها ، لأنّها روحانيّة أبديّة سرمديّة كما ذكر سبحانه : ﴿**فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرّة أعين**﴾[4] ولكن نذكر منها طرفاً ، ونشير إليها إشارة وهميّة حسب ما يمكن ، ونضرب لذلك مثلاً يشبه الرمز والإشارة كما يقرب من فهم المتفكّرين ويتصوّر في أفهام المبتدئين .

ذكر أنّه كان فتى من أولاد الملوك شابّاً حسن الوجه ، كامل الصورة تامّ البنية ، جميل الأخلاق ، كريم الأفعال ، عادل السيرة . عشق جارية حسناء من أقاربه من بنات الملوك ، فتزوّجها وزفّت إليه كما يليق بأبناء الملوك من الكرامات ، وعاش معها زماناً طويلاً في عزّ سلطانه ، ونعمة مملكته ولذّة شبابه وسرور نعمته ، آمنين بلا تنغيص عيش من عوارض الحدثان .

ثمّ فرّق الدهر بينهما بموتها ، وزال الفتى عن ملكه بغلبة عدوّ ظهر عليه ، واغترب عن بلاده ، وساح في أرض الغربة ، وافتقر ، وأصابه الذلّ والمرض ، وأدركه الهرم ، وضعفت بنيته ، وذهبت قوّته ، وكلّ بصره ، وثقل سمعه ، وأصابه العري والجوع ، وتمنّى الموت ممّا كان فيه من ا لمحن والبلوى والجهد والشدّة ، فدخل خربة ، فنام فيها على مزبلة ورماد ، يستريح بلين وطاءتها ،

---

(١) سورة الأعراف ؛ الآية : ٣٧ .
(٢) سورة الشعراء ؛ الآية : ٩٤ .
(٣) كان في الأصلين «واعلم» وعليه لم تكن جملة «إذ قد فرغنا» تماماً .
(٤) سورة السجدة ؛ الآية : ١٧ .

فوجد راحة فنام ، فرأى في منامه كأنّه شابّ طريّ كما كان في صباه ، وقد رجعت إليه قوّة بدنه ، ونشاط نفسه ، وأيّام شبابه ، كأنّه هو في ملكه وعزّ سلطانه ، ونعيم آبائه وسرور أُمّهاته ، وإذا هو بتلك الجارية كهيئتها يوم عشقها وتزوّج بها ، من حسنها وجمالها ، فعانقها والتزمها ونال منها بغيته وشهوته كما يدرك بدءاً وهما على سرير الملك ، يحملهما الريح حيث أراد من اللذّة والفرح والسرور ، اضطرب في نومه وتحرّك وانتبه فإذا هو في الخربة على تلك المزبلة والكلاب حوله تنبح عليه .

فإذ ترى يا أخي كم بين حال نفسه في ذلك المنام وما وجد من اللذّة والسرور والفرح ، وبين حالته لمّا استيقظ من النوم من الهموم والغموم الأحزان والجهد والبلوى والشدائد . فهكذا القياس بين أحوال النفوس الخيرة وكونها مع الأجساد ، وبين كونها مفارقة للأجساد من اللّذّة والفرح والسرور بالإضافة إلى حال كونها مع الأجساد وما يلحقها من الغموم والهموم والأحزان والمصائب والشدائد . نجّانا الله وإيّاك أيّها الأخ من آلام نيران جهنّم ، عالم الكون والفساد ، وأوصلك وإيّانا إلى نعيم جنّات عالم الأفلاك وملكوت السماوات ، وجوار الملائكة المقرّبين ، مع النبيّين والصدّيقين والشهداء والصالحين وحسن أُولئك رفيقاً ، ذلك الفضل من الله وكفى بالله عليماً .

واعلم يا أخي أنّ العلم علمان : علم الأديان وعلم الأبدان ، فالأنبياء عليهم السلام أطبّاء النفوس وأولياؤهم ، وهذا مذهب إخواننا الكرام ، وإليه ندعو إخواننا الباقين ، فكن أيّها الأخ البارّ الرحيم معيناً لإخوانك ومساعداً لهم توفّق إن شاء الله ، فلنشرع الآن في معالجة الأبدان ملخّصاً ، وإن كان علم الأديان في اللفظ والرتبة مقدّماً على علم الأبدان ، لكن إذا كان البدن معلولاً لا يمكنه الإتيان بما أُمر به من أُمور الدين ، بل مداواة علل النفس وأمراضها أولى بالعلاج . بل علل النفس لا نهاية لها .

فينبغي للإخوان أن يساعدوا بعضهم بعضاً كما ذكروا أنّه كان رجل من الحكماء رفيقاً بالطبّ ، دخل مدينة من المدن فرأى عامّة أهلها بهم مرض خفي وهم لا يشعرون بعلّتهم ، ولا يحسّون بدائهم الّذي بهم ، ففكّر ذلك الحكيم

في أمـرهم ، وكيف يـداويهم ليبـرئهم من دائهم ، ويشفيهم من علّتـهم الّتي استمـرّت بهم ، وعلم أنّه إن أخبـرهم بما هم فيـه لا يسمعـون قـولـه ولا يقبلون نصيحته ، بل ناصبوه العداوة واستعجزوا رأيه واستقصروا عقله واسترزلوا علمه ، فـاحتال في ذلـك لشدّة شفقتـه عليهم وتحنّنه لهم وحـرصه على مـداواتهم طلبـاً لمـرضاة الله ، بـأن طلب في تلك المدينـة رجلاً من أفـاضلهم كان بـه من ذلك الـداء شيء يسير فخلا به وداواه ورفق بـه ، حتّى سقاه من شـربة كـانت معه قـد أعدّها لمداواتهم ، وسعّطه[1] بدخنة كانت معه لمعالجتهم ، فعطس ذلك الرجل من ساعته ، ووجـد خفّة في بـدنه وراحـة في حواسّـه وقوّة في قلبـه ، فشكر لـه وجزاه خيراً ، وقال له : هل لك من حاجة أقضيها لك مكافأة لمـا اصطنعتـه إليّ من الإحسـان في مـداواتـك لي ؟ قـال : نعم ، تعينني على مـداواة أخ من إخوانك ، فقال : سمعاً وطاعة فتـوافقا على ذلـك وأتيا رجـلاً آخر ممّن رأيـا أنّه أقرب إلى الصلاح فخلوا به ورفقا به وداواه بذلك الدواء فبرىء من ساعته ، فلمّـا أفاق من دائه شكرهما خيراً وبارك فيهمـا . وقال : هـل لكما من حـاجة أقضيهـا لكما مكافأة لما صنعتمـا إليّ من الإحسان والمعـروف ؟ فقالا : نعم تعيننـا على مداواة أخ من إخوانك فقال : سمعاً وطاعة فتوافقـوا على ذلك ولقـوا رجلاً آخـر فعـالجوه وداووه مثـل الأوّل فبرىء وقـال لهم مثل قـول الأوّلين ، ثمّ تفـرّقـوا في المدينة يداوون الناس واحداً بعد واحد في السرّ ، حتّى بـرّؤوا أُناسـاً كثيراً وكثـر أنصارهم وأعوانهم ومعارفهم ، ثمّ ظهروا للناس وكاشفوهم بالمعالجة وكـابروهم بالمداواة قهراً ، وكانـوا يلقون واحـداً بعد واحـد من الناس فيـأخذ منهم جمـاعة بيديه وجماعة برجليه ويسعّطه الآخرون كـرهاً ويسقـونه جبـراً ، حتّى برّؤوا أهـل المدينة كلّهم .

واعلم أيّها الأخ أيّدك الله وإيّاناً أنّ هذا مثل الأنبياء عليهم السلام في مبدء دعوتهم للناس من ادّكارهم ما قد نسوه من أمر الآخـرة والمعاد ، وتنبّهم من نـوم الغفلة ورقدة الجهلة الّتي هي مرض النفوس .

---

(١) سعط الرجل : أدخل الدواء في أنفه .

وذلك أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في أوّل مبعثه ومبدء دعوته ابتدأ أوّلاً بزوجته خديجة ثمّ بابن عمّه عليّ عليه السلام ثمّ بمملوكه بلال وسلمان وأبي ذرّ وصهيب وغيرهم حتّى التأموا تسعة وثلاثين رجلاً وامرأة .

ثمّ دعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يعزّ الله الإسلام وأهله فاستجيبت دعوته ، فأسلموا والتأموا أربعين نفساً أظهروا الدعوة . والقصّة طويلة معروفة كيف كانت .

وهكذا فعل موسى عليه السلام لمّا دخل في مصر أوّل مبعثه فابتدأ أوّلاً بأخيه هارون وغيره من علماء بني إسرائيل أولاد يعقوب حتّى التأم معه سبعون رجلاً سرّاً ثمّ أظهروا وقصدوا دعوة فرعون وقصّته تطول .

وكذلك فعل المسيح عليه السلام في بيت المقدس في أوّل مبعثه .

وحيث انتهينا إلى هذا الموضع فلنذكر شيئاً من أمر المعاد .

واعلم أنّ أكثر الناس المقرّين بالمعاد شاكّون فيه متحيّرون لا يدرون حقيقته ، ولا يعرفون طريقته ، وهذا من أكبر الأمراض ، وقد نشأ من التقليد ، يروي الآخر عن الأوّل ، ويحكي التابع عن المتبوع وما مثلهم في ذلك إلاّ كجماعة عميان يضع أحدهم يده على كتف الآخر ويسيرون كقطار الجمال ويمشون ، فإن لم يكن لهم قائد بصير وإلاّ تاهوا كلّهم[1] ، وأُعيذك بالله أيّها الأخ أن تكون منهم بل كن قائداً بصيراً تهدي الضلاّل وطبيباً رفيقاً تبرىء الأكمه والأبرص ، ولا تكن سقيماً محتاجاً إلى مداو .

واعلم أنّ الأطبّاء إذا اجتمع رأيهم على مداواة عليل ، واتّفقت كلمتهم على دواء واحد ، وكانوا مستبصرين بتلك العلّة وتعاونوا على علاجه مشفقين متناصحين غير متنازعين أبرأ الله ذلك العليل على أيديهم في أقرب مدّة ، وشفاه بأسهل سعي . وأمّا إذا اختلفوا وتنازعوا وتناقض بعضهم بعضاً خذل العليل من بينهم وهلك ، ولا ينفعه الله بهم ، ولا ينتفعون هم بعلمهم .

---

(١) كذا في الأصلين ، والصواب اما زيادة «لم» أو زيادة «وإلا» .

فكن أيّها الأخ الرفيق مساعداً لإخوانك وموافقاً ومناصحاً ينفع الله بك العباد ويصلح بك شأنهم كما وعد فقال : **﴿فابعثوا حكماً من أهله وحكماً من أهلها إن يريدا إصلاحاً يوفّق الله بينهما﴾**[1] .

وقد سمعت خبر الحكمين يوم صفّين لم يريدا إصلاحاً[2] بل خدع كلّ واحد صاحبه ومكر به ، وأضمر الغيلة فلم يوفّقوا في الصلح على طريق الرشاد ، وقد غضب عليهما ربّ العباد . ورجع أمير المؤمنين عليه السلام غير راض بهذا الفعل القبيح .

واعلم أيّها الأخ البارّ الرحيم أنّه لا يصدقك في المودّة ولا يخلص لك السريرة ولا يمحّضك النصيحة من لا ترى أنّه يجازي على مودّتك ، ويكافي على محبّتك بعد مفارقة النفس الجسد ، ولا يذكّرك بخير ولا يدعو لك بدعاء صالح ، ولا يرى أنّك أخلصت له المودّة مع أنّك قد بذلت له العمر النفيس في طاعته ومنفعته فإذاً لا تغترّ بمن لا يريد لك مثل ما تريد له ، وكذلك لا تهتمّ ولا تغترّ بمن لا يريد في معاونته لك ـ إن وقع منه في حقّك نادراً ـ إلّا جرّ المنفعة إلى جسده أو دفع المعرّة عنه .

واعلم أنّ كلّ متعاونين في طلب منفعة ممّا يكون فيه خوف التلف على جسد أحدهما وسلامة الآخر ، فإنّه يودّ كلّ واحد منهما أن يسلم جسده وإن تلف جسد صاحبه ، ليفوز هو بتلك المنفعة ويكون هو المغبوط وصاحبه المغبون الهالك ، فالفرار الفرار من مثل هذا ، فإنّه يريد هلاكك لمنفعة يسيرة يجرّها لنفسه الشريرة .

واعلم أيّها الأخ أنّه ليس هكذا كان رأي إخواننا في معاونة بعضهم بعضاً في طلب صلاح الدين والدنيا ، بل بالعكس من ذلك ، وذلك أنّ من كرم أخلاقهم وحسن اعتقادهم يرون رأي الرجل الموافي والمؤالف والمحبّ

(١) سورة النساء ؛ الآية : ٣٤ .

(٢) بهامش النسخة (ر) : «هذا القول مما يدل على تشيع إخوان الصفاء رحمهم الله» أقول : وهذا يؤيد ما ذكره العلامة القاضي في التقدمة من أن المؤلف استفاد كثيراً من رسائل إخوان الصفاء .

المناصح ، بل يفديك بنفسه تقرّباً إلى الله سبحانه لأجل بقائك .

كما فعل الرجل الحكيم الّذي كان وزيـراً لخيشوان ملك الهيـاطلة(١) على ما يحكى عنه في التـواريخ أنّـه لمّا قصـد فيروز ملك الفـرس لقتالـه بجموعـه ، وبلغه الخبر وعلم أنّه لا يطيق مقاومته جمع وزراءه واستشارهم في ذلك ، فمنهم من أشار عليه بالقتال ، ومنهم من أشار عيه بـالحيلة . فقال أحـد من أشار عليـه بالحيلة وكان رجلاً حكيماً : أيّها الملك عندي حيلة لطيفة إن قبلتهـا وعملت بها نجـوت أنت وجيشك ورعيّتـك وسلم بلادك وهلك عـدوّك ، فقال الملك : هلمّ أشر عليّ برأيك وحكمتك ، فقـال الحكيم للملك : أُخل لي المجلس ففعـل ، فقـال : الرأي عنـدي أن تجمع خـزائنك وتتـوجّه إلى مـوضع كـذا فإنّـه موضـع حريز ، وتقوم أنت وجيشك وتمرّ إلى موضع كذا وكذا ، وتتركني في مكاني هذا بعـد أن تقـطع يـدي ورجلي وتسمـل عيني وتـظهـر الغضب عليّ ، وتقـول لمن حولك إنّك ظهرت منّي على خيانة وقلّة نصيحة وهذا عقوبة ذلك ، ثمّ ترحل إذا عملت ذلك بي وعلمت أن قد قرب منك ملك الفرس ، وتتركني بمكـاني وتنتظر إلى أن تتمّ حيلتي . فقـال الملك : ما رأيت بـالله ولا ظننت أنّ أحداً من النـاس تسمح نفسه بما سمحت به نفسك فقال الحكيم : قد سمح قبلي بمثل هذا ذلك الـرجـل الخبّ(٢) العـاقـل ، فقـال الملك : حـدّثني كيف كـان حـديثـه ، قـال الحكيم :

ذكروا أنّه كان قوم من الغوّاصين ذهبوا إلى جزيرة ليخرجوا اللؤلؤ فصحبهم رجـل خبّ ليحتال عليهم فيفـوز ببعض ما يستخرجـونـه ، فلمّـا بلغـوا مـا أرادوا انصرفوا راجعين ولم يظفر الرجل بشيء ممّا أراد غير ما وهبوا له من صغار اللؤلؤ لخدمته لهم فخرج عليهم القطّاع في طـريقهم ، فلمّا رآهم الغـوّاصـون بلع كـلّ واحد منهم ما كان معه من ذلـك الجوهـر الثمين شفقة من أخـذه ، ولم يكن مع الخبّ شيء يشفق عليه فلم يبلع شيئاً ، فلمّا أخذهم القطّاع فتّشوهم فلم يجـدوا

(١) الهياطلة جمع الهيطل : اسم لبلاد ما وراء النهر ، جنس من الترك أو الهند .
(٢) رجل خب : خداع .

معهم شيئاً سوى صغار اللؤلؤ فقالوا لهم : أين خبأتم الكبار ؟ فقالوا : لم نجد شيئاً غير هذا قالوا : بل بلعتموها فلنفتّش أجوافكم فحبسوهم تلك الليلة وعزموا على شقّ أجوافهم ، فجعل الغوّاصون يقولون[1] طول الليل ، ففكّر الرجل الخبّ في نفسه وكان رجلاً عاقلاً فخلا بهم وقال لهم : أخبركم أنّي ما صحبتكم إلّا لكذا وكذا فلم أظفر بشيء ممّا أردت ، وقد علمت بأنّه ما منكم إلّا وقد بلع شيئاً غيري ولئن شقّ جوف أحدكم فوجد فيه شيء لنهلكنّ بأجمعنا وقد رأيت من الرأي أن أفديكم بنفسي فلعلّكم تسلمون ، وهو أن نقول لهم غداً : إن كان ولا بدّ شقّوا بطن واحد منّا فإن وجدتم شيئاً فرأيكم في الباقين ، وإن لم تجدوا شيئاً فاعلموا أنّنا صادقون ، ولكن أمهلونا لنقترع بيننا فمن خرجت قرعته فدونكم ما تريدون ، فإن أجابوا إلى ذلك احتلت أنا حتّى تخرج قرعتي فإن تلفت نفس وسلمتم أسألكم أن تحسنوا إلى ذرّيّتي وتواسوهم ممّا معكم إذا سلمتم إن شاء الله تعالىٰ ، ففعل به ذلك فلم يوجد في جوفه شيء وسلم القوم .

ويا أيّها الملك ! اعلم أنّه إن ظفر بنا عدونا فأنا هالك لا محالة مع غيري ، وأنا أرجو إذا تمّت حيلتي أن يسلم الملك وحاشيته ورعيّته وذرّيّتي معهم وهلك عدوّنا ، وتلف جسدي . ومع هذا أرى أنّ ذلك الرجل أسمح منّي ؛ لأنّه كان شابّاً وأنا رجل شيخ وقد سئمت الحياة ، ومع هذا فإنّي أعلم أنّ الملك إذا سلم يحسن إلى ذرّيّتي أكثر ممّا كان يأمل هذا الرجل منهم ويكون فيّ من حسن الأُحدوثة بعدي مثل ما لذلك الرجل ومع هذا فإنّ الّذي أُفديهم بنفسي أكثر عدداً من الّذين فداهم هو بنفسه ، ثمّ أمر الملك فصنع به ما أشار إليه ، فلمّا قرب فيروز ملك الفرس رحل هو مع جنده وتركه مكانه فلمّا رآه أصحاب فيروز ملك الفرس على تلك الحالة سألوه عن خبره ومن فعل به ما هو فيه ، فزعم أنّه كان أحد وزراء خيشوان ملك الهياطلة ، وأنّه استغشّه لمّا أشار إليه بالصلح وأداء الخراج إلى فيروز ملك الفرس وكره منه ذلك وفعل به ما ترون ، فرجع[2] خبره إلى فيروز وأحضره وسأله عن ذلك فأخبره بمثل ذلك ، وصدّقه فيروز وقال :

---

(١) بهامش الأصل : مشتق من القال والقيل الذي لا أصل له .

(٢) الصواب : فرفع .

أصبت بما أشرت به عليـه ، فقال لـه : أيّها الملك فـأدركني برحمتـك واحملني معك لئلا تفترسني السباع فإنّي أدلّك على طريق هو أقرب من هذا الّـذي تسلكه وأخفى فقبـل منه نصيحتـه وقال : تـزوّدوا ليومين وسلك بهم مسـافة بعيـدة فلمّـا ساروا يومين فنى الزاد والماء فقالوا له : كم بقي فقال : قليل فساروا سيـراً عنيفاً فساروا يومين ، فلمّا كان من الغد قالوا له : كم بقي قـال : لا أدري إنّي سلكت هذه المفازة وأنا بصير والآن ترون حالي اطلبوا لأنفسكم النجاة فتفرّقوا في البرّيّة وهلك أكثـرهم ونجا فيـروز مع نفـر يسير من خـاصّته ورجـع سالمـاً إلى بلده هو وبعض جيشه ، وصالحه خيشوان وصارت ذرّيّة ذلـك الشيخ أعـزّ من في مملكته وأغناهم وبقي حسن الأُحدوثة عن الشيخ في إخـوانه وأصـدقائـه وأبناء جنسـه ، فكـذا كان رأي الفضـلاء الكرام في معـاونة بعضهم بعضـاً لنصـرة الـدين وطلب المعاش إذا علموا أنّ في تلف أجسادهم صلاحاً لإخوانهم في أمر الدين والـدنيا سمحت نفوسهم بتلف أجسادهم لأنّهم يؤمّلون مثل ما أمّـل ذلك الشيـخ الحكيم وذلـك الشابّ العـاقل وزيـادة عليها ، وذلـك أنّهم يرون ويعتقـدون أنّ من يفعل ذلك ابتغاء مرضاة الله ونصرةً للدين وصلاحاً للإخوان يصلون إلى المراتب العالية في الآجلة لا يفنى نعيمها ، ولهذا يقدمون على ألم ساعة لراحة أبديّة لا تزول .

وهكذا يوم أُحد لمّا اشتدّ الأمر وانهـزم الناس وبقي رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونفر يسير معه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من ينصرني اليوم ويفديني بنفسه ولـه الجنّة ؟ فقام ثلاثة نفر من الأنصار في وجهه كلّما رماه المشركون حجـزوا عنه بـأجسادهم وجعلوها وقاية لسلامة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتّى استشهدوا جميعاً ، لأنّهم علموا أنّ في بقائه عليه السلام نصرة للدين وصلاحـاً لإخوانهم المؤمنين ، وأنّ رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم لم يستفزّهم[1] مخافة من الموت ولا حرصاً على الحياة ولكن من أجل أنّ الدين بعـد لم يتمّ ، والشريعـة لم تكمـل ، فلمّـا نـزلت : ﴿**اليـوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي**﴾[2] تمنّى رسـول الله صلى الله عليه وآله وسلم الموت ونـزلت : ﴿**إذا جـاء نصر الله والفتح ورأيت النـاس يدخلون في دين الله أفـواجاً**﴾ إلى آخـر السورة ،

(١) استفزه : أخرجه من بيته .

(٢) سورة المائدة ؛ الآية : ٤ .

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «نعيت إليّ نفسي» فقالوا : يا رسول الله لو سألت الله أن يبقيك في أُمّتك إلى يوم القيامة ينتفعون بك ، فقال : إنّا لله وإنّا إليه راجعون ، أبى الله أن يجعل لأوليائه الخلود في دار الدنيا ، ثمّ قال : «واشوقاه إلى إخواني الأنبياء» ثمّ [ما][1] مكث إلاّ قليلاً حتّى توفّي ومضى إلى الله فأكرم مثواه ، عليه أفضل الصلوات وأزكى التحيّات .

وهكذا أصحاب الحسين عليه السلام فدته بأنفسهم ، وسارعوا إلى جنّة عرضها السماوات والأرض أُعدّت للمتّقين .

وروى أبو هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال : «ما رأيت مثل الجنّة نام طالبها ، وما رأيت مثل النار نام هاربها» .

وكتب رجل إلى صالح بن عبد القدّوس[2] .

الموت باب وكلّ الناس داخله	فليت شعري بعد الباب ما الدار؟

فأجابه صالح :

الدار جنّة عدن إن عملت بما	يرضي الإلٰه وإن فرّطت فالنار
هما محلاّن ماللناس غيرهما	فانظر لنفسك ماذا أنت مختار

وقال[3] رجل من الأنصار للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : من أكيس الناس ؟ قال : «أكثرهم ذكراً للموت وأشدّهم استعداداً له ، أُولئك الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة» .

وقيل : عزّى صوفيّ رجلاً عن ابن له صغير مات فقال : الحمد لله الّذي

---

(١) زيادة من النسخة (ر) .

(٢) كان حكيماً أديباً فاضلاً شاعراً مجيداً يجلس للوعظ في مسجد البصرة ، اتهم بالزندقة فقتله المهدي بيده نحو سنة ١٦٠ هـ ، وفي شعره حكم وأمثال كثيرة . أنظر معجم الأدباء (١٢ : ٦ ـ ١٠) والأغاني (١٣ : ١٤) وطبقات الشعراء لابن المعتز : ٩٠ ـ ٩٢ والأعلام : ٤٢٥ .

(٣) رواه بأبسط من هذا الديلمي في الإرشاد : ٧٢ باب ذكر الموت ومواعظه .

نجّاه ممّا هٰهنا من الكدر ، وخلصه ممّا بين يديه من الخطر .

وقال الشيخ الجليل ناصر البويهيّ رحمه الله :

إذا رمقت عيناك ما قد كتبتُه ... وقد غيّبتني يوم ذاك المقابر
فخذ عظة ممّا رأيت فإنّه ... إلى منزل صرنا به أنت صائر

والحاصل ممّا ذكرنا في هذا الفصل أن يعتبر الناظر أنّه لا بدّ من الموت فإذا تيقّن ذلك فينبغي أن يحلّي نفسه بالتواضع ويخلّيها من التكبّر .

الفصل الثالث عشر

في التواضع والتكبر

فلنتكلّم أوّلاً في ماهيّة التواضع والتكبّر ، ثمّ في الترغيب في التواضع والتحذير عن التكبّر . والتواضع أن لا يذهب المرء بنفسه عمّا ليس له أن يذهب بها عنه ، أو هو مجانبة الترفّع عمّا لا ضعة فيه على الإنسان عقلاً ولا شرعاً والتواضع والتكبّر ضدّان ينتفي أحدهما بالآخر ؛ إذ لا يجتمع التواضع والتكبّر في وقت واحد من وجه واحد ، والتواضع رسم مأخوذ من معنى لفظ التواضع ، فإنّه يُقال : «تواضع» كما يُقال «تساكر» أي أرى من نفسه السكر وليس بسكران ، كما قال زيد الخيل[1] :

ونبّئت أنّ ابناً لسيماء هٰهنا ... تغنّى بنا، سكران أو متساكر

وتبعه الفرزدق في هذا المعنى فقال[2] :

---

(١) في الأصلين «زيداً الخليل» هو زيد بن مهلهل الطائي ، من أبطال الجاهلية ، خطيب لسن وشاعر محسن ، لقب «زيد الخيل» لكثرة خيله وكان موصوفاً بالكرم ، وفد على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ٩ هـ في وفد طيء فأسلم وسرّ به النبي وسماه زيد الخير وقال له : «ما وصف لي أحد في الجاهلية فرأيته في الإسلام إلا رأيته دون الصفة غيرك» (نقلناه عن الإستيعاب) مات منصرفه من المدينة وقيل : في آخر خلافة عمر . أُنظر الأغاني (١٦ : ٤٦) الإصابة (١ : ٥٥٥) الإستيعاب (١ : ٥٤٣) اللآلىء (١ : ٦٠) الإشتقاق : ٣٩٥ الخزانة (٢ : ٤٤٨) شواهد الألفية للعيني (١ : ٣٤٦) الموشح : ٨١ .

(٢) أنشده للفرزدق سيبويه في كتابه (١ : ٢٣) وعنه في ديوانه (٢ : ٤٨١) واللسان وأساس البلاغة مادة (سكر) .

أسكــران كــان ابن المــراغــة إذ هجــا تميمــاً بــظهــر الشــام أو متســاكــر

وكذلك يُقال تباله وتحامق ، فالمتواضـع [1] الّذي يـرى من نفسه في حسن العشرة والمقاربة أنّ منزلته متّضعة وليست كـذلك ، كمـا أنّ المتساكـر من يتشبّه بالسكران وليس كذلك ، والمتغابي من يتغابى وليس بغبيّ كما قيل[2] :

لـيس الـغـبـيّ بـسـيّـد فـي قـومـه لـكـنّ سيّـد قـومـه الـمـتـغـابـي

وعلى هذا كان المتكبّر الّذي يتكلّف التشبّه بمن هو أعظم منزلة منه ، ولمّا كان التكبّر على مضادّة التواضع كان في تحديد التواضع تحديد التكبّر فيقال :

التكبّر تكلّف [3] بالمتكلّف للإرتقاء إلى رتبـة لم ينلها الاستحقـاق ، أو هو الترفّع بشرائط حسن العشرة وقصد التفرّد ببعض الرتب في غير موافقة الدين ، أو طلب التعـزيز بمجـانبة مـا يكسب ودّاً أو أجراً أو حمـداً ، وذلك مثـل أن يتعـزّز الجاهل بأن لا يعود جاره الضعيف ، ولا يسمع لصديقه اللهيف ، ولا يقف على الفقير إذا سلّم عليه وساءله ، ويحتقر ودّ النـاس وحمدهم له ، ولا يغتنم أجـر الله وثوابه ، أو يطلب الامتياز من الناس بمجرّد ميل النفس إلى التفرّد على طريق العـدل في الشرع والعقـل ، وهـو أن يعتقـد المعتقـد نقيصـة فيمـا هـو فضيلة ، ويعامل صاحبها معاملة المعتقد فيه ذلك ، وذلك أن يعتقد الإنسان أنّ كثرة بشـره وتألّفه نقيصة وهو في الحقيقة فضيلة ، ويعامل الناس فيـه معاملة من يعتقـد ذلك أو هـو أن يغلب على الإنسان في المعـاشـرات الاستخفـاف بـالنـاس ويعـاملهم معـاملة من يرى لنفسـه من الفضل أكثـر ممّـا هـو لهم أو هـو سـرف وإفـراط في استكبار الحال يدع معه المرء طريق الرأي في ما له وعليه .

وقد قيل : إنّ التكبّر هو ترفع الإنسان عمّا لا ضعـة فيه [ولكنّ الترفّـع عمّا لا ضعـة فيه][4] لا يسمّى كبـراً حتّى يقع متفـرّغاً عن فـرط الأعمـال بـالحـال ،

---

(١) في الأصلين «فالتواضع الذي» .

(٢) قاله أبو تمام . أُنظر ديوانه : ١٨ .

(٣) وانـظر في حقيقـة التكبـر جـامـع السعـادات (١ : ٣٢٣ و ٣٥٣) وإحيـاء العلوم (٣ : ٣٤٣ و ٣٥٠) .

(٤) زيادة من النسخة (ر) .

والرجل قد يغلب على ظنّه في شيء أنّه ضعة مع استقلاله لأمره وتحقّقه لضعفه ومقته التيه[1] وأهله فلا يعدّ متكبّراً ، وترفّع الإنسان عمّا لا ضعة فيه قد يكون مشتركاً بين المتكبّر والمتواضع ويستحيل أن يقع الشركة بين المتضادّين في الخلّة الخاصّة .

وقيل : إنّ التكبّر هو شدّة الإعجاب وإفراطه ، ولكن شدّة الإعجاب وإفراطه يلائم التواضع ولا يضادّه ، ألا ترى أنّ المتواضع وإن أفرط إعجابه بالتواضع لا يسمّى متكبراً ، والعاشق وإن أفرط إعجابه بمعشوقه كان ذلك أدعى له إلى التواضع له وأصرع لحدّه ، وكذلك قولهم هو إفراط الإعجاب بنفسه وحاله غير مستقيم ، لأنّ الإعجاب بالنفس وإن أفرط إذا لم يتشعّب منه استخفاف بغيره لم يسمّ تكبّراً ، وقد يكون نفس المرء مستحقّة فرط الإعجاب بها لفائق من الجمال ، وتكامل من محامد الخصال ، فهي يستحقّ أن يعجب بها من حبّ فضلها ، ولكنّه إنّما يحصل التكبّر إذا قلّل عند ذلك استكباره لحالة كلّ حال ، فتردّى بالكبرياء ورمى الناس عن قوس الإزدراء ، وإنّما دخلت هذه الشبهة من حيث لا يفرط إعجاب رجل إلاّ ويجري الاستخفاف معه بالناس ، فلمّا كانا في الأغلب رضيعي لبان ، فرسي رهان ، شريكي عنان ، ظنّ حصول التكبّر بالإعجاب ، وهو صحيح في اللفظ المتعارف غير صحيح في المعنى المحصّل .

وقيل بأنّ الإفراط مذموم في الجملة كالتفريط والتوسّط معتمد الفضائل ، فمن أفرط إعجابه بنفسه فقد استذمّ ولكنّ الإعجاب متى أفرط بإفراط الأمر المتعجّب به لم يكن ، ألا يرى أنّ لكلّ جزء يزداد من الحالة الّتي وقع الإعجاب بها يزداد جزءاً من الإعجاب بلا إفراط فيه إذ كلّ جزء بإزاء جزء ، ومتى أثمر استخفافاً بالغير سمّي حينئذ تكبّراً وتيهاً فيكون الرجل على حيرة من أمره ، كمن ركب مفازة أفرط طولها وعرضها فيدركه حيرة .

وللتكبّر خصال كلّ واحدة منا شعبة من شعبه ، وكلّ جزء من كلّه ، لأنّ

---

(١) التيه ـ بالكسر ـ هنا : التكبر .

من تكلّف الارتقاء إلى منزلة لم ينلها استحقاقه فقد تكبّر ، ومن ترفّع لإفراط الإعجاب عمّا لاضعة فيه كعيادة الضعيف والوقوف على ذي البذاذة والرثاثة ونحو ركوب الحمار وحلب الشاة .

كما يروى عن جبير بن مطعم أنّه قال : يقولون في التيه ، وقد ركبت الحمار ولبست الشملة وحلبت الشاة وقد قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من فعل هذا فليس من الكبر فيه شيء .

فقد بان بهذا أنّ الجملة جامعة لأُمور ولها تفصيل ، والجملة معلوم بالعقل قبحها لقضاء العقل بقبح تكلّف الارتقاء إلى منزلة لم تستحقّ ، فهو طلب ما ليس له فيكون ظلماً والظلم قبيح بنفسه عقلاً وشرعاً ، إذ يجوز أن يعلم قبحه في الجملة عقلاً فإذا فصّلت[1] وحصّلت فروعه وشعبه كان منها ما يعرف قبحه سمعاً ، ومنها ما يعرف قبحه عقلاً ، وقد يشكل شيء أنّه ظلم أو لا وإن عرف أنّ الظلم قبيح ، كذلك يشكل أنّه تكبّر أو لا وإن كان الكبر قبيحاً فنقول في تفصيل هذه الجملة :

إنّ ممّا ذمّه الله وأنبأ عن قبحه أن يؤمر الإنسان باتّقاء لله على وجه النصح له فيتعزّز ويترفع في نفسه عن تأمّل حظّه في هذه النصيحة واكتسابه هذه السعادة فقال عزّ من قائل : **﴿ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا ويشهد الله على ما في قلبه وهو ألدّ الخصام * وإذا قيل له آتّق الله أخذته العزّة بالإثم فحسبه جهنم ولبئس المهاد﴾**[2] فهذا النوع من التعزيز قبيح عقلاً ، إذ لا يخفى أنّ اتّقاء الّذي خلقه ورزقه بيع رابح ، والأمر به ناصح ، والشكر والقبول مستوجب ، وأنّ مقابلة مستوجب الشكر بضدّه والتلقّي للنصح بردّه من أقبح القبائح ، فكيف يسعد أن يظهر الاستكبار والاستنكاف منه ، ومعاملته معه هذه المعاملة .

وممّا يقضي العقل بقبحه من أبواب التكبّر أن يؤمر الإنسان بأن يتعلّم ويدلّ

---

(١) كذا في النسخة (ر) وفي الأصل «فضلت» سهواً .
(٢) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٠٤ .

على أنّ في علمه قصوراً ، ويتكبّر عن التعلّم ويظنّ أن إصاخته[1] لأمره ضعة ، وخفضه جناحه ونصته سمعه وفؤاده لقول من دعاه إلى الأمر الحسن نقيصة ، وهذا من الجهل والجهل قبيح لنفسه ، فإن كان لا يجهل ذلك ولكن يغضب من نصح ناصحه وينكر أن يكون مثله يبصّره ويذكّره فهو الجهل أيضاً بعينه لأنّه جهل حاجة الآدميّ الناقص المذكّر ، وأنّ كون الناس في الدرجة السفلى والرتبة [الدنيا][2] لا يحسّن إباء الانتفاع بإرشاده ونصيحته كما لا يحسّن كون الجمادات دون الإنسان ترك الانتفاع بها لأجل أنّها دون الثاني [النبات . ظ] فضلاً عن الإنسان الّذي هو أشرف حيّ خلق في هذا العالم فعلم أنّ هذا النوع من الكبر قبيح عقلاً .

ومن ذلك أن يترفّع عن حسن عشرة الجار والصديق والزائر لفرط الإعجاب بما أُوتي من حطامٍ هو بيت المنون ، وميراث القرون ، وهذا هو القبيح في العقل لدلالة العقل أنّ الشرف لا يحصل للإنسان بأن يكون كثير الحطام ولا الدناءة بأن يكون قليله وأنّه لا يوجب استخفافاً لمن حرمه بل المساواة له والبرّ به .

وأمّا ترفّعه أن يكلّم الضعيف ويعود الفقير فإن كان ترفّع لأجل أنّ ذلك ينقّصه وهو ضعة عليه فهو قبيح عقلاً لأنّه اعتقد الضعة فيما هو شرف ، وإن كان ترك ذلك تناسياً له وتشاغلاً عنه لأنّه ضعيف ولو كان مكانه قويّ [ما][3] تشاغل عنه ، فإنّ هذا يسمّى تكبّراً لمخالفته فيه بين الفقير والغنيّ والضعيف والقويّ ، وهو قبيح سمعاً ؛ لأنّ التشاغل عمّا رغب فيه السمع مكروه بالسمع .

وبالجملة ما كان من الأفعال المسمّاة تكبّراً لمعاملة بين الناس ولاحقاً بباب العشرة المستحسنة ، فإن عظم ذلك يقبح بالسمع ، وما كان منها جهلاً فهو قبيح بدلالة العقل على قبحه كاعتقاد التكبّر فيما هو شرف من حسن العشرة أنّه ضعة ولسنا نطلق هذه القضيّة إلاّ على معظم الباب .

---

(١) أصاخ له واليه : أصغى إليه واستمع .

(٢) زيادة من النسخة (ر) .

(٣) زيادة منا يحتاج إليها الكلام .

ومن التكبّر العمليّ القبيح سمعاً ما يجري في السلام فإنّ[1] حقّ كلّ مسلم سلّم على مسلم ردّ السَّلام بقول مسموع إمّا مثله أو زائد عليه وقد يجري فيه من المتكبّرين فيه كلّ عجب من ترك ردّه مرّة وهمس به ونبس[2] أُخرى ، وتعاظم عن إسماع المسلّم الجواب ، وربّما كان الردّ إيماء باللحظ أو إشارة بالسبّابة ، وربّما كان بإنغاض[3] الرأس ، وكلّ ذلك منهيّ عنه ، قال صلّى الله عليه وآله وسلم[4] : «أفشو السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا الأرحام ، واضربوا الهام وصلّوا والناس نيام تدخلوا الجنّة بسلام» .

وسلّم أبو العتاهية على عليّ بن يقطين ورأى ردّه ضعيفاً فأنشأ يقول بعد أن استوقفه على الطائف :

ما لك لا ترجع السَّلام على مثلك إلاَّ بطرفة البصر؟
تفعل هذا وأنت من بشر فكيف لو كنت من سوى البشر؟
ما أنت إلاَّ من العباد وإن أصبحت في إمرة وفي خطر[5]
ما أقدر اللَّه أن يغيّر ما أصبحت فيه! فكن على حذر[6]
واعلم بأنّ الأيام يلعبن بالناس وأنّ الزمان ذو غير

اعلم بأنّ عليّ بن يقطين رحمه الله قد أتى بما وجب عليه من ردّ السلام ، وإن كان ردّاً ضعيفاً لكن نحمله على وجهين : الأوّل أنّ أبا العتاهية من أهل المذاهب الواهية[7] ، والثاني أنّه كان شاعراً فلا ينبغي لمثل ذا الرجل الجليل

---

(١) تلفيق من الأصلين ، ففي كل منهما نقيصة .
(٢) الهمس : إخفاء الصوت . النبس : الكتمان ، التحرك والإسراع .
(٣) أنغض رأسه : حركه كالمتعجب أو المستهزىء .
(٤) روى قريباً منه الكليني (٢ : ٦٤٥) عن علي عليه السلام .
(٥) الإمرة ـ بكسر الهمزة ـ الإمارة والرياسة . الخطر : الشرف وارتفاع القدر .
(٦) «ما أقدر الله» صيغة تعجب .
(٧) وقد سبق منه رحمه الله في ص ٢٤٥ أن أبا العتاهية كان موالياً لأهل البيت عليهم السلام ، مضافاً إلى وجوب رد سلام المسلم من أي مذهب كان ، بل غير المسلم أيضاً مع شرائط ذكرها الكليني رحمه الله في باب التسليم من الكافي (٢ : ٦٤٨) وما لنا أن لا نفرض هنا وجهاً ثالثاً وهو أن علي بن يقطين كان مشغولاً فكره ولم يلتفت ، ووجهاً رابعاً وهو أنه تكبر ونبهه أبو العتاهية على خطئه .

القدر أن يزيد في إكرام شاعر طمّاع لم يزل يمدح المعطي ويذم المنّاع .

وسلّم رجل آخر عليه بطرف سوطه فلم يردّ عليه ، فقيل له في ذلك فقال : سلّم عليّ بالإيماء فرددت عليه بالضمير .

ومن السّلام ما هو قول يسمع ولكنّه ممضوغ [1] يحمحم على اللسان عليه مجمول [2] وذلك أيضاً مذموم . والبخل بلفظ السّلام والتسخّط لردّه جهل بقدر معناه فإنها تحيّة تفضل كلّ تحيّة عرفت لأهل الأرض منذ أسكنها الله الناس ، فإنّ معناها السلامة الّتي هي أقصى المنى وأوفى الحظوظ ، ثمّ هي لفظة عامّة بكلّ سلامة من النفس والعرض والدين ومن كلّ ما ساء .

وأين عن هذه [3] تحيّة الجاهليّة للملوك «أبيت اللعن» وقد يلعن الرجل بحقوق باطلة ، فإباؤه اللعن ليس بمدح صريح خالص لأنّه لو أراد به : «أبيت ما تلعن به باطلاً» فكان قد ذمّه ولو صحّ له معنى وانعقد به دعاء لكان ذلك من بعض ما يتناوله لفظ السّلام ، فمن يرغب عنها إلاّ من خفي عليه الميامن والمحاسن منها ، والتبس دونه بركتها ويمنها ، أو يكون ضنيناً بالخير والدعامة للناس .

وأين عنه سلام العجم روز گار نيك باد وقولهم شادى باد فإنّه دعاء باللّذّة والمسرّة وصفاء العيش فقط ، والعيش قد يصفو لسالم الدين وغير سالمه وصحيح العرض وغير صحيحه وربّ ملتذّ ما له دين ولا عرض ، وأيّ التذاذ كالتذاذ دود اللحم فإنّه في موضعه ومظانّه ينمو على اغتذاء ما منه تكوّن بغير فتور وانقطاع .

وأمّا سلام الإسلام فهو دعاء بالسلامة من كلّ مكروه ، فالدين سالم والعرض وافر .

وأمّا بخل من يبخل بالملاقاة توقّفه أو توقّف دابّة فإنّ ذلك ممّا يجب النظر

(١) مضغ الطعام : لاكه بلسانه . وفي الأصل : ممصوغ ، وفي النسخة (ر) ممضوع .
(٢) جمله : جمعه .
(٣) في الأصلين «أبر عن هذه» والصحيح ما أثبتناه ، كما قاله في تحية العجم .

فيه ، فإن كان لشغل أو عذر فلا كبر فيه وعلى العكس ، وينبغي أن تكون الوقفات معدّلة مرتّبة موزونة على قدر المسائل والمسلّم ، فمنها الأخفّ ومنها الأمدّ والوقوف في المساءلة نعم السفير في ودّ يحصّله ، وعتب يغسله ، وقلب يصيده ، وأخ يستفيده . وقد عدلت وقفة في الطريق نصف الزيارة قال ابن المعتزّ[1] :

يا هلالاً يدور في فلك المنى ... وردّو وقفا بأعين النظاره
قف لنا في الطريق إن لم تزرنا ... وقفة في الطريق نصف الزياره

فأمّا الإيثار بصدر المجلس فهو من حقّ صاحبه وله أن يتصرّف فيه على إيثاره واختياره كما جاء في الحديث الصحيح : «لا يؤمّ الرجل الرجل في سلطانه ولا يقعد على تكرمته إلّا بإذنه ، وصدر مجلسه تكرمته يكرم بها من شاء من زوّاره وإن شاء استأثر به لنفسه» .

وكان محمّد بن الأشعث بن قيس الكنديّ يقول : لا أتحوّل عن صدر مجلسي لأحد إلى أن قدم المهلّب الكوفة ، فدخل على محمّد بن الأشعث تحوّل عن صدر مجلسه ، فقيل له : إنّما كنت تقول ، فقال : ألم تسمعوني أقول : إلّا لرجل واحد ، فهذا ذاك الرجل .

فأمّا القيام إلى الزائر فالنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قام إلى جرير بن عبد الله وبسط رداءه ، وقام إلى جعفر لمّا قدم من الحبشة وعانقه[2] : وفي الحديث[3] : «إن أتاكم كريم قوم فأكرموه» والقيام إلى الزائر من الإكرام .

ثمّ القيام للأبوين والعلماء أحسن القيام وأبعده من الآثام وغير داخل في جملة ما تناوله الحديث[4] : «من أحبّ أن تمثّل له الناس قياماً فليتبوّء مقعده من

---

(١) لم أظفر على البيتين ، وأولهما لا يستقيم وزناً .
(٢) وألقى وسادته لعدي بن حاتم ـ وهو كافر ـ وجلس هو بالأرض . أُنظر سيرة ابن هشام (٢ : ٥٨٠) وأصول الكافي (٢ : ٦٥٩) .
(٣) رواه الكليني (٢ : ٦٥٩) باب أكرم الكريم . ومثله فيه (٨ : ٢١٩) .
(٤) روى حديثاً في معناه الغزالي (٣ : ٣٥٤) .

النار» بل ينبغي أن يكون في الصالحات الباقيات المنجيات على حسب النيّة وصفائها ، إلَّا أنّه قد يجري من المزور المقصود ما يدخل في التكبّر إذا ثلمها وكسر منها .

وكان الحسن لا يحلّ حبوته [1] إلَّا لختنه فكان إذا زاره نهض إليه . وقال : أهلاً بمن كفى المؤونة وستر العورة .

وكان المبرّد لا يحلّ حبوته لأحد من الشعراء والفضلاء إلَّا للبحتريّ [2] . وكان إذا دخل عليه نهض إليه وأكرمه وأنشد :

ولمّا بصرنا به طالعاً ... مثلنا له ووثبنا قياما
فلا تعجبوا من حفوفي له ... فإنّ الكريم يحلّ الكريما

وقال أشجع السلميّ [3] :

أعليّ قوم في مديح معاشر ... خطبوا المديح إليّ بالأموال
متزحزحين - إذا رأوني مقبلاً - ... من كلّ متّكأ من الإجلال

وأمّا التكبّر في المشية والاختيال المذموم فأكثر المنع عنه والكراهة له سمعاً ، وكذلك جرّ الذيول الضافية وإسبالها [4] على الثرى .

وقد قال الله تعالىٰ : ﴿**إنّ الله لا يحبّ كلّ مختال فخور**﴾ [5] وقال جلّ ذكره : ﴿**واقصد في مشيك**﴾ [6] ولا خلاف أنّ المتبختر المختال الميّاس

(١) الحبوة - بالفتح والضم - ما يحتبى به ، أي يشتمل له من ثوب ونحوه .
(٢) أبو عبادة الوليد بن عبيد بن يحيى ، قال البكري في اللآلىء (١ : ٤٢٧) : شاعر متقدم لا يعدل به أحد وقال ياقوت (١٩ : ٢٤٨) : «كان فاضلاً أديباً فصيحاً بليغاً شاعراً مجيداً ، كان بعض أهل عصره يقدمونه على أبي تمام بادي الرأي ويختمون به الشعراء» وله أخبار ومحاسن كثيرة . ولد ٢٠٥ وتوفي ٢٨٤ هـ وانظر الأغاني (١٨ : ١٦٧) ووفيات الأعيان (٥ : ٧٤ ، برقم ٧٤١) . وفي النسخة (ر) البختري - بالخاء وهو سهو .
(٣) هو أشجع بن عمرو ، كان متصلاً بالبرامكة وأخباره معهم كثيرة . أنظر الأغاني (١٧ : ٣٠) والشعراء (٢ : ٨٥٧) والموشح ٢٩٥ وفي الأصلين «أسجع» بالسين ، سهواً .
(٤) ضاف الثوب : أطال على الأرض . أسبله : أرخاه .
(٥ - ٦) سورة لقمان ؛ الآيتان : ١٨ و ١٩ .

الخطّار[1] غير قاصد في مشيته .

وروت ميمونة بنت سعد[2] ـ وكانت تخدم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ـ قال : «مثل المرأة الرافلة بزينتها في غير أهلها مثل الظلمة يوم القيامة ، لا نور لها» فيكون ذلك أشدّ حرمة على الرجال إذا كان أبيح للمرأة من الخيلاء والتزيّن ما لا يبيح للرجل .

ورأى مالك بن دينار[3] المهلّب أو بعض ولده يختال في مشيته فقال : أما علمت بأنّ هذه مشية يبغضها الله إلاّ بين الصفّين[4] ؟ فقال : أو ما تعرفني ؟ فقال : بلى أعرفك : أوّلك نطفة مذرة ، وآخرك جيفة قذرة ، وأنت فيما بين ذلك حامل عذرة .

وكفى عن مثل هذا رادعاً قوله عزّ وجلّ : ﴿**كلاّ إنّا خلقناهم ممّا يعلمون**﴾[5] ومتى فكّر في هذه الكناية العاقل فساور[6] فكره واتّسع مجاله في قلبه هجم على عجائب من بدء خلقه وآخر أمره .

ونظر الحسن إلى ابن الأهتم[7] خرج من المقصورة عليه ثياب خزّ قد نضّدها[8] لوناً فوق لون فانفرج عنه القبا وهو يمشي يتبختر ، فقال الحسن : أفّ أفّ شامخ بأنفه ثاني عطفه مصعّر خدّه[9] ينظر في عطفيه ، يا أحمق ! أين تنظر

---

(١) المياس والخطار : المتبختر .
(٢) الرواية وترجمة ميمونة في الإصابة (٤ : ٣٩٩ ، برقم ١٠٢٧) .
(٣) في الإحياء : مطرف بن عبد الله .
(٤) أي في الحرب . وأصله من قول الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لأبي دجانة حين يمشي متبختراً بين الصفين في أحد . أنظر السيرة (٢ : ٦٧) والإختصاص : ١٤٩ .
(٥) سورة المعارج ؛ الآية : ٣٩ .
(٦) ساوره : واثبه أو وثب عليه .
(٧) ذكره الغزالي (٣ : ٣٣٩) . وعمدة ما ذكره في هذا الباب بعد من خبر أو أثر مأخوذ من الإحياء فلا نطيل بتخريجها .
(٨) نضد المتاع : ضم بعضه إلى بعض متسقاً .
(٩) ثنى عطفه : لوى عنقه معرضاً متكبراً . صعر خده : أماله عن النظر إلى الناس تهاوناً وكبراً ، ومنه الآية الشريفة ﴿**ولا تصعر خدك للناس**﴾ . وفي الأصلين «مصغر» بالغين .

في عطفيك في نعم غير مشكورة وآلاء غير مذكورة ، غير المأخوذ فيها بأمر الله ولا المؤدّى منها حقّ الله ، يمشي أحدكم يتخلّج[١] في مشيه تخلّج المجنون ، لله في كلّ عضو منه نعمة وللشيطان لعنة . اللّهُمَّ لا تجعلنا ممّن استعان بنعمتك على معصيتك[٢] . فبلغ ذلك ابن الأهتم فدخل عليه يعتذر فقال : لا تعتذر إليّ ولكن تب إلى ربّك ، ألم تسمع الله يقول : ﴿**ولا تمش في الأرض مرحاً**﴾[٣] .

ولو لم يكن في الاختيال إلاّ أنّه إذا شبّه بمشية الغراب الأشأم الأنكد المستقذر الناعي بلغته لكلّ شمل منتظم وشعب ملتئم لكان في ذلك ما يدعو إلى مقته والتبرّي من صاحبه .

قال خلف الأحمر[٤] :

لنا صاحب مولع بالخلاف ... كثير الخطاء قليل الصواب
أشدّ لحاحاً من الخنفساء ... وأزهى إذا ما مشى من غراب[٥]
وإن ذكروا عنده عالماً ... ربا حسداً ورموه بعاب[٦]
وليس من العلم في كفّه ... إذا حصّل العلم غير التراب

ومشية أُخرى لبعض المتقرّبة أو المتماوتين[٧] من طالبي التعديل وهو

---

(١) تخلج في مشيه : اضطرب وتحرك ، وفي الأصلين «يتجلج في مشيه تجلج المجنون» وهو غلط لم يستعمل في اللغة ، والإصلاح من الاحياء .

(٢) وقال علي عليه السلام «أقل ما يلزمكم الله أن لا تستعينوا بنعمه على معاصيه» الرقم ٣٣٠ من الحكم .

(٣) سورة لقمان ؛ الآية : ١٨ .

(٤) أبو محرز خلف بن حيان كان عالماً بالغريب والنحو والنسب والأخبار ، صدوقاً ، شاعراً ، كثير الشعر ، وهو مولى أبي بردة بن أبي موسى الأشعري توفي نحو ١٨٠ هـ . أُنظر الشعراء (٢ : ٧٦٣) ومعجم الأدباء (١١ : ٦٦) وأمالي القالي (١ : ١٥٤ ـ ١٥٥) واللآلىء (١ : ٤١٢ ـ ٤١٣) .

(٥) الخنفساء : دويبة سوداء أصغر من الجعل لها ريح كريهة .

(٦) ربا : انتفخ ، أخذه الربو ـ بالفتح ـ وهو علة تحدث في الرية يصعب التنفس معها . العاب : العيب .

(٧) تماوت : تظاهر بالضعف والتخافت .

مقاربة الخُطى[1] من غير اختيال وهي مكروهة أيضاً . وفي الحديث أنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان يسرع إذا مشى ، وفي آخر : كان إذا مشى فكأنّما يمشي في صبب[2] .

وفي خطبة عليّ عليه السلام[3] : «أيّها الناس إنّما أصبحنا في دهر عنود وزمن نكود ، يعدّ فيه المحسن مسيئاً ويزداد الظالم فيه عتوّاً ، لا نسأل عمّا جهلنا ولا ننتفع بما عملنا ، ولا نخشى قارعة حتّى تحلّ بنا فالناس ثلاثة» : ذكر منهم رجلاً طامن من شخصه ، وقارب من خطوه وشمّر من ثوب يطلب الدنيا بآلة الدين .

وجملة الأمر في اللباس أنّ السرف منه محظور والمعتبر في السرف حال الإنسان فقد يكون سرفاً من المتوسّط ما يكون وسطاً من غيره[4] ثمّ التجمّل باب والتقشّف باب ، والتقشّف أن يظهر البذاذة وأن لا يعوّد النفس الأمّارة بالسوءِ الملحة إذا طالبت ، المبائنة للرضا إلاّ بما سألت لين الملابس ودثارة المضاجع ولذاذة المطاعم . والتقشّف حسن ورأي قوم .

وفي الحديث[5] البذاذة من الإيمان .

---

(١) بضم الخاء مقصوراً : جمع الخطوة .

(٢) بالتحريك ما انحدر من الأرض أو الطريق .

(٣) أنظر شرح النهج لعبده (١ : ٨٥ ـ ٨٦) وهي الخطبة ٣٢ . والأصناف فيها أربعة .

(٤) وقد فسر السرف في الكافي (٦ : ٤٤١) باب اللباس من كتاب الزي والتجمل بما تستروح به النفس ويطمئن إليه القلب ولا يبقى أنه من عين صافية ، قال إسحاق بن عمار : «قلت لأبي عبد الله عليه السلام : يكون للمؤمن عشرة أقمصة ؟ قال : نعم ، قلت : عشرون ؟ قال : نعم ، قلت : ثلاثون ؟ قال : نعم ليس هذا من السرف ، إنما السرف أن تجعل ثوب صونك ثوب بذلتك» وأمثاله من الروايات كثيرة ، فاختبره أيها الأخ بذوقك السليم وزنه مع ما فسره منه الصوفية في قسطاس مستقيم ، ثم أعطف برأسك إلى فناء بيت الطهارة وخاطب أهله بما قال فيهم أيمن بن خريم ابن فاتك الأسدي (الأغاني ٢١ : ٦) :

أجعلكم وأقواماً سواء ... وبينكم وبينهم الهواء
وهم أرض لأرجلكم وأنتم ... لأرؤسهم وأعينهم سماء

(٥) في الاحياء بعد ذكر الحديث : فقال هارون : سألت معناً عن البذاذة فقال : هو الدون من اللباس . وبهامش الأصل : البذاذة : الهيئة الرثة .

وعوتب عليّ عليه السلام في إزار مرقوع فقال : «يقتدي به المؤمن ويخشع له القلب» .

وقال سعيد بن سويد صلّى بنا عمر بن عبد العزيز الجمعة ثمَّ جلس وعليه قميص مرقوع الجيب من بين يديه ومن خلفه ، فقيل له في ذلك ، فنكس مليّاً ثمّ رفع رأسه فقال : إنّ أفضل القصد عند الجدة ، وأفضل العفو عند القدرة . وعلى هذا فالتجمّل من غير سرف أفضل لمن كثرت نعم الله عنده .

وفي الحديث «إنّ الله يحبّ إذا أنعم نعمة على العبد أن يرى أثرها عليه» .

وفي الحديث أنّ عيسى عليه السلام قال : «ما لكم تأتوني وعليكم ثياب الرهبان وقلوبكم قلوب الذئاب الضواري ؟ البسوا ثياب الملوك وألينوا قلوبكم بالخشية» .

وهذا التجمّل الّذي قلناه هو إظهار الجمال في الهيئة ، والتأنّق في الشارة[1] وهو يجري على العادة وإيثار النظافة من غير أن يجحف[2] بالزهادة والعبادة ، فأمّا التجمّل الّذي هو ستر الخصاصة ومواراة الخلّة[3] فكم فيه من كرم ومن نبل ، وعليه من ثواب وأجر . وما أحسن قول أبي الجهم :

ولا عار إن زالت عن الحرّ نعمة ... ولكن عاراً أن يزول التجمّل

وقال ابن الروميّ :

أصبحت بين خصاصة وتجمّل ... والحرّ بينهما يموت هزيلا

آخر :

حال ترشّفت الليالي ماءها ... وتحمّل لم يبق فيه تجمّل

---

(١) الحسن والجمال ، الهيئة ، اللباس والزينة ، متاع البيت المستحسن .
(٢) جحف : مال . جحف اللحم : دقه . جحف برجله : ضربه إلى صدره .
(٣) بفتح الخاء : الحاجة والفقر .

وقد طال القول وانبسط في أُصول التكبّر ، فلنرجع إلى المقصود من فضل التواضع وذمّ التكبّر ، والأُسوة في التواضع والقدوة في التبذّل سيّد الأوّلين والآخرين ، كان صلوات الله عليه وآله يعود المريض ، ويشيّع الجنائز ، ويجيب دعوة المملوك ، وكان يركب الحمار الموكف[١] ، ويعلف البعير ، ويقمّ[٢] البيت ، ويخصف النعل ، ويرقع الثوب ، ويحلب الشاة ويأكل مع الخادم ، ويطحن معه ، ويحمل بضاعته من السوق إلى أهله ، وكان يكلّم المستضعف ، ويجالس الفقير ، ويجيب إلى الكراع ، ويقبل الذراع ، ويلبس الخلق ، ويجلس على التراب ، ويقف على السائل العجوز فيطيل مساءلتها ويتحفّى بها ، وإذا صافح إنساناً لم ينزع يده حتّى يكون هو النازع ، وإذا كلّمه أحد لم يعرض عنه حتّى يسكت فمن كره خلّة من خلاله فكأنّما رغب عن سنّته وعدل عن شيمته .

وفي حديث آخر : يخطف تكفياً[٣] ويمشي هوناً ، خافض الطرف ، نظره في الأرض دون السماء ، يقفو أصحابه ويمشي وراءهم ، يبدء من لقي بالسلام ، دمث[٤] ليس بالجافي ولا المهين ، يعظّم النعمة وإن دقّت ، لا يذمّ منها شيئاً ولم يكن يذمّ ذواقاً ولا يمدحه ، وإذا غضب أعرض وأشاح[٥] . جلّ ضحكه التبسّم ويفترّ[٦] عن مثل حبّ الغمام .

وفي حديث : أُهدي إليه هديّة فلم يجد شيئاً يضعه عليه فقال : ضعه بالحضيض فإنّما أنا عبد آكل كما يأكل العبيد .

ودخل ابن السمّاك على الرشيد فأدناه فقال : يا أمير المؤمنين ! إنّ عبداً

---

(١) سبق معناه ص ٩٤ راجعه .
(٢) قم البيت : كنسه .
(٣) خطف : مشى سريعاً . تكفى : طال .
(٤) رجل دمث الأخلاق : سهلها .
(٥) بمعنى الإعراض . من شيح .
(٦) افتر البرق : تلالا . الرجل : ضحك ضحكاً حسناً .

آتاه الله جمالاً في خلقته وجلالاً في قدره[1] وفضلاً في ماله ، فعفّ في جماله وواسى في ماله وتواضع في جلاله يكتب في ديوان الله من خالص عباد الله ، فذكر أنّ الرشيد كتب هذه الكلمات بيده .

وأراد المأمون الوضوء للصّلاة فتبادر الغلمان إلى خدمته وعنده عليّ بن موسى الرضا عليه السلام فقال : يا أمير المؤمنين ! إنّ الله خلقك ولم يشرك في خلقك أحداً ، فإن استطعت أن لا تشرك في عبادته أحداً ، فكان المأمون بعد ذلك لا يستعين بأحد في وضوء ولا صلاة ، وكان يستقي للوضوء بيده ويفرش المصلّى بيده .

ورئي عليّ عليه السلام يحمل طعاماً إلى داره في خلافته فسألوه عنه فقال[2] :

ما ضرّ للكامل في كماله ما جرّ من نفع إلى عياله

وركب زيد بن ثابت فجاء ابن عبّاس ليأخذ ركابه ، فقال : مه يا ابن عمّ رسول الله ! فقال : هكذا أُمرنا أن نفعل بكبرائنا ، فقال زيد : أرني يدك فأخرجها إليه فقبّلها زيد وقال : هكذا أُمرنا أن نفعل بأهل بيت رسولنا .

وفي كلام بعض أهل بيت الرسول عليهم السلام : «البخيل المتواضع أحبّ إلى الناس من الجواد المتكبّر» وأشرف بخلة بأسوء حراج البخل وينفي إشراقها ظلمة الشحّ ، ويغسل وصمته وهجنته[3] .

وعلى هذا قول الله عزّ وجلّ : **﴿إنّ الّذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرّحمٰن ودّاً﴾**[4] فإنّه إن كان هذا الودّ الّذي[5] في قلوب الناس فما أحد أحظى به من المتواضع ، إلاّ أن يكون الود هو أن يودّه الله تعالىٰ بأن يصطفيه ويتولاّه ويرضى أفعاله ، ويفعل به من الإكرام ما يفعل أحد منّا بمودوده ،

---

(١) كذا في النسخة (ر) وفي الأصل «قدرة» .

(٢) في الاحياء : لا ينقص الرجل الكامل من كماله ما حمل من شيء إلى عياله .

(٣) كذا في الأصلين ولم يظهر لي معناه . والوصمة والهجنة : العبث .

(٤) سورة مريم ؛ الآية : ٩٧ .

(٥) «الذي» خبر «كان» .

إلاّ أنّه لمّا نقل من وجوه كثيرة أنّه هو الّذي يودّه الله ويودّوه إلى خلقه [1] فكان المتواضع في نهاية وفور الحظّ من مودّات الناس كان [2] في ذلك دليل على أنّ ذلك من أشرف الأعمال الصالحة .

وأيضاً فلا محبّة أثبت من المحبّة الّتي يغرزها التواضع لصاحبه في النفوس ، ولا أهنأ ثمراً ممّا يغرسه في القلوب .

وفي الجملة المحبّات أربع : محبّة على الدين كمحبّة الأئمّة المعصومين عليهم السلام . ومحبّةٌ للاصطناع وهي ما قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم [3] «جبلت القلوب على حبّ من أحسن إليها» والثالثة المحبّة للتواضع وسائرها . والمحبّة على الأسباب المتعلّقة بالأمور الدنياويّة ، وهي لا حقائق لها وإنّما هي خدع في الوجوه وملق على الألسنة ومخاتلة ومداهنة ومصانعة متعلّقة بالرغبة والرهبة ، وجارية على حسب الحجة ، وهي زائلة بزوال الحال ومنتقلة بانتقال الزمان .

قدم دهمان الأعرابيّ على سعيد بن سالم بإرمنية فأطال حجابه ، ثمّ أذن للناس عامّاً فدخل في غمارهم فقال له : إنّي لأعرف قوماً لو علموا أنّ سفّ التراب يقيم أود [4] أصلابهم لجعلوه مسكة لأرماقهم [5] ، إيثاراً للتنزّه عن عيش رقيق الحواشي ، ووالله إنّي لبعيد الوثبة بطيء العطفة ، ولا يعطفني عليك إلاّ مثل ما يصرفني عنك ولأن أكون مقلاً مقرّباً أحبّ إليّ من أن أكون مكثراً مبعّداً ، والله لا يسأل عملاً لا يضبطه [6] ولا مالاً إلاّ ونحن أكثر منه ، وإنّ هذا الّذي صار في يدك فقد كان في يد غيرك ، والله لقد أمسوا حديثاً إن خيراً فخيراً وإن شرّاً

---

(١) كذا في الأصلين ، وظني أن المراد «يودده إلى خلقه» أي يحببه إلى خلقه ، إلا أنه لم يستعمل باب التفعيل من الود .

(٢) جواب «لما» .

(٣) أنظر تحف العقول : ٥٣ .

(٤) السف : ما لم يدق جيداً ، الأود : الاعوجاج .

(٥) جمع الرمق : بقية الحياة .

(٦) كذا في النسخة (ر) وفي الأصل «لا نضبطه» .

فشراً ، فتحبّب إلى عباد الله بحسن البشر ولين الجواب وخفض الجناح ، فإنّ حبّهم موصول بحبّ الله ، وهم شهداء الله وأمناؤه ، فإن تواضعت لهم أحبّوك فأحبّك الله ، وإن تطاولت عليهم مقتوك فمقتك الله .

وقال بكر بن عبد الله : إذا رأيت أكبر منك فقل : هو خير منّي سبقني بالإسلام والعمل الصالح ، وإذا رأيت أصغر منك فقل : هو خير منّي عصيت الله قبله وإذا رأيت مثلك فقل هو خير منّي أعرف من نفسي ما لا أعرف منه ، وإذ رأيت إخوانك يكرمونك فقل : نعمة لله أحدثوها ، وإذا رأيت منهم تقصيراً فقل : ذنب أحدثته .

وكان عبد الملك بن مروان يقول : أفضل الناس من تواضع عن رفعة وزهد عن قدرة وأنصف عن قوّة . ولهذه الثلاثة شرح ذكرناه في «الاثنا عشريّة» مفصّلاً [1] .

وقيل : ثلاثة من أحسن شيء : جود بغير ثواب ونصب لغير دنيا وتواضع لغير ذلّ .

وكان يُقال : التواضع مع السخافة والبخل أجمل من السخاء والأدب مع الكبر ، فيا لك من نعمة عفت عن صاحبها سيّئتين ، ومن سيّئة حرمت صاحبها حسنتين .

وفي حكم العجم : عامّة الأحرار أن يلقوا بما يحبّون ويحرموا أحبّ إليهم من أن يلقوا بما يكرهون ويعطوا ، فانظر إلى علّة عفت مثل البخل فالزمها .

وسئل الفضيل عن التواضع فقال : يخضع للحقّ وينقاد له ويقبله من كلّ من يسمعه .

وقال محمود بن محفوظ : لا تزن الخلق بميزانك وزن نفسك بميزان المؤمنين لتعلم فضلهم وإفلاسك .

---

(١) راجعه ص ١٣٩ ـ ١٤٠ في الفصل الثاني عشر من الباب الثالث ، ولم ينسبها هناك إلى عبد الملك نعم ذكرها له الغزالي .

وقال : من أبصر محاسن نفسه ابتلي بمساوي الناس فتكبّر عليهم ، ومن أبصر عيوب نفسه سلم من رؤية مساوي الناس فتواضع لهم .

وسُئِل الجنيد عن التواضع فقال : خفض الجناح ولين الجانب . وعن الخشوع فقال : تذّلل القلوب لعلاّم الغيوب .

وقال إبراهيم بن شيبان : الشرف في التواضع والعزّ في التقوى والحرّيّة في القناعة .

وكان بعض العارفين يقول : أعزّ الخلق عالم زاهد وفقيه صوفيّ وغنيّ متواضع وفقير شاكر وشريف سنيّ .

وكان محمّد بن عليّ يقول : من شرائط الخدّام التواضع والإستسلام .

وقال عبيد الله الرازيّ : التواضع ترك التمييز في الخدمة .

وقال أحمد الحواريّ : من رأى لنفسه قيمة لم يذق حلاوة الخدمة .

وكان بعضهم[1] يقول : ذلّي عطّل [ذلّ] اليهود .

وقال أبو سليمان الدارانيّ : لو اجتمع الناس أن يضعوني كاتّضاعي عند نفسي لما قدروا عليه .

وقال شعيب بن حرب : بينا أنا أطوف إذ لكزني إنسان بمرفقه ، فإذا هو الفضيل فقال : يا أبا صالح ! إن كنت تظنّ أن شهد الموسم شرّ منّي ومنك فبئس ما ظننت .

وقال حمدون القصّار : التواضع أن لا ترى لأحد إلى نفسك حاجة لا في الدين ولا في الدنيا .

وقيل : التواضع هو الإستسلام للحقّ وترك الاعتراض على الحكم والخشوع والإنقياد للحقّ .

---

(١) في النسخة (ر) : «كان الشبلي يقول» وكذا في الاحياء ، وكذا كان في الأصل أيضاً إلا أن المؤلف خط عليه وكتب «بعضهم» وبين المعقوفين من الاحياء .

وقيل : الخشوع قيام القلب بين يدي الحقّ بهمّ مجموع .

وقال محمّد بن عليّ الترمذيّ الحكيم : الخاشع من خمد نيران شهوته ، وسكّن دخان صدره ، وأشرق نور التعظيم في قلبه ، فماتت شهواته في قلبه فخشعت جوارحه .

وقيل : الخشوع إطراق القلب عند اطّلاع الربّ . وعلى هذا رأى بعضهم رجلاً منقبض الظاهر منكسر الشاهد وقد زوى منكبيه فقال : يا أبا فلان ! الخشوع هٰهنا ـ وأشار إلى صدره ـ لا هٰهنا ، وأشار إلى منكبيه .

وفي الحديث[١] أنّه صلى الله عليه وآله وسلم قال لرجل يعبث بلحيته في صلاته : «لو خشع قلبه لخشعت جوارحه» .

والخاشع إذا قام بين يدي الله تعالىٰ فكلّما انتصب لله جسده في الظاهر انتصب قلبه في الباطن ، وكما رمى ببصره في الظاهر حيث يقع من الخلقة على حدّ الخشوعِ فكذلك رمى ببصر قلبه إلى المقام الّذي رتّبه إن كان من أهل المرتبة ، وإلّا فإلى متعبّده .

وأمّا نظر الظاهر في مواقع الخلقة فهو من القائم بمكان لو خرّ ساجداً لوقعت جبهته على تلك البقعة ، ومن الراكع إنّما يقع ذلك موضع القدمين ، ومن الساجد على موضع الصدر منه ، ومن المتشهّد على رأس ركبتيه وطرف فخذيه .

وأمّا المراتب لذوي المراتب فالصدّيقون أبصارهم قلوبهم[٢] حول العرش ودون العرش وفي الملكوت وعند الله على اختلاف درجاتهم ، وأمّا المتعبّد ليس من أهل الدرجات ، فالمتعبّد بيت العزّة حيث استقرّ القرآن في وقت نزوله جملة في شهر رمضان في سماء الدنيا ثمّ من هناك قبلوه بما فيه من العبوديّة ، علموه أو لم يعلموه كما دخلوا في الميثاق يوم استخرجهم من الأصلاب علموا أو جهلوا ، فعلى هذه المنازل تخشع الجوارح في الصّلاة .

---

(١) إرشاد القلوب : ١٨٦ . باب الخشوع له سبحانه .

(٢) كذا في الأصلين .

وأمّا خشوع العارفين فهو قشعريرة ترد على القلب بغتة عند مفاجأة كشف الحقيقة ، وقريب منه الوجل الّذي ذكر الله تعالى في قوله : **﴿الّذين إذا ذكروا الله وجلت قلوبهم﴾**[1] ثمّ قال : **﴿أولئك هم المؤمنون حقّاً لهم درجات عند ربّهم ومغفرة﴾**[2] ولكنّ الوجل في القلب كاحتراق السعفة أي لا يكاد يلبث طويلاً .

وقال محمّد بن الحنفيّة : الإيمان ثابت واليقين خطرات .

وفي بعض الآثار : إنّي أعلم متى يستجاب لي وذلك إذا اقشعرّ جلدي ووجل قلبي وفاضت عيناي ، وإنّما هذه القشعريرة لنفوس لا تحتمل ما يرد على القلب ، فتقشعرّ منه الجلود ، ومثله مثل جرّة[3] لم يصبها الماء فإذا وضعتها في الماء أنشفت وسمعت لها نشيشاً ، وإذا تكرّر ذلك عليها لم يسمع لأنّها شربت وارتوت من الماء ، فكذلك قلب العارف ارتوى من سقيا الله فلزمها الخشوع والإخبات من غير إقلاع وانقطاع .

وقال أبو عليّ الجوزجانيّ[4] : النفس معجونة بالكبر والحرص والحسد ، فمن أراد الله هلاكه منع منه التواضع والنصيحة والقناعة ، وإذا أراد الله به خيراً فإذا هاجت رياح الحسد في نفسه أدركتها النصيحة مع توفيق الله ، وإذا هاجت في نفسه نار الكبر أدركها التواضع مع نصرة الله ، وإذا هاجت نار الحرص في نفسه أدركتها القناعة مع عون الله .

وعن عمر بن شيبة[5] قال : كنت بمكّة بين الصفا والمروة فرأيت رجلاً راكباً بغلة وبين يديه غلمان فإذا هم يعنفون بالناس ، ثمّ عدت بعد حين فدخلت بغداد فكنت على الجسر فإذا أنا برجل حاف حاسر ، طويل الشعر ، فجعلت أنظر إليه وأتأمّله ، فقال لي : ما لك تنظر إليّ ؟ فقلت : شبّهتك برجل رأيته

---

(١) سورة الأنفال ؛ الآية : ٢ .
(٢) سورة الأنفال ؛ الآية : ٤ .
(٣) إناء من خزف له بطن كبير وعروتان .
(٤) في الاحياء : الجوزاني .
(٥) في الاحياء : عمران بن شيبة .

بمكّة ووصفت له الصفة فقال : أنا ذاك الرجل ، فقلت : ما فعل الله بك ؟ فقال : إنّي رفعت في موضع يتواضع فيه الناس فوضعني الله حيث يترفّع منه الناس .

وعن الثوريّ قال : كنت نزلت مشرعة العمّامين ببغداد لأتطهّر للصّلاة ، فرأيت زورقاً فيها دنان[1] عليها مكتوب بالقار «لطيف» ولم نكن نعرف شيئاً من التجارة يسمّى لطيفاً ، فقلت للملّاح : يا ملّاح أيش هذا ؟ فقال : أنت صوفيّ فضوليّ هو خمر للمعتضد فقلت له : أعطني ذلك المذرى[2] فقال لغلامه : أعطه حتّى نبصر أيش يعمل ، فصعدت الزورق واندفعت في كسر الدنان ، أكسر دنّاً والملّاح يصيح ، حتّى بقي واحد فأمسكت . فجاء صاحب الربع (؟) فأخذني وحملني إلى المعتضد وكان سيفه قبل كلامه ، فلمّا وقعت عينه عليّ قال : من أنت ؟ قلت : أنا المحتسب ، قال : ومن ولّاك الاحتساب ؟ قلت : الّذي ولّاك الخلافة ، قال : لِمَ كسرت هذه الدنان ؟ قلت : شفقة عليك إذ لا تصل يدي إلى دفع مكروه عنك ، قال : فكيف تخلّص هذا الواحد من بين الدنان ؟ قلت : فيه علّة أُخبر بها أمير المؤمنين ، إنّي لمّا تقدّمت إلى كسر الدنان قمت بمطالبة الحقّ فلمّا وصلت إلى هذا أعجبت بنفسي فأمسكت عند ذلك ولو بقيت على الحال الّتي تقدّمت وكانت الدنيا كلّها دناناً لكسرتها عن آخرها فقال : يا شيخ اخرج فقد ولّيناك الاحتساب ، فقلت[3] : إنّي كنت أحتسب عن الله فالساعة أكون شرطيّاً ؟ فقال : سل حاجتك فقلت : أخرجني من هٰهنا سالماً ، فأمر بذلك .

ومشى عبد الله بن محمّد بن واسع مشية لا تحمد ، فقال له أبوه : تدري بكم اشتريت أمّك ؟ بثلاثمائة درهم ، وأبوك هذا الّذي لا كثّر الله من أمثاله في المسلمين ، وأنت تمشي هذه المشية ؟ وأنشد :

---

(١) بالكسر جمع الدن وعاء كبير من خزف يحفر له في الأرض ، ويجعل فيه الخل والخمر .
(٢) بكسر الميم مقصوراً : خشبة ذات أطراف كالأصابع تذرى بها الحنطة .
(٣) في الأصلين «فقال» .

أيّها الشامخ الّذي لا يرام　　نحن من طينة عليك السّلام
إنّما هذه الحياة متاع　　ومع الموت تستوي الأقدام

وهذا الشعر ممّا ينفي العجب ويمنع الكبر وينقص من النخوة ، من حيث معرفة الإنسان طينته ابتداءً وفسادها بالموت انتهاء ، والإنسان متى عرف نفسه من الحالين علم أنّه أذل من كلّ ذليل وأقلّ من كلّ قليل والله سبحانه وتعالىٰ في قوله الحقّ : **﴿قتل الإنسان ما أكفره * من أيّ شيء خلقه * من نطفة خلقه فقدّره * ثمّ السبيل يسّره * ثمّ أماته فأقبره * ثمّ إذا شاء أنشره﴾**[1] وأشار سبحانه إلى خلق الإنسان في أوّل حاله وآخر أمره وإلى ما هو الوسط بينهما من حياته فليمعن في جميع ذلك النظر فيفهم به حقيقة قوله جلّ وعزّ .

أمّا أوّل الإنسان فهو أنّه لم يكن شيئاً بل كان عدماً بحتاً ومحواً صرفاً ثمّ خلقه الله من التراب أذلّ الأشياء ، ثمّ من المنيّ أقذرها ، ثمّ خلقه أطواراً ما هو في شيء منها إلاّ وهو متردّد فيما بين أخسّ الأوصاف من علقة ومضغة وعظام ضاحية ثمَّ مكسوّة لحماً في غاية الضعف والتزاؤل حتّى صار شيئاً مذكوراً بعد أن لم يكن كذلك إذ كان في أوّل كونه على هذه الصورة لا يسمع ولا يبصر ولا يحسّ ولا يتحرّك ولا ينطق ولا يدرك ثمّ على اختلاف هذه الأحوال وابتلائه بهذه الأطوار منّ عليه بالإدراك عن عدم ، وبالحياة عن موت ، وبالقوّة عن ضعف ، وبالهدى عن ضلالة ، وبالقدرة عن عجز ، كما قال : **﴿ثمّ السبيل يسّره﴾** وذلك هو جميع ما تيسّر له في مدّة حياته من لدن خروجه من رحم الأُمّ إلى بطن الأرض فانظر إلى قدرة الله ورحمته كيف دبّره وصوّره وإلى السبيل كيف يسّره ، وإلى طغيان الإنسان ما أكفره ! وإلى جهل الإنسان كيف أظهره ، كما قال الله عزّ وجلّ : **﴿أو لم ير الإنسان أنّا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين﴾**[2] **﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثمّ إذا أنتم بشر تنتشرون﴾**[3] **﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً * إنّا خلقنا الإنسان من نطفة**

(١) سورة عبس ؛ الآيات : ١٧ ـ ٢٢ .
(٢) سورة يسٓ ؛ الآية : ٧٧ .
(٣) سورة الروم ؛ الآية : ٢٠ .

أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً﴾[1] .

فانظر إلى رحمة الله كيف نقله من تلك الذلّة والقلّة والخساسة والقذارة إلى هذه الرفعة والكرامة فصار موجوداً بعد العدم ، حيّاً بعد الموت ، ناطقاً بعد البكم ، بصيراً بعد العمى ، قويّاً بعد الضعف ، عالماً بعد الجهل ، هادياً بعد الضلالة ، قادراً بعد العجز ، غنيّاً بعد الفقر ، فخلقه أوّلاً من العدم المحض ، ثمّ من التراب الذابل[2] ثمّ من الماء المهين ليعرف نفسه من حيث هو .

وإكمال هذه الخصائص العالية والمعاني الشريفة عليه ليعرف به ربّه من حيث هو ، ويتبيّن جلالة عظمته وقدرته ورحمته كما قال عزّ وجلّ في ذكر ما أنعم الله عليه من الأحوال الثواني بعد تلك المبادي : **﴿ألم نجعل له عينين * ولساناً وشفتين * وهديناه النجدين﴾**[3] وقال في الأحوال الأُولى الّتي هي له مبادىء الوجود : **﴿ألم يك نطفة من منيّ يمنى * ثمّ كان علقة فخلق فسوّى﴾**[4] فنبّه بهذا على ما كان من نعمته عليه .

ثمّ قال : **﴿فجعل منه الزوجين الذكر والأُنثى﴾**[5] ليدوم وجوده بالنوع إذ لم يمكن أن يدوم وجوده بالشخص ، فأبقاه بالتناسل وآنسه بالتزاوج والتواصل .

ثمّ لم يتركه وما تمّ به واستوى منه حتّى يميل به إلى الطغيان ، ويهلكه العدوان بل أطاف به الأمراض والآلام ، والأوجاع والأسقام ، وجعله في أيدي الحدثان وعلى معترك الأشجان والأحزان ، وبمدرجة الآفات المختلفة وطوع الطبائع المتضادّة . إذا أخذته العزّة بالإثم ثم قهرته الحاجة على الكظم ، وإن ازدهاه[6] الغنى من جانب صاح به الفقر من جانب ، وإن جمح به السرور بشيء جنح إلى الهموم في مثله ، وإن خلق بالاستطالة في أمر أسف بالضعة إلى ضدّه ، أسير الجوع والشبع ، سريع السخط والرضا ، حبيب الخوف والرجاء ،

(١) سورة الدهر ؛ الآيتان : ١ ـ ٢ .
(٢) الذابل : الدقيق .
(٣) سورة البلد ؛ الآيات : ٨ ـ ١٠ .
(٤) سورة القيامة ؛ الآيتان : ٣٧ ـ ٣٨ .
(٥) سورة القيامة ؛ الآية : ٣٩ .
(٦) حمله على العجب والفخر .

كاره الثواء[1] مكروه الرحيل ، مطلق الظاهر محصور التقدير ، لا يملك لنفسه نفعاً ولا ضرّاً ولا حياة ولا موتاً ولا خيراً ولا شرّاً ، قلبه متقلّب في غير ما يريد جوانحه جانحة إلى غير ما يحبّ ، لا قلبه يملك ولا نفسه يضبط ، نفسه تكون فلا يريد ، ويريد فلا تكون ، يكره ما ينفعه ولا يدريه ويؤثر ما يهلكه ولا يبقيه ، عبد مملوك لا يقدر على شيء من نفسه ومن غيره ، ولا يمتنع عن شيء ممّا يعيره[2] على معيره .

إلى أن يسلب جميع ما وهب ويؤخذ منه كلّ ما أُعطي ، كما قال عزّ من قائل : ﴿**ثمّ أماته فأقبره**﴾ مسلوب الروح ، محروب السمع والبصر ، منهوب القوى والقدرة ، جماداً لا يحسّ ولا ينسّ [3] ، جيفة قذرة كما كان في ابتداء أمره نطفة مذرة ، ويتقاعد على مشافير وجهه نبات الأرض حتّى يستحيل رجيعاً في بطون الديدان ، ثمّ الآكل والمأكول يصير آخر الأمر تراباً يعمل منه الكيزان[4] ويداس تحت أرجل الحيوان .

خلقت من التراب فصرت شخصاً ... تنادي بالفصيح من الخطاب
وعدت إلى التراب فصرت فيه ... كأنّك ما برحت من التراب

ثمّ من بعد ذلك كلّه تجمع أجزاؤه المتفرّقة وتؤلّف أشلاؤه[5] المستهلكة وتعاد إليه روحه المحفوظة عنه في يومٍ سماؤه مشقّقة ، وأرضه مبدّلة[6] وينشر له صحيفة أعماله فيقرء ما نسيه وأحصاه الله فيقول : ﴿**يا ويلنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ أحصاها**﴾[7] وذلك بدء أمره وهذ آخر حاله والمراد بقوله تعالىٰ : ﴿**فإذا شاء أنشره**﴾[8] .

(١) الثواء : الإقامة بالمكان .
(٢) في النسخة (ر) : أعيره .
(٣) نسّ فلان : كان ماضياً سريع العمل في كل أمر .
(٤) جمع الكوز .
(٥) أشلاء الإنسان : أعضاؤه بعد البلى والتفرق .
(٦) قال تعالى :﴿**إذا السماء انشقت**﴾وقال(إبراهيم :٤٨) ﴿**يوم تبدل الأرض غير الأرض**﴾ .
(٧) سورة الكهف ؛ الآية : ٥٠ .
(٨) سورة عبس ؛ الآية : ٢٢ .

فإذا كان هو المبدء وإلى هذا هو المنتهى فمن أين يعجب الإنسان ويزهي ؟ وممّا ذا يغرّ ويستهوي ؟ أسكره كأس ما مزجت إلّا للعنا ولا أُديرت[1] إلّا على الفنا ؟ أيبطره لباس ما نسج إلّا للبلى .

ما بال من أوّله نطفة ... وجيفة آخره يفخر[2]
أصبح لا يملك تقديم ما ... يرجو ولا تأخير ما يحذر
وأصبح الأمر إلى غيره ... في كلّ ما يقضي وما يقدر
للموت أبناء لهم ... ما شئت من صلف وتيه[3]
فكأنّني بالموت قد ... دارت رحاه على بنيه
يا مستحيلاً كمعانيه ... ومستطيلاً كمساويه
أقصر من التيه على الناس ... يرم بك التيه إلى التيه

وقال آخر :

إذا المرء لم يرض ما أمكنه ... ولم يأت من فعله أحسنه
وأعجبه العجب فاعتاده ... وتاه به التيه فاستحسنه
فدعه فقد ساء تدبيره ... سيضحك يوماً ويبكي سنه
إيّاك من نخوة حقيقتها ... حمق ، وبالكبر قد تلقّبها
سها بنا الشرو والسيادة عن ... نخوتها مجدها ومنصبها

وقول هذا القائل : إنّ حقيقة النخوة حمق صحيح معقول ، ومنه قول بعض الحكماء : ما تكبّر إلّا مائق[4] ، ولذلك قال بعضهم حين سئل : ما الكبر ؟ فقال : فضل حمق لم يدر صاحبه أين يضعه فجعله كبراً .

وأيضاً فإنّ من رسوم التيه أنّه يضادّ حكم العقل من الأُمور الدينيّة والعقليّة أن يسمى بالجهل ولكن اسم الحمق أغلب على ما يضادّ حكم العقل في أسباب

---

(١) في الأصلين «ادبرت» .
(٢) قد سبق أنها لأبي العتاهية .
(٣) لأبي العتاهية في الأغاني (٣ : ١٦٧) .
(٤) المائق : الأحمق ، الهالك ، من «موق» .

العشرة وأبواب المعاملة ، فوجب أن يكون الكبر جهلاً من وجه وحمقاً من وجه ؛ جهلاً لدخوله في الظلم والجهل بحال النفس ابتداء وانتهاء ، وحمقاً من حيث إنّه غبن حظّه من المودّات بما زيّن له الشيطان عند التسليم عليه مثلاً من ليّ شدق وتعبيس[1] وجه وتحديق عين ، ونحو ذلك ممّا يضن به المتكبّر في اللقاء ، ويتعرّض للمقت والبغضاء ، نحو ما وصفه أبو العتاهية من حال من زاره :

إنّي أتيتك للسلام ... تكلّفاً منّي وحمقا
فصددت عنّي نخوة ... وتجبّراً، ولويت شدقا
فلو أنّ رزقي في يديك ... لما طلبت الدهر رزقا

وقال :

خليل لي أكاتمه ... أراني لا أُلائمه
أراه مضيّعاً حقّي ... وأنّ الحقّ لازمه
أحبّ التيه حتّى تاه ... فضلاً عنه خادمه
كذا من نال سلطاناً ... ومن كثرت دراهمه
فلم أحمل له تيهاً ... ولكنّي مصارمه

وقال :

ربّ مختال عظيم التـ ... ـيه في قدر العلامه
إنّ بين الخير والشـ ... ـرّ لفصلاً وعلامه

وقال :

ما أنا إلّا لمن بغاني ... أرى خليلي كما يراني
لست أرى ما ملكت طرفي ... في (؟) مكان من لا يراني

---

(١) لوى شدقه : أماله وأعرض (يائي اللام) . التعبيس من عبوس الوجه .

وقيل : إنّ معنى قول جرير[1] :

وإنّي لأستحيي أخي أن أرى لـه ... عليّ من الفضل الّذي لا يرى ليا

معنى بيت أبي العتاهية[2] وأنّه لا يحمل تيه أخيه ، وهذا البيت يأبى أن يرى له فضلاً لا يرى هو لهذا مثله ولكن هذا هو الظلم بعينه ، لأنّ الفضل يجب أن يرى لوجوده حيث وجد ولا يجري في المجازاة ، فالمعنى الصحيح أنّي أستحيي أن لا أُجازي أخي عن فضله وإحسانه فيكون له عندي إحسان ليس لي عنده مثل ذلك .

وممّا أُنشد في التواضع وحسن الخلق مع الإخوان وخفض الجناح لهم قول عبد الله بن طاهر[3] :

أميل مع الذمام على ابن عمّي ... وأحمل للصديق على الشفيق
وإن ألفيتني ملكاً مطاعاً ... فأبلى واحدي عبد الصديق

وقال آخر :

وإنّي لعبد الضعيف ما دام ثاوياً ... وما فيّ إلاّ تلك من شيمة العبد

أبو تمّام[4] :

جمّ التواضع والدنيا بسؤدده ... يكاد يهتزّ من أطرافها سلفا[5]

---

(١) جرير بن عطية بن حذيفة الكلبي ، أشعر أهل عصره ، ولد سنة ٢٨ هـ باليمامة ، وعاش عمره كله يناضل الشعراء ويساجلهم ، فلم يثبت أمامه غير الفرزدق والأخطل ، وله أخبار كثيرة مع الخلفاء الأمويين ، توفي سنة ١١٠ هـ . أُنظر الأغاني (٧ : ٣٥) واللآلىء (١ : ٢٩٢) . والبيت له في اللآلىء (١ : ٢٨٩) مع بيتين تراهما في قصيدة في ديوانه (٢ : ١٦٧ ـ ١٦٨) والبيت لسيار بن هبيرة بن نبطي في ذيل أمالي القالي ص ٧٥ .

(٢) الأولى أن يعكس فيقال «قول أبي العتاهية معنى قول جرير» لتقدم موت جرير على ولادة أبي العتاهية بأكثر من عشرين سنة .

(٣) سبق البيتان ص ٩٦ برواية : فإنك واجدي عبد الصديق .

(٤) أُنظر ديوانه ص ١٥١ من قصده يمدح بها أبا دلف العجلي .

(٥) في الأصلين «صلفاً» وما أثبتناه من الديوان .

البحتريّ [1] :

دنوت تواضعاً وعلوت قدراً ... فشأنك انحدار وارتفاع
كذاك الشمس تبعد أن تسامى ... ويدنو الضوء منها والشعاع
وقد فرشت لك الدنيا مراراً ... مراتب كلّها نجد يفاع [2]
فما رفع التصفّح منك طرفاً ... ولا مالت بأخدعك الضياع

وقال :

أسوة للصديق يدنو إليه ... عن محلّ في النبل عال رفيع
وإذا ما الكريم لم يتواضع ... للأخلّاء فهو عين الوضيع

وقال :

جرى بالتواضع في حلّة ... له نسجت من قلوب الورى
نعم، حلّة قد أحلّت هواه ... لعمرك من كلّ قلب حمى
هوى كلّ قلب لها لحمة ... وما هو مسديه فيها سدى
فيا كسوة من وداد النفوس ... عليها طراز جميل الثنا
ويا كسوة صان ربّ السماء ... حواشيها عن دبيب البلى
يجدّدها حسن أحدوثة ... ولابسها طعمة للثرى

وقال يصف المهديّ [3] بغاية الكرم في التواضع عن خلّة وأنّ الخلافة وعزّها لم يغيّر ما كان يعتاده من ذلك ، والخلق الأصيل هو الّذي لا يتغيّر بتغيّر الأحوال ، ويستوي مع الإقبال وتنسّم الكمال ، فقال :

سرت تبعاً فيه الخلافة رغبة ... أتته بأوفى قصدها واعتمادها
فما علقته خبط غاشية الدجى ... ولكنّها اجتازته بعد ارتيادها [4]

---

(١) بيتان منها في اللآلىء (١ : ١٦٢) . وفي النسخة (ر) البخترى بالخاء سهواً .
(٢) اليفاع : التل المشرف ، أو كل ما ارتفع من الأرض .
(٣) الصواب «المهتدي» وهو محمد بن هارون الواثق بالله العباسي ، وله خصال حميدة ، ويشبّه بعمر بن عبد العزيز . ولد ٢٢٢ وتوفي ٢٥٦ هـ .
(٤) خبط الليل ـ من باب علم ـ : سار فيه من غير هدى .

وما نقلت منه الخلافة شيمة — وقد مكّنته قبوة من قيادها
ولا مالت الدنيا به حين أشرقت — له في تناهي حسنها واحتشادها

وقد ذكر البحتريّ أيضاً التواضع مع المهابة والجمع بينهما من شرف الخلائق فقال :

أغرّ لنا من جوده وسماحه — ظهير علينا ما يحبّ وشافع
يبجّل إجلالاً ويكبر هيبةً — أصيل الحجى فيه تقىً وتواضع

ومثله :

مهيب لعمري في الصدور محبّب — ومن لك يوماً بالمهيب المحبّب

ومن جيّد التكبّر قول الشاعر :

وأُعرض عن ذي المال حتّى يُقال لي — قد أحدث هذا نخوة وتعظّما
وما بي كبر عن صديق ولا أخ — ولكنّه فعلي إذا كنت مُعدما

وممّا يحكى في زهو العرب وغيرهم وتيه المشهورين وكبرهم ما حدّث إبراهيم بن مسلم أنّ رجلاً قال للحجّاج ، لمّا ابتنى خضراء واسط[1] : أصلح الله الأمير ! كيف وجدت منزلك ؟ قال : خير منزل أقربه من روح الجبل وموافقته ، وأبعده من حزونته مع توسّطه المصرين ، وقربه من النهرين دجلة والفرات ، ولكنّي لو أدركت أربعة من أهل العراق وتقرّبت إلى الله بدمائهم لم يبق في نفسي حريج .

أمّا أحدهم فأبو سماك لأم الأسدي فإنّ ناقة له ندت[2] فطلبها بكلّ حيلة فأعيته ، فقال : أما وعظمتك لئن لم تحبسها عليّ لاعبدتك طرفة عين أبداً فمرّت الناقة بشجرة فتناولت منها فتعلّق خطامها بالشجرة فأدركها ، فلمّا انصرف قال : أما إنّ ربّي علم أنّ عيني كانت صبراً[3]. أما والله لو أدركته لما استبقيته .

(١) مدينة بناها الحجاج بين البصرة والكوفة . أُنظر معجم ما استعجم (٣ : ١٣٦٢) .
(٢) أي تفرقت .
(٣) لعله من الصبر بالتحريك وهو الجمد .

وأمّا الآخر فعوف بن قعقاع بن سعيد بن زرارة التميميّ فإنّه مرّت به امرأة فقالت مسترشدة له : يا عبد الله ! الطريق ، فقال : ما أنا بعبد وزبرها . أنف الخبيث أن يكون عبداً لله ، أما والله لو أدركته ما استبقيته .

وأمّا الثالث فمقاتل بن مسمع فإنّه ولي إصبهان ، فانتهب مال الله يميناً وشمالاً فلمّا انصرف جعل لا يمرّ في طريق من طرقها إلاّ فرش له بالرياحين وقال الناس يثنون عليه ويدعون له ، فالتفت إلى رجل يسائره فقال له : بمثل هذا فليعمل العاملون . فبذّر مال الله وتشبّه بالجنّة ، أما والله لو أدركته ما استبقيته .

وأمّا الرابع فعبيد الله بن [زياد بن] ظبيان [١] مشى إليه قومه في بعض أُمورهم فأجاب جميعهم إلى حوائجهم فقال رجل : كثّر الله فينا أمثالك ، فقال : والله لقد كلّفت ربّك شططاً . أظنّ عدوّ الله أنّ الله الّذي خلقه لم يخلق مثله ؟ لو أدركته ما استبقيته . فقال القوم : هم لما رأى الأمير أهل ! ! .

وذكر معاوية قال : قدم علقمة بن وائل الحضرميّ على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فأمرني أن أنطلق به إلى منزل رجل من الأنصار أُنزله عليه ، وكان منزله في أقصى المدينة فانطلقت معه وهو على ناقة له وأنا أمشي معه في وقدة الهجير [٢] وليس عليّ حذاء فقلت له : احملني يا عمّ من هذا الحرّ الّذي قد شواني قال : لست من أرداف الملوك قلت : إنّي ابن أبي سفيان قال : قد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يذكر ذلك ، قلت : فألق عليّ نعلك قال : لا تقلّها قدماك ولكن إمشِ في ظلّ ناقتي وإنّه لك كثير وكفاك بذلك شرفاً ، قال معاوية : فما مرّ بي يوم مثل ذلك اليوم ، ثمّ أدرك سلطاني فلم أُواخذ بل أجلسته معي على سريري . وهذا وجه من وجه الكبر المستحسن حيث إنّه وقع في حقّ معاوية [٣] ، والّذي صنعه ـ كما ترى ـ إنّما هو دهاء ليمدح به عند الناس .

وذكروا أنّ عبيد الله بن ظبيان الّذي ذكرناه في حديث الحجّاج من مشهوري

---

(١) في الأصلين «عبيد الله بن طسان» وما أثبتناه من الأغاني (١٧ : ١٦٣) .
(٢) الهجير : شدة الحر .
(٣) ولا أظن أحداً يستحسنه ـ غير المؤلف ـ بهذه العلة .

أهل الكبر وهو قاتل مصعب ، ولمّا قتله وحمل رأسه إلى عبد الملك سجد عبد الملك شكراً لله فكان عبيد الله يقول : [يا][1] ليتني قتلته حين سجد فأكون قد قتلت ملكي العرب في ساعة[2] .

وله كبر مستحسن ومستقبح فمن المستقبح ما ذكرناه وما يحكى أنّه لمّا قتل مصعباً خوّف بالنار فقال لمخوّفه : فهل هو إلّا أن يأمر بي إلى النار فما بعدها ؟ .

ومستحسن كبره ما كان من كلامه وقد دخل على عبد الملك وكان الناس يقولون في عبيد الله : «لا يشبه أباه» فذكر ذلك عبد الملك في قولهم ، فقال عبيد الله : «لا يشبه أباه من لم تنضجه الأرحام ، ولم يولد لتمام ، ولم يشبه الأخوال والأعمام» يعرّض بعبد الملك وكان قد وُلد لستّة أشهر ، فقال عبد الملك : ومن ذلك ؟ فقال : سويد ، وكان حاضراً ، فقال عبد الملك : أكذلك[3] يا سويد بن منجوف ؟ فقال : إنّ الناس ليقولون ذاك ، فلمّا خرجا قال عبيد الله : ما يسرّني باحتمالك حمر النعم ! فقال سويد : وما يسرّني أنّك لم تقلها ولي سودها ! .

ومن مستحسن كبره أنّ أباه لمّا أشفى[4] قال له : يا بنيّ إنّ الأمير زياداً يروح إليّ عائداً فأُوصيه بك ؟ فقال : يا أبت إن لم يكن للحيّ إلّا وصيّة الميّت فالحيّ هو الميّت .

ورأس المتكبّرين في الإسلام أبو مسلم تكبّر على المنصور لمّا قدم عليه نيشابور واستخفّ به في أشياء وعرّض بالخلافة وتمثّل :

وأعزّ من ولد الأراقم ماجد   صلب الجبين معاود الأقدام
خلع الملوك وصار تحت لوائه   شجر العدا وعراعر الأقوام

---

(١) زيادة من الأصل .
(٢) ذكره أبو الفرج في الأغاني (١٧ : ١٦٤) في خبر مقتل مصعب .
(٣) في النسخة (ر) : أكذاك .
(٤) أشفى المريض الموت ، قاربه .

فما زال به تكبّره حتّى أورطه .

وما زالت خلفاء بني أُميّة وبني العبّاس موصوفين بالكبر والتجبّر إلاّ عمر بن عبد العزيز فإنّه سار من بينهم بالسيرة الحميدة ، وكذلك المهديّ بن الواثق[1] .

وتواضع الملوك ليس من جنس تواضع العامّة ولا تواضع العلماء .

وكذلك الملك إذا زاد على السيرة المعروفة للملوك في رفعته وتجبّره سمّي تيّاهاً وقد اشتهر بهذه السمة من خلفاء بني أُميّة عبد الملك وابنه الوليد وقد ذكره المنصور بذلك لمّا ذكر خلفاءهم وقال : «أخرق تيّاه»[2] كما عاب سليمان بأنّه «بطنة وفرجة» [3]وعاب يزيد بأنّه «شاطر ملعون»[4] ثمّ فضّل هشاماً على القوم بالحزم وكان أبعد الجبابرة من الكبر ، والوليد ابنه[5] كان معروفاً بالتيه ولذلك ندر منه التواضع حتّى دخل مسجد المدينة بعد نعقائه (؟) العظيمة ينظر إليه ومعه عمر بن عبد العزيز فأُخلي له المسجد إلاّ عن سعيد بن المسيّب فإنّ المُخلي هابه فذكر عمر أنّه كان يميل الوليد عن جانبه خوفاً أن يقع بصره عليه فبصر به فقال : من ذلك الشيخ ؟ فقال : هو سعيد بن المسيّب ، ولو علم بأمير المؤمنين لقام إليه ، فقال : ولكنّا نمشي إليه ونسلّم عليه فما زال يمشي حتّى قام على رأس سعيد فسلّم عليه وسأله فلم يقم له ، فكان عمر بن عبد العزيز يولي جاهداً فيقول : لا والّذي سخر الوليد لسعيد حتّى مشى إليه ما كان كذا وكذا .

وفعل سعيد هذا من الكبر المستحسن بل لم يكن كبراً في التحقيق وإنّما كان تقرّباً إلى الله وذهاباً بالدين عن الدنيا .

وكان يحيى بن معاذ يقول : التكبّر بمن تكبّر عليك بدنياه تواضع .

وقال بشر بن الحارث : سلّموا على أبناء الدنيا بترك السّلام عليهم .

---

(١) قد ذكرنا ص ٣٠٠ أن الصواب «المهتدي» .

(٢) الأخرق : الأحمق ، الذي لا يحسن عمله . التياه : المتكبر .

(٣) صيغتان مبالغتان من البطن والفرج .

(٤) الشاطر المتصف بالدهاء والخباثة .

(٥) الضمير راجع إلى عبد الملك .

وأمّا تيّاه بني العباس فموسى الهادي[1] ، وقد وسم الرشيد بذلك أيضاً ، أُعدّت للمنصور في التيه كبائر ، ولو لم يكن من تيهه وتكبّره عن الحقّ إلاّ ما كان من فعله بالرجل الّذي قام إليه وهو يخطب فأنشده :

نزلت بأقوام خماص بطونهم ... وأنت بطين والرعيّة جوّع
تقوم إذا ما قمت تُسمع خطبة ... ترجّع فيها والمدامع تدمع
كأنّك صيّاد تفيض دموعه ... من الصرّ ، والصيّاد يفري ويقطع[2]
يحزّ رقاب الطير من غير رحمة ... وعيناه من برد العشيّات تهمع[3]

وقد وسم الرشيد بذلك أيضاً . والمعتضد من متأخّريهم . وحلم المأمون غطى على تكبّره .

وأخبار المشهورين من وزرائهم بالتيه كثيرة ، والاشتغال بذكرها إطالة .

وبالجملة فيجب على العاقل أن يتأمّل ما في الكبر والعجب من الذلّ والهلاك ، وما في التواضع والخشوع من الخير والصلاح والفوز والنجاح ، وفي قوله تعالىٰ : ﴿**فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبّر فيها**﴾[4] دلالة ظاهرة على أنّ الانحطاط عن رفيع الدرجات إنّما يكون بالتكبّر . ومن أنّه واجب على كلّ ذي منزلة رفيعة أن يشفق عليها لا يسقط عنها ، وذلك باستعمال التواضع واعتياد الرفق ، وهذا ممّا اجتمع على قبوله العقل والشرع ، واتّفق الاعتبار والاختبار ، فكم من أُناس لهم منازل رفيعة عال الخطو عنها بعد الخلق المذموم ، وكم غنيّ افتقر بسبب عدم التواضع . وما من أحد سحب رداء الكبرياء إلاّ أذلّه الله ومقته الناس ولعنوه ، وإمامهم إبليس لعنه الله فما استحقّ لعنة الله آباد الأبد وحمل خطايا جميع الأُمم إلاّ بالكبر ، وكذلك في قصّة صالح وما أنبأنا الله من قول قومه الكافرين للمؤمنين في قوله﴿**قال الملأ الّذين استكبروا من قومه للّذين**

---

(١) في الأصلين «فموسى والهادي» وهما اسم ولقب لواحد .
(٢) فرى الشيء : قطعه ، ومنه فري الأوداج . وفي النسخة (ر) من القبر والصياد .
(٣) همعت العين ـ من بابي منع ونصر ـ أسالت الدمع .
(٤) سورة الأعراف ؛ الآية : ١٢ .

استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أنّ صالحاً مرسل من ربّه قالوا إنّا بالّذي أرسل به مؤمنون * قال الّذين استكبروا إنّا بالّذي آمنتم به كافرون﴾[1] إلى آخر القصّة ، دلالة ظاهرة على ذمّ الإستكبار في كلّ شيء من الأحوال وأنّ العبد لا يتقرّب إلى الله بشيء هو أحبّ إليه من التواضع لقبول الحقّ ، وأنّه لا يتبغّض إليه بشيء هو أبغض وأمقت من الاستكبار ، وينبغي أن يعتقد أنّ من أتمّ الأدب وأوفى الخير أن يتواضع الإنسان لربّه الّذي خلقه وقسم عمره ورزقه ، ثمّ لوالديه اللّذين ربّياه صغيراً ، ثمّ لأستاذه الّذي يعلّمه وهداه كبيراً ، ثمّ لجميع الناس على العموم وخاصّة في قبول الحقّ ، وفي استشعار أنّهم خير منه على الإطلاق فإنّ الإنسان إذا وقف على هذا الحدّ في معرفة نفسه واستصغاره قدره استحقّ الإعظام والإكرام من غيره ، والارتضاء بجميع أفعاله وأحواله ، وأقبلت القلوب إليه بالمحبّة ، والوجوه بالخلطة والصحبة .

وقد قيل : إنّ لك عندنا قدراً ما لم يكن لنفسك عندك قدراً .

وفي بعض الخطب : التقوى حصن حصين ، والهوى مهاد مكين ، والخير معقل منيع والصدق مرعى مريع ، والعلم من أحمد المقاصد والحلم من أوضع المراشد ، والتواضع لا يصدر إلاّ عن سماوة الفضائل ، والتكبّر لا يحضر إلاّ عن دناءة الشمائل .

سأل سائل : من أذلّ الناس ؟ فقال : الفقير الهلوع[2] والضيف النزيل على اللئيم المنوع ، والمحبّ لحبيبه ، والمريض لطبيبه .

ثمّ قال : هذا لسان التهزّل ، وأمّا لسان الجدّ فمن أذلّ ممّن أوّله نطفة مذرة وآخره جيفة قذرة ، أُلزمت عليه الحجّة ، ولم تقبل منه المعذرة ، سلّط عليه الذباب والقمّل في حياته ، وأكلته الدود بعد وفاته ، لا يدري متى يرحل وإلى أين ينقل وما به يفعل .

ووصّى بعض الصالحين فقال : كن من الشيطان كالغريب يقصده كلب

---

(١) سورة الأعراف ؛ الآيتان : ٦٤ ـ ٧٥ .

(٢) الذي يحرص ويشح على المال .

راعي فيقصد[1] إلى الراعي ، فإنّ الشيطان يرفع لك تسعاً وتسعين باباً من الخير حتّى يصطادك عند تمام المائة فقابله بالأضداد ؛ فإن دعاك إلى الدنيا فقل : هي فانية وإن دعاك إلى الشهوات فقل : هي ندامة ، وإن دعاك إلى الكبر فقابله بمعرفة أصلك وفرعك ، تراب صلصال وحمأ مسنون وماء مهين ، وإن دعاك إلى العجب فقل : كيف أعجب بما ليس منّي ، إنّما هو توفيق وعصمة . والعجب ممّن يعجب بعلمه ولا يدري بما يختم له . لا رجاء لمن يذلّه الطمع ولا طمع لمن يستخفّه هلع ، ولا غنى لمن يخالطه طغيان ولا فقر لمن لم يعارضه أحزان ، ولا جدة لمن لم يغالبها بطر ، ولا بغية لمن لم يعادلها خطر ، ولا راحة لمن لم يمزجها أذى ، ولا صفوة لمن لم يشبها قذى ، وكيف تنعّم نفس في مسرّتها ولا مسرّة لم تحفف بأحزان ؟

وكيف تخلص حال من أذى وقذى وقد أحاط بسعد الأفق نحسان

إنّ من عرف مقداره لم يعد أطواره ، ومن وقف دون قدره يرفع الله من أمره ، ومن أراد الانتفاع فليخفض الجناح ، ومن أحبّ الاعتزال فليرفع الجناح ، ومن أراد الكرامة من الله والمحبّة من الناس فليوقّر كلّ كبير ، ولا يحقّر الصغير ، ولا يختال على البائس الفقير ، ولا يزدري المضطرّ الأسير ، ولا يغتبط بما عنده فرحاً ، ولا يمش على الأرض مرحاً :

ولا تمشِ فوق الأرض إلاّ تواضعاً فكم تحتِها قوم هم منك أرفع
فإن كنت في عزّ وحرز ومنعة فكم تحتها قوم هم منك أمنع

فالتواضع ينتج منه الحياء والتكبّر يلجىء صاحبه إلى عدم الوفاء .

---

(١) فيفزع . خ ل .

الفصل الرابع عشر

يتضمن التنبيه على ما في الأنفس من الحياء والوفاء[1]

قال بعض العلماء : إنّ الحياء على أربعة أوجه :

حياء الجناية كآدم عليه السلام نودي : أفرار منّا ؟ قال : بل حياء منك .

ورئي بعض الصالحين يصلّي بخارج المسجد فقيل له : لِمَ لا تدخل المسجد فتصلّي فيه ؟ فقال : أستحيي أن أدخل بيته وقد عصيته .

وحياء التقصير كالملائكة يقولون : سبحانك ما عبدناك حقّ عبادتك .

وقال بعضهم : ربّما أُصلّي فأنصرف عنها وأنا بمنزلة من ينصرف عن السرقة من الحياء .

وكان بعضهم[2] يقول : عند رؤية الآلاء والتقصير يتولّد بينهما حال للعبد تسمّى الحياء . وأُنشد :

لولا الحياء وأنّ الستر من سمتي ... إذا قعدت عليك الدهر لم أقم
أليس عندك شكر للّتي جعلت ... ما ابيض من قاد مثل الرأس كالجمم

وحياء الإجلال وذلك كحياء إسرافيل يتغطّى بجناحه حياء ، وحتّى يصير

---

(١) وانظر في الحياء أُصول الكافي (٢ : ١٠٦) وإرشاد القلوب : ١٨٠ وفي الوفاء إحياء العلوم (٢ : ١٨٧) .
(٢) في النسخة (ر) : وكان الجنيد .

من الحياء كالوضع [1] وهو طائر كأصغر ما يكون ، ولهذا يُقال : إنّ الحياء يوجب التذويب ، ويُقال : الحياء ذوبان الحشا لاطّلاع المولى :

وقد كنت قبل الذنب أحسب أنّني ذلول لأيّام الزمان حبيب
فأشرفت يوماً في البقاع فشافني وذو الشوف من أعلى البقاع طروب
فما برحت نفسي تساقط أنفساً وتخمد روحي للحيا وتذوب
وأبلست في حال الرجاء وباعدت إلى النفس حاجات وهنّ قريب

وحياء الكرم وذلك كما استحيا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من صحابته أن يقول : اخرجوا ، وقد كانوا يؤذونه بطول حديثهم فقال الله تعالىٰ : **﴿ولا مستأنسين لحديث﴾** [2] ومن ذلك قوله تعالىٰ : **﴿تمشي على استحياء﴾** [3] فإنّما استحيت لأنّها دعته إلى الضيافة ، وصفة المضيف إذا كان كريماً الاستحياء . ومنه قوله تعالىٰ فيما أخبر عنه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «الشيب نور من أنواري وأنا أستحيي أن أحرق نوري بناري» .

وكان يحيى بن معاذ يأخذ بلحيته البيضاء ويناجي : سبحان الله ! يذنب العبد ويستحيي هو ! .

وقيل : إنّ الحياء مقسوم بين أربعة أشياء .

النفس وحياؤها من العصيان إذا كان ذلك بمرءى من الرَّحمٰن ، قال الله تعالىٰ : **﴿ما يكون من نجوى ثلاثة إلاّ هو رابعهم﴾** [4] .

ويروى أنّ شابّاً على عهد عمر دعته امرأة إلى نفسها فلمّا قدر عليها استحيا من الله فغشي عليه فحملوه إلى منزله فبقي أيّاماً بأسوء حال ثمّ مات وجاء عمر إلى قبره فقال : «ولمن خاف مقام ربّه جنّتان» فسمع : أعطاهما الله .

---

(١) في النسختين «الوضع» بالضاد المعجمة والإصلاح من حياة الحيوان (٢ : ٤٠٢) وهو الصعوة ، وقيل : هو طائر أصغر من العصفور .

(٢) سورة الأحزاب ؛ الآية : ٥٣ .

(٣) سورة القصص ؛ الآية : ٢٥ .

(٤) سورة المجادلة ؛ الآية : ٧ .

وحكي أن بدويّاً خلا بامرأة فلمّا جلس معها مجلس الرجال من النساء فرّ هارباً فقالت له : لِمَ فررت ؟ فقال : إنّ رجلاً باع جنّة عرضها السماوات والأرض بإصبعين من بين فخذيك لقليل العلم بالمساحة ! .

وقيل : أشدّ الحياء حياء النفس من قلّة الحياء يوم كشف الغطاء .

اليوم ينكشف القناع المسبل ... ليس التجمّل كلّ حين يجمل[1]
اليوم لا يرفع غير ذيلي ... ليلي نهاري ونهاري ليلي
ليلي نهاري سُهادا ... ونهاري ليلي سوادا

والثاني حياء الروح وذلك من كثرة الإحسان قال الله تعالىٰ : ﴿**وأحسن كما أحسن الله إليك**﴾[2] وقالوا في تفسير قوله تعالىٰ عزّ وجلّ : ﴿**والمستغفرين بالأسحار**﴾[3] إنّ ذلك للحياء عن عيوب الطاعات وما كان من القيام بالليل .

ويروى أنّ الله تعالىٰ يعاتب عبداً من عباده فيقول العبد : يا ربّ مر بي إلى عذابك ، فإنّ عذابك أهون من عتابك .

وسُئِل بعض العارفين[4] : أيّ الأعمال أفضل ؟ فقال :

إذا محاسني اللاّتي أدلّ بها ... كانت ذنوبي ، فقل لي : كيف أعتذر
ارض للسائل الخضوع ، ولـ ... ـقارف ذنباً غضاضة الاعتذار
واستعذ منهما فبئس المقاما ... ن لأهل الحياء والأخطار

والثالث حياء العقل وهو من النسيان وذلك كما حكى الله عن قوم قولهم : ﴿**قال ربّ لِمَ حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً قال أتتك آياتنا فنسيتها**﴾[5] .

تناسيت عهدي واطّرحت حقوقي ... وخالفت أمري واصطفيت عقوقي

---

(١) أسبل القناع أرسله وأرخاه .
(٢) سورة القصص ؛ الآية : ٧٧ .
(٣) سورة آل عمران ؛ الآية : ١٧ .
(٤) في النسخة (ر) : سئل الشبلي .
(٥) سورة طة ؛ الآية : ١٢٥ .

وما ذاك إلاَّ أنّني سهم نصرة فنحو العُدى نصلي ، ونحوك فوقي [1]
ولاحت بروق منك أخلف ودقها على أنّني ما أخلفتك بروقي

والرابع حياء السر من الالتفات إلى كلّ من على وجه الأرض خاطب الله تعالىٰ الخاصّ فقال : ﴿ألم تر إلى ربّك كيف مدّ الظلّ﴾[2] ثمّ قال : ﴿فليعبدوا ربّ هذا البيت﴾[3] وخاطب العامّ فقال : ﴿وحيث ما كنتم فولّوا وجوهكم شطره﴾[4] وقال : ﴿أفلا تنظرون إلى الإبل كيف خلقت﴾[5] فكم بين من ينظر إلى ربّه وبين من ينظر إلى غيره وقال في حال الحربين : ﴿قل الله ثمّ ذرهم﴾[6] .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأبي بكر : ﴿لا تحزن إنّ الله معنا﴾[7] حيث إنّ هذا الرفيق لم يكن على يقين من أنّ البارىء جلّ وعلا مع نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم فكأنّه قال له : استحي من الله وانته عن هذا الجزع والفزع .

وقال موسى عليه السلام : ﴿كلاّ إنّ معي ربّي سيهدين﴾[8] .

وحكى بعضهم قال : خرجنا ليلة فمررنا بأجمة فإذا رجل نائم وفرسه عند رأسه يرعى فحرّكناه وقلنا له : يا فتى ! ألا تخاف تنام في مسبعة[9] ؟ فرفع رأسه وقال : أنا أستحي منه أن أخاف غيره .

هممت بطرفي يمنة ثمّ يسرة فلم أرغير اللّه يأمله قلبي

---

(١) النصل : حديدة الرمح ، الفوق ـ بالضم موضع الوتر من السهم ، والمراد هنا آخر الرمح .
(٢) سورة الفرقان ؛ الآية : ٤٥ .
(٣) سورة قريش ؛ الآية : ٣ .
(٤) سورة البقرة ؛ الآيتان : ١٤٤ و ١٥٠ .
(٥) سورة الغاشية ؛ الآية : ١٧ .
(٦) سورة الأنعام ؛ الآية : ٩١ ولعل الصحيح «الحزبين» .
(٧) حيث كانا في الغار ، وذكره الله تعالى في سورة التوبة ؛ الآية : ٤٠ .
(٨) سورة الشعراء ؛ الآية : ٦٣ .
(٩) الأرض فيها السباع .

وإني لأستحيي وكل الّذي أرى ... لربي أن أرجو وأخشى سوى ربي

وقال بعض شعراء الجاهليّة :

وإنّي لأستحيي من اللّه أن أرى ... أطوف بحبل ليس فيه بعير
وأن أسأل المرء اللئيم بعيره ... وبُعران ربّي في البلاد كثير[1]
فللّيل أن آواني الليل حكمة ... وللشمس إن غابت عليّ تدور
عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى ... وصوّت إنسان فكدت أطير
رأى اللّه أنّي للأنيس لشاني ... وتبغضهم لي مقلة وضمير

وربّما زاد حياء السرّ على الالتفات إلى الغير ، وأوجب الحياء من الإقبال على الحبيب والنظر إليه . كما قال مضرس بن قرظة الهلاليّ[2] :

أردّ سوام الطرف عنك وماله ... على أحد إلاّ إليك طريق
يهيّجني للوصل أيّامنا الأولى ... مررن علينا والزمان وريق[3]
تتوق إليك النفس ثمّ أردّها ... حياء ، ومثلي بالحياء حقيق[4]
على كلّ حال أستحيك وأتّقي ... وإن طار من قلبي إليك فريق

وقد جاء في الحياء من الأخبار والآثار حديث بان عليه النور وأُيّد بالحقّ واستخلص من التقوى ، يجمع لك الأدب والتأديب ، ويدلّك على الصلاح والتسديد وهو لك إن وفّقت للعمل به مدّة في الباطن وجمال في الظاهر ، وعمدة في الخيرات وعُدّة في النائبات وهو قوله صلى الله عليه وآله وسلم[5] : «لا إيمان كالحياء ، ولا حسب كالتواضع ، ولا شرف كالعلم ، ولا مال أعود من العقل ، ولا وحدة أوحش من العجب ، ولا عيش كالتدبير ، ولا كرم كالتقوى ، ولا قرين كحسن

---

(١) بضم الباء : جمع البعير .

(٢) أحد بني صبح بن عوف المزني ، شاعر محسن مقل . ذكره الآمدي في المؤتلف : ١٩١ والأبيات من قصيدة له في أمالي القالي (٢ : ٢٥٦) ومن القصيدة أبيات في الأغاني (٥ : ١٩) واللآلىء (٢ : ٨٩٤) .

(٣) الوريق : ذو الورق .

(٤) تاق إليه : اشتاق . وفي النسخة (ر) تنوق .

(٥) أنظر تحف العقول ٦ و ١٠ .

الخلق ، ولا ميراث كالأدب ، ولا فائدة كالتوفيق ، ولا نجاة كالعمل الصالح ، ولا ربح كثواب الله ، ولا ورع كالوقوف عند الشبهة ، ولا زهد كالزهد في الحرام ، ولا علم كالتفكّر ، ولا عبادة كأداء الفرائض ، ولا مظاهرة أوفق من المشورة ، واحفظ الرأس وما حوى والبطن وما وعى ، واذكر الموت وطول البلى» .

وذكر بعض الصالحين القرون الماضية والأسلاف الخالية وقال : «تعامل القرن الأوّل فيما بينهم بالدين حتّى رقّ ثوب الدين ، ثمّ تعامل القرن الثاني بالوفاء حتّى ذهب الوفاء ، ثمّ تعامل القرن الثالث بالمروءة حتّى ذهب المروءة ، ثمّ تعامل القرن الرابع بالحياء حتّى ذهب الحياء ، ثمّ صار التعامل بالرغبة والرهبة .

وكتب عمر بن عبد العزيز إلى الحسن[1] أعنّي أصحابك ، فكتب إليه الحسن : أمّا بعد فإنّه من كان من أصحابي يريد الدنيا فلا حاجة لك فيه ، ومن يريد الآخرة فلا حاجة له فيما قِبلك ، ولكن عليك بذوي الأحساب ، فإنّهم إن لم يتّقوا استحيوا ، وإن لم يستحيوا يكرموا .

وقال صاحب المنطق[2] :من لم يستحي من نفسه واستحيا من الناس فلا قدر لنفسه عند نفسه .

وقال : من الحياء ترك التجنّي والبحث عن باطن القلوب .

وقال : الحياء فرع من التخلّف عن الجميل وهو بالأحداث حسن ، وأحسن منه أن لا يفعل ما يستحيا منه وافتقاده عند وجوبه في غاية القبح .

---

(١) بهامش الأصل بخط المصنف : «الظاهر أنه ليس هو الحسن البصري الأول الذي كان في زمن أمير المؤمنين عليه‌السلام ، ويمكن أن يكون حسن البصري الثاني كما نقل أهل السير أنهما كانا اثنين» أقول : هذا الحسن هو البصري المشهور ونقل استمداد عمر بن عبد العزيز منه الزركلي في الأعلام ٢٣٤ عن تهذيب التهذيب . وكان له في أيام أمير المؤمنين عليه‌السلام تسع عشرة سنة .

(٢) هو أرسطو ، المعلم الأول .

وقال : الصبر صبران فأعلاهما أن تصبر عمّا ترجو فيه الغنم في العاقبة . والحلم حلمان فأشرفهما حلمك عمّن دونك والصدق صدقان فأعظمهما صدقك فيما يضرّك . والوفاء وفاءان فأسناهما وفاؤك لمن لا ترجوه ولا تخافه . والحياء حياءان فأولاهما أن لا تفعل ما تستحيي منه .

وقال بعضهم : معنى الحياء من الله حصر القلب عن الإنبساط ، والامتناع من ظنون لا يرضاها الله ، وعلامة المستحيي أن لا يرى في مكان يستحيا من مثله .

وقال : حقيقة الحياء من الله حسن المراقبة في السرّ والعلانية .

وقال : الحياء ينهى عن كلّ ما يحتاج أن يعتذر منه ، وعن كلّ ما إذا غاب علمه عن غيرك أحشمك ذكره في نفسك .

وقيل له : بماذا يأمر الحياء ؟ فقال : يأمر بكلّ ما يحمد في الذرى[1] أثره ، ويطيب عند الكشف خبره .

وكان يقول : لا أزال الحياءَ عن قلوب الأولياء سرورُ الخدمة ، وسلب الحياء عن لسان المذبذبين عذر الخطيئة .

وقال أبو عثمان الخازنيّ : من تكلّم في الحياء ولا يستحي من الله فيما تكلّم منه فهو مستدرج[2] .

ودخل الحسن الحدّاد على عبد الله بن المبارك فقال عبد الله : من أين ؟ فقال : من مجلس أبي القاسم ، قال : فيماذا كان يتكلّم ؟ قال : في الحياء ، قال عبد الله : واعجباه لمن لم يستحي من الله كيف يتكلّم في الحياء ! .

وقال : الحبّ ينطق ، والحياء يسكت ، والخوف يغلق .

---

(١) الذرى بالفتح مقصوراً : الملجأ وكل ما استترت به .
(٢) استدرجه : خدعه . والمستدرج : الخادع .

وأنشد :

ومغض عن معاتبتي حياء ... وإنّ لسانه السيف الصقيل
أطلت عتابه عنتاً وظلماً ... فدمّع ثمّ قال : كما تقول
ينوي العتاب له من قبل رؤيته ... فإن رآه فدمع العين منسكب
لا يستطيع كلاماً حين تبصره ... كلّ اللسان ونار القلب تلتهب

وحدّث أبو القاسم الدمشقيّ قال : كنت واقفاً يوماً على حلقة الشبليّ فجعل يبكي ولا يتكلّم ، فلمّا طال قال رجل : يا أبا بكر ما هذا البكاء كلّه ؟ فأنشأ يقول :

إذا عاتبته أو عاتبوه ... شكا فعلي وعدّد سيّئاتي
أنا من دهره غضب وسخط ... أما أحسنت يوماً في حياتي؟

ثمّ قال : لا وعزّتك ما أحسنت يوماً في حياتي .

فقال بعضهم : أحيوا الحياء بمجالسة من يستحيا منه .

وقال محمّد بن معاذ : دم على الصفاء إن كنت تطمع في الوفاء ، والزم الحياء إن كنت ترغب في العطاء .

وكان عمرو المكّيّ يقول : واحزناه من عهد لم تقم له بوفاء . ومن خلوة لم تصحب بحياء ، ومن مسألة ما الجواب فيها غداً ، ومن أيّام تفنى ويبقى ما كان فيها أبداً .

وكان معروف الكرخيّ يقول : حقيقة الوفاء إفاقة السرّ عن رقدة الغفلات ، وحقيقة الحياء فراغ الهمّ عن فضول الآفات .

وقال محمّد بن الفضل : الحياء يتولّد من النظر إلى إحسان المحسن ، ثمّ من النظر إلى جفائك مع المحسن .

تسيء بنا ليلى ونحسن جهدنا ... فحتّى متى ليلى تسيء ونحسن؟
وإنّي لأستحيي لها من فعالها ... كأنّي في ليلى المسيء المخوّن[1]

---

(١) المخون : الخائن .

ويحكى أنَ معروف الكرخيّ كان خاله والي البلد فدخل معروف يوماً خربة ومعه رغيف وفي الخربة كلب وكان يأكل لقمة ويلقي إلى الكلب لقمة ، فمرّ خاله بباب الخربة مع رجله[1] اوخيله ، فأُخبر بحال معروف فدخل عليه فقال : أما تستحي تؤاكل الكلاب ؟ فالتفت معروف إلى طائر فأتاه الطائر فسقط على يده وغطّى عينيه بجناحيه ، فعجب خاله من حاله وقال : هذا خير ممّا نحن فيه ، ثمّ قال : هبك دعوته فأجابك فما باله غطّى عينيه بجناحيه ؟ فقال معروف : استحييت من الله فاستحيا منّي كلّ شيء .

وهذا من الحياء الّذي يدعو إلى الصدود والإعراض ويحمل على الغضّ والإغماض وقد ذكره الأعرابيّ النميريّ في شعره فقال :

وقد زعم الواشون أن لا أُحبّكم ... بلى وستور اللّه ذات المحارم[2]
أصدّ وما الصدّ الّذي تعلمينه ... عن أنباء إلاّ اجتراع العلاقم[3]
حياء وتقياً، أن تشيع نميمة ... بنا وبكم، أُفّاً لأهل النمائم[4]
وإنّ دماً لو تعلمين جنيتُه ... على الحيّ، جاني مثله غير نائم
أما إنّه لولا الهوى لا عشت له ... صدور القنا بالراغبات اللهازم[5]
ولكنّه واللّه ماطل مسلماً ... كبيض الثنايا واضحات المباسم[6]
إذا هنّ ساقطن الأحاديث للفتى ... سقوط حصى المرجان من كفّ ناظم
رمين فأقصدن القلوب فلا ترى ... ذماماً يرى إلاّ جرى في الحيازم[7]

ومن الحكايات في الغدر والوفاء والقحة[8] لمّا دخل المأمون ببوران بنت

(١) بكسر الجيم : الراجل ، من يمشي على رجليه .
(٢) الستور : جمع الستر ، والواو للقسم .
(٣) العلاقم جمع العلقم : الحنظل ، كل شيء مر .
(٤) التقيا : التقوى .
(٥) القنا : الرمح . اللهازم جمع اللهزمة : العظم الناتىء تحت الأُذن في اللحى .
(٦) المباسم جمع المبسم : الثغر .
(٧) الحيازم جمع الحيزوم : وسط الصدر .
(٨) بكسر القاف مصدر وقح يقح .

الحسن بن سهل قالت : أما عسى[1] ؟ فغنّت :

جعلتك مشتكى حزني ومعتضدي على الزمن
وجدتك خائناً غدراً فيا أسفا على بدني

تريد ما كان من غدر المأمون بالفضل بن سهل ، فقال المأمون : قد كنت عن هذا غنيّاً لولا شقائي .

ويحكى أنّ جعفر بن يحيى ابتاع غلاماً روميّاً فاستخفّ خدمته وتأمّله فرأى فيه خصائل أعجبته فخلا به يوماً فسأله عن كورته من الروم ، وعن اسم أبيه وأمّه وما كان من قصّتهم ، فأخبره الغلام ، فأخبره أنّ أُمّه أخبرته أنّها كانت للملك ، فوهبها لبعض بطارقته[2] فلمّا همّ أن يواقعها أعلمته أنّها حامل من الملك فرفع إلى الملك ذلك فقال له : ويحك إنّ ردّها عليّ لهيّن لولا قالته الناس إنّ هذا الولد عنك ، ولأن يكون عبدك منسوباً إليّ أحبّ من أن يكون عبدي منسوباً إليك .

فوقف جعفر على صحّة خبره وتوسّم فيه فراسة الملوك فاتّخذ له مؤدّبين فبرع حتّى جعله جعفر على خاصّة أُموره وجعله أقرب الخلق من خدمته ، فلم يزل عنده بهذا الرسم إلى أن حلّ بهم ما حلّ .

وقد بلغ الرشيد خبر هذا الغلام ودعا به ورضيه واصطفاه لنفسه ووعده أن يجعله نديماً بدلاً من جعفر وتمكّن منه الغلام تمكّناً شديداً .

وبينا الغلام ذات يوم يسير في موكبه إذ بصر من بعيد بابن الفضل بن يحيى ، وعليه قميص ورداء خلقين ونعل رقيقة ، فلمّا عاينه ابن الفضل حاد عن الطريق ليدخل سكّة ليتوارى فيها إلى أن يجوز الغلام ، ورآه الغلام على تلك الحال متحيّراً ، وفهم أمره ، فرمى بنفسه عن دابّته وعدا مسرعاً إليه وانكبّ عليه يقبّله ويقبّل رأسه وحمله بيده على دابّته الّتي كان عليها ، وأمر غلاماً من غلمانه أن يعدو خلفه فلا يرتجع الدابّة ففعل ، ورجع إليه فأخبره أنّه وجده في حجرة

---

(١) كذا في الأصلين ، ولعل الصواب : أما تغنيني ؟ .
(٢) جمع البطريق : القائد من قواد الروم .

ضيّقة مع والدة له وهما في خلّة وضرّ شديد وسوء حال ، فبكى بكاءً شديداً وأمر بحمل مال كثير إليه مع ذلك الغلام .

فبلغ الخبر الرشيد فدعا الغلام وهو مغضب فقال : نزلت عن دابّتك لبعض ولد أعدائي وفعلت كيت وكيت ؟ فقال : يا أمير المؤمنين أينفعني الصدق ؟ قال : بلى قال : فأقول ؟ قال : قل ما شئت ، قال : قد علم أمير المؤمنين بأنّ جعفر ملكني وأنا عبد جليب ، لا قدر لي إلّا لمثلي من العبيد ، وكان من نعمه عليّ أن صيّرني من الفهم والمعرفة والآداب بحالة بلغت بها خدمتك وأحرزت جميل رأيك ، فلا تلومني[1] على الوفاء لرجل قد أحلّني هذا المحلّ منك أن أنزل له عن بعض دوابّ هو مخوّلنيها .

فقال له الرشيد : كلّا واغرورقت عيناه ثمّ قال : والله لولا أنّا جاوزنا الحدّ في أعقاب هؤلاء القوم لرجعنا لهم إلى ما يحييهم الله به ، فسمّ لي من بقي منهم فسمّى لهم فأمر بحمل مال عظيم إلى كلّ واحد منهم ما بين العشرة آلاف إلى مائتي ألف ، وقال له : أبلغ هؤلاء القوم أنّهم آمنون على أنفسهم وأشعارهم وأبشارهم فينتشروا في أرض الله ويسألوا من فضله .

وبلغ الرشيد أنّ يحيى بن معاذ وجّه إلى منزل يحيى بن خالد بمال سرّاً وأنّه كان يتعهّد أُمور منزله بعد النكبة ويبعث إلى عياله بما احتاجوا إليه من الدقيق والنفقة والكسوة فبعث إليه فأتاه فقال : يا يحيى كيف أنا لك ؟ قال : كالماء البارد العذب للظمآن المورود ، وكالوالد الحدب[2] على الولد المطيع ، قال : فوالله ما شكرت ما أبديت على لسانك قال : وما ذاك يا سيّدي ؟ قال : لِمَ وجّهتَ إلى آل برمك بأموال ينفقونها ، وكسوة يتجمّلون بها وقد قلّمتُ أظفارهم وحذفت أُصولهم وأعريت جلودهم ؟ .

فقال : يا أمير المؤمنين ! إنّ هؤلاء قوم كانوا إليّ محسنين ولي بارّين ولي مكرمين وإنّما أعدّوني ليوم حاجتهم ، فأحببت أن أشكر كثير ما كان منهم بقليل

---

(١) في النسخة (ر) : فتلومني .

(٢) حدب ـ من باب علم ـ عليه : تعطف .

ما كان عندي فوجّهت إلى عيالاتهم بثمن الدقيق وما أشبهه ممّا لو عدموا ماتوا ، فقال : وكيف شكرتُهم يا أمير المؤمنين وما في منزلي علق ولا دابّة ولا مملوك إلّا وهم أوّله وهو لهم دوني ، وحتّى والله إنّ إسحاق ابني من جارية أهداها إليّ الفضل ، وإنّ دابّتي الّتي هي بباب أمير المؤمنين الساعة لمن دوّاب الفضل . والله يا أمير المؤمنين ! لقد بلغ خوفك وإيثار طاعتك أنّي لم أُوجّه إلى أحد من رجالهم بالسلام ولا بعرض حاجة ولا بغيرها ، وما عدوت ببري إيّاهم نساءهم وأطفالهم ومن لا ذنب له ولا حجّة عليه ، رأيي والله يا أمير المؤمنين من الوفاء لعهدهم على هذا بحيث ما من شيء أصبحت أملكه إلّا وبودّي أُوثرهم به ، وما لا أفعله من ذلك لغضب أمير المؤمنين إيثار الغدر على الوفاء والفعل الخسيس على الفعل الجميل ، فقال الرشيد : جزاك عن الوفاء خيراً فقد فعلت ما سررتني به وما كنت أولى به ، فكم صار إليهم من مالك في هذه المدّة ؟ فقال : والله ما أحصيت ذلك ، وما القوم عندي ممّن أُوجب الإحصاء عليهم وإنّ أكثر ما وجّهت إليهم لأموال استلفتها من التجّار .

فقال الرشيد : هذا أعجب أمر بك أحسن الله إليك وأمتع أمير المؤمنين بك .

ولنذكر طرفاً من أحد أمرين[1] في سبب هلاكهم وإدبار الدنيا عنهم على ما ذكره الأديب الكاتب في شرح البسّامة[2] قال ما معناه أنّ الرشيد لمّا استوزر

(١) والأمر الآخر دعاء الإمام أبي الحسن موسى بن جعفر عليهم ، فإنهم كانوا من مبغضي أهل البيت ، والمظهرين لهم العداوة . أنظر ما ذكره في الأغاني (٢٠ : ٦٧) من أنهم لم يعطوا أبان بن عبد الحميد لعدم هجائه آل أبي طالب ، وانظر أيضاً باب حبس الإمام الكاظم من البحار ط تبريز (١٢ : ٢٢٤) وسيذكر أمر آخر في الجزء الثاني الباب السادس .

(٢) البسامة هي قصيدة رائية لابن عبدون المصري المتوفي ٥٢٩ هـ رثى بها بني الأفطس ملوك المغرب ، وذكر فيها الملوك الماضية وأكثر وقائع العالم . شرحها الفاضل ابن بدرون الحضرمي وعدة اخر . وأولها :

الدهر يفجع بعد العين بالأثر ... فما البكاء على الأشباح والصور

أُنظر كشف الظنون (٢ : ١٣٢٩) . وجمع أخبارهم محمد دياب الأتليدي في كتاب أسماه «أعلام الناس بما وقع على البرامكة من بني العباس» راجع اكتفاء القنوع : ٢٩١ .

يحيى بن خالد عظمت مكانته عنده حتّى جعله على حرمه ، وظهر ابناه جعفر والفضل فأحبّهما الرشيد حبّاً شديداً بحيث كان لا يستطيع مفارقة جعفر لذكائه وفطنته وحسن درايته وعقله ، وكانت أُخت الرشيد العبّاسة من الذكاء والفطنة بمكان ، فكان أيضاً لا يستطيع مفارقتها ، فقال لجعفر : إنّي لا أستطيع مفارقتك ومفارقة العبّاسة وإنّي أُريد أن أُنكحكها ليحلّ نظر كلّ منكما إلى صاحبه إذا اجتمعتما عندي ، ولا تعلق نفسك بها ، والحذر الحذر . فقال جعفر : العبد طوع أمر مولاه ، فعقد به عليها فكانا يحضران عنده فيستريح بحضورهما ، لفصاحتهما وذكائهما ، فكان جعفر لا يستطيع النظر إلى العبّاسة هيبة من الخليفة ، فلم يتحقّق صورتها وهي كانت تنظر إلى محاسنه سرّاً حتّى عشقته ، وكانت أمّ جعفر تصلح له في كلّ أُسبوع بكراً ، فأرسلت العبّاسة إلى جعفر تراوده عن نفسه لأنّه صار زوجاً ، فامتنع وقال لرسولها : لا سبيل إلى ذلك لما قاله الخليفة .

فأرسلت العبّاسة إلى أُمّ جعفر وقالت : والله إن لم تدخليني على جعفر لأُخبرنّ أخي بأنّ جعفراً يراودني عن نفسي ويكون ذلك سبب هلاككم ، فأدخلتها عليه وهو يظنّها غيرها من الأزواج اللّاتي كنّ يدخلن عليه على العادة فوطئها ، ولمّا فرغ من حاجته قالت له العبّاسة : كيف ترى كيد بنات الملوك ؟ فبهت وقال : والله هلكت . ثمّ إنّها حملت ووضعت ولداً وأرسل به مع حاضنته إلى مكّة لئلّا يطّلع الرشيد .

وكان يحيى يشدّد على حرم الرشيد فاشتكت به زبيدة إلى الرشيد فلم يجبها الرشيد ، فقالت له : يحيى يشدّد علينا وابنه جعفر قد أحبل العبّاسة وأولدها وأنت في غفلتك ، ففزع الرشيد وقال : أصحيح ذلك ؟ قالت : نعم والولد في مكّة ، هو وحاضنته ، قال : وقد علم ذلك أحد ؟ قالت : جميع من في الدار فكتم الرشيد أمره وآذن بالرحيل إلى مكّة ليكشف حقيقة الأمر ولم يغيّر من خلقه شيئاً على البرامكة ، فلمّا وصل خبره بالوصول إلى مكّة خرجت حاضنة الولد به إلى اليمن فراراً من الرشيد ، فلمّا وصل الرشيد مكّة تيقّن الخبر وهو كاتم أمره ، رجع إلى بعض الطريق .

فطلب ليلة من الليالي بعض خدمه الخواصّ فقال له : إنّي آمرك بأمر فهل أنت منفذ أمري على أيّ وجهه كان ؟ قال : نعم ولو أمرتني بقتل نفسي ، قال : فامض الساعة فأتني برأس جعفر ، والحذر أن تأتيني به حيّاً ، فغصّ الخادم بريقه وبهت ، لما يعلم من مكانة جعفر ، فقال : امضِ ويلك ! وقد استولى عليه غضب الملوك ، فمضى وهو يقدّم رجلاً ويؤخّر أُخرى ، فهجم على جعفر في ساعة مخالفة ففزع جعفر ، فأخبره الخادم فتضرّع جعفر إليه بما أمكنه أن يوصله إليه حيّاً ، فلمّا أحسّ الرشيد بمشي اثنين صاح بالخادم صيحة كادت تتلفه : لئن جئتني به حيّاً لأفعلنّ بك وأفعلنّ ، فضرب رأسه حيث هو وجاء به فلمّا نظر إليه أطرق ساعة ثمّ قال: اطلب لي فلاناً وفلاناً ، فلمّا حضرا أمرهما بضرب رأس الخادم وقال : لا أستطيع النظر إلى قاتل جعفر فضربا رأسه .

ثمّ أرسل إلى بغداد للقبض على يحيى وبقيّة البرامكة وأخذ أموالهم وتخريب دورهم ، فما دارت ثانيةٌ إلاّ وقد صاروا نسياً منسيّاً . فسبحان مزيل النعم ! .

فمن تأمّل حالهم وحسن سيرتهم وكرمهم وأخلاقهم الشريفة علم أنّ الدنيا لا شيء وإنّما هي متاع الغرور أعاذنا الله وإيّاكم من صروفها والله سبحانه أعلم .

وممّا يضاهي ما سبق من الحكايات في حسن الوفاء ما رواه خادم المأمون[1] قال : طلبني المأمون ليلة وقد مضى ثلث الليل ، فقال : اطلب عليّ بن محمّد ودينار الخادم وامضوا إلى آثار خرابات البرامكة فإنّي سمعت أنّ شيخاً يحضر هناك ليلاً فيبكي على البرامكة ويندبهم بشعر كثير ، فاستتروا ببعض جدرانها حتّى تسمعوا منه فاقبضوه وائتوني به ، قال : فمضينا واستترنا كما قال : وإذا شيخ وسيم عليه مهابة قد أقبل فجعل يبكي وينتحب ويقول شعراً :

ولمّا رأيت السيف جلّل جعفراً ... ونادى مناد للخليفة : يا يحيى !
بكيت على الدنيا وأيقنت أنّه ... قصارى الفتى يوماً مفارقة الدنيا

---

(١) رواه في ثمرات الأوراق (٢ : ٢٥٣) وقصص العرب (١ : ٤٨) عن العقد الفريد للملك السعيد : ٨٩ والمحاسن والمساوىء : ١٢٢ .

أجعفر! إن تهلك فربَّ عظيمة كشفت ونعمى قد وصلت بها نعمى[1]

فقل للّذي أبدى ليحيى وجعفر شماتته: إذهب، لشانيكما العقبى

لئن زال غصن الملك عن آل جعفر لما زال حتّى أثمر الغصن واستعلى

وما هي إلاّ دولة بعد دولة تبدّل ذا ملكاً وتعقب ذا بلوى

على أنّها ليست تدوم لأهلها ولو أنّها دامت لكنتم بها أولى

قال الخادم: فظهرنا له وقبضنا عليه فجزع وفزع وقال من أنتم وما تريدون منّي؟ فأخبرناه بقول المأمون، فقال: دعوني أوصي فإنّي لا آمن العطب[2]، فتقدّم إلى بعض الدكاكين فاستفتح وكتب وصيّته ودفعها إلى غلامه ثمّ مضينا به إلى المأمون، فلمّا دخل عليه زجره وقال: من أنت وبما استوجب البرامكة منك أن تفعل ما فعلت؟ فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين للبرامكة عندي أيادي خضرة، أفتأذن لي أن أحدّثك حالي معهم؟ قال: قل، فقال: أنا المنذر بن المغيرة من أولاد الملوك، زالت عنّي نعمتي وركبني ديون احتجت معها إلى بيع مسقط رأسي فأُشير عليَّ بالخروج إلى البرامكة.

فخرجت من دمشق ومعي نيّف وثلاثون امرأة وصبي[3] وصبية فنزلنا ببعض مساجد بغداد فاستخرجت ثويبات كانت معي قد أعددتها لأستمنح بها الناس، فلبستها وخرجت عنهم وهم جياع لا شيء عندهم، أسأل عن دور البرامكة.

فإذا أنا بمسجد مزخرف فيه مائة شيخ بأحسن زينة، فطمعت فيهم ودخلت المسجد وجلست بين أيديهم، وأنا أُقدّم وأؤخّر، والعرق يسيل منّي لأنّها لم تكن صناعتي.

وإذا بخادم يطلب القوم فسرت معهم فدخلنا دار يحيى بن خالد، وإذا يحيى جالس على دكّة في بستان فسلّمنا وهو يعدّنا مائة وواحداً وبين يدي يحيى عشرة من ولده وإذا غلام أمرد قد أقبل من بعض المقاصير[4] وبين يديه خدم مع

(١) النعمى ـ بضم النون ـ: اليد الصالحة.

(٢) العطب بالتحريك: الهلاك.

(٣) في الأصلين «وصبياً» والإصلاح من الثمرات.

(٤) المقصورة: الحجرة من حجر الدار.

كلّ خادم مجمرة فيها كهيئة الفهر[1] من العود مقروناً بمثله من العنبر السلطانيّ ، فوضعوه بين يدي الغلام وجلس إلى جنب يحيى ، فقال يحيى للقاضي : تكلّم وزوّج بنتي عائشة من ابن أختي هذا ففعل ، فنثروا علينا المسك والعنبر وعددنا مائة واثنا عشر فخرج خدم على عددنا مع كلّ خادم صينيّة[2] فضّة فيها ألف دينار شاميّة فوضع بين يدي كلّ منّا صينيّة ، فصبّ القاضي وأصحابه الدنانير في أكمامهم وجعلوا الصواني تحت آباطهم وقاموا .

فبقيت وحدي بين يدي يحيى لم أجسر على أخذ الصينيّة فأوثق الخادم فأخذتها وقمت وكنت ألتفت خشية أن أُمنع من الذهاب ، فأمر يحيى بردّي وسألني ، فقصصت عليه قصّتي فقال لابنه موسى : خذ هذا واحفظه بنفسك ونعمتك ، فأكرمني موسى يومي وليلتي ثمّ العبّاس كذلك ثمّ أحمد كذلك .

فلم أزل في أيديهم عشرة أيّام على أتمّ الأحوال ولم أدر ما حال العيال ، في الأموات هم أم في الأحياء ، فلمّا كان اليوم الحادي عشر جاءني الخادم فقال : قم إلى عيالك بسلام فقلت : واويلاه سلبت الدنانير والصينيّة وأُخرج إلى عيالي هكذا ! فقال الخادم : امش فالّذي ذكرته باق مع غيره فلم يزل يرفع لي الستور حتّى رأيت حجرة كالشمس واستقبلني منها رائحة العود والندّ[3] وإذا الصبيان يتقلّبون في الحرير[4] ، وقد حمل إليّ ألف ألف درهم مبدّرة[5] وعشرة آلاف دينار وقبالتين بضيعتين[6] ، وتلك الصينيّة ودنانيرها ، فبقيت يا أمير المؤمنين مع البرامكة في دورهم ثلاث عشرة سنة كأنّي منهم .

فلمّا نزل بهم ما نزل قصدني عمرو بن مسعدة وألزمني في هاتين الضيعتين من الخراج ما لا يفي دخلهما به ، فلمّا تحامل عليّ الدهر فعلت ما فعلت مكافأة

---

(١) حجر رقيق تسحق به الأدوية .

(٢) الصينية : طبق يتخذ لتقديم الشيء عليه . وفي الأصل «الصبنية» .

(٣) بفتح النون وكسرها : عود يتبخر به .

(٤) في الثمرات : وإذا بصبياني وعيالي يتقلبون .

(٥) أي في البدرة ، وهي وعاء يجعل فيه النقود . وفي الأصل «مبذرة» بالذال .

(٦) بفتح الضاد : العقار ، الأرض المغلة .

لهم على إحسانهم ، فقال المأمون : عليّ بعمرو بن مسعدة ، فلمّا حضر قال له المأمون : كم ألزمت هذا في ضيعتيه ؟ قال : كذا وكذا ، فقال : ردّ عليه كلّ ما أخذته منه والضيعتان له ولعقبه . فعلا نحيب الرجل فطال بكاؤه ، فقال له المأمون : أحسنّا إليك فلمَ تبكي ؟ فقال : يا أمير المؤمنين ! وهذه أيضاً من صنائع البرامكة ، ولولا بكائي في خراباتهم لما اتّصلت بك ، فدمعت عينا المأمون ، وظهر حزنه على القوم وقال : هذا لعمري من صنائعهم فعليهم فابك ، وأيّامهم فاشكر ، ولهم فأوف ، وإحسانهم فاذكر .

إيضاح كان كافور الإخشيديّ[١] والي مصر والشام نائماً في بعض الأيّام فانتبه وطلب جماعة من أصحابه مسرعاً وقال : امضوا إلى عقبة النجّارين واسألوا عن شيخ منجّم أعور كان يقعد هناك فإن كان حيّاً فأحضروه وإلاّ فاسألوا عن أولاده ، فمضوا فوجدوه قد مات وترك بنتين ، إحداهما مزوّجة والأخرى عاتق[٢] ، فرجعوا وأخبروه فاشترى في الحال لكلّ واحدة داراً ، وأعطى كلاًّ منهما كسوة وذهباً كثيراً ، وزوّج العاتق وأجرى لكلّ منهما رزقاً ، وأظهر أنّهما من الحاشية .

فلمّا فرغ من ذلك ضحك ، قال : أتعلمون سبب ذلك ؟ فقالوا : لا ، فقال : مررت بوالدهما المنجّم وأنا في ملك ابن عبّاس الكاتب بحالة رثّة فنظر إليّ واستجلسني وقال : ستصير إلى رجل جليل القدر ، وتبلغ منه أمراً كبيراً ، وتنال خيراً كثيراً ، وطلب منّي شيئاً فأعطيته درهمين لم يكن معي غيرهما ، فرمى بهما وقال : أُبشّرك بعظيم وتعطيني درهمين ثمّ قال : وأزيدك : والله تملك هذا البلد وأكثر منه ، فاذكرني حينئذ ولا يشغلك الملك عنّي ، فعاهدته على ذلك ولم يقبل منّي الدرهمين .

---

(١) كان كافور عبداً اشتراه الأخشيد ملك مصر سنة ٣١٢ هـ فنسب إليه وأعتقه ، وما زالت همته تصعد به حتى ملك مصر سنة ٣٥٥ ، وتوفي بالقاهرة سنة ٢٥٧ . والحكاية له في المستطرف (١ : ٢٠٠ ـ ٢٠١) والعقد الفريد للملك السعيد ص ٨٥ وعنه في قصص العرب (١ ؛ ٣٢٧) .

(٢) الجارية التي لم تتزوج .

ثمّ إنّي شغلت عنه بما تجدّد لي من الولاية ونسيت ذلك ، فلمّا كان اليوم رأيته في النوم وهو يقول : أين الوفاء [لا] تغدر[1] فيغدر بك واستيقظت، وفعلت ما رأيتم .

فاشتهر هذا بمصر فتضاعف الدعاء لوفائه .

تنبيه : في حسن الوفاء حديث السموأل[2] وذلك أنّ امرؤ القيس الكنديّ لمّا قصد قيصر إلى الروم أودع عند السموأل أدراعاً[3] وسلاحاً ، فلمّا مات امرؤ القيس سيّر ملك بني كندة[4] من يطلب ذلك من السموأل ، فامتنع السموأل وقال : لا أدفعه إلاّ إلى مستحقّه ولا أغدر بذمّتي ، ولا أخون أمانتي ، فقصده الملك بعسكره فتحصّن السموأل بحصن كان له فأطاف الملك بالحصن وظفر بولد للسموأل كان خارج الحصن ، ثمّ قال للسموأل : إمّا أن تطلق عليّ السلاح وإمّا قتلت ولدك ، فقال السموأل : اصنع ما شئت فما أنا بغادر ، فذبح ولده وارتحل عن الحصن خائباً ، فلمّا جاء الموسم وحضر ورثة امرىء القيس دفع إليهم أمانتهم . فرأى أنّ رعاية وفائه أحبّ إليه من ولده وبقائه ، فصار يضرب به الأمثال في الوفاء .

أقول : السموأل هذا كان يهوديّاً وهو مع ذلك كان أميناً وفيّاً غير غادر كما سمعت من خبره ، وكونه استأثر قتل ولده لأجل الوفاء بعهده وإيصال الحقّ لأهله ، ونرى في زماننا هذا من أهله الغدر وعدم الوفاء ، وقتل بعضهم بعضاً ،

---

(١) زيادة من النسخة (ر) والمستطرف وقصص العرب .

(٢) هو السموأل بن غريض بن عادياء ، من يهود تيماء ، شاعر جاهلي حكيم ، أشهر شعره لاميته التي مطلعها :

إذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه ... فكل رداء يرتديه جميل

توفي سنة ٦٥ ق هـ وترى ترجمته في الأصمعيات ٨٠ . والخبر في مجمع الأمثال (٢ : ٣٣٦) في أوفى من السموأل ، والمحاسن والأضداد ٥٨ والمستطرف (١ : ٢٠١) وعنه في قصص العرب (١ : ١٦٨) .

(٣) الصواب إما أدرعاً أو دروعاً كما في المستطرف ، فالأدراع جمع لدرع المرأة ، وهو قميصها أو ثوبها الذي تلبسه في بيتها .

(٤) في الأصلين «ملك بن كندة» .

وحسدهم ، وبغض كلّ منهم لآخر ، وحرصهم على هذه الجيفة ، ما لو ذكرت معشار عشره لطال المقال وحصل الملال ، ونرجو من البارىء إصلاح الأحوال إنّه هو الكريم المتعال ، بمحمّد وآله خير آل ولكنّ الغدر وعدم الوفاء من أهل زماننا ليس بعجيب بل الوفاء منهم عجيب .

وأعجب من ذلك ما اتّفق في الصدر الأوّل من شؤم عدم الوفاء قصّة ثعلبة بن حاطب[1] وذلك أنّه جاء يوماً إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله ! ادع الله تعالىٰ أن يرزقني مالاً فقال له النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : أما لك في رسول الله أُسوة حسنة ، والّذي نفسي بيده لو أردت الجبال أن تسير معي ذهباً وفضّة لسارت .

فعاود ثانية وقال : والّذي بعثك بالحقّ نبيّاً لئن رزقني الله مالاً لأُعطينّ كلّ ذي حقّ حقّه وعاهد الله على ذلك ، فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : «اللّهُمَّ ارزق ثعلبة مالاً» .

فاتّخذ غنماً فنمت كالدود ، فكان يصلّي مع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الظهر والعصر فضاقت عليه المدينة فنزل وادياً من أوديتها ونمت غنمه فكان يصلّي مع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم الظهر والعصر وباقي الصلوات في غنمه ، فكثرت غنمه فبعد وكان لا يصلّي مع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلاّ الجمعة ، ثمّ كثرت فتباعد حتّى كان لا يشهد جمعة ولا جماعة .

فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ذات يوم : ما فعل ثعلبة ؟ فقالوا : يا رسول الله ! اتّخذ غنماً ما يسعها واد ، فقال عليه السلام : يا ويح ثعلبة ! .

فنزلت آية الزكاة فبعث النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم رجلين لقبض الزكاة منه ومن غيره فأتياه وقرءا عليه كتاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فلمّا سمعه قال : ما هذه إلاّ جزية ، ما هذه إلاّ أُخت الجزية ، إذهبا إلى غيري ثمّ عودا إليّ ، فذهبا ثمّ رجعا فقال كقوله الأوّل ، ثمّ قال : اذهبا حتّى أرى رأيي ، فلمّا قدما على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال لهما

---

(١) تفصيل الخبر في المستطرف (١ : ٢٠٩) وترى ترجمته والخبر باختصار في الإصابة (١ : ١٩٩ ، برقم ٩٢٨) والإستيعاب (١ : ٣٠٣) وانظر التفاسير ذيل الآية **﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين﴾** سورة التوبة : الآية : ٧٦ .

قبل أن يتكلّما : يا ويح ثعلبة ! .

فأنزل الله عزّ وجلّ : **﴿ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصّدّقنّ﴾**[2] الآيات ، فسمع ثعلبة بذلك فأتى النبيّ ﷺ وسأله أن يقبل منه الصدقة فقال : إنّ الله منعني أن أقبل منك صدقتك ، فجعل ثعلبة يحثو التراب على رأسه ، فقال ﷺ : هذا عملك بنفسك ، قد أمرتك فلم تطعني .

فلمّا قبض ﷺ وجلس أبو بكر مجلسه جاءه ثعلبة وعرض عليه صدقته فلم يقبلها ثمّ أتى عمر في خلافته وعرض عليه قبولها فلم يقبلها . وكذلك عثمان لم يقبلها ، كلّ منهم يقول : لم يقبلها منك رسول الله ﷺ فلا نقبلها ، حتّى مات ثعلبة في خلافة عثمان . فهذه عاقبة من لم يفِ بالميثاق وكيف وسم إلى يوم القيامة بسمة النفاق .

استبصار : فيه من حسن الوفاء ما يروق الأسماع ويحرّك الطباع ، وذلك أنّ العبّاس صاحب شرطة المأمون قال[1] : دخلت يوماً مجلس المأمون ببغداد ، وإذا بين يديه رجل مكبّل بالحديد ، فقال لي : يا عبّاس خذ هذا إليك واستوثق به واحفظه ولا يُفتك ، وبكّر به[2] إليّ ، واحذر عليه كلّ الحذر .

قال العبّاس فدعوت جماعة حملوه ولم يقدر أن يتحرّك فتركته في مجلس أنا فيه ، لما رأيت من تغليظ الوصيّة . فلمّا خلوت به سألته عن قصّته ومن أين هو ، فقال : من دمشق فقلت : جزى الله دمشق وأهلها خيراً فمن أنت من أهلها ؟ فقال : لا ينبغي أن تسألني[3] فقلت له : أتعرف فلاناً ؟ فقال : ومن أين تعرف ذلك الرجل ؟ فقلت[4] : كانت لي معه قصّة فقال : ما أنا ممّن يعرّفك خبره [حتّى تعرّفني قضيّتك معه][5] فقلت :

---

(١) الخبر في المستطرف (١ : ٢٤٠) وثمرات الأوراق (٢ : ٢٦١) وقصص العرب (١ : ٣٠٤) عن المستطرف وعقد الفريد للملك السعيد : ٨١ .

(٢) أي أدخله عليّ بكرة .

(٣) في المراجع مكان هذه الجملة «وعمن تسأل ؟» .

(٤) في الأصلين «فقال» سهواً .

(٥) زيادة من المراجع ليست في الأصلين .

كنت مع بعض الولاة بدمشق فبغى أهله علينا ، وخرجوا عن الطاعة فهرب الوالي وهربت مع جملة أصحابه فمررت بهذا الرجل وهو جالس على باب داره وجماعة يعدون خلفي فقلت له : أغثني أغاثك الله ، فقال : ادخل الدار فدخلت ، فقالت امرأته : ادخل الحجلة فدخلتها ، فدخل القوم يفتّشون الدار حتّى جاءوا الحجلة فصاحت عليهم المرأة ونهرتهم[1] فلم ألبث أن جاء الرجل فقال : لا تخف وقد صرف الله شرّهم ، ثمّ ما زال يعاشرني أحسن معاشرة ، ويطعمني معه ، وأفرد لي مكاناً من داره ، ولم يحوجني إلى شيء ولم يفتر[2] عن تفقّد حالي .

فدمت عنده أربعة أشهر في أتمّ عيش لا أظهر إلى أن سكنت الفتنة ، فقلت له : أتأذن لي في الخروج حتّى أتعرّف حال غلماني فلعلّي أن أقف منهم على خبر ؟ فحلفني لأرجعنّ إليه ، فخرجت فلم أجدهم فعرّفته وقلت له : أُريد الشخوص إلى بغداد فإنّ القافلة بعد ثلاثة أيّام تخرج ، وقد تفضّلت ولك عليّ عهد الله أن لا أنسى هذه اليد عليّ ولأُكافينّك بها مهما استطعت ، وأسألك تتميمه بنفقة وكسوة إلى بغداد ، فقال : خيراً ، ثم قال لغلام له أسود : انعل الفرس الفلانيّ ، وتقدّم إلى من في داره بإعداد السفر ، فقلت : لعلّه يريد ناحية من النواحي ، فمكثوا يومهم إلى الغد في كدّ وتعب ، فلمّا كان يوم خروج القافلة جاءني في السحر وقال : يا فلان ! قم فإنّ القافلة تخرج الساعة وأكره انفرادك عنها ، فقلت في نفسي : كأنّه ما وثق بي فلم يعطني شيئاً ، ثمّ قمت فإذا هو وامرأته يحملان لي خفّين جديدين ورايات معمولة ، وآلة السفر ، ثمّ جاءني بسيف ومنطقة فشدّدها في وسطي ثمّ قدم بغلاً وحمل عليه صندوقين وفوقهما مفرش ودفع إليّ نسخة ما في الصندوقين وفيهما خمسة آلاف درهم ، وقدّم إليّ الفرس الّذي أنعله والغلام الأسود ، وأقبل هو وامرأته يعتذران من التقصير في أمري ، وأنا أتوقّع خبره لأُكافيه ولم يقدر لي ذلك لكثرة شغلي بالخليفة وبالتنقّل معه .

---

(١) نهره : زجره ومنعه .

(٢) من الفتور بمعنى التساهل .

فلمّا سمع كلامي قال : قد أمكنك الله من مجازاته بلا كلفة ، فقلت : كيف ؟ قال : أنا ذلك الرجل ، وإنّما غيّر حالي الّذي تعرفه ما أصابني من المحنة ، ولم يزل يذكر تفاصيل الأسباب حتّى تيقّنت معرفته فلم أتمالك[1] أن قبّلت رأسه ، ثمّ قلت : فما الّذي صيّرك إلى ما أرى ؟ فقال : هاجت بدمشق فتنة مثل تلك الفتنة ، فنسبت إليّ وبعث الخليفة بجيوش أصلحت البلد ، فأُخذت وضربت إلى أن أشرفت على الموت وبُعث بي إلى الخليفة وأمري عنده غليظ وهو قاتلي لا محالة ، وقد أُخرجت من أهلي بلا وصيّة وقد تبعني من غلماني من ينصرف إلى أهلي بخبري وهو نازل عند فلان ، فإن رأيت أن تجعل من مكافأتك لي أن تبعث من يحضره حتّى أُوصيه بما أُريده وأتقدّم إليه بما يكون وصيّة منّي لأهلي ، فإن فعلت ذلك فقد جاوزت حدّ المكافأة .

فقال العبّاس : يصنع الله خيراً ثمّ أحضر حدّاداً فحلّ قيوده وأنكاله وأدخله الحمّام في داره وخلع عليه ، وأحضر غلامه فلمّا رآه بكا وجعل يوصيه ، ثمّ استدعى العبّاس نائبه وقال : عليّ بالفرس الفلانيّ والبغل الفلانيّ والبغلة الفلانيّة حتّى عدّ عشرة ثمّ من الصناديق والكسوة كذا وكذا ، ومن الطعام كذا وكذا وعشرة آلاف دينار وخمسة آلاف درهم ، ثمّ قال لنائبه في الشرطة : خذ هذا واعبر به في حدّ الأنبار .

فقال الرجل : أمري عظيم عند الخليفة وإن احتججت بأنّي هربت بعث في طلبي كلّ من على بابه فأرادوا قتلي .

فقال : انج بنفسك ودعني أُدبّر أمري .

فقال[2] : والله لا أبرح من بغداد حتّى أعلم ما يكون من خبرك فإن احتجت إلى حضوري حضرت ، فقال لصاحبه : إن يكن الأمر كذا فليكن في موضع كذا فإن أنا سلمت إلى غداة غد فأعلمه ، وإن أنا قتلت كنت قد وقيته بنفسي كما وقاني بنفسه وأُنشدك الله لا تذهب من ماله ما قيمته درهم ، وتجتهد

---

(١) أي سلب مني الإختيار .

(٢) في الأصلين : فقلت .

في إخراجه من بغداد ، قال الرجل : فأخذني صاحب الشرطة وصيّرني في مكان أثق به .

وتفرّغ العبّاس لنفسه فاغتسل وتحنّط وتكفّن .

قال العبّاس : فلم أفرغ من صلاة الصبح إلاّ ورسول الخليفة يقول : هات الرجل فقمت إليه ، فقال : أين الرجل ؟ فسكتّ ، فقال : ويحك ! الرجل ؟ فقلت : لا والله ما هرب ولكن اسمع منّي حديثه وقصصت عليه القصّة ، وعرّفته أنّي أُريد مكافأته وقلت : أنا ـ ومولاي أمير المؤمنين ـ بين أمرين : إمّا أن يصفح عنّي فأكون قد وفيت وكافيت ووقيته بنفسي كما وقاني بنفسه ، وإمّا أن يقتلني وقد تحنّطت وهذا كفني .

فلمّا سمع المأمون كلامي قال : لا جزاك الله خيراً إنّه أحسن إليك بلا معرفة وتكافيه بعد المعرفة بهذا لا غير ، هلاّ كنت عرّفتنا خبره فكنّا نكافيه عنك ، ولا نقصّر في وفائك له فقلت : يا أمير المؤمنين ! إنّه هٰهنا وقد حلف أن لا يبرح حتّى يعرف بسلامتي ، فإن احتيج إليه حضر .

فقال المأمون : هذه منّة أعظم من الأُولى، اذهب إليه وطيّب نفسه وائتِ به إليّ لأتولّى مكافأته عنك ، فصرت إليه وخبّرته بذلك ، فقال : الحمد لله الّذي لا يحمد على السرّاء والضرّاء سواه ، ثمّ قام وصلّى ركعتين ثمّ ركب فلمّا مثّل بين يدي المأمون أقبل عليه وأدناه من مجلسه وحدّثه حتّى حضر الغداء ، فأكل معه وخلع عليه وعرض عليه أعمال دمشق فأبى ، فأمر له المأمون بعشرة أفراس مكمّلة وعشرة بغال بآلاتها وعشر بدر[1] وعشرة تخوت[2] وعشرة مماليك بدوابّهم ، ووصى به عامل دمشق وأطلق خراجه وأمره بمكاتبته بأحوال دمشق ، فكانت كتبه تصل إلى المأمون فيقول : يا عبّاس ! هذا كتاب صديقك . انتهى .

ومن عجيب ما اتّفق في الوفاء من الوقائع والغرائب والبدائع أنّ الملك

---

(١) بكسر الباء : جمع البدرة .

(٢) جمع التخت ، وهو هنا : خزانة الثياب . وفي النسخة (ر) «بخوت» أي الجمال البختية .

النعمان بن المنذر كان جعل له يومين[1] يوم بؤس من صادفه فيه قتله وأرداه ، ويوم نعيم من لقيه فيه أحسن إليه وأغناه . واتّفق أن رجلاً من طيّىء[2] خرج لأطفال معه محاويج ما يسدّ به حاجتهم ، فحصل له بعض مطلوبه فصادف الملك المذكور في يوم بؤسه فلمّا رآه الطائيّ أيقن بالهلاك فقال : حيّا الله الملك ! إنّ لي صبية صغاراً وأهلاً جياعاً ، وقد أرقت ماء وجهي في هذه البلغة الحقيرة لهم وقد أقدمني سوء حظّي هذا اليوم العبوس ، وقد قربت من مقرّ الصبية والأهل وهم على شفا[3] ، أتأذن لي في إيصال هذه البلغة وأوصي بهم أهل الحسنى من الحيّ لئلاّ يضيّعوا ، وعليّ عهد الله أن أرجع إلى الملك مساء وأسلّم نفسي بين يديه ، فلمّا سمع النعمان كلامه فتحقّق صدقه رقّ له وقال : لا آذن لك إلاّ أن يضمنك رجل معنا ، فإن لم ترجع قتلناه . وشريك بن عديّ نديم النعمان معه ، فالتفت الطائي إلى شريك وقال له شعراً :

يا شريك بن عديّ ... ما من الموت انهزامي
بل لأطفال صغار ... عدموا طعم الطعام
بين جوع وانتظار ... وافتقار وسقام
يا أخا كلّ كريم ... أنت من قوم كرام

---

(١) ومن خبر اليومين أن النعمان بن المنذر أو المنذر بن ماء السماء ـ على اختلاف ـ كان له نديمان من بني أسد فأغضباه في بعض المنطق فأمر أن يحفر لكل منهما حفيرة بظهر الحيرة ، ثم يجعلا في تابوتين ويدفنا في الحفرتين ففعل ذلك بهما ، ثم ندم على فعله وأمر ببناء الغريين عليهما ، وجعل لنفسه يومين في السنة يجلس فيهما عند الغريين يسمي أحدها يوم نعيم والآخر يوم بؤس ، فأول من يطلع عليه يوم نعيمه يعطيه مائة من الإبل سوداً ، وأول من يطلع عليه يوم بؤسه يعطيه رأس ظربان أسود ثم يأمر به فيذبح ويغذى بدمه الغربان . وانظر للخبر واليومين الأغاني (١٩ : ٨٦ ـ ٨٨) والمحاسن والأضداد للجاحظ : ٦٠ والمستطرف (١ : ١٩٩) وقصص العرب (١ : ١٦٧) وفي الخبر اختلاف كثير .

(٢) هو حنظلة بن أبي النعمان أحد المتعبدين في الجاهلية ، ترجمنا له في طرتنا على شرح شواهد مجمع البيان (١ : ١١٨) وانظر بعض خبره في معجم ما استعجم (رسم دير حنظلة) .

(٣) في المستطرف : على شفا تلف من الطوى .

يا أخا النعمان جد لي بضمان والتزام
ولك الله بأنّي راجع قبل الظلام

فقال شريك للملك : عليّ ضمانه ، فمرّ الطائي مسرعاً فلمّا قرب المساء قال النعمان لشريك : جاء وقتك فتأهّب للقتل ، فقال شريك : هذا شخص قد لاح مقبلاً وأرجو أن يكون الطائيّ فإن لم يكن فأمر الملك ممتثل ، فإذا الطائيّ يشتدّ في عدوه ويقول : خشيت أن ينقضي النهار قبل وصولي فعدوت ثمّ قال : أيّها الملك ! مُر بأمرك فأطرق النعمان ثمّ رفع رأسه وقال : والله ما رأيت أعجب منكما ، أمّا أنت يا طائيّ فما تركت لأحد في الوفاء مقاماً ، وأمّا أنت يا شريك فما تركت لأحد سماحة ، فلا أكون أنا ألأم الثلاثة ، ألا فإنّي قد رفعت يوم بؤسي عن الناس ونقضت عادتي كرامة لوفاء الطائيّ وكرم شريك فقال الطائيّ :

ولقد دعتني للخلاف عشيرتي فعددت قولهمُ من الإضلال
إنّي امرؤ منّي الوفاء خليقة وفعال كلّ مهذّب مفضال

فقال له النعمان : ما حملك على الوفاء وفيه إتلاف نفسك ؟ فقال : ديني ، فمن لا وفاء له لا دين له . فأحسن إليه النعمان ووصله بما أغناه وأعاده إلى أهله .

أقول : قصّة هؤلاء الثلاثة نظير قصّة الدمشقيّ مع العبّاس والخليفة ، وهؤلاء أيضاً ثلاثة فإنّ الدمشقيّ تفضّل على العبّاس من غير معروف سبق ولا إحسان ، وشريك تفضّل على الطائي بالضمان . وكذلك العبّاس كافى صاحبه ببذل روحه وليس فوق الروح من يد ولا إحسان والطائيّ كذلك . فكما أنّ النّعمان أحسن إلى الطائيّ ووصله فكذلك المأمون أحسن إلى الدمشقيّ ونوّله .

واعلم بأنّ النعمان المذكور أمر ببناء الخورنق[1] وهو قصر بناه سنمار البنّاء وتنوق في بنائه ، فلمّا أتمّه سأله النعمان : هل بنيت لغيري مثله ؟ فقال : لا فألقاه من أعلى القصر فوقع قتيلاً ، وكان ذلك حسداً منه لئلاّ يبني لغيره مثله .

---

(١) وقد ذكرنا نبذاً من خبره ص ١٠٣ وانظر خبر هلاك سنمار في الأغاني (٢ : ٣٦) .

فهذا وما أشبهه من أقبح ما يكون من سوء الوفاء حتّى صار مثلاً يضرب به كما قال الشاعر[1] :

جزى بنوه أبا الغيلان عن كبر   وحسن فعل كما يجزى سنمّار

والآيات الكريمة الّتي وردت في القرآن العزيز دالّة على شرف الوفاء ، قال الله تبارك وتعالىٰ : ﴿**يا أيّها الّذين آمنوا أوفوا بالعقود**﴾[2] وقال جلّ من قائل : ﴿**الّذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق**﴾[3] وقال تعالىٰ : ﴿**وأوفوا بعهد الله إذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها وقد جعلتم الله عليكم كفيلاً**﴾[4] وقال سبحانه : ﴿**وأوفوا بالعهد إنّ العهد كان مسؤولاً**﴾[5] فالآيات والروايات متّفقة على وجوب الوفاء بالعهود ولو لم يكن في الوفاء فضيلة إلّا أنّ المتّصف به يعدّ في زمرة الصادقين وينزّه نفسه عن سمة المنافقين فقد سُئِل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عن صفات المنافق فقال[6] : «وإذ عاهد غدر» فالوفاء من شيم النفوس الشريفة والأخلاق الكريمة ، كما أنّ الغدر من شيم النفوس اللئيمة والأخلاق الذميمة جعلنا الله ممّن تخلّق بهذا الخلق السنيّ وجنّبنا ضدّه وهو الغدر الشنيء ، بمحمّد وآله ، ومن نسبح على منواله صلوات الله عليهم أجمعين .

ولنشرع الآن في تتمّة هذا الفصل من ذكر الحياء والوفاء من كلام يحيى البرمكيّ قال : كان الناس يتعيّشون في بسيط الشمس فغربت عنهم ، يعني الدين ، فعاشوا بضوء القمر أعني الوفاء ، ثمّ هاموا في ظلمات البرّ والبحر ، يعني الجهل وقلّة الحياء فلا جرم أعضل الدواء ، وأشكل الداء ، وغلبت الحيرة ، وفقد المرشد ، وقلّ المسترشد ، والله المستعان .

---

(١) هو سليط بن سعيد . ذكره أبو الفرج في الأغاني .
(٢) سورة المائدة ؛ الآية : ١ .
(٣) سورة الرعد ؛ الآية : ٢٠ .
(٤) سورة النحل ؛ الآية : ٩١ .
(٥) سورة الإسراء ؛ الآية : ٣٤ .
(٦) رواه الغزالي (٤ : ١٧٢) .

وقال بعض الخطباء : استحيوا من الله عن مقارفة الذنوب ، ومن المسلمين عمّا تنكره القلوب ، فثمرة الاستحياء من الله النجاة من النار ، وبركة الاستحياء من الناس النجاة من العار وإنّ من قلّ حياؤه صنع ما شاء وذهبت محامده في الهباء ، وطارت مروءته مع العتقاء ، ومقته الناس لهوانه عليهم ، ودام حزنه من احتقاره لديهم ، وكم من محارم صار الحياء حماها ، وكم من حرم أعفّها الحياء دون هواها .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «إنّ زيادة شهوة النساء على الرجال زيادة العشرات على الآحاد ولكنّ الله صانهنّ بزيادة حيائهنّ» .

وقيل للشعبيّ : ما أحسن براعة الإماء ! فقال : تردّد ماءِ الحياء في وجه الحرّة أحسن من ذلك . وأُنشد في مرثية امرأة .

يا نار صدري على ثلاثة درجوا ... امرأة في التراب والمدر[1]
ويا شباب ونعمة مزجا ... بماء ذلك الحياء والخفر

وقال آخر :

يا بدر تمّ بنيشابور مطلعه ... وبحر جود لأهل الفضل مشرعه
سقيت باغي ماء فيه أربعة ... من المياه ، وخير الماء أنفعه :
ماء الحياء وماء الوجه يتبعه ... ماء الشباب وماء الورد يشفعه

وممّا أُنشد في قلّة الحياء :

إذا قلّ ماء الوجه قلّ بهاؤه ... ولا خير في وجه إذا قلّ ماؤه
حياء فاحفظه عليك فإنّما ... يدلّ على فضل الكريم حياؤه

وقال في بعض الخطب : التقوى هي الإمام العادل سيرته والعلم الهادي دلالته . والطاعة ظلّها مديد ، والعبادة ركنها شديد، والشكر جهد كلّ مستبصر ، والصبر مفزع كلّ مستنصر ، والعدل حكم لا يجور ، والحقّ بضاعة لا تبور ،

---

(١) في الأصلين «امرأة أربقت في الترب والمدر» ولا يستقيم عليه الوزن .

وليس شرب الإحسان بوبيل ، ولا على المحسنين من سبيل ، والإيمان لا يسع في العدول عن الحياء ، والمروءة لا تفسح في الإخلال بالوفاء ، والغادر خاسر لدينه غبين ، والخائن ظالم لنفسه مبين ، وما بعد الغدر سوى الوبال وما بعد الحقّ إلاّ الضلال ، وحسب الوفاء فضلاً إجماع الناس على استحسانه ، وكفى بالغدر عيباً إطلاقهم على استهجانه . شعر :

إذا اقتسمت أقاليم المعالي وفضّت بين أخلاق وضاء[1]
فخطّ الاستواء وما يليه لحسن العهد منها والوفاء

ومن خطبة أُخرى : أما تزدادون على الأيّام إلاّ إصراراً على الآثام ؟ أما تنبهون[2] عن المنام اغتراراً بآجال كالأحلام ، تميلون إلى دار المحن[3] مثل الأذن إلى السامر ، وتعطفون على مناخ العين عطف الجفن على الناظر ، فلا حياء من سوء الصنيع ولو لمحة طرف ، ولا روغاً عن عقوق الدين ولو بحرف . ولا اعتدال في باطن امرىء وظاهره ، ولا استواء في غائب أمر وحاضره . وكأنّ الوفاء مقطع حبله ، إن لم يكن الإنصاف محدوداً ظلّه كأنّ العهد لم يحمل إلاّ بالأخلاق ، إن لم تكن الطباع مجبولة إلاّ على الاختلاف . كأنّ الصدق طار به العقاب ، والعهد دون وجوده شبيب الغراب ، كأنّ المعروف أرصد عليه الباب والوفاء أرخى دونه الحجاب .

ذهب التكرّم والوفاء من الورى وتصرّما إلاّ من الأشعار
لم يبق إلاّ حاسد أو شامت أو راغب لا يتّقي من عار

فتعالوا نقف على أطلال الواقفين في ودّهم فهي عافية ، وندمع على ربوع الموفين بعهدهم فهي خواء خالية ، وهلمّوا نناغي حمام الأيك[4] ، شجواً على انقراض الأحرار الأكرمين ونعمل على لحن الأغاني شدواً في مرثية الأفاضل

---

(١) فض : تفرق . الوضاء ـ بكسر الواو ـ جمع الوضيء .
(٢) في الأصلين «تنهون» .
(٣) في الأصلين «دار المحسن» .
(٤) الأيك : الشجر الكثير الملتف .

المحسنين فنبكيهم معولين ، ونندبهم مولـولين .

تعـالين فـانـدبن الـوفـا فهو هـالـك ... وسـاعـدن أمّ الـعهـد فـهـو نـكـول
فـخـلّ عـن الـعـليـاء فـهـو تـعـلّـل ... ودع عنـك ذكـر الفضـل فهـو فضـول

وكان أبو القاسم الدمشقيّ ينشد في علوان جدّه :

قـالت قبيـل الصبـح ليلى : عـرّجـوا ... زمّـوا الـمـطيّ ورحّـلوا الأجـمـالا
وقفـوا على شـرف العـذيب بجمعنـا ... نـبكـي الحـبيـب ونـنـدب الأطـلالا
وصلوا المسير بسكب فيض دمـوعنـا ... وخـذوا الـفـلاة وجـنّـبوا الأمـيـالا
إنّ الـطريـق سـوى الـطريـق سلكـتـم ... فـدعـوا الهـويـنـا واركبـوا الأهـوالا

وكتب عبـد الملك بن صالـح الهاشميّ رقعـة من الحبس ، وسأل الحسين الخادم إيصالها إلى الرشيد وفيها[1] :

أخـلّاي ! بي شجـو وليس بكم شجـو ... وكـلّ امرىء عن شجـو صاحبـه خلو
من أيّ نـواحي الأرض نـرعى عهـودكم ... وأنتم أنـاس مـا لمـرضـاتكـم نحـو
تـزالـون مـا عشتـم علينـا بجـفـوة ... فحبـل الـوفـا بينـي وبينكـم رخـو
فـلا حسـن نـأتـي بـه تـقـبلـونـه ... ولا إن أسـأنـا كـان عنـدكم عفـو

وفي دعـاء بعضهم : اللّهُمّ نفّق سوق الـوفاء فقـد كسدت ، وأصلح قلوب الناس فقد فسدت . ولا تمتني حتّى يبور الجهل كما بار العقل ، ويموت النقص كما مات العلم . لكن عباد الله المخلصين شعارهم الحياء ، ودثارهم الـوفاء ، يستحيـون من الله على صـالـح الأعمـال ويؤدّبـون المسيئين حثّاً بـالأفعـال دون الأقوال . يأخذون أنفسهم بأدوم الأدب لتأديب الناس ، ولا يستأنسون بأحد سوى الله مـع كثرة الإينـاس ، ولا يؤذون أحداً ويحتملون الأذى ، ويشـوفون كـلّ أحد على القذى . يرجعـون إلى الله وقت الامتحان ، ولا ينـزلون عنـد المصائب في مرتع الأحزان ، أولئك لا خـوف عليهم ولا هم يحزنـون ، أولئك الّـذين هداهم الله وأولئك هم المفلحون .

---

(١) والأبيات لأبي العتاهية في الأغاني (٣ : ١٤١) وتمثل بها عبد الملك .

الفصل الخامس عشر

في بيان ما خلقه الله عز وجل في الأنفس من الخوف والرجاء[1]

الاتّقاء على أربع مراتب :

خوف : وهو سوط الله ، يقوّم به الشاردين عن بابه ويسيّرهم على صراط حتّى يستقيم به أمر من كان مغلوباً على رشده بتسكين الهوى ، مصروفاً عن عمله باستعمال الهوينا[2] ومن علامته : طول البكاء وقصر الأمل .

وخشية : وهو سراج القلب ، به يبصر ما فيه من الخير والشرّ ، ولجام العلم يكبح[3] النفس عن الجور والإثم . وعلامتها : دوام المراقبة في السرّ والعلانية ، ولا يكون صدورها إلاّ عن حلم وافر ومعرفة وافية ، كما قال الله تعالى : **﴿إنّما يخشى الله من عباده العلماء﴾**[4] .

---

(١) أنظر في الخوف والرجاء أصول الكافي (٢ : ٦٧ ـ ٧١) ومصباح الشريعة : ٦٠ ـ ٦١ وإحياء العلوم (٤ : ١٤٢ ـ ١٨٩) وإرشاد القلوب : ١٦٧ ـ ١٧٩ وجامع الأخبار : ١١٠ ـ ١١٢ وجامع السعادات (١ : ٢٠٨ ـ ٢٦٠) .

(٢) التؤدة والرفق .

(٣) كبح الدابة ـ من باب منع ـ جذبها باللجام لتقف .

(٤) سورة فاطر ؛ الآية : ٢٨ .

وهيبة : وسلطانها ملك لا يسكن إلّا في كلّ قلب منيب أوّاب ، ولا يلمّ إلّا بساحة كلّ مصلح توّاب حتّى قيل : ما فارقت الهيبة قلباً إلّا خرب . ومن علاماتها : التهجير على باب الغيب وطول الصدى تحت سحاب اللطف واحتراق مواضع الشهوات من النفس .

ورهبة : وهي انصباب إلى وجهة الهرب ؛ بل هي الهرب (رهب وهرب مثل جبذ وجذب) صاحبه يهرب أبداً لتوقّع العقوبة مع مخازي[1] أوصافه ومن أوصافها وعلاماتها : حركة القلب إلى الانقباض من داخل ، وهربه وانزعاجه عن انبساطه حتّى إنّه يكاد أن يبلغ الرهابة في الباطن مع ظهور الكمود والكآبة على الظاهر .

وسئل الشبليّ : لم تصفرّ الشمس عند الغروب ؟ فقال : لأنّها عزلت عن الوصال فاصفرّت من رهبة الزوال وأنشد :

لمّا أجدّوا للرحيل وقرّبوا ... أجمالهم وجفون عيني تدمع
كتبت إليّ على شقائق خدّها ... سطراً من العبرات : ماذا تصنع ؟
فأجبتها بلسان دمع ناطق : ... ما في الحياة مع التفرّق مطمع

ثمّ المشائخ تكلّموا في الخوف على مقدار مقاماتهم :

قال ابن حضرويه : الخائف الّذي تخوفه المخوّفات .

وقال ابن جلا : الخائف الّذي تأمنه المخوّفات . والقولان صحيحان ؛ لأنّ الّذي تخافه المخوّفات هو الّذي غلب عليه الخوف فصار خوفاً كلّه فيخافه كلّ شيء ، كما قيل : «من خاف الله خافه كلّ شيء» والّذي يأمنه المخوّفات من إذا طرقه المخاوف لم يخف منها ، لغيبته عنها بمشاهدة الله ، ومن غاب عن الأشياء غابت الأشياء عنه ، ونظيره حال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في تعرّض الشيطان له في صلاته حتّى أحرقته النار .

وقال أبو القاسم الحليم : كلّ خائف إذا خاف من شيء من الأشياء هرب منه .

---

(١) في النسخة (ر) مجاري .

وقال الثوريّ : الخائف يهرب من ربّه إلى ربّه .

وقال أبو سليمان الدارانيّ : إذا سكن الخوف القلب أحرق الشهوة ، وطرد عنه الغفلة .

وسئل حمدون القصّار[1] عن طريقة الملامة ـ وهو الّذي انتشر منه مذهب الملامة ـ فقال : خوف القدريّة ورجاء المرجئة .

وقال عبد الله الأنكاكيّ : خلق الله القلوب مساكن لذكره ، فصارت مساكن الشهوات . فلا يمحو الشهوات منها إلّا خوف مزعج أو شوق مقلق .

وقال الواسطيّ : إذا ظهر الحقّ على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا خوف ، ومعناه أنّ الخوف والرجاء من بقايا الإحساس بأحكام البشريّة وأوصاف الإنسانيّة ولا يبقى شيء من الآثار إذا ملكت شواهد الحقّ الأسرار .

وقال مرّة أُخرى : الخوف والرجاء حجاب بين الحقّ والعبد . ومعناه أنّ الخائف متطلّع لوقت ثان إمّا في الدنيا وإمّا في الآخرة ، وأبناء الوقت لا يطلع لهم المستقبل ، وحسنات الأبرار سيّئات المقرّبين ، وأنوار الصادقين ظلم في حقّ الصدّيقين .

وقال عمر بن عثمان المكّيّ : العلم قائد والخوف سائق ، والنفس حرون[2] بعد ذلك جموح ، خدّاعة روّاغة ، واحذرها وراعها بسياسة العلم ، وسقها بتهديد الخوف ، لتقطع[3] مفازة الآفات وتصل إلى دار الكرامات .

وقال أبو عليّ الجورجانيّ[4] : ثلاثة أشياء من عقد التوحيد : الخوف والرجاء والمحبّة ، فزيادة الخوف من ترك الذنوب لرؤية الوعيد ، وزيادة الرجاء

---

(١) هو أبو صالح حمدون بن أحمد بن عمارة النيسابوري ، صحب أبا تراب النخشبي ، توفي ٢٧١ هـ . أنظر الطبقات الكبرى (١ : ٧٢) والأعلام : ٢٧٢ .

(٢) أي غير منقادة .

(٣) في الأصلين «لقطع» .

(٤) في النسخة (ر) الخورجاني ، وقد سبق في الجزء الأول ص ٢٩٣ «الجوزجاني» وذكرنا أن في الاحياء «الجوزاني» .

من اكتساب الخير لرؤية الوعد ، وزيادة المحبّة من كثرة الذكر لرؤية المنّة . فالخائف لا يستريح عن الهرب ، والراجي لا يهدي من الطلب ، والمحبّ لا يفتر من ذكر من أحبّ ؛ فالخوف نار ، والرجاء نور ، والمحبّة نور من الأنوار .

وقال ابن السمّاك : خف الله كأنّك لم تطعه وارج الله كأنّك لم تعصه .

[وقال أبو سليمان : إذا سكن القلب الخوف أحرقَ الشهوة وطرد عنه الغفلة][1] .

وقال محمّد بن الفضل : العلم ثلاثة : علم بالله وعلم من الله وعلم مع الله ، العلم بالله هو المعرفة به وبصفاته وما يلمّ به العبد من الشرك والتشبيه ، والعلم من الله علم الشرائع والأحكام والحلال والحرام وسائر ما تضمّنه الكتب السماويّة ، والعلم مع الله هو علم الخوف والرجاء والتوكّل [والرضاء][2] والمحبّة والشوق .

وقال محمّد بن عليّ الحكيم : ملاك القلوب بكمال الخشية ، وملاك النفوس بكمال التقوى .

وسئل هل يخاف المحدّثون[3] سوء العاقبة ؟ قال : يخافون خوف ذهول وقلق يكون كالخطرات ثمّ ينجلي ، فإنّ الله لا يحبّ أن يكدّر عليهم منّته ويغيّر فيهم نعمته .

وقال ذو النون : قلت لعُليم : لمَ سمّيت مجنوناً ؟ فقال : لمّا طال حبسي عنه صرت مجنوناً لخوف فراقه وأنشد عقيب ذلك :

قالوا: جننت، بمن تهوى؟ فقلت لهم: ما لذّة العيش إلّا للمجانين

---

(١) زيادة في الأصل وقد سبق قبيل ذاك .

(٢) بين المعقوفين ليس في النسخة (ر) .

(٣) المحدث ـ بفتح الدال المشددة ـ من يسمع صوت الملك وينكت في قلبه ، ولا يعاينه ولا يراه في نومه ، وهو دون النبي والرسول بمرتبة . أُنظر تفسير البرهان (٣ : ٩٩) ذيل الآية ﴿وما أرسلنا من رسول ولا نبي إلا إذا تمنى ألقى الشيطان في أُمنيته﴾ سورة الحج ؛ الآية : ٥٢ .

لـو أنّ مـا بي على الصخـر لأنخلهـا فـكيـف يحـمله خـلق من الـطيـن[1] ؟

وقيـل لزيـد بن عليّ : يا بن رسـول الله ! أما تـرى فقيـراً يستغني ، وغنيّـاً يفتقر ، وشيخاً يحيى ، وطفـلاً يخترم ، وأحـوالاً هذه سبيلهـا خارجـة عن العادة فكيف ذلك ؟ فقال : يأخذ في كلّ حال لئلاّ يؤمن على حال .

وكان بعض المشائخ يقول : كلّ أحد يخـاف من الخاتمـة وأنا أخـاف من السـابقة ، إنّ الحكم الأزليّ بـاختيارك لا يتغيّـر ، وما كتب عليـك فباحتيـالك لا يتـأخّـر ، كم من ربيـع سـالت أنهـاره ، وتـورّدت أشجـاره ، وتفتّحت أنـواره ، وظهرت ثماره ، فلم يشعر أهله حتّى فاجأته الآفة وأصابته الجائحة[2] ، فأصبحوا على حسرة وأمسوا على قلّة ، قال تعالى[3] : ﴿**أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيـداً كأن لم تغن بـالأمس**﴾ وهكذا كم من إنسـان ظهرت عليـه آثـار السعـادة وأينعت له ثمار الإرادة لم يبرح حتّى خالطت الكدورة صفـاه ، واختلط الكسوف بضياه ، قال الله تعـالى : ﴿**وبدا لهم من الله مـا لم يكونـوا يحتسبون**﴾[4] وقـال تبارك وتعالى : ﴿**قل هل أنبّئكم بالأخسرين أعمالاً الّذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعاً**﴾[5] .

أحـسنـت ظـنّـك بـالأيّـام إذ حـسنـت ولـم تخـف غـبّ مـا يـأتـي بـه القـدر[6]
وسـالمتـك الليـالي فـاغـتـررت بهـا وعنـد صفـو الليـل يحـدث الكـدر

آخر :

ودّع جـيـرانـنـا ولـم يـقـفـوا ولا عـلى ذي صبـابـة عـطفـوا
كـم كـبـد قـطّعـوا بـبـيـنـهـمُ وكـم دمـوع عـليـهـم تـكـف

---

(١) الصخر : الحجر العظيم الصلب . وأنخلها من نخل الدقيق : غربله وأزال نخالته .
(٢) الجائحة : الآفة المهلكة .
(٣) سورة يونس ؛ الآية : ٢٤ .
(٤) سورة الزمر ؛ الآية : ٤٧ .
(٥) سورة الكهف ؛ الآية : ١٠٥ .
(٦) البيتان عند الغزالي (٤ : ١٧٦) .

كأنّهم لم يجاوروك، ولم تغن بهم، والوصال مؤتلف
والدهر إلف والدار جامعة والعيش غضّ والرسل تختلف

ومن حكايات الخائفين ما روى عطا، قال لفاطمة بنت عبد الملك بن مروان زوجة عمر بن عبد العزيز: أخبريني عن عمر، قالت: أفعل ولو كان حيّاً ما فعلت، إنّ عمر كان فرّغ للمسلمين نفسه ولأمورهم ذهنه. وكان إذا أمسى مساء لم يفرغ فيه من حوائج يومه دعا سراجه الّذي كان يسرج له من ماله، ثمّ صلّى ركعتين، ثمّ أقعى واضعاً رأسه على يديه يشهق الشهقة يكاد يتصدّع لها قلبه، وتخرج[1] لها نفسه حتّى يرى الصبح فيصبح صائماً، فدنوت منه [يوماً][2] فقلت له: يا أمير المؤمنين! أيّ شيء كان منك ما كان؟ قال: أجل فعليك شأنك وخلّيني وشأني، فقلت: إنّي أرجو أن أتّعظ، فقال: إذاً أخبرك، إنّي نظرت فوجدتني قد ولّيت أمر هذه الأُمّة أحمرها وأسودها، ثمّ ذكرت الفقير الجائع، والضعيف الضائع والأسير المقهور، وذا المال القليل والعيال الكثير. والقرناء تنال من الجفاء، وأشياء من ذلك في أقاصي البلاد وأطراف الأرض، فعلمت أنّ الله سائلي عنهم وأنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خصيمي فيهم، لا يقبل الله منّي فيهم معذرة، ولا تقوم مع رسول الله حجّة، فرحمت والله بنفسي رحمة دمعت لها عيني، وأُوجع لها قلبي، وحال بين جفني الرقاد فأنا كلّما ازددت ذكراً ازددت خوفاً. اتّعظي أو فدعي.

وعن ابن عبّاس أنّه كان رجل فيمن كان قبلكم عبد الله ثمانين سنة، فأخطأ خطيئة فخاف على نفسه فجاء إلى الغياض فقال: أيّتها الغياض فيك الرمال الكثيرة والأشجار الملتفّة، فهل فيك مكان يواريني من ربّي؟ فأجابته الغياض: والله ما فيّ من نبت ولا شجر إلاّ وله تعالى ملك موكّل به، فكيف أُواريك يا هذا عن الله؟ ثمّ أتى البحر الغزير ماؤه، الكثير حيتانه، قال: هل فيك مكان يواريني عن الله؟ فأجابه ما فيّ شيء إلاّ وله ملك موكّل به فكيف أُواريك عن الله؟ فأتى الجبال وقال مثل ذلك، فأُجيب بجوابه، فأقام يتعبّد

(١) في النسخة (ر) وتحرج.
(٢) زيادة من النسخة (ر).

حتّى حضره الموت فبكى وقال : يا ربّ اقبض روحي في الأرواح ، وجسدي في الأجساد ، ولا تبعثني يوم القيامة .

وأنشد :

فلو أنّا إذا متنا تركنا	لكان الموت راحة كلّ حيّ
ولكنّا إذا متنا بعثنا	ونسأل بعده عن كلّ شيّ

وحدّث ابن السمّاك قال : أتيت البصرة أسأل عن عبّادها الخائفين ، فقيل : هٰهنا أخوان كما تسأل ، فمضينا وانتهينا إلى باب دار أحدهما ، فخرجت عجوز فقال لها من معي : هذا محمّد بن السمّاك وهو متكلّم أهل الكوفة [وهو يحبّ أن يلقاك ، ففتحت الباب فدخلنا على شابّ ناحل الجسم ، غائر العين في موضع مصلّاه ، عليه إزار وخرقة على كتفه ، فسلّمنا عليه فردّ السلام فقال : إنّ صاحبي هذا ابن السمّاك(١) وهو متكلّم أهل الكوفة](٢) فتكلّم بكلمة يسمعها منك فجثا على ركبتيه وقال : إنّ لهذا الخلق غداً مقاماً . فقال ابن السمّاك : بين يدي من ؟ فصاح صيحة وسقط على الأرض وذهب عقله ، فانتظرناه إلى العصر فلم يفق ، فقال صاحبي : قم بنا إلى أخيه فذهبنا إليه فدخلنا على شابّ في مثل حالته عليه إزار وخرقة ، وإذا أثر العبادة عليه أبين من صاحبه ، فقال صاحبي : هذا ابن السمّاك فتكلّم بكلمة يسمعها منك ، فقال بصوت حزين : إنّ لهذا الخلق غداً مقاماً ، فقال ابن السمّاك : بين يدي من ؟ فاضطربت نفسه وخرجت روحه فأقمنا حتّى غسّلناه ودفنّاه .

وحدّث مالك بن دينار قال : خرجت في بعض طرقات البصرة لأعود رجلاً فاستقبلني رجل معه حمل سعف نخيل فقال : يا شيخ ! الطريق ، قال : فألصقت نفسي بالحائط وكان على ذلك الحائط جناح فتقطّر عليّ من الجناح قطرة بلل ، فناديت : يا أهل الدار ! وهذا الماء نظيف ! فأشرفت عليّ جارية سوداء فقالت : يا شيخ ! والله ما استقيناه من بركة ولا نهر ، فقلت : ما هو ؟

---

(١) كذا في الأصل ، والصواب : فقال صاحبي : ان هذا ابن السماك .

(٢) بين المعقوفين زيادة بهامش الأصل بخط المؤلف .

قالت : دمعة امرأة منذ أربعين سنة تبكي خوفاً من الله ، جلست هذه الساعة بقرب هذا الجناح فرأت الناس عادين مارّين ، ففزع قلبها لليوم المجموع والمقام المشهود ، فغلبها الخوف فبكت فأصابك من دموعها ، قلت : من هذه ؟ قالت : رابعة قلت : أُريد الدخول عليها ، فأذنت لي ، فصعدت إليها جالسة باكية قد بدت [من] آثار الدموع أخاديد[1] في خدّيها .

ومثل هذا ما يحكى أنّ ميزاب دار عطاء الخراساني سالت من قطرات دموعه ، وأصابت بعض المارّة فقال : أطاهر أم نجس نغسل ثوبنا منه . فناداه عطا من داخل الدار : أجدّ وأنعم[2] غسلَ ثوبك ، فإنّه ابتلّ من دمعة عبد مرتكب لذنبه عاص لربّه ، وهذا ممّا حضر في الخوف .

وممّا حضر في البكاء من ذلك : سأل محمّد بن صبيح عمرو بن ذرّ أيهما أحبّ إليك : طول الكمد من الخوف أم إرسال الدمعة على الخدّ ؟ فقال ابن ذرّ : انّه إذا أذرف فجرى شفى وسلّى ، فإذا أكمد غضّ فشجا ، فالكمد أحبّ إليّ .

وحدّث أحمد بن سليمان قال : بكيت يوماً لفرقة بعض الإلّاف بين يدي الحسن بن وهب عمّي ، فنهاني بعض من حضر فقال لي عمّي :

ابك فما أنفع ما في البكاء ... لأنّه للحزن تسهيل
وهو إذا أنت تأمّلته ... حزن على الخدّين محلول

وأنشد :

وتمنّيت أن أراك فلمّا رأيتكا
غلبت دهشتي السرور فلم أملك البكا

ثمّ أنشد يقول :

(١) جمع الأخدود : الحفرة المستطيلة .
(٢) أنعم في الأمر : بالغ فيه وأجاد .

بخلت عيني أن تفيض سجوما والحشا اعتاض بالسرور هموما[1]

ورثى لي العذول ممّا بقلبي وقليلاً ترى العذول رحيما

فشفاني بنظرة لا أُبالي أجناناً سكنتها أم جحيما

كيف صبري على المقام بدار لا أرى من هويت فيها مقيما

هذا ما حضر في الخوف والبكاء .

وأمّا الرجاء فهو أيضاً على أربعة أقسام : رجاء على قبول الحسنات ، ورجاء على قبول التوبة من السيّئات ، ورجاء على توقّع التفضّل عن التوازن وخلط الأعمال لعلّ الله يكفّر سيّئاته ولا يحبط حسناته وهو رجاء المؤمنين .

كما قال مطرّف : إنّي لأستلقي بالليل على فراشي فأتدبّر القرآن كلّه فأعرض نفسي على أعمال أهل الجنّة فأرى أعمالهم شديدة : ﴿**كانوا قليلاً من الليل مايهجعون**﴾ ، ﴿**يبيتون لربّهم سجّداً وقياماً**﴾ ،﴿**أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً**﴾ ، ﴿**تتجافى جنوبهم عن المضاجع**﴾[2] فلا أرى صفتي فيهم . ثمّ أعرض نفسي على أعمال أهل النار : ﴿**ما سلككم في سقر قالوا لم نَكُ من المصلّين** ، **وأمّا إن كان من المكذّبين الضالّين**﴾[3] فلا أراني فيهم ثمّ أمرّ بهذه الآية : ﴿**وآخرون اعترفوا بذنوبهم**﴾[4] وأرجو أن أكون أنا وأنتم إخواننا منهم .

ورجاء المغفرة على التمادي في الخطيئات ، وهو رجاء خائب وأمل كاذب . ومن عرف نفسه بالإساءة فحقّه الوجل لا الإخبات ، والخوف لا الرجاء .

وقد أكثر المشائخ في العبارة عن الرجاء فمن جوامعها قول ابن خفيف : الرجاء استبشار بفضله .

---

(١) السجوم جمع السجم ـ بالتحريك ـ الدمع . وفي النسخة (ر) اعتاضت .

(٢) سورة الذاريات ؛ الآية : ١٧ ، سورة الفرقان ؛ الآية : ٦٤ ، سورة الزمر ؛ الآية : ٩ ، سورة السجدة ؛ الآية : ١٦ .

(٣) سورة المدثر ؛ الآيتان : ٤٢ ـ ٤٣ ، سورة الواقعة ؛ الآية : ٩٢ .

(٤) سورة التوبة ؛ الآية : ١٠٣ .

وقيل : هو النظر إلى سعة الرحمة .

وقال ابن أبي الحواريّ : الرجاء قوت الخائفين وروح الراجين ومونس الخائفين .

ومن مناجاة يحيى بن معاذ : إلهي أحلى العطايا في قلبي رجاؤك ، وأعذب الكلام على لساني ثناؤك ، وأحبّ الساعات إليّ ساعة يكون فيها لقاؤك .

وفي بعض مناجاته[1] يكاد رجائي لك مع الذنوب يغلب رجائي لك مع الأعمال لأنّي أجدني أعتمد في الأعمال على الإخلاص كيف أمحضه وأنا بالآفة معروف ، وأجدني في الذنوب أعتمد على عفوك كيف لا تغفرها وأنت بالرحمة موصوف .

وقال : الوعد حقّ الخلق على الله فهو أحقّ من وفى به ، والوعيد حقّه على الخلق فهو أحقّ من عفا .

وقال أبو زيد الزبيديّ : خفت نفسي ورجوت ربّي ، فأنا أُحبّ أن أُفارق من أخاف إلى من أرجو .

وقال أبو عليّ الروذباديّ : الرجاء والخوف كجناحي الطائر إذا استويا استوى الطائر ، فبهما طيرانه ، وإذا نقص أحدهما كان جاذباً يسقط على رأسه ولا يطير ، وإذا ذهب هلك الطائر .

وقال أبو عثمان المغربيّ : من حمل نفسه على الرجاء تعطّل ، ومن حمل نفسه على الخوف قنط ، ولكنّه ينبغي أن يخاف العبد راجياً ويرجو خائفاً .

وقال الأنطاكيّ : من اشتدّ رجاؤه اشتدّ طلبه ، ومن رجا وأساء فإنّما تمنّى واجترى . ومن حسن ظنّه حسن عمله . ومن اشتدّ خوفه اشتدّ هربه . فجعل الرضا غير المسمّى .

---

(١) بهامش الأصل : بخط المؤلف : «هذه المناجاة الثانية أولها يكاد رجائي الخ ، هذه مناجاة لعلي بن الحسين عليه السلام وجدتها في شرح نهج البلاغة» .

وممّا فارق به أحدهما الآخر هو أنّ الرجاء ترجيح وجود المأمول وتقريب حصول المحبوب ، وفي التمنّي لا يغلب وجود ما يتمناه على فقده ، ولا يظهر قربه على بعده ، والرجاء ظنّ والتمنّي شكر لا يترجّح به أحد الجائزين على الآخر ، وكذلك الرجاء يوجب طلب المقصود ببذل المجهود ، والتمنّي كسل وإفلاس ، ويجدي عقباه أياس .

ألا ترى الشاعر عقّب التمنّي باليأس فقال :

منى النفس في الإصعاد لو تستطيعه ... أجلّ ، ولكن ما أقام عسيب[١]
إذا هبّ علويُّ الرياح وجدتني ... كما في العلوّ بأيهنّ نسيب[٢]
وإن مرّ ركب مصعدين فقلبه ... مع الرائحين المصعدين جنيب[٣]

وجميل[٤] جعل التمنّي ممّا يعنّي[٥] فقال :

قامت ترائي لنا والعين ساجمة ... يوم الحيل ، وقتلٌ لي ترائيها
أكثرت ليتاً لو أنّ الليت ينفعني ... ومن منىٰ النفس ما يفني تمنّيها

وجرير جعل الرجاء لمّا خاف تعلّلاً بالمنىٰ فقال[٦] .

وإنّي لمغرور أُعلّل بالمنى ... ليالي أرجو أنّ مالك ماليا
فأنت أنا ما لم يكن لي حاجة ... فإن عرضت أيقنت أن لا أنا ليا[٧]

وأمّا قول سهل بن عبد الله : «الخوف ذكر والرجاء أُنثى» فإنّما يريد تولّد

---

(١) عسيب : جبل في ديار سليم ، يضرب مثلاً فيما يطول بقاؤه ، و «ما» نافية .
(٢) العلوي نسبة شاذة إلى العالية . وفي الأصلين «غلوي» .
(٣) الرائح : الجائي أو الذاهب من الرواح أي العشي ، أو مطلقاً ، وفي الأصلين «الرابحين» قوله «جنيب» أي مستتبع ، وهو خبر لقوله «فقلبه» . وفي الأصلين «حبيب» .
(٤) هو صاحب بثينة ، أحد عشاق العرب المشهورين ، توفي ٨١ هـ . استوفينا ترجمته في طرة شرح شواهد مجمع البيان (٢ : ٢٢٧) .
(٥) عناه تعنية : آذاه وكلفه ما يشق عليه ، وهو يأتي .
(٦) أُنظر ديوانه (٢ : ١٦٨) من قصيدة سبق بيت منها في الجزء الأول ص ٢٩٩ .
(٧) في الديوان : فأنت أبي . أن لا أبا ليا .

حقائق الإيمان منهما ، وليس يريد به انحطاط الرجاء عن درجة الخوف سوى ما بينهما من الفرق في عارض الصفة ، فإنّ الراجي يكون إلى السكون والتواني أميل ، وهما من طباع الإناث ، والخائف يكون في العمل أدأب والدّؤوب من دأب الذكور ، وعلى هذا شاهد قول عمر بن أبي ربيعة[1] :

رأت رجلاً أمّا إذا الشمس عارضت فيضحى ، وأمّا بالعشاء فيحضر
أخا سفر ، جوّاب قفر ، تقاذفت به فلوات ، فهو أشعث أغبر[2]
وأعجبها في عيشها ظلُّ غرفة وريّان ملتفُّ الحدائق أخضر
ووالٍ كفاها كلّ شيء يهمّها وليست لشيء آخر الليل تسهر

واجتماع الخوف والرجاء في النفس على تضادّهما في حال واحدة من قبيل توارد أسبابهما عليها وهو كما يجتمع الإخبات والطمأنينة مع الوجل الّذي هو ضدّهما ، كما قال الله عز وجلّ : **﴿وبشّر المخبتين الّذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم﴾**[3] وعلى هذا قول القائل :

ألا مَن لعين قد نآها حميمها وأرّقها بعد المنام همومها؟
فباتت لها نفسان شتّى هواهما ونفس تعزّيها ونفس تلومها

وقال الفرزدق[4] :

لكلّ امرىء نفسان نفس كريمة ونفس يعاصيها الفتى أو يطيعها
ونفسك من نفسيك تشفع للنّدى إذا قلّ من أخدانهنّ شفيعها[5]

وممّا يحكى في الرجاء وحسن الظنّ بالله ما حدّث ابن مسعود قال : أتت امرأة من الأنصار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بعشرة من الأولاد قالت : يا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ! هؤلاء أولادي هم معك فاغز في سبيل الله ، فجعل رسول

---

(١) أنظر ديوانه ص ٨٦ ـ ٨٧ وخزانة الأدب (٢ : ٤٢٠) .
(٢) قوله «جواب» مبالغة ، من جاب الأرض : قطعها .
(٣) سورة الحج ؛ الآية : ٣٤ .
(٤) أنظر ديوانه (٢ : ٥١٤) والعمدة لابن رشيق (٢ : ٧٩) والصناعتين للعسكري : ٤١٠ .
(٥) الأخدان جمع الخدن بالكسر بمعنى المصاحب ، وفي المراجع : أحرارهن .

الله صلى الله عليه وآله وسلم يقرّبهم ويغزو بهم ، وكانت تسأل عنهم ، حتّى استشهد تسعة منهم ، وكانت بمن مضى منهم أشدّ فرحاً بمن بقي حتّى بقي واحد هو أصغرهم وكان فيه التواء إلى الأفعال وإشفاق إلى الذنوب ، فمرض وأمّه تمرّضه وتحرق عليه إشفاقاً ، قال : يا أمّاه ! إخوتي كانوا خيراً لك منّي ما بكيتي[1] عليهم فما هذا البكاء مع ما فيّ من الزيغ والالتواء ؟ قالت : لذلك أبكي ، قال : يا أمّاه أرأيت لو أسأت إليك وفرّطت في حقّك ، وكانت النار بين يديك تضطرم ، أكنت تطرحيني فيها ؟ قالت : لا ، قال : أما تعلمين أنّ الّذي خلقني أرحم بي ممّن ولدني ؟ ثمّ مات فقال صلى الله عليه وآله وسلم : ابشري فإنّ ابنك قد غفر له بحسن ظنّه بربّه .

وعن عمران بن الحصين قال : كان في عهد النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم شابّ فيه إتراف وتبطيل وكان له أب يزجره فلم ينزجر ، فلمّا فارق الدنيا لم يحزن عليه أبوه، ولم يصلح من تجهيزه ما ينبغي أن يفعله ، فلمّا جنّ عليه الليل رأى ابنه في المنام في قصر على سرير يجلّ حسنها عن الوصف ، وعليه حلل خضر ، ووجهه يتهلّل إشراقاً ، فسأله عن حاله فقال : لمّا بلغت روحي التراقي ندمت على ما سلف منّي ولم أر منك إلّا خيراً ورحمة ، فقدمت على ربّي نادماً مهجوراً سجفوّاً ، تبرّأ منّي ولم يرحمني أقرب الناس منّي سبباً ، وأمسّهم بي نسباً ، فرحمني ربّي ولم يقنطني من رحمته ، فأدخلني هذه الروضة كما ترى .

وعن إبراهيم بن أدهم[2] : قال كنت أنتظر مدّة من الزمان أن يخلو لي المطاف فكانت ليلة ظلماء قد أرخت عزاليها[3] السماء فدخلت في الطواف خالياً وكنت أقول : اللّهمّ اعصمني فسمعت هاتفاً يقول : يا بن آدم كلّكم تسألوني [العصمة][4] فإذا عصمتكم جميعاً فعلى من أرحم ومن أغفر ؟

ودخل المزنيّ[5] على الشافعيّ في مرض وفاته فقال له : كيف أصبحت ؟

---

(١) الياء من إشباع كسرة التاء .

(٢) سبق في الجزء الأول بألفاظ قريبة مما هنا .

(٣) جمع العزلاء : مصب الماء من القربة ونحوها ، إشارة إلى شدة المطر .

(٤) زيادة في الأصل .

(٥) سبق الخبر في الجزء الأول ص ٢٤٢ ـ ٢٤٣ ، وهناك ذكرنا اسم المزني .

قال : أصبحت من الدنيا راحلاً وللشباب مودّعاً وللإخوان مفارقاً ولجزاء عملي ملاقياً ولكأس المنيّة شارباً وعلى الله وارداً ، فلا أدري يصار بي إلى الجنّة فأُهنّأ به أو إلى النار فأُعزّى ثمّ أنشأ يقول :

ولمّا قسا قلبي وضاقت مذاهبي | جعلت رجائي نحو عفوك سلّما
تعاظمني ذنبي فلمّا قرنته | بعفوك ربّي كان عفوك أعظما

آخر :

لا شيء أعظم من جرمي سوى أملي | بحسن عفوك عن جرمي ومن زللي
وإن يكن ذا وذا في القدر قد عظما | فأنت أعظم من جرمي ومن زللي

آخر :

إلهي لك الحمد الّذي أنت أهله | على نعمة ما كنتُ قطّ لها أهلا
أزيدك تقصيراً تزيد تفضّلاً | كأنّي بالتقصير أستوجب الفضلا

واعلم أنّ المتولّد من الرجاء والخوف الفقر إلى الله وقمع النفس عن الشهوات والتلذّذات .

الفصل السادس عشر

يشتمل على ما في الأنفس من أحوال الفقر والجوع[1]

اعلم أنّ الفقر شعار الأنبياء ، وحلية الأولياء . ولكلّ من المشائخ فيه عبارة وإليه إشارة :

قال يحيى بن معاذ : الفقر أن لا تستغني إلّا بالله ، ورسمه رفض الأسباب .

وقال إبراهيم القصّار : الفقر لباس الرضاء .

وقال رويم : الفقر إرسال النفس في أحكام الله .

وقال بشر بن الحارث : أفضل المقامات اعتقاد الصبر على الفقر إلى الفقر .

وقال النوريّ : نعت الفقير السكون عند العدم والإيثار عند الوجود .

وقال أبو سهل الخشّاب لمنصور المغربيّ : فقر وذلّ ؟ فقال : لا ، فقر وعزّ .

وقال ابن خفيف : الفقر عدم الأملاك والخروج من أحكام الصفات .

---

(١) أُنظر في الفقر والزهد أُصول الكافي (٢ : ١٢٨ ـ ١٤١) وجامع السعادات (٢ : ٥٦ ـ ٩٩) وإحياء العلوم (٤ : ١٨٩ ـ ٢٤٣) وإرشاد القلوب : ٢١ ـ ٢٩ و ٢٥٧ ـ ٢٦٦ وجامع الأخبار : ١٢٤ ـ ١٢٥ ومصباح الشريعة : ٢٢ ـ ٢٣ .

وسئل سهل بن عبد الله : متى يستريح الفقير ؟ فقال : إذا لم ير لنفسه غير الوقت الّذي هو فيه .

وقال المرتعش : حقّ الفقير أن لا يجوز رغبته كفايته ، ولا يسبق همّته خطوته ، ولا يصحب حاجته قنيته .

ووقف سائل على الكنانيّ بمكّة ، وكان قد طوى أيّاماً وهو يتلوّى على حصى المسجد فوقف عليه فقال الكنانيّ : ليس العجب منك ، العجب ممّن يعلم أنّي قد طويت ثلاثاً ثمّ يرسلك إليّ .

وقال بعضهم لسائل وقف عليه : يا هذا ! الصناعة واحدة ، والفرق بيننا وبينكم أنّكم قيام ونحن قعود .

ووقف سائل على أبي عبد الله القرشيّ ، فقال له أبو عبد الله : باطننا مثل ظاهركم فلا تغترّوا .

ويحكى أنّه وقف رجل على نصر بن أحمد ملك خراسان ، فسأل فقال نصر : الصناعة واحدة ، ولكنّكم تطلبون باللين وحسن المسّ ، ونحن نطلب بالضرب والحبس .

وسئل أبو بكر المصريّ من الفقير الصادق فقال : الّذي لا يملك ولا يُملك .

وقال ذو النون : دوام الفقير إلى الله مع التخليط أعجب من دوام الصفاء مع العجب .

وكان الجنيد يقول : إذا لقيت الفقير فالقه بالرفق ولا تلقه بالعلم ، فإنّ الرفق يؤنسه والعلم يوحشه ، فقيل : وهل يكون فقير يوحشه العلم ؟ فقال : نعم إذا كان صادقاً في فقره فطرحت عليه علماً ذاب كما يذوب الرصاص في النار .

وحكى الدرّاج قال : فتّشت كنف[1] أستاذي أريد مكحلة فوجدت فيه

---

(١) بكسر الكاف وعاء يجعل فيه متاع التاجر أو الراعي .

قطعة وتحيّرت ، فلمّا جاء قلت : إنّي وجدت في كنفك قطعة قال : قد رأيتها ردّها ، ثمّ قال : خذها واشتر بها شيئاً ، فقلت : ما كان من أمر هذه القطعة بحقّ معبودك ؟ فقال : ما رزقني الله من الدنيا صفراء ولا بيضاء غيرها ، فأردت أن أُوصي بأن تشدّ في كفني ، فأردّها إلى الله تعالى .

وقيل : الفقراء على طبقات :

فقراء الأغنياء وهم السؤّال عند الفاقات ، القانعون بالكفايات ، وهم طُهرة الأغنياءِ ، والّذين جعلهم الله في أموال الأغنياء سبباً .

والطبقة الثانية فقراء الفقراء ، وهم المتحقّقون بالفقر ، المختارون له ، المؤثرون له على الغنى لا يبتذلون في السؤال ، ولا يتعرّضون بالمقال ، يرجون العمر بالميسور من القوت ﴿**يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفّف**﴾[1] وهم من بين محروم حرم السعي في الدنيا ، ومحارف انحرفت عنه الأسباب ، وقانع قنع بما يصل إليه ، ومعترّ[2] رضي بما يعترّ به .

والطبقة الثالثة أغنياء الفقراء وهم الأجواد الأسخياء أهل البذل والعطاء ، لا يستكثرون ولا يدّخرون ، إن منعوا شكروا المانع فصار منعه عطاء ، وإن ضيّق عليهم حمدوا الواسع ، لأنّه هو المحمود فصار ضيقه رجاءً ، وإن أُعطوا بذلوا وآثروا .

وكان بشر يقول : الفقراء ثلاثة : فقير لا يسأل وإن أُعطي لم يأخذ ، فهذا مع الروحانيّين في علّيّين . وفقير لا يسأل وإن أُعطي أخذ فهذا مع المقرّبين في جنّات النعيم[3] وفقير يسأل عند الحاجة ، فهذا مع الصادقين من أصحاب اليمين .

ودفع إلى إبراهيم التميميّ[4] ستّون ألفاً وكان عليه دين وبه حاجات إليها

---

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٧٣ .

(٢) المعتر : الفقير ، المعترض للمعروف من غير أن يسأل .

(٣) في الإحياء : في جنات الفردوس .

(٤) في الاحياء «إبراهيم بن أدهم» وذكر فيه عشرة آلاف درهم .

فردّها فعاتبوه في ذلك فقال : كرهت أن أمحو اسمي من ديوان الفقراء بستّين ألفاً .

وقال بعض العارفين : إذا مال الفقير إلى الأغنياء انحلّت عروته ، وإذا طمع فيهم انقطعت عصمته ، وإذا سكن إليهم ضلّ وأضلّ .

وقال بعض العارفين : كنت ذا ضيعة[1] جليلة ، فأُريد منّي تركها فجال في صدري : من أين المعاش ؟ فإذا قائل : لا أراك تنقطع إليّ أن أُخدمك وليّاً من أوليائي أو أُسخّر لك منافقاً من أعدائي .

وقال بعض المجاورين بمكّة : كانت عندي دراهم أعددتها للإنفاق في سبيل الله تعالى فرأيت ذات ليلة فقيراً يطوف بالكعبة ، حسن الهدي والسمت ، فكنت أتّبع آثار قدميه وأمشي خلفه من حيث لا يشعر ، فلمّا قضى أُسبوعه وقف في الملتزم بين الباب والحجر فسمعت دعاءً خفيفاً ، فأصغيت إليه فإذا هو يقول : جائع كما ترى ، عريان كما ترى ، فما ترى فيما ترى يا من يرى ولا يُرى ، فنظرت فإذا عليه خلقان رثّان لا يكادان يواريانه ، فقلت : ما أجد لتلك الدراهم مصرفاً خيراً من هذا فذهبت إلى رحلي وجئت بها وهو يصلّي بقبّة زمزم فوضعت الدراهم بين يديه على الأرض وقلت : لو أخذتها تنفقها ، فنظر إليها ثم أخذ منها خمسة دراهم فقال : أربعة ثمن مئزرين ودرهم قوت ثلاثة أيّام ولا حاجة في سائرها ، قال : فرأيته في الليلة الثانية وعليه مئزران جديدان ، فهجس في نفسي منه شيء فأخذ بيدي وأطافني معه أُسبوعاً كلّ شوط منها في جوهر من معادن الأرض تتخشخش تحت أقدامنا ذهب وفضّة وياقوت ولؤلؤ وجواهر غيرها ، كلّما نطويها يطوى ذلك عنها فقال : هذا كلّه لنا ونزهد فيها .

وقالوا في الّذي يرزق الفقراء من العطاء أنّه على أربعة أنواع : رفق ومعونة واختبار وبلاء .

والابتلاء ما جاء الفقير من الأسباب قبل الحاجة إليه ، أو جاءه وله غنية

---

(١) في الأصل «ضيقة» .

عنه بمثله ، فهو ابتلاء من الله تعالى لينظر عمله عند ذلك ، وردّه في هذه الحالة ليحكم الله فيه بما يشاء ويحكم صاحبه كيف يشاء من الزهد والنصيحة للخلق فإن أخذه ثمّ أخرجه إلى محتاج فهذا هو زهد الزهد ، وله فيه معاملات من الإيثار ومتابعة السنّة فيما ندبه إليه من أخذه ودفعه إلى من هو أحوج إليه ، ومن أخذه في العلانية مع انكسار النفس عنده وردّه في السرّ إلى الله مع اتّباع النفس الرياء ، والسمعة كبيرة إلاّ على الخاشعين ، فلا يقوم بذلك إلاّ أغنياء الفقراء وعلماء الزهّاد وهو أقصى غاية الاختبار في مثله .

وأمّا الرفق فهو ما يأتي من الرزق عند الحاجة والضرورة فلا يسع العبد ردّ مثله ، ويخاف عليه من ردّه إمّا زوال العقل أو غلبة الطبع أو احتياج إلى مسألة أو دخول مكسب دنيء ، ومن قولهم : «من أُعطي ولم يأخذ سأل ولم يعط» وفي الحديث[1] : «ما المعطي من شبعة بأعظم أجراً من الآخذ عن حاجة» .

وأمّا النوع الرابع منه وهو أن يكون الفقير ذا خلق عظيم يحبّ البذل وإطعام الفقراء ولا يتّسع لذلك حاله ولا يقوم به ذات يده ، فيبعث الله إليه بالعطاء معونة له على أخلاقه ليبلغ به ما أراده ويستمرّ في البذل على ما اعتاده ، وربّما لا يبالي أن يدان مثل هذا على الله لحسن ظنّه به ، وإذا رزقه قضاه ، وإن توفّاه قبل ذلك قدّر له من أدّاه عنه .

وفي الحديث : «لله عباد ينفقون على قدر بضائعهم ، وله عباد ينفقون على قدر حسن ظنّهم» .

ومات بعض السلف فأوصى في ماله أن يفرّق على ثلاث طوائف : الأقوياء والأسخياء والأغنياء ، فقيل : من هؤلاء ؟ فقال : أمّا الأقوياء فهم أهل التوكّل على الله ، وأمّا الأسخياء فهم أهل حسن الظنّ بالله ، وأمّا الأغنياء فهم أهل الانقطاع إلى الله .

وقال بعض الزهّاد : ما أكثر من يظنّ أنّ الفقير هو الّذي لا يملك شيئاً

---

(١) رواه في الاحياء (٤ : ٢٠٨) وجامع السعادات (٢ : ٩٤) برواية : ما المعطي من سعة .

كثيراً ، وهذا فقير من جهة العرف ، وأمّا الفقير الحقيقيّ فهو الّذي شهواته كثيرة وإن كان كثير المال ، كما أنّ الغنيّ الحقيقيّ هو الّذي لا يحتاج إلى شيء وإن كان قليل المال ، أيّ الّذي ذلّل نفسه ، وجمع شهوته[١] ، وأخمد لهب إرادته .

وقد ظنّ قوم أنّ الّذين منعوا[٢] من الشهوات ووصّوا بالزهد في اللّذّات خانوا الناس وخانوا بينهم وبين حظوظهم وحرموهم ما هو لهم وصدّوهم عن محبوباتهم .

وهذا ظنّ خطأ وأيّ مراد ومدّعى في هذا للواصفين والمزهّدين والّذين وصّوا وأشفقوا وردعوا عن الخوض في اللّذات ؟ والله ما كان ذلك منهم إلاّ على طريق النصيحة والشفقة والإنذار والإعذار وأرادوا لعباد الله الراحة فإنّا وجدنا أنفسنا ـ فضلاً عن الغير ـ إذا أكثرنا من الشهوات والملاذّ حصل لنا منها غاية التعب ونهاية النصب، مع قطع النظر عن الحساب الشديد في الآخرة ، وارتكاب المحرّمات في الدنيا وأذى المخلوقات .

حتّى إنّي إذا ذكرت شيئاً من هذه البديهيّات الّتي لا ينكرها عاقل سوى من تشبّه بالحيوانات ، وادّعى المعرفة ببعض ما في نفسه من الوساوس والتمويهات ، ولم يقهر طبعه المجبل على هذه العادات ، نسبني إلى العجز عمّا ينالونه من هذه المزخرفات ، وربّما ظنّ فيما ذكرته أنّه من جملة ما لا تتحمّله الطاقة البشريّة .

وإذا علم السامع من حال هذا الناصح وحسن سلوكه في معاشه وعدم طمعه في أموال الناس وقناعته بأقلّ المجزي[٣] ممّا لا بدّ منه ، وانقطاعه عن أهل الدنيا ، ونظر بعين بصيرة إلى حسن نيّته وإلى ظاهر علانيته ، وترك الحقد والحسد ووسوسة نفسه ، ورؤيتها بعين الكمال علم أنّ ما قلته حقّاً وما تفوّهت به صدقاً .

---

(١) في نسخة (ر) وجمع إخوانه . وكذا كان في الأصل ثم خط عليه المؤلف .
(٢) في النسخة (ر) : متعوا ، بتشديد التاء .
(٣) في النسخة (ر) : باقل المجرى .

اللّهمّ إلّا أن يكون الّذين ظنّوا هذا الظنّ القبيح ـ من كون الزهّاد خانوا الناس ـ إنّما ظنّوا لأنّهم رأوا بعض المتزهّدين راغباً وبعض الناصحين غاشّاً ، وليس العمل على القول المحتال ، ولا على من آثر الغشّ في المقال ، ولكنّ المرجع إلى ما يدلّ على الحقّ ويشهد له العقل ويصحّ فيه البرهان . أترى الحكيم المتّقي غشّ في قوله لأصحابه «اقنعوا بالقوت ، وانفوا عن أنفسكم الحاجة ليكون لكم قربة إلى الله ، لأنّ الله تعالى غير محتاج فكلّما احتجتم أكثر كنتم منه أبعد ، واهربوا من الشرّ والإثم ، واطلبوا من الخير أعمّه وأعظمه وأبقاه وأدومه ، واعرفوا الأبد واطلبوا السرمد ، فإنّ من طلب الأبد ثمّ وجد بقي على الأبد ، ومن طلب الأمد ثمّ وجد فني عن الأمد وحرم الأبد ، وإنّ الحاجة ذلّ والغنى عزّ ، والعزّ ضدّ الذلّ ، فمن طلب العزّ في العاجلة فقد طلب الذلّ وهو لا يدري ، ومن طلب العزّ في الآجلة فقد وجد العزّ وهو لا يدري» .

وفي الحكمة كان يقال : اصبر على الذلّ لتنال العزّ واصبر على الفقر لتنال الغنى . وليس في الحكمة : اصبر على العزّ لتنال الذلّ وعلى الغنى لتصيب الفقر .

وذكر بعضهم أنّ متيّم فارق الغالة[1] بسبب قلّة ذات اليد ورزاءة الحال فكان إذا غنّي له :

أستودع اللّه في بغداد لي قمرا	بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه
ودّعته، وبودّي أن تودّعني	صفو الحياة وأنّي لا أودّعه
وكم تشفّع بي أن لا أفارقه	وللضرورة حال لا تشفّعه

ضرب بنفسه الأرض وتمرّغ في التراب ، وهاج وأزبد ونعر وسعر[2] ، وخرق المرقّعة قطعة قطعة ، ولطم وجهه ألف لطمة ، وهاب رجالٌ من ضبطه ومسكه ، ومن يجسر على الدنوّ منه حتّى يسقط صريعاً ، فيجاء بالكافور وماء الورد ، ومن يقرأ في أذنه آية الكرسيّ ويرقي[3] شراهيا براهيا .

(١) كذا في الأصلين : ولعل الصواب «القالة» بمعنى القول .

(٢) من سعر الفرس ـ من باب علم ـ : عدا عدواً شديداً .

(٣) رقاه وعليه : استعمل الرقية نفعاً له أو ضرراً عليه . وفي الأصلين «يرقو» .

قلت : العجب من هذا كيف لم يمت من سماع هذه الأبيات فإنّها من قصيدة ابن زريق البغداديّ[1] وهي قصيدة بليغة في الرقّة إلى الغاية ، وأخبرني جماعة من الشعراء أنّها ما قرئت على عاشق بعد العصر بصوت حسن إلّا مات . ومطلع القصيدة :

لا تعذليه فإنّ العذل يولعه ... قد قلت حقّاً ولكن ليس يسمعه
تأبى المطامع إلّا أن تجشّمه ... للرزق كدّاً ، وكم ممّن يودّعه
وما مجاهدة الإنسان واصلة ... رزقاً ، ولا دعة الإنسان تقطعه
واللّه قسّم بين الناس رزقهم ... لم يخلق الله مخلوقاً يضيّعه
لكنّهم ملئوا حرصاً فلست ترى ... مسترزقاً وسوى الغايات تقنعه
والحرص في الرزق والأرزاق قد قسمت ... بغيٌ ، ألا إنّ بغي المرء يصرعه

ويذكر بعد هذه الأبيات : «أستودع الله في بغداد لي قمراً» إلى آخر القصيدة ، ولعمري إنّها فريدة . وأمّا إذا غنّي هذا الرجل المذكور سابقاً بهذه الأبيات :

أقول لها والصبح قد لاح نوره ... كما لاح ضوء البارق المتألّق
شبيهك قد وافى وحان افتراقنا ... فهل لك في صوت ورطل مروّق؟
فقالت حياتي في الّذي قد ذكرته ... وإن كنت قد نقّصته بالتفرّق

فهنا ترى فواراً رقى إلى اللّهاة[2] ، وأسفاً قد نقّب القلب ، وفتّت الكبد ، وفتّت الصخر ، وأذاب الحديد ، وهناك ترى أحداق الحاضرين هامية ، ودموعهم منحدرة ، وشهيقهم قد علا رحمة لتوجّده عليه ، ومساعدة لحاله .

وذكر الشيخ جمال الدين [ابن][3] المطهّر الحليّ[4] ـ رحمه الله ـ في

---

(١) هو أبو الحسن علي بن زريق الكاتب ، وقصيدته في إحدى وأربعين بيتاً تراها في ثمرات الأوراق (٢ : ٢١٠ ـ ٢١٣) وانظر كشف الظنون (٢ : ١٣٢٩) .

(٢) اللهاة بفتح اللام : اللحمة المشرفة على الحلق في أقصى سقف الفم .

(٣) الزيادة ليست في الأصلين .

(٤) هو الحسن بن يوسف بن علي المطهر ، الشهير بالعلامة الحلي رحمه الله . أحد كبار العلماء في الإسلام . ولد ٦٤٨ وتوفي ٧٢٦ هـ .

كشكوله قال :

أمّا المتقشّف عند الجهلة المتصنّع بتطويل اللحية والعذبة[1] ، والمتخشّع في أطماره[2] ، المتقارب في خطوه ، يرى الغوغا من أهل بدعته ، الآكلة للمشاهرة[3] . إنّه يصرع عند ذكر الله خشية وشوقاً ، وذكر النار وعذابها خوفاً ، فيرمي نفسه مجنوناً تمرّداً وعيارة وعتواً ، يصفع[4] هذا بيمينه ويلطم هذا بشماله ، ويكسر أنف هذا بكتفه ، ويدقّ ضلع هذا بجملة جسده ، ويبصق على هذا من فضل ما يرغي[5] ويزيد من ريقه ويأكل مال هذا سخراً بحمقه ، ويشرب المسكر مع غلمانه ومرده[6] وتلامذته في ربقته[7] ورقصه وغنائه ، وأشياء لو تقصّيناها في التهتّك لقبح بنا سطرها ، ويقول إذا ذكر الاختلاف في مجلس أو محفل : نحن نتّبع ولا نبتدع ، وليس لنا إلّا التسليم والرضا بكلّ أفعال السلف في جميع أحوالهم .

وممّا يحكى عنهم في الجوع : قيل لبعضهم وقد رئي عليه أثر الجوع والضرّ : لم لا تسأل الناس يطعموك ؟ فقال : عساهم يمنعون فلا يفلحون . وقد بلغني الحديث : «لو صدق السائل ما أفلح من منعه» .

وذكر يحيى بن معاذ الفقر والجوع فقال : لو كانا يباعان لما كان لطلّاب الآخرة أن يشتروا غيرهما .

وقال : لو تشفّعت إلى نفسك الملائكة المقرّبين والأنبياء المرسلين على ترك الهوى لردّتهم أجمعين ، ولو تشفّعت إليها بالجوع لانقادت لك وطاوعتك وأنشد :

---

(١) بالتحريك : ما سدل بين الكتفين من العمامة .

(٢) جمع الطمر ـ بالكسر ـ : الثوب البالي .

(٣) المشاهرة : ما يؤخذ من الأمراء شهراً شهراً .

(٤) صفعه ـ من باب منع ـ ضربه بكفه مبسوطة .

(٥) أرغى البعير : صوت وضجّ غضباً .

(٦) بضم الميم جمع الأمرد .

(٧) بفتح الراء وكسرها : عروة الحبل .

إذا اجتمع الجوع المبرّح والهوى على عاشق لم يلبث الحبّ يذهب

وقال : الجوع نور والشبع نار والشهوة مثل الحطب تلهب النار .

وقال : الجوع للمريدين رياضة ، وللتائبين[1] تجربة ، وللزهّاد سياسة ، وللعارفين مكرمة .

وقال : إنّ الشبع يكنّى «أبا الكفر» والجوع يكنّى «أبا الرحمة» وهو مأخوذ من قول الإمام جعفر الصادق عليه السلام[2] حين سئل : لم أوجب الله الصوم على عباده ؟ فقال : «ليجد الغنيّ ألم الجوع فيعود بالرحمة على الفقير» .

وقيل لحاتم الأصمّ : بما رزقت الحكمة ؟ فقال : بخلاء البطن ، وسخاء النفس ، ومكابدة اللّيل .

وقال شقيق : العبادة حرفة ، وحانوتها الخلوة ، وآلتها الجوع .

وقال بعض الحكماء[3] : إذا امتلأت المعدة نامت الفكرة ، وخرست الحكمة ، وقعدت الأعضاء عن العبادة .

وقيل : الجوع إدام المريدين ، ومدرجة الصدّيقين .

وقيل : البطن بمنزلة الكلب ، فارم إليه ما يقطع كلبه[4] وأهنه بكرمك .

وقال أبو سليمان : لأن أترك من عشائي لقمة أحبّ إليّ من أن أقوم الليل إلى آخره .

وقال أبو علي الرودباديّ : إذا قال الصوفيّ بعد خمسة أيّام : «أنا جائع» فألزموه السوق ، وأمروه بالكسب .

وذكر أبو تراب النخشبيّ قال : تمنّيت خبزاً وبيضاً وأنا في سفر ، فعدلت عن الطريق إلى قرية فتعلّق بي واحد وقال : كان هذا مع اللصوص فبطحوني[5]

---

(١) في النسخة (ر) البائسين .

(٢) أنظر كتاب وسائل الشيعة أول باب الصوم .

(٣) هو لقمان عليه السلام رواه عنه في جامع السعادات (٢ : ٥) وقد مر .

(٤) أي أذاه وشره .

(٥) بطحه ـ من باب منع ـ : ألقاه على وجهه .

وضـربوني سبعين درّة ثمّ عـرفني رجل منهم قـال : هذا أبـو تراب فـاعتذروا إليّ واستحلّوا منّي ، وحملني الرجل إلى منزله فقدّم إليّ خبزاً وبيضاً فقلت لنفسي : كل بعد سبعين درّة .

ودخل أبو تراب هذا مسجد القلزم فلم يعرفـوه ، وأقام أيـاماً لا يخـرج منه فتقـدّم إليه قيّم المسجـد وقال : أكلت اليـوم شيئـاً ؟ قـال : لا ، قـال : أمس ؟ قال : لا ، قال : أوّل من أمس ؟ قال : لا ، قال : مذ كم يوم لم تأكل ؟ قال : منذ سبعة أيّام ، قال : فخـرجت إلى السوق فقلت : الحقـوا رجلاً في المسجـد لم يأكل منذ سبعة أيّام فجاءوا بطعام كثير حتّى استوفى وأخـذ كوز مـاء فشرب ، ثم أخذ ركوته[1] وخرج من المسجد وما كلّم أحداً فظننّا أنّه يتطهّر ويـرجع فـأخذ طـريق الخروج من البلد على طـريق مكّة ، فتبعتـه وقلت له : سـألتك بـالله من أنت ؟ فقال : أبو تراب .

وقال بعضهم : كان أبو إسحاق الشيـرازيّ الصوفيّ الفقيـه على عهدنـا مع عـظم قدره في النـاس يلبس الأطمار ويغبّ[2] في الأكـل ، وكان إذا أراد الأكـل اشترى طعاماً كثيراً ودخل به في بعض مساجد بغـداد وأطلال أبنيتهـا ، ويستوفي منه حاجتـه ، ويترك البـاقي على من أراده هذا كـان دأبه في طعـامه إلى انقضـاء أكله وانتهاء أجله .

وحدّث الجنيد قال : جاءني بعض الناس في يوم جمعـة فقال لي : ابعث معي فقيراً يدخل عليّ سروراً ويأكل معي شيئاً ، فالتفتّ فإذا أنا بفقير شهدت فيه الفاقة فدعوته وقلت له : امض مع هذا الشيخ وأدخل عليـه سروراً ، فمضى ولم ألبث أن جاء الرجل وقال : يا أبا القاسم لم يأكل ذلك الفقير إلّا لقمة حتّى خرج فقال : لعلّك قلت كلمة جفاء ، قال : لم أقل ، فالتفتّ فـإذا أنا بـالفقير جـالس فقلت : لمَ لم تتمّ له سروره ؟ فقال : يا سيّدي خرجت من الكوفة وقدمت بغداد ولم آكل شيئاً وكرهت أن يبدو سوء أدب منّي من جهة الفاقة في حضرتك ، فلمّا

---

(١) بالفتح ، إناء من جلد يشرب فيه الماء .
(٢) أي يأكل يوماً ويوماً لا .

دعوتني سررت إذ جرى ذلك ابتداء منك فمضيت وأنا لا أرضى له الجنان ، فلمّا جلست على مائدته ولم آكل سوى لقمة وقال : كل هـذا أحبّ إليَّ من عشرة آلاف درهم ، فعلمت أنّه دنيء الهمّة ، فقال الجنيد : ألم أقل إنّك أسأت الأدب ؟

قال بعضهم : وحدّثني الفقيه نعمة الله من أصحابنا المختلفة للفقه في مدرسة الشيخ ريحان البربريّ قال : كان في بعض أبناء البلد من القوم الماورديّة الّذين يسكنون بعض مجالس طاهر آباد وليمة ، وكان بعض الفقراء أصابته مخمصة فدخل الدار مع الداخلين فصوّب ربّ الدار وصعّد[1] نظره فيه ، وقال : أما ما أنت من القوم فقال : أنا الّذي لا آكل طعامك وأموت ولا آكل الخبز مقتاً لك وتذمّماً من سوء فعلي في مباسطة مثلك ، وخرج من داره وجهدوا به فلم يرجع ، وعاش ما عاش سنين كثيرة من غير أن يطعم لقمة خبز وكان يتعلّل ببعض الألبان والفواكه .

قال الشاعر :

إذا لم أزر إلّا لأكل أكلته فلا رفعت كفّي إليّ طعامي
فلا أكلة إن نلتها بغنيمة ولا جوعة إن جعتها بغرام

وحكى أحمد بن أبي الحواريّ قال : رأيت راهباً في زيّ خزيلة[2] فقال : إنّا نجد في كتبنا أنّ بدن ابن آدم خلق من الأرض وروحه من الملكوت ، فإذا نعّم بدنه وأطعمه وأسقاه ونوّمه أخلد إلى الّذي منه خلق ، فلم يكن إليه شيء أحبّ من الدنيا ، وإذا أجاعها وأظمأها وأسهرها وأتعبها نازعت الروح إلى الموضع الّذي خلقت منه ، ولم يكن شيء أحبّ إليها من ملكوت السماء .

قال أحمد : فحدّثت به أبا سليمان الدارانيّ فأعجبه وقال : ألهمهم الله الفهم يصفون به .

---

(١) صوب رأسه : خفضه . صعد فيه النظر : تأمله ناظراً إلى أعلاه وأسفله .
(٢) كذا في الأصلين ، وأظن أن الصحيح «ذي خزيلة» وأنه اسم مكان ، مثل «ذو أبان» و «ذو الحليفة» .

وروى الواقديّ قال : قيل لأمّ أيّوب[1] : أيّ الطعام كان أحبّ إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقد عرفتم ذلك بمقامه عندكم ، قالت : ما رأيته أمر بطعام يصنع له يعيبه ولا رأيناه أُتي بطعام فعابه قطّ وكان يجتزىء بالقلعة ، أي بالقليل .

وممّا أُنشد في الفقر والإملاق قول البحتريّ :

متحيّر يغدو ويعزم قائم ... في كلّ نازلة وجدّ قاعد
فقر كفقر الأنبياء وغربة ... وصبابة ليس البلاء بواحد
إنّ العقيليّ لا يلقى له شبهاً ... ولو سريت لتلقاه على العيس
بينا تردّه عليه الخزّ متّكئاً ... إذ مرّ يهدج في بعض الكرابيس[2]
وقد تكنّفه غرّامه زمراً ... أشباه جنّ عكوف حول إبليس
إذا المفاليس يوماً حاربوا ملكاً ... سار العقيليّ منهم في كراريس[3]
قد باع مقبرة لؤماً فليس له ... إن مات من موضع غير النواويس[4]

وممّا يستحسن لفظه من الكلمات البليغة من الإنشاءات في فضل الفقر فقرات ذكرتها في ديباجة الاثنى عشريّة ، قد بلغت في المواعظ الغاية القصوى وهي هذه :

«الفقير خفيف الظهر من كلّ حقّ منفكّ الرقبة من كل رقّ . محذوف في الضيافات حذف التنوين في الإضافات ، لا يلزمه أداء الزكوات ، ولا يتوجّه عليه مواجب النائبات . ولا يستطيعه إخوانه ، ولا يطمع فيه جيرانه . ولا ينتظر في الفطر صدقته ، ولا في النحر أُضحيّته ولا في شهر رمضان فائدته . ولا في الربيع باكورته[5] ، ولا في الخريف فاكهته وبُرّه ، ولا في وقت الجباية خراجه وعشره . وإنّما هو مسجديٌّ يحمل إليه ولا يحمل عليه ، وعلويّ يأخذ بيديه ،

---

(١) هي زوج أبي أيوب الأنصاري ، الذي نزل عليه الرسول صلى الله عليه وآله وسلم حين ورد المدينة . ترجم لها في الإصابة (٤ : ٤١٧) والإستيعاب (٤ : ٣١٣) . وفي الأصلين «فقال عرفتم» .
(٢) هدج ـ من باب ضرب ـ : مشى مشية الشيخ ، مشى في ارتعاش .
(٣) المفاليس . مفلس والكراريس جمع الكراسة بتشديد الراء الجزء من الكتاب .
(٤) النواويس جمع الناووس : مقبرة النصارى .
(٥) بهامش الأصل : الباكورة أول الفاكهة . صحاح .

ولا يؤخذ من يديه . يتجنّبه الشرط[1] نهاراً ، ويتوقّاه العسس ليلاً . فهو إمّا غانم وإمّا سالم .

وأمّا الغنيّ فإنّما هو كالغنم السائمة ، غنيمة كلّ يد سالبة ، وصيد كلّ نفس طالبة ، وطبق موضوع على شوارع النوائب ، وعلم منصوب في مدرجة المطالب . يطمع فيه الإخوان ، ويأخذ منه السلطان ، ويتطرّقه الحدثان ، ويتحيّف ماله النقصان» .

إلى غير ذلك من الألفاظ البديعة والمواعظ المستحسنة الرفيعة . فمن أرادها فليقف عليها .

وقيل : يأمل ذا الغنى فما أدوم نصبه ، وأقل راحته ، وأخسر من ماله حظّه ، وأشدّ من الأيّام حذره ! قد بعث عليه الغنى من سلطانه العنت ، ومن أكفائه الحسد ، ومن أعدائه البغي ، ومن ذوي الحقوق الذمّ ، ومن الولد السأمة وتمنّي الفراق .

وأُنشد :

دليلك أنّ الفقر خير من الغنى ... وأنّ عديم المال خير من المثري
لقاؤك مخلوقاً عصى اللّه للغنى ... ولم تر مخلوقاً عصى اللّه للفقر

وممّا يسلّي عن الغنى ويؤنس محادث الفقر ما حكى [أحد] تجّار المدينة قال : كنت أختلف إلى الإمام جعفر الصادق عليه السلام وكنت له خليطاً ، وكان يعرفني بحسن الحال ، فتغيّرت حالي وذهب مالي فأتيته يوماً فجعلت أشكر الله فرقّ لي وأنشأ يقول :

ولا تجزع وإن أعسرت يوماً ... فكم أيسرت في الدهر الطويل
ولا تيأس، فإنّ اليأس كفر ... لعلّ اللّه يغني عن قليل
ولا تظنن بربّك ظنّ سوء ... فإنّ اللّه أولى بالجميل

(١) بضم الشين وفتح الراء جمع الشرطي ـ بضم الشين ـ رؤساء الضابطة ورجالها .

ولمّا قبض عليّ بن يعقوب الفارسيّ بفرغانة أدخلوه في سرداب فمات فيه ، فلمّا أتى على ذلك أيّام فتحوا الباب ، ودخل إليه كاتب إسحاق بن مالك فوجدوه ميّتاً وعلى الحائط مكتوباً بخطّه :

ثلاثين حولاً عشت عيشة نائم ... وإن ناب دهر بالّذي أنت كاره
فلا تجزعن وأصبر لها النفس جاهداً ... فقد يهزل المهر الّذي كان فاره

وإذا تحلّت الأنفس بالفقر والجوع انتفى عنها الحرص وطول الأمل ، وتجلّت بالطاعات وحسن العمل .

الفصل السابع عشر

يشتمل على ما في الأنفس من دواعي الحرص وما ركب فيها من أسباب الأمل[1]

روى كعب بن مالك عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال[2] : «ما ذئبان جائعان أرسلتهما في غنم بأفسد لها من حرص المرء على المال والسرف لدينه» إنّما كان كذلك إذا أفرط الحرص ، لأنّ الحرص على الدنيا يورث سخط حكم الله ، والحرص المفرط في الدين يطمس العمل ويقطع الفرض ، وقد نهى الله تعالى رسوله عنه فقال[3] : **﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾** وقال[4] : **﴿إن تحرص على هداهم فإنّ الله لا يهدي من يضلّ﴾** وقال عزّ وعلا[5] : **﴿إنّك لا تهدي من أحببت ولكنّ الله يهدي من يشاء﴾** وقال تعالى[6] : **﴿ ولو شاء لجمعهم**

---

(١) وانظر في الحرص أُصول الكافي (٢ : ٣١٥ ـ ٣٢٠) وجامع السعادات (٢ : ٩٩ ـ ١٠٣) وإحياء العلوم (٣ : ٢٣٧ ـ ٢٤٣) ومجموعة ورام (١ : ١٦٢ ـ ١٧٠) وفي طول الأمل جامع السعادات (٣ : ٣٢ ـ ٤٠) والاحياء (٤ : ٤٥٢ ـ ٤٥٩) ومجموعة ورام (١ : ٢٧١ ـ ٢٧٩) .

(٢) بألفاظ مختلفة في الكافي عن الباقر والصادق عليهما السلام . وانظر جامع السعادات (٢ : ٤٦) .

(٣) سورة يوسف ؛ الآية : ١٠٣ .

(٤) سورة النحل ؛ الآية : ٣٧ .

(٥) سورة القصص ؛ الآية : ٥٦ .

(٦) سورة الأنعام ؛ الآية : ٣٥ .

على الهدى فلا تكوننّ من الجاهلين﴾ أي لا تشاء غير ما يشاء الله .

فلم تزل هذه الآية تزجر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عن التحارص في الدين إلّا أن يكون بمقدار مراقبة أمر الله ومشيّاته في كلّ شيء حتّى استقام على أقصى نهايات القربة فأثنى الله تعالى عليه بقوله[1] : ﴿وإنّك لعلى خلق عظيم﴾ فسئلت عائشة عن خلقه صلى الله عليه وآله وسلم فقالت : كان يرضى برضاء الله ويسخط بسخطه ، أي لم يبق له مشيّة .

حتّى بلغ من استقامته فيه أنّه لمّا أراد الله أن يتوفّاه جاء إليه جبرائيل عليه السلام فقال : إنّ ربّك يخيّرك بين لقائه وبين الخلد ، فقال : «لا أختار حتّى يختار لي ربّي» وهذا غاية رفض المشيّة لم يحمله الشوق إلى ربّه على اختيار اللقاء ، ولم يحمله الكوْن بين الأُمّة في خالص العبوديّة ومحض الطاعة وهداية الخلق على اختيار البقاء ، فألقى الاختيار إلى ربّه ، فعاد جبرائيل عليه السلام فقال : يا محمّد ! إنّ ربّك يختار لك لقاءه ، فقال : تقوم يا ملك الموت ، فما زال يقول : لقاء ربّي حتّى خرجت نفسه .

فإذاً ينبغي أن يكون الحرص موثوقاً بالرضا والتفويض لا مرفوضاً في أصل الخلقة حتّى يكون الحرص على الدنيا في وثاق القناعة والحرص على الدين في وثاق مراقبة المشيّة [والتقدير][2] ، فإذا أتى شيء من الدنيا من حلّ في غير طمع ولا إشراف نفس حقّ قبوله وحمد الله عليه ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لبعض أصحابه[3] : «ما أتاك من هذا المال من غير مسألة ولا إشراف نفس فخذه فإنّما هو رزق ساقه الله إليك» .

والحرص في الدين إذا أفرط غلب وسلب ما أعطاه من التوفيق كما قال صلى الله عليه وآله وسلم : «الدين يسرٌ ، ولن يشاد الدين إلّا غلب فسدّدوا وقاربوا» فهذا

---

(١) سورة القلم ؛ الآية : ٤ .

(٢) ليس في النسخة (ر) .

(٣) رواه بلفظ قريب مما هنا في الإحياء (٤ : ٢٠٧ و٢٠٨) في بيان آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال ، وجامع السعادات (٢ : ٩٤) . وبهامش الأصل بخط المصنف : «وكان الصحابي عمر» .

الإفراط فيه مرغوب عنه . وأمّا أصل الحرص فيه من أعمال الأركان في فعل الخيرات ، والمصابرة على الطاعات ، والترقّي إلى معالي الدرجات . كما أنّ غلبته كالنّار الّتي تأكل ما تمرّ به حتّى تأكل نفسها إن لم تجد ما تأكله ورمى بصاحبه عن[1] حالق في الدنيا بعد أمل وفي الدين طول عجب .

وبلغ أمير المؤمنين[2] عليّاً عليه السلام أنّ شريحاً اشترى داراً بثمانين ألف درهم فدعاه وقال : يا شريح بلغني أنّك اشتريت داراً وكتبت كتاباً وأشهدت عدولاً ؟ قال شريح : قد كان ذلك يا أمير المؤمنين ، فقال عليّ عليه السلام : يا طويل الأمل ، شديد الحرص ، عظيم الغفلة ! إنّه والله يأتيك من لا يستأذن من حجّابك ، ولا ينظر في كتابك ، ولا يسأل عن عفّتك ، حتّى يخرجك منها شاخصاً ، ويسلمك على كرهك إلى قبرك خالياً ، فانظر ـ رحمك الله ـ أن لا تكون اشتريت هذه الدار من وارث ورث ، عساها تبقى لك كما بقي لغيرك ، هلاّ إذا اشتريت كتبت الكتاب على هذه النسخة :

«بسم الله الرحمن الرحيم . هذا ما اشترى العبد الذليل من ميّت أُزعج بالرحيل ، اشترى منه داراً من دور الغرور من الجانب الفاني نحوه عسكر الهالكين ، وتجمع لهذه الدار حدود أربع : الحدّ الأوّل منها ينتهي إلى دواعي الآفات ، والحدّ الثاني منها ينتهي إلى دواعي العاهات ، والحدّ الثالث ينتهي إلى ضروب المصيبات ، والحدّ الرابع إلى الهوى المردي والشيطان المغوي ، ومنه يشرع باب هذه الدار . اشترى هذا المغبون المغرور بالأمل من هذا المزعج بالأجل ، جميع هذه الدار بالخروج عن عزّ القنوع ، والدخول في ذلّ الطمع ، فما أدرك هذا المشتري فيما اشترى من درك فعلى مبلي أجسام الملوك وسالب نفوس الجبابرة مثل كسرى وقيصر وتبّع وحمير شهد على ذلك صدق العقل إذا أفلت من أسر الهوى ، ونظر بعين الزوال إلى الدنيا» .

---

(١) في الأصلين «عن خالق» .

(٢) أنظر ما بمعناه في شرح ديوانه للميبدي ص ٤٤٧ ـ ٤٤٨ في شرح قصيدة كتبها عليه السلام بآخر كتابه هذا ، ومنها :

أموالنا لذوي الميراث نجمعها ... ودورنا لخراب الدهر نبنيها

ومن كلام عليّ عليه السلام : «تجنّبوا المنى فإنّها تذهب ببهجة نعم الله عندكم ، وتصغّر مواهب الله الّتي رزقتم» .

ومن كلام بعض الخلفاء : اعملوا لله رغبة أو رهبة فإنّكم نبات نعمته وحصيد نقمته ، ولا تغرس لكم الآمال إلّا ما يجتنيه الآجال . وأقلّوا الحرص فيما يورث العطب فكلّما تجرعه العاجلة تقلعه الآجلة ، واحذروا الجديدين فإنّهما يكرّان عليكم باقتسام النفوس وهدم المأسوس .

ومن كلام بعض الحكماء : لا تجاهد الطلب جهاد الغالب ، ولا تتّكل على القدر اتّكال المستسلم فإنّ ابتغاء الفضل منّة وإجمال الطلب عفّة ، وليست العفّة بدافعة رزقاً ولا الحرص بجالب فضلاً ، والرزق مقدور والأجل مرقوب ، وفي استعمال الحرص اكتساب المآثم .

وقال آخر : انتقم من الحرص بالقناعة كما تقتصّ من العدوّ بالقصاص ، ولا يكون لغير الله عبد ما وجد من العبوديّة بدّاً .

من بنده نباشم اندازدار (؟) مرا   مادرنه براي بندگى زادمرا

وفي كلام يوسف بن عمر الثقفيّ : كم من مؤمّل أملاً لا يبلغه ؛ وجامع ما لا يأكله ومانع ما سوف يتركه ، ولعلّه من باطل جمعه ، ومن حقّ منعه ، أصابه حراماً وورّثه عدوّاً ، واحتمل مرّه ، وباء بوزره ، وورد على ربّه آسفاً لاهفاً ، خسر الدنيا والآخرة .

وقال قتيبة بن مسلم : إنّ الحريص ليعجّل الذلّة قبل إدراك البغية .

وقال رجل لبعض الصالحين : أنا خارج إلى بغداد فهل لك من حاجة ؟ فقال : ما أُحبّ أن أبسط أملي حتّى تذهب إلى بغداد وتجيء .

وكان البوشنجيّ في دعوة مع أصحابه فمدّ صوفيّ يده إلى جام فيه خبيص[1] نحو الصومعة من السكر ، فقال له البوشنجيّ : ارفق قليلاً حتّى تبلغ

---

(١) الخبيص والخبيصة : الحلواء .

من ناحيتك إليها فقال الصوفيّ : أيّها الشيخ ! أملي أقصر من أن أُحدّث نفسي ببلوغ ذلك المكان ، فبكى قوم من لفظه وضحك قوم من ملحه .

وممّا يشبه ذلك أنّ بدويّاً رأُوه يوماً من أيّام شهر رمضان يأكل رطباً فقالوا له : لم لا تصوم ؟ فأجاب : إنّ الله تعالى يقول في كتابه العزيز[1] : **﴿كلوا من ثمره إذا أثمر﴾** وخفت من بلوغ الأجل قبل الغروب فأموت عاصياً والأمر هنا على الوجوب .

وقال بعض الحكماء : إذا كان القدر حقّاً فالحرص باطل ، وإذا كان القدر طباعاً فالثقة بكلّ أحد عجز ، وإذا كان الموت لكلّ أحد راصداً فالطمأنينة إلى الدنيا حمق .

وقال : من قدر أن يحترس من أربع خلال لم يكن في تدبيره خلل : الحرص والعجب واتّباع الهوى والتواني .

وقال بعض البلغاء : من شبّ أمله شاب عمله ، ومن أسره رجاؤه طال عناؤه ، وعظم بلاؤه ، ومن التهب طمعه وحرصه ظهر عجزه ونقصه .

وفي الجملة من لم يكن لله متّهماً لم يمس محتاجاً إلى أحد . ولا بدّ من شيء يعين على الدهر ويغني عن كرام الناس فضلاً عن لئامهم ، ويذلّل تعوّد الصبر ، ويلجم راحلة الأمل ، لا كما توهّمه بعض الحمقاء من حسّاد زماننا فإنّهم قد استكثروا على المنقطعين قوت يوم بيوم ، وزعموا أنّ من سعى لقوت يومه له ولعياله من جملة الحريصين على حبّ الدنيا ، ولو كان من حلّ ولو رغيفاً واحداً ، وتوهّموا أنّ الزاهد الّذي لا يملك ما ذكرناه ، بل يتمنّون أن لا يرزق هذا المنقطع ذلك القليل الّذي لا يرضى بأضعافه أحد مماليك هؤلاء لكن أقول :

ما ذي بأوّل مطرة مطرت على أسد الفلا

---

(١) سورة الأنعام ؛ الآية : ٩٩ .

واعلم أنّ مرّ اليأس خير من حلاوة الطمع في أموال كرام الناس ، والعزلة محمودة إلّا أنّها محتاجة إلى الكفاية ، والقناعة مرفّهة ولكنّها فقيرة إلى البلغة ، وصيانة النفس حسنة إلّا أنّها كلفة محرّجة ، إن لم يكن لها مادّة [لها أداة][1] تمدّها ، وترك هذه الأمور غير ممكن ولا مستطاع إلّا بدين متين ورغبة في الآخرة شديدة ، والفطام عن دار الدنيا صعب ، ونسيان الحلو والحامض عسر لكن الرمد خير من العمى ، وإن تقطّعت من الحمقاء الأحشاء حيث لم يبلغوا هذه الرتبة القصوى ، بل موّهوا على العوامّ أنّه لم يبلغ ذلك أحد من الأنام ولم يقدر الناقص على الإتمام . والباعث على ما توهّموا وأهملوه تحصيل الحطام ولو بارتكاب الآثام وحمل الأثقال والانهماك في الوبال ، وإذا لم يكن عندهم الخير لأنفسهم جزيلاً أُخذوا أخذاً وبيلاً **﴿قل كلّ يعمل على شاكلته فربّكم أعلم بمن هو أهدى سبيلاً﴾**[2] .

وقال ابن السمّاك : لولا ثلاث لم يقع حيف ولم يسلّ سيف : لقمة أسوغ من لقمة ، ووجه أصبح من وجه ، وسلك أنعم من سلك . وليس كلّ أحد له هذه القوّة ، ولا فيه هذه المنّة ، والإنسان بشر وبنيته متهافتة وطينته منتشرة ، وله عادة طالبة وحاجة هائلة ، ونفس جموح وعين طموح ، وعقل طفيف ورأي ضعيف ، يهفو لأوّل ريح ويستحيل لأوّل بارق ، هذا إذا تخلّص من قرناء السوء وسلم من سرّاق العقل وكان له سلطان على نفسه ، وقهر لشهوته ، وقمع لهواه وقبول من نصيحة ، وتهيّؤ في سعته وتبوّء في مغاني حظّه ، واهتمام بسعادته ، واستبصار في طلب ما عند ربّه ، واستنصاف من هواه المضلّ لعقله المرشد هذا قليل أو صعب ، ولو قلت معدوم أو محال لما خفت عائفاً .

وكان ابن السمّاك يقول : الله المستعان على ألسن تقصف وقلوب تعرف وأعمال تخالف .

وقيل عند الحسن : أين الطالبون للآخرة والتاركون للدنيا ؟ فقال الحسن : اقلب كلامك وضع يدك على من شئت .

---

(١) بهامش الأصل بخط المصنف : كذا وجدت .

(٢) سورة الإسراء ؛ الآية : ٨٤ .

وربّما قال بعض المتكلّمين : قد قال بعض السلف : ليس خيركم من ترك الدنيا للآخرة ولا من ترك الآخرة للدنيا ولكن خيركم من أخذ هذه وهذه ، وهذا كلام مقبول الظاهر موقوف الباطن [ويقال لهذا الكلام أيضاً هذا كلام منمّق لا يرجع إلى معنى محقّق][1] أين هو من قول المسيح ﷺ حين قال : «الدنيا والآخرة ضرّتان ، متى أرضيت إحداهما أسخطت الأخرى ، ومتى أسخطت إحداهما أرضيت الأخرى» وكيف لا يكون كذلك وهذا الإنسان صغير الحجم ضعيف الحول ، لا يستطيع أن يجمع بين شهواته وأخذ حظوظ بدنه ، ونيل هواه وأمله ، وبين السعي في طلب المنزلة عند ربّه بأداء فرائضه ، والقيام بوظائفه ، والثبات على حدود أمره ونهيه فإن صفق وجهه وقال : نعمل تارة لهذه الدار وتارة لتلك فهذا متذبذب لا هو هنا ولا هو هناك ، ومن يخنّث لم يكن رجلاً ولا امرأة ، فهو لا يكون أباً ولا أمّاً .

ودخل ميمون بن مهران على عمر بن عبد العزيز قال له ـ وقد قعد في أخريات الناس ـ عظني ، فقال ميمون : أنت لمن خير أهلك إن وفيت أربعة ، قال : ما هنّ ؟ قال : إن وفيت السلطان وقدرته ، والشباب وعزّته ، والمال وفتنته ، والأمل وسكرته ، قال : أنت أولى بمكاني منّي فارتفع إليّ ، فأجلسه على سريره .

إبراهيم بن أدهم : نظرت فلم أجد الخلق أُتوا في أحوالهم إلاّ في ثلاثة أشياء : من الفرح بالموجود ، والحزن على المفقود ، والسرور بالمديح ، لأنّ من فرح بالموجود حرص والحريص محروم ، ومن حزن على المفقود سخط والساخط معذّب ، ومن سرّ بالمديح أعجب والمعجب ممقوت .

وفي بعض الخطب : كلّكم يرمي عن مرامي الأمل عرضاً ، كلّكم يطلب عن دواعي الحرص غرضاً ، كلّكم قد جعل الكسل قيداً على رجله فلا يحسن عبادته ، والغفلة غطاء على قلبه فلا تصدق زهادته ، فإلى متى والعمر مؤذن بالانقضاء ، والدهر مجدّ في الاقتضاء ، والشيب قد اشتعل في الشواة ،

---

(١) زيادة من الأصل .

والسفينة بلغت ساحل الحياة ؟ فما هذا الأمل القويّ وقد ضعف البدن ، وما هذا الحريص الطريّ وقد عسا العود ووهن ، استشنّ أديم الوجه ، وأُهرق ماء الشباب ، وآنطفأ نار الطبع ، وركد التراب . ذهب القوي فماذا تختبر ، وتناهت المدى فماذا تنتظر ؟ كلا إنّكم أُمهلتم ، ولا وربّكم فما أُهملتم . هل ذلكم إن حاسبتم أنفسكم إلّا حطاماً قمشتم[1] وجمعتم ، وحراماً احتجبتم واقتطعتم ، ستجدون ذلك كلّه حسرة ووبالاً ، وتحصدون منه غراماً ونكالاً ، تجمعون لمن يبكي عليكم قليلاً ، وينساكم طويلاً ، وتؤخّرون لأزواج البنات والبنين ، ثمّ تحاسبون عليهما يوم الدين .

إذا انقطعت عنّي من العيش مدّتي ... فإنّ بكاء الباكيات قليل

ستعرض عن ذكري ونفسي مودّتي ... ويحدث بعدي للخليل خليل

أرى علل الدنيا عليك كثيرة ... وصاحبها حتّى الممات عليل

وإنّي وان أصبحت بالموت موقناً ... فلي أمل دون اليقين طويل

ومن خطبة أُخرى : قد ران[2] على القلوب العصيان ، وملك قياد النفس الشيطان ، واستولى على صدق العمل كذب الأمل ، كما يستولي الجواد على الأبد ، ثمّ الأجل يسرع إسراع السيل ينصبّ إلى الحدور ، وينزل نزول الطير تنقضّ إلى الوكور . يطرقنا المنون ولا حذار ، وتمحقنا السنون ولا اعتبار ، يطوي عمرنا مرّ الأيّام ونطوي المراحل ساكنين ويخطفنا عقاب الحمام ونطأ المنازل آمنين .

يحكى أنّ عبد الملك بن مروان سهرذات ليلة فقال لبعض حصّان داره : سامرني فقال : ليس مثلي من مسامري الملوك ، فإنّما حديثي مع كلّ أعجم مملوك ، فقال : على كلّ حال حدّثني ، قال : سمعت في سمر أنّ ثعلباً خدم أسداً على أن يقوم له بطعامه وحاجته ، فكان يوماً عنده وهو يأكل من فريسته فقال : يا أبا الحارث أخاف أن يأخذني هذا العقاب الكاسر فقال : كن إلى

---

(١) قمش المال ـ من بابي ضرب ونصر ـ : جمعه من هنا وهنا .

(٢) ران : غلب .

جانبي ، فقال : ليس ينجيني ذلك منه قال : فكن على ظهري فجاءت العقاب واختطفته عن ظهره ، فصاح يا أبا الحارث ! ليس على هذا عاهدتني أوّلاً فقال : إنّما ضمنت لك من أهل الأرض ، فأمّا أهل السماء فلا فاتعظ عبد الملك وأجهش في البكاء وعلم أن لا موئل من الفناء .

وقال الرشيد[1] لأبي العتاهية : عظني ، فقال : آمنّي ، قال : أنت آمن ، فأنشأ يقول :

لا تأمن الموت في طرف ولا نفس وإن تسترت بالأبواب والحرس
واعلم بأنّ سهام الموت نافذة في كلّ مدّرع منها ومتّرس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها إنّ السفينة لا تجري على اليبس

فبكى الرشيد حتّى سمع نشيجه[2] .

فقال : أحسنت ، ثمّ ماذا ؟ فقال :

يسعى إليك بما اشتهيت لدى الرواح وفي البكور

فقال : حسن ، ثمّ ماذا ؟ فقال :

إذا النفوس تقعقعت في ضيق حشرجة الصدور
فهناك تعلم موقناً ما أنت إلاّ في غرور

فبكى الرشيد ، فقال له الفضل بن يحيى : بعث إليك الخليفة تسرّه فأحزنته ؟ فقال الرشيد : دعه فإنّه رآنا في غفلة وعمىً فكره أن يزيدنا .

واجتاز الرشيد يوماً في حفدته وجموعه وهو معجب بملكه في بعض طرق بغداد فنهض إليه بعض الموسوسين[3] فقال :

نعدّك قد ملكت الأرض طرّاً وأنّ لك العباد فكان ماذا؟

---

(١) الخبر والأبيات في الأغاني (٣ : ١٧٣) .
(٢) النشيج : الصوت .
(٣) الموسوس : من أُصيب في عقله .

ألست تصير في لحد، ويحوي تراثك كلّه هذا وهذا

وأشار إلى الأمين والمأمون وكانا وراءه ، فاغرورقت عيناه بالدموع .

وفي خطبة : ما هذا الفتور والتضجيع ، وهذا التفريط والتضييع ؟ فما حسن أن يكون العمل في الدنيا الملامة ، والزاد في الآخرة الندامة ، يعمّر الفتى وهجيراه أن يخلو به أمله يحاوره[1] ، ويجلس إليه هواه يسامره ، يبيت لهناه سامعاً ، ويظلّ في يد مناه خاتماً طائعاً :

المرء نصب أمان ليس يعصيها	يبيت ما عاش يبديها ويخفيها[2]
وللنفوس وإن كانت على وجل	من المنيّة آمال تقوّيها
فالعمر يبسطها والدهر يقبضها	والنفس تنشرها والموت يطويها
المرء منسوب إلى فعله	والناس أخيار وأمثال
يا أيّها المرسل آماله	من دون آمالك آجال

وفي أُخرى : إنّ الأمل جانبه أجدب ، والحرص كاسبه أخيب ، وما الحرص وصاحبه أبداً محروم ، وما الطمع ولا يتغيّر به المقسوم . وما طول الأمل والعمر قصير ، وما بعد المنى والأجل قريب ، وما هذا السكون وإنّها مثوى نقلة وارتحال ، وما هذا الركون إلى مناخ فناء وزوال ؟

دعوت وقد دبّ الكرى في عظامه	وفي رأسه حتّى جرى في المفاصل[3]
فقلت قم له : فارتحل ليس هٰهنا	سوى وقفة الساري مناخ لنازل

هيهات ! وجّه الرحيل عن الربع المحيل ، يدني الأجل ولا يرعى غير الحنظل ، إنّها دار من لا دار له ، وبها يفرح من لا عقل له .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[4] : «ما سكن حبّ الدنيا قلب عبد إلاّ عاد منها

---

(١) في النسخة (ر) يحلو به أمله يجاوره .

(٢) الأخيران من الأبيات الثلاثة الأول لأمير المؤمنين عليه السلام في الديوان : ١٤٧ .

(٣) الكرى مقصوراً : النعاس .

(٤) قريب منه عن الصادق عليه السلام في الكافي (٢ : ٣٢) .

بثلاث : شغل لا ينفكّ عناه ، وفقر لا يدرك غناه ، وأمل لا ينال منتهاه» .
وأنشد :

الزهد من أفضل خلق الفتى ... فافزع إليه وتخلّق به
والتحف العفّة فهي الغنى ... وهو الرضا بالقوت فاعلق به
واجتنب الحرص فمن يعتلق ... حرصاً على الاثرا تعلّق به
تصير بالحرص مهاناً، فإن ... تقنع بما يكفيك تطلق به
ولا تكن في طمع راهناً ... عرضك للآمال تعلق به
فإن تحبّ تحصل على عسرة ... وإن تخر جدواه تعلق به[1]

فما الإكثار من الحرص الّذي هو السبب المتعب ، وأصل النصب ، وداعية الحاجة وعلامة اللجاجة ، ولقاح البخل ، ونتاج الجهل ، ورائد الذلّ ، وملاك الهلاك والإهلاك .

قال بعض الأمراء لبعض العلماء : سلني حاجتك قال : أولي تقول[2] ولي عبدان هما سيّداك ؟ قال : ومن هما ؟ قال : الحرص والهوى فقد غلبتهما وغلباك .

وذمّ بعض العلماء الحرص فقال : هذا العقاب يطير في فضاء عزّه ، ولا يرتقي طرف إليه ، ولا تعرج يد عليه فيرى قطعة لحم على شبكة ، فينزّله الحرص من مطاره ، فيعلق بالشبكة جناحه ، فيصيده صبيّ ثمّ يلعب به لعب السنّور بالفارة .

قال بعض الحكماء : من لوازم الحرص الكدّ الّذي لا انتهاء له والعبوديّة الّتي لا انقضاء لها ، وأن تكون خدمته تفضل على خدمتهم له وذلك أنّ من سعى وتعب عمره باكتساب ما يفضل من المال عن نفقته ومقدار حاجته ، وجمعه وكنزه فقد خسر وخدع ، واستعبد من حيث لا يعلم ، لأنّه أعطى كدّاً وجهداً ولم

---

(١) تخر : تختر .
(٢) في الأصلين «بقول» .

يستعوض منه كفاية وراحة . ولا استبدل كدّاً بكدّ وخدمة بخدمة فحصّل به جهده وكدّه وكفايته للناس ، فاستمتعوا به ، وفاته من كفاية الناس له وكدّهم عليه واستمتاعه بهم قدر استحقاقه بكفايته لهم وكدّه عليهم ثمّ إنّه لم ترح له الأيّام أملاً ، وعاجلته في نفسه بالفناء ، فهو خاسر لسعيه غبين ، وشقي في أمره مبين . وما أحسن ما قال القائل[1] :

جمعت مالاً ففكّر هل جمعت له ـ يا جامع المال ـ أيّاماً تفرّقه؟
المال عندك مخزون لوارثه ما المال مالك إلّا حين تنفقه
ارفه بعيش فتى يغدو على ثقة إنّ الّذي قسّم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون لا يدنّسه والوجه منه جديد ليس يخلقه
وما كل من أُعطي الفنى يبتغي العلى ولا يبصر المعروف أين مواضعه
ومره بخلق شيمة غير خلقه ليحظى به تغلب عليه طبائعه
فلا تحترص كم قد دعا الحرص من فتى إلى غاية ترديه حين تطاوعه
تعالى اللّه يا سلم بن عمرو أذلّ الحرص أعناق الرجال[2]
هب الدنيا تساق إليك عفواً أليس مصير ذاك إلى الزوال
ألا يا نفس إن ترضي بقوت فأنت عزيزة أبداً غنيّه
دعي عنك المطامع والأمانيّ فكم أُمنيّة جلبت منيّه
أحرصاً وأطماعاً تباعاً وإنّما يقطّع أعناق الرجال المطامع

وبالجملة فالحرص من المهلكات والباعث الأقوى عليه انهماك الأنفس في الشهوات .

---

(١) الأبيات السبعة في الإحياء (٤ : ٢٠١) .
(٢) لأبي العتاهية في الأغاني (٣ : ١٥٨) يخاطب بهما سلم الخاسر .

الفصل الثامن عشر

في قمع الأنفس ومخالفتها في شهواتها

سبحان من أخرج من الشجر الأخضر ناراً ، وفجّر من الحجر الصلد أنهاراً ، ووقّف على الهواء السماء ، وأودع في الجبال الماء ، تسيل من الجبال على الأرض ينابيع طافحة[1] ، وتنير من السماء على الهواء مصابيح لامحة ، تسبّح له السماء بآفاقها وأقطارها ، والأرض ببرّها وبحارها ، والروض بأنوارها وثمارها والسحاب بضوئها وأمطارها ، والليل عند خفوق النجم وإخفاقها ، والنهار بعد شروق الشمس وإشراقها ، والطير بألحانها وهديلها[2] والخيل بضبحها[3] وصهيلها ، والأقلام في يدي فرسان الكلام بصريرها ، والأسياف في أيدي شجعان الهجاء بصليلها[4] ، والناطقات فاغرة[5] بأصواتها أفواهها ، والصامتات موسومة بشهاداتها أجباهها ، والبهائم والسباع وحشيّها وإنسيّها . والموجودات كلّيّها وجزئيّها حتّى الذرّ في مواطنه وذوائه ، والذئب في عسلانه ، والثعلب في روغانه[6] ، والبهم في رعائه ، والحمام في اهتدائه ، والديك في

---

(١) طفح الإناء ـ من باب منع ـ : امتلأ وفاض .

(٢) الهديل : صوت الحمام . وقد سبق .

(٣) الضبح : صوت يسمع من الخيل في عدوها ليس بالصهيل ولا الحمحمة .

(٤) الصليل : طنين السلاح .

(٥) فغر فاه ـ من بابي منع ونصر ـ : فتحه .

(٦) الذواء : قشر الفاكهة ونحوها . العسلان بالتحريك : الاضطراب . الروغان : الخدعة .

جوده وسخائه ، والكلب في إلفه ووفائه .

ففي كلّ ما خلق حكمة باهرة نعلمها أو نجهلها ، وعلى وجه ما فطر حجّة ظاهرة نعقلها أو لا نعقلها . يشهد كلّ ذلك بأنّه الحقّ المبين ، مالك الملك ربّ العالمين .

أرسل النبيّ الأُمّيّ الهاشميّ التهاميّ محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم إلى الحقّ هادياً ، وبالهدى منادياً وبلسان الصدق صادعاً ، وبنور الرشد ساطعاً ، حتّى اهتدى بهداه المهتدون ، وسرى في سناء سمته المقتدون .

وأعقب بعده الأئمّة الراشدين والأولياء المهتدين الّذين أذهب الله الرجس عنهم وطهّرهم تطهيراً ، صلوات الله عليهم أجمعين .

قال الله تعالى : ﴿أفرأيت من اتّخذ إلّهه هواه أفأنت تكون عليه وكيلاً﴾[1] جعل الله متّبع هواه تائهاً عن هداه ، فيكون بالحريّ أن يخرج من الإيمان ، ويبعد من الأمان ويقرب من النيران منقطعاً بهواه عن مولاه ، محروماً في الدنيا والآخرة مناه . فهي النفس الأمّارة بالسوء عن هواها ومنعها من أن تميل إلى ما يسخط مولاها ، فعلى هذا وجب على كلّ امرىء مسلم يؤمن بالله أن يطفىء جمراً يلتهب ، وأن ينفي من صدره أمراً يضطرب ، ومعنى الحديث «انّ النار تنادي يوم القيامة بالمؤمن : يا مؤمن جُز عنّي فقد أطفأ نورك لهبي» :

إنّ من عالج شهوات نفسه وهوى قلبه حتّى يدبّرها ويملكها ويخلّص أنوار الإيمان من دخان الشهوات المظلمة ، استحقّ أن يعطى يوم القيامة من النور ما يطفىء لهيب النار الّتي اتّقدت من نار الشهوة ، كما تطفىء الشعلة القويّة ناراً ضعيفة .

ومن لم يعالج ذلك من نفسه وخرج من الدنيا مع هذه النيران الّتي لا تزال سوداء مظلمة خيف عليه أن لا يقوى نوره الضعيف على أن يطفىء لهيب النيران على الصراط مع شدّة اضطرامها وقوّة احتدامها[2] ، وأن لا يطفىء دخان شهواته

---

(١) سورة الفرقان ؛ الآية : ٤٣ .

(٢) الإحتدام : شدة الحر .

الغالبة مع عظيم إظلامها وشدائد آدلهمامها ، وكيف ولم يكن له في دنياه نور في القلب يطفىء نار هواه الموقدة ، وخرجت منه أعمال محترقة مسوّدة . لأنّ عامّة ما كان يعمله من الطاعات إنّما يعمله بهواه وبما ينشط له نفسه ويستحليه طبعه ، ويريد به رياء الناس ولا يريد به وجه الله ، وينظر إلى ما تأمره به نفسه ، ولا ينظر إلى ما يختاره الله ، فيكون عاملاً برأيه على التملّك والاقتدار والتشهّي والاختيار ، حتّى ربّما حمله ذلك على ترك الواجب في جنب ما يتطوّع به .

وهذا موجود في كثير من الناس يرى الرجل يصلّي بالليل ويعقّ والديه ، ويصوم بالنهار ويسوء خلقه في شأن فطوره وسحوره ، ويرتاد لمطعمه الحلال ثمّ لا يتّقي على نصيب صاحبه وخادمه ، ويغتاب الناس وينفق في البرّ ، ويكتسب من الشبهات ويتصدّق على المساكين ، ويقري الضيفان أو يتصدّق من حلال ماله ويمنّ ، ويعود المريض ، ويشهد الجنائز إمّا لقضاء الحقوق أو لابتغاء الثواب ، ثمّ يؤذي المؤمنين ويطوي كشحه عن المتّصلين ويقارب الأجانب ويقطع أرحام الأقارب ، ويتودّد لمن لا يبلي إليه بسبب ولا يدنو بنسب ، ثمّ يقاسي منه من يضمّه كنفه قذاة عينه وغصّة صدره ، فهذا جاهل بربّه يقتاده الشيطان بخزائمه[1] ، ويصطاده الهوى بحبائله .

فأمّا العلماء بالله والمبصرون لما في أنفسهم من الخير والشرّ ، وما لها وعليها من الحقّ فالنفس والشيطان هناك أقلّ وأذلّ من أن يطمعا فيهم ، أو ينالا منهم لأنّ النفس إنّما تشرف على القلب الّذي أسره الهوى وخدعه الشيطان .

فأمّا المؤمن الّذي انشرح صدره واطمأنّ بالإيمان قلبه فإنّما يجاهد نفسه الأمّارة بالسوء ، الحمّالة للوزر ، الصادّة عن الحقّ الصارفة عن الخير ، ويخالف الشيطان العدوّ النازل بربع الغواة ، المالك لجوارح العصاة قال الله تعالى : ﴿**إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان إلّا من اتّبعك من الغاوين * وإنّ جهنّم لموعدهم أجمعين * لها سبعة أبواب لكلّ باب منهم جزء مقسوم**﴾[2] وإنّما هي باب الهوى

---

(١) جمع الخزامة ـ بالكسر ـ : قطعة رقيقة يشد بها بين الشراكين .

(٢) سورة الحجر ؛ الآيات : ٤٢ ـ ٤٤ .

وباب الشهوة وباب الغضب وباب الحرص وباب الغفلة وباب الشكّ وباب الشرك . وفي الحديث : «للنار باب لا يدخل منه إلّا من شقي نفسه بسخط الله» .

وقالت الحكماء : إنّ بموضع ثبات القدم والمسكة في مداحض الهوى واستنزال شهوة الإنسان تعرف فضيلة الرجل ورذيلته ، فإنّ جسد الإنسان لمّا كان مملوّاً بالمزاجات المختلفة والأعضاء المفتّتة وكلّها معرضة للأعراض الطارية عليها والآفات الملمّة بها إمّا من جنس الأحزان والآلام ، وإمّا من جنس المسرّات والملاذّ بحسب دواعي النفس وصفة الطبع إلّا أنّ مع هذا الجسد معنى آخر لطيفاً سالماً عن العوارض ذا طبيعة واحدة جعل مدبّراً له ومهيمناً عليه ، وهو العقل المضادّ للهوى ، لأنّ الهوى يختار أبداً ويوثر دائماً ما يدفع به الشيء المؤذي المؤلم المماسّ الملازق به في وقته ، وإن كان يعقّب مضرّة من غير نظر فيما يأتي من بعد ، ولا رؤية فيما يتعاطى في الحال ، والعقل يرى ويختار الشيء الأفضل الأرجح وما هو الأصحّ والأصلح عند العواقب ، وإن كان على النفس منه في أوائله مؤونة وكلفة وصعوبة ، ولهذا نرى كلّ واحد منهما معادياً للآخر منكراً عليه ما يشير به ويدعو إليه ، كما قال الشاعر عن لسان هواه :

طرحوا اللحم للبزاة ... على ذروتي عدن[1]
لمَ لاموا البزاة لمَ ... خلعوا الرسن
لو أرادوا صلاحنا ... ستروا وجهه الحسن

وقال آخر عن لسان عقله في جواب ما قاله الهوى :

يا من يسرّ بلذّة الدنيا ... ويظنّها خلقت لما يهوى
لا تكذبنّ فإنّما خلقت ... لينال زاهدها بها الأُخرى

إلّا أنّ العقل في معاداته الهوى مسالم للإنسان ، والهوى في معاداته العقل معادٍ له ، وصائر به إلى فساد الدين والدنيا ، والعقل صادق في رأيه ، والهوى كاذب مستولى عليه ومغالط له ومسابق إلى موضعه من النفس .

---

(١) البزاة ـ بضم الباء ـ جمع البازي ـ الذروة ـ بالضم ـ المكان المرتفع .

قال العبّاس بن الأحنف :

كيف احتراسي من عدوّي إذا ... كان عدوّي بين أضلاعي

وقال ابن المعتزّ :

ويا ربّ ألسنة كالسيوف ... تقطّع أعناق أصحابها
وكم قد دهى المرء من نفسه ... فلا يؤكلنّ بأنيابها

وقال الخطّابيّ :

ولولا الهوى أبصرت رأيي ومن يثق ... بأوّل رؤيته فليس بعاقل
وذو النصح أهدى منكم لي نصيحة ... ولكنّه أهدى إلى غير قابل

وإذا عرفت هذا فأيّتها نفس عصت على مدبّرها ، الّتي رؤيت بنوره وشرّفت بمكانه ، فلم تطع أمره وهامت في شهواتها وأجابت دواعي غيظه وغضبه ، فهي أخسّ وأطرح من الخنزير الهائج والسبع الثائر[1] لأربعة معان :

أحدها أنّهما يفضلانها بسرعة المواتاة للتأديب والتعليم والإصلاح والتقويم ، فأمّا النفس إذا ضربت وفسدت بالإذعان للشهوات والإمعان في اللذّات ، واستحكم عليها بسلطان الشيطان ، وران فيها حران الطغيان ، لم يطاوع الارعواء والانثناء ، وانقطع حبال الحبل في قمعها ورفعها حتّى يصير الأمر في حال الأمراض البدنيّة الّتي لا مطمع في دوائها إلّا استعجال شرّها واستحكام دائها .

والثاني أنّها لا تقتصر على حدّها الأوّل المركوز في الطباع كما تقتصر عليه نفوس البهائم والسباع ، بل إذا أفرط الهوى في الإنسان استرسل في الخلاعة[2] وانهمك في المجانة[3] ، وتراكم عليه الفضائح المخزية والأعراض المردية ، حتى يعشق الإنسان وجوه الصباح الحسان ، وتحرّي الخذلان ، طلق العنان في

---

(١) الثائر : الهائج .
(٢) الخلاعة ـ بالضم ـ : الإنقياد للهوى .
(٣) المجانة : قلة الحياء . وصاحبها ماجن .

الاستهزاء . ومن جملة المنهمكين في الجماع إلى وقت الزنا وخزي اللواط ، وما بعد ذلك من السوءة الّتي لا سوى لها . والله المعيذ منها .

والثالث أنّ بنية الإنسان صنعت على هيئة يقصر عنها في الشهوات فإنّ بهيمة واحدة تصيب من لذّة المأكل والمنكح ما لا يصيبه ولا يقدر عليه عدد من الناس ، وإنّما يلتذّ بملتذّاتها فوق التذاذ الإنسان ، لأنّ لها الغاية في اللذّات ، لأنّ كمال اللذّة ليست بإضافة بعضها إلى بعض ، بل بالإضافة إلى مقدار الحاجة إليها وحاجة الإنسان لا تنتهي وحرصه لا غاية له ، بخلاف حاجاتها .

تموت مع المرءِ حاجاته — وحاجة من عاش لا تنتهي

وقال عبيدة بن الطبيب[1] :

والمرء ساعٍ لأمر ليس يدركه — والعيش شحّ وإشفاق وتأميل
متى تنقضي حاجات من ليس بالغاً — إلى حاجة حتى يكون له أُخرى

ولذلك لا تخلص حال عن أذى ولا صفوها عن قذى ، شعر :

أنا واللّه أشتهي سحر عينيك — وأخشى مصارع العشّاق
كفى حزناً أنّ الجواد مقتّر — عليه ولا معروف عند بخيل

آخر :

وكيف يخلص حال عن أذى وقذى — وقد أحاط بسعد الأُفق نحسان
عُني الفتى بخلاف كلّ معاند — يؤذيه حتّى بالقذى في مائه
يهوى إذا أصفى الإناء لشربه — ويروغ عنه عند صبّ إنائه

يحكى[2] أنّ يزيد بن عبد الملك بن مروان عشق حبّابة عشقاً مبرّحاً[3]

---

(١) البيت في المفضليات : ١٤٢ من قصيدة له في ٨١ بيتاً . قال الجاحظ في الحيوان (٣ : ٤٦) : وكان عمر بن الخطاب يردد البيت ويعجب به من جودة ما قسم .

(٢) الخبر والبيتان في الأغاني (١٣ : ١٥٧ ـ ١٥٨) . وحبابة ـ بفتح الحاء وتشديد الباء ـ جارية ليزيد كان يهواها شديداً وله معها وجاريته الأُخرى «سلامة القس» أخبار كثيرة .

(٣) برح به الأمر : أتعبه وأذاه .

وكانت حبّابة إذا غنّت وطرب يزيد قال لها : أطير ؟ فتقول : فعلى من تدع المسلمين وأمورهم فيقول : عليك ، فقال لها ذات يوم : يا حبّابة ! إنّه لم يصفُ عيش يوماً قطّ إلى آخره لأحد ، كذا يقولون ، فاشربي واسقيني ولا يكون معنا ثالث ، ولا يدخل علينا أحد ، فلعلّنا نخالف رسم الزمان ونلبث يوماً بلا أحزان . وتقدّم إلى حجّابه وخواصّ أصحابه أن لا يخبروه يومه ولا يرفعوا إليه أمراً ، وخلا بها في روض كأخضر الديباج على حوض ماء كأزرق الزجاج ، واندفعا في الشرب والغناء ، والسرور قد فضّ ختامه ، والأنس قد رفع أعلامه ، حتّى أخذت حبّابة حبّة رمّان ومتنقّلة بها على الشراب ، فغصّت بها وماتت من ساعتها . فتحيّر يزيد ودهش وعزم أن لا يدفنها تهالكاً عليها حتّى مشى إليه شيوخ بني أُميّة وقالوا : هذا عار بنا لا يدحضه الاعتذار ، ولا يمحوه الليل والنهار ، وما زالوا به حتّى دفنها . وأنشأ على قبرها يقول :

فإن تسل عنك النفس أو تدع الهوى ... فباليأس تسلو عنك لا بالتجلّد
وكلّ خليل زارني فهو قائل ... من أجلك : هذا هامة اليوم أوغد

وكان كما قال ، فلم يلبث إلّا قليلاً بعدها حتّى لحق بها .

والوجه الرابع من فضل سائر الحيوان في اللذّات والشهوات على الإنسان بين سقوط الهمّ والفكر عنها ، وهناة عيشها وطيبها بشهواتها ، فإنّا نرى البهيمة قد حضر وقت ذبحها وهي لاهية راعية وإذا راعها شيء فكلّما زال عادت سليمة راتعة كما قيل :

نراع إذا الجنائز قابلتنا ... وتبكينا بكاء الباكيات
كروعة ثلّة لمكان ليث ... فلمّا غاب عادت راتعات

آخر :

قضى الخطوب وأنت منتبه لها ... فإذا مضت فكأنّها أحلام

ولعمرك ما المنافسة في شيء كانت البهائم تضارع الإنسان فيه ، بل كانت أقوى منه وكان الإنسان أعجز وأقلّ فيه منها ، فقد ظهر الإنسان المغلوب عقله

الغالب هواه وشهوته في حال البهائم ، بل أخسّ وأنقص ، كما قال الله تعالى : ﴿**أولئك كالأنعام بل هم أضلّ**﴾[1] وأنّه إذا أحسن طاعة العقل ولم تستعبده شهوته ، مع أنّه ضيّع على استيثارها والاستهتار بها صار حاله في المرتبة فوق الملائكة المقرّبين ، وأنّ المبتلى بدواعي الشرّ إذا أحسن ارتياد الخير على صعوبة محاولته وشدّة الأمر عليه في مزاولته كان أولى بالحمد والمجد ممّن لم يعرف سهولة الشرّ وحلاوته ولا مسّه صعوبة الخير ومرارته .

وقد ظهر أنّ الأوساخ البدنيّة والأفعال الدنيّة ، مهما انتفت عن الأخلاق الإنسانيّة بتغلّب العقل على الهوى ومرابطة الشهوة في ثغر النهى ، أوجبت الفوز بالكرامات الإلّهيّة المتّصلة الدائمة الباقية ، والاغتباط بإشراق نور الحقّ عليه على الدوام من غير فتور وانقطاع ، إلى أن يرى من نور عقله ما لم يخطر بباله ، ولا يقدر عليه أحد ولا على مثله ، من غير تعليم وتفهيم وتوطين وتمرين ، كما كان عليه أمر بعض الزهّاد ، فكان أحدهم كأنّه أُلهم الحكمة ورزق العلم دفعة وأُوتي البيان جملة ، يتكلّم عن القلوب ويصيب سهمه في العلوم ، وربّما كان عامّيّاً لم يتفقّه ، أو أعجميّاً لم يتأدّب .

وعلى هذا قول الحسن البصريّ من أحسن طاعة الله في شبيبته ، لقّاه الله الحكمة في اكتهاله كما قال تعالى في قصّة النبيّ المعاني المنصور على شهوته الموقّى المعصوم في حال صبوته[2] : ﴿**ولمّا بلغ أشدّه واستوى آتيناه حكماً وعلماً وكذلك نجزي المحسنين**﴾ وممّا يعين على قمع الهوى وردعه أنّه وإن كان صاحبه يتجرّع في صدر أمره مرارة وبشاعة فستعقب أعجازه حلاوة ولذاذة ، ينشىء لها سلافة[3] فنيت بماء يغبّ في يوم ذي وديقة ترمض فيه الأرجل ، مع أنّ المؤونة في احتمال مغالبة الهوى يستخفّ بالاعتياد . ولا سيّما إذا كان ذلك على تدريج بمنع اليسير أوّلاً ، وترك البعض قليلاً قليلاً ، ثمّ يزداد

---

(١) سورة الأعراف ؛ الآية : ١٧٨ .

(٢) سورة القصص ؛ الآية : ١٤ . والآية في موسى عليه السلام .

(٣) بضم السين : أول ما يخرج مما تعصره .

ذلك ويتأكّد عند السرور بالعواقب العائدة ، وحسن انتظام الأمور ومدح الناس واشتياقهم إلى تلك الحال الشريفة والمنافسة في تلك المرتبة المنيفة .

ومن الأسباب المعينة على قمع الهوى وردع النفس عن الطغوى[1] تصقيل القلب عن خبث الشهوات ، وتصفيته عن كدورة الأخلاق ، حتّى تعتدل عند ذلك حركات الجوارح وخطرات الجوانح ، على القانون العدل والقسطاس المستقيم ، فاليد لا تصل إلى القلب حتّى تسوّي زيغه واعوجاجه ، وتعدل سمته ومنهاجه تعديل المحسوسات ، وإنّما الوصول إلى تعديل القلب وتسويته تعديل الجوارح في حركاتها ، وتسوية الجوانح في خطراتها ولهذا تعظم حسرة من مات قبل التعديل ، لانسداد طريق التعديل بانقطاع علاقة ما بين القلب والجوارح ؛ فمنها كانت حركات الجوارح وخطرات الجوانح موزونة بميزان العدل ، ومستمرّة على الخطّ المستقيم الّذي لا عوج في ممرّه ، ولا سناد في صعاده ، حدث في القلب هيئة عادلة مستقيمة ، تستعدّ لقبول الحقّ اعتقاداً وفعل الخير عملاً ، وذكر الصدق قولاً ويكون ذلك هيئة راسخة لا تبرح ، وصورة قائمة لا تتزحزح ، ألا ترى إلى من تعوّد الصدق كيف تصدق رؤياه ، لحصول الصدق في قلبه هيئة لازمة يتلقّى لوائح الغيب في النوم على الصحّة ، بخلاف رؤيا الكذّاب ورؤيا الشاعر الّذي تعوّد التخيّلات الكاذبة الشعريّة ، الجاذبة إلى التصوّرات الشيطانيّة فاعوجّ بها صورة قلبه على الاستقامة الّتي في الشعر الموزون .

فإن كنت تريد أن تلمح ما في جنّات القدس من اللوائح العجيبة والأسرار الشريفة فاترك ظاهر الإثم وباطنه ، وذر الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والهوى حتّى فيما ينفعك ، والشهوة ولو فيما لا يضرّك ، والكذب ولو في حديث النفس ، والبغي ولو على الباغي . واجتهد ما استطعت في التشبّه بالملأ الأعلى في النزوع عن الشهوات ، وردع النفس عن السيّئات ، وتجنّب مقارنة البهائم المهملة والشياطين المرسلة في اتّباع الهوى بحسب مقتضى الطباع من غير احتجاب عنه وارتداع .

---

(١) الطغوى ـ مقصوراً ـ الإسم من طغا يطغو .

والنفس مهما تعوّدت الانهماك فيما أرادت ألفت اتّباع شهواتها ، وغلبت عليها من البهائم عامّة صفاتها فالرأي أن تلجم بلجام يكبحها دون جماحها ، وتشكّل بشكال يمنعها عن رماحها ، فلا تفعل شيئاً بحسب طباعها ، بل بحسب أمر الآمر لها فلا تجني على نفسها ولا على غيرها وقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : «أعدى عدوّك نفسك الّتي بين جنبيك» .

فينبغي أن لا تغفل عنها ، وأوثقها بقيد التقوى ، واكسرها بثلاثة أشياء : الأوّل منع الشهوات ، فإنّ الدابّة الحرون تلين إذا نقصت من علوفتها ، الثاني : تحمّل أثقال العبادات فإنّ الدابّة إذا ثقل حملها وقلّ علفها ذلّت وانقادت . والثالث : الاستعانة بالله تعالى والتضرّع إليه بأن يعينك عليها . أولا ترى إلى قول الصدّيق عليه السلام[1] : ﴿**إنّ النفس لأمّارة بالسوء إلاّ ما رحم ربّي**﴾ .

فإذا واظبت على هذه الأمور الثلاثة انقادت لك بإذن الله تعالى فحينئذ بادر إلى أن تملكها وتلجمها ، وتأمن من شرّها ، وكيف تأمن وتسلم من إهمالها مع ما تشاهد من سوء اختيارها ورداءة أحوالها . ألست تراها وهي في حال الشهوة بهيمة ، وفي حال الغضب سبع ، وفي حال المعصية طفل ، وفي حالة النعمة فرعون ، في حال الشبع تراها مختالة ، وفي حال الجوع تراها مجنونة . فإن أشبعتها بطرت ، وإن جوّعتها صاخت وجزعت . فهي كحمار السوء إن أشبعته رمح[2] الناس ، وإن جاع نهق .

وقال بعض العارفين : إنّ هذه النفس في نهاية الخساسة والدنائة ، ونهاية الجهل والغباوة وينبّهك على ذلك أنّها إذا همّت بمعصية أو انبعثت لشهوة لو تشفّعت إليها بالله سبحانه ثمّ برسوله وبجميع أنبيائه ، ثمّ بكتبه والسلف الصالح من عباده ، وعرضت عليها الموت والقبر والقيامة والجنّة والنار ، لا تكاد تعطي القياد ، ولا تترك الشهوة . ثمّ إن منعتها رغيفاً سكنت وذلّت ولانت بعد الصعوبة والجماح ، وتركت الشهوة . ولله درّ من قال :

---

(١) سورة يوسف ؛ الآية : ٥٣ .

(٢) رمحته الدابة : ضربته في صدره .

وممّا يعين على قمع الهوى وكسر الشهوة خلاء البطن ، فإنّه ينبوع الشهوات ، ونهمة الناكح والمنكوح أبداً من وفور شهوة المطعوم ، ومهما غلب شهوتا المطعوم والمنكوح تولّد منهما شره المال إذ لا اقتضاء للشهوات إلّا بالمال ، وتتبع شهوة المال شهوة الجاه ، فالجاه من الأسباب المعينة على اكتساب المال ، وعند اطّراد أمر المال والجاه تزدحم الآفات ، وتزداد الخطيئات من التنافس والتفاخر ، واستعمال الكبر والرياء ، والتزيّد في القول ، والتمادي في المكر ، والتيهان في أودية الحقد والعداوة والبغي والعدوان ، وامتطاء[1] المنكر والفحشاء ، فإذاً منبع اجتماع جميع الشرور ومتشعّب طريق جميع السيّئات من شهوة البطن ، ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[2] : «أفضلكم عند الله أطولكم جوعاً وتفكّراً ، وأبغضكم عند الله كلّ أكول نؤوم شروب» .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم[3] : «ما ملأ ابن آدم وعاءً شرّاً من بطنه حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه وإن كان لا محالة فثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه» .

وقال عليه السلام[4] : «إنّ الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم فضيّقوا مجاريه بالجوع والعطش» .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم[5] : «كلوا واشربوا في أنصاف البطون فإنّه جزء من النبوّة» .

ولو لم يكن في قمع هذه الشهوة إلّا صفاء القلب ، ونفاذ البصيرة ، والبعد عن البلادة والقسوة ، والقرب من رقّة الفؤاد ، وتذليل النفس ، وإزالة البطر ، ومداواة الغفلة ، وتعذيب الشيطان ، وتوهين أسباب المعصية ، وتخفيف المؤونة ، وتقليل النوم لكان في ذلك أعظم المنفعة وأتمّ الجدوى . ولو لم يكن

---

(١) الامتطاء : ركوب الدابة .
(٢ ـ ٣) رواهما في جامع السعادات (٢ : ٥) والغزالي (٣ : ٨٠ ـ ٨١) .
(٤) رواه الغزالي (٣ : ٨٢) .
(٥) جامع السعادات (٢ : ٧) والغزالي (٣ : ٨٠) وقد سبق .

في البطنة إلّا ذهابها بالفطنة لكان أحقّ ما يجب على المتعنّي بمصالحه ، المعتني بمراشده ومناصحه ، التوفّر على اجتنابها وأخذ النفس بالاحتجاز عنها .

وقال ذو النون : ما شبعت إلّا عصيت أو هممت .

ولمّا عرضت الدنيا عليه صلى الله عليه وآله وسلم قال[1] : «أجوع يوماً وأشبع يوماً فإذا جعت صبرت وتضرّعت ، وإذا شبعت شكرت» .

وقيل : من يرفض الشهوة لم يفتقر ، ومتى أراد أن يستقرض لقضاء شهوته فليستقرض من نفسه بتركه شهوته .

وقال بعضهم في هذا المعنى :

إذا شئت أن تستقرض المال منفقاً على شهوات النفس في زمن العسر
فسل نفسك الإنفاق من كنز صبرها عليك وإمهالاً إلى زمن اليسر

قيل لابن أدهم : قد غلا اللحم ، فقال : أرخصوه ، أي اتركوه ولا تشتروه .

وإذا غلا شيء عليّ تركته فيكون أرخص ما يكون إذا غلا

وقال بعض الصوفيّة : إنّي لأدخل السوق فيعرض عليّ كلّ شيء نفسه ، وأنا عن جميعها معرض ، لا ألتفت إلى شيء منها لشدّة قمعي شهوات نفسي دونها .

ومن هذا قيل : غناؤك عن الشيء خير من غناك به .

غنيّ بلا مال عن الناس كلّهم وليس الغنى إلّا عن المال لا به

قالوا : ومن آفات الشهوة أنّ الإنسان إذا لم يملكها ملكته ، وإذا لم يعبدها استعبدته .

وقد قالت الحكماء : إنّ العبيد أربعة :

---

(١) ذكره الغزالي (٣ : ٨٥) .

عبد رقّ وهو حكم من الربّ لا ذنب من العبد ، وربّما يوفي في الآداب هذا العبد على الحرب بغربك[1] السادة وعصى الزمان .

وعبد طبع وهو الّذي له بدن يقوى على الكدّ ، وليس له في نفسه تمييز ولا معه من العقل إلّا ما ينقاد به لغيره ، ومثله في طبيعته قريب من البهائم الّتي يصرفها الناس في أمورهم وحاجاتهم كيف شاءوا وأحبّوا .

وعبد طمع وهو الّذي أذلّه حرصه على ما في يد غيره لطاعته وخدمته ، ولا يزال ضارع الخدّ ناكس الطرف خفيض الذكر وضيع القدر .

أطعت مطامعي فاستعبدتني ... فلو أنّي قنعت لكنت حرّاً

وعبد شهوة وهو الّذي لا يملك نفسه لغلبة شهواته عليه ، ومن كان كذلك فهو عبد سوء لا يصلح لشيء .

قال بقراط : لأن يكون الحرّ عبداً لعبيده خير له من أن يكون عبداً لشهواته .

وممّا قاله من ذلك عبيد الهوى :

يا ظالماً لي بغير جرم ... إليك من ظلمك المفرّ
قد كنت حرّاً وأنت عبد ... فصرت عبداً وأنت حرّ
برّح بي حبّك المعنّي ... وغرّني فيك ما يغرّ

آخر[2] :

خذوا بدمي هذا الغلام فإنّه ... رماني بسهمي مقلتيه على عمد
ولا تقتلوه إنّني أنا عبده ... ولم أر حرّاً قط يقتل بالعبد

وفي ضدّ هذا قول القائل :

ملكت نفسي وذاك ملك ... ما مثله للملوك ملك

---

(١) الغرب هنا : النشاط والحدة وفي الأصلين «بعربك» بالمهملة .

(٢) البيتان للشافعي .

فصرت حرّاً لملك نفسي فما لخلق عليّ ملك

وقيل لبعض الحكماء : ما الفضل بينك وبين الملك ؟ قال : هو عبد الشهوات وأنا مولاها .

وقيل لآخر : إنّ الملك لا يحبّك ، قال : إنّ الملك لا يحبّ من هو أكبر منه .

وقيل لديوجانس : أملك الروم أفضل أم ملك الفرس ؟ قال : من كان منهما أملك لهواه .

وذكر لبعض العلويّة أنّ الفرس كانت تقول : من قدر على أن يحترس من أربع خصال لم يكن في تدبيره خلل : الحرص والعجب واتّباع الهوى والتواني . فقال : صدقت الفرس في هذا . والأمم كلّها شركاء في العقول وإن اختلفوا في اللغات ، فلا أجد أحداً قد نقّح الكلام وتطاول على الفضل إلاّ وهو يعلم أنّ الحرص يسلب الحياء ، والعجب يجلب المقت ، واتّباع الهوى يورث الفضيحة ، والتواني يكسب الندامة . نسأل الله هدايةً تقي وعصمة تكفي .

قالوا : ومن آفات الهوى ما يكتنفها من المخابث والمقاذر .

حدّث أبو نوح السيرافي قال : ذممنا الدنيا عند أبي أحمد بن أبي بكر الساماني الوزير فقال : إنّ الدنيا بأسرها قذرة ، ألا ترى أنّ لذّاتها كلّها قذرة ، فأفخر ملبوسها الإبريسم وهو لعاب أخسّ الحيوان وأنتنها ، وألذّ ملموسها النكاح وهو مباشرة الأخبثين في مجاري الحيض والبول ، وأحلى مطعومها العسل وهو رجيع أخسّ الطيور . وأطيب مشمومها المسك وهو دم قذر حقين ، وأشجى مسموعها الأوتار وهي أوعية الخرى[1] وأشرف المنظور إليهم الوجه الحسن ، وأحسن الوجوه ما ظهر فيه حمرة الدم النجس وآثاره ، فإنّ الوجه الدمويّ أحسن .

وقال أبو الحسن الموسويّ : أطائب الدنيا من أخابثها ، ونفائسها من

---

(١) الخرى مقصوراً جمع الخرء وهو الروث .

خسائسها : الذهب والفضّة من حجارة ، والمسك من فأرة[1] ، والعنبر من روث دابّة ، والعسل من ذبابة ، والسكّر من قصبة والقصبة من حشيشة ، والخزّ من كلبة ، والديباج من دودة ، والإنسان من نطفة قذرة .

ومن آفاتها الّتي هي أقوى الصوارف عنها أنها أنّما يتوفّر عليها للالتذاذ بها ، ثمَّ الإمعان فيها والإدمان[2] لها يذهب بالالتذاذ منها لأنّها تصير عند المواظبة عليها بمنزلة حالة كلّ ذي حالة مألوفة معتادة ، ومع ذلك لا يتهيّأ الإقلاع عنها ولو أضرّت وأزرت بصاحبها أيضاً للعادة ، إذ صارت عنده بمنزلة الشيء الاضطراريّ في العيش لا بمنزلة ما هو نشرة ومتعة ، ويدخل من الإكباب عليها والانصباب إليها النقص في الدنيا والدين ، واحتمال صنوف الاحتيال لاكتساب الأسباب وركوب المهالك والأخطار ، فإذا هم أشقياء كادحون من حيث ظنّوا أنّهم سعداء ناعمون ، بل هم آيسون محزونون ، من حيث قدّروا أنّهم فرحون مسرورون ، ومتألّمون فوق ما هم ملتذّون ، مكدوحون في تأثيل ما يتركون ، ويركنون إلى ما عنه يزعجون .

وفي كلام بعض البلغاء أنّ حال الإنسان في نفسه حال بيت فيه إنسان وخنزير وسبع ، فالإنسان العقل ، والخنزير الشهوة ، والسبع الغضب ، فأيّ الثلاثة غلب ، فالمسكن له وذلك يوجد قياساً وعياناً فإنّ الرجل اللبيب الضابط لنفسه هو الحقيق بأن يسمّى إنساناً ، والرجل الّذي قد استعبدته شهوته بالخنزير أشبه ، والثائر الغضبان بالسّبع أشبه .

ويحتاج هذا الموضع إلى فضل إيضاح وهو أنّ الشهوة والغضب إن كان قهرهما وحصرهما واجباً على الإطلاق سقطا من أصل التركيب كسقوط ما يستغنى عنه ، بل يتحرّز منه . ولكن هٰهنا ضرورة إلى الشهوة لاجتذاب المطاعم الّتي بها قوام البدن ، ولإمكان المناكح الّتي بها بقاء النسل ، وضرورة أُخرى إلى الغضب لدفع الظلم وإماتة الضيم والأنفة من العار والذبّ عن الحريم ، إلاّ

---

(١) الفارة : نافجة المسك ووعاؤه .

(٢) أدمن الشيء : أدامه .

أنّه يجب أن تكون هاتان القوّتان تحت قوّة العقل وسلطانه ، ليجريهما مجرى المركوب الّذي يركب عند الحاجة بسرج يذلّله ، وشكيمة تكبحه ، وعنان يثنيه ، وسوط يخيفه ، فإذا نزل عنه راكبه ألزمه الرباط والشكال[١] لأن لا يجد على حال من الأحوال سبيلاً إلى أن يشرد[٢] فيهلك نفسه ويجني على غيره .

وممّا ينبغي للإنسان أن يعلمه أنّ هذين العدوّين من شهوته وغضبه ربّما اختدعاه وتشبّها له بالصديق الّذي هو العقل ، فظنّ أنّه في طاعته إيّاهما مطيع له ، واستعمل الشرّ على أنه خير ، وجار على أنّه عادل ، وأخطأ على أنّه مصيب وسبيل الحازم أن يستعمل خصلة هي من معالم الخير لينجو من مصائدهما ومكائدهما ، ويفلت من أشراكهما وحبائلهما ، فيعرض على عقله ما تدعوه إليه نفسه على أنّ الفعل واقع عنده بعد أن يكون غيره فاضلاً ، فإذا حسن عنده وقوعه منه [فليعلم أنّه خير خالص أو ليمتنع منه] إذا كان [ذلك][٣] شرّاً من جاهل .

ثمّ ليتأمّل المستحسنات الّتي قد أُمرت بها أهل الشرع ، فإنّه سيجدها ممّا يختصّ الإنسان به ولا تشركه البهائم فيه ، بل هي أقوم منه ممّا هو أضدادها كشره البطن ، وشهوة الفرج ، ومحبّة الانتقام ، وكفاه بذلك وازعاً عمّا ضارعها فيه[٤] ، وباعثاً على ما استأثر عليها به ، وليس كلّ من قاده عقله إلى العلم بمراشد الأُمور انقادت له نفسه إلى العمل بها ، فقد رأينا كثيراً من أهل المعرفة يأمرون ولا يأتمرون ، ويزجرون ولا ينزجرون . ونعرف من المتطبّبين من كان ينهى عن يسير من التخليط ، وينهمك في كثير من المآكل الضارّة ، ومن المتفلسفين الّذين هم أطبّاء النفوس من كان يذمّ مقابح الأخلاق ومفاحش الأفعال ويرتكبها في خلواته ، وتارك العمل مع الجهل أعذر من تاركه مع العلم .

---

(١) بكسر الشين : حبل تشد به قوائم الدابة .
(٢) شردت الدابة : خرجت عن الإنقياد .
(٣) بين المعقوفين من النسخة (ر) .
(٤) وزعه : منعه وردعه ، ضارعه : شابهه .

وذلك كما قال أبو الأسود الدئلي[1] :

يا أيّها الرّجل المعلّم غيره ... هلّا لنفسك كان ذا التعليم؟
ابدء بنفسك فانهها عن غيّها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك نعلم ما تقول ونشتفي ... بالقول منك ، وينفع التعليم
ونراك تلقح بالرشاد عقولنا ... كيما نصحّ به وأنت عقيم!
لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم

والحازم من الناس من سدّ ثغور الهوى ، ورابط فيه جيوش الحجى إمّا بالإباء المرّ والعزم الفحل إن وثق من نفسه بالقوّة والاستقلال ، وإمّا بالتفويض إلى النصحاء إن أحسّ من نفسه بالضعف والانحراف ، لأنّه إنّما يجاهد عدوّاً نازلاً بين جنبيه مالكاً لجميع جوارحه مسلّطاً عليه ، فإن أطاقه على الانفراد وإلّا فليشاوره بالأعوان والأعضاد .

وفي كلام بعض الخطباء : أيّها الإنسان ! حسبك علمك بك خصماً ، وكفى بالسكوت عنك ذمّاً أنّك لم تغادر من مورد العقل حمى لم تصنه ، ولم تدع من هوى النفس بارقاً لم تشمه ، فما الّذي فتح عليك هذا الباب حتّى بوّأت ساحته ، وسكنت باحته ، وماذا وجدت من هذا الحساب حتّى غلقت أسبابه ، ولبست جلبابه . أما تحذر خطّة الاغترار أما تتّقي ورطة سوء الاختيار ، أما تعلم أنّ الهوى رتاج دون باب التوفيق ، وأنّ هذه الأمّارة بالسوء ضلّ بكلّ طريق ؟ إن سعت للخير فخفيفها يرسن[2] ، وسريعها يقطف[3] وإن نهضت بالشرّ سبق الطرف مهلها ، وفات الوهم عجلها . يحارب باطلها الحقّ بسلاح كليل إلّا أنّه يقطع ، ويقرّب هواها المرّ بعضدٍ واهٍ إلّا أنّه يرجع . يصدّ عن العدل والإحسان ويأمر بالشرّ لكلّ لسان . هذا يوسف صدّيق الله ابن إسرائيل الله ابن ذبيح الله لم

---

(١) الأبيات من قصيدة لأبي الأسود عند العيني في شواهد الألفية (٤ : ٣٩٣) والسيوطي في شواهد المغني : ١٩٤ وفي قائل آخر الأبيات اختلاف كثير . أنظر شواهد المغني ٢٦٤ وشرح شواهد مجمع البيان (١ : ٢٥٢ و ٢٥٥) .

(٢) رسن الدابة ـ من باب ضرب ـ : جعل على رأسها الرسن .

(٣) قطف الشيء ـ من باب ضرب ـ : أخذه بسرعة .

يـأمنها حتّى استعصم من شـريّتها وتبـرّأ إلى الله من تبرّيهـا فقال : ﴿**وما أبرّىء نفسي إنّ النفس لأمّارة بالسوء**﴾[1] فكيف بأنفسنا الغريقـة في بحور الشهـوات ، الغريقة في شرور السيّئات والخطيئات ؟

روى سعيـد بن أبي هلال عن أبي هـريرة قـال : كـان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إذا مـرّ بهذه الآية : ﴿**فألهمها فجورها وتقـواها**﴾[2] قـال : اللهمّ ألهم نفسي تقواهـا ، أنت وليّها ومولاها وخير من زكّاها .

وفي كلام بعضهم : اقدعوا[3] هذه الأنفس فإنّها أسأل شيء إذا أُعطيت ، وأعطى شيء إذا سئلت ، فرحم الله امرءاً جعل لنفسـه خطامـاً وزمامـاً ، فقادهـا بخـطامها إلى الله ، وتعـطّفها بـزمامهـا عن معصية الله ، فـإنّي رأيت الصبـر عن محارمه أيسر من الصبر على عذابه .

وقال بعضهم : امرؤ زوّد عمله ، امرؤ حاسب نفسه ، امرؤ فكّر فيما يقرؤه في صحيفته ويراه في ميزانه ، امرؤ كان عند قلبه راحة وعند همّـه فسحة ، امـرؤ أخذ بعنان قلبه كما يأخذ الـرجل بخـطام جمله فإن قـاده إلى طاعـة الله تبعه وإن قاده إلى معصية الله كفّه وردعه .

وقيـل لبعض الصـالحين : كيف أصبحت ؟ فقـال : كيف يصبـح من صحبته مع نفس معجونة بالشهوات في دار مملوءة من الآفات ، تعدّ عليـه الأيّام والساعات ، ويحاسبه في جميعه علاّم الخفيّات ؟ وأنشد :

أصـبـحـت فـي دار بـليّـات ... أرفـع آفـات بـآفـات
أصـبـحـت والـلّه فـي مـضـيـق ... هـل مـن دليـل عـلى طـريـق

وفي بعض الخـطب : تنبهكم الآيـات عن رقـدة الأغفـال وتهجعـون ، وتجليكم المثلات عن مشرع الإهمـال وتسرعـون . مـا للبصـائـر في الاختبـار

(١) سورة يوسف ؛ الآية : ٥٣ .
(٢) سورة الشمس ؛ الآية : ٨ .
(٣) قدع الدابة ـ باللجام من باب منع ـ : كبحها .

عليلة ؟ ما للأبصار في الاعتبار كليلة ؟ ما للنفوس على الهوى عاكفة ؟ ما للقلوب إلى المنى عاطفة ؟ إنّ الهوى مزمن القلوب واجتنابه شفاؤها ، والشهوة صيد النفوس ورفضها جلاؤها .

حدّث بعض الصالحين قال : أرقت ليلي فقمت إلى وردي فلم أجد ما كنت أجد من الحلاوة فأردت أن أنام فأقضّ المضجع ، فخرجت من الباب فإذا رجل على الطريق في عباءة فسمّاني ، فقلت : نداء من غير معرفة ، وطريق من غير موعدة ! فقال : سألت مالك القلوب أن يحضر لي قلبك ، قلت : قد فعل فما أربك[1] ؟ فقال : متى يصير داء النفوس دواؤها ؟ فقلت : إذا خالف النفس هواها صار داؤها دواؤها ، فأقبل على نفسه فقال : اسمعي قد أجبتك بهذا سبع مرّات فأبيت أن تسمعه[2] منّي ، قد سمعت فانصرفي .

وممّا يحكى في قمع الهواء قال أرسطاطاليس للإسكندر : احفظ عنّي ثلاث خصال فيها صلاحك وصلاح رعيّتك ، قال : وما هنّ ؟ قال : صل عجلتك بتأنّيك ، وسطوتك برفقك ، وضرّك بنفعك . قال : زدني ، قال : انصر الحقّ على الهوى تملك الأرض ملك استعباد .

وقال ابن المقفّع : عمل الرجل بما يعلم أنّه خطأ هوى ، والهوى آفة العفاف ، وتركه العمل بما يعلم أنّه صواب تهاون والتهاون آفة الدين والدنيا ، وإقدامه على ما لا يعلم أصواب هو أم خطأ لجاج واللجاج آفة الرأي .

ولمّا صارت نوبة ملك الأعاجم إلى كسرى أنوشيروان عطف على الصّبوح والغبوق[3] فكتب إليه وزيره رقعة يقول فيها : إنّ في إكباب الملك على هواه وشهوته وإدمانه الشرب في صباحه وعشيّه ضرراً على الرعيّة ، والوجه تخفيف ذلك ، والنظر في أمر المملكة . فوقّع على ظهر الرقعة : إذا كانت سبلنا آمنة ،

---

(١) الأرب بالتحريك : الحاجة .

(٢) في الأصلين «إلا أن تسعة» .

(٣) الصبوح : ما يشرب في الغداة ، والغبوق : ما يشرب في العشي . وفي الأصل «العبوق» سهواً .

وسيرتنا عادلة ، والدنيا باستقامة أُمور أهلهـا عامـرة ، وعمّالنـا بالحقّ عـاملة فلمَ تمنع فرحة عاجلة ؟

فقـالوا : إنّ هـذا الكلام وإن راق ظـاهره وأعجب مسمـوعه فحقيقتـه خطأ محض من وجوه :

أحدها أنّ الإدمان إفراط والإفراط مذموم ولو في الخير .

والآخر أنّه جهل أنّ أمر السبل وعدل السيـرة وعمارة الـدنيا والعمـل بالحقّ متى لم يوكّل بها الطرف الساهر ، ولم يحط بالعناية التامّة ، ولم تحفظ بالاهتمام الجالب لدوام الانتصار دبّ إليها النقص ، والنقص باب الانتقاص ، والانتقـاص مزيل للأصل مزعزع للدعامة .

وأيضاً فإنّ العمـر أعزّ من أن يـدال كلّه للأكـل والشرب والتلذّذ والتمتّـع ، فإنّ في تكميل النفس باكتساب الرشد لها وإبعاد الغيّ عنها ما يستـوعب أضعاف العمر ، فكيف إذا كان العمر قصيراً وكان ما يدعو إليه الهوى كثيـراً وكان متـاعها بائداً وما يصدّ عنه ويدعو إلى خلافه خالداً .

وأيضاً فإنّه ذهب عليه أنّ العـامّة والخـاصّة إذا وقفت على استهتـار الملك باللذّات وانهماكه في طلب الشهوات ازدرته واستهانت به ، وحدّثت عنه بأخـلاق الخنازير وعادات الحمر ، واستهانت الخاصّـة والعامّـة بالنـاظر في أمـرها والقيّم لشـأنها متى تكـرّرت على القلوب نطق بهـا اللسان ، واشتهـرت في المحافـل ، وانتشـرت بين الأكابـر والأصاغـر . ونادى من بعضهم إلى بعض . وهـذه مكسرة للمهـابة ، وقلّة الهيبـة رافعة للحشمـة ، وارتفاع الحشمـة بـاعث على الـوثبـة ، والوثبة غير مأمونة من الهلكة ، وما خلا الملك من طامع راصد وكاشح قـاصد ، وليس ينبغي للملك الحازم أن يظنّ أنّـه لا ضدّ لـه ينازعـه ولا خصيم يعارضـه ، فقد ينجم الضدّ والمنازع من حيث لا يحتسب ، وما أكثر خجل الـواثق وما أقـلّ حزم الراتق ، وما أشدّ يقـظة الفائق ! ومتى كـان السائس ذا تحفّظ وبحث وتتبّـع وحزم وإكباب على لمّ الشعث وتقويم الأود وقمع الهوى ورفض الهوينا احترست عنه الخاصّة والعامّة ، واستشعرت الهيبة والتزمت بينها النصفة ، وكفتـه كثيراً من

معاناتها[١] ومراعـاتها وإن كـان للدولة راصـد للعثرة يئس من تعـوّد الخبلة فيها ، لأنّ اللصّ إذا رأى مكاناً حصيناً وعهد عليه حرّاساً لم يحدّث نفسـه بالتعـرّض له وإنّما يقصد قصراً فيه ثلمة وباباً إليه طريق . والأغراض بـالأسباب ، وإذا ضعف السبب ضعف الغرض ولا سبب كالجدّ والتشمير ولا ثلمة كإضاعة الحزم وركوب الهـوى ، فإذا كـان اتّباع الهـوى وحبّ الشهـوات مفسـدة لهـذه الـدول الّتي هي بحسب الـدنيا ونـظام الملك الزائـل فكيف حـال من هـو قـدوة المسلمين وإمـام المؤمنين العـالم العارف بـأحكام الـدين المتّبع لهـواه والمحبّ لشهـواتـه المبيع آخرته بدنياه .

ولعمري إنّ صبوح كسـرى وغبوقـه أقلّ ضـرراً من لحس[٢] قصاع الشـرط وأهل المناصب ، لأنّ سكر السلطان يضرّ بنفسه وملكه الزائل ، وأمّا تناول العالم لقمة الظالم سمّ قاتل ليس لـه دواء إلاّ اجتنابـه . ومن أنكر ذلـك تابـع للشهوات محبّ للشبهات بل المحرّمات ، لأنّ المتناول للسمّ الممزوج بالماء من غير علم بسمّيّته قاتل[٣] لا محالة ، فمن كابر في هذا وردّه بوساوس صدره وموزون شعره ومعـوجّ طبعـه ومعـراج طعمـه فقـد جعـل الحسن قبيحـاً والقبيـح حسنـاً ، وهي الأضداد ، فيكون بزعمه الصدق قبيحاً والـظلم[٤] حسناً ، والعلم قبيحـاً والجهل حسناً ، والعفّة قبيحة والشره حسناً ، والعدل قبيحاً والظلم حسناً ، والكرم قبيحـاً والبخل حسناً ، والطاعة قبيحة والمعصية حسنة ، والزهد قبيحاً والرغبة في الدنيا حسنـة ، والحلال قبيحـاً والحرام حسنـاً ، كما هـو مذهب جـلّ أهل زمـاننا بـل الكلّ ، حتّى حملهم الشره وحبّ الأطعمة على التطفيـل من غير دعـوة سابقـة ، ولا وعدة صادقة ، فيكون من هذا حالـه قد أكـل حرامين ، وارتكب خـطيئتين ، وأكبّ على الخصلتين الموبقتين السابقتين : الصبـوح والغبوق ؛ لأنّـه يتغدّى من بيت ويتعشّى من آخـر ، فمـرتكب هـذه الـطريقـة زائـغ عن العفــاف ، متجنّب

---

(١) المعاناة ؛ المقاساة وتحمل التعب .

(٢) لحس الإناء ـ من باب علم ـ : أخذ ما علق بجانبه بلسانه أو اصبعه .

(٣) كذا ، والصواب : مقتول لا محالة .

(٤) كذا ، والصواب : الكذب .

الكفاف لأنّه لم يرض لنفسه بالقناعة وإنّما هي عنده مجاعة بل صرّاعة ، فإن أردت أن تمرّن نفسك على التطفيل فاستمع لهذا التمثيل وما تلوته على مسامعك :

أيّها الشره سابقاً كالخلّ فأتبعه بدستور عندك كالخلّ ، فنقول : ينبغي أن تقف على غلوة[1] من الأبواب وتتأمّل من يدعى إلى الولائم من الأصحاب ، فإذا وجدت بعض من يحتشم وحواليه الخول والخدم تلقّيته من بعيد ، وصقعت[2] له صقوع العبيد ، وتقول : إنّ فلاناً ـ يعني صاحب الدعوة ـ شديد الانتظار لقدومك ، متبرّك جدّاً بموطىء قدمك ، وهو والجماعة إليك متشوّقون ، وبمكانك متشرّفون ، فما أنت والله إلّا أبّهة المجالس ، وزينة المواكب ، وما أنت فيها إلّا كالشمس بين الكواكب ، فتحدّثه بمثل هذه الأحاديث حتّى إذا دنا من الدار سبقت القوم إلى استفتاح الباب ، وتتواضع مع البوّاب ، وتتطرّق له تطرّق الحجّاب ، فإذا أنت وسط المجلس حاضر وعود السعادة منك ناضر ، فيظنّ صاحب الدعوة في نفسه أنّك من حشم ذاك المحتشم ، والمحتشم يقدّر أنّك من بطانة المضيف المطعم ، فتتمكّن حينئذ من بلوغ المراد وترتع في الخصيب من الزاد ، وتكون من القوم الّذين وصفهم الله في كتابه : **﴿مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء﴾**[3] .

وإذا أعياك ما أشرنا إليه وما تقدر عليه من سائر الحيل ، أو قعدت بك النجعة[4] عند أرباب الدول أو ألجأك الزمان إلى معاناة السفل ، فاختر عند ذلك دار الغربة : فإنّ ذلك أجلى للكربة ، وقد وقعت بمعزل من الأنفة والاستنكاف ، ولو صرت عسيفاً على الحمار والآكاف ، وإن اضطررت فيها إلى الكدية فعليك بتغيير الحلية وليكن أكثر تصرّفك في اللحية .

ولا يتمّ لك ما ذكرته إلّا بشرطين : الأوّل أن تكون غير معروف والثاني أن

---

(١) الغلوة بفتح الغين : رمية سهم .

(٢) أي وقفت على ناحية منه .

(٣) سورة النساء ؛ الآية : ١٤٢ .

(٤) بضم النون طلب الكلاء في مواضعه .

لا تكون بالتقوى موصوفاً[1] وقلّة الحياء تجعلها بضاعة ، فهي الّتي تشبعك عند المجاعة . فتصير لحلوائهم هاضم ، ولدينك حاطم ، وخير ما لك أن تدّعي النسك والسلوك ، خصوصاً عند الأمراء والملوك ، فإذا جلست في مجلس الحمقاء من الناس تناعس وإن لم يكن بك نعاس ، وقل : أوهنت جسدي بالصوم ، وأذهبت عن مقلتي النوم وسهرت ليلي بالطاعات ، ودئبت بالقيام بوظائف الصلوات المسنونات ، فلك في مثل هذه الأسباب نيقة[2] وإن لم يكن وراءها حقيقة ، ولا تمون على ذلك من مال إلّا مرقّعة تؤلّف من أسمال أو خرقة كُحليّة وعمامة مليّة فخالطهم وباسطهم وعاشرهم وعاصرهم ، وكن لهم في استجلاب المرافق رائداً ، وإلى حيث ترجو قبول أقوالهم عائداً ، وتخلّق بأخلاقهم ، ولا تخالف في شيء ممّا يعود بوفاقهم ، وتعرّف سيرهم وطرائقهم في الخلوات من مطاوعة الشهوات واللهوات ، والاشتغال بالصلوات في بعض الأوقات ، فإذا جريت في جميع ذلك مجراهم واستمريت[3] على دأبهم ومسعاهم فتصل إلى كثير من المنافع بوُكدك وكدّك ، وترفع في المجالس بمكرك وكيدك ، فتارة يسوقون المنافع إليك بمساعيهم ويستثيرون الرزق من الحفائر بمساحيهم[4] ، فترى أبواب الوسائل عليك مفتوحة ، ولك فيها دون سائر الحرف والمكاسب مندوحة .

وقد قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : «المؤمنون كالبنيان يشدّ بعضهم بعضاً» وأستغفر الله لي ولك ممّا تفوّه به القلم وإنّما هي نفثة مصدر ومصدرها الألم .

وليس اعتقاد المرء ما خطّ كفّه   كما أنّ حاكي الكفر ليس بكافر

يا إخوان الوفاء وخلّان الصفاء ! لا يفوتنّكم وعظي إن فاتكم الدهر بنفسي ، إنّ بين حيزومي[5] لبحراً من الكلم لا أجد له مواقع غير أسماعكم ،

---

(١) في الأصلين «لا تكن بالتقوى موصوف» .
(٢) النيقة اسم من التنوق ، وهو التجود في الشيء .
(٣) استمرى اللبن : استخرجه ، والأنسب : استمررت .
(٤) جمع المسحاة .
(٥) الحيزوم : ما اكتنف الحلقوم من جانب الصدر .

ولا مقارّ إلّا قلوبكم فتلقّوها بأسماع صاغية ، وقلوب واعية تحمدوا عواقبها ، إنّ الهوى يقظان والعقل راقد والشهوات مطلقة والحزم معقول ، والنفس مهملة والرؤية مقيّدة ، ومن اتّبع الهوى أبطل رأيه ومن أحبّ التواني أتلف الحزم ولن يعدم المشاور مرشداً إن كسر نفسه وعلم أنّ فوقه من هو أعلم منه بآفات النفس . وأيضاً إنّ المستبدّ موقوف على مداحض الزلل ومن سمّع سمع به ، ومصارع الألباب تحت ظلال الطمع ، وعلى الاعتبار طريق الرشاد ، ومن سلك الجدد أمن العثار ، ولن يقدم الحسود أن يتعب قلبه ويشغل فكره ولا يتجاوز ضرّه نفسه . والصبر على جزع الكظم أحلى من جني ثمر الندم ، ومن جعل عرضه دون ماله استهدف الذمّ ، وكلم اللسان أنكى[1] من كلم الحسام ، والكلمة مزمومة ما لم تنجم من الفم فإذا نجمت فهي سبع محرب ، أو نار تلتهب ، ورأي الناصح اللبيب دليل لا يجوز ونفاذ الرأي في الحرب أنفذ من الطعن والضرب .

وممّا جاء في أخبار المنصور حكاية تدعو إلى ترك الهوى ومجانبة اللذّات ورفض المعاصي والشبهات .

حدّث الربيع عن عبد الصمد بن عليّ أنّ المنصور سمر ليلة وعنده عيسى بن موسى وعيسى بن عليّ وصالح بن عليّ ومحمّد بن إبراهيم بن محمّد وغيرهم من رؤساء عشيرته ، فذكروا خلفاء بني أُميّة وسيرتهم ورجالهم وأفعالهم ، والسبب الّذي سلبوا بذلك ملكهم مع كثرة العُدد والعَدد ، فقال المنصور : ما زال آل مروان ضابطين ما تمهّد لهم في الأرض من السلطان يحوطونه ويحفظونه بتسنّمهم لمعالي الأُمور ، ولخطمهم أنفسهم عن هواها حتّى أفضى أمرهم إلى أبنائهم المترفين ، فكان الذّات جهلاً منهم باستدراج الله وأمناً منهم لمكر الله ، مع اطراحهم صيانة الخلافة ، واستخفافهم بحقّ الرئاسة ، وضعفهم عن السياسة ، فهذه الأعمال المردية الدنيّة أدّاهم إلى أن سلبهم الله العزّ ، وألبسهم الذلّ ونقل عنهم النعم وحوّل عنهم الكرامة وأذاقهم وبال أمرهم .

---

(١) أي أشد وقعاً .

فقال صالح بن عليّ : يا أمير المؤمنين ! إنّ عبد الله بن مروان بن محمّد لمّا دخل أرض النوبة هارباً ممّن اتّبعه سأل ملك النوبة عن حالهم ونكبتهم فأخبر بأمرهم والسبب الّذي زال عنهم به النعمة ، فخصره وكلّمه في ذلك بكلام عجيب سقط عنّي حفظه ثمّ أشخصه عن بلده ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يدعو به من الحبس ليحضرنا في هذه الليلة ونسأله عنه فعل ، فأمر المنصور بإحضاره فلمّا مثّل بين يديه ، قال : يا عبد الله ! قصّ عليّ قصّتك وقصّة ملك النوبة ، فقال :

يا أمير المؤمنين ! قدمت أرض النوبة بأثاث سلّم لي ففرشته بها وأقمت ثلاثاً فجاءني ملك النوبة ، وقد شهر أمرنا فدخل عليّ فرأيت رجلاً طوالاً أقنى آدم[1] حسن الوجه فقعد على الأرض ولم يقرب الثياب ، فقلت : ما منعك أن تقعد على ثيابنا ؟ فقال : إني ملك وحقّ لمن ملك أن يتواضع لعظمة الله إذ رفعه الله ، ثمّ قال : لم تَشربون الخمور وهو محرّم عليكم في كتابكم ؟ فقلت : اجترأ على فعل ذلك عبيدنا وأتباعنا ، لأنّ الملك زال عنّا ، فقال : ولم تطأون الزرع بدوابّكم والفساد محرّم عليكم في كتابكم ؟ فقلت : فعل ذلك عبيدنا وأتباعنا بجهلهم . قال : فلمَ تلبسون الديباج والحرير وحلية الذهب والفضّة وهي محرّمة عليكم في كتابكم ؟ فقلت : ذهب منّا الملك فقلّت أنصارنا فاستنصرنا بقوم من الأعاجم دخلوا في ديننا فلبسوا ذلك على الكره منّا ، فأطرق إلى الأرض وجعل يقلّب يده مرّة ومرّة ينكت في الأرض ويقول : «عبيدنا وأتباعنا وأعاجم دخلوا في ديننا فزال عنّا الملك وذهب منّا» جعل يردّد ذلك ثمّ رفع إليّ رأسه فقال : ليس ذلك كما ذكرت بل أنتم قوم أطعتم هواكم واتّبعتم شهواتكم ، فاستحللتم ما حرّم الله عليكم وركبتم ما عنه نهيتم فسلبكم الله العزّ وألبسكم الذلّ بذنوبكم ، وإنّ لله نقمة لم تبلغ غايتها فيكم وأنا أخاف أن يحلّ بكم العذاب وأنتم ببلدي فيصيبني معكم ، وإنّما الضيافة ثلاثة أيّام وتزوّد ما أردت وارتحل . ففعلت ذلك .

---

(١) الأنف الأقنى : ما ارتفع وسط قصبته وضاق منخراه . آدم : أسمر اللون .

فعجب المنصور من حديثه وأطرق مفكّراً ورقّ له وهمّ بـإطلاقـه ، فأعلمـه صـالح بن عليّ أنّ لـه في رقبته تبعـة ، فأمـر بإعـادتـه إلى الحبس ، ونهض من المجلس إلى دار النساء وقيّد .

وممّـا أُنشد في آفـة الهوى واتّبـاعه وضرر الشهوات وركوبها، قال عمرو بن العاص :

إذا المــرء لم يـتــرك طعــامــاً يـحبّــه ولم يعص قلبـاً غـاويـاً حيث يمّـمـا
قضى وطــراً مـنــه يسيــراً وأصبحت إذا ذكــرت أخــلاقــه تـمــلأ الـفـمـا

آخــر :

كـنـت فـي نـعـمـة وظـلّ رخـاء ونــسـيـم مـن الــنـعـيـم رخـاء
فـاتّـبعـت الهــوى وخـلّفت رأيـي واتّـبــاع الـهــوى وبــيء الـهــواء

آخــر :

إنّ الهــوان هـو الهــوى، جزء اسمـه فـإذا هــويـت فقــد لـقـيـت هــوانـا

العتبيّ :

أتـظنّـني أنـسـى أيـاديـك الّـتـي أهــدت إليّ مـع الـزمـان أمـانـا
يـا ذا الّـذي جعـل المحبّـة محنـة وهــوى الـقلوب مـذلّـة وهــوانـا

أبو العتاهية :

فـاعص هـوى النفس ولا تـرضهـا إنّــك إن أســخــطتــهـا زانــكـا
حتّى متـى تـطلب مـرضـاتـهـا وإنّــهــا تــطلب عــدوانــكـا

آخــر :

أطـع الحكيم إذا الـحكيم نـهـاكـا إنّ الــحـكـيـم إذا نــهــاك هــداكـا
واعــلم بــأنّــك لا تــســود ولا تــرى سـبــل الـرشــاد إذا أطعـت هــواكـا

حاتم :

وإنّك إن أعطيت بطنك سؤله ... وفرجك نالا منتهى الذمّ أجمعا

عديّ بن زيد :

فنفسك فاحفظها عن الغيّ والهوى ... متى تغوها يغوى الّذي بك يقتدي

آخر :

نهاية أهواء القلوب بعيدة ... ومن دونها للحادثات مصائد
فنحن كظبي يبتغي الجبّ مسرعا ... ودون الدلى يبغيه فخّ وصائد

آخر :

أمرحت نفسك في هواك ولمتني ... لو كنت تنصف لمت نفسك دوني
ما بال عينك لا ترى أقذاءها ... وترى الخفيّ من القذى بجفوني

آخر :

يجدّ بنا الزمان ونحن نلهو ... ولا ندري متى يرد الحمام
ويخدعنا الهوى في ظلّ عيش ... يمرّ بنا كما مرّ الغمام
كركب سفينة في لجّ بحر ... تسير بهم وهم فيها نيام

والأهمّ للإنسان في أدب النفس أن يغضب عليها لا لها ، وأن لا يُنيلها آمالها لعلّه يستريح من شرّها وسوء أفعالها .

الفصل التاسع عشر

في غضب الأنفس والحكمة في وضعه فيها والسعي في توهينه واستعمال الحلم مكانه[1]

والغضب لا يجب إبطاله من الأصل ، بل ربّما يحسن تحصيله وتهييجه لمكانه من حفظ الذمار وجهاد الكفّار والتنكّر للمنكرات والأخذ على يد الشهوات ، وهو بمنزلة كلب الصيد يراض ويعلّم ويؤدّب ويقوّم ليهيج بإشارة المكلّب وإشلائه إلى القنص[2] الحلال ، فكذلك أمر الغضب فإنّما رياضته في تأديبه حتّى ينقاد للعقل ، فلا يستعصي على الشرع ، بل يهيج بإشارتهما ويسكن على إرادتهما .

فالواجب في الغضب هو كسر سورته وإطفاء جمرته ، وذلك باعتياد الحلم وتكلّف الكظم ويعين عليه علم وعمل .

أمّا العلم فهو أن يعلم أنّه لا سبب لغضبه إلاّ إنكاره أن يجري الشيء على مراد الله لا على مراده ، وأن يتذكّر أنّ غضب الله عليه أعظم من غضبه ، وعذابه أشدّ وجنايته على حقّ الله أكثر ، ولطال ما عصاه وخالف أمره وتعدّاه ، فلم يعاجله بالمؤاخذة ولم يمنعه عن الكفّ والمراجعة .

---

(١) وانظر في الغضب وكظم الغيظ والحلم أُصول الكافي (٢ : ١٠٩ و ١١١ و ٣٠٢) وجامع السعادات (١ : ٢٨٦ ـ ٣٠٠) ومصباح الشريعة : ٣٧ ـ ٣٨ وجامع الأخبار : ١٣٣ و ١٨٣ وإحياء العلوم (٣ : ١٦٤ ـ ١٨٦) ومجموعة ورام (١ : ١٢٢ ـ ١٢٦) .

(٢) أشلى الكلب : أغراه : قنص الطير ـ من باب ضرب ـ : صاده ، والقنص بالتحريك المصيد .

وأمّا العمل فـأن يتعوّذ بـالله من الشيطان الـرجيم وينتقل عن هيئتـه ونصبته إلى هيئة أُخرى ، كما جاء في الحديث[1] «إنّه يجلس إن كـان قائمـاً ويضطجـع إن كان قاعداً» وفي سير العجم أنّهـا كانت إذا غضبت استلقت وإذا أعيت رفعت رجلها فإن سكن غضبـه وحدّتـه بذلـك وإلاّ توضّـأ أو تبرّد بـالماء ، كمـا جاء في الحـديث[2] : «إنّ الشيطان خلق من النـار وإنّما يـطفىء النار المـاء» وفي بعض أشعار ظرفاء العرب :

إذا وجـدت أوراً نُـحت فـي كـبـدي ... أقـبلت نـحـو سـقـاء الـقـوم أبـتـرد
هبـني بـردت ببـرد الـمـاء ظـاهـره ... فـمن لـحـرّ عـلى الأحـشـاء تـتّـقـد

وفي حـديث آخر[3] «ألا إنّ الغضب جمـرة في قلب ابن آدم ألا ترون في حمـرة عينيه وانتفـاخ أوداجه ؟ فمن وجـد من ذلك شيئـاً فليلصق خدّه بـالأرض» فيكون في توهين أعـزّ الأشياء في أذلّ الأشيـاء وضعاً من الكبـر الّذي هـو السبب الأعظم في ثوران الغضب .

وفي حديث آخر[4] «ما من جرعـة يجرعهـا العبد أحبّ إلى الله من جـرعة غيظ يكظمـها مـا كظمها عبد إلاّ ملأ جوفه أمناً وإيماناً» .

وقال بعض الخطباء : من اعتذر إلى الله قبـل الله اعتذاره ، ومن أطفـأ نار الغضب وقاه الله ناره ، ومن حفظ لسانه حفظ الله عليـه نعمته ، ومن اقتصـد في معيشتـه أحسن الله معونتـه ، ومن رزق العلم فقد نـال نعيماً وملكـاً كبيراً ، ومن وهب العلم فقـد أُوتي خيراً كثيـراً ، ومن ملك غيظه كـان ملكاً زاكيـاً ، ومن ثـار غضبه كان سبعاً عادياً فإن أردتم تحليـة أنفسكم برأس الفضـائل وتخليتهـا من أُمّ الرذائل فتصوّروا قبح صورة الثائر الغضبان وحسن وجـه الحليم الجنان ، وتبيّنـوا ما يأخذه الغضب من أنفسكم بادئاً ثمّ متى غضبتم عليه ثانياً .

---

(١) مأخوذ من حديث نبوي خوطب به أبو ذر . رواه في الإحياء وانظر الكافي .
(٢) رواه في مجموعة ورام .
(٣) الكافي عن الباقر عليه السلام ، والإحياء ومجموعة ورام عن الخدري .
(٤) في الكافي عن السجاد والصادق عليهما السلام ، وفي الاحياء ومجموعة ورام عن ابن عمر .

رأى سقراط رجلاً يضرب غلاماً له وهو يرتعد غضباً ، فقال : ما الّذي بلغ بـك هذا الّـذي أرى ؟ فقال : إسـاءة هذا الغـلام ، فقال : إن كـان كلّمـا جنى عليك جنايـة سلّطته على نفسـك تفعل بهـا ما أرى فمـا أسرع مـا تذهب نفسـك مبدّدة من هذا الفعل .

وكان المأمون يقول : إن كان كلّما أساء غلام من غلماننا فعـلاً فساءت بـه أخلاقنا أوشك ذلك في أخلاقنا حتّى لا يبقى لنا حسنة كما لا يبقى لهم سيّئة .

ويقـال : إنّ بعض ملوك الإسـلام بمـدينـة السـلام ممّن كمـل في عقله وخصاله وتناهى في عزّه وحاله خلا يوماً بذات قلبـه وعرض حـال أُموره على لبّـه فقال : مالي أرضى عن نفسي بأن يكون لبدني أطبّاء يحفظون صحّته مـوجودة ، ويطبّون في ردّها مفقودة وليس لأخلاقي من طبيب يداويها ويصونهـا عمّا يـدنّسها ويؤذيها . ثمّ استحضر كلّ موثوق به في العلم والديانة ، مستوثق منـه بالنصيحـة والأمانة ، فقال يوماً لأمثلهم طريقـة وأعدلهم خليقـة : إنّي مع مـا أفردت بـه من ملك تفتّحت له عيون الزمان ، واستوعب من ممالك الإسلام كلّ مكان ، شـديد الوجوم[1] كثير الغموم ، من غلبـة سلطان هذا الغضب الّـذي أوّله سفـه وقباحـة وآخره تأسّف وندامة ، فأسألـك أن تعالجني أبـداً من بوادره وتـوكل على أفعـالي من رأيـك بصيرة من بصـائره ، فقـال الرجـل : أما فـاسمع منّي جملة عـلاج ما أنكرته من نفسك عاجلاً إلى أن يتّصل تفصيلها عندما أُنكره منها آجلاً .

اعلم أيّها الملك أنّك أصبحت وليس فوق يدك للمخلوق يـدٌ يدفعـك عمّا أردته ، ويجليك عن مورد وردته ، وإنّك بالغ ما تـريد من أيّ إنسـان ، وفي أيّ وقت وأوان .

ثمّ اعلم أنّ الغضب يحـدث في المرء من السكـر فوق مـا يحدثـه صـرف الخمـر ، وأنّ حال الغضبـان بعد الـرضا حـال السكران إذا صحـا ، فيجب كلما يبتـدىء بك الغضب وتحسّ من نفسـك بـالغلب ، أن تضـع في نفسـك تـأخيـر

(١) وجم ـ من باب وعد ـ وجوماً : سكت وعجز عن التكلم من شدة الغيظ أو الخوف .

العقوبة لتعب ليلة ونجم عشيّة فإنّك في مثلها تصحو عن سكرها وتسكن عن بوادي فورها ، ثمّ تدبّر في الأمر فإن كان ممّا يسعه العفو ويكفي فيه العتاب والعذل فالعفو أحسن وأولى ، وأقرب لك من التقوى ، وإن لم تسمح السياسة بالتجافي عنه والتجاوز منه وقفت بالعقوبة عند قدر الذنب ولم تتعدّه ولم تتجاوز حدّه إلى ما يقبّح ذكرك ، ويوبق دينك ، ويمقت عليك نفسك . وإنّما يصعب هذا التدبير في أوّل الأمر بادئاً ، ثمّ يصير عادة وملكة ثانياً، فلا يزال توهين هذه القوّة العادية وتمرين سورتها الطاغية يتبيّن لك البركة في الأمور ، والفسحة في التعمير والثناء من الخلق في العاجلة ، والرحمة من الله في الآجلة .

وقد جاء في تفسير قول الله عز وجلّ **﴿إنّ الّذين اتّقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون﴾**[1] أنّ الطيف من الشيطان هو الغضب ، فإذا غضبوا تذكّروا أنّهم ليسوا بأرباب بل هم أنفس فانية ، وأبدان بالية يوشك أن تفيض فيضاً ، ويأكل بعضها بعضاً ، فيكون هذا الإبصار الّذي نبّهنا عليه بقوله تعالى : **﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾**[2] وإلاّ فمن أين يصل غيره غضباً من لا يبقى بنفسه أبداً .

إن كان ذا لحم فلحمك لحمه ... أو كان ذا عظم فعظمك عظمه
أو إن عداك أب وأمّ قبله ... فكذلك أنماه أبوه وأمّه

وحدّث بعضهم قال : كنت على الحبس بمدينة السلام وقد ضاق الممر لجمال من خراسان وافته ، فنظر بعض أولئك الخراسانيّين إلى ابن بقيّة مصلوباً فسألني عنه فقلت : وزير غضب عليه ملك منذ زمان ، فقال : وما فعل ذلك الملك ؟ فقلت : مات ، فقال : ما أعجب ! الملك المغضوب تحت الأرض وهذا المصلوب المغضوب عليه فوق الأرض ! ثمّ تلا قوله تعالى : **﴿فلولا إن كنتم غير مدينين * ترجعونها إن كنتم صادقين﴾**[3] .

---

(١) سورة الأعراف ؛ الآية : ٢٠٠ .

(٢) سورة الذاريات ؛ الآية : ٢١ .

(٣) سورة الواقعة ؛ الآيتان : ٨٦ ـ ٨٧ .

وعن سفيان بن عينية قال : حجّ الرشيد فلقيني جعفر بن يحيى في الطواف فقال لي : ما منعك من الدخول على أمير المؤمنين ؟ قلت : لم يرسل إليّ ، قال : فأنا رسوله إليك فإذا كان بالغداة فادخل عليه ، قال : فأتيت الباب فلم أُحجب ، فلمّا نظر إليّ جعفر تلقّاني فقال : إنّك وافقت أمير المؤمنين في ساعة اشتدّ فيها غضبه ، فلا تكلّمه بحلو ولا مرّ ، قال : فسلّمت فإذا برجل مكبّل في الحديد قائم بين يديه وهو يقول : قتلني الله إن لم أقتلك ! والرجل يقول : يا أمير المؤمنين ! الله الله في دمي ، فإنّي مكذوب عليّ ، قال : وبين يديه النطع والسيف فقلت في نفسي : رجل يقتل ولا أدري فيم يقتل ، فقلت : يا أمير المؤمنين ألا أدلّك على أدب الله وأدب رسوله ﷺ فالتفت إليّ مغضباً فقال : وما أدب الله ؟ فقلت : قال الله عزّ وجلّ : ﴿يا أيّها الّذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبيّنوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين﴾[(1)] قال : وما أدب رسوله ؟ قلت : قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم : «لا تصدّق قتّاتاً» وكلّ من جاءك بخبر تصيب من مؤمن مكروهاً فهو قتّات نمّام . قال : فأمر بإطلاقه وقال : عليّ بكرّاسة سفيان ، فقرأ عليّ ثلاثين حديثاً وأمر لي بثلاثين ألف درهم .

وعن الحسن في قول الله تعالى : ﴿وعباد الرحمن الّذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً﴾[(2)] قالوا : صبراً ثبت علماً وحلماً ، إن ظلموا لم يظلموا ، وإن بغي عليهم لم يبغوا ، قد براهم الخوف كأنّهم القدح[(3)] .

وفسّر عكرمة قوله عزّ وجلّ : ﴿وسيّداً وحصوراً﴾[(4)] أنّ السيّد هو الّذي يغلب غضبه حلمه وجهله علمه .

---

(1) سورة الحجرات ؛ الآية : ٦ .

(2) سورة الفرقان ؛ الآية : ٦٣ ورواه عن الحسن الغزالي مع تغيير .

(3)ابرى الناقة ـ واوي اللام من باب نصر ـ : جعل في أنفها حلقة السوار . والقدح : إناء يشرب فيه ولا يقال له القدح إلا إذا كان فارغاً . والمراد به هنا قدح الراكب فإن الراكب يعلق قدحه في آخرة الرحل فيكثر حركته . والمعنى إنهم مضطربون ـ كالقدح ـ من شدة الخوف .

(4) سورة آل عمران ؛ الآية : ٣٩ ورواه عن عكرمة الغزالي .

ولمّا نزل قوله تعالى : **﴿خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين﴾**[1] **قال جبرائيل : يا محمّد هو أن تحلم عمّن شتمك ، وتعفو عمّن ظلمك ، وتعطي من حرمك .**

فابسطوا عنه حلمكم وأطلقوها ، واحبسوا ثواري غضبكم وأوثقوها ، وأحسنوا معاشرة من يجاملكم ويواصلكم ، واتركوا معاشرة من يداخلكم ويعاملكم ، ولا تمرّوا في الغيظ على غلوائكم ولا تظهروا على أحد صولة جوركم واعتدائكم ، واثبتوا على الكظم إن وجدتم قدماً ، واقصدوا في المشي إن كان طريقكم أُمماً ، وتجافوا عن ذنوب الأصدقاء ، وتصامموا عن الكلمة العوراء .

وممّا أُنشد في هذا المعنى[2] :

وعوراء جاءت من أخ فرددتها ... بسالمة العينين طالبة عذرا
ولو أنّها إذ قالها قلت مثلها ... ولم أعف عنه أورثت بيننا غمرا
فأغضيت عنه ، وانتظرت بها غداً ... لعلّ غداً يبدي لمنتظر أمرا
ولا ترع ضغناً كامناً في فؤاده ... وأقلم أظفاراً أطال بها حفرا

آخر :

لقد أسمع القول الّذي كاد كلّما ... تذكّرنيه النفس قلبي يصدّع
فأبدي لمن أبداه منّي بشاشة ... كأنّي مسرور بما منه أسمع
وما ذاك من عجب به غير أنّني ... أرى أنّ ترك الشرّ للشرّ أقطع

آخر :

لن يدرك المجد أقوام وإن كرموا ... حتّى يذلّوا ـ وإن عزّوا ـ لأقوام
ويُشتموا فترى الألوان مسفرة ... لا صفح ذلّ ولكن صفح أحلام

---

(١) سورة الأعراف ؛ الآية : ١٩٨ .

(٢) وانظر في أشعار وحكايات تناسب الباب المستطرف (١ : ١٨٧ ـ ١٩٧) .

آخـــر :

وإنّي لأُسقي الشهـد صـاحبي الّـذي ... يكلّفني أن أشـرب السمّ منقعـا[1]
وعنـدي لصلح الجـار إن شـاء مـوضعـاً ... وإن جـار أو لم يبق للصلح مـوضعـا

آخـــر :

أصـمّ عـن الـكـلـم الـمـحـفـظات ... وأحـلـم ، والـحـلـم بـي أشـبـه
وإنّـي لأتـرك جـلّ الـكـلام ... لئـلا أُجاب بـمـا أُكـره
إذا مـا احتـرزت سفـاه السفيـه ... عـليّ فـإنّـي أنـا الأسـفـه
فـلا تـغـتـرر بـرواة الـرجـال ... ومـا زخـرفـوا لـك أو مـوّهـوا
فكم من فتى يعجب الـنـاظـرين ... لـه ألـسـن ولـه أوجـه
ينـام إذا حـضـر الـمـكـرمـات ... وعـنـد الـدنـاءات يـسـتـنـبـه

ومن الكلام الفصيح العالي الطبقة في هذا الباب قول القائل :

يـا أيّـهـا الـرجـل المـزجي أذيّتـه ... هـل أنت عن قـولك العـوراء تزدجـر[2]
إنّـي إذا مـدّ ، مـبـطاء إلـى أمـد ، ... لا يستطيع حـذاري المعزق النظر[3]
لاق فـيـأتـي مـصـدار عـسـورتـه ... لا قـادح يـتـعـنّـاهـا ولا حـور[4]
إنّـي لأصفـح عـن قـومي وأُلـبـسهـم ... عـلى الضـغـائن حتّى تـبـرء الميـر

الميـر الضغائن الّتي ذكرها في حشـو البيت ، أي أُلبسهم على الضغـائن حتّى تبرأ الضغائن .

ودخل جاثليق النصارى على مصعب بن الزبير فكلّمه بكلام أغضبه فعلاه بقضيب فتركه حتّى سكن غضبه ثمّ قال : إن أذن الأمير أخبرته بما أنزل الله على المسيح عليه السلام فأصغى إليه فقال : إنّ الله أنـزل على المسيح عليه السلام أنّـه لا ينبغي

---

(١) المنقع : السم البالغ القاتل .
(٢) زجى وأزجى شره : دفعه . والأنسب «المرخي أزمته» .
(٣) المعزق في الشيء : المسرع فيه . ولعل الصواب : المغرق البطر .
(٤) لم اتفهم معناه ، وما أكثر التصحيف في هذه الأبيات !

للسلطان أن يغضب فإنّه إنّما يأمر فيطاع ، ولا ينبغي أن يعجل فليس يفوته شيء ، ولا ينبغي أن يظلم فإنّما به يدفع الظلم : فاستحيا مصعب وترضّاه .

وممّا يكفّ عن الغضب ويحثّ على الحلم قصّة ذي الكفل[1] ، فإنّ اليسع قال ذات يوم لقومه : إنّه قد وهن العظم وضعف الجسم ، وتخاذلت القوى وتقاصرت الخطى ، وها أنا واقف على ثنيّة الوداع من الدنيا ومتوجّه عنها إلى الدار الأخرى ، فلو استخلفت عليكم من أرتضي عمله ، فحمدوا رأيه ورضوا قوله ، فجمع أصحابه وقال : من تكفل لي بأن يظلّ نهاره صائماً ويبيت ليله قائماً ولا يغضب على الناس إذا لحّوا عليه مخاصمين ، ويحلم عنهم إذا ضجروه محاكمين ، حتّى أولّيه عليهم ؟ فقام إليه رجل ينبو عنه البصر ويغمض عنه النظر ، فقال : أنا ذاك ، ثمّ أعاد القول ثانياً وثالثاً فقام القائم أوّلاً فقال : أتكفل لي بذلك ؟ فكفل له .

فكان يدأب النهار في الصيام والليل في القيام ، ويقضي بين الناس من مطلع الفلق إلى مغرب الشفق ، سوى ساعة يقيلها عند قيام الهواجر[2] والتهاب وقدة الظهائر[3] .

فجاء الشيطان في صورة شيخ ضعيف وقت قائلته ، وفاوضه في ذكر ظلامته ، وطوّل حتّى فاتته القائلة ، فقام ذو الكفل وقال : إنّي متوضّ لصلاتي وعائد إلى مجلسي فأحضر خصمك لأعديك عليه ، وآخذ بحقّك منه ، فلم ير يومه ، فبات واجماً[4] له ليله ، وأصبح من غده قاضياً بين الناس حتّى انتصف النهار وبلغت الشمس كبد السماء ، فعاد إلى منزله ليجمّ باستراحة إعياءه[5] ويريح بإغفائه[6] أعضاءه ، أن دقّ عليه الشيطان الباب في يومه وأيقظه من

---

(١) رواه مع تغيير في المجلد الخامس من البحار في أحوال ذي الكفل .
(٢) جمع الهاجرة : شدة الحر ، نصف النهار في القيظ .
(٣) جمع الظهيرة : حد انتصاف النهار .
(٤) أي مجهوداً بالتعب . كذا بهامش الأصل .
(٥) جم : استراح . والاعياء : التعب والكل .
(٦) الإغفاء : النوم .

عرار[1] نومه ، فقال : أين كنت بـالأمس وما أخّـرك عن محضر النـاس ؟ فقال : إنّ قومي أخبث قوم قالوا : نعطيك حقّـك اليوم ، ثمّ اعتلّوا عليّ ومـطلوني ولووا ديني[2] وجحدوني ، وطوّل القول حتّى فاتته القائلة ، فقام وتطهّـر وجلس للناس ينتظر الشيخ فلم يحضره وانصرف من غـده إلى منزلـه ليقيل على رسمـه ، وقال لبوّابه : لم تلتق أجفاني منذ ثلاثة أيّام ، ولا بدّ للتعب المكدود من جمام ، فـلا تأذن أحداً عليّ ولا تـدعه يـدخل إليّ ريثمـا[3] أقيل سـاعة واحـدة ، وأجد ممّـا عراني استراحة ، فجاء الشيطان فحجبه البوّاب فلم يمتنع ، ودخل الدار وأيقـظه فحين همّ أن يغضب ثبّته الله وعصمه فصبر عليه كـاظماً ، ونكص الشيـطان على عقبيه راغماً ، فذلك قـول الله عزّ وجـلّ : ﴿**واذكر إسمـاعيل واليسـع وذا الكفل وكـلّ من الأخيـار**﴾[4] وقـولـه : ﴿**إسمـاعيـل وإدريس وذا الكفـل كـلّ من الصابرين**﴾[5] .

قالوا : ولعزّة الحلم وقلّته ما نعت الله أحداً من الأنبياء نعتاً أقـلّ ممّا نعتهم به من الحلم فإنّه قال في إبراهيم عليه‌السلام وحده : ﴿**إنّه لحليم أوّاه منيب**﴾[6] .

وقـالوا : ليس الحليم من ظلم فحلم حتّى إذا قـدر انتقم ، ولكن من ظلم فحلم حتّى إذا قدر عفا .

وشتم رجـل المهلّب فلم يـردّ عليـه فقيـل لـه فقـال : لم أعـرف مسـاويـه وكرهت أن أتّهمه بما ليس فيه .

وقال[7] رجل من أهل الشام : قدمت المدينة بعد الحـرب الّتي كانت بين

---

(١) بفتح العين : نعمومة الشيء وطيبه .

(٢) لواه دينه وبدينه ـ واوي العين واللام ـ : مطله .

(٣) «ريثما» مركب من الريث و «ما» والريث هو مقدار المهلـة من الزمن .

(٤) سورة صٓ ؛ الآية : ٤٨ .

(٥) سورة الأنبياء ؛ الآية : ٨٥ .

(٦) أنظر سورة التوبة ؛ الآية : ١١٥ وسورة هود ؛ الآية : ٧٥ وقال تعالى في إسحاق ابنه في سورة الصافات ؛ الآية : ١٠١ ﴿**فبشرناه بغلام حليم**﴾ .

(٧) أنـظر الكامـل للمبرد (١ : ٢٣٥) والبحـار ومنتهى الآمال . ورواه المحـدث القمي لأخيه الحسين عليه‌السلام أيضاً عن بعض الكتب .

أهل الشام والعراق فرأيت رجلاً عليه بزّة جميلة ورداء حسن قد مرّ بي ، فسألت عنه فقيل لي : هذا الحسن بن عليّ ، فحسدت عليّاً أن يكون له ابن مثله ، فعرضت دابّتي في وجهه وقلت : بك وبأبيك أنت ابن أبي طالب ؟ فقال : أنا ابن ابنه ، قلت : بك وبأبيك ـ وشتمته وشتمت أباه ـ فأرمّ[1] لا يردّ عليّ حرفاً ، فلمّا فرغت أقبل عليّ وقال : أظنّك غريباً وقد سفهت ، فلو استغنيت بنا أغنيناك ، ولو سألتنا أعطيناك ، ولو استرشدتنا أرشدناك ، ولو استحملتنا حملناك قال الشاميّ : فولّيت عنه وما على وجه الأرض خلق أحبّ إليّ منه ، وما فكّرت فيما صنع وصنعت إلّا كثر حزني على نفسي .

أقول : ولعمري كم من حاسد شاميّ تعدّى على سيّد هاشميّ ، ولو أطلقت عنان القلم في توصيف ما نالني منهم لطال المقال بالذميمة وانهماكهم في الغيبة والنميمة ، ولم أشاركهم في شيء من حطام هذه الفانية ، ولا مددت يدي لما حوته أيديهم الجانية ، وفي المثل : «عدوّ المرء من يعمل بعلمه أو ينازعه في شرهه ومأكله» لكن :

ما ذي بأوّل مطرة ... مطرت على أسد الفلا

ولقد أحسن القائل منّا حيث قال :

نحن بنو المصطفى ذوو غصص ... يجرعها في القديم قائمنا
قديمة في الزمان محنتنا ... أوّلنا مبتلى وآخرنا
يفرح كلّ الورى بعيدهم ... ونحن أعيادنا مآتمنا
والناس في الأمن والسرور ولا ... يأمن طول الزمان خائفنا

* * *

يا من يسرّ لي العداوة أبدها ... واعمد لمكروهي بجدّك أو ذر
للّه عندي عادة مشكورة ... فيمن يعاديني ، فلا تتحيّر
أنا واثق بدعاء جدّي المصطفى ... لأبي غداة غدير خمّ فاعذر
واللّه أسعدنا بإرث دعائه ... فيمن يعادي أو يوالي فاصبر

---

(١) أرمّ : سكت .

واعلم أنّه يجب على كلّ مسلم محبّة من فضّله الله على سائر خلقه ويرغم بذلك أنف كلّ حاسد ليس له نصيب في مثل هذا الثواب ، فكما أنّه لا ينبغي لأحد من المسلمين أن يبغض مؤمناً لأجل إيمانه ، ومن بغض مؤمناً لأجل إيمانه صار كافراً ، فكذلك لا يجوز لمؤمن أن يبغض من قد خصّه الله بالطهارة ممّن ينتسب إلى العترة النبويّة .

وقد روي[1] في الخبر عن سيّد البشر أنّ «بغض الأنصار كفر» يعني إن كان بغضهم لأجل نصرتهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فكذلك هٰهنا لا يجوز لمسلم أن يعادي من ينتسب إلى هذه السلالة الطاهرة فإنّا رأينا كلّ من نصب العداوة لهؤلاء الأطهار أهلكهم الله تعالى ، ولم يبق على وجه الأرض منهم أحداً ، مصداق ذلك ما روي عن الإمام الصادق جعفر بن محمّد عليه السلام أنّه قال : «ما عادانا بيت إلّا خرب ، وما نبحنا كلب إلّا جرب» وربّما يتمنّى الحسود لأهل الشرف والحسب والدين أن يكونوا مثله في الدناءة والرذالة ، فإذا خالفوه إلى ما يناسب شرفهم وعلوّ قدرهم مقتهم وحسدهم ، لأنّهم لم يوافقوه على قصده لأنّه نوى الفضيحة لهم ، فلهذا يهيج الغضب وينتج للحاسد العطب ، وإنّما صرفت لمحة من أوقاتي وكتبت صفحة من ورقاتي لئلاّ يقتدى بفعل أمثال هؤلاء الحمقى الّذين غضبوا على من لا ذنب له عندهم .

والحمد لله الّذي شرّفنا على كثير من عباده المؤمنين ، ورزقنا الصبر والحلم على هؤلاء الحاسدين ، وجعلنا ممّن ينتسب إلى الأئمّة المعصومين الراشدين صلوات الله عليهم أجمعين ، فينبغي لنا ولأبناء جنسنا أن نقطع النظر عن مودّة أمثال هؤلاء لأنّهم الأقلّون الأرذلون ، فاليأس عن مودّتهم أولى ، فإنّ الراحة مقرونة بترك الطمع .

وقال الحسين بن الحجّاج في اليأس بعد الطمع :

يا يأسي الصادق فيه لقد ... أرحتني من طمعي الكاذب
ركبت فيكم أملاً لم أكن ... أخاف أن يغترّ بالراكب

---

(١) أُنظر صحيح البخاري (٢ : ١٩٢) .

فحكمكم لا رافضيّ إذا نظرتم فيه ولا ناصبي
لا ابن أبي سفيان يرضى به ولا عليّ بن أبي طالب

ولقد أطلنا المقال في هذا الباب في رسالتي «الاثنا عشريّة» فمن أراده فليقف عليه[1] .

ودخل جعفر بن محمّد عليه السلام على الرشيد[2] وقد استخفّه الغضب على رجل فقال له : يا أمير المؤمنين ! إنّك إنّما تغضب لله فلا تغضب له بأكثر ممّا غضب لنفسه .

وبعث إليه المنصور فأتاه فقال : إنّي أُريد أن أستشيرك في أمر : قد رأيت إطباق أهل المدينة على حربي ، وتأنّيت مرّة بعد أُخرى فلا أراهم ينتهون ، وقد رأيت أن أبعث إليها من يجمّر نخيلها ويغوّر عيونها فما ترى ؟ فسكت جعفر الصادق عليه السلام فقال المنصور: مالك لا تتكلّم ؟ قال : أتكلّم آمناً ؟ قال : قل ، قال : يا أمير المؤمنين ! إنّ سليمان بن داود أُعطي فشكر ، وإنّ أيّوب ابتلي فصبر ، وإنّ يوسف قدر فغفر ، وإنّ محمّداً صلى الله عليه وآله وسلم أُوذي فاحتمل وقد جعلك الله من نسل الّذين يغفرون ويصفحون فطفىء غضبه وسكت .

ويقال : أفضل رداء ارتدى به مرتد هو الحلم ، فإن لم تكن حليماً فتحلّم ، فإنّه قلّ من تشبّه بقوم إلاّ أوشك أن يكون منهم .

وذكر خالد بن صفوان قال : شهدت عمرو بن عبيد ورجل يشتمه ، وما ترك شيئاً إلاّ ذكره به ، فلمّا فرغ قال له عمرو : آجرك الله على ما ذكرت من صواب ، وغفر لك ما ذكرت من خطأ ، قال : فما حسدت أحداً حسدي عمرواً على هاتين الكلمتين .

ومن كلام المأمون المستحسن في هذا الباب : قليل السفه يمحو كثير الحلم ، وأدنى الانتصار يخرج من فضل الاغتفار ، وعلى طالب المعروف

---

(١) راجعه ص ٤٢٣ الباب الثاني عشر .
(٢) توفي الصادق عليه السلام في زمن المنصور ولم يدرك زمن الرشيد .

المعـذرة عند الامتنـاع والشكر عنـد الاصطنـاع ، وعلى المـطلوب إليـه تعجيـل الموعود والإسعـاف بالمـوجود ، وكـان يقول : لا يـوجد العجـول محموداً ، ولا الغضوب مسروراً ، ولا الحرّ حريصاً ، ولا الكريم حسوداً ، ولا الشره غنيّاً ، ولا المملوك[1] ذا إخوان .

والمأمون من الخلفــاء المشتهـرين بالحلم ، المنتشر ذكـره بالعفـو وكظم الغيظ ، ولو لم يكن من ذلك إلاّ مـا عامـل به إبـراهيم بن المهديّ[2] وقـد سلبه الخلافة وقام بها مـدّة سنة ، ومـا كان منـه مع الفضـل بن الربيـع[3] وقد تصـدّى لإيقاع كلّ مكروه به في أيّـام أبيه وأخيـه . لكان في ذلـك الحلم العظيم والأمـر البديع .

وقد حدّث يزيد بن الحسين العلويّ قال : بينا المأمون في يوم عيد ببغـداد على مائدته طاهر بن الحسين وسعيد بن سالم وحميد بن عبد الحميد وغيرهم من الأماثل وعلى رأسه سعيد بن الخطيب يقرّظه ويصف محاسنه ، إذا انهملت عيناه ورفع يده عن الـطعام فـأمسك القـوم حتّى إذا كفّ عن البكاء قـال لهم : كلوا ، قـالوا : وهـل نستلذّ شيئاً وسيّـدنا بهـذه الحال ؟ قـال : أما والله مـا ذاك لمكروه جـرت ولكنّه نـوع من أنواع الشكـر لله تعالى ، أمـا ترون ذلـك الّذي في صحن الـدار ـ يعني الفضل بن الـربيع ، وكـانت الستور رفعت ووضعت المـوائـد على المراتب وكان مجلس الفضل مع أصحاب الحرس ـ كـان في طول أيّـام الرشيـد يراني بوجـه أعرف فيـه البغضاء ، وعنـدي له مثـل ذلك وكنت أداريـه خوفـاً من

(١) في النسخة (ر) ولا الملوك .

(٢) هـو عم المأمـون ، ولد ونشأ ببغـداد ، ولاه الـرشيـد إمرة دمشق ، ادعى الخـلافـة زمن المأمون في بغداد وتغلب على الكوفة والسواد، والمأمون بخراسان ، وبقي على خـلافته سنتين ، فـطلبه المأمون وهدر دمه ، فـاستتر ست سنين . وكـان فصيح اللسـان ، جـواد الشعر ، وافر الفضل . ولد ١٦٢ وتوفي ٢٢٤ هـ الأعلام .

(٣) وزير أديب حازم ، كان أبوه الـربيع بن يـونس وزيراً للمنصـور فلما آل الأمـر إلى الرشيـد واستوزر البرامكة كان الفضل من كبار خصومهم ، حتى أبادهم الرشيد فـولاه الوزارة إلى أن مات الرشيد وأقره الأمين في وزارته فعمل على مقاومة المـأمون ، ولـما ظفر المـأمون استتر سنة ١٩٦ ثم عفا عنه . توفي بطوس ٢٠٨ أنظر الأعلام ٧٧٣ .

سعايته ، وإذا سلّمت عليه وردّ عليّ أظلّ لذلك فرحاً متبجّحاً ، وكان أغوى المخلوع[1] ودعاه إلى قتلي فتحرّك فيه عاطفة القرابة الماسّة ، فقال : أمّا القتل فلا ، ولكن أجعله بحيث إذا قال لم يطع ، وإذا دعا لم يجب . وكان أحسن حالاً بي عنده أن وجّه مع عليّ بن عيسى قيد فضّة بعدما تنازعا في القصّة ليقيّدني به ، وذهب عنه قوله عزّ وجلّ : ﴿**ومن [عاقب بمثل ما عوقب به ثمّ] بغي عليه لينصرنّه الله**﴾[2] ذلك موضعه من الدار بأخسّ مجالسها . وهذا الخطيب على رأسي كان يقف بالأمس على المنبر العربيّ ويزعم أنّي المأبون ولست بالمأمون ، ثمّ هو الساعة يقرّظني تقريظه المسيح أو محمّد صلى الله عليه وآله وسلم ، فقال طاهر : قد أباحك الله يا أمير المؤمنين دمهما فحصّنهما بالحلم ، قال : قد فعلت ذلك لموضع العفو من الله ، مدّوا أيديكم إلى طعامكم .

ويقال : إنّ المأمون لمّا حبس إبراهيم بن المهديّ بعث رسولاً يطلع عليه ويخبره بما يعمل من حيث لا يعلم فوجده يبكي ويقول :

فلو أنّ خدّاً من وكوف مدامعي ... يرى معشباً لاخضرّ خدّي وأعشبا
على أنّني لم أبك إلّا مودّعاً ... بقيّة نفس ودّعتني لتذهبا
وقد قلت لمّا لم أجد لي حيلة ... من الموت لمّا حلّ : أهلاً ومرحبا

فأخرجه المأمون ، فلمّا مثل بين يديه فقال : يا أمير المؤمنين ! ذنبي أعظم من أن يحيط به العذر ، وعفو أمير المؤمنين أجلّ من أن يتعاظمه ذنب .

وحكى أحمد بن أبي دؤاد قال : سمعت المأمون يقول لرجل : إنّما هو غدر أو يمين وقد وهبتهما لك ، فلا تزال تسيء ونحسن ، وتذنب وأعفو حتّى يكون العفو هو الّذي يصلحك .

ومنهم الواثق ، كان[3] المسدود المغنّي هجاه ببيتين كانا معه في رقعة ، وفي رقعة أخرى حاجة له يريد أن يرفعها إليه ، فناوله رقعة الشعر وهو يرى أنّها

---

(١) يريد به أخاه محمد الأمين .

(٢) سورة الحج ؛ الآية : ٦٠ .

(٣) الخبر في الأغاني (٢١ : ١٦٥) .

رقعة الحاجة فقرأها الواثق فإذا فيها :

من المسدود في الأنف إلى المسدود في العين
أنا طبل له شقّ فيا طبلاً بشقّين

وكان في عين الواثق نقطة بيضاء فلمّا قرأ الرقعة قال للمسدود : قد غلطت بين الرقعتين فاحذر أن يقع مثل هذا ، وما زاده على هذا القول شيئاً ، ولا تغيّر له عمّا كان عليه .

وعن أبي جعفر[1] قال : لمّا دعا نوح عليه السلام ربّه عزّ وجلّ على قومه أتاه إبليس فقال : يا نوح إنّ لك عندي يداً أُريد أن أُكافيك عليها فقال نوح : والله إنّي لبغيض إلى أن يكون لك عندي يد فما هي ؟ قال : بلى دعوت الله على قومك فأغرقهم فلم يبق أحد أُغويه فأنا مستريح حتّى ينشو قرن آخر فأُغويهم قال له : فما الّذي تريد أن تكافيني به ؟ قال له : اذكرني في ثلاث مواطن فإنّي أقرب ما أكون من العبد إذا كان في إحداهنّ : اذكرني عند غضبك ، واذكرني إذا حكمت بين اثنين ، واذكرني إذا كنت مع امرأة جالساً ليس معكما أحد .

وكان أنوشيروان[2] يدفع ثلاث رقاع إلى خادم يقوم على رأسه ، وأمره أن يدفع إليه واحدة بعد واحدة إذا اشتدّ غضبه . قال : فاشتدّ غضبه يوماً فدفع إليه واحدة فإذا فيها : «أمسك غضبك فإنّك لست بإله» ثمّ دفع إليه الثانية فإذا فيها : «ارحم عباد الله يرحمك الله» ثمّ دفع إليه الثالثة فإذا فيها : «احمل عباد الله على حقّ الله فإنّك لا تسعد إلاّ بذلك» .

وقال أمير المؤمنين عليّ عليه السلام : «أصعب الأعمال أربعة : العفو عند الغضب ، والحلم عند الإساءة ، والجود من اليسير ، والعفّة في الخلوة» .

وعن طاوس اليمانيّ[3] قال : سمعت عليّ بن الحسين عليه السلام يقول :

---

(١) رواه الصدوق في الخصال (١ ؛ ٦٥) .
(٢) الخبر في الإحياء عن سليمان بن المعتمر إلا أنه قال : كان بعض الملوك .
(٣) تراه في الخصال (١ : ١٢٩) .

علامات المؤمن خمس ، قلت : ومـا هنّ يا ابن رسـول الله ؟ قال : «الـورع في الخلوة ، والصـدقة في القلّة ، والصبـر عنـد المصيبـة ، والحلم عنـد الغضب ، والصدق عند الخوف» فكما أنّ الإنسان ينزّه نفسه عن الغضب ، ويزيّنهـا بالحلم كي تستصلح النفس البشريّة ويتوحّد بالفضائل الملكيّة .

الفصل العشرون

يتضمن استصلاح نفس الانسان البشرية الملكية والتوحد بفضائلها واستحقاق طاعة الناس لأجلها

المعاني الّتي يتفطّن إليها شرف الإنسان لا تخرج عن أربعة أقسام : إمّا أن تكون نظريّة أو فكريّة أو خلقيّة أو صناعيّة . أمّا النظريّة فهي التردّد في رياض الألباب والاجتناء من ثمار الآداب . والفكريّة فهي مطاوعة القريحة لاستنباط ما يرام تفهّمه على البصيرة والحقيقة . والخلقيّة هي الارتياض على تمهين القوى في توفية الأعمال الّتي يصل بها إلى سوالف الخيرات ، ويقرع ذوائب الحسنات ، وهي تأدية ما توجبه المعرفة شرعاً أو عرفاً من الأعمال بأحسن جهاتها وبمقدار تمامها .

ثمّ الإنسان في خاصّ أخلاقه لا يخلو عن الأخلاق الملكيّة والبشريّة أو البهيميّة أو السبعيّة . فهذه الأربعة الأخلاق المتقلّبة عليها طباع الناس ، ومعلوم أنّ الإنسان لم يكن ليبلغ الرضا في طاعة الله عزّ وجلّ إلاّ إذا صرف سعيه ، وشغل فكره وكدّه في استصلاح ما يمكنه في أرض الله ثانياً ، ولا خلاف أنّ مستصلح الشيء لا يستأكله بل بيّن عليه ، ويوفي ويسبق ويجلي كحال الراعي في مرعيّه ، والمؤدّب مع صبيّه فالمجرور بحبال شهواته مرّة صريع الهوى ، ومرّة نصب الأمل ، تعصف عليه رياح الهموم والأحزان ، وترشقه سهائم العلائق والعوائق ، لا يستقلّ بضبط النفس وإصلاح الأخلاق كالمهر[1] المشدود

---

(١) المهر بضم الميم : ولد الفرس .

بأرسانه ، المربوط بمحكمات شكاله ، لا يسبق الحلبة[1] ولا يلحق الغاية . كيف والمستصلح لأخلاق البريّة[2] ، المستحفظ لمصالح الخلقيّة ، لا يجوز أن يكون ذا طبيعة إنسانيّة فضلاً عن الطبيعة البهيميّة والسبعيّة ، بل يجب أن يكون سائراً بالسيرة الملكيّة فيأتم الرعاء ما هو اقتداء بفعله ، وينتهون عمّا سبق إلى الانتهاء عن مثله ، والمتابعة في الأعمال أسرع منها إلى الالتزام للأقوال ، والموعظة عن نفس غير زكيّة لا يوجد لها فضل تأثير في الأنفس المستمعة . وكلّ ما صعد من القلب إلى الشفاه نزل من الصماخ إلى الفؤاد ، وما انبعث من طرف اللسان لم يتجاوز خرق الآذان .

فإذاً لن يكمل الإنسان في التنسّك والتزهّد ما لم يزد علمه بعمله ، وما لم يتّخذ الفضائل الأربعة بجوهره ، وما لم يصن نفسه ويثق بربّه قلبه عن الاعتماد على غيره ، وما لم يتصوّر أن يسأل ربّه الخيرات الجزئيّة الخاصّة دون الكلّيّة العامّة ، وما لم يجلّ قدره عن السكون إلى المال الكثير والمجد الأثيل ، دون واهب المال ومؤثّل المجد ، وما لم يخالف طباع العوامّ في إيثاره الحقّ وإقباله على الخير ، ومحبّته للبرّ ، وشدّة عنايته في التفقّد عن أمر النفس ، والتفحّص عن الأخلاق والبحث عن جملة المتّصلين من ولد وقريب وجار ومعرفة ، ليعالج ما يجد من محاسن الأخلاق سقيمة ، ويرفض من مساويها قديمة ، غير متطلّب لجاه أو ثروة ، ولا مستشعر لعزّ أو نخوة ، فإنّه خلق عبداً والعبد لا ينبغي له أن يتخطّى إقامة العبوديّة إلى مجاذبة رداء الحرّيّة ،وغير متكثّر بعُدد وعَدد ، فإنّه دخل في الدنيا فرداً ويخرج منها كذلك أيضاً ، ولا سيّما وارتباط الكثرة مصيرها أبداً إلى الوحدة فيكون على هذا بعض ذلّه أدعى لكلّ عزّه ، وآخر وحدته أوّل كثرة صلاح الآخرين به ، ومبدأ كلّ خير من تلقائه ، وبركة كلّ شيء في زمانه بدعائه وسرور كلّ أحد من الناس بلقائه .

فيستغني بولاية الحقّ عن الاستمداد من الخلق . ولا ينظر إلى طبقات

---

(١) بفتح الحاء وسكون اللام : الدفعة من الخيل في البرهان .
(٢) البشرية . خ ل من الأصل .

الموكوبين بعضهم إلى بعض ، إلّا بعين الشفقة والرأفة والرحمة ، وإن كانوا مشغولين بالباطل معرضين عن الحقّ ، إلّا من خلّفه صاحب الشرع في الإمامة أو ورّثه علم الديانة ، فإنّ هذا العالم المتنسّك وذلك الإمام المعصوم القائم بأمر الشريعة والعالم الوارث من نبيّ أو إمام معصوم وكرامة أحدهما على الآخر بمنزلة الصدر والفؤاد والعين والسواد ، ويكون هذا المذهب الظاهر من ذلك الإمام الخائف المخفي ، وإن لم تحتف به الدهماء ولم تستقرِ علمه الآراء ، كما أنّ الطبيب الحاذق [طبيب] وإن لم يقصده المرضى ، والفقيه الحافظ للروايات مفتٍ وإن لم يحضره الفتيا ، وكذلك الناسك العالم الحفيظ الضابط مالك الأمر وسائسه وأهله ومستحقّه وإن لم ينتصب له ، ويكون هو بالحقيقة أمير الدين ، وصاحب الحكم المبين ، والقائم بالعلم والعمل ، والمزيل للخطأ والخطل ، وإن لم يكن له كمّ طويل ، ولم يرتش بالبرطيل[1] .

ومن سلك هذه المسالك ورأته العقلاء أهلاً لذلك فهو الداعي للدين القويم والسالك للطريق المستقيم ، فهذا وأمثاله هو الفاضل الكامل وإن لم يشار إليه بالأنامل ، ويكون من تكلّف شيئاً من ذلك بغير أمر الشارع مرائياً لا يجب أن يسمع منه أو يؤخذ عنه ، كما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «لا تعص إلّا أميراً أو مأموراً أو مرائياً» .

وسأل بعضهم زاهداً بأيّ نيّة أُكلّم النّاس ؟ قال : لا أعرف للمعصية نيّة غير الترك .

وقال آخر لمثله : إذا فهم العبد عن الله صلح أن يفهّم عباد الله ، وإذا لم يفهم عن الله كان بلاؤه عامّاً في بلاده وعباده ، وعلى هذا يكون نسبة المتغلّب الغير الكامل هذا الكمال الغير الغالب كنسبة الغاصب إلى صاحب المال ، وكما أنّ الغاصب لا يقنعه من ربّ المال عن رضا وطاعة كذلك المتملّك الفضول لا يبيع هذا الرجل الكامل فنسبة هذا الكامل الغير الغالب كنسبة الغاصب إلى صاحب المال ، وكما أنّ[2] الغاصب لا يقنعه من ربّ المال إلّا بقتله قهراً أو

(١) بكسر الباء : الرشوة .

(٢) أغفل جوابه ولم يذكره .

حبسه نفياً أو الذهاب والانزواء عنه جانباً ، أو شهادته بأنّه أهل ما ناله استحقاقاً . كما كانت تفعله المروانيّة والعبّاسيّة بالعلويّة وسائر من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويستحقّ القيام بالأمر .

ولم يزل أهل بيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أولاده وأكباده وذرّيّته وثمرة فؤاده من لدن صولة بني حرب ومروان إلى دولة بني العبّاس جزر[1] السيوف ومقرّ الحتوف كما ذكره دعبل الخزاعيّ[2] :

وليس حيّ من الأحياء نعلمه ... من ذي يمان ولا بكر ولا مضر
إلّا وهم شركاء في دمائهم ... كما تشارك أيسار على جزر[3]
قتل وأسر وتحريق ومنهبة ... فعل الغزاة بأهل الروم والخزر
أرى أُميّة معذورين إن قتلوا ... ولا أرى لبني العبّاس من عذر
قبران في طوس خير الناس كلّهم ... وقبر شرّهم هذا من العبر[4]

وذلك أنّ قبر عليّ بن موسى الرضا عليه السلام في طوس وقد منّ الله عليّ بالمجاورة في مشهده الشريف ، والزيارة لمرقده المنيف ، وقبر الرشيد الظالم العنيد وراء الإمام في الجهة الشماليّة لأنّه من أصحاب الشمال ، وإن كان بجنب المعصوم لا ينفعه ذلك لأنّه ظالم غشوم .

وكان الرشيد وأخوه الهادي من ألهج الخلفاء بقتل العلويّة حتّى كان آخر كلام الرشيد عند الموت : وا حيائي من رسول الله !

وعلى عهده فُقد محمّد بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين بن عليّ عليه السلام .

قال عبيد الله بن عبد الله بن طاهر : حدّثني أبو محمّد الرباطي ـ رباط

---

(١) بالتحريك كل شيء مباح للذبح .
(٢) الأبيات في الأغاني (١٨ : ٥٧) .
(٣) أيسار جمع ياسر : من يتولى قسمة جزور الميسر . وفي الأصلين : آسار .
(٤) بعد هذا البيت في الأغاني :
لا ينفع الرجس من قرب الزكي ولا ... على الزكي بقرب الرجس من ضرر

خاوة من عمل جرجان ـ قال : كنت قبّاراً ، فبينا أنا في منزلي أن طرقني ليلاً ركب مستعجلين ، فخرجت فإذا بشموع وخدم فأمروني بالحفر فحفرت قبراً وأودعوه تابوتاً وعفيت عليه بالتراب وأجالوا خيلهم عليه تغويراً للموضع وانصرفوا ، فظننت أنّه كنز فأسرعت فانتبشته وكشفت عن التابوت فإذا فيه رجل فوضعت يدي على أنفه فإذا هو قريب من التلف فاستخرجته وأعدت التراب إلى ما كان عليه ، واحتملته إلى منزلي ، وأعاد القوم حذراً من أن يكون ينتبه على ما في التابوت ونفضوا الصحراء التي كان فيها فلم يجدوا أثراً ولا حسّاً لأحد ، وأنا مشرف من منزلي أرى ما يصنعون ، فلمّا أمنوا ممّا توهّموا انصرفوا وتراوى نفس الرجل فسألته عن حاله فقال : أنا محمّد بن جعفر بن محمّد بن عليّ بن الحسين عليه السلام فأقام عندي إلى أن قويت نفسه وترجّعت ، ثمّ شخص إلى العراق ثمّ إلى الحجاز وظهر باليمن وبويع له بأمير المؤمنين ودخل مكّة ثمّ خرج على عهد المأمون وبايع المأمون لابن أخيه عليّ بن موسى الرضا عليه السلام بالعهد ، فخرج إلى المأمون بخراسان وأدركته منيّته بجرجان فاحتفرت له ودفنته ، وكان بين الدفنتين عشر سنين .

وكان السبب[1] في استيصال البرامكة أنّ الرشيد دفع يحيى بن عبد الله بن الحسن إلى جعفر بن يحيى وحبسه عنده ليقتله وكان جعفر يرى ولوع الرشيد بقتل العلويّة وسروره بموت من يموت في حبسه منهم ، فشرب يوماً عنده وسرّ وزيد في إكرام جعفر فأعلمه جعفر أنّ يحيى بن عبد الله قد مات فسرّ بذلك وقال : الحمد لله الّذي قد كفاني أمره ، وإن قتلناه فالنار لنا ، فقال يحيى لجعفر : يا بنيّ قد انفتح لي في أمره باب : أُريد أن أكتب إلى عليّ بن عيسى بن ماهان وأُعرّفه ما جرى وأفرغ إليه في أن يكون يحيى بن عبد الله عنده موسّعاً عليه إلى أن يقضي الله فيه قضاءه ، فكتب في هذا المعنى كتاباً بخطّه ، ووجّه بيحيى بن عبد الله إليه وكان عليّ بن عيسى يلي خراسان والريّ ، وكانت تحته بنت يحيى بن خالد البرمكيّ وكان بينه وبين الفضل وجعفر عداوة ولم

---

(١) وقد سبق سببان آخران في : ١٥٥ .

[يكن][1] يشعر به يحيى ، وأجاب يحيى بأنّه يفعل ما أمر به في أمر يحيى بن عبد الله ، وأنفذ كتاب يحيى بن خالد الّذي كان إليه إلى الرشيد ، وأعلمه أنّ يحيى بن عبد الله عنده ، فكتب إليه الرشيد بخطّه يعرّفه حسن موقع ما فعل عنده ويعلمه فساد أمر البرامكة لديه بما فعلوا من استخيانه ، ويأمره بالبعث إليه من غير أن يعلم أحد بذلك .

وحجّ الرشيد ثمّ صدر فوافى الحيرة فأقام بها أيّاماً ، ثمّ صار إلى الأنبار في السفر ووصل يحيى بن عبد الله إليه بالأنبار ، فركب مع جعفر بن يحيى يوم الجمعة سلخ محرّم سنة سبع وثمانين ومائة إلى الصيد ، ثمّ رجع فقال لجعفر : امض فتفرّح برمّك[2] فإنّي مع الحرم اليوم .

فمضى[3] جعفر وأخذ بيد بختيشوع الطبيب وجلس يشرب وأبو زكار الأعمى يغنّيه ونجو الرشيد وخلعه يحيى ساعة بعد ساعة[4] ، فدعا الرشيد مسرور الخادم [وقال : اذهب][5] فجئني برأس جعفر ولا تراجعني فيه ، فهجم مسرور على جعفر بلا إذن وأبو زكار يغنّيه :

فلا تبعد فكلّ فتى سيأتي	عليه الموت يطرق أو يغادي
وكلّ ذخيرة لا بدّ يوماً	وإن بقيت تصير إلى نفاد
ولو فوديت من حدث المنايا	فديتك بالطريف وبالتلاد[6]

فقال جعفر لمسرور : سررتني بمجيئك وسؤتني بدخولك بلا إذن ، قال : الّذي جئت له أمر عظيم ، أجب أمير المؤمنين ، فوقع جعفر على رجله يقبّلها ويقول : دعني حتّى أدخل فأوصي ، قال : أمّا الدخول فلا سبيل إليه ، ولكن أوص بما شئت ، فأعتق غلمانه وأوصى بما له إلى من حضره ، ثمّ حمله مسرور على

(١ و ٥) زيادة من النسخة (ر) .

(٢) الرم ـ بضم الراء ـ الجماعة .

(٣) الخبر من هنا مع اختلافات في الأغاني (١١ : ٥٢ و ٦ : ٢٠٥) .

(٤) في النسخة (ر) «ونحو الرشيد وخلعه يجيء ساعة بعد ساعة» وعلى أي لم يتضح لي معناه .

(٦) الطريف والطارف : المال المستحدث ، والتلاد والتليد والتالد خلافه .

دابّة من دوابّ الجند وأدخله إلى قبّة من قباب الحرس ، فناشده جعفر أن يراجع فيه وقال : إنّه حمله علي هذا النبيذ . فقال مسرور : إنّ أمير المؤمنين ما طعم اليوم شيئاً ولا شرب ، ولأراجعه [فرجع] مسرور[1] فلمّا سمع الرشيد حسّه قال : مسرور ؟ قال : نعم ، قال : وما وراءك ؟ فعرّفه ما قال جعفر ، فقال : يا عاص لئن راجعتني لأقدّمنّك قبله ، فرجع إليه وقتله وجاء برأسه حتّى وضعه بين يديه على ترس وجاء ببدنه في نطع فصلب عند جسر الأنبار ، ثمّ وجّه به إلى بغداد فصلب بها .

فجرى عليهم مع نفاسة موقعهم بسبب أهل البيت . وذكرت سابقاً سبباً آخر في استيصال البرامكة وهو دخوله[2] بالعبّاسة بعد أن سبق النهي من الرشيد عن الدخول بها والله أعلم بحقائق الأُمور .

وأمّا أخوه الهادي فإنّه لما أُدخل عليه القاسم بن محمّد بن عبد الله الحسينيّ مع ما تفرّد به من العلم والزهادة والإقبال على الصلاة والعبادة وأُوقف بين يديه فقال له : من أنت ؟ فانتسب له فقال الهادي : يا ابن الفاعلة لأقتلنّك قتلة ما سبقني إليها أحد ، فقال القاسم : الفاعلة أُمّك الصنّاجة الّتي اشتريت بفيء المسلمين ، إيّاي تهدّد بالقتل يا بن الصنّاجة ! فوالله لأصبرنّ لك صبراً ما صبره أحد ، قال : ثمّ أقام على كلّ عضو منشاراً فنشر عضواً عضواً حتّى أتى على آخره ، فما تأوّه ولا تحرّك حتّى مات !

فهذا سبيل القوم الظالمين في قتل السادات الصّالحين ، وأرباب الأمر والنهي وأصحاب الأمانة ، وقطعهم آثار أهل الخير ، وتعفيتهم رسوم الأمر بالمعروف .

وكان عبد الملك بن مروان أوّل من قطع ألسنة الناس عن المعروف . صعد المنبر عندما صار الأمر إليه فقال : ما أنا والله بالخليفة المستضعف ـ يعني عثمان ـ ولا الخليفة المصانع ـ يعني معاوية ـ وإنّكم لتأمروننا بأشياء تنسونها من

---

(١) بين المعقوفين زيادة يحتاج إليها الكلام .
(٢) بهامش الأصل : أي دخول جعفر البرمكي بالعباسة وقد سبق ذكره .

أنفسكم ، والله ما يأمرني أحد بعد مقامي بالمعروف إلّا رويت ذبابة سيفي من عنقه .

ولقد تصدّى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر جماعة من العلماء الأخيار والفضلاء الأبرار وأُوذوا بسبب ذلك أذى عظيماً ومنهم من قتل ومنهم من طرد ومنهم من أُيّد من الله بالنصر .

فالّذين أُيّدوا بالنصر فقهاؤنا الإماميّة رضوان الله عليهم مثل الشيخ الفاضل نصير الدين الطوسي والشيخ الأجلّ الشيخ محمّد بن الحسن الطوسي والسيّد الجليل السيّد المرتضى علم الهدى وغيرهم من الفضلاءِ الأعلام .

وأمّا علماء العامّة فقد خرج منهم أبو حنيفة[1] ومذهبه مشهور في قتال الظلمة والخروج على حكّام الجور مذكور في التواريخ حتّى قال الأُوزاعيّ : احتملنا أبا حنيفة في كلّ شيء حتّى جاءنا بالسيف فلم نحتمله .

وجاء إبراهيم الصائغ وكان من فقهاء خراسان ونسّاكها فسأله عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فحدّثه عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال : «أفضل الشهداء حمزة بن عبد المطّلب ورجل قام إلى إمام جائر فأمره ونهاه فقتل» فرجع إبراهيم إلى مرو وقام إلى أبي مسلم صاحب الدولة وأمره ونهاه ، وأنكر ظلمه وسفكه الدّماء ، فاحتمله مراراً ثمّ قتله .

ولعمري إنّ أبا حنيفة قد شارك أبا مسلم في قتل إبراهيم ، وكم من قتيل قتل بفتواه وأمره كما أمر النّاس بالحجّ من دون استطاعة ونفقة ، حتّى إنّه أهلك كلّ عام جمّاً غفيراً في طريق مكّة بالجوع والعطش ، ولم ينظر إلى قوله تعالى : ﴿**ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة**﴾[2] .

وإنّما يجوز الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند عدم الضرر على النفس والمال إذا غلب على ظنّه السلامة ، وأمّا إذا غلب على ظنّه العطب وعدم

---

(١) أُنظر الوفيات (٥ : ٣٩) وتاريخ الخطيب .
(٢) سورة البقرة ؛ الآية : ١٩٥ .

القبول فلا يجوز شرعاً ولا عرفاً ، لأنّ حفظ النفس واجب . والإنكار على ثلاثة أقسام : إمّا باليد وإمّا باللسان وإمّا بالقلب . والإنكار القلبيّ أن يكرهه في قلبه ويقول : «اللّهم إنّ هذا منكر لا أستطيع ردّه» وهذا أضعف الإيمان .

وإنّما جعلت بنو العبّاس أبا حنيفة إماماً لكي يطفئوا أنوار النبوّة ، ويستأصلوا آثار بيت الرسالة ، ومعدن الوحي وخزّان العلم ، والأئمّة المعصومين عليهم السلام . لأنّ أبا حنيفة كان معاصراً للإمام الهمام جعفر بن محمّد الصادق عليه السلام ، ولم يكن تقديمهم له والأمر باتّباعه محبّة منهم له ، وإنّما هو بغضاً وعداوة للصادق عليه السلام .

والدليل على عدم محبّتهم لأبي حنيفة وبغضهم له أنّ المنصور كان يتجسّس على عثراته ويلتمس اغتياله ، لما كان من أمره وإنكاره سيرته ، فدعا إليه رجلاً خاصّة من خواصّه وقال لأصحابه : الساعة أشفيكم من هذا الشيخ فدنا منه ، فقال : ما تقول أيّها الإمام فيمن يأمرنا بسفك الدماء وبإباحة الحرم أنطيعه في ذلك أم نعصيه ؟ فأطرق أبو حنيفة ثمَّ أقبل عليه فقال : هذا الّذي يأمركم أيأمركم بما فيه طاعة الله أو بما فيه معصية الله ؟ فأطرق الرجل ثمَّ أقبل عليه فقال : بلى بما فيه طاعة الله فقال أبو حنيفة : فأطع من أطاع الله فانصرف الرجل ، ثمّ قال أبو حنيفة لأصحابه : إنّ هذا أراد أن يوثقنا فأوثقناه ، إذا وردت عليكم معضلة فاجعلوا جوابها منها .

ودسّ المنصور جارية بربريّة فقالت : عندي مال في سبيل الله فأضعه فيمن ؟ فأشار[1] عليها بابني [الحسن بن][2] الحسن عليه السلام محمّد وعبد الله فكان ذلك سبب حبسه .

وقصّته في زيد بن عليّ عليه السلام مشهورة في حمله المال إليه وفتياه الناس سراً في وجوب نصرته والقتال معه هذا ما روته العامّة .

وأمّا ما روته الخاصّة من هذا القبيل عن أبي حنيفة فمشهور لا حاجة

---

(١) أي أشار أبو حنيفة .

(٢) زيادة منا ليست في الأصلين .

لـذكره ، غيـر أنّه اختـرع مذهبـاً ودعا النـاس إليه ، وأحبّ أن يكـون من المشار إليهم ، والمطاع أمرهم وقد كان أدرك ما أحبّه بمعونة العباسيّين له ، وعلى هـذا جرى الأمر في إماتة الحقّ وإبعاده ، وإظهار الباطل بفسـاده إلي أن تأخّـر الزمـان بأهله ، وماتت سنّة المعروف والأمر به ، وأكبّت الديانـة على أمّ رأسها ، وقلعت من أصلها وأساسها .

كـأن لم يكن بين الحـجـون إلى الـصفـا أنـيس، ولـم يـسـمـر بـمـكّـة سـامـر

ولقد انعكست الأمور عن جهـة صوابهـا ، واصطفّت أقـدام الفضلاء على أبواب الملوك ومالت أنفس النسّـاك وأهل السلوك إلى محبّـة الجاه والشهـوات ، واصـطنعوا على المـداهنـة والمـلاينـة بـالألسن ، وأصغـوا آذانهم للمـداجـاة[١] والمـداراة ، ولـم يمكنهم سوى ذلـك وإظهار الحقّ في زمن الجـور يـورد فـاعله المهالك .

فثبت بمـا ذكـرنـا أنّ المتغلّب على الأمـر ليس من الأمـر في شيء وأنّ المستحقّ له بحسن سيرته وصلاح سريرته ونسكه وفضيلته وورعه وزهادته وعفّتـه هـو الواجب على النـاس أن تعطيـه صفقة أيمـانهم بالمبايعـة وخـالصـة قلوبهم بـالمحبّة والمتـابعة وأن يـأخذوا عنـه دينهم بل دنيـاهم مع حـظوظها ، وآخـرتهم وفروضها .

والّذي يبيّن ذلك أيضاً هو أنّ الشرير يضادّ الناسك بالـذات ويضادّ المـالك بـالمعاصي وقبـح الصفات ، فـإنّ غرض الشـرير في ذاتـه استفساد أمـر الخليقة بأقصى طاقتـه الحيوانيّـة ، وغرض النـاسك الحكيم والفـاضل العليم استصـلاح الخليقة بأقصى طاقته الملكيّة ، والمتغلّب بالباطل يضـادّ الناسـك العاقـل ، فإنّ غرض المتغلّب بالباطل تحصيل الخيرات العاجلة لخاصّة نفسه نحو المال واللذّة والصيت والكرامة ، وغرض الناسك تحصيل الخيرات العاجلة والآجلة لأهل دينه وملّتـه ، والناسـك إذا لم يكن صادقـاً في نسكه شـديد الميـل إلى حال الشـريـر الفـاتك في الاستعـلاء وحبّ الجاه والكبـرياء في الأرض ، والتسلّط بـاللّسـان ،

(١) داجاه : داراه وساره العداوة . وقد سبق .

والتجبّر على العوامّ ، والتكبّر على الأنام ، والانقياد للطمع ، والانهماك في الهلع ، مائلاً بوجهه إلى خبث الدّنيا ، لاهياً عن موته وبلاه ، ناسياً مبتداه ومنتهاه كما روي عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال «بئس العبد عبد تجرّأ واعتدى ، ونسي الجبّار الأعلى بئس العبد سها ولها ، ونسي المبتدأ والمنتهى ، بئس العبد عبد بغى وعتا ، ونسي المقابر والبلى ، بئس العبد عبد ينزله الرغب عن الحقّ ، بئس العبد عبد طمع يقوده ، بئس العبد عبد هوى يضلّه» .

قال محمّد بن عليّ الحكيم : إنّ البغي طلب العلوّ ، فهو باغ للمنازل الرفيعة يحبّ أن ينفرد بها ، ولهذا أنشفت حرارة شهوته رطوبة قلبه ، وما ركّب فيه من الرأفة والبرّ والرفق والسخاء ومحاسن الأخلاق ، فهذا قلب عاس[1] عات قد انتزع منه ماء الرحمة ، وصاحبه متكبّر متجبّر ، ومن ذلك طلب العتوّ ومن عتا ونسي الموت والبلى يختلس الدنيا بالدين ، فيتضع ويداهن ولا يبالي بما يعرض له في العاجل من النهمة ، متى ينالها لبعد قلبه عن الآخرة ، ولذلك صيّر معالم الإيمان شبكة لحطام الدنيا ، يظهر الخشوع بالتماوت كي يحظى عند أهل الدنيا وينال مناه وشهوته ، ويتحازن عند لقاء الخلق ، ويتنفّس الصعداء كأنّه يهتمّ لدينه ، ويتحسّر على إدبار أمره وتضييع وقته ، وإنّما هو أسف منه على ما يفوته من الدنيا . يمتنع من قبول الشيء اليسير ليكون في هيئة الزاهدين ، ولا يقبل ما أتاه من مال الله على يد السلاطين ، يخاف إن قبله أن ينكسر جاهه ورياسته ، لتقبل عليه الوجوه ويميل إليه أهل الدنيا ، ويظهر العبادة ليكرم ، والزهادة ليؤتمن والانقباض ليهاب ، والشدّة على أهل الريبة ليشار إليه بالأصابع ، وليحكم في الناس بحكم الملوك ، وإذا وجد غرّة في مال استلبها ، وفرصة في وديعة ينتهزها ، وقع[2] في فريسته منها بأقوى حرص وأشدّ أخذ . كلّ ذلك لاغتنام الدنيا وافتراصها . ونصب الحبائل لاقتناصها ، فيفسد ويُفسد ويهلك ويُهلك ، عبد الدنيا وطوع الشيطان .

أظهروا للناس ديناً وعلى الدينار داروا

---

(١) العاسي : الغليظ الصلب من عسا يعسو .

(٢) جواب «إذا» .

وله صلّوا وصاموا وله حجّوا وزاروا
إن يكن فوق الثريّا ولهم ريش أطاروا

وذكر المسيّب بن واضح قال : كنت مع عبد الله بن المبارك في طريق الروم فقال لي : يا مسيّب ! ما جاء فساد العامّة إلاّ من قبل الخاصّة ، قلت : ولِمَ يا عبد الرحمن ؟ قال : لأنّ خاصّ محمّد صلى الله عليه وآله وسلم خمس طبقات : العلماء والزّهاد والتجّار والغزاة والولاة ، فأمّا العلماء فهم ورثة الأنبياء ، وأمّا الزهّاد فأوتاد الأرض ، وأمّا الغزاة فجند الله في أرضه ، وأمّا التجّار فأُمناء الله في خلقه ، وأمّا الولاة فهم الرعاة الحماة . فإذا كان العالم للدين واضعاً وللمال رافعاً فبمن يقتدي الخليل ؟وإذا كان الزاهد في الدنيا راغباً وللراحة طالباً فبمن يقتدي التائب ؟ وإذا كان الغازي طامعاً في الغنيمة مرائياً في الجهاد فمتى يتمّ الظفر ؟ وإذا كان التاجر خائناً كاذباً فعلى من يعتمد المؤتمن ، وإذا كان الراعي ذئباً فمن للرعيّة ؟ والله المستعان .

وحدّث الصاحب عن عبد الله بن محمّد عن عبد الله بن الحسن عن سهل بن محمّد عن عبد الرحمن بن المثنّى قال : خطب عبد الملك فلمّا بلغ العظة قام إليه رجل من آل صوحان فقال : مهلاً مهلاً ! تأمرون ولا تأتمرون ، وتعظون ولا تتّعظون ، أفنقتدي بسيرتكم في أنفسكم أم نطيع أمركم بألسنتكم ؟ فإن قلتم : اقتدوا بسيرتنا فأنّى وكيف ؟ وما الحجّة وما النصير من الله بالاقتداء بسيرة الظلمة الفسقة الجورة الّذين اتّخذوا مال الله دولاً وعبيد الله خولاً ؟ فإن قلتم : اقبلوا نصيحتنا وأطيعوا أمرنا ، فكيف ينصح لغيره من يغشّ نفسه ؟ أم كيف تجب الطاعة لمن لم تثبت عند الله عدالته ؟ وإن قلتم : خذوا الحكمة من حيث وجدتموها واقبلوا العظة ممّن سمعتموها ، فعلامَ ولّيناكم أمرنا وحكّمناكم في دمائنا وأموالنا ؟ أما علمتم أنّ فينا من هو أنطق منكم باللغات وأفصح بالعظات ؟ فتخلّوا عنها أوّلاً ، فأطلقوا عقالها وخلّوا سبيلها يتبدر إليها آل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الّذين شرّدتموهم في البلاد وفرّقتموهم في كلّ واد ، بل ثبت في أيديكم لانقضاء المدّة وبلوغ المهلة وعظم المحنة ، إنّ لكلّ قائم قدماً لا يعدوه ، ويوماً لا يخطوه ، وكتاباً بعده يتلوه ، لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلاّ

أحصاها ، وسيعلم الّذين ظلموا أيّ منقلب ينقلبون .

قال : ثمّ أملس[1] الرجل فطلب فلم يوجد .

ومن كلام بعض الأكابر : ظهر الجفاء وقلّت العلماء ، وعفت السنّة وشاعت البدعة لقد صحبت أقواماً صحبتهم قرّة العين وجلاء الصدور ، ولقد رأيت أقواماً كانوا من حسناتهم أن تردّ عليهم أشفق منكم من سيّئاتكم أن تعذّبوا عليها ، وكانوا فيما أحلّ الله لهم من الدنيا أزهد منكم فيما حرّم عليكم منها ، أسمع حسيساً ولا أرى أنيساً ، ذهب الناس وبقيت في النسناس[2] ، لو تكاشفتم ما تدافنتم ، تهاديتم الأطباق ولم تتهادوا النصائح ، إنّ هذا الحقّ قد أجهد أهله وما يصبر عليه إلاّ من عرف فضله .

ويحكى[3] أنّ عبد الله بن الأهتم دخل على عمر بن عبد العزيز مع العامّة فلم يشعر عمر إلاّ وهو ماثل بين يديه ، فتكلّم فحمد الله وأثنى عليه ، قال :

أمّا بعد فإنّ الله خلق الخلق غنيّاً عن إطاعتهم آمناً لمعصيتهم ، والناس يومئذ في المنازل والرأي مختلفون ، فالعرب بشرّ تلك المنازل ، يختار[4] دونهم طيّبات الدنيا ورفاهة عيشها ، ميّتهم في النار وحيّهم في العنا . فلمّا أراد الله أن ينشر عليهم رحمة بعث إليهم رسولاً من أنفسهم عزيزاً عليه ما عنتوا حريصاً عليهم بالمؤمنين رؤوف رحيم ، فلم يمنعهم ذلك أن جرحوه في جسمه ولقّبوه في اسمه ، ومعه كتاب من الله ناطق ، لا يرحل إلاّ بأمره ولا يأذن إلاّ بإذنه ، فاضطرّوه إلى بطن غار فلمّا أُمر بالغربة انبسط لأمر الله لونه فأفلج الله حجّته وأعلى كلمته[5] ثمّ إنّا والله بعده ما اجتمعنا إلاّ على ظلّع[6] ثمّ إنّك يا عمر ابن

---

(١) أي اختلط مع الناس .

(٢) بفتح النون دابة وهمية يزعمون أنها على شكل الإنسان .

(٣) الحكاية في البيان والتبيين (٢ : ١١٧ ـ ١٢٠) وفيه : عبد الله بن عبد الله بن الأهتم ، وهو الصواب .

(٤) في الأصلين «يختار أدونهم» وأصوب مصحح البيان والتبيين «يحتاز دونهم» .

(٥) سقط هنا مقاله في أبي بكر وعمر واطرائه لهما .

(٦) جمع الظالع ، وهو من الظلع بمعنى الغمز في المشي والعرج ، أراد بهم الخلفاء الذين =

الدنيا ولدتك ملوكها وألقمتك ثديها ، فلمّا ولّيتها ألقيتها حيث ألقاها الله فالحمد لله الّذي جلا بك حوبتنا[1] وكشف بك كربتنا . إمض فلا تلتفت فإنّه لا يعزّ على الخلق شيء .

فانظر أيّها المتأمّل إلى هذين الخليفتين وإلى الفرق بينهما مع أنّ كلّاً منهما متأصّل من هذه الشجرة الخبيثة ، فالسابق ذكره وهو عبد الملك لم تكن سيرته مرضيّة ولا سريرته على التقوى مبنيّة ، والدليل عليه ما خاطبه به الرجل المنسوب إلى آل صوحان .

وأمّا عمر بن عبد العزيز فإنّه سلك مع الناس بضدّ ما سلكه غيره من بني أميّة ، ولهذا حسن ذكره ومالت القلوب إليه ، وإن كان مغضوباً عليه حيث إنّه منهم . والحقّ أنّ أفعاله أكثرها كانت حسنة ، ولو لم يكن منه إلّا نهيه أقاربه وأتباعه عن بغض أمير المؤمنين والوقع فيه لكفى ذلك منقبة له .

وفي كلام بعض الأكابر من قول بعض الحكماء المتأخّرين في أفاضل عصره : نسأل الله التوفيق لصيانة النفس عمّا انهمك فيه ظرفاء زماننا ، فإنّا نجدهم قد تعلّموا شيئاً من العربيّة واجتهدوا قليلاً في تجويد الخطّ ، وحفظوا طرفاً من مهاجي الأخطل وجرير وشيئاً من خمريّات الحسن بن هانيء[2] ثمّ اعتكفوا على كتاب كليلة ودمنة وكتاب سندباد وهزار أفسان وكتاب شاناق الهنديّ ، ثمّ اتّخذوا لأشباحهم دراريع[3] عريضة ، ونصبوا على رؤوسهم عمائم برّاقة ووسّعوا أكمامهم ، وعرّضوا زنانيرهم[4] واتّخذوا للخنصرين جميعاً خواتيم حسنة ، وركّبوا فيها فصوصاً مؤنقة ، ثمّ خالطوا السلاطين والطغاة وجعلوا اللمز دينهم والهمز مذهبهم ، والاستخفاف بأحكام الشريعة شعارهم ، وحصروا قصار

كانوا قبل عبد العزيز ، قال الجاحظ : «ولما أن قال : ثم إنّا والله ما اجتمعنا بعدهما إلّا على ظلع ، سكت الناس كلهم إلا هشاماً فإنه قال له : كذبت» .

(١) بفتح الحاء وضمها الحزن والوحشة .

(٢) هو أبو نواس الشاعر ، المعروفة خمرياته .

(٣) جمع الدراعة بضم الدال وتشديد الراء : جبة مشقوقة المقدم .

(٤) جمع الزنار : ما يشد على الوسط .

هممهم في الإصابة من المال والاختطاف من السحت الحرام ، فتراه يجلس ولعلّه في بقيّة خماره ، مدهوش رأسه بسكره ، ووزّع خاطره في برده ، ويبسط الدعوى بسطاً فيما لم يعلمه رأساً ، ولم يصرفه الفهم إليه أصلاً ، ويتحكّم على الديانة بالتناقض ويسمها بسمة التدافع ، ويقضي بأنّ العقل ينافي هذا والحكمة لا تقتضي هذا ، كاف جهله بالشيء عيار العقل وميزان الحكمة ، ولا والله بل كأنّ الله قد خذل عقله ومسخ روحه . ولو أنّ واحداً من عرض الدنيا من معرفة كتاب من الهندسة أو طرفاً من علم الأوائل أو أصلاً من أصول النحو لاحتاج فيه إلى مدّة مديدة وجهد صادق وقلب فارغ وأستاذ حاذق ، وكتاب الله الّذي هو خزانة العلم وكهف كلّ بيان ومعدن كلّ حكمة ومستودع كلّ فائدة أبعد من أن يتأتّى له كلّ بيان عفواً ، وينقاد له ما في ضمنه سمحاً ، فمتى كلّمته في ذلك هزىء وسخر متمادياً في العمه ، صاحب الذيل والعيّ ، لا دين له يزجره ، ولا حياء يمنعه ، ولا نفس تعظه ، ولا مروءة تصونه ، يغوي ويستغوي ، ضالاً مضلاً ، فما الذئاب الضارية والسائمة المهملة بأجفى من غفلة المدخول على نفسه الجاهلة . نسأل الله العصمة ونعوذ به من الخذلان .

أقول : نعتصم بالله سبحانه ونلجأ إليه بأن يوفّقنا لفعل الخيرات ، وأن يكفّ أكفّنا وأنفسنا عن الشرور والسيّئات ، ونحمده حمداً تهبّ رياح الثناء جنوباً وشمالاً ، ويطلع رايات القبول والجزاء يميناً وشمالاً ، حمداً يشفع الشكر بالثناء ويجمع بيننا وبين النعماء ، ويختم لنا بعمل الخير ويجنّبنا فعل الشرّ وارتكاب الضير .

الفصل الواحد والعشرون

يشتمل على ما في الأنفس من الخير والشر، وسبب قضائهما في العالم مع التمكين من تحلية النفس بالخيرات وتخليتها عن الشرور والسيئات

فلنذكر الآن من المعالم الواضحة بين الخير والشرّ :

اعلم أنّ ما تفرّد باستحسانه العقل الراجح من غيره فهو الخير ، وما تفرّد باستقباحه من غيره فهو الشرّ ، والتقييد بالغير لما أنّ الإنسان يعمى عن العيب في نفسه وإن بالغ في الإبصار والتفكّر ، وجدّ في البحث والتفتيش ، بسبب الشهوة والغضب ومغالطتها المرء في أفعاله ، حتّى قال بعض الحكماء : ما من إنسان إلّا ومعه مخلاتان[1] ففي المعلّقة أمامه عيوب غيره ، فهي نصب عينه ، وفي المعلّقة خلفه عيوبه فهي غائبة عن بصره . وقيل : المرء أعمى عن عيب نفسه أحول في عيب غيره[2] ، ولا يبصر الجذع المعترض في عينه ، وهو كالعين تري غيرها ولا ترى نفسها . ألا ترى أنّ عين المحبّ عمياء عن عيب محبوبه ، وأذن العاشق صمّاء عن مذمّة معشوقه فأولى لها أن تعمى وتصمّ عن عيوبها ، إذ لن[3] يحبّ الإنسان أبداً أحداً فوق حبّه نفسه . ومحبّة النفس لازمة

---

(١) ما يجعل فيه العلف ويعلق في عنق الدابة .

(٢) أي يرى العيب الواحد عيبين .

(٣) في الأصلين «إذاً لا يحب» .

إيّاه غير زائلة عنه ، خصوصاً أمثالنا من أبناءِ زمانِنا ، فلو رأى أفعالنا غيرنا من العقلاء الّذين انقرضوا لأعلمنا بأنّا قد جعلنا الخير شرّاً والشرّ خيراً ، والحسن قبيحاً والقبيح حسناً ، ولهذا خرجنا عن نوع الإنسانيّة ودخلنا في الطبيعة الحيوانيّة من غير جبر[1] كما هو مذهب العامّة .

ولا حاجة لنا إلى الإطالة وأنفسنا مجبولة على حبّها لها لا محالة .

وأمّا حبّها لغيرها فهو لأسباب تحول ولا تثبت بل تزول ، وينبغي للعالم بطرق الخير والشرّ في هذا الباب أن لا يعامل غيره من الناس إلّا بما يرضى أن يعامل به من فعل أو ترك .

ولقد وجدت أُناساً من الحمقاء يفعلون الشرّ المحض بغيرهم ، ويرجون الخير الخالص من المظلومين ، فإذا ضربوا من هو دونهم في الفقر والمسكنة رجوا منه الصبر على ذلك الضرب والأذى ، بل يتوقّعون من ذلك المسكين الّذي قد أغناه الله عنهم وعن أكبر منهم تقبيل أيديهم والشفقة عليهم ، فإذا صبر جعلوه صوفيّاً خارجيّاً ، وإن لم يصبر وكلّمهم بكلمة تسوؤهم صار بزعمهم ناصبيّاً ، وكذلك إذا هجوا من لا يستحقّ الهجو رجوا منه المدح والثناء ، وهذا دليل على الحمق المفرط .

بل ينبغي أن يعرض على نفسه ما يصدر منه في حقّ غيره صادراً عن غيره في حقّه ، فعند ذلك يرتدع عن الشرّ وإرادته ويقبل على الخير وإفاضته ، ولا شكّ أنّ كلّ أحد إنّما يعامل بمثل ما يعامل ، قال الله تعالى : **﴿هل تجزون إلّا بما كنتم تعملون﴾**[2] فإذا خطر هذا بباله اقتنى الخير ويجنّب الشرّ . ولو أنّه همّ بالإقدام على القتل فإذا عرض له القصاص أمسك عنه فيكون ذلك بقاء له ولمن قصد قتله ، فيكون القصاص حياة كما قال تعالى : **﴿ولكم في القصاص حياة﴾**[3] وفي الحديث : «بالمكيال الّذي تكيلون يكال لكم وتزادون» .

---

(١) في النسخة (ر) من غير خبر .

(٢) سورة يونس ؛ الآية : ٥٢ .

(٣) سورة البقرة ؛ الآية : ١٧٩ .

وحضر الحسن البصريّ بعض الأُمراء فرآه يتجاوز حدّ المبلغ المحدود فيها فنهاه فلم ينته ، فقال : أما أنت فلا تضرب إلّا نفسك ، فإن شئت فقلّل وإن شئت فكثّر .

وفي أمثال الفرس : ضع يدك على قلبك فما لم ترضه لنفسك فلا تفعله بغيرك . وفيه يقول أبو سليم الخطّابيّ :

إرض للناس جميعاً ... منك ما ترضى لنفسك
إنّما الناس جميعاً ... كلّهم أبناء جنسك
غير عدل أن ترجّى ... وحشة الناس لأُنسك
ولهم نفس كنفسك ... ولهم حسّ كحسّك

وفي منظوم الفرس :

چنان دار ز آزار دلرا نگاه ... كه مورى نيازارد از تو براه
مبين آنكه موراست وناول كش است ... بدان بين كه جان داردوجان خوشست
ز دل بانگ همداستانى كنى ... كه جان دارى وجان ستانى كنى
مبر دل بجان دادن اين وآن ... كه هريك چوتودوست دارند جان

وقيل في معرفة الخير : إنّه المطلوب المرغوب فيه لذاته لا لغيره ، وعلى العكس منه الشرّ ، فإنّه ربّما كان عرضاً يتبع الخير غير مقصود إليه ، وإن وقع ذلك بالتقدير الإلّهيّ والحكم السماويّ ، فيكون وجود الشرّ ضرورة حصول الخير ، فإنّ الأشياء لو لم تكن بحيث تتضادّ لم يمكن أن يكون عنها هذه الأنواع الشريفة ، وذلك مثلاً كإحراق النار ثوب فقير لا يملك غيره ، إذ كان لا يمكن في مصادمة الأجسام من تأثير بعضها في بعض ، ولا تتمّ المنافع الّتي أودعها الله في النار إلّا بإحراقها ثوب هذا البائس الفقير ، فتكون الإضاءة والإنضاج والإصلاء والتمييز بين الجواهر ، هذه المنافع الأربعة من خصائص النار خيرات في العالم مقصودة من النار ، ومثل الحريق بها في دار والتدخين في بيت لمتاع من الشرّيّة العارضة الغير المقصودة . والغيث الّذي هو رحمة الله وبركته وحياة

الأرض ومن عليها لا يخلو عن [ضرر ، فـ] الغيث[1] قد يتأذى به في السفر ، ويتداعى له البنيان ويحبس الناس في منازلهم عن حوائجهم ، وكذلك الرياح يرسلها الله بشراً بين يدي رحمته وهي الراحة ويسمّيها مادّة الحياة وفي الحديث[2] : «إنّها نفس الله» أي تحيي النفوس وتنفّس عن المكروب .

أيا جبلي نعمان بالله خلّيا ... نسيم الصبا يخلص إليّ هبوبها[3]

فإنّ الصبا ريح إذا ما تنفّست ... على كبدي يوماً تجلّت كروبها

وقد تضرّ في بعض الأحوال برّاً وبحراً ويقع على بعض الوجوه شرّاً .

وجبلّة هذا العالم على امتزاج الخير والشرّ والنفع والضرّ والغنى والفقر وائتلاف أحوال أهلها باختلافها في السرّاء والضرّاء والشدّة والرخاء والآلاء واللأواء، وأمّا الخير الصرف غير الممزوج والنفع الخالص المطلق غير المحصور في غير هذه الدار ، جمع الله بيننا وبين إخواننا في تلك الدار دار كرامته ، كما جمع بيننا على أصفى المحبّة في دار محنته ، من أخلّاء الآخرة المتّقين الدائمين على الخلّة الباقين .

قال بعض الخطباء في امتزاج الخير والشرّ في هذه الدار : إنّ نعيم الدُّنيا مشوب بالبأساء ونفعها ممزوج بالضرّاء ، وسرورها موصول الحبال بالأحزان وحبورها مقرون العقال بالأشجان ، ولذّتها مكنوفة بالآلام وصحّتها محفوفة بالأسقام ، وراحتها منوطة بالتعب ودعتها مخلوطة بالتعب وبالنصب ، وغناها رهين بالفقر والقلّة وعزّها ضمين للهوان والذلّة ، وأهلها لا أشقياء ولا ناعمون ولا أعلّاء ولا سالمون ، دائبون وإن سكنوا وجلون وإن أمنوا ، راحلون وإن نزلوا ظاعنون وإن سكنوا :

جمعوا وما أكلوا الّذي جمعوا ... وبنوا مساكنهم فما سكنوا

---

(١) بين المعقوفين من الأصل .

(٢) أنظر اللسان مادة (روح) .

(٣) البيتان لمجنون بني عامر في شرح شواهد المغني : ٢٢ وهما من قصيدة ميمية ، وصواب آخر البيت الأول «نسيمها» والثاني «همومها» .

وكأنّهم كانوا بها ظعناً   لمّا استراحوا ساعة ظعنوا

ولعمرو بن بحر[1] فصل مفيد في الخير والشرّ ، قال أحد العلماء وأوحد البلغاء : إنّ المصلحة في ابتداء أمر الدنيا إلى انتهاء مدّتها امتزاج الخير والشرّ ، والضارّ بالنافع ، والمكروه بالمحبوب ، والضعة بالرفعة ، والكثرة بالقلّة ، والغنى بالفقر والفاقة ، والحسن بالقبيح ولو كان الشرّ صرفاً هلك الخلق ، ولو كان الخير محضاً سقطت المحنة وتقطّعت أسباب الفكرة ، ومع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة ، ومتى بطل التخيير وذهب التمييز ولم يكن للعلم ثبت وتوقّف وتعلّم لم يكن علم ولم يعرف باب النبيّين ، ولا دفع مضرّة ، ولا اجتلاب منفعة ، ولا صبر على المكروه ، ولا شكر على المحبوب ، ولا تفاضل في بيان ولا تنافس في درجة ، وبطلت فرحة الظفر وعزّ الغلبة ، ولم يكن على ظهرها محقّ يجد عزَّ الحقّ ومبطل يجد ذلّ الباطل ، ومؤمن يجد برد النفس وشاكر يجد نقض الحيرة وكرب الوجوه ، ولم يكن للنفس آمال ولم تتشعّثها الأطماع ، ومن لم يعرف كيف الطمع لم يعرف اليأس ومن جهل اليأس جهل الأمن وعادت الحال من الملائكة الّذين [هم] [2] صفوة الخلق ومن الإنس الّذين فيهم الأنبياء والأولياء إلى حال السبع والبهم في الغباوة والبلادة ، وإلى حال النجوم[3] في السحرة[4] ، فإنّما أنقص من حال البهائم في الرفعة ، ومن ذا الّذي يسره أن يكون الشمس أو القمر أو النار أو الثلج أو برجاً من البروج أو قطعة من الغيم ، أو يكون المجرّة[5] بأسرها أو مكيالاً من الماءِ أو مقداراً من الهواء ؟

---

(١) هو أبو عثمان الجاحظ . وذكر هذا الفصل بتفصيل في كتابه الحيوان (١ : ٢٠٤ ـ ٢١١) .

(٢) زيادة من النسخة (ر) .

(٣) جمع النجم : النبات الذي لا ساق له .

(٤) أي الصحراء . هامش الأصلين .

(٥) منطقة في السماء قوامها نجوم كثيرة لا يميزها البصر فيراها كبقعة بيضاء . وهي بالفارسية «كهكشان» .

ولو كان الأمر على ما يشتهيه الغرّ والجاهل بعواقب الأُمور لبطل النظر ، ولتعطّلت الأرواح من معانيها ، والعقول من ثمارها ، ولعدمت الأشياء حقوقها .

فسبحان من جعل منافعها هنيئة ومضارّها ترجع إلى أعظم المنافع وقسماً بين ملذّ ومؤلم ، وبين مونس وموحش ، وبين صغير حقير وجليل كبير ، ومن عدوّ يرصدك ، ومن عقل يحرسك ومن مسالم يمنعك ، ومن معين يعضدك ، وجعل في الجميع تمام المصلحة وباجتماعها تتمّ النعمة وفي نقصان واحد منها بطلان الجميع قياساً قائماً وبرهاناً واضحاً لأنّ الجميع إنّما هو واحد وواحد ضمّ إليهما أشباههما ، ولأنّ الكلّ أبعاض ، وكلّ جملة فمن أجزاء فإذا جوّزت رفع واحد والآخر مثله في الوزن وله مثل علّته وحظّه ونصيبه فقد جوّزت رفع الجميع ؛ لأنّه ليس الأوّل بأحقّ من الثاني في الوقت الّذي جوّزت فيه إبطال الأوّل ، وكذلك الثالث والرابع حتّى يأتي على الكلّ ويستفرغ الجميع .

ألا ترى أنّه ليس الجبل بأذلّ على الله من الحصاة وليس الطاوس المستحسن بأذلّ على الله من الخنزير المستقبح ، وأظنّك ممّن يرى أنّ الطاوس أكرم على الله من الغراب وأنّ الدرّاج أعزّ من الحدأة[1] ، وأنّ الغزال أحبّ إليه من الذئب ، وإنّما هذه أُمور فرقها في عيون الناس ، وميزها في طبائع العباد ، فلا تذهب إلى ما تريك العين واذهب إلى ما يريك القلب ، ولا تنظر بعين الاستحسان في وجه الإنسان المخصوص بحسنه وهيئة شكله هذا النوع من الخلق ، عن الجهة الّتي ينظر بها إلى استقباح سوءاته ، والجمع في الحاجة إليه والانتفاع به ، وخلق البعض لإدخال الغذاء حياة للشخص ، والبعض لإخراج الفضلات دفعاً للأذى وطلباً للبقاء ، على حدّ واحد وفي نصاب غير مختلف . ولـلأُمور حكمان : حكم ظاهر للحواسّ وحكم باطن للعقول ، والعقل هو الحجّة . قد علمنا أنّ خزنة النار من الملائكة ليسوا بدون خزنة الجنّة ، وأنّ ملك الموت ليس بدون ملك السحاب ، وإن أتانا بالغيث وجلب الحياء[2] وإنّما

---

(١) بكسر الحاء وفتح الدال ، طائر من الجوارح .

(٢) الحياء : الخصب والمطر . وفي الأصلين : «الحياة» .

الاختلاف في المطيع والعاصي في طبقات ذلك ومواضعه لا في الخير والشرّ من حيث تقديره والتمكين منه ، وقد قال الله عزّ وجلّ : **﴿ولو أنّ ما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمدّه من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله﴾**(١) .

والكلمة في هذا الموضع ليس يريد بها القول والكلام المؤلّف من الحروف ، وإنّما يريد النعم والأعاجيب والصفات وما أشبه ذلك ، فإنّ كلًّا من هذه الفنون لو وقف عليه رجل رقيق اللسان صافي الذهن صحيح الفكر تامّ الإرادة لما برح أن تحسره(٢) المعاني ويغمره الفكر(٣) .

وإلى هذه المعاني يرجع تأويل جوابه سبحانه وتعالى للملائكة عند ذكرهم بني آدم بما أبصروه في اللوح من الشرور والفساد في الأرض وسفك الدماء ، وأنّهم سالمون مبرّأون منها منقلبون على تسبيح الله وتقديسه يقول : **﴿إنّي أعلم ما لا تعلمون﴾**(٤) من أنّ فيهم الأنبياء مع ذلك والعلماء والصالحون(٥) الأتقياء ، وأنّ صلاح الجميع واستقامة تدبير العالم في أن يكون فيهم الأشقياء الكفّار والمفسدون الأشرار على ما ذكرناه .

وكان(٦) المأمون قد حمل الحكيم النصرانيّ المرتدّ من خراسان إلى العراق فدعا به فقال : لأن أستجيبك بحقّ أحب إليّ من أن أقتلك بحقّ ، ولأن أقتلك بالبراءة أحبّ إليّ من أن أدفعك بالتهمة ، وقد كنت مسلماً بعد أن كنت نصرانيّاً فاستوحشت ممّا كنت به آنساً ، ثمّ لم تلبث أن رجعت عنّا نافراً ، فخبّرنا عن الشيء الّذي أوحشك(٧) [فإن وجدت عندنا دواء دائك كنت قد أعذرت ،

---

(١) سورة لقمان ؛ الآية : ٢٧ .

(٢) حسره : ساقه حتى أعياه . وفي الأصلين «أن يحسن المعاني ويعمر الفكر» وما أثبتناه من الحيوان .

(٣) هنا ينتهي ما نقله عن الجاحظ بتغيير وتصحيف .

(٤) سورة البقرة ؛ الآية : ٣٠ .

(٥) الصواب : والصالحين .

(٦) الخبر في البيان والتبيين (٣ : ٣٧٥ ـ ٣٧٧) .

(٧) من هنا إلى ص ٤٩٠ سقط من الأصل واختصت به النسخة (ر) .

ولم ترجع على نفسك بلائمة ، وإن قتلناك فبحكم الشريعة وترجع أنت في نفسك إلى الاستبصار والثقة ، وتعلم أنّك لم تقصّر في اجتهاد ولم تفرّط في الدخول في باب الحزم .

فقال المرتدّ : أوحشني ما رأيت من كثرة الخلاف في دينكم ، فكيف أهتدي بكم في تضليل بعضكم لبعض ؟

قال المأمون : لنا اختلافان :

أحدهما كالاختلاف في الأذان وتكبير الجنائز والاختلاف في التشهّد وصلاة الأعياد وتكبير التشريق ووجوه القراءات ووجوه الأحكام في الفتاوى وما أشبه ذلك ، وهذا ليس اختلافاً ؛ إنّما هو تخيير وتوسعة وتخفيف من المحنة ، فمن أذّن مثنىً وأقام مثنى لم يؤثّم ، ومن أقام فرادى لم نتبرّء منه ، والفرق المختلفة في الأحكام باجتهادهم لا يتعايرون ولا يتعاقبون ، يُرى ذلك عياناً ويشهد عليه بياناً .

والاختلاف الآخر كنحو اختلافنا في تأويل الآية من كتابنا ، وتأويل الأحاديث عن نبيّنا مع إجماعنا على أصل التنزيل واتّفاقنا على عين الخبر ، فإن كان الّذي أوحشك هذا حتّى أنكرت كتابنا فقد ينبغي أن يكون اللّفظ بجميع التوراة والإنجيل متّفقاً على تأويله كالاتّفاق على تنزيله ، وينبغي أن لا يكون في ملّة مّا اختلاف في شيء من التأويلات ، وينبغي ألاّ يرجع إلاّ إلى لغة لا اختلاف في تأويلات ألفاظها ، فلو شاء الله أن يترك كتبه ويجعل كلام أنبيائه ورسله بحيث لا يحتاج إلى تبيين وتفسير لفعل ، ولكنّا لم نر شيئاً من الدين والدنيا دفع إلينا على الكفاية ، ولو كان كذلك لسقطت المحنة والبلوى ، وذهبت المسابقة والمنافسة ، ولم يكن تفاضل ولا ظهور ولا سرور ، ولكن الله بنى الدنيا على امتزاج خيرها بالشرّ واختلاط علمها بالجهل ، وصوابها بالخطأ ، وتوفيقها بالخذلان ، ليبيّن الشيء بضدّه ، وينتظم مصلحة الجميع ، وينتهي السعيد إلى ما دعي عليه وخلق له ، ولو كان العلم كلّه ظاهراً والعلم وجهاً واحداً ، والخلاف مرتفعاً زائلاً لما صحّ تكليف ، ولا تمّ سعي ، ولا استحقّ حمد ولا ذمّ

ولا ثواب ولا عقاب .

فقال المرتدّ : أشهد أنّ الله واحد لا ندّ له ولا ولد ، وأنّ المسيح عبده ، وأنّ محمّداً صادق ، وأنت أمير المؤمنين حقّاً .

فأقبل المأمون على أصحابه وقال : قرّوا[1] عليه عرضه ، ولا تبرّوه في يومه هذا[2] ريثما يعتق إسلامه كيلا يقول عدوّه : أسلم رغبة ، ولا تنسوا نصيبكم من برّه .

فائدة أخرى من كلامه مفيدة جدّاً امتزاج الشرّ بالخير وائتلاف الناس باختلاف أحوالهم قال :

لولا أنّ الله تعالى أراد أن يجعل الاختلاف سبباً للائتلاف لما جعل واحداً طويلاً وآخر قصيراً ، وواحداً حسناً وآخر قبيحاً ، وواحداً غنيّاً وآخر فقيراً ، وواحداً ذكيّاً وآخر غبيّاً فخالف بينهم ليختبرهم ، وبالاختبار يطيعون ، وبالطاعة يسعدون . ففرّق بينهم ليجمعهم ، وأحبّ أن يجمعهم على المثوبة والطاعة جميعاً .

فسبحانه وتعالى ما أحسن ما أبلى وأولى ! وأحكم ما صنع وأتقن ما دبّر ! لأنّ الناس كلّهم لو رغبوا عن عار الحياكة لبقينا عُراةً ، ولو رغبوا كلّهم عن كدّ البناء لبقينا على العَراء[3] ولو رغبوا عن الفلاحة لذهب الأقوات ولبطل المعاش ، فسخّرهم على غير إكراه ورغّبهم على غير دعاء .

ولولا اختلاف الطبائع من الناس وعللهم لما اختاروا من الأسماء إلّا أحسنها ، ومن البلاد إلّا أعدلها ، ومن الأوساط إلّا أوسطها ، ولو كان كذلك لتزاحموا على طلب الوساطة وتشاجروا على بلاد الغنى ، ولما وسعهم بلد ، ولا تمّ بينهم صلح ، وقد صار بهم التسخير إلى غاية القناعة ، وكيف لا يكونوا

---

(١) في البيان والتبيين : «فروا» من الوفر .
(٢) أي لا تصنعوا به اليوم خيراً كيلا يتهمه عدوه بأنه أسلم طمعاً .
(٣) العراء الفضاء الذي لم يستتر بشيء .

كذلك وأنت لو حوّلت ساكني الآجام إلى الفيافي وساكني السهل إلى الجبل ، وساكني الجبال إلى البحار ، وساكني الخيم إلى المدن لأذاب قلوبهم الهمّ ، ولأتى عليهم فرط النزاع ، وليس على ظهرها إنسان إلّا وهو معجب بصوته وكلامه ، ولولا ذاك لماتوا كدّاً ولذابوا ، ولكن كلّ إنسان وإن كان يرى أنّ له حسّاداً فغيرهم يأنفون عن صناعته وعمله ، وكلّ من يرى أنّه حاسد فهو يرى أنّه محسود في شيء آخر .

ولولا اختلاف الناس في الأسباب وارتهانهم بالعلل لما زيّن لكلّ أحد عمله ، ولما سهل عليه شغله ، فالحائك إذا رأى تقصيراً من صاحبه أو سوء حذق أو خرقاً قال له : يا حجّام ! والحجّام إذا رأى مثل ذلك من صاحبه قال له : يا حائك .

ولولا اختلاف الأسباب في الخير والشرّ لتنازعوا بلدة واحدة واسماً واحداً وكنية واحدة ، فقد صاروا كما ترى مع اختيار الأسماء القبيحة والألقاب السمجة . والأسماء مبذولة والصناعات مباحة ، والمتاجر مطلقة ووجوه الطرق مخلّاة ، لكنّها مطلقة في الظاهر مقسّمة في الباطن ، وإن كانوا لا يشعرون بالّذي دبّر الحكيم في ذلك من المصلحة .

فسبحان من حبّب إلى واحد أن يسمّي ابنه محمّداً وإلى آخر أن يسمّي ابنه شيطاناً وحبّب إلى الآخر أن يسمّي ابنه سعيداً وإلى الآخر أن يسمّيه حماراً وكلباً ، وإلى قوم أن يسمّوا أولادهم فضلاً وطاهراً وبشيراً ، ويسمّي قوم آخرون أبناءهم عكيرشة وجندلة وحنظلة وبغيضاً وعجلان وغضبان وحجراً وكليباً وذيباً ! لأنّ الناس لو لم يخالفوا في الأسماء والكنى لجاز أن يجمعوا على شيء واحد ، وكان في ذلك بطلان المعاملات وفساد العدالات ، وأنت إذا رأيت ألوانهم وشمائلهم واختلاف صورهم ، وسمعت لغاتهم ونغماتهم علمت أنّ طبائعهم المحجوبة الباطنة على حسب أمورهم الظاهرة .

وبعض الناس وإن كانوا مسخّرين للحياكة فليس فيهم الكمال ، وقد يسخّر الله الملك لقوم بأسباب حديثة وقديمة فلا يزال ذلك مقصوراً عليهم ما دامت تلك الأسباب قائمة فليس إذا كانوا مسخّرين للملك وكان الناس لهم مسخّرين ،

فلا بدّ من أن يكونوا في كلّ حال مسخّرين للجبريّة والنخوة والفظاظة والقسوة ، ولطول الحجاب والاستبشار وسوء اللقاء والتصنّع ، وقد يكون الإنسان مسخّراً لأمر ومخيّراً في آخر ، ولولا الأمر والنهي لجاز التسخير في دقيق الأمر وجليله وخفيّه وظاهره ؛ لأنّ الناس إنّما سخّروا إرادة العائدة عليهم والنظر لهم وأن تتمّ النعمة عليهم ، ولم يسخّروا للعصمية كما لم يسخّروا للمفسدة ، وقد تستوي الأسباب في مواضع وتتفاوت في مواضع ، كلّ ذلك ليجمع الله بهم مصالح الدنيا ومراتب الدّين .

ألا ترى أنّه لم يبع أحد قطّ سلعة بدرهم إلّا وهو يرى أنّ ذلك الدرهم خير له من سلعته وعلى العكس ، ولو كان صاحب السلعة يرى في سلعته ما يرى فيها صاحب الدرهم وعلى العكس لما اتّفق بينهما شرى ولا بيع أبداً .

فسبحان من حبّب إلينا ما في أيدي غيرنا وحبّب إلى غيرنا ما في أيدينا ليقع التبايع فيقع الترابح فيتمّ التعايش ومثل هذا كثير والعلم به قليل .

وقال بعض البلغاء في نحو هذا القول : إنّ أكثر نعم الله على الناس وإن كانت مرتّبة بين نظر من عين ، وتدبّر من قلب يستسرّ عن سوادهم الأعظم الّذي فيه الكثير والغرر ، إمّا لغلط حسّ أو غلط اعتقاد أو منازعة أنفس من شأنها أن تستوطىء أباطيل الأهواء فتركبها ، وتستصعب حقائق الأشياءِ فتنبو عنها ، فلا يتبيّن حينئذ إلّا لمن ثبتت معرفته وتهذّبت قريحته ، وكان راجعاً إلى عقل ومسكة وتدبير وحنكة . وذلك أنّ أحدهم لا يعتدّ من مواهب الله له إلّا بما خصّه في نفسه دون ما أعطاه مع غيره ، فإن بلغ من الحظّ إرادته ابتهج واغتبط وإن قصر به عنها قنط وغمط[1] وهو لا ينتفع بما ينفرد به من بحبوحة السعة إلّا بأن يطمئنّ به وبغيره ، وقدّم الأمن والدعة ، وتكون الأيدي من اعتصابه مقبوضة ، والأعين عن منافسته مغضوضة . ولو أوصل هذا إلى أمله كلّه لاطّرد الحكم لغيره في مثله . فعاد التكافي في اتّساع الأحوال بضدّ المراد بها ، والمستفاد منها من ضنك المعيشة وعدم الرفاهة وشمول البؤس وحلول الضرّ ، ولم يحمل بعض

---

(١) غمط ـ من بابي ضرب وعلم ـ احتقر .

الناس كلّ بعض ، ولم يجتمعوا على نظام ، فمن حيث خولف بينهم ذلك الخلاف ائتلفوا منه الائتلاف ، فصارت لكلّ طبقة من طبقاتهم منزلة تقف عندها وصناعة تنتحلها ، فسدّوا الخلل ، وعدّلوا الميل ، وترافدت أيديهم ، وتعاونوا على مساعيهم ، ونشأوا مع تباين تلك المنازل بهم في منزلة القصور والفاقة ، ولجأوا إلى ظلّ المسالمة والموادعة ، وذلّ الأخفض للأعلى طلباً لما في يده ، وحبّ[1] الأعلى على الأخفض ضرورة إلى خدمته ، واقتضى ذلك أن يكون فيهم ملوك تحمي الذمار ، وسوقة يلتئم بهم الشمل ، فاستقرّت كلّ حرفة بمكانها ، فالملوك في الأمر والنهي والحماية والذبّ ، والوزراء في التدبير وجمع الفيءِ ، والكتّاب في حفظ الدواوين وتسديد المكاتبات ، والعمّال في عمارة البلاد واستدار الارتفاع ، والجند في سدّ الثغور وجهاد العدوّ والقضاة في إقامة ميزان القسط وتنفيذ أحكام الدين ، والتجّار في التجهيز والجلب ، والعوامّ في المهن والحرف ، ولا يزال كلّ منهم مستعيناً بغيره ، وفقيراً إلى من سواه ، صعوداً من أدناهم إلى أعلاهم ، وانحطاطاً من أعلاهم إلى أدناهم حتّى اطّرد هذا العالم ما هو عليه من ارتباط أبعاضه وأجزائه وإحكام وضعه وبيانه .

وهنالك بيان أنّ رحمة الله في هذا التقدير الحكيم والتدبير المستقيم نزلت على سبيل العموم ، ووصلت إلى الجمهور ، فأخذ الناس منها بأقساطهم ، وصارت تامّة من حيث نظر الجاهل المفضول في الحظّ أنّها ناقصة ، وما نقصانها إلّا في ما كان اشتهاه ونازعه إليه هواه .

وقال بعض الحكماء قولاً مفيداً في علّة وجود الشرّ في هذا العالم فإنّه لمَ لم يكن الأمر كلّه خيراً محضاً ؟ بأنّ الشرّ بالذات العدم ، ولأنّ كلّ عدم مقتضي طباع الشيء من الكمالات الثابتة لنوعه وطبيعته ، والشرّ بالعرض هو المعدم والحابس الكمال عن مستحقّه . وكلّ شيء وجوده على كماله الأقصى ، وليس فيه ما بالقوّة ، فلا يلحقه شرّ وإنّما يلحق الشرّ ما في طباعه بالقوّة ، وذلك لأجل المادّة ، والشرّ يلحق المادّة لأمر أوّل يعرض لها في نفسه ولأمر طارىء ، وجميع

---

(١) بهامش النسخة : «جن ظ» وأظن أن صوابه «حن» بالمهملة بمعنى الميل .

سبب الشرّ إنّما توجد فيما تحت فلك القمر طفيف[1] بالقياس إلى سائر الوجود . ثمّ الشرّ إنّما يصيب أشخاصاً وفي أوقات والأنواع محفوظة .

ومع هذا فإنّ وجود الشرّ في الأشياء ، ضرورة أن يكون الخير الممكن في هذه الأشياء إنّما يكون خيراً بعد أن يمكن وقوع مثل هذا الشرّ منه ، ومفيض الخير لا ينبغي له أن يترك الخير الغالب لشرّ منه فيكون تركه شرّاً من ذلك الشرّ ، ولهذا ما يؤثر العاقل لاحتراق النار بشرط أن يسلم منها حيّاً على الموت بلا ألم .

والشرّ يقال على وجوه : يقال شرّ للأفعال المذمومة ، ويقال شرّ لمباديها من الأخلاق ، ويقال شرّ للآلام والغموم وما يشبهها ، ويقال شرّ لنقصان كلّ شيء عن كماله ، وفقدانه ما من شأنه أن يكون له ، فهذه أقسام الشرّ الأربعة الّتي لا يخرج شيء منه عنها .

ولن تجد شيئاً ممّا يقال له «شرّ» من الأفعال إلّا وهو كمال لسببه الفاعل له ، والفعل إنّما هو شرّ بالقياس إلى السبب القابل له أو بالقياس إلى فاعل آخر يمنع عن فعله في تلك المادّة الّتي هو أولى بها من هذا الفعل ، فالظلم يصدر مثلاً عن قوّة طلّابة للغلبة وهي الغضبيّة ، والغلبة هي كمالها ، ولذلك خلقت من حيث هي غضبيّة ، أعني خلقت لتكون متوجّهة إلى الغلبة يطلبها ويفرح بها ، فهذا الفعل بالقياس إليها خير لها ، وإن ضعفت عنه فهو بالقياس إليها شرّ لها ، فإنما هي شرّ للمظلوم ، أو للنفس النطقيّة الّتي كمالها كسر هذه القوّة والاستيلاء عليها ، وعلى هذا الإحراق كمال للنار .

فأُريدت الخيرات الكائنة عن هذه الأشياء إرادة أوّليّة على الوجه الّذي يصلح أن يقال : إنّ الله يريد الأشياء ويريد الشرّ أيضاً على الوجه الّذي بالعرض ، إذا علم أنّه يكون ضرورة فلم يعبأ به . فالخير مقتض بالذات والشرّ مقتض بالعرض ، وكلّ بقدّره[2] .

---

(١) الطفيف : القليل .

(٢) في النسخة : كل يقدّره .

وكذلك لو لم يكن هموم لم يكن أحد يهتمّ بأمر ويحتال بخطب ويسعى في شأن ، ولولا الألم لكان بعض الأسباب المفسدة المهلكة مثلاً كالنار في إحراقها تصيب عضواً من أعضاء الحيوان وهو في غفلة أو نوم ، فلا يشعر به حتّى يأتي على عامّة أعضائه .

يبيّن ذلك أنّ الأمور في الوهم إمّا أمور إذا توهّمت موجودة يمنع وجودها أن تكون إلّا شرّاً على الإطلاق ، وإمّا أمور وجودها يوجب أن يكون خيراً ويمنع أن تكون شروراً أو ناقصة ، وإمّا أمور تغلب فيها الخيريّة ، وإمّا أمور تغلب فيها الشرّيّة .

هذه هي أقسام الأمور الأربعة الصحيحة ، وأمّا ما لا شرّ فيه فقد وجد في العالم بلا خلاف ، وأمّا ما كان كلّه شرّاً أو الغالب شرّاً فلم يوجد البتّة ، وأمّا الّذي الغالب في وجوده الخير فالأحرى به أن يوجد إذا كان الغالب فيه أنّه خير . فإن اعترض هذه الشبهة أنّه لمَ لم يمنع الشرّيّة عنه أصلاً حتّى يكون كلّه خيراً ؟ فحلّها أنّها حينئذ لم تكن هي هي إذ قلنا : إنّ وجودها الموجود الّذي يستحيل أن يكون بحيث لا يعرض عنها شرّ ، فلا يكون وجودها الوجود الّذي لها بل يكون وجود أشياء أُخرى غيرها وهي حاصلة ، أعني ما خلق بحيث لا يلزمه الشرّ .

ومثال ذلك ما ذكرنا فيما تقدّم أنّ النار إذا كان وجودها أن تكون محرقة وجود المحرق هو أنّه إذا مسّ رداء رجل شريف أحرقه ، إذ كان وجود رداء الشريف أنّه قابل للإحراق ، وكان وجود كلّ واحد منهما أن يعرض له حركات شتّى ، وكان وجود الحركات المختلفة في الأشياء على هذه الصفة ما يعرض له الالتقاء ، وكان وجود الالتقاء بين الفاعل والمنفعل بالطبع وجوداً يلزمه الفعل والانفعال ، فإن لم تكن الثواني لم تكن الأوائل ، فالأشياء إنّما رتّبت فيها القوى الفعّالة والمنفعلة السماويّة والأرضيّة بحيث تؤدّي إلى النظام الكلّيّ مع استحالة أن يكون هي على ما هي عليه ، ولا تؤدّي إلى شرور ، فيلزم من أحوال العالم بعضها بالقياس إلى بعض أن يحدث في نفس صورة اعتقاد رديء أو كفر أو شرّ آخر في نفس أو بدن ، بحيث لو لم يكن كذلك لم يكن النظام الكلّيّ ، فلم

يعبأ باللوازم الفاسدة الّتي تعرض بالضرورة .

وقال الله تعالى : خلقت هؤلاء للنـار ولا أُبالي ، وخلقت هؤلاء للجنّـة ولا أُبالي . وروى عبد الله بن العبّاس قال : سـألت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنـا رديفه في بعض ركباته : أعمل على أمر قد فرغ منه ، أو أستأنف العمل ؟ فقال : على أمر قـد فرغ منـه ، فإنّ كـلاًّ ميسّر لمـا خلق له ، من خلق للجنّـة يسّـر بعمـل أهـل الجنّة ، ومن خلق للنار يسّر بعمل أهل النار .

وروي أنّـه صلى الله عليه وآله وسلم قال لعبـد الله في مثل تلك الحـال : يا غـلام ! اتّق الله تجـده أمامـك ، يا غـلام ! اتّق الله تجده وراءك ، يـا غـلام ! اتّق الله ولا تخش غيره ولا ترج سواه . فلو اجتمع لك أهل الأرض أن ينالوك بغير ما كتب لـك من خير أو شرّ لم يقدروا عليه .

وقد لخّص بعض العلماء هذه المعاني تلخيصاً بيّناً يغني من طـول تخاليط المتكلّمين قـال : لا أحـد يـطلق القـول بـأنّ الله يفعـل الشـرّ المـطلق والفسـاد البحت ، ولكنّ القائلين إنّ في العالم ما هو شرّ وفساد على الإطـلاق قد افتـرقوا فرقتين : قالت إحداهما بأنّ وجود عامّة ما يظهر فيها من الشرّ هو من فعل الظلمة أو من فعل أهرمن كما ذهبت إليه المجوس والثنويّة . وقالت الأُخرى : إنّهـا من أفعال الثقلين : الجنّ والإنس ، كما قالت القدريّة .

فأمّا ما عدا هؤلاء من فرق الإسلام فإنّهم مع قـولهم بأنّ في العـالم ما هـو خير مطلق وصلاح مطلق وهو السعادة العـظمى والمنزلـة الرفيعـة عند الله تعـالى فإنّهم معتقدون بأنّ عامّة ما يوصف بالشرّ والفساد فـإنّها ليست شـروراً مطلقـة بل بـالإضافـة لا بالـذات ، وبالمنـاسبة لا على الإطـلاق فيكون شـرّاً وفسـاداً مهمـا استعمل لا في موضعـه ولا في جنبه ولا على هيئتـه ولا للغرض المـطلوب منه ، فيكون شرّاً على هذه الأوجه الأربعة ، فأمّا أن يوجد شيء هو ندامة شرّ فكلاّ .

فتكون الأشياء الموجودة إمّا خيراً محضاً لا يشوبه شرّ أصلاً نحو طـاعة الله وشكر نعمه وطلب الزلفى إليه والرفعة لديه ، وإمّـا أن يكون مهمـا استعمل على جهـة ما وافق مـراداً ما كـان خيراً ثمّ هـو بعينه شرّ مهما استعمـل على غير تلك

الجهة والمقصود نحو الملك والشجاعة والنظر والقوّة وسائر الأعمال الصناعيّة .

فعند ذلك قالت المجوس والثنويّة وأصناف القدريّة : إنّ الكفر والفساد والضلال شرّ مطلق تعالى الله عن أن يفعله أو يريده أو يقضي به . حتّى قالت القدريّة في قوله تعالى : ﴿يضلّ من يشاء ويهدي من يشاء﴾[1] : إمّا أن يكون يسمّيه ضالاًّ أو يخلّي بينه وبين ما يؤثره من الضلال أو يضلّه في الآخرة عن طريق الجنّة .

وأمّا الطوائف الباقون أن يكون في موجودات العالم شرّ محض أو فساد بحت فإنّهم يطلقون القول بإضلال الله بعض الخلق ، ويذهبون في ذلك أنّ الله عزّ اسمه لو لم يضلّ عبده في بعض ما يتعاطاه من مكاسبه ومطالبه لما انتبه العبد على نقصان جبلّته ، ولما وقف على ضعف طباعه ، وأنّه مكوّن على ما تيسّر له وموفّق فيما توفّق عليه ، فهو إذاً قد يضلّه في بعض المصارف ويهديه في بعضها ، ليعلم باليقين أنّه عبد مدبّر ناقص ضعيف ، فيتبرّأ من حول نفسه وقوّتها ، ويعتصم بحول مولاه وقوّته ، فيصير الاعتصام به ذريعة له إلى الهداية المطلقة الّتي لا يرد عليها التبدّل أصلاً كما قال جلّ وعزّ : ﴿ومن يعتصم بالله فقد هدي إلى صراط مستقيم﴾[2] .

وبمثل هذه الحال أيضاً أحواله في الإفقار والإغناء والتقوية والإعجاز والتوفيق والخذلان والتصحيح والإمراض . بل في جميع ما يعرض له في التدابير من الإصابة والخطأ فيهجّن عباده بكلّ واحد من المتضادّين منها لمصير تعاقبها عليه بعد استطاعة منبهة لعقله على أنّه لا حول ولا قوّة إلّا بالأحد الفرد الصمد الحقّ الّذي له الخلق والأمر ، فكلّما تمادى العبد على الإصرار لادّعاء الحول والقوّة لنفسه فترك الاعتصام فيها بخالقه فإنّه يزداد في شؤونه ضلالاً ، ومن مولاه بعداً وحجاباً .

فإذاً الإضلال الموجود عين الخير والحقّ في هذا العالم ، من تمام شرائط

---

(١) سورة النحل ؛ الآية : ٩٣ . ومواضع أُخر .

(٢) سورة آل عمران ؛ الآية : ١٠١ .

الامتحان للخلق ، وليس هو بشرّ محض ، والإضلال في الدار الآخرة المذكور بقوله تعالى : ﴿كذلك يضلّ الله الكافرين﴾[1] فهو من تمام حكم السياسة والحمل على الاستقامة ، وليس بمعدود من إرادة الشرارة ونعوذ بالله من عذابه ، وصائرة إلى عقابه ، إنّه أرحم الراحمين .

وعلى هذا الحكم المفرد في صحّة الابتلاء والتكليف في امتزاج الشرّ بالخير اتّصال النفع بالضرّ لم يسفر صبح الخير على الخلوص لعامّة الناس على الحقيقة ، فترى أحوالهم فيه مختلفة غاية الاختلاف ، فمنهم من يفعل الخير وعنده أنّه يفعل الشرّ وعلى العكس ، ومنهم من يفعل فعلاً يكون منه خيراً ، ولو فعله غيره كان منه شراً ، ومنهم من يرى الخير ما عاد بصلاح أمره وإن عاد بالضرر على غيره وهم الأكثرون ، وعلى العكس وإن قلّوا وفازوا بأشرف الأخلاق وأكرم الأعلاق ، وبعدوا عن الحسد أشدّ بعد وضادّوه فوق كلّ ضداد ، لأنّ الحسد هو مطالبة النفس بانتقال الواصل إلى غيره إليه ، وشهوة النفس للفوز به دون غيره حتّى إنّ الحاسد لا يرضى إلاّ بسلب المحسود عن نعمه ، والمؤثر على نفسه بإدخال[2] المشقّة عليها لنفع غيره ، قد سلب نفسه نفعها وأوصله إلى غيره . وفيه أيضاً مع ذلك مخالفة العادة والنفس الأمّارة بالسوء المزيّنة للغيّ ، التوّاقة إلى الشرّ ، المحرّضة على البغي ، وإنّ كلّ أحد يحبّ من الخير لنفسه ما هو لغيره ، فإذا جعل لغيره ما لنفسه فقد رفض العادة ونقضها ، وخفض أعلام النفس وقرضها .

وقد تحدّث عن عهد الجاهليّة الجهلاء إلى اليوم حديث كعب بن مامة[3] ويضرب بكرمه وجوده المثل ، وكان كعب في جماعة في فلاة فعزّ الماء ، فكانوا يقتسمون الماء بقعب[4] ليتساووا في شربه ، فلمّا وصل القعب إليه تشوّف[5]

---

(١) سورة المؤمن ؛ الآية : ٧٤ .
(٢) أي ولا يرضى المؤثر إلاّ بإدخال المشقة على نفسه لإيصال النفع إلى غيره .
(٣) ترى خبره في مجمع الأمثال (١ : ١٩١ ـ ١٩٢) وفي الأصلين «كعب بن ثمامة» .
(٤) القعب : القدح الضخم الغليظ .
(٥) تشوف : حد إليه النظر بطرفه .

نحوه واحد منهم فقال كعب للساقي : أعط أخاك النميريّ يصطبح ، فأعطاه فلمّا كـان من الغد بلغ الكعب[١] إليـه فتشـوّف النميـريّ فقـال كعب للسـاقي : أعط النميريّ وبات على غاية العطش ، فلمّا كان في اليوم الثالث حملوه إلى الشريعة فنادوه : رِدْ يا كعب[٢] ! فحرّكوه فإذا هو مات .

ويحكى أنّ رجلين أنكـر بهما السفينـة فتعلّقا بسـاجـة [٣]لا تسعهمـا فقـال أحدهما للآخر : ألك أهل ! فقال : نعم ولد وأُمّ ولد وزوجة ، فقال : أنت أحقّ بالسلامة منّي ، وخلّى عن الخشبة وغرق .

ولمّا سعى غلام الخليل بالصـوفيّة إلى الخليفـة أمر بضـرب أعناقهم فبسط النـطع فتقدّم الثـوريّ ، فقال رجـلٌ : مـا تـدري إلى مـا تبـادر ؟ فقـال : نعم ، فقـال : وما أعجلك ؟ قـال : أُوثر أصحـابي بحيـاة سـاعـة ، فـأُنهي الخبـر إلى الخليفة وخرج الأمر بردّهم إلى القـاضي على عهده ليـظاهر في التعـرّف ، فسرد الثوريّ على القاضي من رائـع كلامـه ما أبكـاه وأشجاه ، فقـال : إن كان هؤلاء زنادقة فما على وجه الأرض مسلم .

وحكى بعض الفقراء قال : كنت سنة الهبير[٤] مـع الناس ، وكنت أطـوف بين الجرحى فرأيت أبـا محمّد الحـريريّ وكـان قد نيف على المـائة فقلت : يـا شيخ ! ألا تدعو فيكشف ما ترى ؟ قال : قد قلت ، فقال : إنّي أفعل ما أشـاء ، فأعدت فقال : يا أخي ! ليس هذا وقت الدعاء ، هذا وقت الرضاء فقلت : بـك حاجة ؟ فقال : أنا عطشان فجئتـه بماء فـأخذ وأراد أن يشـرب فنظر إليّ وقـال : هؤلاء عطاش وأنا أشرب ؟ فرمى بالماء ومات من ساعته .

وحدّث حذيفة العدويّ[٥] قال : انطلقت يوم اليرموك أطلب ابن عمّ لي ،

---

(١) كذا ، والصحيح : القعب .
(٢) «رد» أمر من ورد الماء .
(٣) قطعة من الخشب .
(٤) الهبير موضع ، وفيه هجم ابن أبي سعيد سنة ٣١٢ على الحاج وقتلهم وأخذ أموالهم .
(٥) ذكره الأبشيهي في المستطرف (١ : ١٥٦ ـ ١٥٧) .

ومعي شيء من ماء ، فإذا رجل يقول : آوه ! فأشار ابن عمّي أن انطلق به إليه [واسقه ، فإذا هو هشام بن العاص ، فقلت : أسقيك ؟ فأشار إليّ أن نعم ، فسمع آخر يقول : آه ! فأشار إليّ أن انطلق إليه][1] فجئته فإذا هو ميت ثمّ رجعت إلى هشام فإذا هو قد مات فرجعت بالماء إلى ابن عمّي فإذا هو قد مات .

ومن كرائم الأفعال في هذا الباب ما حدّث الواقديّ قال : أظلّني شهر رمضان ولا نفقة ، فكتبت إلى بعض العلويّة أقترضه ألف درهم فأنفذ كيساً مختوماً ، فإذا هو بخاتمه حتّى كتب إليّ صديق يسألني نفقة لشهر رمضان ، فأنفذت إليه الكيس بختمه ، فلمّا مضت ساعة فإذا أنا بالصديق مع العلويّ قد طلعا عليّ ، فسألني العلويّ عن حالي وعن الكيس فقلت : صرفته في بعض المهمّات ، فضحك وأخرج الكيس فقال : لمّا أنفذته إليك][2] لم يكن بقي معي شيء فاستسعفت صديقي هذا فسألك إسعافه فحمله إليّ فعجبنا كلّنا من ذلك فقال العلويّ الوجه أن نقسّمه بيننا فإنّ الله يأتي بالفرج قبل إنفاقها وإنفاذها .

قال الواقديّ : فأنفقت ما خصّني وبقيت مهموماً فاستدعى خالد بن برمك وقال لي : رأيتك في النوم على حال تفكّر واهتمام فاشرح لي أمرك ، فشرحت القصّة وما كان منّا في أمر الكيس فقال : لا أدري أيّكم أكرم ، وأمر لي بثلاثين ألف درهم وولّاني القضاء وأمر للعلويّ وللصديق بعشرين ألف درهم .

ويحكى[3] أنّ عبد الله بن جعفر خرج إلى ضيعة له فنزل على نخيل قوم مجتازاً وفيها غلام أسود يعمل فيها إذ أُتي الغلام بقوته ودخل كلب الحائط ، ودنا من الغلام على رائحة الطعام فرمى إليه بقرص فأكله ، ثمّ رمى إليه الثاني والثالث ، وعبد الله ينظر فقال للغلام : كم قوتك كلّ يوم ؟ قال : ما رأيت ، قال : فلم آثرت هذا الكلب ؟ قال : ما هي بأرض كلاب إنّه جاء من مسافة جائعاً فكرهت ردّه وأحببت قراه ، قال : فما أنت صانع ؟ قال : أطوي يومي ،

---

(١) الزيادة من المستطرف .

(٢) هنا ينتهي الكراسة الساقطة من الأصل .

(٣) حكاه في المستطرف (١ : ١٥٩) .

قال عبد الله : أُلام على السخاء ! إنّ هذا لأسخى منّي ؛ آثر كلباً على نفسه ! وجاءه قومه ، ثمّ اشترى النخيل والغلام وما فيها من الآلات فأعتق الغلام ووهبها منه .

وحكى الفضيل بن عياض أنّ رجلاً خرج بغزل فباعه بدرهم اشترى به دقيقاً فمرّ على رجلين كلّ واحد منهما أخذ برأس صاحبه فقال ما هؤلاء ؟ فقيل : يختصمون على درهم فأعطاهم ذلك وليس له شيء غيره ، فرجع إلى امرأة فأخبرها الخبر فقامت فجمعت شيئاً آخر فذهب يبيعه فكسد عليه ، فمرّ على رجل معه سمكة قد أراحت[1] فقال له : إنّ معك شيئاً قد كسد ومعي شيئاً قد كسد فهل لك أن تبيعني هذا بهذا ؟ فقال : نعم ، فأخذ سمكته وذهب بها إلى البيت ، فقامت المرأة تصلحها فوجدت في جوفها لؤلؤة ، فقالت : أتعرف صاحب اللؤلؤة ؟ قال : لا ، ولكنّي أعرف من يعرفه فانطلق بها إلى صاحب اللؤلؤة فقال : مرحباً يا فلان ، من أين لك هذه ؟ فأخبره بقصّتها من أوّلها إلى آخرها ، فقال : لك بها أربعون ألفاً ، وإن شئت فاذهب بها إلى فلان فإنّي أراه أثمن لك بها منّي ، فذهب بها إليه فسأله عن اللؤلؤة فأخبره بالقصّة كما فعل الأوّل ، فقال : لك بها ثمانون ألفاً وإن شئت فاذهب بها إلى فلان فإنّي أراه أثمن لك منّي فذهب بها إليه ، فقال : لك بها مائة وعشرون ألفاً ، ولا أرى أحداً يزيد عليّ ، وقال : فاحمل مالك فجاء فحمل اثنتي عشرة بدرة وذهب بالمال إلى منزله ليضعه فإذا هو برجل على الباب فقال : مسكين فقير أنلني ممّا أنعم الله به عليك وقصّ عليه قصّته ، فقال : هذه قصّتي الّتي كنت عليها ، ادخل فخذ نصف ما معي فأعطاه ستّ بدر ، فحملها ثمّ تباعد قليلاً ورجع إليه فقال : ما أنا بمسكين ولا فقير أرسلني إليك ربّك الّذي أعطاك بالدرهم عشرين قيراطاً جزاء لك على ما كان منك في فعل الخير وإيثار البرّ .

وجاء في بعض الأحاديث حديث عجيب في مثل ما نحن فيه ، كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يوماً من الأيّام في أصحابه فقال عبد الله بن سلام : يا نبيّ الله بأبي

---

(١) أراح اللحم . أنتن .

أنت وأمّي ألا أُحدّثك بحديث كان في بني إسرائيل عجيب من العجائب فقال صلّى الله عليه وآله وسلم : حدّثني فقال : خرج حمير بن عبد الله متصيّداً فلمّا أقفرت به الأرض ، فإذا هو بحيّة قد انسابت بين قوائم دابّته حتّى قامت على ذنبها ثمّ أنطقها الله الّذي أنطق كلّ شيء فقالت : يا حمير أعذني أظلّك الله في ظلّه يوم لا ظلّ إلاّ ظلّه ، فقال لها حمير : ممّن ؟ قالت : من عدوّ يريد يقطعني إرباً إرباً بسيفه ، فقال لها حمير : أين أجعلك ؟ قالت : في فيك ، ففتح لها حمير فاه فانسابت في فيه حتّى وصلت إلى جوفه .

وأقبل رجل شاهراً سيفه بيمينه فقال : يا حمير ! ما فعلت الحيّة الّتي أناخت بكنفك قال : ما أرى شيئاً ، قال : كبرت كلمة خرجت من فيك الّتي تقول هذا ، فقال حمير : اللّهم غفراً ، ما جاء منك أعظم ، والله لو كانت تحت قدمي ما نحّيتها عنها ، فامض لشأنك ، فولّى الرجل .

ونادته الحيّة من جوفه : يا حمير ! ما فعل الرجل ، أيقع طرفك عليه ؟ قال : لا ، قد مضى فرأيك ، قالت : والله لقد جعلت جوفك لي وعاء وأمنتني من عدوّي ، فاختر منّي خصلة من اثنين : إمّا أن أنكت قلبك فأتركك رميماً ، وإمّا أن أفرث كبدك فألقيها قطعاً قطعاً من أسفلك ، فقال : بئس والله ما جازيتني به أن جعلت جوفي لك وعاءً وأمنتك من عدوّك قالت : يا جاهل ! لقد علمت عداوتي لأبيك آدم عليه السلام حين أخرجته من الجنّة ، فقال لها حمير : أردت بذلك وجه الأجلّ الأعزّ ، قالت : اختر إحدى المنزلتين أُنزلها بك لا بدّ لك منها .

قال : أمّا إن عزمت على هذا فدعيني حتّى أنتهي إلى هذا الجبل فأستظلّ بظلّه فهو أستر لي قالت : ذاك لك ، فولّى حمير فلمّا انتهى إلى الجبل إذا هو برجل كأنّ وجهه دار القمر ليلة البدر قال له : يا حمير ! مالي أراك مذعوراً قليل الحيلة ؟ قال : من عدوّ جعلت جوفي له وعاء وأمنته من عدوّه حتّى إذا أمن زعم أنّه يعاقبني بأن ينكت قلبي أو يفرث كبدي ليس لي به حيلة ولا طاقة ، فقال له الفتى : يا حمير ! أتاك الغوث من خالقك الّذي يقضي في ملكه وناوله قطعة

فأكلها فوجد مغساً[1] في جوفه ثمّ أعطاه أُخرى فرمى بالحيّة قطعاً قطعاً ، فقال له حمير : لله أبوك من أنت ؟ قال : أما تعرفني ؟ قال : لا ، قال : ملك في الدنيا اسمي معروف ، هكذا أفعل بمن يفعل الخير إلى أقصى درجاتـه ، وما نالت بها من أوفى مثوباتها .

ولقد ذكرت هذا الحديث في الاثنى عشريّة إلاّ أنّ سنده مخالف لسنده هنا وأيضاً اسمه محمّد بن حمير وفيه ألفاظ تزيد عمّا ذكر في هذا الخبر لكن المعنى متّحد .

فلنرجع الآن إلى ما كنّا فيه من خصائص الخيـر وأوصافهـا وآفاتهـا وإعزاز وجودها فمن خصائص الخير أنّه فضيلة ووسط وحقّ وشاقّ فكان واحداً ، والشـرّ باطل وطـرف فكان أكثـر من واحد ، من الصعب إصـابة الشيء الـواحد الـوسط الّذي يكتنفه طرفان معروضان لا يتناهيان ويعترض دون طريق جهـات من جوانبـه صادّة عنه لا ينقطع وقد صدق من قال :

الـخـيـر أمـنـع قُـلّـةً　　مـن قـلّـة الـجـبـل الـمـنـيـعـة
والـشـرّ أسـرع جـريـة　　من سـرعـة المـا لـلشـريعـة

وقال آخر :

تـولّـت بـهـجـة الـدّنـيـا　　فـمـا أدري بـمـن أثـق
كـأنّ مـعـالـم الـخـيـرات　　سـدّت دونـهـا الـطرق
وأمـر الـشـرّ يـتّـسـق　　وأمـر الـخـيـر يـنـمـحـق

وقال آخر :

ومـا الـدهـر إلاّ شـرّه قـبـل خـيـره　　ولـذّات عيش غـالبتهـا الـفجـائـع
فـثغـر بـأيّـام الـمـسـرّة ضـاحـك　　وطـرف بـأيّـام الـحـوادث دامـع

ومن آفة الخير إفضاؤه كثيراً إلى الشرّ كما قيل :

لا تـأمـنـوا من بـعـد خيـر شـرّا　　كم غـصـن اخـضـرّ فـصـار جـمـرا

---

(١) وجع وتقطيع في الامعاء .

آخر[1] :

أحسنت ظنّك بالأيّام تلبسها ولم تخف غبّ ما يأتي به القدر
وسالمتك الليالي فاغتررت بها وعند صفو الليالي يحدث الكدر

بل من آفات الخير إحداق الآفات بعامّة الخيرات ، فلا يكاد يخلو خير من شرّ يطيف به ويلمّ بجوانبه كما قال عليّ عليه السلام[2] : «ما أعجب أمر الإنسان إن سنح له الرجاء أذلّه الطمع ، وإن هاج به الطمع أهلكه الحرص ، وإن ملكه اليأس قتله الأسف ، وإن سعد نسي التحفّظ ، وإن ناله خوف حيّره الحذر ، وإن اتّسع له الأمن أسلمته الغرّة وإن حدّدت له النعمة أخذته العزّة ، وإن أصابته مصيبة فضحه الجزع ، وإن أفاد مالاً أطغاه الغنى ، وإن غصّته فاقة شمله البلاء ، وإن أجهده الجوع قعد به الضعف ، وإن أفرط في الشبع كظّته[3] البطنة . فكلّ تقصير به مضرّ ، وكلّ إفراط به مفسد ، وكلّ خير معه شرّ ، وكلّ شيء له آفة» .

وقال بعض العلماء : من آفة العلم خيانة الورّاقين[4] وتخلّف المتعلّمين .

كما أنّ من آفات الدين فسق المتكلّمين وجهل المتعبّدين .

وكما أنّ من آفات الدنيا كثرة العامّة وقلّة الخاصّة .

وكما أنَّ من آفات الكرم أنَّ الجود ضدّ المنع ، وأنَّ البخل سبب للجمع ، وأنّ المال في أيدي البخلاء دون أيدي الأسخياء .

وكما أنّ من آفات الحلم أنّ الحليم مبتوك الخيبة ، وأنَّ السفيه منبع الحوزة[5] .

---

(١) سبق البيتان ، ولهما وأبيات أُخر قصة طريفة في استخلاص شيخ همداني من حبس المنصور أُنظر قصص العرب (٣ : ٦٩) .

(٢) شرح النهج لعبده (٢ : ١٦٧) الرقم ١٠٨ من الحكم مع اختلاف .

(٣) كظه الطعام : ملأه حتى لا يطيق النفس .

(٤) الوراق هنا : الكاتب .

(٥) مبتوك الخيبة : مقطوع الأمل ، والحوزة من الحيازة .

وكما أنّ من آفات المال أنّك إذا صنته عرضته للفساد ، وإذا أبرزته عرضته للنفاد .

وكمـا أنَّ من آفات الشكـر أنّـك إن قصّـرت عن غـايتـه غششت من اصطنعك ، وإن بلغتها أو أبلغت فيه أوهمت من سمعك .

وكمـا أنَّ من آفات الممـاليك أنّـك إذا بسطتهم فسـدت آدابهم وآذانهم ، وإذا قبضتهم أفسدت وجوههم وألوانهم .

وكمـا أنَّ من آفات الأصـدقاء أنّـك إذا استقللت منهم لم يصبك حـاجتك منهم ، وإن استكثرت منهم لزمتـك مواجبهم . وثقلت عليـك نوائبهم ، وكسبت الأعداء من الأصدقاء كما يكسب الداء من الغذاء .

وكمـا أنَّ من آفات المغنيّين أنَّ الـوسط منهم يميت الطرب ، وأنّ الحـاذق يسيء الأدب .

فهـذا ونحوه يـدلّ على غلبة الشرّ وعمـوم الضـرّ وكثـرة الآفـات في هـذه الدنيا ، ويدعو إلى الصـدوف عنها وعن شـرورها ، والإقبـال على الآخرة وطلب نعيمها الّذي لا يشوبه كدر ولا يلمّ به غير .

وقيل : دع الشرّ وغنّي له ، فيجاب : لا أُغنّي له ولا يغنّى له (؟) .

ومن نكد الشرّ أنّك ما نازعته إلاّ زاد ، ولا تركته إلاّ اضمحلّ وباد .

واعلم أنَّ الناس مختلفون في فعل الخير والشرّ على أربع فرق :

فمنهم من ينطوي باطنه وظاهـره على الخير ، وهـذه حال أصحـاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مثـل سلمان الفـارسيّ وأبي ذرّ والمقـداد وعمّار وأمثـالهم الّذين بـايعوه تحت الشجـرة ، كما أخبـر الله تعـالى عن حـالهم قـال : **﴿فعلم مـا في قلوبهم وأنزل السكينة عليهم﴾**[1] .

ومنهم من ينطوي باطنه وظاهره على الشرّ ، وهـذه كانت صفـة طائفـة من

---

(١) سورة الفتح ، الآية : ١٨ .

أهل الكتاب كما حكى الله تعالى عنهم بقوله : **﴿فلمّا جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين﴾**[1] .

ومنهم من أبدى ظاهره الخير وأضمر باطنه الشرّ ، فيكون صاحبه مجتمع فرق الشرور وملتقى طرق الفساد ، وهذه كانت حال المنافقين ، وهو إنّما يكون من متابعة الدخلة الخبيثة الصّادرة عن الدهاء المذموم ، المصاحبة للغضب المفرط والحسد المسرف ، وفي الحديث : «أشدّ الناس عذاباً يوم القيامة من يرى أنّ فيه خيراً ولا خير فيه» .

ومنهم من يشاكل ظاهره ظاهر الشرير في الحدّة والاستطالة والتسخّط بالكلام ويرجع في باطنه إلى قلب سليم منطو على الخير ، وذلك من غلبة الصفراء على مزاجه وهذا مزاجي الّذي قد أعيا الأطبّاء علاجه ، غير أنّي أعالجه بالصبر وكظم الغيظ ، وفي الحديث الثناء على أهل الحدّة قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم[2] «خيار أمّتي أحدّاؤها» وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «الحدّة تعتري خيار أمّتي» .

ونحن مع طول معاشرتنا طبقات الأفاضل ومعايشتنا مع كلّ قوم من الأماثل لم ينصرف بهم جميع الخصال الّتي في الفريق الأوّل من الفرق الأربعة كإخواننا الكرام ، ممّن نذكره بصفته لا بتسميته ، لاختصاص كلّ واحد منهم ببعض هذه الأوصاف الّتي قد اشتهر بها وانتشرت منه ، ولكراهية منّا أن نذكره على التعيين في هذا الوصف الكريم ، الّذي يجلّ عن القياس غير هؤلاء ، فإنّ الّذين قصرت الصفة في كلّ خير من أنواع الخيرات عن واجبهم ، وزاد العيان على خبرهم وخيرهم كان علماً يجلي على علوّ شرفهم وفضلهم ، وفصاحة أقوالهم ، وملاحة أفعالهم ، وتقدّم أقدامهم على مراتب نظرائهم من أهل زمانهم ، قد ذهبوا عن العيان وأقاموا في سويداء الجنان ، وورثوا على مراتب الجنان فآثارهم مدى الزمان باقية ، وأعيننا لفقدانهم باكية .

ولقد قال واحدهم بل أوحدهم خاتم المجتهدين الفاضل الكامل الشيخ

---

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ٨٩ .

(٢) رواهما ابن الأثير في النهاية مادة (حدد) قال : والحدة هنا : المضاء في الدين والصلابة .

بهاء الدين قدّس الله نفسه الزكيّة وأفاض على تربته المراحم الربّانيّة :

لا تبك معاشر نأوا وإلفا ... القوم مضوا، ونحن نأتي خلفا
بالمهلة أو تعاقب نلحقهم ... كالعطف بثمَّ أو كعطف بالفا

فكنّا نرتوي بعذوبة أخلاقهم الّتي تسلب الماء سلاسته ، ونتغذّى بطيب منطقهم الّذي يكسو الهواء لطافته إلى غير ذلك من تمام الوفاء وكرم الحياء وشرف المروءة وصدق الفتوّة ، وحسن السلوك مع الأصحاب ، والنجابة المقرونة بوفور الآداب ، والتحلّي من كلّ فضيلة بحقيقتها والتخلّي عن كلّ رذيلة ولو بالمجاز عنها .

وإلى الله أطلب الرغبة في أن يطيل بقاء أسلافهم ، ويديم رونق العلم وتاريخ الفضل وجمال العصر بأيّامهم ، وأن يديم علينا وعلى المؤمنين ظلّهم ويقدّمني في حلول الأجل قبلهم .

ولقد طال ذيل هذا الفصل على غيره من الفصول ، وحقّ أن يطوى بساطه ، ولكنّا نختمه ببعض ما يحكى ممّا يصدّ عن الشرّ ويصدف عن عمل السوء من مكاره لحقت أهله ، وأضلّتهم بوخيم جزائه ، ووجيم قصاصه كما أصاب شيرويه ابن كسرى فإنّه قتل أباه وعاش بعده ستّة أشهر ، ثمّ هلك بتناول سمّ اتّخذه أبوه له ، وكتب على الظرف الّذي جعله فيه : «هذا دواء للباه» .

وكذلك المنتصر قتل أباه المتوكّل فعاش بعده أيضاً ستّة أشهر ، وكان يقول في آخر أيّامه : «عاجلت فعوجلت» ومن النوادر في هذا الباب من وجوب الجزاء ما يحكى في سبب موته من فصد بعض الأطبّاء إيّاه بمبضع[1] مسموم وكان ذلك من دسيس الأتراك ، فلمّا كان في أيّام المعتضد احتاج ذلك الطبيب إلى الفصد فحمل إليه ذلك المبضع وهو لا يعلم ففصد به فمات .

ومن مفيد ما جاء في تبدّل الأحوال ومكافاة الأفعال ما يحكى أنّه كان بمدينة السلام رجل ذو يسار فبينا هو ذات يوم في منزله قد جلس ليأكل مع امرأته

---

(١) آلة يشق بها الجلد وما شاكله .

وبين يديه سكباجة[١] قد فاحت رائحتها إذ دنا سائل من الباب ، وكان ممّن امتحن بنكبة بعد نعمة ، فقال : أطعموني من فضل ما رزقكم الله ، فقامت المرأة وغرفت له من القدر وأخذت رغيفين لتناوله فلمّا رأى الزوج ذلك حلف عليها ألّا تدفع إليه شيئاً ومضى السائل خالياً حزيناً فاستوفى الرجل طعامه وصعد السطح لبعض حوائجه ، فعثر بشيء وانتكس فسقط إلى الأرض ووقص[٢] ومات ، وحازت المرأة ميراثه وتصرّفت فيه وفرّقت شيئاً من أسبابه الرثّة في المساكين فكانت في جملتها مضرّبة[٣] خلقة وقعت إلى هذا الرجل السائل ففتقها ليغسلها ويجعلها قميصاً يلبسه فوجد فيها ألف دينار فأخذها وغيّر حاله بها ، وضرب الدهر وأتت على ذلك الأيّام فطلب امرأة يتزوّجها وقالت له بعض الدّلالات : هنا امرأة صالحة قد ورثت فما تقول في مواصلتها ؟ فأنعم[٤] لها فسعت الدّلالة بينهما حتّى اتّفقا واجتمعا ، فلمّا دخل بها تحدّث ذات يوم فقالت المرأة : ما أشدّ ما مضى على رأسك فحدّثها بوقوفه على باب دار ، وحدّث المرأة كانت تأكل مع زوجها ، فقالت المرأة : فاعلم أنّ هذه هي الدار الّتي وقفت عليها وأنا تلك المرأة ، وإنّ زوجي صعد في ذلك اليوم السطح فسقط ومات ، وقد أورثك الله ماله ومسكنه وزوجته فسجد الرجل لله شكراً ، وحدّث إخوانه تعجّباً .

ومن نحو هذا ما كان من إحراق ابن مقلة[٥] دار سليمان بن الحسن بن وهب فاحترقت دار ابن مقلة في مثل ذلك اليوم من الشهر .

وقتل عبيد الله بن زياد لعنه الله سيّد الشهداء أبا عبد الله الحسين عليه

---

(١) مرق يعمل من اللحم والخل .
(٢) وقصت العنق : انكسرت .
(٣) كساء ذو طباقين بينهما قطن .
(٤) أي قال : نعم .
(٥) هو أبو علي محمد بن علي بن مقلة ، المشهور بخطه ونقله الخط من الكوفي إلى النسخ ـ على خلاف فيه ـ ترى خبره في الوفيات (٤ : ١٩٨) ولد ٢٧٢ وتوفي ٣٢٨ هـ .

الصلاة والسلام يوم عاشوراء فقتله المختار بن أبي عبيدة في ذلك اليوم من عاشوراء القابل .

وقال الشعبيّ رأيت في هذا القصر ـ قصر الكوفة ـ رأس الحسين بن عليّ ﷺ بين يدي عبيد الله بن زياد ورأس عبيد [الله] بين يدي المختار بن أبي عبيدة[1] ورأس المختار بين يدي مصعب بن الزبير ، ورأس مصعب بين يدي عبد الملك بن مروان ، ورأيت عبد الملك بقي طريحاً في هذا القصر وقيل له : إنّك تبقى ما احتميت الماء فجعل لا يشرب إلّا قوتاً ، فلمّا طال ذلك عليه قرم إلى الريّ من الماء وطلبه حتّى تمنّى الموت ، وقال : اسقوني ربّي وإن كان فيه نفسي ، فجيء بماء فلم يلبث إلّا يسيراً حتّى فاضت نفسه الخبيثة إلى نار جهنّم .

وحدّث[2] أبو مهلّب الوزير قال : خرجت مع جماعة في زورق ينحدر إلى البصرة فقيّد بعض من في الزورق رجلاً منهم على طريق المداعبة ، ثمّ قصدنا فكّ القيد منه بكلّ وجه فلم يمكن ، فلمّا وصلنا إلى البصرة مضى أحدنا إلى حدّاد ليفكّ قيده فسمعه صاحب مصلحة فصار مع الحدّاد حتّى أخذ الرجل ، فصرنا معه إلى صاحب الشرطة فشهدنا بما شاهدنا من حاله ، وعرّفناه ما كان من مداعبتنا في ذلك فلم يسمع حتّى جاء رجل وأطلع في وجهه وقال : فلان ! أنت الّذي قتلت أخي وهربت وأصعدت خلفك بهذه المحاضر[3] وشهادات العدول ، والآن قد وصلت ، فأخرج محاضر بقتله أخاه وقرّر فأقرّ ، فما برحنا حتّى قتل على المكان .

وحدّث عليّ بن يحيى بن أبي منصور عن بعض تجّار البحر قال : حملنا متاعاً إلى الصين من الأُبلّة[4] وكان قد اجتمع كاروان فيه عشرة مراكب ، قال :

---

(١) في الأصلين : مختار بن عبيد في الموضعين .

(٢) تراه وأمثاله في زينة المجالس للمجدي والفرج بعد الشدة للتنوخي .

(٣) جمع المحضر : السجل .

(٤) بضم الهمزة والباء ، وهي ناحية دجلة من البصرة . وفي الأصلين تصحيف .

ونحن معاشر التجّار إذا خرجت التجارة لحقنا الرجل الضعيف بالبضاعة اليسيرة نطلب السلامة بحمله ، ونبتاع لهم تجارة يربحون فيها فمنّا من يجعل لنفسه في الربح سهماً ، ومنّا من يحمل لله[1] عزّ وجلّ ، ويطلب به البركة .

فبينا أنا قد أصلحت ما أُريد إذ وقف عليّ شيخ فسلّم فرددت فقال : لي حاجة قد سألتها غيرك من التجّار فلم يقضها ، قلت : فما هي ؟ قال : اضمن لي قضاءها حتّى أقول : فضمنت فأحضرني بصاخبة (؟) فيها نحو من مائة منّاً وقال لي : تأمر بحمل هذه الرصاصة معك فإذا صرتم في لجّة كذا فاطرحها في البحر ، قلت : يا هذا ليس هذا ممّا أفعله ، فقال : قد ضمنت لي ، وما زال بي حتّى قبلته وكتبت في روزنامجة لي .

فلمّا صرنا في ذلك الموضع عصفت علينا ريح فنسينا أنفسنا وما معنا ونسيت الرصاصة ، ثمّ خرجنا من اللجّة وصرنا حتّى بلغنا موضعاً فبعت ما صحبني وحضرني رجل فقال لي : أمعك رصاص ؟ فقلت : ليس معي رصاص ، فقال لي غلام : معنا رصاص ، قلت له : أحمل رصاص معي ؟ فقال : بلى ، أمانة الشيخ الشائب فذكرت فقلت : خالفناه وبلغنا هٰهنا وما عليّ أن أبيعه فإنّ ذلك فيه ما أراد ، فقلت للغلام : أحضرها ، وساومني الرجل بها فبعتها بمائة وثلاثين ديناراً وابتعت بها للشيخ طرائف الصين ، فخرجنا فوافينا المدينة وبعت تلك الطرائف ، فبلغت سبعمائة دينار .

فصرت إلى البصرة إلى الموضع الّذي وصفه الشيخ ووقفت باب داره وسألت عنه فقيل : قد توفّي ، قلت : وهل خلّف أحداً يرثه ؟ قالوا : لا نعلم إلّا ابن أخ له في بعض نواحي البحر فتحيّرت ، وقيل لي : إنّ داره موقوفة في يد أمين القاضي ، فرجعت إلى الأُبلّة والمال معي .

فبينا أنا ذات يوم جالس إذ وقف على رأسي رجل فقال : أنت فلان ؟ قلت : نعم ، قال : أكنت خرجت إلى الصين ؟ قلت : نعم ، قال : وبعت رجلاً هناك رصاصاً ؟ قلت : نعم ، قال : أفتعرف الرجل وما ملّته ؟ فقلت : أنت هو ؟ قال : نعم ، إنّي قطعت من تلك الرصاصة شيئاً لأستعملها فوجدتها

---

(١) في الأصلين «في الربح منهما ، ومنا من يجعل للّه» .

مجوّفة ووجدت فيها اثني عشر ألف دينار ، وجئت بالمال فخذ عافاك الله ، فقلت له : ويحك يا هذا ! والله ما المال مالي ، ولكنّه كان من خبره كذا ، وحدّثته .

فتبسّم الرجل وقال : أتعرف الشيخ ؟ قلت : لا ، قال : هو عمّي وأنا ابن أخيه وليس له وارث غيري ، وإنّما أراد أن يزوي المال عنّي وقد أبعدني من البصرة فسأل جيرانه ومعارفه عنّا فسألت عن الفتى والشيخ فوجدته كما حكى ، وأخذ المال وما كان عندي من السبعمائة دينار .

فاعلم يا أخي أنّ هذه الحكاية أتتك بأعجب العجب من أمانة الرجلين والخير المركّب فيهما ، ومن شرارة صاحب المال ، وكيف ردّ الله عليه مكره وأبطل عليه كيده وجازاه على ما صنعه بضدّ ما أراده .

ويروى أنّ بعض الأنبياء صلوات الله عليهم أشرف يوماً من أيّام الربيع عن قلّة جبل على فلاة في عين ماء ، فإذا بفارس أقبل وعلى قربوس سرجه بدرة ، فلمّا انتهى إلى عين الماء نزل وشرب وسقى دابّته وركب فرسه ونسي البدرة ومضى ، فأقبل راع ومعه غنم فسقاها وحمل البدرة ، فأقبل رجل عابر سبيل فشرب من الماء وجلس مستريحاً فأقبل الفارس راجعاً في طلب البدرة وطالب الجالس بها ، ثمّ ضربه ثم سلّ سيفه يحذّره ، فلمّا لم يشكّ أنّه يجاحده قتله ، فاشتغل فكر النبيّ بما رأى من جميع ذلك وأكبر وأنكر قتل الرجل بغير سبب ، وذهاب آخر بمال من غير حقّ ، ووجم منه كظيماً من الحزن ، فأوحى الله تعالى إليه : مالك واتّهامي والفكر في أحكامي ؟ إنّ البدرة كانت وديعة لوالد الراعي عند والد الفارس من غير علم من الفارس والراعي ، وهذا الرجل المقتول كان قد قتل أب هذا الفارس فأخذت بثاره على يد وليّه ، وأوصلت الحقّ إلى مستحقّه .

وممّا يستحسن من الشعر في الخير والحثّ عليه والشرّ والتحذير منه قول الأفوه الأوديّ[1] :

الخير يبقى وإن طال الزمان به ... والشرّ أخبث ما أوعيت من زاد

(١) شاعر جاهلي قديم يقال : إنه أدرك المسيح عليه السلام . أنظر الأغاني (١١ : ٤١) واللآلىء (١ : ٣٦٥) .

وقال الحطيئة[1] :

من يفعل الخير لا يعدم جوائزه … لا يذهب العرف عند اللّه والناس

وقال آخر :

لا يغرس الشرّ غارس أبداً … إلّا اجتنى من غصونه ندما

قال تميم بن معن صاحب مغرب :

الخير مقرون بصاحبه … فمتى فعلت الخير أعقبكا
والشّرّ مقرون بصاحبه … فمتى فعلت الشّرّ أعطبكا
لا تحسبنّ اللّه مطّرداً … من بثّ يضحك منه حين بكا[2]
بل تستعدّ له وتنصره … وتشوب بالتكدير مشربكا
فاحرص على أن لا تسيء عسى … أن لا يكون النحس كوكبكا

وما أبرع أبيات أبي الأسود الدئليّ :

أعدّ من الرحمن فضلاً ونعمة … عليك إذا ما جاء للخير طالب
فإنّ امرءاً لا يرتجى الخير عنده … يكن هيّناً ثقلاً على من يصاحب
وللخير أبقى ما تحمّل حامل … وللشرّ أردى ما تزوّد راكب
أرى دولاً هذا الزمان بأهله … وبينهم فيه تكون النوائب
فلا تَمنَعَنْ ذا حاجة جاء طالباً … فإنّك لا تدري متى أنت راغب
فإن قلت في شيء : نعم ، فافعلنّه … فإنّ «نعم» حقّ على الحرّ واجب[3]

---

(١) من قصيدة يهجو بها الزبرقان بدر . في الأغاني (٢ : ٥٢) وقد سبق بيت منها .

(٢) في النسخة (ر) : مطرحاً .

(٣) ولنعم ما قال المثقب العبدي ، الشاعر الحكيم الجاهلي : في قصيدة له من المفضليات : ٢٩٣ :

لا تقولن إذا ما لم ترد … أن تتم الوعد في شيء : نعم
حسن قول «نعم» من بعد «لا» … وقبيح قول «لا» بعد «نعم»
أن «لا» بعد «نعم» فاحشة … فبلا فابدء ، إذا خفت الندم
فإذا قلت «نعم» فاصبر لها … بنجاح القول ، إن الخلف ذم

وإلّا فقل : لا ، واسترح وأرح بها　　لكيلا يقول الناس : إنّك كاذب

وقال آخر :

كما يدين الفتى يوماً يدان به　　من يزرع الثوم لم يحصده ريحانا

وقلت في مقصورتي أبياتاً قريبة من هذا المعنى وهو قولي منها :

لا يعرف الشيء بغير ضدّه　　هل تعرف الراحة إلّا بالعنا
واليسر لولا العسر ما امتاز وهل　　يعرف قدر الريّ إلّا بالصدى
والخير لولا الشرّ ما امتاز ولا　　يعرف قدر الشبع إلّا من طوى
والمرء لا يجزى بغير سعيه　　إذ ليس للإنسان إلّا ما سعى

ومنها :

يا ليت شعري هل لنفسي زاجر　　يزجرها عن ميلها إلى الهوى
أو رادع يردعها عن غيّها　　فإنّ شيطان هواها قد غوى
يا ربّ إنّ العبد عبد مذنب　　وهو فقير ماله عنك غنى
قد قطف اللذّة في شبابه　　بجهله فاغفر له ما قد جنى
واغترّ بالمهلة فاختار العمى　　على الهدى، فليته كان ارعوى
يا نفس هل بعد المشيب صبوة　　وغاية الشيب البوار والردى
كفى بإنذار المشيب واعظاً　　ورادعاً وزاجراً لمن وعى
فحالفي يا نفس أرباب التقى　　وخالفي نهج الضلال والعمى
واتّبعي نهج الرشاد تسعدي　　شتّان ما بين ضلال وهدى!
واحتبسي في النائبات واقنعي　　وارضي بما جرى به حكم القضا
لا تجزعي إن ناب خطب فادح　　وسلّمي الأمر إلى ربّ السما
يا نفس يا نفس! احذري أن تفزعي　　يوماً لمخلوق إذا خطبٌ عرى
أو ترتجي يوماً أخاً أو صاحباً　　في شدّة، والناس إخوان الرخا
والجأي إلى اللّه ولا تستيئسي　　عند اكتراث الخطب من روح الرضا
واستمسكي واعتصمي بحبله　　فحسبك اللّه وليّاً وكفى
وانتبهي واتّعظي واقتصدي　　واقتصري إن كنت من ذوي النهى

الفصل الثاني والعشرون

في بيان قول القائلين إن أسباب الشرور في العالم بالعرض لا بالقصد الأول

وأمّا القائلون بأنّ الشرور هي شيء عارض في العالم من قبل الهيولى الّذي هو جوهر منفعل ناقص القبول للفضائل فطبقتان :

إحداها ترى وتعتقد قدمها فيما مضى دهراً طويلاً وهي عادمة للصّور والأشكال والكيفيّات أجمع ، ثمّ إنّ الباري سبحانه قصد يصوّر من تلك الهيولى عالم الأجساد ذا الأبعاد الثلاثة : الطول والعرض والعمق وجعلها على أشكال كرويّات مستديرات محيطات بعضها ببعض كما ذكر في كتاب المجسطي وكتاب بليناس الحكيم في تركيب الأفلاك وطبقات السماوات وجعلها مسكناً لعبيده ومأوى لجنوده ، وهي النفس السارية في العالم من أعلى الفلك المحيط إلى منتهى مركز الأرض وهي أجناس الملائكة وقبائل الجنّ وأحزاب الشياطين وأرواح بني آدم والحيوانات أجمع ، وهم سكّان سماواته وقاطنو أرضه ، العامرون عالمه ، المدبّرون أفلاكه ، المسيرون لكواكبه ، المعيّشون حيوانات أرضه ، والمربّيون نباتها ، والمكوّنون معادنها . كلّ ذلك بإذن ربّها عزّ سلطانه لهم ، ولهم خلق السماوات ، ومن أجلهم بسط الأرض وبهم تدبير العالم وتبقيته وتتميمه كلّ ذلك ليبلغهم إلى أقصى مدى غاياتهم الّذي هو البعث والخلود في النعيم أبد الآبدين .

وقالوا : هذه كلّها حكمة وجود وإفضال وإنعام وإحسان وخيرات ،

والبارىء سبحانه هو خالقها وفاعلها وعلّتها ومنشئها .

وأمّا الشرور فهي عدم هذه الخيرات عن الهيولى ونقصانها عنها ، وذلك أنّها لو خلّيت وطبيعتها لرجعت إلى حالتها الأولى ، وخلعت الصور عن ذاتها ، وبطل نظام العالم واضمحلّ وجود الخلائق ، وكان من ذلك بوار الكلّ وفساد العالم وهو الشرّ المحض ولكن حكمة الباري سبحانه لا تقتضي تركها لأنّ تصويره للهيولى إيجاد وتركيبه للعالم صنعة محكمة وإنشاء الخلائق جود منه وتفضّل عليهم ورحمة لهم ، والعدم بعد الوجود شرّ ، ونقض الحكمة سفه ، واسترجاع الفضل لؤم ، وترك الرحمة قساوة ، تعالى الله عن ذلك علوّاً كبيراً .

واعلم يا أخي أنّه ليس شيء ممّا حكى هؤلاء من أحوال الهيولى ووصفوا من أسباب الشرور ونسبوها إلى الهيولى بمنكر عند خصمائهم منها فهذا قول صحيح ، وإن أرادوا أنّها ليست مبدعة ولا مخترعة فالمنازعة في هذه الحكومة وقعت وقد بيّن العلماء في المبادىء العقليّة حقيقتها ، وكيف هي مبدعة مخترعة .

واعلم يا أخي أنّ كثيراً من أهل العلم ومن يتكلّم في حقائق الأشياء لا يعرفون الفرق بين الشيء المخلوق المصنوع ، وبين الشيء المبدع المخترع ، وهذا أحد أسباب الخلاف بين العلماء في آرائهم ومذاهبهم في قدم العالم وحدوثه .

واعلم يا أخي بأنّ الخلق هو تقدير شيء من شيء آخر ، والمصنوع ليس هو شيء غير كون الصورة في الهيولى ، وأمّا الإبداع والاختراع فهو إيجاد شيء لا من شيء آخر وهذه المعرفة وتصوّر هذه الحكمة تبعد على كثير من المرتاضين بالرياضيّات الفلسفيّة فكيف على غيرهم .

واعلم يا أخي أنّ الّذين قالوا بقدم الهيولى فإنّ الّذي دعاهم إلى هذا الرأي هو نظرهم إلى الموجودات الجزئيّة[1] الّتي دون فلك القمر واعتبارهم حال

---

(١) في النسخة (ر) : الجزئيات .

الكائنات الفاسدات من المعادن والحيوان والنبات ، وذلك أنّهم وجدوا كلّ مصنوع بشريّ أو طبيعيّ مركّباً من هيولى ساذج لا شكل فيه قبل تصوير الصانع له بذلك الشكل وإذا خلّي ذلك المصنوع زماناً طويلاً اندرس واضمحلّ وانخلعت الصورة عنه ، ورجع إلى حاله الأولى مثال ذلك البنيانات المتّخذة في المدن والقرى إنّهم رأوا صنّاعها أوّلاً جمعوا التراب والخشب والحجارة وغيرها ثمّ بنوها ، ثمّ يحفظونها بالمرمّات لتدوم زماناً ، فإذا خلّيت زماناً طويلاً انهدمت واندرست واضمحلّت وصارت تراباً وحجارة كما كانت بدءاً ، وهكذا وجدوا حكم لباسهم وأمتعتهم جميعاً وهكذا حكم الحيوان والنبات والمعادن الّتي هي مصنوعات طبيعيّة فإنّها تصير كلّها يوماً تراباً وإن طال الزمان بها فعلى هذا القياس .

وبهذا الاعتبار حكموا على أنّ الهيولى وضعها الباري عزّ شأنه ، وجعل منها العالم وحفظه على ما هو عليه الآن من النفس والتصاوير والأشكال والهيئات المختصّة بفلك فلك وكوكب كوكب وركن ركنٍ ، وأجناس الحيوانات أجمع والنبات والمعادن واحداً واحداً وأمّا الهيولى الأولى الّتي لا كيفيّة فيها فليست محتاجة في وجودها إلى صانع بزعمهم ، فهذا كان اعتبارهم وإلى هذا الموضع كان مبلغ علمهم وإلى هٰهنا أدّاهم اجتهادهم .

فأمّا الّذين قالوا بحدوث الهيولى فإنّهم نظروا أدقّ من نظر هؤلاء وتأمّلوا تأمّلاً أجود من تأمّلهم ، وبحثوا أشدّ من بحثهم ، كما بيّنّا فيما تقدّم ذكره .

الفصل الثالث والعشرون

في بيان كمية أنواع الخيرات والشرور في العالم

اعلم يا أخي أنّ الخير والشرّ يقالان على أربعة أنواع فمنها ما ينسب إلى سعود الفلك ونحوسه ، ومنها ما ينسب إلى الأمور الطبيعيّة من الكون والفساد وما يلحق الحيوان من الآلام والأوجاع ، ومنها ما ينسب إلى ما في جبلّة الحيوانات من التألّف والتنافر والتوادد والتباغض وما في طباعها من التنازع والتغالب ، ومنها ما ينتسب إلى ما يلحق النفوس الّتي تحت الأمر والنهي في أحكام الناموس ، من السعادة والمحنة في الدنيا والآخرة جميعاً .

واعلم يا أخي أنّ لهذه الأنواع من الخيرات والشرور الّتي ذكرناها أسباب وعلل يطول شرحها ، قد ذكرت في العلل والمعلولات ، ولكن نذكر في هذا الفصل منها ما لا بدّ منه فنقول :

إنّ الخيرات الّتي تنسب إلى سعود الفلك فهي بعناية من الباريء جلّ شأنه وقصد منه لا شكّ فيه . وأمّا الشرور الّتي تنسب إلى نحوسة الفلك فهي عارضة لا بالقصد . مثال ذلك إشراق الشمس وطلوعها على بعض البقاع تارة وتسخينها لها مدَّة مّا ومغيبها عنها تارة أُخرى كما تبرد تلك البقاع مدَّة ما ، فهو بعناية من الباريء جلّ جلاله وواجب حكمته لما فيه من الصلاح والنفع الكلّيّ كما ذكر الله سبحانه فقال : ﴿**قل أرأيتم إن جعل الله عليكم اللّيل سرمداً إلى يوم القيامة من إلٰه يأتيكم بضياء أفلا تسمعون * قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمداً إلى يوم القيامة من إلٰه يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون * ومن رحمته جعل**

لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلّكم تشكرون﴾[1] .

وإنّما ذكر في هذه الآيات إنعامه على عباده وإحسانه إليهم وإفضاله عليهم لكي يشكروه ، فأمّا الّذي يعرض لبعض الحيوانات ولبعض النبات من الحرّ المفرط والبرد المفرط المتلف المهلك لها في بعض البقاع ، وفي بعض الأحايين فليس ذلك بالقصد الأوّل .

وهكذا أيضاً حكم الأمطار فإنّما يرسلها لكي يحيي بها البلاد ويصلح بها شأن العباد ، فإن عرض من ذلك أذيّة لبعض الحيوان أو تلف لبعض النبات فليس ذلك بالقصد الأوّل فعلى هذا القياس حكم جميع ما ينسب إلى نحوس الفلك من الأمور العارضة للحيوان والنبات ومواليد الناس ، وما يحكم في تحاويل السنين وأحكام القرانات ، وما شاكل ذلك ممّا ينسب إلى نحوسة الفلك من الشرور والفساد جميعاً عارض لا بالقصد الأوّل .

وأمّا الخيرات الّتي تنسب إلى الأمور الطبيعيّة فهي كون الحيوان والنبات والمعادن والأسباب المعينة لها على النشوء المبلغة لها إلى أتمّ حالاتها وأكمل نهاياتها ، فهي كلّها بقصد من البارىء سبحانه وعناية منه .

وأمّا الشرور الّتي هي الفساد والبلى الّذي يلحقها بعد الكون ، والأسباب الّتي تعوقها عن البلوغ إلى التمام والكمال فهي عارضة لا بالقصد الأوّل ولكن بالقصد الثاني وذلك أنّ هذه الكائنات الّتي دون فلك القمر لمّا لم يمكن أن تبقى أشخاصها في الهيولى دائماً في هذا العالم تلطّف العناية الإلهيّة أن تبقيها بصورها فهي باقية بصورها ، وإن كانت الأشخاص في الذوبان والسيلان دائماً والمثال في ذلك صور الإنسانيّة الّتي هي خليفة الله في أرضه فهي باقية منذ خلق الله سبحانه آدم أبا البشر إلى يوم القيامة ، وإن كانت الأشخاص في الذهاب والمجيء ، وهكذا حكم سائر أجناس الحيوانات والنبات وأنواعها باقية بصورها وإن كانت أشخاصها في الذوبان والسيلان ، وإنّما ذلك بواجب الحكمة لأنّ في

---

(١) سورة القصص ؛ الآيات : ٧١ ـ ٧٣ .

القوّة والغيب فضائل وخيرات بلا نهاية لا يمكن خروجها من القوّة إلى الفعل والظهور دفعة واحدة في وقت واحد لأنّ الهيولى لا يتّسع قبولها إلاّ شيئاً بعد شيء على التدريج وممرّ الأوقات والزمان دائماً أبداً . والمثال في ذلك أنّه لو خلق الله بني آدم كلّهم من مضى منهم ومن هو موجود الآن ومن يجيء من بعد إلى يوم القيامة في وقت واحد لم يكن تسعهم الأرض برحبها ، فكيف حيواناتهم ونبات غذائهم وأمتعتهم وما يحتاجون إليه في أيّام حياتهم فمن أجل هذا خلقهم قرناً بعد قرن وأُمّة بعد أُمّة ، لأنّ الأرض لا تسعهم والهيولى لا تحملهم دفعة واحدة ، فقد تبيّن بأنّ النقص من قبل الهيولى لا من قبل الصانع الباري عزّ شأنه .

وعلّة أُخرى أيضاً لأسباب الشرور ، وذلك أنّه لمّا كانت الكائنات يبتدىء كونها من أنقص الوجود وأضعف القوى ، مترقّية إلى أتمّ الحالات وأكمل الغايات بأسباب معينة لها على النشوء والنمو ، ومبلّغة لها إلى أكمل غاياتها بعناية الباريء سبحانه ، سمّيت تلك الأسباب خيرات في كلّ سبب عارض عوّقها عن ذلك سمّي شرّاً فهي عارضة لا بالقصد الأوّل . والمثال في ذلك ما تقدّم ذكره في أمر الشمس والمطر والله أعلم .

ولنبيّن قول الحكماء في الفرق بين القصد الأوّل والقصد الثاني فنقول : أمّا الخيرات والشرور الّتي تنسب إلى جبلّة الحيوانات وما في طباعها وأخلاقها وأفعالها بقصد منها وإرادة فهي بالقصد الثاني لا بالقصد الأوّل .

واعلم أنّ معنى قولنا القصد الأوّل والقصد الثاني والفرق بينهما هو أنّ ما كان من فعل الباريء جلّ شأنه من الإبداع والإيجاد والاختراع وهو البقاء والتمام والكمال والبلوغ وما شاكل ذلك من الأوصاف يسمّى القصد الأوّل ، والقصد الثاني هو ما كان من قبل نقص في الهيولى فإنّه لم يجىء منها إلاّ هذا ولم تقبل إلاّ هكذا ، ولم يتأتّ فيها إلاّ هذا ولم يمكن غير هذا ، وما شاكل ذلك من الأوصاف .

واعلم أنّ أنواع الشرور المنسوبة إلى جبلّة الحيوانات وما في طباعها فهي

ثلاثة أنواع :

فمنها الآلام الّتي تعرض لها دون سائر الموجودات .

ومنها العداوات الّتي بينها في جبلّتها .

ومنها أفعالها الّتي هي بقصد منها وإرادة .

وأمّا آلامها فتكون من ثلاثة أوجه :

أحدها : الجوع والعطش عند حاجة أجسادها إلى الماء والغذاء .

والثاني : ألم الضرب والصدم والكسر المضرّ بأجسادها ، المتلف لهياكلها .

والثالث : ألم الأسقام والأمراض المفسدة لمزاج أجسادها وأخلاط أبدانها .

فأمّا الآلام الّتي تعرض لنفوسها عند الجوع والعطش فإنّ ذلك بالقصد الثاني وذلك أنّه لمّا كانت هذه الأشخاص كلّ واحد منها مركّباً من جسد جسمانيّ ونفس روحانيّة ، وكانت الأجساد مركّبة من الأخلاط المتضادّة وهي دائماً في الذوبان والسيلان ومحتاجة في بقائها إلى الماء والغذاء ، جعلت لنفوسها الآلام عند حاجة الأجساد إلى الماء والغذاء لتكون تلك الآلام باعثة لنفوسها لتنهض بأجسادها في طلب الغذاء ، فلو لم يكن تعرض لها تلك الآلام لتهاونت بها وتركتها بلا غذاء وكانت تذوب وتضمحلّ وتبطل في أقرب مدّة وأهون سعي ، وكانت تبقى تلك النفوس إمّا بلا أجساد أو بأجساد ناقصة غير تامّة ولا كاملة ، فكانت تفوتها المآرب الّتي هي مقصودة بها في البعث والقيامة ، وجعل لها أيضاً عند تناول الغذاء لذّة وشهوة أمّا الشهوة فلأن لا تتناول من الغذاءِ إلّا ما يصلح لها ، وأمّا اللذّة فلأن تأكل وتشرب ما دامت الطبيعة محتاجة فإذا اكتفت زالت اللذّة ، فهذه كلّها بقصد من الباريء جلّ شأنه من أجل النقص الّذي في الهيولى كيما تتمّ النفوس وتكمل .

وأمّا ألم الضرب والكسر والصدم والجرح والحرّ والبرد والأمراض والأسقام

وبالجملة كلّ أمر مضرّ بالجسد مفسد له فإنّما جعل للنفوس منه ألماً لكيما تحثّه تلك الآلام على حفظ أجسادها ، وصيانة هياكلها إذ كانت الأجسام لا حيلة لها في جرّ منفعه إليها أو دفع مضرّة عنها .

ومن الدليل على صحّة ما قالوه ما تبيّن منها أنّها كيف تنتبه من حال النوم ، وكيف تستيقظ من حال الغفلة وكيف تحسّ وتشعر بالأشياء المفسدة المؤذية للجسد ، وكيف تدفع تلك الأشياء عن جسدها إمّا بالفرار عنها أو بالانقباض عنها ، وإمّا بالقوّة والدفع والجلد والمجاهدة ، وإمّا بالحيلة والمداواة ، ولو لم تفعل ذلك لهلكت الأجساد في أقرب مدّة وأهون سعي قبل التمام والكمال ، فإذا جاءتها المقادير والوقت المعلوم والأسباب القاهرة الغالبة ، فانظر كيف تسلّمها إليها وتفارقها على غير اختيار منهما ، فأمّا ما دام لها طمع في دفع تلك الآلام الواردات المؤذيات فهي في العلاج والجهاد رجاء للصلاح وحرصاً على البقاء ومحبّة للوجود على أتمّ ما يمكن ، إذ كان هذا هو الخير ، وكراهية منها للبقاء على حال النقص إذ كان هذا هو الشرّ ، لأنّ العدم المطلق ليس للأجسام ولا للنفوس ما دام العالم موجوداً ، فقد تبيّن بأنّ تلك الآلام أيضاً بقصد وعناية واقتضاء للحكمة .

تتمة في بيان أنّ الشرور الّتي تنسب إلى جبلّة الحيوانات هي بالقصد الثاني وأمّا الخيرات والشرور الّتي في جبلّة الحيوانات وأخلاقها الّتي هي الإلفة والمحبّة والعداوة والغلبة فهي أيضاً بالقصد الثاني ، وذلك أنّه لمّا كانت الحيوانات والصور والأشكال والطباع والأخلاق والعادات لأسباب يطول شرحها قد بيّنها العلماء في العلل والمعلولات جعل بين بعضها وبعض إلفة ومودّة لكيما يكون ذلك سبباً لاجتماعها واتّفاقها ، لما في ذلك من صلاح الكلّ والنفع للعموم ، وجعل أيضاً بين بعضها وبعض نفوراً وعداوة ليكون سبباً لتباعدها وتنافرها وتفرّقها لما في ذلك أيضاً من صلاح الكلّ ونفع العموم .

مثال ذلك إلف بعض الحيوانات للإنسان وانقيادها لطاعته كالغنم والبقر والخيل والحمير والبغال لما في ذلك من النفع للناس المعروف المشهور ولما لها أيضاً من النفع في مراعاة الناس لها بالعلف والسقي والكنّ من الحرّ والبرد ،

ومنع السباع عنها ومداواتها من الآفات العارضة لها وما شاكل ذلك .

ومثل نفور بعض الحيوانات من النـاس وتباعـدها عنهم ، وعن مجـاورتهم مثل السباع والحيّات ، وبالجملة جميع الحيوانات القليلة النفع الكثيـرة الضرر ؛ لما فيه من صلاح الكلّ والنفع للعموم ، وعلى هذا القياس حال سائر الحيوانات بعضهـا مع بعض فيمـا بينها من الإلفـة والبغض والعداوة لمـا فيـه من الصـلاح والنفع .

وأمّا الشرور الّتي تنسب إلى أفعـال الحيوانـات بالقصـد منها والإرادة فهي أيضاً عارضة من أجل الهيولى الّتي هي مادّة لأجسادها وقوام لهياكلها ، وذلك أنّ المنـافع لمّـا كانت مشتـركة بين الجميـع وكان في جبلّتهـا طلب المنـافـع ودفـع المضارّ بالقصد الأوّل من البارىء جلّ شأنـه كما تقـدّم ذكره ، وقعت بينهـا تلك المنازعات في طلب تلك المنافع ودفع تلك المضارّ بالعرض لا بـالقصد الأوّل ، وأمّا علّة كون بعض الحيوانات آكلة وبعضها مأكولة فمذكورة في رسـالة الحيـوان والله تعالى أعلم .

تـذنيب في بيان أنـواع الشرور الّتي تنسب إلى أنفس الإنسـانيّـة من جهـة أحكام الناموس . إعلم يا أخي أيّدك الله وإيّانـا بروح منـه أنّ الخيرات والشـرور الّتي تنسب إلى الأنفس الجزئيّة الإنسانيّة من جهة أحكام النـاموس هي نـوعان : منها ما هي أعمال لها واكتساب منها ، ومنها ما هي جزاء لأعمالها ومكافاة لها .

فـأمّـا الّتي هي اكتســاب منهـا فهي خمســة أنـواع : منهـا مـا هي علوم ومعارف ، ومنها ما هي أخلاق وسجايا ، ومنها ما هي آراء واعتقادات ، ومنها ما هي كلام وأقاويل ، ومنها ما هي أعمال وحركات أو تركها .

وهذه الخصال الخمس تسمّى خيرات وشروراً من وجهين : إمّا عقليّة وإمّا وضعيّة .

فالوضعيّة منها هو كلّ شيء أمر به صاحب الناموس أو حثّ عليه أو مـدحه فيسمّى ذلـك خيراً ، وفي كـلّ شيء نهى عنـه أو زجـر عنـه أو ذمّـه يسمّى ذلـك شرّاً .

وأمّا العقليّة من هذه الخصال فهو كلّ شيء إذا فعل منه ما ينبغي على الشرائط الّتي تنبغي في الوقت الّذي ينبغي في المكان الذي ينبغي بالمقدار الّذي ينبغي يسمّى ذلك خيراً ومتى نقص من هذه الشرائط واحد يسمّى ذلك الأمر شرّاً . ومعرفة هذه الشرائط ليس في وسع كلّ إنسان في أوّل وهلة إلاّ بعد ما تتهذّب نفسه ويترقّى في العلوم والآداب ومن أجل ذلك يحتاج كلّ إنسان إلى معلّم أو مؤدّب أو أستاذ في تعليمه وتخلّقه وأقاويله واعتقاداته وأعماله وصنائعه .

واعلم بأنّ أصحاب النواميس هم المعلّمون المؤدّبون وأساتذة البشر كلّهم ومعلّمو أصحاب النواميس هم الملائكة ومعلّم الملائكة هي النفس الكلّيّة ومعلّمها العقل الفعّال ، والباريء عزّ سلطانه معلّم الكلّ . وإنّما طوّلنا الخطاب في هذا الباب من الخيرات والشرور لأنّ هذه المسألة من إحدى المهمّات من مسائل الخلاف بين العلماء المنتشئة منها الآراء والمذاهب الكثيرة ، كلّ ذلك لقلّة معرفة من يتكلّم فيها ، ولا يدري ما الخير على الحقيقة ولا ما سبب الشرور العارضة في العالم ، فلا حاجة لذكر اختلافهم ؛ فإنّ ذلك يؤدّي إلى الملل ولعمري لقد أطلت المقال والله أعلم بحقيقة الحال .

الفصل الرابع والعشرون

في كيفية معاشرة إخوان الوفاء وخلان الصفاء

اعلم أيّها الأخ البارّ الرحيم أيّدك الله وإيّانا بروح منه أنّه ينبغي لإخواننا ـ أيّدهم الله ـ حيث كانوا في البلاد أن يكون لهم مجلس خاصّ يجتمعون فيه في أوقات معلومة لا يداخلهم فيه غيرهم ، ويتذاكرون فيه علومهم ، ويتحاورون فيه أسرارهم ، وينبغي أن يكون أكثر مذاكراتهم في علم النفس والحاسّ والمحسوس ، والعقل والمعقول ، والبحث عن أسرار الكتب الإلّهيّة والتنزيلات النبويّة وما يتضمّنها من أمور الشريعة وإن حصلت لهم فرصة تذاكروا في سائر العلوم النافعة في الدنيا والآخرة ، وينبغي أن يكون أكثر عناياتهم وقصدهم ومذاكراتهم في العلوم الإلّهيّة الّتي هي الغرض الأقصى .

وبالجملة لا ينبغي لإخواننا أن يعادوا علماً من العلوم ، أو يهجروا كتاباً من كتب علماء الدين أو غيرهم من الصلحاء المدوّنين ، ولا يحملهم الحسد على القدح في أعراضهم . وينبغي النظر في جميع الموجودات بأسرها ، الحسّيّة والعقليّة من أوّلها إلى آخرها وظاهرها وباطنها وجليّها وخفيّها بعين الحقيقة من حيث هي كلّها في مبدء واحد وعلّة واحدة وعالم واحد ونفس واحدة ، بجميع جواهرها المختلفة وأجناسها المتبائنة وأنواعها المتفنّنة ، وجزئيّاتها المتغايرة .

واعلم أنّ هذه الحقائق مأخوذة من أربع كتب : أحدها الكتب المنزلة الّتي جاءت بها الأنبياء عليهم السلام مثل التوراة والإنجيل والقرآن وغيرها من صحف الأنبياء

لمأخوذ معانيها بالوحي من الملائكة .

والثاني من الكتب المصنّفة من الرياضيّات والطبيعيّات على ألسنة الحكماء المتألّهين .

والثالث الكتب الطبيعيّة وهي صور أشياء الموجودات بما هي عليه الآن من تركيب الأفلاك ، وأقسام البروج وحركات الكواكب ومقادير أجرامها ، وتصاريف الزمان واستحالة الأركان وفنون الكائنات من الحيوان والمعادن والنبات ، وأصناف المصنوعات على أيدي البشر . كلّ هذه صور وكنايات دالّات على معان لطيفة وأسرار دقيقة يرى الناس ظاهرها ولا يعرفون بواطنها ومعانيها من لطيف صنعة الباريء عزّ شأنه .

والرابع ما أخبرت به الكتب من جواهر النفوس البشريّة وأجناسها وأنواعها وجزئيّاتها وتصاريفها للأجسام ، وتحريكها لها وتدبيرها وتحكّمها عليها ، وإظهار أفعالها بها ومنها حالاً بعد حال في ممرّ الزمان وأوقات القرانات والأدوار ، وانحطاط بعضها تارة إلى قعر الأجسام ، وارتفاع بعضها تارة من ظلمات الجسمان ، وانبعاثها من نوم الغفلة والنسيان ، وحشرها إلى الحساب والميزان ، وجوازها على الصراط ووصولها إلى الجنان ، أو حبسها في دركات الهاوية والنيران ، أو مكثها في البرزخ ، والوقوف على الأعراف كما ذكر سبحانه : **﴿ومن ورائهم برزخ إلى يوم يبعثون﴾**[1] **﴿وعلى الأعراف رجال﴾**[2] وهم الّذين **﴿في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبّح له فيها بالغدوّ والآصال * رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله﴾**[3] وهذا حال إخواننا الفضلاء الكرام فاقتدوا بهم أيّها الإخوان تكونوا مثلهم .

واعلم أنّ مواهب الله كثيرة لا يحصى عددها ، ولكن يجمعها كلّها جنسان تحت كلّ واحد منها أنواع كثيرة : أحدهما يسمّى قنية جسمانيّة ، والآخر قنية

---

(١) سورة المؤمنون ؛ الآية : ١٠١ .

(٢) سورة الأعراف ؛ الآية : ٤٥ .

(٣) سورة النور ؛ الآية : ٣٦ .

نفسانيّة ومن القنية الجسدانيّة أحدها المال ، ومن القنية النفسانيّة أحدها العلم .

والناس في هاتين النعمتين العظيمتين على منازل أربع : فمنهم من قد رزق الحظّ من العلم والمال جميعاً ومنهم من حرمهما جميعاً ، ومنهم من رزق العلم ولم يرزق المال ، ومنهم من رزق المال ولم يرزق العلم .

فينبغي لإخواننا ممّن رزق العلم والمال جميعاً أن يؤدّي شكر ما أنعم الله به عليه بأن يضمّ إليه أخاً من إخوانه ممّن قد حرمهما جميعاً ، ويواسيه من فضل ما آتاه الله من فضله من المال ليقيم به جسده في دار الدنيا ويرفده ، ويعلّمه من علمه ليحيي به نفسه في دار البقاء فإنّ ذلك من أقرب قربان إلى الله ، ومن أبلغ طلب لمرضاته . ولا ينبغي أن يمنّ عليه بما ينفق عليه من المال ولا يستحقره ، ويعلم أنّ الّذي حرم أخاه هو الّذي أعطاه ، وكما أنّه لا يمنّ على ابن له جسدانيّ فيما يربّيه وينفق عليه من ماله ، ويورّثه ممّا جمع من المال بعده كذلك لا يجب أن يمنّ على ابنه النفسانيّ لأنّه إن كان ذلك ابنه الجسدانيّ ، فهذا أيضاً ابنه النفسانيّ كما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال لعليّ عليه السلام[1] : «أنا وأنت أبوا هذه الأمّة» ولهذا المعنى قال المسيح للحواريّين : «جئت من عند أبي وأبيكم» وقال تعالى : ﴿**ملّة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين**﴾[2]وهذه الأبوّة نفسانيّة لا ينقطع نسبها كما قال صلى الله عليه وآله وسلم[3] : «كلّ نسب ينقطع يوم القيامة إلاّ نسبي» وقال صلى الله عليه وآله وسلم[4] : «يا بني هاشم ! لا يأتيني الناس يوم القيامة بأعمالهم وتأتوني بأنسابكم ، فإني لا أغني عنكم من الله شيئاً» .

وقالوا : إنّما أراد الجسدانيّة لأنّها [تنقطع] إذا اضمحلّت الأجساد[5] بقيت

---

(١) أنظر فيه البحار ط تبريز (٩ : ١٠١) في باب مخصوص به . ولفظ الرواية من مفردات الراغب ص ٤ مادة (أب) .

(٢) سورة الحج ؛ الآية : ٧٨ .

(٣) مفردات الراغب ص ٤ .

(٤) تفسير البرهان (٣ : ١٢٠) ذيل الآية : ١٠١ من سورة المؤمنين .

(٥) زيادة من النسخة (ر) .

النفسانيّة ، لأنّ جواهر النفوس باقية بعد فراق الأجساد ، وإن كان عاش ابنه الجسدانيّ يحيي ذكره بعد موته فهذا أيضاً إن عاش أحيا ذكره في مجالس العلماء ومحاضر أهل الخير إذا نشر علمه ، وترحّم عليه كلّما ذكره ، كما نذكر نحن معلّميناوأساتذتنا أكثر ممّا نذكر آباءنا الجسدانيّين ، ونترحّم عليهم أكثر ممّا نترحّم على آبائنا ، وإن كان يظنّ أنّ ذلك الابن الجسدانيّ ربما ينفعه إذا كبر فيعينه على أمر الدنيا فهذا ربّما بلغ في العلم والحكمة والخير والمرتبة عند الله أن يشفع لمعلّمه فينجو بشفاعته وهو لا يدري ، كما ذكر الله سبحانه : ﴿**آباؤكم وأبناؤكم لا تدرون أيّهم أقرب لكم نفعاً**﴾[١] .

وأمّا من رزق المال ولم يرزق العلم من إخواننا فينبغي له أن يطلب أخاً ممّن رزق العلم ولم يرزق المال ، ويضمّه إليه ويواسيه هذا من ماله ويرفده هذا من علمه ، ويتعاونان جميعاً على إصلاح أمر الدين والدنيا جميعاً . وينبغي للأخ ذي المال أن لا يمنّ على الأخ ذي العلم فيما يواسيه به من ماله ، ولا يحتقره لفقره لأنّ المال قنية جسدانيّة تقام بها حياة الجسد في دار الدنيا ، والعلم قنية نفسانيّة تقام بها حياة النفس في الدار الآخرة ، وجوهر النفس من جوهر الجسد ، وحياة النفس خير من حياة الجسد لأنّ حياة الجسد إلى مدّة ما ، ثمّ تنقطع وتضمحلّ ، وحياة النفس في الدار الآخرة تبقى مؤبّدة كما ذكره سبحانه : ﴿**لا يذوقون فيها الموت إلاّ الموتة الأولى**﴾[٢] .

وينبغي للأخ ذي العلم أن لا يحسد أخاه ذا المال ، ولا يستحقره لجهله ولا يفتخر عليه بعلمه ولا يطلب منه عوضاً فيما يعلّمه ، لأنّ مثلهما في صحبتهما وتعاونهما هذا لهذا بماله وهذا لهذا بعلمه ، كمثل اليد والرجل في اتّصالهما بالجسد وخدمتهما له وتعاونهما في إصلاح الجملة ، وذلك لأنّ اليدين لا يطلبان من الرجلين إذا اتّخذتا لهما خمشة[٣] أو أخرجتا منهما شوكة ، جزاءً ولا شكوراً . وكذلك الرجلان لا يطلبان من اليدين إذا بلغتهما إلى المواضع الّتي

---

(١) سورة النساء ؛ الآية : ١٠ .

(٢) سورة الدخان ؛ الآية : ٥٦ .

(٣) الخمشة : أي الخدشة .

تحصّنت فيها أو تسوّرت منها أو هربت بها من خوف القطع جزاء ولا عوضاً ، لأنّهما آلات لجسد واحد وقوام إحداهما بالأخرى ، وصلاح كلّ واحدة منهما صلاح الأخرى ، وهكذا أيضاً السمع لا يمنّ على البصر إذا سمّعه النداء ولا البصر يمنّ على السمع إذا أراه المنادي لأنّهما قوّتان لنفس واحدة في اتّصالهما بها وصلاح كلّ واحدة صلاح للأخرى في تعاونهما في خدمة النفس وطاعتهما في إدراكهما المحسوسات .

فهكذا ينبغي أن يكون تعاون الإخوان في طلب صلاح الدين والدنيا ، وذلك أنّ مثل معاونة الأخ ذي العلم للأخ ذي المال بعلمه في صلاح الدين والدنيا ، كمثل رجلين اصطحبا في طريق في مفازة ، أحدهما ضعيف البدن بصير ، معه زاد ثقيل لا يطيق حمله والآخر أعمى قويّ البدن ليس معه زاد ، فأخذ البصير بيد الأعمى يقوده خلفه ، وأخذ الأعمى ثقل البصير فحمله على كتفه ، وتواسيا بذلك الزاد وقطعا الطريق ونجيا جميعاً ، فليس لأحدهما أن يمنّ على الآخر في نجاته من الهلكة بمعاونة كلّ منهما لصاحبه ، والمعاونة لا تكون إلّا بين اثنين أو أكثر فالأخ الجاهل كالأعمى والأخ الفقير كالضعيف البدن ، والأخ الغنيّ كالقويّ والأخ العالم كالبصير ، والطريق هي صحبة النفس مع الجسد والمفازة هي الحياة الدنيا ، والنجاة هي الآخرة ، فهذا مثل إخواننا المتعاونين في صلاح الدين والدّنيا .

وأمّا من قد رزق العلم ولم يرزق المال ولا يجد من يواسيه بالمال من الإخوان فينبغي له أن يصبر وينتظر الفرج ، فإنّه لا بدّ من أن يؤيّده الله سبحانه بمن يخفّف عنه ما يحمله من ثقل الفقر كما وعد أولياءه : ﴿**ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً * ويرزقه من حيث لا يحتسب**﴾[1] .

وينبغي له أن يعلم بأنّ الّذي رُزق من العلم خير له من الّذي رُزق من المال لأنّ العلم سبب لحياة النفس في الدنيا والآخرة جميعاً ، والمال سبب لإقامة الجسد في دار الدنيا والفضل فيما بين النفس والجسد وشرف جوهرهما

---

(١) سورة الطلاق ؛ الآيتان : ٢ ـ ٣ .

وفضل حياتهما وفضل داريهما قد تقدّم ذكره .

وينبغي لـه أن يتفكّر في الّـذي حرم المـال والعلم جميعاً ليعـرف نعمة الله عليه ويشكره على كـلّ حال ليستـوجب بها المـزيد كمـا وعد الله فقـال : **﴿ولئن شكرتم لأزيدنّكم﴾**[١] .

وأمّا من ليس بذي مـال ولا ذي علم من إخواننـا فهو الّـذي له نفس زكيّـة جميلة الأخـلاق سليمة القلب من الآراء الفـاسدة ، محبّـة للخير وأهله ، صـابرة راضية بما قسم الله .

وينبغي له أن يعلم أنّ الله أعطاه من حسن الأخـلاق وسلامـة القلب ومحبّة الخير والرضا بما قسم الله له خيراً من الّـذي منع من المـال والعلم لأنّا نجـد في الناس من قد أُعطي العلم والمال أو أحـدهما ولم يـرزق من هذه الخصـال الّتي ذكرناها شيئاً وذلـك أنّا نجـد أقوامـاً علماء متفلسفين يصنّفـون الكتب في تحسين الأخلاق ويأمرون الناس بها وهم أسوء الناس خلقاً ، ونجد أقوامـاً ليس لهم كثير علم مهـذّبي الأخلاق كمـا وصفنا ، فقـد تبيّن أنّ حسن الأخلاق من مـواهب الله العظام ، كما قال في الخبر : «قـد فرغ الله من الخلق والخلق والـرزق والأجل» وقـد مـدح الله نبيّــه محمّـداً صلى الله عليه وآله وسلم بحسن الخلق فقــال : **﴿وإنّـك لعلى خلق عظيم﴾**[٢] وقال عزّ وجلّ : **﴿ولو كنت فظّاً غليظ القلب لانفضّوا من حولك﴾**[٣] وقد قيل[٤] «إنّ الإنسان بحسن الخلق يدرك في الجنّة درجة الصـائم» لأنّ حسن الخلق من أخلاق الملائكة وشيمة أهل الجنّة كما ذكر في القـرآن فقال تعـالى : **﴿حـاش لله ما هـذا بشراً إن هـذا إلّا ملك كـريم﴾**[٥] وسـوء الخلق من أخـلاق الشياطين وأهل النـار يحسد بعضهم بعضـاً ويبغض بعضهم بعضاً ويلعن بعضهم

---

(١) سورة إبراهيم ؛ الآية : ٧ .

(٢) سورة القلم ؛ الآية : ٤ .

(٣) سورة آل عمران ؛ الآية : ١٥٩ .

(٤) بل رواية نبوية تراها في الإرشاد ٢١٩ .

(٥) سورة يوسف ؛ الآية : ٣١ . أقول : وهذا في حسن الخلق ، بفتح الخاء .

بعضاً كما ذكر في القرآن العزيز : ﴿**كلّما دخلت أمة لعنت أختها**﴾[1] وقال تعالى : ﴿**لا مرحباً بهم إنّهم صالو النار * قالوا بل أنتم لا مرحباً بكم**﴾[2] وقال : ﴿**فإنّهم يومئذ في العذاب مشتركون**﴾[3] .

واعلم أيّها الأخ أنّ قوّة نفوس إخواننا المؤمنين في هذا الأمر الّذي نشير إليه ونحثّ عليه أربع مراتب :

أولها : صفاء جوهر نفوسهم وجودة القبول ، وسرعة التصوّر ، وهي مرتبة أرباب ذوي الصنائع في كلّ مدينة ، وهي القوّة العاقلة المميّزة لمعاني المحسوسات ، الواردة على القوّة الناطقة بعد خمس عشرة سنة من مولد الجسد .

وإلى هذا أشار بقوله تعالى : ﴿**وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم**﴾[4] وهم الّذين نسمّيهم في مخاطباتنا : إخواننا الأبرار الرحماء .

وفوق هذه المرتبة الرؤساء ذوي السّياسة وهي مراعاة الإخوان بسخاء النفس والإعطاء والرحمة والتحنّن عليهم وهي القوّة الحكميّة الواردة على القوّة العاقلة بعد ثلاثين سنة من مولد الجسد .

وإليها أشار بقوله تعالى : ﴿**ولمّا بلغ أشدّه واستوى آتيناه حكماً وعلماً**﴾[5] وهم الّذين نسمّيهم إخواننا الأخيار الفضلاء .

والمرتبة الثالثة فوق هذه وهي مرتبة الملوك ذوي السلطان والأمر والنهي والنظر والقيام لدفع الظلم والعناد والمنع من الخلاف والفساد عند ظهور الظلمة والمخالفين لأمر الشريعة بالرفق واللطف والمداراة في إصلاحه وهي القوّة الناموسيّة الواردة بعد مولد الجسد بعد أربعين سنة .

---

(١) سورة الأعراف ؛ الآية : ٣٧ .

(٢) سورة صّ ؛ الآيتان : ٥٩ ـ ٦٠ .

(٣) سورة الصافات ؛ الآية : ٣٣ .

(٤) سورة النور ؛ الآية : ٥٩ .

(٥) سورة القصص ؛ الآية : ١٤ .

وإليهـا أشار بقـوله تعـالى : ﴿**ولمّا بلغ أربعين سنـة قـال ربّ أوزعني أن أشكر نعمتك الّتي أنعمت عليّ وعلى والديّ وأن أعمل صـالحاً تـرضاه**﴾[1] إلى آخر الآية . وهم الّذين نسمّيهم إخواننا الفضلاء الكرام .

والرابعة ، فوق هذه وهي الّتي ندعو إليها إخواننا كلّهم في أيّ مرتبة كانـوا من مراتب الكمال وهي التسليم وقبول التأييـد ، وهي القوّة الملكيّـة الواردة بعـد خمسين سنـة من مولـد الجسد وهي الممهّـدة للمعاد ، المبعّـدة عن الزيـغ ، المدنيـة إلى الـرشـاد ، فينبغي لمن وصـل إليهـا أن يستعـدّ لـلآخـرة ، ولأحـوال القيـامـة من البعث والحشـر والنشر والحسـاب والميزان والجـواز على الصراط ، والنجـاة من النيران ودخول الجنان .

وإلى هذه المرتبة أشار بقوله تعالى : ﴿**يا أيّتها النفس المطمئنّـة * ارجعي إلى ربّك راضية مرضيّة * فادخلي في عبادي * وادخلي جنّتي**﴾[2] .

وإليها أشار إبراهيم عليه السلام بقوله : ﴿**واجعلني من ورثة جنّة النعيم**﴾[3] .

وإلـيهـا أشـار يـوسف عليه السلام بقـولـه : ﴿**تـوفّـني مـسلمـاً وألـحقـني بالصالحين**﴾[4] .

وإليهـا أشـار محمّـد صلى الله عليه وآله وسلم بقـولـه : «إنّكم تـردون عليّ الحـوض غـداً» وأحاديث مرويّة .

وإليها أشار سقراط بقولـه يوم سقي السمّ : إنّي وإن كنت أُفـارقكم إخوانـاً فضلاء فإنّي ذاهب إلى إخوان كرام قد تقدّموني وحديثه طويل .

وإليها أشار فيثـاغورس في الـرسالـة الذهبيّـة إلى آخرهـا بقولـه : إنّك إن فعلت ما أُوصيك به فإنّه عند مفارقة الجسد تبقى في الجوّ محكيّاً في الهواء غيـر

---

(١) سورة الأحقاف ؛ الآية : ١٥ .

(٢) سورة الفجر ؛ الآيات : ٢٧ ـ ٣٠ .

(٣) سورة الشعراء ؛ الآية : ٨٥ .

(٤) سورة يوسف ؛ الآية : ١٠١ .

عائد إلى الإنسيّة ولا قابل للموت .

وإليها أشار بلوهر حين قال : إنّ الملك قال لوزيره : ومن أهل هذه المقالة ؟ قال : هم الّذين يعرفون ملكوت السماء . في حديث طويل .

وإليها ندعو نحن إخواننا جميعاً والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .

وإليها أشار بقوله : ﴿**والله يدعو إلى دار السلام**﴾[1] وفي آيات كثيرة في القرآن هذا المعنى ، وهي كلّ آية فيها ذكر الجنان وأهلها ونعيمها .

واعلم أنّ كلّ مقرّ بهذا القرآن وبكتب الأنبياء عليهم السلام وإخبارهم عن الغيب فهم في ذلك على منازل أربع : إمّا مقرّ بلسانه غير مصدّق بقلبه [أو مقرّ بلسانه ومصدّق بقلبه] غير عارف بمعانيه وبيانه ، أو مقرّ ومصدّق ومتيقّن ولكن غير قائم بواجب حقّه [أو مقرّ ومصدّق ومتيقّن قائم بواجب حقّه][2] .

فالمقرّ بلسانه غير المصدّق بقلبه فهو الّذي رزق من الفهم والتمييز قليلاً ، فإذا فكّر بعقله وميّز ببصيرته ما يدلّ عليه ألفاظ الكتب النبويّة لا يقبله عقله لأنّه لا يتصوّر معانيها اللطيفة وإشاراتها الخفيّة ، فينكرها بقلبه ويشكّ فيها .

وأمّا من أقرّ بلسانه وصدّق بقلبه فهو الّذي يتفكّر ويعلم أنّ مثل هذا الأمر الجليل الّذي اتّفقت على تحقيقه الأنبياء والأئمّة المهديّون وصالحو المؤمنين لا يجوز أن يكون لا حقيقة له ، ولكن فهمه وتمييزه وعقله يقصر عن إدراكه وتصوّره له بحقائقه .

وأمّا من قد عرف بيانه ولكن قصّر في القيام بواجبه فهو الّذي وفّقه الله وأرشده واهتدى بحقائق هذه الأسرار المذكورة في كتب الأنبياء ولكن لا يجد له سبيلاً على القيام بنصرتها وواجب حقّها ، لأنّه وحيد وليس كلّ أمر يتمّ بواحد من الناس ، بل ربّما يحتاج إلى الجمع العظيم وخاصّة أُمور الشرع ونواهيه ، فإنّه كلّما كثر أهله استقام الدين .

---

(١) سورة يونس ؛ الآية : ٢٥ .

(٢) بين المعقوفين من النسخة (ر) .

وينبغي لإخواننا إذا أراد أحدهم أن يتّخذ صديقاً مجدّداً أو أخاً مستأنفاً أن يعتبر أحواله ، ويتعرّف أخباره ، ويجرّب أخلاقه ويسأله عن مذهبه واعتقاده ليعلم هل يصلح للصداقة وصفو المودّة وحقيقة الأُخوّة أم لا ، لأنّ في الدنيا أقواماً طباعهم متغايرة متضادّة خارجة عن الاعتدال ، وعادتهم رديئة مفسدة إمّا للدين أو الدنيا ، ومذاهبهم مختلفة غاية الاختلاف إلاّ من عصمه الله وسدّده ووفّقه للرشاد وأيّده ، فمنهم شيعيّ وسنيّ ، وحشويّ وقدريّ ، وزيديّ وفطحيّ ، وغال وخارجيّ ، وخيّر وشرّير ، وشكور وكفور ، وأمين وخائن ، وحليم وسفيه ، وسخيّ وبخيل ، وشجاع وجبان ، وتقيّ وشقيّ ، وودود وحسود ، وعفيف وفجور ، وصبور وجزوع ، وشره وقنوع ، وسلس وشرس ، وفظّ وغليظ ، ولطيف ورفيق ، وعاقل وأحمق ، وعالم وجاهل ، ومحبّ ومبغض ، وموافق ومخالف ، ومخلص ومنافق ، وناصح وغاشّ ، ومتواضع ومتكبّر ، وصديق وعدوّ ، ومؤمن وزنديق ، وعارف ومنكر ، ومقبل ومدبر ، وما شاكل هذه من المذاهب المختلفة والأخلاق المحمودة والمذمومة مضادّات بعضها لبعض .

واعلم بأنّ أسوء هذه الطوائف كلّها حالاً من لا يؤمن بيوم الحساب ، وشرّ الأخلاق كبر إبليس وحرص آدم وحسد قابيل ، وهي أُمّهات المعاصي .

واعلم يا أخي بأنّ الناس مطبوعون على أخلاقهم بحسب اختلاف تركيب مزاج أجسادهم ، وسبب اختلاف مزاج أجسادهم بحسب اختلاف الفلك في أصل مواليدهم ، وقد بيّنوا ذلك في موضعه غير أنّي أقول : إنّما ذكرت لك أيّها الأخ هذه الأخلاق الحسنة مع أضدادها لتعلم أنّ أهل زماننا هذا قد ألفوا الأضداد بأسرها ، وباشروها بأنفسهم وأبدانهم بل صارت لهم شعاراً ودثاراً ، بل صارت كالأغذية المربّية[1] لكثرة استعمالهم لها واشتغالهم بها صارت بمنزلة الأخلاق الحسنة عندهم ، ولا يلتفتون إلى نصيحة خير ناصح ، بل يكون بزعمهم نصحه هو الجنون الواضح ، إذا قال لهم مثلاً : النصيحة خير من الغشّ والعقل خير من الجنون وأمثال ذلك ، أنكروه وسفّهوا القائل به .

---

(١) في الأصلين «المرية» .

واعلم بأنّ من الناس من هو مطبوع على خلق واحد أو عدّة أخلاق منها محمودة ومنها مذمومة ، وأنّ العادات الرديئة تقوّي الأخلاق الرديئة والعادات الجميلة تقوي الأخلاق المحمودة ، وهذا حكم الآراء والاعتقادات ، فإنّ من الناس من يرى ويعتقد في دينه ومذهبه أنّه حلال له سفك كلّ دم مخالف له في مذهبه ، ومن الناس من يرى ويعتقد في دينه ومذهبه الشفقة والرحمة للناس كلّهم ويرثي للمذنبين ويستغفر لهم ، ويتحنّن على كلّ ذي روح من الحيوان ، ويريد الصلاح للكلّ ، وهذا مذهب الأبرار والزهّاد والأخيار والصالحين من المؤمنين .

فينبغي لك أيّها الأخ البارّ الرحيم أيّدك الله وإيّانا بروح منه إذا أردت اتّخاذ صديق أو أخ شفيق أن تنقده كما تنتقد الدراهم والدنانير والأرض الطيّبة التربة للزرع والغرس ، كما ينتقد أبناء الدنيا المرأة للتزويج ، وشراء المماليك ، والأمتعة الّتي يشترونها .

واعلم أنّ الخطب في اتّخاذ الإخوان أجلّ وأعظم خطراً من هذه كلّها ، لأنّ إخوان الصدق هم الأعوان على أُمور الدين والدنيا جميعاً ، وهم أعزّ من الكبريت الأحمر فإذا وجدت منهم واحداً فتمسّك به ، فإنّه قرّة العين ونعيم الدّنيا وسعادة الآخرة ، لأنّ إخوان الصدق والصفاء هم نصرة على الأعداء ، وزين عند الأخلّاء ، وأركان يعتمد عليهم عند الشدائد والبلوى ، وظهر يستند إليهم عند دفع المكاره في السرّاء والضرّاء ، وكنز مذخور ليوم الحاجات وجناح خافض عند المهمّات وسلّم للصعود إلى المعالي ووسيلة إلى القلوب عند طلب الشفاعات ، وحصن حصين يلتجأ إليهم يوم الروع والفزعات ، فإن غبت حفظوك ، وإن تضعضعت عضدوك ، وإن رأوا عدوّاً لك قمعوه ، الواحد منهم كالشجرة المباركة تدلّت[1] أغصانها إليك بثمرها ، وأظلّتك بأوراقها وطيب رائحتها ، وسترتك بجميل أفنانها فإن ذكرت أعانك ، وإن نسيت ذكّرك ، يأمرك بالبرّ ويسابقك إليه ، ويرغّبك في الآخرة ويبادر بك إليها ويدلّك عليها ، ويبذل ماله

---

(١) تدلى الثمر : تعلق واسترسل .

ونفسه دونك .

فإن أسعدك الله أيّها الأخ بأخ هذه صفته فابذل له نفسك ومالك ، وقِ عرضه بعرضك وافرش له جناحك ، وأودعه سرّك وشاوره في أمرك ، وداو برؤيته عينك ، واشغل نفسك إذا غاب عنك بذكره ، والفكر في أمره . وإن هفا[1] هفوة فاغفر له ، وإن زلّ زلّة صغّرها عنده ، ولا توحشه فيخاف من حقدك ، واذكر إحسانه عند إساءته ليأنس بك ويأمن من غائلتك فإنّ ذلك أسلم لودّه وأدوم لإخائه .

واعلم يا أخي أنّ من الناس من لا يصلح للصداقة والأُخوّة والمعاونة أصلاً والبتّة ، فانظر لمن تصحب ولمن تعاشر ولا تغترّ بظاهر الأُمور من غير معرفة بواطنها ، ولا بحلاوة العاجل قبل النظر في مرارة عاقبتها ، فإذا أردت اتّخاذ أخ أو صديق فاعتبر أوّلاً أحواله وجرّب أخلاقه وسائله عن مذهبه واعتقاده ، فانظر في عاداته وسجيّته وشمائله وحركاته ، فإنّه لا يخفى على المتفرّس بواطن الأُمور إذا نظر ظواهرها .

واعلم أنّ من الناس من يتشكّل لك بشكل الصديق ويتدلّس عليك بشبه الموافق ويظهر لك المحبّة ويضمر خلافها فلا تغترّ أو تبيّن .

واعلم أنّ أعمال الناس في ظاهر أُمورهم تكون بحسب أخلاقهم الّتي جبلوا عليها ، وبحسب عاداتهم الّتي نشأُوا عليها ، وبحسب آرائهم الّتي اعتقدوها .

فإذا رأيت معجباً صلفاً أو نكداً لجوجاً أو فظّاً غليظاً مضاحكاً مرائياً أو ممارياً أو حسوداً أو حقوداً ، أو منافقاً ، أو بخيلاً شحيحاً ، أو جباناً مهيناً ، أو مكّاراً غدّاراً ، أو متكبّراً جبّاراً أو حريصاً شرهاً ، أو كان محبّاً للمدح والثناء - كما هو حال أصحابنا أطال الله بقاءهم ، ولا كثّر الله من أمثالهم ولعمري إنّها رذيلة مذمومة ، وخصلة مشؤومة ، خصوصاً إذا أحبّ المدح والثناء أكثر ممّا

---

(١) هفا يهفو : زل .

يستحقّ ـ أو كان متّكلاً على حوله وقوّته ، فاعلم[1] أنّه لا يصلح للصداقة إذا كانت واحدة من هذه العيوب في رجل ، فكيف إذا كانت كلّها أو أكثرها ، فالفرار الفرار ممّن ارتكبها ، لأنّ هذه الأخلاق والآراء والعادات القاهرات مفسدة للاعتقاد بالإخوان ، وذلك أنّ من يستجيز المطالبة بما لا يجب له لا تسمح[2] نفسه ببذل ما يجب عليه ، وهكذا الحسود واللجوج والغضوب تمنعه هذه الأخلاق عن الإذعان للحقّ ، وهكذا المرائي والنكد يمنعان عن قطع الجدال والخلاف ، وكذلك الفظاظة والغلظة تمنعان عن العذوبة والسهولة ، والشراسة والغضب يهيجان على المكابرة .

وبالجملة كلّ هذه الأخلاق مفسدة للمودّة ، مخالفة لصفو الأُخوّة ، ومستثقلة للنفوس ، وموحشة لأُنس الأرواح ، ومنفّرة للطباع ، ومنغّصة للعيش ، ومنقّصة للحياة .

واعلم أنّ الصداقة لا تتمّ بين مختلفين بالطبع لأنّ الضدّين لا يجتمعان ، مثال ذلك السخيّ والبخيل فإنّهما متضادّان في الطبع ، فلا تتمّ بينهما الصداقة ، ولا تصفو لهما المودّة ، ولا يهنأ لهما العيش، لأنّه إذا فعل السخيّ شيئاً ممّا يوجبه سخاؤه من بذل المال أو المعروف رآه البخيل بصورة المضيع ، فقد فعل ما لا ينبغي ولا يجوز . وإذا فعل البخيل بطبعه شيئاً ممّا يوجبه بخله رآه السخيّ بصورة من قد أتى منكراً لا يحسن فعله . فيصير ذلك سبباً لعيب كلّ واحد منهما على صاحبه ، حتّى يعتقد البخيل في السخيّ سخف الرأي والتضييع وترك النظر للعواقب ، ويعتقد السخيّ في البخيل النزالة والرداءة وصغر النفس وقصور الهمّة ، فإذا وقع ذلك بينهما ودام صارت وِحشة وتواترت حتّى تصير عداوة وتنتهي العداوة إلى المصادمة والمنازعة .

وهكذا القياس في كلّ خلّتين مختلفتين متضادّتين فإنهما توجبان المنازعة والمنازعة توجب المغالبة ، والمغالبة تنتج المغايظة ، والمغايظة توجب المباغضة ، والمباغضة ضدّ للصداقة .

---

(١) جواب لقوله «فإذا رأيت الرجل .

(٢) في الأصلين : «ولا تسمح» .

واعلم يا أخي أنّ مثل اتّخاذ الأصدقاء والإخوان كمثل اكتساب المال والذخائر وذلك أنّ من الناس من يفني عمره في طلب صديق موافق لا يجده ، فمثله كالّذي يفني عمره في طلب جمع المال فلا يقدر عليه ، ومنهم من يكون مرزوقاً من كثرة المال ، ومنهم من يحسن كسب المال ولكن لا يحسن حفظه وهكذا حكم اتّخاذ الإخوان والأصدقاء ، وذلك أنّ من الناس من يكون مرزوقاً من كثرة الإخوان والأصدقاء ، ومنهم من يحسن اتّخاذ الأصدقاء والإخوان ولكن لا يحسن حفظهم ومراعاة أُمورهم ، فيصيرون إلى العداوة بعد الصداقة ، وإلى المباغضة بعد المودّة ، وينبغي لك أيّها الأخ أن يكون أكثر كدّك وعنايتك بعد اتّخاذ الصديق بحفظه ومراعاة أمره وأداء حقوقه[١] حتّى لا تصير الصداقة عداوة ، ويعود طول الصحبة بملالة أو ضجر أو شكوك أو ظنون في شبهة تدخل في المودّة ، أو بنميمة ووشاية من مخالف يسعى بينهما بالفساد ، فتفقّد هذا الباب لا تغفل عنه .

واعلم يا أخي أنّ الإنسان كثير التلوّن قليل الثبات على حالة واحدة ، وذلك أنّ من الناس من يحدث له حال من أُمور الدنيا من غنى إلى فقر ، أو من فقر إلى غنى ، أو من حضر إلى سفر ، أو من عزبة إلى تزويج ، أو من ذلّ إلى عزّ ، أو من عطلة إلى شغل ، أو من بؤس إلى نعمة ، أو من رفعة إلى ضعة ، أو من ضعة إلى رفعة ، أو من صناعة إلى تجارة ، أو من صحبة قوم إلى صحبة قوم آخرين ، أو من رأي ومذهب إلى رأي ومذهب ، أو من شباب إلى شيخوخة ، أو من صحّة إلى مرض ، أو يحدث له خلق جديد وسجيّة أُخرى تغيّر خلقه مع إخوانه ، وتتلوّن مودّته مع أصدقائه ، إلاّ إخوان الصفاء الّذين ليست مودّتهم وصداقتهم بسبب خارج من ذاتهم ، وذلك أن كلّ صداقة تكون بسبب ما ، فإذا انقطع ذلك السبب بطلت تلك الصداقة إلاّ صداقة إخوان الصفاءِ ، وذلك أنّهم يرون ويعتقدون أنّهم نفس واحدة في أجساد متفرّقة ،

---

(١) بهامش النسخة (ر) بخط حديث :

سألت الناس عن خل وفيّ	فقالوا : ما إلى هذا سبيل
تمسك إن ظفرت بذيل حر	فإن الحر في الدنيا قليل

فكيفما تغيّرت حالات الأجساد ، فحقيقة[1] النفس بحالها لا تتغيّر ولا تتبدّل كما قيل :

وفي الجسم نفس لا تشيب بشيبه ... ولو أنّ ماء الوجه منه خراب
لها ظفر إن كلّ ظفرٌ أعدّه ... وناب إذا لم يبق في الفم ناب
يغيّر منّي الدهر ما شاء غيرها ... وأبلغ أقصى العمر وهي كعاب

وخصلة أُخرى أنّ أحدهم إذا أحسن إلى أخيه إحساناً فلا يمنّ عليه لأنّه يرى ويعتقد أنّ إحسانه إلى نفسه كان ، وإن أساء إليه أخوه لم يستوحش منه لأنّه يرى بأنّ ذلك كان منه إليه ، فمن اعتقد في أخيه مثل هذا واعتقد فيه أخوه مثل هذا فقد أمن كلّ واحد من أخيه غائلته أو تغيّره يوماً من الأيّام بسبب من الأسباب ووجه من الوجوه . فينبغي لك ـ أيّدك الله وإيّانا بروح منه ـ إذا وجدت منهم واحداً أن تختاره على جميع أصدقائك وأقربائك وعشيرتك وجيرانك وأترابك الّذين نشأُوا معك ، فإنّه خير لك من ولدك الّذي من ظهرك ، ومن أخيك الّذي من صلب أبيك ، وزوجتك الّتي جعلت كلّ كسبك لها وجميع سعيك من أجلها فاعرف حقّه كما تعرف حقوقهم ، وينبغي أن تؤثره عليهم كلّهم ، لأنّ هؤلاء ربّما يحبّونك من أجل منفعة تصل منك إليهم ، أو يريدونك من أجل دفع مضرّة بك عنهم ، فإذا استغنوا عنك زهدوا فيك ورغبوا إلى غيرك ، وخذلوك أحوج ما تكون إليهم ، وأمّا هذا الأخ فليس يريدك من أجل شيء خارج ، بل من أجل أنّه يرى ويعتقد أنّك إيّاه ، وهو وإيّاك نفس واحدة في جسدين متقابلين ، يسرّك ما يسرّه ويغمّك ما يغمّه .

واعلم أنّ قلوب الأخيار صافية ، لأنّ نفوسهم طاهرة . ولا يخفى عليهم خفيّات الأُمور ، لأنّها تتراءى فيها كما تتراءى في أعين البصير خفيّات الأُمور ، فلا تضمرنّ لإخوانك الأصفياء خلاف ما تظهر لهم ، فإنّ ذلك لا يخفى عليهم ولا ينكتم منهم . وفّقك الله أيّها الأخ للصواب ، وهداك للرشاد وجميع إخواننا حيث كانوا في البلاد ، ووفّق سائر المؤمنين إلى السداد إنّه رؤوف جواد .

---

(١) في الأصلين «وحقيقة النفس» .

الفصل الخامس والعشرون

في ماهية الايمان والخصال الحسنة الصادرة من نفوس المؤمنين وآدابهم وبعض المنامات التي تراها أنفسهم المهذبة وضدها ما تعتاده الأبدان المذنبة

اعلم أيّها الأخ البارّ ـ أيّدك الله وإيّانا بروح منه ـ بأنّ نعم الله سبحانه كثيرة ، لا يحصي عددها إلّا الله ، ولكن نذكر طرفاً ممّا يخصّ الإنسان وهي نوعان : أحدهما من خارج الجسد كالمال والعزّ والقرين والولد ومتاع الدنيا ، والآخر في النفس ، وهو نوعان : حسن الخلق ، والآخر ذكاء النفس وصفاء جوهرها ، وهي الأصل في جميع المعارف .

واعلم يا أخي بأنّ الناس كلّهم على أربع منازل في هذه النعم : فمنهم من قد رزق العلم ولم يرزق الإيمان ، ومنهم من قد رزق الإيمان ولم يرزق العلم ، ومنهم من حرمهما جميعاً قد بخس حظّه منهما ، وإلى هؤلاء أشار بقوله تعالى : ﴿**يرفع الله الّذين آمنوا منكم والّذين أُوتوا العلم درجات**﴾[1] وبقوله عزّ وجلّ : ﴿**وقال الّذين أُوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنّكم كنتم لا تعلمون**﴾[2] فخبّر بهذا عن شرفهم في المعارف إذ كان علم البعث والقيامة من أشرف العلوم .

فأمّا الّذين أُوتوا الإيمان ولم يرزقوا العلم فهم طائفة من الناس يقرأون بما

---

(١) سورة المجادلة ؛ الآية : ١١ .

(٢) سورة الروم ؛ الآية : ٥٦ .

في كتب الأنبياء من أخبار الغيب وأمر المبدأ والمعاد وأحوال الملائكة ومقاماتهم ، وحديث البعث والقيامة والحشر والنشر والحساب والميزان والصراط وجزاء الأعمال في النشأة الآخرة ونعيم الجنان ، وما شاكلها من الأمور الغائبة عن الحواسّ ، البعيدة من تصوّر الأوهام وهم مع إقرارهم ساكنة نفوسهم بما أخبرت به الأنبياء وأشارت إليه العلماء والحكماء ، من الثواب في المعاد ونعيم الجنان ، مصدّقون لهم في السرّ والإعلان ، راغبون فيها ، طالبون لها ، عاملون من أجلها ، ولكنّهم تاركون للبحث عنها والكشف لها والنظر في حقائقها ، كيف وأين ومتى ولمَ ، وإليهم أشار سبحانه : ﴿**فسلام لك من أصحاب اليمين**﴾[١] ولهم الأمن واليمن والإيمان .

وأمّا الّذين رزقوا حظّاً من العلم ولم يرزقوا الإيمان فهم طائفة من الناس نظروا في كتب الفلاسفة والحكماء وبحثوا عنها ، وارتاضوا بما فيها من الآداب مثل الهندسة والتنجيم والطبّ والمنطق والطبيعيّات وما شاكلها فأُعجبوا بها وتركوا النظر في كتب النواميس والتنزيلات النبويّة والبحث عن أسرار الموضوعات الشرعيّة ، والكشف عن خفيّات الرموز الناموسيّة ، فعميت عليهم الأنباء ، فهم شاكّون في حقائقها ، متحيّرون في معرفة معانيها ، جاهلون بلطيف أسرارها ، غافلون عن عظيم شأنها ، وإليهم أشار سبحانه ﴿**وفرحوا بما عندهم من العلم**﴾[٢] .

وأمّا الّذين حرموا العلم والإيمان جميعاً فهم طائفة من الّذين أُترفوا في هذه الحياة الدنيا ، فهم مشغولون الليل والنهار بطلب شهواتها ، مغرورون بعاجل حلاوات لذّاتها ونعيمها ، تاركون بطلب الآداب ، معرضون عن العلم وأهله ، غافلون عن أمر الديانات وأحكام الشرائع ومفروضات السنن الّتي هي طبّ النفوس ، وطب الآخرة ، وإليه أشار بقوله تعالى : ﴿**وأترفناهم في الحياة الدنيا**﴾[٣] وقال تعالى : ﴿**ذرهم يأكلوا ويتمتّعوا ويلههم الأمل فسوف**

---

(١) سورة الواقعة ؛ الآية : ٩١ .

(٢) سورة المؤمن ؛ الآية : ٨٣ .

(٣) سورة المؤمنين ؛ الآية : ٣٣ .

يعلمون﴾[1] وقال سبحانه : **﴿يأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم﴾**[2] .

وأمّا الّذين أُوتوا من العلم والإيمان حظّاً جزيلاً فهم إخواننا العلماء الكرام الفضلاء الأخيار النجباء ، وإليه أشار تبارك وتعالى بقوله : **﴿يرفع الله الّذين آمنوا منكم والّذين أُوتوا العلم درجات﴾** وقد أخبرنا عن مذهبهم وآدابهم المنقولة عن أئمّتهم عليهم السلام .

فاقتدوا بها أيّها الإخوان الأبرار ! فلعلّكم توفّقون للعمل بتأييد الله لكم وبروح منه فتحيون حياة العلماء ، وتعيشون عيش السعداء ، وتموتون ميتة الشهداء ، وتدخلون الجنّة زمراً .

واعلم يا أخي أنّ خير شيء يرزق الإنسان السعادة وهي نوعان : داخل وخارج ، فالداخل نوعان : أحدهما في الجسد ، والآخر في النفس والخارج أيضاً نوعان : أحدهما ملك اليد كالمال ومتاع الدنيا والآخر القرين من أبناء الجنس كالزوجة والصديق والولد والأخ والأُستاذ والمعلّم والصاحب والسلطان والرئيس .

ومن أسعد السعادات أن يتّفق لك يا أخي معلّم رشيد عارف بحقائق الأُمور مؤمن بيوم الحساب ، عالم بأحكام الدين ، بصير بأُمور الآخرة ، خبير بأحوال المعاد ، مرشد لك إليها ، ومن أنحس المناحس أن يكون ضدّ ذلك .

واعلم أنّ المعلّم والأُستاذ أب لنفسك وسبب لنشوئها ، وعلّة لحياتها ، كما أنّ والدك أعطاك صورة جسدانيّة فمعلّمك أعطاك صورة روحانيّة وذلك أنّ المعلّم يغذّي نفسك بالعلوم ، ويزيّنها بالمعارف ، ويهديها طريق الآخرة الّتي هي دار البقاء والدوام والخلود في النعيم واللّذة والسرور الأبديّ والراحة السرمديّة ، كما أنّ أباك كان سبباً لجسدك في الدار الدنيا ، ومرشدك ومربّيك إلى طلب المعاش ، فهي الّتي هي دار الفناء والتغيّر ساعة فساعة ، فأسأل يا

---

(١) سورة الحجر ؛ الآية : ٣ .

(٢) سورة محمد ؛ الآية : ١٢ .

أخي أن يوفّق لك معلّماً رشيداً هادياً سديداً ، فإذا رزقت فاشكر الله على نعمائه .

واعلم يا أخي أنّ في الناس إخواناً يتشبّهون بأهل العلم ويتلبّسون بأهل الدين ، لا الفلسفة يعرفونها ، ولا الشرعيّة يتحقّقونها ، ومع هذا يدّعون معرفة حقائق الأشياء ويتعاطون النظر في خفيّات الأُمور الغامضة البعيدة ، وهم لا يعرفون أنفسهم الّتي هي أقرب الأشياء ، ولا يميّزون الأُمور الجليّة ، ولا يتفكّرون في الموجودات الظاهرة المدركة بالحواسّ المشهودة بالعقول ، ثمّ ينظرون في الطفرة والتفكيك والجزء الّذي لا يتجزّى وما شاكلها من المسائل في الأُمور المتوهّمة الّتي لا حقيقة لها في الهيولى ، وهم شاكّون في الأشياء الجليّة الظاهرة ، ويدّعون فيها المحالات بالمكابرة في الكلام ، والحجاج في الجدل مثل دعواهم أنّ قطر المربّع مساو لأحد أضلاعه ، وأنّ النار لا تحرق ، وأنّ شعاع البصر جسم يبلغ في طرف عين إلى فلك الكواكب وأنّ علم النجوم باطل ، وما شاكل هذا من الزور والبهتان فاحذرهم فإنّهم الدجّالون الذلق الألسن ، العميان القلوب ، الشاكّون في الحقائق ، الضّالون عن الصواب .

واعلم أنّهم محنة على العلماء ، كذّابون على الأنبياء ، يتخيّلون ما لا يتحقّقون ، ويدّعون ما لا يعرفون ، ويتكلّمون بما لا يحسنون وما هم إلّا كما وصفهم ربّ العالمين فقال تعالى : ﴿**بل هم قوم خصمون**﴾[1] يهيمون في أودية ما يتوهّمون ، ويقولون ما لا يفعلون أعاذك الله وإيّانا من شرّهم ، فإنّهم أعداء فاحذرهم .

واعلم يا أخي أنّ من سعادتك أيضاً أن يتّفق لك معلّم ذكيّ ، جيّد الطبع حسن الخلق ، صافي الذهن ، محبّ للعلم ، مبغض للرئاسة ، قنوع متوكّل غير شره ، ولا مداهن ولا متعصّب قد أخذ علمه من العلماء الأخيار ، عن الأئمّة الأطهار عليهم السلام .

واعلم أنّ مثل أفكار النفوس قبل أن يحصل فيها علم من العلوم واعتقاد

---

(١) سورة الزخرف ؛ الآية : ٥٨ .

من الآراء[1] كمثل رقّ أبيض نقيّ لم يكتب فيه شيء ، فإن كتب فيه شيء حقّاً أو باطلاً فقد شغل المكان ، من أن يكتب فيه شيء آخر ، ويصعب حكّه ومحوه . فكذا حكم أفكار النفوس إذا سبق إليها علم من العلوم واعتقاد من الآراء وعادة من العادات تمكّن فيها حقّاً كان أو باطلاً ، فيصعب قلعها ومحوها كما قال الشاعر :

أتاني هواها قبل أن أعرف الهوى فصادف قلبي فارغاً فتمكنا

فإذا كانت الأمور كما وصفت فينبغي لك أيّها الأخ أن تقتدي بالراغبين ، المريدين طريق الحقّ ، الطالبين دار الآخرة ، المؤمنين بيوم الحساب ، المستعملين شرائع الأنبياء ، الباحثين في أسرار كتبهم ، التاركين للهوى والجدال .

واعلم يا أخي ! أنّ درجات المؤمنين في الإيمان متفاوتة ، كما أنّ العلماء متفاوتون في درجات العلوم ، وذلك أنّ الإنسان لا يبلغ درجة إلّا يلوح له فوقها درجات لم يبلغها بعد كما ذكر الله سبحانه بقوله : ﴿**وفوق كلّ ذي علم عليم**﴾[2] وإذ قد بان لك من فضيلة العلم والإيمان ما تقدّم ذكره فنريد أن نذكر ماهيّة كلّ واحد منهما ونبيّن كمّيّته وكيفيّته ، فنقول :

إنّ العلم هو صورة المعلوم في نفس العالم ، واعلم أن ربّ صورة في نفس العالم ليس لها وجود في الهيولى ، فتحتاج أن تنظر في هذا الباب نظراً شافياً ، فإنّ أكثر ما تدخل الشبهة على العلماء من هذا الباب .

وأمّا الإيمان فهو التصديق للمخبر فيما قال وأخبر عنه ، ولكن ربّ مخبر بخلاف ما في نفسه فيكون كاذباً إن كان قاصداً لذلك ، وربّ مصدّق أيضاً لكذّاب وهذا الباب يحتاج إلى نظر شاف ، لأنّ أكثر الشبهة تدخل على القابلين والمستمعين من هذا الباب .

---

(١) في الأصلين «من الاء» .
(٢) سورة يوسف ؛ الآية : ٧٦ .

واعلم يا أخي ! بأنّ الإيمان يورث العلم لأنّه متقدّم الوجود على العلم ومن أجل هذا دعت الأنبياء الأمم إلى الإقرار أوّلاً بما خبّرت به وتصديق ما كان غائباً عنهم ، ومن إدراك حواسّهم وتصوّر أوهامهم ، فإذا أقرّوا بألسنتهم سمّوهم عند ذلك المؤمنين ، ثمّ طالبوهم بتصديق القلب ، كما قال سبحانه : ﴿**ومن يؤمن بالله يهد قلبه**﴾[1] فإذا وقع التصديق بالقلب سمّوهم الصدّيقين كما قال سبحانه : ﴿**والّذي جاء بالصدق وصدّق به أولئك هم المتّقون**﴾[2] .

واعلم أنّ أوّل ما يبدأ به الإيمان هو التصديق من الأنبياء للملائكة بما يخبرونهم ممّا ليس في طاقة البشر تصوّره قبل إخبار الملائكة لهم ، كما قال : ﴿**آمن الرسول بما أنزل إليه من ربّه والمؤمنون**﴾[3] إلى آخر الآية .

واعلم يا أخي أنّ الملائكة أيضاً هم محتاجون إلى الإيمان ، لأنّهم متفاوتون في درجات العلوم كما خبّر عنهم فقال : ﴿**وما منّا إلاّ له مقام معلوم**﴾[4] وأنّ من أشرف الملائكة حملة العرش الّذين هم في أعلى المقامات في العلوم وهم أيضاً محتاجون إلى الإيمان كما خبّر عنهم ، فقال سبحانه : ﴿**الّذين يحملون العرش ومن حوله يسبّحون بحمد ربّهم ويؤمنون به**﴾[5] .

واعلم يا أخي بأنّك أيضاً محتاج إلى الإيمان والتصديق بقول المخبر لك الّذي هو فوقك في العلم وأعلى منك في المعارف ، لأنّك إن لم تؤمن بما يخبرك عنه حرمت أشرف العلوم وأجلّ المعارف .

واعلم بأن ليس لك طريق إلى تصديق المخبر لك في أوّل الأمر إلاّ حسن الظنّ في تصديقه ، ثمّ على ممرّ الأوقات يتبين لك حقيقة ذلك ، فلا تطالبه بالبرهان في أوّل الأمر ، ولكن اجتهد في تصوّر ما تسمع بأذنك في فكرك ، ثمّ اطلب الدليل والبرهان بعد ذلك ، ولا ترض بالتقليد إذا توسّطت في العلم ولا

---

(١) سورة التغابن ؛ الآية : ٩ .

(٢) سورة الزمر ؛ الآية : ٣٣ .

(٣) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٨٥ .

(٤) سورة الصافات ؛ الآية : ١٦٤ .

(٥) سورة المؤمن ؛ الآية : ٧ .

تـطلب البرهـان في أوّلـه ، ولكن هلمّ يـا أخي إلى مجلس إخـوان لـك فضـلاء وأصدقاء لك أخياراً علماء ، وادّين لك نصحاء تسمع أقاويلهم وترى شمـائلهم ، وتقف على أسـرارهم ، وتتصوّر بصفـاءِ جوهـر نفسك مـا تصوّروا بصفاء جـوهـر نفوسهم ، وتنظر بعين قلبك كما نظروا بعيون قلوبهم ، وترى بنور عقلك مـا رأوا بنور عقولهم ، فلعلّك أن تنبّه نفسك من نوم الغفلة ورقدة الجهالة ، وتحيا بروح العلم ، وتعيش عيش السعداء ، وتصل إلى ما وصلوا إليه ، وتقف على ما وقفوا عليه وتكون هناك بنفسك الطاهرة الزكيّة النقيّة الشفّافة مسروراً فرحاً منعّمـاً ملتذّاً أبداً ، لا يحسدك الثقيل المظلم المتغيّر المستحيل الفاسد . وفّقك الله أيّها الأخ البارّ الرحيم وهـداك للدخول في هـذا الباب ، وجميـع الإخوان إنّـه هو الكـريم التوّاب .

واعلم يا أخي أنّ ماهيّـة الإيمان واضحـة بالـدليل والبـرهان وذلـك أنّ الله سبحانه قـد أكثر مـدح المؤمنين في القرآن ، وجعـل وعدهم في الآخـرة وثوابهم الجنّـة ، لأنّ الإيمان خصلة تجمـع الخيرات البشـريّة كلّهـا وفضائـل المـلائكـة جميعـاً ، وضدّ الإيمـان هو الكفـر ، وقد أكثـر الله سبحانـه ذمّ الكافـرين وجعل وعيدهم جهنّم لأنّ الكفر خصلة تجمع الشرور كلّهـا ورذائل الشيـطنة جميعـاً ولا حاجة لذكر ماهيّته ، والّذي نذكره الآن هو ماهيّة الإيمان :

اعلم بأنّ الإيمان يقال على نوعين : ظاهر وبـاطن ، فالإيمـان الظاهـر هو الإقـرار أولاً بأنّ للعـالم صانعـاً واحداً حيّـاً قادراً حكيمـاً هو خـالق الخلق كلّهم ومدبّرهم لا شريك له في ذلك .

والثاني هو الإقـرار بأنّ لـه ملائكـة هم صفوتـه من خلقه ، نصبهم لعبـادته وخدمته وجعلهم حفظة لعالمه ، ووكّل طائفة منها بضرب من تـدبير خـلائقه ممّـا في السماوات والأرضين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون .

والثالث الإقرار بأنّه قـد اصطفى طـائفة من بني آدم وجعلهم واسـطة بينهم وبين المـلائكـة لتلقي إليهم المـلائكـة عن ربّهـا ، ويلقـون هم إلى بني آدم مـا يقبلونه من الملائكة بالوحي والإنباء .

والرابع الإقرار بأنّ هذه الكتب الّتي جاءت بها الأنبياء عليهم السلام باللغات المختلفة مأخوذة معانيها من الملائكة إلهاماً ووحياً .

والخامس الأقرار بأنّ القيامة كائنة لا محالة ، وهي النشأة الآخرة وأنّ الخلق كلّهم يبعثون ويحشرون فيحاسبون ويثابون بما عملوا من خير ومعروف ويجازون بما عملوا من شرّ ومنكر وذلك قول الله سبحانه : ﴿**والمؤمنون كلّ آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله**﴾[1] .

وهذا هو الإيمان الظاهر الّذي دعت الأنبياء الأُمم المنكرة لهذه الأشياء إلى الإقرار بها وهو يؤخذ منهم تلقيناً كما يتلقّن الصغار من الكبار والجهّال من العلماء .

وأمّا الإيمان الّذي هو الباطن فهو إضمار القلب باليقين على تحقيق هذه الأشياء المقرّ بها باللسان . فهذا هو حقيقة الإيمان ، فأمّا المؤمن في ظاهر الأمر فهو المقرّ بهذه الأشياء بلسانه المتميّز من اليهود والنصارى والصابئين والمجوس والّذين أشركوا وبهذا الإقرار تجري عليه أحكام المسلمين من الصلاة والزكاة والحجّ والصوم وما شاكلها من مفروضات شرائع الإسلام وسنّة المؤمنين .

وأمّا الّذين مدحهم الله في كتبه ووعدهم الجنّة فهم الّذين يتيقّنون بضمائر قلوبهم حقائق هذه الأشياء المقرّ بها ، والطريق إليها هو التفكّر والاعتبار والقيام بشرائطها وواجب حقّها .

وأمّا أُمراء المؤمنين وهم الّذين عرّفونا حقيقة الإيمان بما وصل إليهم عن آبائهم المعصومين عن جدّهم سيّد المرسلين الّذي لا ينطق عن الهوى بل هو وحي يوحى . فمن ذلك ما رواه الشيخ الجليل والفاضل الأثيل خادم حديث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم محمّد بن عليّ بن بابويه رحمه الله في خصاله[2] قال : حدّثنا حمزة بن أحمد العلوي قال : حدّثنا أبو الحسن عليّ بن محمّد البزّاز قال : حدّثنا أبو أحمد داود بن سليمان الغازي قال : حدّثني عليّ بن موسى الرضا

---

(١) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٨٥ .

(٢) راجعه (١ : ٨٤) .

قال : حدّثني أبي موسى بن جعفر قال : حدّثني جعفر بن محمّد قال : حدّثني أبي محمّد بن عليّ قال : حدّثني أبي عليّ بن الحسين قال : حدّثني أبي الحسين بن عليّ قال : حدّثني أبي أمير المؤمنين عليّ عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «الإيمان إقرار باللسان ومعرفة بالقلب وعمل بالأركان» .

قال أبو حاتم : لو قرىء هذا الإسناد على مجنون لبرىء .

واعلم يا أخي بأنّ العامّة إذا روت حديثاً مسلسلاً عن أئمّتنا الأطهار مثل هذا الحديث سمّوه باصطلاحهم سلسلة الذهب ، بل لعمري إنّ هذه السلسلة في هذا الحديث وغيره ينبغي أن تسمّى سلسلة الإيمان لأنّ الإيمان منهم وعنهم وفيهم وإليهم مآله .

وروي أن بابويه في أماليه[1] قال : حدّثنا محمّد بن موسى بن الريّان بن الصلت عن الرضا عليّ بن موسى عن أبيه موسى بن جعفر [عن أبيه جعفر] بن محمّد عن أبيه محمّد بن عليّ عن أبيه عليّ بن الحسين عن أبيه الحسين بن عليّ قال : رأى أمير المؤمنين رجلاً من شيعته بعد طول عهد طويل ، وقد أثّر السنّ فيه ، وكان يتجلّد في مشيه فقال عليه السلام : كبر سنّك يا رجل ! قال : في طاعتك يا أمير المؤمنين ، فقال : إنّك لتتجلّد ؟ فقال : على أعدائك يا أمير المؤمنين ، فقال عليه السلام : أجد فيك بقيّة ، قال : هي لك يا أمير المؤمنين .

وقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : «ثمرة الإيمان ثلاثة أشياء : الحبّ في الله ، والبغض في الله ، والحياء من الله تعالى» .

وقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم[2] : «ثلاث خصال من كنّ فيه استكمل خصال الإيمان : الّذي إذا رضي لم يدخله رضاه في إثم ولا باطل ، وإذا غضب لم يخرجه الغضب عن الحقّ ، وإذا قدر لم يتعاط ما ليس له» .

---

(١) أنظر ص ١٠٧ والإسناد فيه هكذا : محمد بن موسى بن المتوكل قال : حدثنا علي بن إبراهيم بن هاشم عن أبيه عن الريان بن الصلت : وبين المعقوفين من النسخة (ر) .
(٢) رواه في الخصال (١ : ٥٢) .

وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «أعلى منازل الإيمان درجة واحدة من بلغ إليها فقد فاز وظفر ، وهو أن تنتهي سريرته في الصلاح إلى أن لا يبالي بها إذا ظهرت ، ولا يخاف عقابها إذا سترت» .

وقد أمر الله المؤمنين بثلاثة فقال : ﴿**اتّقوا الله**﴾ باتّقاء معاصيه واتّباع ما يأمركم به ﴿**وأصلحوا ذات بينكم**﴾ أي الحال الّتي بينكم بالمواساة ومساعدة بعضكم بعضاً فيما رزقكم الله وترك الخصومة والمنازعة بالصلح والمحبّة وتسليم الأمر إلى الله ﴿**وأطيعوا الله ورسوله**﴾ ولا تخرجوا عما أُمرتم به ﴿**إن كنتم مؤمنين**﴾ مصدّقين بالله ورسوله ، فإنّ الإيمان يقتضي ذلك وإن كنتم كاملي الإيمان فإنّ كماله بهذه الثلاثة أعني اجتناب المناهي الّذي هو في معنى الاتّقاء ، واتّباع الأوامر ، وإصلاح ذات البين بالعدل والإحسان والمساعدة على الحقّ كما دلّ عليه قوله تعالى : ﴿**وتعاونوا على البرّ والتقوى**﴾[1] الآية ﴿**إنّما المؤمنون الّذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربّهم يتوكّلون**﴾[2] فزعت لذكره استعظاماً له وتهيّباً لجلاله ، وقيل : هو الرجل يهمّ بالمعصية ، فيقال له : اتّق الله ، فينزع منه خوفاً من العقاب .

والمراد بالآية كاملو الإيمان لعدم اعتبار مثله في أصل الإيمان كما دلّ عليه قوله في موضع آخر : ﴿**الّذين يقيمون الصلاة وممّا رزقناهم ينفقون * أُولئك هم المؤمنون حقّاً**﴾[3] حكم عليهم بتحقّق الإيمان فيهم . ولم يعتبروا الوجل عند الذكر ، فاقتضى أنّها صفة زائدة توجب كماله .

﴿**وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً**﴾ لزيادة المؤمن به ، فإنّ الإيمان بالآيات يوجب ازدياده بازديادها ، ولاطمئنان النفس ورسوخ اليقين بتظاهر الأدلّة أو بالعمل بموجبها ، وهو قول من قال : الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية بناء على دخول العمل فيه وهو قول مرغوب عنه .

---

(١) سورة المائدة ؛ الآية : ٣ .
(٢) سورة الأنفال ؛ الآية : ٢ .
(٣) سورة الأنفال ؛ الآيتان : ٣ ـ ٤ .

وقد تحقّق ممّا ذكرنا أنّ زيادة الإيمان تكون على ثلاثة أنحاء :

الأوّل بتقوية الدليل وبكثرته ، فإنّ كلّ دليل فهو مركّب لا محالة من مقدّمات ولا شكّ أنّ النفوس مختلفة في الإشراق والإنارة ، والأذهان متفاوتة بالذكاء والغباوة ، وكلّ من كان جزمه بالمقدّمات أكثر وأدوم كان علمه بالنتيجة أكمل وأتمّ .

الثاني بتعدّد التصديق وتجدّده ، فمن المعلوم أنّ من صدّق إنساناً في شيئين كان تصديقه أزيد من تصديق من صدّقه في شيء واحد .

الثالث أن يقال : الإيمان عبارة عن مجموع الاعتقاد والإقرار والعمل ، وإذا كان عبارة عن مجموع الثلاثة فبسبب دخول التفاوت في العمل يظهر التفاوت في الإيمان وإن لم يكن التفاوت في الإقرار والاعتقاد متصوّراً .

﴿**وعلى ربّهم يتوكّلون**﴾ يفوّضون إليه أُمورهم بالتوكّل عليه والإنابة إليه .

فهذه ثلاثة من علامات المؤمنين الكاملين في الإيمان ملحقة بالثلاثة الأُول المذكورة في الآية السابقة على هذه الآية ، الّتي جعل ختامها التوكّل .

واعلم يا أخي أنّ التوكّل من أحد شرائط الإيمان كما قال سبحانه : ﴿**وعلى الله فتوكّلوا إن كنتم مؤمنين**﴾[1] وقال لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم[2] : ﴿**وتوكّل على الحيّ الّذي لا يموت**﴾ .

ونريد أن نبيّن ما التوكّل ومن المتوكّل على الله بالحقيقة .

اعلم يا أخي أنّ التوكّل هو الاعتماد على الغير عند الحاجة بأن ينوب عنك فيها .

واعلم أنّه إذا كان المتوكَّل عليه ثقة كان قلب المتوكِّل عليه ساكناً ونفسه مطمئنة وإذا كان غير ثقة يكون قلب المتوكّل عليه غير ساكن ونفسه غير مطمئنّة .

---

(١) سورة المائدة ؛ الآية : ٢٦ .

(٢) سورة الفرقان ؛ الآية : ٥٨ .

واعلم يا أخي بأنّ الناس كلّهم متوكّلون ولكنّ أكثرهم توكّلهم على غير الله ، من ذلك توكّل الصبيان على آبائهم فيما يحتاجون إليه من الطعام والشراب واللباس وغيرها من الحاجات ، فهم طول النهار مشغولون باللعب ، لا يفكّرون في أمر المعاش ، ولا يهمّهم طلبه لاتّكالهم على آبائهم ، وقلوبهم ساكنة ، ونفوسهم هادئة ، لثقتهم بآبائهم . وهكذا العبيد مشغولون بخدمة مواليهم لا يفتكرون في المعاش اتّكالاً على مواليهم فيما يحتاجون إليه ، وهكذا جنود السلاطين وخدمهم لا يفتكرون في أمر المعاش اتّكالاً على سلطانهم في أرزاقهم المفروضة لهم ، فهم مشغولون في خدمة سلطانهم .

وأمّا غير هؤلاء من الناس فهم طائفتان : الأغنياء والفقراء ، فالأغنياء اتّكالهم على ذخائرهم وأموالهم ، فقلوبهم ساكنة ونفوسهم هادئة ولكنّ الحرص والرغبة في الزيادة تحثّهم على الطلب وهم في الطلب متوكّلون على رؤوس أموالهم وحرفهم وحذقهم بالبيع والشراء في طلب الربح .

وأمّا الفقراء فمنهم الصنّاع والّذين يعملون الحرف والعمل بأبدانهم ، فاتّكالهم على صنائعهم وقوّة أبدانهم ، وأمّا المكديون فاتّكالهم على الناس في مواساتهم من فضل ما في أيديهم .

فبهذا الاعتبار لا تجد أحداً متوكّلاً على الله إلاّ الأنبياء عليهم السلام وصالحي المؤمنين ، وذلك أنّ الأنبياء قبل أن يوحى إليهم كانوا كأحد أبناء الدنيا في طلب المعيشة ، حتّى إذا جاءهم الوحي والنبوّة تركوا طلب المعاش واشتغلوا بتبليغ الرسالة ، ويتوكّلون على الله فيما يحتاجون إليه من عروض هذه الدنيا ، ويثقون به ، وتطمئنّ نفوسهم لأنّهم يعلمون ويتيقّنون بأنّ مرسلهم يكفيهم ما يحتاجون إليه إذا اشتغلوا بخدمته ، كما أنّ الملوك يكفون جنودهم ما يحتاجون إليه في إطاعتهم لهم ، وكما أنّ الموالي يكفون عبيدهم ما يحتاجون إليه في خدمتهم لهم .

وكذلك المؤمنون المحقّون الّذين هم ورثة الأنبياء يقتدون بهم ويسلكون مسلكهم فيما دلّهم الله عليه ، فقال عزّ وجلّ : **﴿لقد كان لكم في رسول الله**

أسوة حسنة﴾[١] فالتوكّل إذاً إحدى الخصال الّتي يتبيّن بها المؤمن المحقّ من غيره .

واعلم يا أخي أنّ من شرائط الإيمان الإخلاص في العمل ، وهو من خصال المؤمنين وفي الدعاء كما أمر الله سبحانه فقال : **﴿فادعوا الله مخلصين له الدين﴾**[٢] والإخلاص في العمل أن لا تطلب بما في أوامر الشرع ونواهيه جزاء ولا شكوراً من أحد من الخلق ، مثل إخلاص الوالدين في تربيتهما الأولاد ، لا يطلبان من أحد جزاءً ولا شكوراً ، لأنّهم قد علموا وجوبه في الجبلّة . ومثل إخلاص العبيد الصالحين الّذين يخدمون مواليهم من غير خوف من الضرب ، ولا طلب للعوض ، لأنّهم قد علموا بأنّ خدمتهم هي شيء يقتضيه الحكمة والسياسة كما بيّنّاه في مواضع .

واعلم يا أخي بأنّ العبد الّذي يخدم مولاه خوفاً من الضرب أو للعوض عبد سوء ، وكذلك من لا يطيع ربّه إلّا خوفاً من النار أو رغبة في الأكل والشرب والجماع في الجنّة فهو أيضاً عبد سوء ، والعبد السوء لا يكون مخلصاً في الدعاء ولا في العمل ، وأما الإخلاص في الدعاء فلا يكون إلّا عند انقطاع الحيلة والتبرّي من الحول والقوّة ، والمثال في ذلك ركّاب البحر ، وذلك أنّهم يدعون الله ويسألونه السلامة عند دخولهم السفينة ، ولكن غير مخلصين لاتّكالهم على الربّان والملّاحين ، حتّى إذا توسّطوا البحر وهاجت الأمواج ، واضطرب المركب ، واشتدّ الأمر ، ودهش الربّان ، وفزع الملّاحون ، وأشرفوا على الهلاك فعند ذلك يدعون الله مخلصين له الدين ، لأنّهم قد علموا أنّه لا يقدر أحد من الخلق على معاونتهم ، ولا قوّة لأحد على دفع ما ورد عليهم إلّا الله سبحانه ، لا تتعلّق قلوبهم بسبب من الأسباب ، إلّا أن يكون فيهم إنسان يعرف أحكام النجوم ، وقد عرف العلّة الموجبة لما هم فيه من مناحس الفلك ، ويعلم أنّ النحس دافع تدبيره إلى سعد من سعود الفلك ، ويكون قلبه متعلّقاً به ، فإنّه

---

(١) سورة الأحزاب ؛ الآية : ٢١ .

(٢) سورة المؤمن ؛ الآية : ١٤ .

إن كـان يـدعـو ربّـه معهم لا يكـون دعـاؤه مخلصـاً ، حتّى يتبيّن لـه أنّ النحس مستمرّ ، أو دافع التدبير إلى نحس أشرّ منه ، فعنـد ذلك ينقـطع رجاؤه من جهـة النجوم ، فيكون دعاؤه بإخلاص .

واعلم يا أخي أنّ مثل هذه الأحوال الّتي ترد على بني آدم ، وفزع العقـلاء إلى الله سبحانه ، ودعاء العارفين لـه بالكشف عنهم مـا ورد عليهم ، يكون فيهـا تلقيناً للجاهلين بالله ، وهداية للنفوس إلى معرفته ، فيعلمـون عند ذلـك بنظرهم إلى العقـلاء في دعائهم ، وتضـرّعهم إلى الله بالكشف عنهم مـا هم فيه أنّ لهم إلَهاً حيّاً قادراً عالمـاً يسمع دعـاءهم ، ويعلم ما هم فيـه ، وقادر على نجـاتهم ، وهو يراهم وإن كـانوا لا يـرونه ، ولا يـدرون أين هو إذ ليس هـو بمكان ، وعلى هذا القياس كلّما يصيب الناس من الجهد والبلاء ، فيضـطرّهم ذلك إلى الـدعاء والتضـرّع إلى الله سبحانـه ، مثل الغـلاء والـوبـاء ، وآلام الأطفـال ، ومصـائب الرجال الأخيار ، وما شاكلها من الأمـور السماويّـة الّتي لا سبيل لأحـد في دفعها عنهم إلاّ الله سبحانه ، فيكون ذلك دلالة لهم على الله سبحانه وهداية إليه ، كما قال عزّ وجلّ : ﴿**أمّن يجيب المضطرّ إذا دعـاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفـاء الأرض أإله مع الله**﴾[1] .

ومن شـرائط الإيمان الصبـر على البلاء ، وهـو من خصـال المؤمنين كمـا قيل : «الصبر رأس الإيمـان» وقال سبحـانه : ﴿**واصبـر وما صبـرك إلاّ بالله**﴾[2] وقال تعالى للمؤمنين : ﴿**اصبروا وصابروا ورابطوا**﴾[3] .

واعلم يا أخي أنّ الصبر هو الثبات في حال الشدائد بلا جزع ، لما يـرجى من محمود العاقبة معه . والصبر مشتق من مرارة الصبر ، والصبر مـرّ لا يتجرّعـه إلاّ كلّ حرّ ، وقد ذكرنا بعض فضائل الصبر في الاثنى عشريّة .

واعلم أنّ النّـاس أكثرهم يصبـرون في الشدائـد ، ولكن لا يكون صبـرهم

---

(١) سورة النمل ؛ الآية : ٦٢ .

(٢) سورة النحل ؛ الآية : ١٢٧ .

(٣) سورة آل عمران ؛ الآية : ٢٠٠ .

بالله ولا لله ، لأنّهم يجزعون ويضطربون ، ويشكّون ويظنّون بالله ظنّ السوء كما قال تعالى في قصّة المنافقين : ﴿**الظانّين بالله ظنّ السوء عليهم دائرة السوء**﴾ (١) وذلك أنّ منهم من ظنّ أنّ هذه الشدائد الّتي أصابتهم جور منه قضاها عليهم ومنهم من ظنّ أنّه ليس من قضائه وحكمه ، ومنهم من ظنّ أنّه ليس يعلم ما هم فيه من الجهد والبلوى ، ومنهم من يعلم أنّه يعلمه ولكن يظنّ أنّه لا يفكّر فيهم ولا يهمّه ، ومنهم من يظنّ أنّه قاسي القلب قليل الرحمة وما شاكل ذلك من ظنّ السوء ، فاستوجبوا من الله تعالى الغضب واللعنة كما هو في آخر الآية المذكورة .

وأمّا الأنبياء والمؤمنون فإنّهم يصبرون في الشدائد والبلوى ، ويكون صبرهم بالله ولله ، وذلك أنّهم يرون ويعتقدون أنّ هذه الشدائد الّتي تصيب الخلق فيها ضروب من المصلحة لهم ، وإن كانت تخفى على كثير من العقلاء ، وما تلك الحكمة في ألم نفوس الحيوان دون سائر النفوس الّتي في العالم ، فذكروا أنّ الحكمة فيها هي حثٌّ نفوسها على حفظ أجسادها من التلف والفساد .

واعلم يا أخي أنّ اعتقاد الأنبياء والمؤمنين أنّ في الشدائد الّتي تصيبهم مصلحةً لهم نتجت من المقدّمة الّتي أقرّوا بها ، وهي قولهم إنّ للعالم صانعاً واحداً حيّاً قادراً حكيماً ، وإنّه قد رتّب أمر عالمه على أحسن النظام والترتيب ، في إتقان الحكمة ، حتّى إنّه لا يجري أمر من الأُمور صغارها وكبارها إلّا وفيها ضروب من الحكمة ، وفنون من الصلاح لا يعلمها إلّا هو ، فتسليم هذا الجسم الضعيف إلى الحكيم اللطيف غاية الرضا بقضائه وقدره ونهاية الانقياد لأمره وزجره . ومن شرائط الإيمان أيضاً وخصال المؤمنين الرضا بالقضاء والقدر وهو طيبة النفس ممّا يجري عليه من المقادير ، وجريان المقادير قيل هو موجبات أحكام النجوم وهذا القول مناف للتسليم بما يفعله الصانع بخلقه .

وقد قالوا : إنّ القضاء هو علم الله السابق بما توجبه أحكام النجوم

---

(١) سورة الفتح ؛ الآية : ٦ .

ويقال : إنّ الرضا بالقضاء هو أوّل أعمال بني آدم الّتي تصعد إلى السماء ، وهو أشرف شرائط الإيمان ، وأفضل خصال المؤمنين ، قال الله سبحانه : **﴿لقد رضي الله عن المؤمنين﴾**[1] وقال : **﴿رضي الله عنهم ورضوا عنه﴾**[2] .

واعلم يا أخي أنّه لا يوجد أحد طيّب النفس بما يجري عليه من أمر المقادير المرّة إلّا العارفون بحرمة الناموس ، ولا يعرف أحد حرمة الناموس كما يجب إلّا الأنبياء عليهم السلام والمؤمنون فإنّهم يعرفون ماهيّة الناموس الإلٰهيّ وشرائط النبوّة ، وكمّيّة خصالهم ، ومذاهب الربّانيّين ، والغرض منها هو التنبيه على أسرارهم في الكتب النبويّة ، ومرامي مرموزاتهم الموضوعة الشرعيّة ، والتهدّي إليها ، وكيفيّة الكشف لها ، ومن الإمام المنتظر . هذا ملخّص معرفة الناموس الإلٰهيّ .

إذا عرفت ذلك فاعلم أنّ الرضا بالقضاء مرتبة عالية ، لا ينالها إلّا الصدّيقون ، فمن علامة الراضي منهم بالقضاء وما تجري به المقادير أنّه ينقاد لحكم الناموس طيّب النفس ، مثل ما انقاد سقراط حكيم اليونانيّين ، وذلك أنّ هذا الحكيم أوجب عليه القاضي القتل بشهادة العدول أنّه واجب قتله بشبهة دخلت على القوم ، فانقاد سقراط للقتل ، طيّبة به نفسه ، فقيل له : هو ذا تقتل مظلوماً فهل لك أن نفديك بفدية أو تفرّ ؟ فقال لهم سقراط : أخاف أن يقول لي الناموس غداً : لِمَ فررت من حكمي ؟ فقالوا له : تقول : لأنّي كنت مظلوماً ، فقال لهم : إن قال لي الناموس : إن ظلمك الشهود الّذين شهدوا عليك بالزور فكان الواجب أن لا تظلمني أنت ولا تفرّ من قضائي وحكمي ، فخصمهم بهذه الحجّة وانقاد للقتل طيّبة به نفسه راضياً بحكم الناموس ، ثمّ قال : من تهاون بحكم الناموس قتله الناس .

وقد انقاد أيضاً قبل سقراط للمقادير أحد ابني آدم إذ قال له أخوه لأقتلنّك قال له هابيل : **﴿لئن بسطت إليّ يدك لتقتلني ما أنا بباسط يدي إليك لأقتلك إنّي**

---

(١) سورة الفتح ؛ الآية : ١٨ .

(٢) سورة المائدة ؛ الآية : ١٢٢ .

أخاف الله ربّ العالمين * إنّي أُريد أن تبوء بإثمي وإثمك﴾[1] فرضي بقضاء الله الّذي هو علمه السابق بالكائنات[2] قبل كونها إذ لا يكون بخلاف ما علم .

ومثل ما رضيت السحرة بقضاء الله لمّا هدّدهم فرعون بالصلب فقالوا له : **﴿فآقضِ ما أنت قاض إنّما تقضي هذه الحياة الدنيا﴾**[3] وذلك أنّ القوم قد علموا بأنّه ليس له سلطان على نفوسهم ، إنّما كان سلطانه على أجسادهم فقالوا : **﴿إنّا آمنّا بربّنا ليغفر لنا خطايانا وما أكرهتنا عليه من السحر﴾**[4] فانقاد القوم للمقادير وسلّموا أجسادهم إلى حكم فرعون طيّبة بها أنفسهم .

ومثل ما رضي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم أُحد لمّا قتل خيار أنصاره وفضلاء المهاجرين وكسرت رباعيّته وجرى عليه من المقادير الفلكيّة ما جرى فقيل : يا رسول الله ! لو دعوت الله على المشركين بالهلاك لما فعلوا بك ، فقال صلى الله عليه وآله وسلم : «رحم الله أخي نوحاً فإنّ غوغاء قومه كانوا ربّما ضربوه فكان يقول : اللّهم لا تؤاخذ قومي فإنّهم لا يعلمون ، وأنا أقول : اللّهمّ اهد قومي فإنّهم لا يعلمون» .

ولمّا بلغ الخبر المدينة بما جرى على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خرج أهل المدينة يتعرّفون خبر إخوانهم فخرجت امرأة من الأنصار تسأل عن زوجها فقيل لها : إنه استشهد ، فسألت عن أبيها ، فقيل لها مثل ذلك ، فسألت عن أخيها فقيل لها مثل ذلك ، إنّهم استشهدوا جميعاً ، فسألت : أليس قد سلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ قالوا : نعم ، قالت : في بقائه عوض عن الكلّ .

ومثل رضاء الحسين عليه السلام يوم كربلاء لمّا اشتدّ به العطش وطلب الماء فقالوا له : تنزل على حكم ابن زياد حتّى نخلّي سبيلك فقال : ولكن على حكم الله ، وعلم أنّه مقتول ، فقاتل حتّى قتل راضياً بقضاء الله ، وبما جرت به المقادير طيّبة بها نفسه .

واعلم يا أخي بأنّ هذه النفوس الطاهرة الزكيّة الّتي تقدّم وصفها إنّما

---

(١) سورة المائدة ؛ الآية : ٣١ .

(٢) في الأصلين : الكائنات .

(٣) سورة طه ؛ الآية : ٧٢ .

(٤) سورة طه ؛ الآية : ٧٣ .

صارت راضية بقضاء الله الّذي هو علمه السابق في خلقه، وصبرت لما جرى عليه المرّة الّتي هي موجبات الرضا ، والفوز بالدرجات العلى ، لما كانوا يرجون من الخير في المنقلب وما ينال من السعادة والروح والراحة بعد المفارقة ، ممّا يقصر الوصف عنها ، وإليها أشار بقوله : **﴿فإنّهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون﴾**[1] وقال تعالى : **﴿فلا تعلم نفس ما أُخفي لهم من قرّة أعين﴾**[2] وقال سبحانه : **﴿إنّما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب﴾**[3] ومن علامة المؤمنين المحقّين ألّا يخافون ولا يرجون إلّا الله كما أنّ الأولاد لا يخافون ولا يرجون إلّا الآباء والأُمّهات ، وهكذا العبيد لا يخافون إلّا من المؤدّب ، والتلامذة لا يخافون إلّا من الأساتذة ، وهكذا الجند لا يخافون إلّا من صاحب الجيش ، والناس كلّهم لا يخافون إلّا من سلطانهم القادر عليهم وعلى نفعهم وضرّهم ، وهكذا الملائكة لا يخافون إلّا من ربّهم ، وهكذا العلماء أيضاً كما حكي عن الملائكة : **﴿يخافون ربّهم من فوقهم ويفعلون ما يؤمرون﴾**[4] وقال : **﴿إنّما يخشى الله من عباده العلماء﴾**[5] والّذين يشاهدونه ويرونه وكما قال تعالى : **﴿والشهداء عند ربّهم﴾**[6] وكما قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حين سأله الأعرابيّ ما الإحسان ؟ فقال : «أن تعمل لله كأنّك تراه فإن لم تكن تراه فإنّه يراك» فهذه الرؤية والمشاهدة هي بعين الحقيقة ، وهي أن لا ترى في الدارين أحداً غيره .

واعلم أنّ من شرائط الإيمان وخصال المؤمنين الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة كما رغّب الله نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم فقال : **﴿وللآخرة خير لك من الأُولى﴾**[7] وقال : **﴿تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة﴾**[8] وقال تعالى : **﴿بل تؤثرون**

(١) سورة النساء ؛ الآية : ١٠٣ .
(٢) سورة السجدة ؛ الآية : ١٧ .
(٣) سورة الزمر ؛ الآية : ١٠ .
(٤) سورة النحل ؛ الآية : ٥٠ .
(٥) سورة فاطر ؛ الآية : ٢٨ .
(٦) سورة الحديد ؛ الآية : ١٩ .
(٧) سورة الضحى ؛ الآية : ٤ .
(٨) سورة الأنفال ؛ الآية : ٦٨ .

الحياة الدنيا * والآخرة خير وأبقى﴾[1] وآيات كثيرة في القرآن في التزهيد في الدنيا والترغيب في الآخرة .

واعلم يا أخي أنّ الإنسان مطبوع على أن لا يترك النفع الحاضر العاجل ويزهد فيه ، ويطلب الغائب الآجل ويرغب فيه ، إلاّ بعد ما يتبيّن له فضل الآجل على العاجل .

واعلم بأنّ الأنبياء والأولياء والأوصياء والمؤمنين إنّما زهدوا في الدنيا وتركوا عاجل شهواتهم ورغبوا في الآخرة ، وطلبوا آجل نعيمها [لمّا تبيّن لهم حقيقة الآخرة ، وعرفوا فضل نعيمها][2] على نعيم الدنيا ، وشاهدوها بعيون قلوبهم ونور عقولهم ، كما شاهد أبناء الدنيا أُمورها بحواسّهم .

واعلم بأنّ الطريق إلى معرفة الآخرة ومشاهدة أحوالها هي الاعتبار والتفكّر في أُمور الدنيا والمقايسة بينها وبين أُمور الآخرة بالعقول السليمة من الآراء الفاسدة ، والنفوس الصافية من الأخلاق الرديئة ، وبنتائج المقدّمات الضروريّة الصحيحة .

بيان ذلك أنّ العاقل اللبيب إذا فكّر في قول الجمهور من الناس وتسميتهم هذه الدار الّتي نشأوا فيها باسم الدنيا ، وذمّهم نعيمها يدلّ على الأُولى ، لأنّهما من جنس المضاف .

ومن وجه آخر : إذا اعتبرت أحوال الناس في الدنيا وجدتهم كلّهم طائفتين : أخياراً وأشراراً .

فأمّا الأخيار فهم الّذين يعملون من الأعمال ما رسم لهم في النواميس الإلّهيّة أو يفعلون ما أوجبته العقول السليمة ، ولا يطلبون على ذلك عوضاً من جرّ منفعة إلى أجسادهم أو دفع مضرّة عنها فعند ذلك يقال : إنّهم أخيار على الإطلاق وإنّهم من أبناء الآخرة . وأمّا الّذين يطلبون العوض ممّا يعملون من

---

(١) سورة الأعلى ؛ الآية : ١٧ .

(٢) زيادة من النسخة (ر) .

الخير والشرّ لجرّ المنفعة إلى أنفسهم أو دفع المضرّة عنها ، ولا يفكّرون في المعاد ، ولا يرجون في الآخرة الخير ، ولا يخافون العقاب ، ولا يهمّهم أمر النفس والنظر في حالها بعد الموت فيقال عند ذلك : إنّهم أشرار وإنّهم من أبناء الدنيا .

ووجه آخر ، إذا اعتبروا أحوال هؤلاء الأخيار الّذين تقدّم ذكرهم وأنّهم قد أفنوا أعمارهم كلّها فيما وصفنا من أفعال الخير ، ثمّ ماتوا ولم يحصل لهم عوض على ما عملوه قبل الموت ، فتعلم العقول وتقضي بالحقّ أنّ ذلك لا يضيع عند الله سبحانه ، فيصحّ بهذا الاعتبار أنّ بعد الممات الّذي هو مفارقة النفس الجسد حالة أُخرى تجازى فيها نفوس الأخيار ، وهي تسمّى دار الآخرة .

وهكذا إذا اعتبرت حال الأشرار الّذين سعوا في الأرض بالفساد طول أعمارهم ، ثمّ ماتوا ولم يعاقبوا على ما فعلوا ، فتعلم العقول وتقضي بأنّ هؤلاء لم يفوزوا ، وأنّ حالهم بعد الممات ليس كحال أُولئك الأخيار ، وذلك قوله تعالى : ﴿**أم حسب الّذين اجترحوا السيّئات أن نجعلهم كالّذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء محياهم ومماتهم ساء ما يحكمون**﴾[1] .

واعلم يا أخي أنّ العلوم كلّها شريفة ونيلها عزّ ، ولكن أشرفها وأعزّها وأجلّها هو معرفة الإنسان نفسه وحقيقة جوهر ما يتصرّف الإنسان به ، حالاً بعد حال إلى أن يبلغ إلى أقصى مدى غاياته ، الّتي هو قاصد نحوها ، وهو أن يتّقي ربّه ، إمّا في الدنيا قبل الممات وإمّا في الآخرة بعد الفراق .

واعلم يا أخي بأنّ هذا الباب من العلم هو لبّ الألباب ، وجذر العلوم ، وعنصر الحكمة ، فاجتهد في طلبه ، فإنّك به تنال شرف الدنيا والآخرة ، ولكن نريد أن نذكر في هذا الفصل أشرف الأُمور الّتي ينالها الإنسان ، وأعلى رتبة يبلغ إليها قبل الموت ما هي ، ولكن قبل ذلك نحتاج أن نبيّن أوّلاً ما الإنسان ، إذ كان من أعجب الموجودات الّتي تحت فلك القمر وأشرفها تركيباً ، وأحسنها صورة ، ثمّ نخبر بعد ذلك عن الأُمور الّتي ينالها ويبلغ إليها فنقول :

---

(١) سورة الجاثية ؛ الآية : ٢٠ .

إنّ الإنسان إنّما هو جملة مجموعة من جسد جسمانيّ في أحسن الصور ، ونفس روحانيّة من أفضل النفوس .

واعلم يا أخي بأنّ لكلّ واحد من جزءيه غاية ينتهي إليها ، ونهاية إليها يرتقي فأعلى رتبة ينالها الإنسان بجسده ، وأشرف منزلة يبلغها ببدنه هي سرير الملك والسلطان على أجساد أبناء جنسه ، والقهر والغلبة بالقوّة الغضبيّة . فأمّا أعلى رتبة ينالها الإنسان من جهة نفسه وأشرف درجة يبلغها بصفاء جوهرها فهي قبول الوحي الّذي به يعلو الإنسان على سائر أبناء جنسه ، وبه يغلبهم بما يدركه من المعارف الحقيقيّة بالقوّة الناطقة ، ولمّا تبيّن أنّ النفس أشرف جوهراً من الجسد صارت الرتبة الّتي ينالها الإنسان بنفسه أشرف وأعلى من الّتي ينالها بجسده ، لأنّ هذه جسمانيّة دنياويّة ، وتلك روحانيّة أُخراويّة .

ولمّا تبيّن أنّ الوحي هو أشرف موهبة ينالها الإنسان في الدنيا أردنا أن نبيّن ما الوحي ، وكيفيّة قبول النفس له ، فنقول : إنّ الوحي هو الإنباء عن أُمور غائبة عن الحواسّ تنقدح في نفس الإنسان من غير قصد منه ولا تكلّف .

وأمّا قبول النفس الوحي فعلى ثلاثة أوجه : منها ما يكون في المنام عند ترك النفس استعمال الحواسّ ، ومنها ما يكون في اليقظة عند سكون الجوارح وهدوء الحواسّ وهما نوعان : إمّا استماع صوت من غير رؤية شخص ، وإمّا رؤية شخص بإشارات وإيماء ، قال الله سبحانه : **﴿وما كان لبشر أن يكلّمه الله إلّا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء﴾**[١] وسنوضح كيفيّة كلّ واحد من هذه الوجوه الثلاثة . ونبدأ أوّلاً بوصف قبول النفس الوحي في المنام كيف يكون ، إذ هذا الباب هو أعمّ وأكثر ، ثمّ نذكر الّذي في اليقظة إذ كان أخصّ وأقلّ ، فنقول أوّلاً ما النوم وما الرؤيا :

فالنوم هو ترك النفس استعمال الحواسّ ، والرؤيا هو تصوّر النوم ، ورسوم المحسوسات في ذاتها وتخيّلها للأُمور الكائنة قبل كونها بالقوّة الفكريّة في حال النوم ، وسكون الحواسّ وسنوضح هذا فيما سيأتي ، ولكن من أجل أنّ قوماً من

---

(١) سورة الشورى ؛ الآية : ٥١ .

أهل الجدل ينكرون أمر النفس أنّها جوهرة ، ويجحدون وجودها احتجنا أن نبيّن ما النفس وما حقيقة جوهرها وما الدليل على وجودها ، فنقول أوّلاً :

إنّ النفس هي جوهرة روحانيّة حيّة علاّمة فعّالة . فأمّا الدليل على ما وصفنا فهو أكثر من أن يحصى ، لكن نذكر بعضها هنا ، فنقول :

إنّ من الدليل الواضح على أنّ مع جثّة الحيوانات جوهراً آخر هو غير جسمانيّ وهو ما يظهر من أجسادها من الحسّ والحركة والأصوات والأفعال في حال الحياة ممّا لا خفاء به ، وفقدها كلّها في حال الممات دليل على مفارقة تلك الجواهر الشريفة لأجسادها .

ومن الدليل أيضاً على وجود النفس مع الجسد وفراقها إيّاه بعد الموت بكاء الناس على موتاهم وحزنهم على فراق تلك النفوس ، فإن كان هذا الحزن والبكاء إنّما هو على هذه الأجساد فما لهم والبكاء والأجساد عندهم برمّتها ؟ ولو أرادوا حفظها من التغيّر والفساد لكان ممكناً بأدوية تطلى عليها كالصبر والكافور والعسل وما شاكلها ، ولكن لا ينفعهم ذلك من الحزن وقد فارقتها تلك الجواهر النفيسة .

ومن الدليل أيضاً على أنّ النفس جوهرٌ أفعالها الصادرة عنها من غير أن تستعمل آلات الحواسّ وحركات الجوارح ، وذلك أنّ الإنسان إذا أراد أن ينظر في علم غامض أو يبحث عن معنى دقيق حتّى يفهمه احتاج أن يسكن حركات جوارحه ، ويترك تأمّل المحسوسات ، ويغوص في فكره حتّى يمكنه أن يتصوّر ذلك الشيء ، ويفهم ذلك المعنى ، فإذا فعل ذلك على ما وصفنا فربّما اجتاز به من يسلّم عليه ، أو كان بحضرته من يكلّمه ، فلا يسمع ولا يحسّ ما دام غائصاً في فكره ، يعرف حقيقة ما قلنا كلّ عاقل ارتاض في علم من العلوم .

فإن قال قائل : إنَّ النفس وإن كانت في مثل هذه الحالة قد تركت استعمال الحواسّ وتحريك الجوارح ، فإنّها لم تترك استعمال البدن كلّه ؛ لأنّ الفكر لا يكون إلاّ بتوسّط الدماغ ، كما أنّ البصر لا يكون إلاّ بالعين ، والسمع لا يكون إلاّ بالأذن . وكذلك سائر الحواسّ .

فلعمري إنّ القول كما قال ، ولكن إنّما أردنا أن نبيّن بهذا المثال أنّ النفس جوهرة فاعلة ، وإنّما هي المستعملة للدماغ والقلب وسائر الحواسّ والجوارح ، وأنّ هذه آلات لها ، وأدوات تظهر بها بعض أفعالها ، ولكن لها أفعال أُخر لا تحتاج فيها إلى أدوات جسدانيّة ولا آيات جسمانيّة وهي رؤيتها للمنامات وعجائب تصاريفها ممّا يراه أكثر الناس من الرجال والنساء والصبيان ، والعلماء والجهّال ، والأخيار والأشرار جميعاً من الأُمور الّتي يرون في حال اليقظة مثلها .

ومن ذلك ما ذكر أنّ ابن ملك وقع في أسر عدوّ له ، فاستعبده وكلّفه من الخدمة أشدّها ، ومن الأعمال أشقّها مع قلّة المطعم والمشرب والعري والضرب والاستخفاف حتّى نحل جسمه ، وضعفت قواه ، وهرم شبابه ، وكلّ سمعه وبصره ، واسترخت مفاصله ، واعتقل لسانه ، ثمّ حبسه في مطمورة ضيّقة مظلمة ، فطال حبسه واشتدّ جوعه وعطشه ، وغمّه وحزنه ، حتّى غشي عليه من شدّة الجهد والبلوى والضرّ الّذي هو فيه ، فبينا هو ذات ليلة مفكّر فيما هو فيه من البلاء والشقاء والجهد إذ نام ، فرأى فيما يرى النائم كأنّه في دار مملكته على سرير عزّه ، وقد رجعت إليه أيّام شبابه وقوّة بدنه ، وطراوة جسمه ، وصحّة حواسّه ، ونشاط شهواته ، وكأنّه في بستان من بساتينه كثير الأشجار ، تجري من تحتها الأنهار ، وعلى حافاتها رياحين وأزهار ، وأنوار يسطع منها ، ويفوح منها نسيم كنسيم الجنان ، وإذا هو بفتيان شباب أتراب إخوان له من أولاد الملوك ، عليهم لباس الجمال ، وهم قعود على كراسيّ موضوعة على حافات تلك الأنهار ، بأيديهم التحف يحيّي بعضهم بعضاً بالسلام ، وكأنّهم لمّا رأوه ورآهم ، استبشروا به لطول غيبته ، وفرح بهم لبعد غربته ، وكانوا قد رفعوه في صدر المجلس ، وأقبلوا عليه بالتحيّة والسلام ، وقد داخله من الفرح والسرور واللذّة ما لا يوصف ولا يقاوم .

فإذاً ترى يا أخي أيّما خير لذلك الإنسان وأحبّ إليه ؟ أن يبقى طول الدهر نائماً ملتذّاً مسرورا فرحاناً بما ترى نفسه في ذلك المنام ، أو ينتبه فيحسّ بدنه بما فيه من تلك الآلام ؟ وماذا يقول من يزعم أنّ الإنسان إنّما هو الجسد وأنّ

النفس لا حقيقة لها ولا وجود ، والآلام واللذّات والفرح والسرور والغمّ والحركات كلّها إنّما ينالها الجسد ، فليت شعري لمَ لا ينال الجسد في حال النوم ذلك الألم والحزن وسائر ما به من الجهد والبلوى ، وهو موجود برمّته ، وتلك الأحوال باقية عليه ، ولازمة له عند رؤيا نفسه هذا المنام ، ونيلها ذلك الفرح والسرور .

وذكروا أيضاً أنّ رجلاً بالعراق أصلح مجلساً للشراب ، ودعا إخواناً له ، فلمّا فرغوا من الأكل ، وقعدوا على شرابهم ، وارتفعت أصوات العيدان والمزامير ، ودار الشراب فيهم وطربوا تأمّل رجل منهم عند ذلك ما هم فيه من اللذّة والفرح والسرور ، فرأى داراً ، وستوراً معلّقة ، وفرشاً منضّدة ، وأواني حساناً ، وفواكه ورياحين ، وشموعاً تزهر ، ومجامر مسجورة تسطع ، قد امتلأ حول ذلك الإيوان من الضياء والروائح الزكيّة والنغم ، ورأى فتياناً عليهم زيّ الجمال ولباس الكرامة ، وسادة عظماء ، وإخواناً متقابلين ، منغمسين في تلك اللّذّات ، فبقي مفكّراً متعجّباً ، ممّا يرى ويسمع ويشمّ من تلك المجالس البهجة واللّذّات المنعمة للأجساد ، السارّة للنفوس ، الممتّعة للحواسّ ، المفرّحة للأرواح ، فلم يزل باهتاً حائراً يجيل فكره وطرفه فيما يرى ويسمع ، حتّى غفت عينه ، وغرق في نومه حتّى لم يكن يحسّ بشيء ممّا كان في ذلك المجلس من المحبوبات ، ولا بما كان فيه من تلك الأفكار .

فرأى فيما يرى النائم ، كأنّه في بلاد الروم في بيعة[١] من بيعهم ، وإذا بها مشتعلة القناديل المنقوشة بأنواع التصاوير ، مملوءة من الصلبان والرهبان ، وكأنّه بقسّيسين عليهما ثياب من المسوح وعلى أوساطهما مناطق من السيور[٢] ، وبأيديهما مجامر معلّقة ، يطرحونها ويبخّرون فيها بالقسط[٣] والكندر ، وكأنّهم يقرأون بكلمات لهم شبه التسبيح ويلحنونها ويكرّرونها ، فلم يزالوا كذلك حتّى

---

(١) البيعة بالكسر : المعبد للنصارى واليهود .

(٢) جمع السير : قطعة مستطيلة غير عريضة من الأديم المدبوغ .

(٣) بضم القاف ، عود يتداوى به .

حفظها من طول تكرارهم إيّاها ، وأتقنها إتقاناً محكماً وهي هذه «كسى دشحوه بليلا واثا انكد ميشين حيا انون وينشي وظلم شيحاريا افكذحين ميثا انون» معناها بالعربيّة : إنّ الأخيار الّذين يسبّحون في لياليهم هم أحياء عنده وإن كانوا قد ماتوا ، فأمّا الأشرار الظلمة فهم موتى عند الله وإن كانوا أحياء» وكأنّه بأساقية بأيديهم أقداح مملوءة خمراً ، ومناديل فيها أقراص ، وبرهبان يفرّقونها على من حضر ، ويحسونهم[1] من ذلك الخمر . وكأنّه قد تناول من تلك الأقراص واحدة بحرص ورغبة ، وتحسّى من ذلك الشراب شيئاً من شدّة ما يجده من الجوع والعطش ، وهو بعد لم يستمر طعامه بالعراق .

ثمّ ما زالت تلك حاله وهو متفكّر متعجّب كيف يكون وقع بالروم ، وكيف حصل في تلك الكنيسة ، وكيف له بالرجوع إلى العراق مع طول المسافة ، وكأنّه قد تذكّر إخوانه ومجلسهم وما كانوا فيه من اللّذة والسرور ، وقد اشتدّ تشوّقه إليهم ، وضجر بمكانه وما رآه من الأشياء المخالفة لسنن شريعته ، المتضادّة لعادته وطبيعته ، فمن شدّة ضيق صدره وتضجّره ممّا هو اضطرب في منامه فانتبه ، فإذا هو بالعراق في مجلسه ومكانه بين إخوانه وتلك الشموع تزهر ، والملاهي تخفق ، والروائح تسطع ، وسائر الأُمور الّتي تأمّلها قبل نومه بجملتها وعلى حالها لم يتغيّر منها شيء .

فقل يا أخي لمن يزعم أنّ النفس لا حقيقة لها وأنّ الحسّاس الدرّاك الّذي يعلم الأشياء ويفكّر فيها ويروّي هو هذا الجسد وحسب ، ولا شيء آخر معه ، وليت شعري من ذهب إلى الروم ، ورأى تلك الأُمور في تلك الكنيسة وأكل وشرب وحفظ تلك الكلمات ؟ الجسد أم النفس ، وقل لي : من كان حاضراً بالعراق في ذلك المجلس النفس أم الجسد ؟ وقل لي : لو لم يكن الجسد في حال النوم يحسّ بتلك المحسوسات الّتي كانت معه في ذلك المجلس ، من الأصوات والضياء والروائح ، وهو موجود هناك برمّته بعينين ومنخرين وأُذنين .

---

(١) أحساه الخمر : أشربه إياه شيئاً بعد شيء .

فإن زعم أنّ المنامات لا حقيقة لها فماذا يقول ليت شعري في قول الله سبحانه : **﴿لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحقّ لتدخلنّ المسجد الحرام إن شاء الله آمنين﴾**[1] وقوله تعالى : **﴿وما جعلنا الرؤيا الّتي أريناك إلّا فتنة للناس﴾**[2] وقول يوسف الصدّيق **﴿هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربّي حقّاً﴾**[3] وقول إبراهيم خليل الرحمن لابنه : **﴿إنّي أرى في المنام أنّي أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر﴾**[4] فلو لم يكن إبراهيم يعلم أنّ المنامات لها حقيقة وأنّ حكم الرؤيا صحيح لما كان يقدم على ذبح ابنه برؤياها في منامه ، وكذلك إسماعيل أيضاً لو لم يعلم صحّة ذلك لما قال : **﴿يا أبت افعل ما تؤمر﴾** ولم يستسلم للذبح وقول النبيّ ﷺ[5] : «الرؤيا الصادقة جزء من ستّة وأربعين جزءاً من النبوّة» وقوله ﷺ : «إنّ الوحي قد ارتفع وإنّما بقي الرؤيا جزءاً من أجزاء النبوّة» .

فلو علم من زعم أنّ المنامات لا حقيقة لها أنّ أكثر الأنبياء كانوا يقبلون الوحي في المنام عند ترك النفس استعمال الحواسّ لما قال هذا القول ، ولما أنكر وجود النفس .

هيهات لقد جهل أشرف العلوم ، وخفي عليه أجلّ المعارف ، وبعد من الصواب ، وحرم أجلّ المواهب من يزعم أنّ المنامات لا حقيقة لها ، وأنّ النفس ليس لها وجود .

ولكن على كلّ حال نسأل الله أن يهديهم ويشرح صدورهم ليفهموا لطائف العلوم ودقائق الأسرار فإنّه من لم يهده الله فلا هادي له ، ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور .

وذكروا أنّ رجلاً من المترفين وأصحاب النعم الجسام ، كان قد بسطت له

---

(١) سورة الفتح ؛ الآية : ٢٧ .

(٢) سورة بني إسرائيل ؛ الآية : ٦٠ .

(٣) سورة يوسف ؛ الآية : ١٠٠ .

(٤) سورة الصافات ؛ الآية : ١٠٢ .

(٥) رواه الغزالي (٤ : ٥٠٤) .

الدنيا ، ومكّن منها أحسن تمكين ، وكان قد جعل وكده وجهده ، وصرف كلّ عنايته وهمّته في ترفيه جسده ، وتلذيذ عيشه وتنعيمه واتّباع شهواته ، حتّى لم يكن له شغل طول عمره ومدّة حياته إلاّ ذاك ، ولا همّة سواه ، فهو بين دخول حمّام ، وتمريخ جسد ، وتغيير لباس ، واستعمال طيب ، وأكل لذيذ ، وشرب بارد ، وشمّ ذكيّ ، وتنقّل من مجلس إلى مجلس من مجالس لهوه ، وتجديد لذّاته ، وإصلاح شهواته ، فلم يكن يأكل إلاّ أطيب الطعام ولا يلبس إلاّ أنعم الثياب ، ولا يجلس إلاّ على أوطإ العروش ، ولا ينام إلاّ على ألين المراقد على سرير معلّق في الهواء وسط قبّة له يستظهر بذلك من دبيب يقرصه ، أو غبار يصيبه ، فعاش كذلك زماناً طويلاً حتّى اشتهر في الناس أمره وصار علماً في طيب عيشه ولذيذ شهواته ، وجعل الراغبون في شهوات الدنيا يتمنّون حاله ، ويغبطونه بما هو فيه من لذّة عيشه ، وتشبّه به المترفون من أهل زمانه ، وأرباب النعم من أهل بلده كلّ واحد منهم بحسب إمكانه واتّساع حاله حتّى صار ذلك الرجل قدوة لطالبي اللّذات في اتّباع الشهوات ولم يكن مع هذه الحالة يعرف شيئاً من تهذيب نفسه وإصلاح أخلاقه ، ولا له فقه في دين ولا عنده شيء من التزوّد لآخرته ولا تفكّر في معاده ولا رغبة في علم ولا طلب لأدب ، ولا تصوّر لزوال الدنيا وتغيّرها ، ولا ذكر للموت ، بل كان بكلّيّته موفّراً على تنعيم جسده وإصلاح أمر دنياه ، مقبلاً على اتّباع شهواته محتقراً لأُمور الناس ، معجباً بنفسه وحاله ، زارياً[1] على من دونه ، معرضاً عن الفقراء ، مباعداً لأهل العلم ، متهاوناً بأمر الدين منافياً للصالحين .

ثمّ إنّ الله سبحانه أحبّ إرشاده وتنبيهه من نوم غفلته ، ورقدة جهالته ، وأن يري العباد قدرته ، ويجعله عبرة لغيره وعظة لمن يراه .

فبينا هو في بعض الليالي نائماً على فراشه فوق سريره معانقاً لبعض خطاياه ، في أسرّ ما كان وأهنئه ، وآمنه لحوادث الدهر والزمان ، وطوارق الحدثان ، وأبواب قصره مغلقة دونه ، والسدول مسدولة من حوله ، والشموع

---

(١) زراه : عاتبه وعاب عليه .

تزهر بين ضبائر[١] الريحان وأطباق الفواكه ، وأواني الطيب الفاخر ، والخمور الخمرة ، وعلى أبواب قصره خدم وعبيد يحرسونه والغلمان والجواري مطيفون بسريره ، إذ رأى فيما يرى النائم أنّه في برّيّة قفر وحده وهو عريان جائع عطشان ، وبدنه مسودّ ، وشعره طويل ، وجسده ملوّث برجيع ما في جوفه وعلى ظهره ثقل ثقيل ، وكأنّه بأسودين منكرين مشوّهي الخلقة ، طويلي القامة ، تبرق أعينهما ، والدخان يخرج من مناخرهما ، ولهيب النار من شدقيهما ، وبأيديهما حربتين حادّتين[٢] ، وهما يهويان نحوه ويريدانه ، وكأنّه لمّا رآهما ولّى هارباً من بين أيديهما وجعلا يتبعانه ويسيران في أثره ، حتّى إذا أمعن في هربه إذا هو بجبل شاهق وعر المسلك صعب المرتقى ، فيه طريق ضيّق ، فسلكها بمشقّة شديدة وعناء طويل ، حتّى انتهى إلى قلّة الجبل وكأنّه قد أهوى من الجانب الآخر على أُمّ رأسه إلى واد سحيق عميق في بئر في قعر ذلك الوادي ، يخرج منها دخان معتكر يأخذ بالأنفاس ، ولهب يشوي الوجوه ، والأسودان على ذلك في أثره لا يفارقانه .

فمن هول ما رأى ، وعظم ما عاين وشدّة ما لقي صرخ صرخة في منامه ، فانتبه وانتبه جميع من كان في قصره واضطرب اضطراباً شديداً ، حتّى وقع من سريره على الأرض مذعوراً دهشاً حائراً من عظم ما أصابه ، فبادر حشمه وجواريه وغلمانه نحوه ، وكلّ من كان في قصره ، وسائر جيرانه ، فوجدوه قد طاش لبّه وذهل ، فاختلط عقله ، وشخصت عيناه ، واعتقل لسانه ، ترتعد فرائصه فاجتمعوا حوله يسألونه الّذي دهاه ، وماذا أصابه ، وهو صامت في غمراته لا يردّ جواباً ولا يطيق حراكاً بقيّة ليلته ، فلمّا أصبح جمع له المعزّمون والراقون[٣] من كلّ مكان ، وظنّوا أنّ الّذي أصابه لمم الجنّ ، أو سحر من الأعداء والحسدة ، أو طيف من الشيطان .

فلمّا رأى الراقين من حوله قال : يا قوم مهلاً فليس بي شيء ممّا تظنّون ،

---

(١) جمع الضبارة ؛ كل مجتمع .
(٢) الصحيح : حربتان حادتان .
(٣) المعزم : من يعالج بالعزائم ، والراقي من يرقو .

ولكنّي رأيت في منامي رؤيا هـائلة ، هي الّتي أفزعتني وهـالتني حتّى صرت إلى ما ترون ، فعليّ بـالمعبّرين ، فلمّـا أتوه قصّ عليهم رؤيـاه ، فقال قـائل منهم : هذه أضغاث أحلام ، وقال آخرون : بل هذا إنّما عرض من خلط سوداويّ غليظ غلب على مزاجه ، وآخر قال : لا بل فكر رديء وتخيّل فاسد ، وبعضهم قال : لمم من الجنّ ، وقـال آخر : هـو خبط من الشيطان ، وجعلوا يـرجمون الـظنون بقيّة النهار حتّى جنّهم الليل .

فلمّا جنّ الليل جمع حشمه وخدمه وغلمانه وأقرباءه وأمـرهم بأن يجتمعـوا وينامو حول سريره وفراشـه كعادتـه ، وجعلوا يرقـونه ويعـوّذونه ويقـرأون عليه ، ويبخّرون حوله بأصناف الدخن حتّى غرق في نومـه ، فلمّا كـان ذلك الـوقت من اللّيل بعينه فإذا هو بتلك الرؤيا بعينهـا لم تخفّ ، بل أهـول وأعظم ممّـا كان رآه أوّل مرّة فصرخ صرخة وسقط عن سريره وأفزع بصرخته كلّ من كان حولـه وتبادر كلّ نحوه وجعلوا يسألونه ، وهو يرعد كالسعفة في يوم ريح عاصف ، لا يهدأ من شدّة رعبه ، وهو على ذلك من حاله بقيّة ليلته لا ينام من حوله وجعاً له .

فلمّـا أصبح تسـامـع النـاس بخبـره وجمـع لـه الأطبّـاء ، فجعلوا يصفـون الأدوية ، ويأمرونه بالاستفراغ والحمية والعلاجات الّتي يظنّونها نافعة من مثـل ما عرض له ، ففعل كلّ ما أشاروا به ، وأمروه باستعماله فما انتفع به شيئاً .

فلمّا كان الأُسبـوع الداخـل في مثل تلك اللّيلة في ذلـك الوقت من اللّيـل بينا هو نائم إذ رأى تلك الرؤيا بعينها بل أعظم وأهول ، فانتبه مرعوباً كعادته فمـا زال كذلك حتّى الصباح .

وجمع له المنجّمون والعرّافون فسألهم عن موجبات أحكام النجوم فقالوا : إنّ مثل هذا إنّما يعرض لبعض الناس من أجل ما يكون في أصل مولده واستيلاء النجوم على درجة طالعه ، أو أحد الأوتاد في تحويل السنين أو الشهـور ، قال : فمـا دواء ذلك والمنجي منـه ؟ قـالـوا : نختـار يـومـاً يكـون فيـه القمـر متّصـلاً بالصعود ، وطالعاً جيّداً تكون السعود في الأوتاد والنحوس سواقط عنها ، فيتحوّل حينئذ من بلد إلى بلد أو من محلّة إلى محلّة ، أو من دار إلى دار ففعل ذلك فما

أغنى عنه شيئاً ، فلمّا أعياهم الدّاء إذ لم يقفوا على دواء وشفاء ، وفشا حديثه في الناس ، وانتشرت به الأخبار في البلاد ، وصار الرجل عند الناس بموضع رحمة بعد ما كان مغبوطاً ، وعبرة بعد أن كان معافى محسوداً ، وأصبح الّذين كانوا يتمنّون مكانه بالأمس خائفين أن ينزل بهم مثل ما نزل به ، أو يصيبهم كالّذي أصابه من البلاء والمحنة ، وجعل أهل المدينة في محالّهم ومحافلهم وأسواقهم ليس لهم غير حديثه ، ولا تعجّب إلاّ من قصّته وأمره ، ولا عظة إلاّ ما أصابه .

فبينا يوماً جماعة من إخوانه وإخوته جلوس يتفاوضون حديثه إذ مرّ بهم رجل يعرف بالناسك ، وكان من أهل العلم والدين ، ومن قد جمع له العلم والإيمان ، فسلّموا عليه وقالوا له : كيف غمّك على فلان جارك ؟ قال : كغمّ أب شفيق طبيب على ولد عليل ، قالوا : وكيف ذلك ؟ قال : لأنّ عندي تأويل رؤياه ، والشفاء من دائه ، قالوا : فلمَ لا تقصده وتعرفه ؟ قال : لأنّه لا يسمع قولي ، ولا يقبل نصحي ، قالوا : ولمَ ؟ قال : لأنّه من أزهد الناس في جيرانه ، ولكنّي أخبركم وعرّفوه أنتم ولا تذكروني له ، فإنّني أخاف أن لا يقبل رأيي ومشورتي احتقاراً لي واستهانة بما أقول من غير يقين فلا ينتفع به قالوا : فعرّفنا نسمع ما تقول ، قال :

أمّا ما رأى من البرّيّة فهي براءته من الدنيا ، وتبرّيها منه يوم موته .

وأمّا الفقر فافتقاره بعد الموت وشدّة حاجته إلى الزاد لطريق الآخرة .

وأمّا عراه فتعرّيه من الأعمال الصالحة .

وأمّا جوعه وعطشه فهو حرصه ورغبته على شهوات الدنيا .

وأمّا سواد بدنه فهو سواد وجهه عند الله بسوء أعماله .

وأمّا طول شعره فهو شعوره بحزن طويل في الآخرة . وأمّا تلوّث جسده برجيع ما في جوفه فهو خوف واكتئاب يناله في الآخرة ، يتمنّى من أجله الرجعة إلى دار الدنيا ولا سبيل له إلى ذلك .

وأمّا الثقل الّذي على ظهره فثقل أوزاره وسوء أعماله .

وأمّا الشخصان الأسودان المنكران فمنكر أفعاله ونكير أخلاقه ، من سوء عادته لا يفارقان نفسه ، بل يتبعان نفسه حيث ما ذهبت .

وأمّا الجبل فجبلّته وعادته الّتي هو عليها ، وشهوته مشقّة وثقل يناله بعد الموت إلّا أن يتوب ويرجع إلى الله .

وأمّا المسلك الوعر فطريق الآخرة الّتي لا بدّ من سلوكها بتعب وعناء .

وأمّا الوادي فهو وادي جهنّم ، والبئر المهول الهاوية الّتي إليها مصير نفوس الأشرار وأرواح الفجّار .

فعرّفوه ما سمعتم وقولوا له أن بادر وتدارك وتداوَ قبل الموت وإلّا سيكون مصير نفسه إلى هناك بعد الموت ، فإنّ الله تعالى أراد بهذه الرؤيا أن يعظه وينذره ويذكّره ليتوب ويرجع عمّا هو فيه من الغفلة عن أمر الآخرة والحرص على هذه الدنيا الفانية قالوا : فما دواؤه ؟ قال : ينوي نيّة صادقة ، ويعزم عزماً صحيحاً ، ويرجع إلى الله ويتوب ممّا قد سلف ويتصدّق بفضول ماله على الفقراء والمساكين ، ويلبس الخشن من الثياب ويقنع منها بما يواري العورة ، ويصوم في كلّ أسبوع يوماً أو يومين ، ويمشي إلى المساجد خاشعاً ويتفقّه في الدين ، ويستعمل القرابين[١] ، ويصلّي في ظلم الليل ، ويستغفر الله بالأسحار ، ويذكر الله آناء الليل وأطراف النهار ، ويدعوه ويسأله ، فلعلّه أن يكشف عنه ما به إن شاء الله .

فقام القوم من ساعتهم حتّى دخلوا عليه فعرّفوه ما أصابه ، وما هو خائف مترقّب له ، ثمّ أخبروه بما قال لهم الناسك ، قال لهم : من أين لكم هذا التأويل ، ومن وصف لكم هذا الدواء ؟ قالوا : أخبرنا به العالم بأمور الدين ، الصادق النصوح الّذي لا نشكّ فيما قاله .

فقبل قولهم ، وجمع جماعة من العلماء والفقهاء وأهل الدين ، وسألهم

---

(١) جمع القربان : ما يتقرب به .

عمّا قيل له فقالوا : حقّاً ما قاله ، وصواباً ما وصف ، فسألهم عند ذلك عن التوبة النصوح كيف تكون ، وعن فقه الدين وطريق الآخرة وأمر المعاد وصفة الجنان ، وثواب الأخيار ، وإلى أين ينقلب الأشرار ، فجعلوا يصفون له من ذلك ما هو مذكور في الكتب النبويّة والعلوم الإلّهيّة ، فحسن قبوله لما قالوا له ، وفعل كما أمروا به ، وهو مع ذلك بين شكّ ويقين وخوف ورجاء .

فلمّا كان من الأُسبوع الداخل مثل ذلك اليوم صام نهاره وتصدّق عند إفطاره ، وأكل من الطعام يسيراً قدر ما أقام رمقه ، وقام يصلّي ليلة حتّى إذا كان ذلك الوقت بعينه فبينا هو ساجد يقدّس الله ويسبّحه ويتضرّع إليه إذ غلبه النوم فرأى في منامه كأنّه في تلك البرّيّة بعينها ، وكأنّها قد اخضرّت بالعشب والكلاء ، وقد تفتّحت بين رياضها أزهار الرياحين ، وفاح منها زكيّ المسك ، وكأنّه قد أوفى على رأس شرف ، عليه عين من ماء عذب زلال ، وكأنّه قد اغتسل من مائها ، وقد تناثر عن بدنه ذلك الشعر ونقى جسده من ذلك الدرن[1] وكأنّه قد لبس أثواباً جدداً يفوح منها روائح الطيب ، وكأنّه بشخصين قائمين أمامه كأنّهما صورتان من النور تشفّ أبدانهما ، عليهما ريّ الجمال ، ومحاسن الكمال ، ورونق الشباب ، وهيئة الوقار ، وهما يتبسّمان في وجهه ، وكالمشيرين إليه أن انظر أمامك ، فتأمّل فإذا هو بفضاء فسيح يقصر الطرف دونه ، والنور المشرق قد ملأ آفاقه وأخذه بأقطاره ممتدّاً إلى عنان السماء ، وكأنّه في ذلك الفضاء والنور بأنهار مطّردة بين رياض بهجة وأزهار مفتّحة ، وأنوار ورياحين تفوح ، كروائح المسك الأذفر والكافور والعنبر ، وإذا تلك الأنهار تجري على أرض بيضاء حصباؤها الدرّ والياقوت والمرجان ، وترابها الزعفران ، وكثبانها الزمرّد والعقيان[2] ، وعلى حافات تلك الأنهار أشجار كأنّ أوراقها الحرير والسندس والأُرجوان ، فإذا هبّ عليها النسيم تخشخشت أوراقها بأصوات طيّبة مطربة كأنّها نغمات أوتار العيدان ، وبين تلك الأوراق أغصان ، عليها من الثمار المتدلّية المفنّنة الأشكال والطعوم والألوان ، وإذا بين تلك الأشجار قصور شاهقة

---

(١) بالتحريك ، وسخ الثوب وغيره .

(٢) جمع العقيق .

كأنّها جبال الرخام مبنيّة من اللجين والعقيان والياقوت والمرجان بأبواب مفتّحة ، وصحون واسعة ، وإيوانات متقابلة ، فيها أسرّة[1] موضوعة على فرش مرفوعة ، وأكواب[2] موضوعة ، ونمارق [3] مصفوفة ، وزرابيّ مبثوثة[4] بينها سادة كرام إخوان متقابلون ، على الأرائك متّكئون ، يطوف عليهم الولدان والحور الحسان ، بصحاف من ذهب وأكواب ، وفيها ما تشتهي الأنفس وتلذّ الأعين ، من التحف الطرائف عليهنّ الحليّ والحلل والتيجان والأكاليل ، وإذا هناك من الجمال والكمال ما لا عين رأت ، ولا أُذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، وما تحار الأبصار من حسنه وتعجز الألسنة عن وصفه ، فلمّا رأى من ذلك المنظر البهيج المنيف وتلك المحاسن البهجة قال لصاحبيه : ما هذه ؟ قالا : هي الجنّة الّتي وعد المتّقون ، قال : وما الجنّة ؟ قالا : دار السلام والمقام والقرار ومستقرّ نفوس الأخيار والأبرار ، قال : فهل إليها من سبيل ؟ قالا : نعم ، قال : كيف السبيل إليها ؟ قالا : تدوم على ما أنت عليه حتّى الموت ، فإنّ نفسك إذا دمت وصبرت ستصير بعد فراقها لجسدك إلى ما هٰهنا ، ويحصل لها من لذّة العيش وصفو النعيم والسرور الّذي لا يشوبه حزن ، ولا تنقيص فيها، ولا انقطاع لها ولا فناء ، أبد الآبدين فاسفرّ عند ذلك من الطرب والفرح فيما رأى وسمع من طيب ما بشّر به .

فانتبه من نومه دهشاً ، وجعل يفكّر فيما رأى وسمع ، ويتمنّى أن ينام لعلّه يرى تلك الرؤيا مرّة أُخرى ، بعد أن كان خائفاً أن ينام لئلاّ يرى تلك الرؤيا الأُولى .

فلما أصبح تصدّق بجميع ماله ، وأعتق كلّ عبد كان له ، وسرّح نساءه ، ولبس أطماراً من المسوح ، وانفرد بنفسه ، وخلا بعبادة ربّه صائماً نهاره ، ساهراً

---

(١) الأسرة جمع السرير .

(٢) جمع الكوب : قدح لا عروة له .

(٣) النمارق جمع النمرق ؛ الوسادة الصغيرة يتكأ عليها .

(٤) جمع الزربي بضم الزاي ما بسط واتكىء عليه .

ليله في صلاة وتسبيح وتقديس وأذكار، يندب نفسه ويخاف ذنبه ، ومرّة يطمع ويرجو ربّه ، قد فارق الناس وانفرد عنهم متفرّداً بأشجانه وأحزانه ، طول نهاره معتبراً ، وليله متفكّراً ، قد سئم عيشه ، وقلا حياته ، وزهد في الدنيا ، فرفضها واستحقرها ، وترك لذّاتها وشهواتها ، فلم يزل على ذلك حتّى فشا حديثه في الناس وانتشر خبره في الآفاق وأقطار البلاد ، وسارت بقصّته الركبان ، وجعل الناس يأتونه من الآفاق ، وينظرون إليه ويعتبرون بحاله ، ويسألونه عن رؤياه ويتّعظون بقصّته .

حتّى انتهى به الحال إلى أن صار ينطق بالحكمة ، ويجري لسانه بالموعظة الحسنة فجعل يدعو الناس إلى الله ، ويدلّهم على طريق الآخرة ، ويرغّبهم في ثواب الجنّة ، ويضرب لهم الأمثال ، ويزهّدهم في الدنيا ، ويصف لهم غرورها وأمانيّها ، ويحذّرهم الاغترار بها وينذرهم بزوالها وانقطاعها ، بأوجز لفظ وأصوب مقال .

فلمّا سمع الناس ما نطق به من غرائب الحكمة وضرب من عجائب الأمثال عجبوا وقالوا : أنّى أُوتيت هذا العلم ، ومن أين لك هذه الحكمة والموعظة الحسنة ، وما عرفناك جالست العلماء ، ولا قرأت شيئاً من كتب الحكماء ؟ قال : أجد قلبي كالمرآة المجلوّة تتراءى فيها حقائق الأشياء ، وأجد لساني يجري بالصواب جرياً من غير أن أُروّي فيما أقول ، أو أتكلّف ممّا تسمعون شيئاً ، وأجد نفسي كالترجمان تسمع من وراء حجاب وتعبّر عنه وتؤدّي إلى أبناء جنسي ما تسمع بلا تصنّع منّي ولا ارتياء .

فعلم عند ذلك أنّه مؤيّد بملك من الملائكة يلهمه بإذن الله ، وصار قدوة في الدين وإماماً لأهل زمانه .

فبينا هو يوماً في محفل والناس يسألونه عن أمر الدين وهو يفتيهم ، وهو بين مستمع مصدّق ومنكر شاكّ متعجّب منه : كيف كان بالأمس أرغب الناس في الدنيا وقدوة لطالبي الشهوات ، وكيف قد صار اليوم إماماً في الدين ، وقدوة لطالبي الآخرة ! مع بعد ما بين الطرفين واختلاف ما بين المنزلتين ، إذ وقف عليه رجل من جيرانه من أُولئك الّذين كانوا أخبروه عن الناسك بما أخبرهم به

من تأويل رؤياه ، وإذا ذلك الناسك بعينه جالس بين يديه ، يسأله عن أمر الدين ، ويسترشد منه طريق الآخرة فبهت وحار ، ثمّ دنا من الناسك فقال له كالمتعجّب. أليس هذا صاحبك بالأمس الّذي فسّرت رؤياه ووصفت دواءه ؟ قال : بلى ، قال : فأراك اليوم تسأله عن أمر الدين وتستوصفه طريق الآخرة ، فكيف هذا ؟ قال لأنّه جاءه من العلم ما لم يأتني ، إنّه قبل نصيحتي بالأمس فنفعه اليوم ، وأنا أقبل منه اليوم عسى أن ينفعني غداً ، وكانت صفتي له بالأمس تعليماً بشريّاً ، وصفته اليوم لي تعليم ملكيّ .

ثمّ إنّ ذلك التائب مكث على حالته تلك مدّة من الزمام مجتهداً في عبادة ربّه مداوماً لطريقته ملازماً لسيرته لا يني ولا يملّ ، حتّى قرب أجله فرأى في منامه كأنّ روحه قد خرجت من جسده ، وكأنّها على صورة الجسد وشكله وهيئته سواء ، إلّا أنّ شكل الجسد جسمانيّ كثيف ثقيل ، وتلك صورة روحانيّة شفّافة خفيفة ، لا ينالها اللمس ولا الحسّ . وإذا بها تذهب في الهواء حيث تشاء ، كيف ما أرادت بلا كلفة ولا عناء ، وإذا بها تجد من ذاتها خفّة وراحة وسروراً وروحاً ولذّة وفرحاً لا يوصف بمثله حال الأجسام ، وكأنّها لمّا نظرت إلى جسدها وهو مطروح لا حراك به حنّت إليه لطول الصحبة وإلف العادة ، فلمّا دنت منه وتأمّلته فإذا كانت قد أتت عليه ثلاثة أيّام بعد الموت ، وإذا به منتفخ متغيّر كريه الرائحة ، سمج المنظر ، يسيل منه القبيح والصديد والدم ، وتسعى بين لحمه وجلده الديدان ، ويخرج من فمه ومنخريه النمل والهوام والذبّان ، فلمّا رأته بذلك المنظر الهائل استوحشت واشمأزّت منه ، ونفرت عنه وأنفت من قربه والدنوّ منه ، وجعلت تغتبط بحالها حين فارقته ، وخرجت منه ونجت وتخلّصت من أوساخه وأقذاره وعاره ووباله ووحشته . ثمّ التفتت فإذا هي بأبواب السماء قد فتحت ، والمعراج قد امتدّ من السماء إلى الأرض ، والملائكة قد نزلت ، والآفاق قد أشرقت وامتلأت نوراً وضياء ، وسمعت منادياً ينادي : **﴿يا أيّتها النفس المطمئنّة ارجعي إلى ربّك راضية مرضيّة ، فادخلي في عبادي وادخلي جنّتي﴾**[١] .

---

(١) سورة الفجر ؛ الآيات : ٢٧ ـ ٣٠ .

فانتبه من ذلك النداء ثمّ أخبر الناس ، وعلم أنّه قد حان حين فراقه الدنيا فأوصى وصيّته ، ثمّ ما مكث أيّاماً حتّى مضى لسبيله ولحق بربّه .

تفكّر يا أخي في هذه الحكايات الّتي تقدّم ذكرها ، واعتبر حال المنامات وتصريفها وعجائب الرؤيا ، وكيف يبلغ من أمرها إلى أن تنقّلت به الأعيان ، وتتغيّر عنها العادات وكيف تتصرّف بالناس وتنقلهم من حال إلى حال ، وتحيلهم مرّة من الحزن والغمّ إلى الفرح والسرور ، ومرّة من الرغبة في الدنيا والحرص على طلبها إلى الترك لها والزهد فيها والرغبة في الآخرة والاجتهاد في طلبها ، بعد استنقاذها[1] والإعراض عنها .

تأمّل تصديق جمهور الناس بأحكام المنامات وصحّة الرؤيا المشهور من ذلك بين الحكماء وبين أكثر العقلاء فإنّا لا نشكّ أنّ من أنكر أمر المنام وجحد صحّة الرؤيا بعد ما بيّنا معاند للحقّ الظاهر ، عدوّ لما جهل منكر لما لا يفهم ، قد جعل وكده لإفراط صلفه ، وشدّة عجبه بنفسه ، ومعارضة العلماء ومجادلة الحكماء ومفاخرة الأكفاء من أبناء جنسه بقوّة لسانه ، وحسن عبارته ، وصرف همّه إلى ذلك ، وأكثر قوّته ، وجعل أقصى عرضه بغير علم ولا إيمان ولا هداية من الله .

قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وهو يشير إلى أمثاله[2] «إنّ أخوف ما أخاف على أُمّتي من الأئمّة المضلّين منافق عليم اللسان» .

ومن احتجاجات هؤلاء المجادلة على بطلان الرؤيا والمنامات ما يقولون : إنّه إذا رأى الإنسان في منامه كأنّ رأسه قد بان من بدنه ، قال : أفترى بأيّ عين يبصر رأسه ؟ ولا يدرون أنّ النفس جوهر لا ينالها الحديد ، ولو قطّع الجسد إرباً إرباً ، ومثل هذه من أدلّ الدليل على و جود النفس وشرف جوهرها إذ كان يتأتّى لها أن ترى الجسد بسوء حال مقطوع الأعضاء ، ناقص البنية ، معوجّ الصورة ، وهي سليمة صحيحة من الآفات مثل أنفس المقطّعي الأيدي والأرجل والزمنى

---

(١) إستفذارها . خ ل .

(٢) أُنظر سفينة البحار (٢ : ٦٠٦) .

والمفلوجين في أنصاف أبدانهم ، وذلك أنّك ترى كثراً منهم أعقل وأذكى وأفهم وأعلم من كثير من أصحاب الأجساد الصحيحة والأبدان الخصبة ، والجثث العظيمة .

فلو كان الإنسان هو هذا الجسد وحسب بلا نفس معه لكان يجب أن يكون كلّ من كان أصحّ جسماً وأكبر جثّة وأسمن بدناً أكثر إنسانيّة وأعقل وأفهم وأذكى وأعلم ممّن كان أصغر جثّة أو منقوصاً بعض أجزائه أو مهزولاً . وقد يوجد الأمر بخلاف ذلك في كثير من الناس ، وفي كثير من الحيوانات .

وأيضاً فإنّك تجد القرد أذكى من الخنزير ، والثعلب أخبّ من الدبّ ، والببغاء أفصح من الكركي ، والقطاة أهدى من النعامة ، وغير ذلك ممّا وصف في كتاب الحيوان من هذا المعنى كثير جدّاً . فقد تبيّن أنّ الحيوانات لها نفوس أيضاً ، وأنّ تلك الأنفس تتفاضل لا بكبر الجثّة وعظم الخلقة وحسن الصورة وحسب، بل من قبل أفعالها وجواهر نفوسها وأخلاقها وخواصّها ومتصرّفاتها ممّا هو مذكور في كتب الحيوان وكتب الخواصّ ، كلّ ذلك دليل على أنّ مع جثث الحيوان جواهر أُخر هي الفاعلة المحرّكة لأجسادها إذ كان الجسم بمجرّده لا فعل له ولا العرض أيضاً له فعل بالإجماع كما بيّنّا .

ويقال لمن زعم أنّ الإنسان ليس هو شيء سوى هذه الجملة المشار إليها يعني بها الجسد وما يحلّه من الأعراض كالحياة والحسّ والحركة ، وأنّ النفس لا وجود لها : لم لا تسمّي سائر الحيوانات إنساناً ؟ فإنّ كلّ واحد منها هو أيضاً جسد فيه الحياة والحسّ والحركة فإن قال : إنّما أعني بالإنسان بنية مخصوصة ، أو قال : مزاجاً معلوماً ، أو قال : تأليفاً مّا ، قلنا له : أخبرنا أيّ بنية تعني أو أيّ مزاج ؟ بيّن لنا فإنّا قد نرى أنّ بنية الزنجيّ مخالفة لبنية التركيّ ، ومزاج الطفل مخالف لمزاج الشيخ ، وتأليف بنية المفلوج الزمن مخالف لتأليف بنية السليم الصحيح ، وطبع العليل مخالف لطبع الصحيح ، وكلّ واحد منهم إنسان لا خلاف بينهم في الإنسانيّة ، وإن كان بينهم اختلاف في هذه الأحوال ، فتبيّن لنا ذلك المعنى الّذي كلّهم فيه بالسويّة إن لم يكن للنفس وجود .

فإن قال : الروح هو الّذي نسمّيه نفساً . فإنّما خالف في العبارة ولا ضير إذ قد اتّفقنا في المعنى .

فإن قال : فإنّ الجسم هو الّذي يفعل هذه الأفعال بكون الروح فيه ، ولكن الروح عرض من الأعراض ، فقد ناقض وادّعى أنّ ما لا فعل له يجتمع مع ما له فعل ، فيكون فاعلاً وعليه الدلالة على صحّة دعواه ، ولم يصح للقائلين بهذه الدعوى دليل برهان يقينيّ إلى يومنا هذا بل شبهات ودعاوي فقط ، والمنازعة قائمة بحالها .

فإن قيل : فإنّه إذا حلّ في عرض من الأعراض فإنّ الله سبحانه يحدث عند ذلك فيه فعلاً ، فقد ناقض أيضاً مذهبه ، وأقرّ بخلق الأفعال بعد ما كان منكراً له ، إن كان من أهل الاجتهاد ، وإن كان ممّن يقول بطريق السمع فالأمر سهل جدّاً ، لأنّه تواترت أخبار كثيرة في تصحيح وجود النفس والروح ، وآيات كثيرة من القرآن تنطق بذلك ، وإنّما كان كلامنا مع من يورد دلائل عقليّة وحججاً جدليّة .

وإذ قد تبيّن بما ذكرنا وجود النفس وحقيقة الرؤيا ما فيه كفاية لكلّ منصف بعقله فنريد أن نذكر الآن كمّيّة أنواع المنامات وفنون تصاريفها .

اعلم يا أخي أيّدك الله وإيّانا بروح منه أنّ رؤيا المنامات ستّة أنواع : منها واحد أضغاث أحلام من أحاديث النفس .

ونوع منها يكون من جهة غلبة مزاج أخلاط البدن .

ونوع منها يكون من جهة موجبات أحكام النجوم .

ونوع منها يكون من وساوس الشيطان .

ونوع منها يكون إلهاماً من الملائكة .

ونوع منها وحي من الله وتأييد .

تفسير ذلك أنّ رؤيا أضغاث أحلام فهي نحو ما يرى كلّ إنسان ممّا يكون متصرّفاً فيه نهاره أو مفكّراً فيه ليلته من الأعمال والصنائع والتجارات ، والأقاويل

والفكر والهموم وما شاكل ذلك من أحاديث النفس كالّذي يرى الحرّاث من الزرع والحصاد والدياس[1] والشجر والنبات والعوامل من الحيوانات ، وما هو متصرّف فيه يومه ، ومفكّر فيه ليلته ، وعلى هذا القياس سائر طبقات الناس فيما يرون من أحوالهم ومتصرّفاتهم تسمّى أضغاث أحلام ، وأحاديث النفس .

وأما الّذي يكون من غليظ أخلاط الجسد فهو ما يرى من غلبت عليه المرّة السوداء من الظلمات والسواد والدخان والقاذورات والأحزان وما شاكل ذلك ، وكما يرى الصفراويّ من النيران والحريق والبروق والألوان الحمر وما شاكلها ، وكما يرى البلغميّ من الرطوبات والأنداء والأمطار والآجام والأنهار والسيول والوحول وما شاكلها وكما يرى الدمويّ من الفرح واللعب والضحك والسرور وما أشبه ذلك .

وأما الّذي يكون من موجبات أحكام النجوم فهو أصل وسائرها فروع عليه ، وذلك أنّ النّاس مختلفون في رؤياهم للمنامات على فنون شتّى ، فمنهم من يكون كثير المنامات صحيح تأويلها ، ومنهم من هو بالضدّ من ذلك ، ومن الناس من يكون رؤياه عجيبة وتأويلاتها غرائب ، كما قد ذكروا من ذلك في كتب المنامات بشرح طويل .

وأما المنامات الّتي تكون رؤيتها إلهاماً من الملائكة أو وسواساً من الشياطين فبابهما واحد وإن كان الطريقان مختلفين ، فالمؤمنون يشبّهون الملائكة بالقوّة فربّما تكون مناماتهم أكثرها إلهاماً من الملائكة ، لأنّ نفوس المؤمنين لها ارتباط بالملائكة فتكون من قبيل قولهم «شبيه الشيء منجذب إليه» وهكذا الفسّاق من شياطين الإنس فإنّها تميل إلى جنسها من شياطين الجنّ ، فالمنامات مختلفة بحسب اختلاف أهلها ، وهذا باب يطول شرحه فمن أراد الوقوف عليه فليطالع رسائل إخوان الصفاء ، فلقد وقفت عليها وانتخبت من رسائلها هذا الفصل وبعض ما سيأتي ، ولنذكر منها نبذة أُخرى مفيدة في هذا الباب .

---

(١) داسه يدوسه دياساً ـ بالكسر ـ وطئه برجله ، والمراد إخراج الحب من السنبل .

منها أنّ نفوس المؤمنين العارفين الأخيار الفضلاء الأتقياء الأبـرار الّذين هم في الدنيا زاهـدون ، وفي الدار الآخـرة راغبون ، وإلى نعيمهـا مشتاقـون ، وفي أفعالهم وأخلاقهم وآرائهم ومذاهبهم وعلومهم بالملائكة يتشبّهون ، تكون ملائكة بالقوّة ، فإذا فارقت أجسادها صارت ملائكة بالفعل . ومن الدليل على ذلك قوله تعالى : ﴿**الّذين تتوفّاهم الملائكة طيّبين يقولون سـلام عليكم ادخلوا الجنّة بمـا كنتم تعملون**﴾[1] فعلم بـذلك أنّ المـلائكة لا تسلّم إلاّ على أبنـاء جنسها ، ولا تخاطب إلاّ من يشاكلهـا ، كما أنّ الإنسـان لا يسلّم على الجماد والحيـوانات ، بل على أبناء جنسه من الناس ، ولا تخاطب إلاّ أمثاله منهم .

وإنّما ذكر الله سبحانه سلام الملائكة على أهل الجنّـة على سبيل الكـرامة لأهل الجنّة لأنّهم هم القادمون على الملائكة ، والملائكة هم المقيمون هناك .

قلت : ولعلّ سلام الملائكة على المؤمنين من حيث إنّهم أهل الجنّة لأنّها خلقت لهم ، لأنّ نفوس المؤمنين إذا فارقت أجسادها صـارت ملائكـة بالفعـل ، وهذا اعتقاد فاسد لا يعتقده مؤمن آمن بالله وبرسولـه ، وإنّما هـو مذهب اختـرعه مؤلّف رسائل إخـوان الصفاء ، ولم يـذكره أحـد من العلماء . وكـذلك قـوله في الأنفس الشريرة «إذا فارقت أجسادها صارت شيـاطين بالفعـل» فهذا غيـر صحيح بل هو غلط صريح .

ولقـد اقتدت المـلائكة بـأمر ربّهم فسلّمـوا على أهل المنـزل ، كما أُمـرنا بالسلام على من ندخل منزله ، وذلـك قولـه تعالى : ﴿**وتسلّمـوا على أهلها**﴾[2] فـالمـلائكـة وإن كـانـوا مقيمين في الجنّـة إلاّ أنّهم علمـوا قـدر أهلهـا ، وأنّهم المستحقّون للسلام والإعزاز والإكرام .

ووجه آخر أنّ السلام معناه السـلامة من أهـوال يوم القيـامة ، ومن عـذاب جهنّم .

---

(١) سورة النحل ؛ الآية : ٣٢ .

(٢) سورة النور ؛ الآية : ٢٧ .

والوجه المناسب لهذا المقام وما جرت به السنّة الشريفة أنّ الحاجّ إذا رجعوا إلى منازلهم فإنّ المقيمين هم الّذين يقصدونهم ويدخلون عليهم ليهنّئوهم بالسلامة فكذلك الملائكة يقولون لأهل الجنّة بلسان الحال : «تقبّل الله عملكم ، وشكر سعيكم ، وآجركم الله في جهادكم لأنفسكم حيث إنّكم طهّرتموها ونزّهتموها عن المعاصي والشهوات الجسمانيّة ، ومنعتموها عن اللّذات الحيوانيّة ، ولم تركبوا ما ارتكبت النفوس الشيطانيّة» فيقولون عند ذلك : **﴿الحمد لله الّذي صدقنا وعده ، وأورثنا الأرض نتبوّء من الجنّة حيث نشاء فنعم أجر العاملين﴾**(١) .

واعلم بأنّ النفوس الشريرة الّتي تفارق أجسادها المدمنة للتنعّم والمعاصي وحبّ الشهوات ، فإنّها تحنّ إلى أبناء جنسها من النفوس المتجسّدة الشريرة الّتي هي على سبيلها وسيرتها في شهواتها كما يحنّ الأعمى إلى سير أبناء جنسه إذا سمع أصواتهم فتستروح هذه النفوس إلى وسوسة أبناء جنسها وحثّها لهم على أفعال تلك العادات الّتي كانت لها فيما تقدّم من الشرور وطلب الشهوات لما تجد من ألم شهوتها المركوزة في ذواتها من سوء عاداتها القديمة ، كما يستروح من قويت شهوته للطعام والشراب والجماع ، وضعفت حرارة معدته ، فهو يشتهي ما لم يستمرىء أو به شبق ، ولكن آلته لا تواتيه ، فعند ذلك يستروح بالنظر إلى الآكلين والشاربين والفاعلين من ألم ما يجده في نفسه من الشهوات المذكورة ، وعاداته الجارية .

وإلى هذه النفوس ووساوسها أشار بقوله سبحانه : **﴿شياطين الإنس والجنّ يوحي بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً﴾**(٢) فشياطين الجنّ هي النفوس المفارقة الشريرة الّتي قد استحنّت إلى إدراك الحواسّ وشياطين الإنس هي النفوس المتجسّدة المستأنسة بالأجساد .

واعلم يا أخي بأنّ هذه النفوس المتجسّدة الشريرة إخوان لتلك النفوس المفارقة ، فإذا فارقت أجسادها بعد الموت أُلحقت بتلك النفوس المتقدّمة الّتي

---

(١) سورة الزمر ؛ الآية : ٧٤ .

(٢) سورة الأنعام ؛ الآية : ١١٢ .

قد خلت من قبل في القرون الماضية ، وحصلت في العذاب معها كما ذكر الله سبحانه فقال : **﴿ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجنّ والإنس في النار كلّما دخلت أمّة لعنت أختها حتّى إذا ادّاركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربّنا هؤلاء أضلّونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار * قال لكلّ ضعف ولكن لا تعلمون﴾**(١) وآيات أخر كثيرة في هذا المعنى ، واضحة لمن تدبّرها وتفكّر فيها .

وإذ قد فرغنا وتبيّن ما الشياطين ووسواسهم ، وكيف تنال النفوس الآلام والأحزان بمجرّدها بما وصفنا فيما تقدّم ، فكذلك أيضاً نقول : إنّ النفوس الملكيّة والناجية الّتي تقدّم ذكرها إذا فارقت أجسادها أيضاً وحصلت لها تلك الكلمات الّتي وصفنا حنّت هي عند ذلك إلى مخلّفيها من أولادها ، وقراباتها وتلامذتها ، وأهل دينها ومذهبها الصالحين منهم ، وعطفت عليها وتمنّت لها ما وجدت هي من الكرامات والراحة والسرور حتّى إنّها ربّما تراءت لهم في مناماتهم ووعظتهم وأذكرتهم أمر الآخرة والمعاد ووصفت لهم ما صارت إليه وأمرتهم بلزوم طريقة التقوى وعمل الخير ، وطلب النجاة ، وبشّرتهم واستبشرت بمن يقدم عليها بعدهم ، كما قال الله سبحانه : **﴿ولا تحسبنّ الّذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربّهم يرزقون * فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالّذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألّا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾**(٢) وقال تعالى : **﴿ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أموات بل أحياء ولكن لا تشعرون﴾**(٣) .

ولمّا تبيّن لأهل البصائر والمعارف أنّ تلك النفوس هذه حالها من الكرامات فقالوا من أجل هذا سنّ واضعو النواميس وأصحاب الشرائع في سنن الديانات ، الذهاب إلى قبور الأنبياء والأئمّة المهديّين(٤) والصالحين من عباده

(١) سورة الأعراف ؛ الآية : ٣٧ .
(٢) سورة آل عمران ؛ الآية : ١٦٩ .
(٣) سورة البقرة ؛ الآية : ١٥٤ .
(٤) في الأصلين «المهديون» .

بالصدقات والقرابين والصوم والدعاء عند قبورهم ، والسؤال لله بشفاعتهم .

فكم يا أخي من مسجد وكم من مشهد قد بني في الأرض في مواضع عدّة بسبب رؤية نبيّ هناك أو شهيد أو عبد صالح ، فلو لم تكن تلك النفوس موجودة باقية عند الله ، وتشعر بمن يستشفع بها إلى الله ، ويقتدي بها في سنن الدين لما كان لهذه النفوس فائدة[1] ولا ثبات لأنّ الباطل لا ثبات له ولا دوام .

وإذ قد تبيّن بما وصفنا ما الملائكة وما الشياطين وغيرها من سائر أنواع المنامات فنقول : إنّ كلّ رؤيا فيها موعظة ، أو في تأويلها دلالة على التقوى ، أو حثّ على عمل الخير ، أو تزهيد في الدنيا ، أو ترغيب في الآخرة ، أو تذكير للمعاد ، وما شاكل هذه المعاني فهو إلهام من الملائكة ، مثل ما في تلك الكلمات الّتي حفظها العراقيّ[2] بالروم في تلك البيعة من أولئك الرهبان والقسّيسين من العظة والتذكير ، وإنّما وعظته الملائكة بتلك الكلمات بالسريانيّة ، وفي بلد غير بلده ، وفي سنّة شريعة غير شريعته ، وبلغة غير لغته ليكون أبلغ في الموعظة ، وأعجب للتذكار ، لأنّ الحكماء إذا أرادوا تبليغ الموعظة جعلوها بضرب من الأمثال ، على ألسنة الحيوانات وما لا نطق له ، فتكون الموعظة أعجب وأغرب وأبلغ في الإفهام ، مثل ما هو موجود في كتاب كليلة ودمنة وأمثاله من الكتب .

وأمّا الموعظة والتذكار في رؤيا[3] ابن الملك فهو لما فيها من الدلالة على أنّ أنفس الأشقياء في الدنيا من الفقراء والمساكين والضعفاء والزمنى وأهل البلوى إذا فارقت أجسادها وقعت في راحة وسرور وفرح ولذّة ، مثل ما رأت نفس ابن الملك في منامه من اللّذّة والفرح والسرور مع ما كان في جسده من الضرّ والبلوى وسوء الحال . وإذ قد تبيّن أنّ اللّذّة ليست شيئاً سوى الخروج من الآلام كما بيّنّا في رسالة الحاسّ والمحسوس من رسائل إخوان الصفاء .

---

(١) في الأصل «قائدة» .

(٢) سبقت قصته ص ٥٥٢ .

(٣) مضى خبره ص ٥٥١ .

وأمّا رؤيا ذلك الرجل المترقّب التائب[1] فلا شكّ أنّها إنّما كانت إلهاماً من الملائكة بإذن الله سبحانه ، لما كان فيها من الموعظة والدلالة على طريق الآخرة ، والرشد في الدين لما صار إليه من التوبة والصلاح والخير ، واتّعاظ الناس به ، حتّى صار قدوة لأهل العلم وطلّاب الآخرة في زمانه .

وأما الرؤيا الّتي تكون من وساوس الشيطان فهي مثل ما يرى الراغبون في حطام الدنيا من محاسن مرغوباتهم ومشتهياتهم ، فيزدادون عند ذلك فيها شهوة مثل ما يرى الحسّاد من محاسن حال محسوداتهم فيزدادون حسداً ، ومثل ما يرى المتعادون من أسباب العدوان فيزدادون عداوة ، ومثل ما يرى أصحاب الشهوة مشتهياتهم فيزدادون شرهاً وحرصاً وحسداً ، وبالجملة كل رؤياً يراها صاحبها فيزداد في الدنيا رغبة وعليها حرصاً وحسداً ومن أجلها عداوة وشرهاً ، وسائر ما شاكل ذلك ، فهي من وساوس الشيطان .

وذكروا أنّ رجلاً من المنهمكين في الشهوات الغائصين في طلب اللذّات كان أكولاً شروباً شبقاً ، فمن كثرة ما كان يأكل ويشرب ويجامع خلقت معدته وضعفت قوّته الهاضمة واسترخت آلات جماعه من كثرة الجماع ، وكان رجلاً ممكّناً من الدنيا ، متهيّئاً لشهواته منها بسهولة وقدرة ، ولكن الآن جسده لم يكن يؤاتيه ، ولا قوّة النفس الشهوانيّة تطاوعه في ترك الطلب ، لأنّ الشهوات كانت قد صارت عادة له وجبلّة لتكرارها وكثرة دربته فيها ، فجعل يتطلّب الحيلة والدّواء الّذي تقوى به الهاضمة الّتي في معدته ، وينعظ آلته للباه ، ويبسطها لشدّة شهوته وحرصه الشديد ، فكان ممّا قدّر وفكّر فيه أن احتال لتحريك آلته والإنعاظ وأمر بأن يصوّر له في بيت خلوته على حيطانه صور كثيرة لأنواع أشكال الجماع وكتب في جانبها الأخبار الموجودة في كتاب الألفيّة ، وأوصاف لها من حالات الجماع ، فكان يدخل ذلك البيت فيخلو فيه مع غلمانه وجواريه ويشرب ويلعب ويلهو ، وينظر إلى تلك الصور ليستنهض بذلك آلته ، فإذا أعياه ولم تجبه الآلة دعا غلمانه إلى نفسه ليأتوه من خلف ، فصار ذلك دأبه وعادته ، حتّى

---

(١) هو الملك الذي مر خبر رؤياه ص ٥٥٥ .

إنّه ربّما كان يهيج ويصيح ويهيم كالسنانير ، وينهق نهيق الحمار من شدّة شهـوته لأن يأتوه[1] فلمّا كثر ذلك على غلمانـه وطال واتّصـل امتنعوا منـه لشناعتـه وقبح منظره ، وهجروه حتّى هلك وهو على تلك العادة ، وفشا حديثه في الناس وسوء الثناء عليه ، فكان لا يزال يـراه غلمانـه في منامـاتهم وهو على تلك الحـالة الّتي كان عليها ، من دعائه إيّاهم إلى نفسه وصياحه ونهيقه .

وأمثال هذه النفوس الّتي ذكرناها هي شياطين بالقوّة ، فإذا فارقت أجسادها صارت مع الشياطين .

فاعتبر يا أخي بخبر هذا الرجل الّذي قال الله لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم : **﴿واتـل عليهم نبأ الّذي آتيناه آياتنا فانسلخ منهـا فأتبعـه الشيطان فكـان من الغاوين * ولـو شئنا لرفعناه بها ولكنّه أخلد إلى الأرض واتّبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الّذين كذّبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلّهم يتفكّـرون * ساء مثـلاً القوم الّـذين كذّبـوا بآيـاتنا وأنفسهم كـانوا يـظلمون﴾**[2] ويقال : إنّه كان رجلاً من أحبار قوم موسى بن عمران[3] بعثه في سريّة[4] فابتلي بعشق امرأة فخالف موسى لأجلها وارتدّ ، اتّباعـاً لشهوة نفسـه ، وله قصّـة طويلة مذكورة في كتب التفسير .

واعلم يا أخي أنّك إذا تأمّلت وجدت في القرآن نحواً من ثـلاثمائـة وستّين مثـلاً ضربهـا الله تعالى ، بعضهـا في صفات المؤمنين وأهـل الخير وأمـر الآخرة وثـواب المتّقين ، وبعضهـا في صفـات الكفّـار وأنفس الأشـرار وسـوء منقلبهـا

---

(١) في النسخة (ر) : لأن يؤتى .

(٢) سورة الأعراف ؛ الآيات : ١٧٤ ـ ١٧٦ .

(٣) هـو بلعم بن باعـورا ، ومن خبره على مـا ذكره علي بن إبـراهيم في تفسيره ص ٢٣٠ إنـه أعـطي اسم الأعظم ، فمـال إلى فرعـون ، فلما مـر فرعـون في طلب موسى عليه السلام قـال لبلعم : ادع الله على موسى وأصحابه لحبسه علينا ، فركب حمارته ليمر ويدعـو فامتنعت عليه فضربها حتى قتلها وانسلخ الإسم من لسانه . وقيـل فيه غيـر ذلك ، والتفصيـل في الجزء الخامس من بحار الأنوار في أحوال موسى عليه السلام .

(٤) السرية : العسكر .

والمبالغة في ذمّها ولومها وسوءِ الثناء عليها ، لست تجد مثلاً أشدّ توبيخاً من هذا ، فإنّه شبّهه بالكلب في اتّباع شهواته ، وقال تعالى : **﴿ساء مثلاً القوم الّذين كذّبوا بآياتنا﴾** يعني من كان مثله في اتّباع شهواته ولسنا نجد أشدّ اختصاراً في الترغيب في نعيم الجنان من قوله عزّ من قائل : **﴿ونهى النفس عن الهوى * فإنّ الجنّة هي المأوى﴾** [1] .

واعلم بأنّ نفسك ملك بالقوّة ويمكن أن تصير ملكاً بالفعل إن أنت سلكت مسلك الأنبياء عليهم السلام وأصحاب النواميس الإلّهيّة ، وعملت بوصاياهم المذكورة في كتبهم المفروضة في سنن شرائعهم ، وأنّ نفسك أيضاً شيطان بالقوّة ، ويمكن أن تصير شيطاناً بالفعل ، يوماً مّا إن أنت سلكت مسلك الأشرار والكفّار .

أقول : ليس يمكن أن تصير نفس المؤمن ملكاً بالفعل ، ولا نفس الفاسق أيضاً شيطاناً ، كما أشرنا إليه سابقاً . فانظر الآن ماذا تختار لها وترضى لنفسك ، فقد أعذر من أنذر ، ولئلاّ يكون للناس على الله حجّة بعد الرسل ، وأن يقولوا ما جاءنا من رسول ولا كتاب .

نصحتك علماً بالهوى والّذي أرى   مخالفتي ، فاختر لنفسك ما يحلو

ولعلّك يا أخي لم تقف على معنى الناموس الإلّهيّ .

واعلم أنّ الناموس الإلّهيّ جبلّة روحانيّة تبدو من نفس جزئيّة في جسد بشريّ ، بقوّة عقليّة تفيض عليها من النفس الكلّيّة ، بإذن الله سبحانه ، من دور من أدوار القرانات في وقت من الزمان ، ليجتذب بها نفوساً جزئيّة ، ويجمعها في أجسام بشريّة ، ويخلّصها من أجساد متفرّقة ، ليفصل بينها يوم القيامة ، ويميّز الله الخبيث من الطيّب ، ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً ، فيجعله في جهنّم وينجّي الله الّذين اتّقوا بمفازتهم ، لا يمسّهم السوء ولا هم يحزنون .

---

(١) سورة النازعات ؛ الآيتان : ٤١ ـ ٤٢ .

واعلم أيّها الأخ بأنّه من تمام فضيلة الناموس أن يكون فيه اثنتا عشرة خصلة قد فطر عليها :

إحداها أن يكون تامّ الأعضاء وقواها تواتيه على الأعمال الّتي من شأنها أن يكون بها ومنها ، ومتى همّ بعضو عملاً أتى عليه بسهولة .

والثانية أن يكون جيّد الفهم سريع التصوّر لكلّ ما يقال له ويلقاه بفهمه على ما يقصده القائل ، وعلى حسب الأمر في نفسه .

الثالثة أن يكون جيّد الحفظ لما يفهمه ، ولما يسمعه ، ولما يريد أن يذكره ، ولما يدركه بالجملة لا يكاد ينسى شيئاً منها .

والرابعة أن يكون فطناً ذكيّاً إذا رأى على الشيء أدنى دليل فطن له على الجهة الّتي يدلّ عليها الدليل .

والخامسة أن يكون حسن العبارة ، يؤاتيه لسانه على ما في قلبه وضميره بأوجز الألفاظ .

والسادسة أن يكون محبّاً للعلوم والاستفادة منقاداً لها سهل القبول ، لا يؤلمه تعب التعليم ولا يؤذيه الكدّ الّذي يلصقه .

والسابعة أن يكون محبّاً للصدق وحسن المعاملة مقرّاً بالآلة .

الثامنة أن يكون غير شره في الأكل والشرب والنكاح ، مجتنباً للّعب ، مبغضاً للّذّات الكائنة عن هذه .

والتاسعة أن يكون كبير النفس ، عالي الهمّة ، محبّاً للكرامة ، تكبر نفسه بالطبع على كلّ ما يشين من الأمور ويضع ، وتسمو نفسه إلى أرفع الأمور رتبة وأعلاها درجة .

والعاشرة أن يكون الدرهم والدينار وسائر أعراض الدنيا عنده هيّنة زاهداً فيها .

والحادية عشرة أن يكون محبّاً للعدل وأهله ، مبغضاً للجور والظلم وأهله ،

يعطي النّصفة لأهلها ، ويرثي لمن حلّ به الجور ، ويكون مؤاتياً لكلّ ما يراه حسناً جميلاً غير صعب الانقياد ، ولا جموح ولا لجوج ، إن دعي إلى الجور والقبح لا يجيب .

والثانية عشرة أن يكون قويّ العزيمة على الشيء الّذي يرى أنّه ينبغي أن يفعل ، جسوراً مقداماً غير خائف ولا ضعيف النفس .

واعلم يا أخي أنّ أوّل قاعدة يضعها واضع الناموس ، ثمّ يبني عليها سائر ما يعمل في تتميم الناموس من القول والعمل ، وتكميله هو أن يرى ويعتقد في نفسه علماً يقينياً أنّ للعالم بارئاً حيّاً قديماً عالماً حكيماً قادراً مريداً هو علّة جميع الموجودات ومالكها ، يتصرّف فيها بحسب ما يليق بواحد واحد منها .

والثاني أن يرى ويتصوّر وجودات عقليّة مجرّدة عن الهيولى كلّ واحد قائم بنفسه متوجّه نحو ما نصب له من الأمر ، هم ملائكة الله ، وخلّص عباده ، بهم تقع المراسلة والوحي والإنباء ، ومن جهتهم يحصل التأييد .

والثالث أن يرى الوجودات النفسانيّة مجرّدة من الأبدان تارة ، ومتعلّقة بها تارة ، ومستعملة لها تارة ، وأنّها نازلة في جثث الحيوانات بحسب ما يليق بواحد منها من إدراك بارئها وتمكّنها .

والرابع أن يرى أنّ مفارقتها للجسد لا تبطل ذواتها وخروجها من الأجسام ، والحسّ لا يخرجها من قدرة البارىء سبحانه عليها .

والخامس أن يرى أنّ كلّ واحدة من الموجودات متفرّدة بذاتها ، لا يصلحها ولا يفسدها إلّا ما يتعلّق عليها من سوء أعمالها ، أو فساد آرائها ، أو رداءة أخلاقها ، أو تراكم جهالاتها .

والسادس أن يرى أنّ البارىء سبحانه أراد من الناس مراداً بيّنه منهم ، وأزاح عللهم فيه ، فمنهم طائع لأمره ومنهم راكب نهيه .

والسابع أن يرى أنّه جعل لكلّ صنف من أصناف الطاعات والمعاصي حدّاً من الثواب والعقاب ويعلم المأمورين به والمنتهين عنه أن يأتوه على بصيرة

تـوجب الأمن ، وتقطع العـذر ، ليهلك من هلك عن بيّنـة ، ويحيى من حيّ عن بيّنة .

والثامن أن يرى أنّ لهم معاداً فيه يجازون بما أسلفـوا من خير وشـرّ وعرف ونكر ، وأنّه قد جعل إلى كلّ واحد منهم تمهيد مثواه وإصلاح مأواه ، فإن أحسن فلنفسه ، وإن أساء فعليها ، وما ربّك بظلاّم للعبيد .

والتاسع أن يرى أنّ الدعاء إلى الله أولى الأعمال بالثواب ، وأرفعهـا درجة عند المآب .

والعـاشر أن يـرى أنّ الدعـاة إلى الله أعلاهـم درجـة وأرفعهم منزلـة وأشـدّهم في الـدعاء إلى الله حـرصاً ، وأكثـرهم فيه دأبـاً ، وأوسعهم علماً ، وأكثـرهم أُمّـة ، وأعظمهم على الناس نعمة ، وأنطقهم بالصدق ، وألزمهم لمنهاج الحقّ .

فـإذا تحقّقت هذه الآراء في نفس النـاموس ، وتصـوّرهـا في فكـره كـأنّـه يشاهدها يقيناً لا شكّ فيه ، دعا عند ذلك إليها أهل دعوتـه الّذين أُرسـل إليهم ، ويجتهد في إفهامهم ما قد اعتقده بالتصريح عنها للخواصّ أهـل دعوتـه في السرّ والإعلان ، غير مرموز ولا ملغوز ، ثمّ يسير إليها ويرمز عنها عند العوامّ بـالألفاظ المشتركة المعاني ، المحتملة للتأويل ممّا يعقلهـا الجمهور ، وتقبلهـا نفوسهم ، فمن فهم تلك المعـاني وتصـوّر حقـائق تلك الأُمـور الّتي أشـار إليهـا واضـع الناموس ، وتيقّن بها وقام معـه بنصرتـه مجتهداً في معـاونته ، محتمـلاً للضيم ، صابراً في السرّاء والضرّاء طلباً لمرضاة الله سبحانه ، سمّاهم واضـع النامـوس : الصـدّيقين والشهـداء والصـالحين ، وحسن أُولئـك رفيقـاً ، سمّـاهم الشهـداء لمشـاهدتهم تلك الأُمـور الروحـانيّة المفـارقة للهيـولى ، يعني الجنّة ونعيمهـا ، وسمّـاهم الصدّيقين والشّهـداء لتصديقهم لهـا بالـطلب والاجتهاد من أنفسهم في نصرة واضع الناموس ومعاونته .

واعلم أيّها الأخ البارّ الرحيم أيّدك الله أنّ للكتب الإلهيّـة تنزيـلات ظاهـرة وهي المعاني المفهومة المعقولـة ، وهكذا لـواضعي الشريعـة موضـوعات عليهـا وضعوا نواميسهم ، ولها أحكام ظاهرة جليّة ، وأسرار بـاطنة خفيّـة ، وفي صلاح

أحكامه الظاهرة صلاح للمستمعين لها في دنياهم ، وفي معرفة أسرارها الخفيّة صلاح لهم في أمر معادهم وآخرتهم .

فمن وفّق لفهم معاني تلك الكتب الإلّهيّة وأُرشد إلى معرفة أسرار موضوعات الناموس ، واجتهد في العمل بسنّته الحسنة والسير بسيرته العادلة . فإنّ تلك النفس هي الّتي إذا فارقت الجسد ارتقت إلى رتبة الملائكة الّتي هي جنّات لها ، وهي ثمان مراتب ، وفازت ونجت من الهيولى ذي الثلاث الشعب ، الّتي هي الطول والعرض والعمق ، وارتفعت في درجات الجنان والمراتب الثمان ، الّتي سعة كلّ واحدة كعرض السماوات والأرض .

ومن لم يرشد لفهم تلك المعاني ولا لمعرفة تلك الأسرار ولكن وفّق للعمل بسنّته العادلة وأحكامه الظاهرة ، فإنّ تلك النفس عند مفارقة الجسد تبقى محفوظة على الصورة الإنسانيّة الّتي هي الصراط المستقيم إلى أن يتّفق لها على الصراط الجواز ، وإلى هذا أشار بقوله : ﴿**وإنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه ولا تتّبعوا السّبل فتفرّق بكم عن سبيله ذلكم وصّاكم به لعلّكم تتّقون**﴾[١] وهذا هو الغرض الأقصى من وضع النواميس الإلّهيّة .

ومن لم يرشد لفهم تلك المعاني ، ولا اجتهد في العمل بسنّة الناموس ، ولا الدخول تحت أحكامه ، ولا الانقياد لحدوده ، فإنّ تلك النفس إذا فارقت الجسد انحطّت إلى الرتبة البهيميّة الّتي هي دركات الهاوية تهوى فيها كما قال سبحانه : ﴿**لها سبعة أبواب لكلّ باب منها جزء مقسوم**﴾[٢] وإلى هذا أشار بقوله : ﴿**فأمّا إن كان من المقرّبين * فروح وريحان وجنّة نعيم * وأمّا إن كان من أصحاب اليمين * فسلام لك من أصحاب اليمين * وأمّا إن كان من المكذّبين الضالّين * فنزل من حميم * وتصلية جحيم**﴾[٣] .

قال مؤلّف رسائل إخوان الصفاء : وفي معرفة هذه الأسرار من الكتب

---

(١) سورة الأنعام ؛ الآية : ١٥٣ .

(٢) سورة الحجر ؛ الآية : ٤٤ .

(٣) سورة الواقعة ؛ الآيات : ٨٩ ـ ٩٤ .

الإلّهيّة قلت هذه القصيدة ، وإلى أسرار موضوعاتها أُشير بها وهي هذه :

تجلّت الساعة وانشقّ القمر وانكشفت عنه أفانين العبر[1]
وإن يروا آية آتٍ أعرضوا عنها ، وقالوا : هي سحر مستمرّ
وكذّبوا واتّبعوا أهواءهم وكلّ شيء فعلوه في الزبر
من بعد أن جاءهم من عجب الأنباء ما فيه لغات مزدجر
من حكمة بالغة أقصى المدى ينفى بها العذر، فما تغني النذر؟
حتّى إذا حقّ الهلاك ساهموا أشياعهم فيه ، فهل من مدّكر؟
أحياه بعد موته اللّه وقد قال : «ارجعوني» بعدما كان قبر
فردّه اللّه لقطع عذره فكان أطغى في الرجوع وأشرّ
مثل الّذين فارقوا ديارهم من حذر الموت فما أغنى حذر
فقال منشيهم لهم : «موتوا» معاً ثمَّ أحياهم برزق وعمر
أو كالّذي مرَّ بظهر قرية خاوية على العروش يفتقر
فقال : هل يحيي الإلّه هذه بعد الممات؟ فأُميت ونشر[2]
فكان فيه ثمّ في حماره وفي الطعام والشراب معتبر
يا أيّها الناس أنيبوا إنّما أعمالكم عمّالكم كما ذكر
لا يستزلّنّكم الشيطان عن مقعد صدق لمليك مقتدر
من قبل أن تطمس منكم أوجه في طمسها ردّ لها على الدّبر
أو يلعن العادون في حدّهم لعنة أهل السبت في سيف البحر[3]
إذ جعلوا فيه قروداً وخنا زير، وأنواعاً من الخلق أُخر
بدّل تبديلهم أمثالهم وأُنشئوا بالمسخ في شتّى الصور
منكّسين لا يردّ طرفهم إليهم الذلّ، وكلّا لا وذر
لا يستطيعون سجوداً إن دعوا وطالما عافوا السجود في القدر
من بين مغلول اليدين طائر وبين صال في جحيم يستعر

---

(١) جمع الأفنون ـ بضم الهمزة ـ الضرب والنوع من الشيء .

(٢) في الأصلين ؛ هل يحيي الاله هل .

(٣) سيف البحر : ساحله .

يظمأ والماء عليه لجّة ... في بعضها يغني عن الورد الصدر[1]

وبين مسلول له سلسلة ... مقدارها سبعون ذرعاً في القدر

وأوجب النقمة منه نفسه ... وصار موكولاً إلى أُمّ سقر

وآخر غطى التراب رأسه ... وقام منكوساً كما قام الشجر

لا يتوقّى صاحب الحتف، ولا ... يجتذب النفع، ولا ينفي الضرر

مستسلماً للواردات حشوه ... نار تلظّى، وهو ماء ينقطر

وكائن وقود نار أُضمرت ... حرّاً وبرداً في حديد أو حجر

في الدرك الأسفل لا بعّده ... إلاّ الّذي في أوّل الأمر فطر

وكلّهم إذ ظلموا أنفسهم ... مشتركون في العذاب المستمرّ

يبدّلون بالجلود كلّما ... أنضجها سوء العذاب في سقر

أعوذ باللّه من الجهل الّذي ... يصمّ ذا السمع، ويعمي ذا البصر

ومن خيالات شكوك شأنها ... أن يبعد اللّه على حرف القدر

ومن شياطين الغواة كلّهم ... وتابعيهم في الضلال والسعر

ومن أثيم مستطيل، كلّما ... أمهله اللّه تمادى وأشر

آتاه آيات الإلّه ربّه ... وانسلخ المحروم منها وانشمر

فكان من جملة غاوين رأوا ... رفعتهم أفضت بهم إلى الحفر

وجاهل يخلط في إيمانه ... كفراً وإن فهّمته فاه فغر[2]

وسنان لا يعلم إلاّ ظاهراً ... من الحياة غافلاً من الأثر[3]

وهو على الإعراض عن آخرة ... فيها لمن أدركها خير وشرّ

يستعجل الساعة والساعة في ... مساءة الجاهل أدهى وأمرّ

من معشر عذّبهم جهلهم ... إذ ضرب السور بباب فانخفر

مميّز للخلق في ظاهره ... من العذاب شاغل عن العبر

ضنك عن المرّ وفي باطنه ... من رحمة اللّه غمام منتشر

---

(١) في الأصلين «يظاه» .

(٢) فغر فاه . فتحه وقد سبق .

(٣) وسنان صفة من السنة بمعنى النعاس .

تبارك الله العليم ربّنا ... وعالموه فهم الحزب الأغرّ[1]
وكلّ من عادى ووالى فيه أو ... آوى دعاة المؤمنين أو نصر
وكلّ من هاجر في الله، ومن ... جاهد ، أوحجّ إليه واعتمر
إلى بيوت جنّة ناطقة ... مشاركات في اللباس للبشر
قد أذن الله لهم في رفعها ... وأن يكون لاسمه فيها ذكر
من معشر موحّدين دينهم ... كدين عبد الله مولانا الخضر
يرون في عتق النفوس ما يرى ... غيرهم في حبسها من الوطر[2]
في كلّ عصر منهم ذو دعوة ... يخرق من سفن البحار ما عبر
لا يقفون عند شخص واحد ... تمضي الدهور وهو وعد منتظر
بل فيهم ومنهم طوالع ... تجري على ترتيب نظم مستطر
دونكموها يا بني الحقّ، ولا ... يخدعكم عنها أباطيل الفكر
فكم لها من سامع منتفع ... يعلم ما يأتي بها وما يذر
وغافل عن الرموز جاهل ... يقول: من يقول ذا فقد كفر
بما يكن يعلم ما نقوله ... فكان يجري رأيه على النظر
بما نبيّن صدقه بشاهد ... من العقول، لا برجم من حزر
فمن يكون جذبه مشتركاً ... وتستوي فيه دعاوي من نقر
فليأت بالحكمة في أخباره ... بالعدد المخصوص في الآي السور
مثل مقادير الفروض كلّها ... من الصلاة والزكاة والطهر
وكم أولو العزم وأصحاب الرضا ... طالوت ذي البسطة خيف المنتظر
في عدد نصّ عليهم واحد ... على سرود مثله عن العبر
وكيف أسماء الاله كلّها ... تسع وتسعون هي الحسنى الكبر
وكيف في تفريقه أمّته ... على ثلاث بعد سبعين اقتصر
وكيف أجزاء النبيّ ستّة ... وأربعون وهو أمر ذو خطر

---

(١) وعالموه : الراسخون في العلم .
(٢) إشارة إلى قتل الخضر عليه السلام الغلام .

لِمَ جعل الرؤيا الصدوق واحداً ... من جملة الأجزاء فيها فافتكر[1]
وحاملو العرش، وكم عدّتهم ... عدّة أبواب الجنان في القدر
واختصّت النيران في أبوابها ... بسبعة ومن أتاها وابتدر
منطلق منها إلى ظلّ له ... ثلاث شعب هي ترمي بالشرر
وقال في الذكر: «عليها تسعة» ... تملك ما فيها جميعاً و«عشر»
وأنّهم قد جمعت عدّتهم ... لفتنة الكافر أو ذكر الخبر
هذا، وما طه وما حاميم أو ... أشباه ذا من السّور؟
وما أمور أخفيت أنباؤها ... عن ظاهر بين رعاع كالحمر؟
من قصّة الجنّ الّذين أفسدوا ... في الأرض فاستخرب منها ما اعتمر
وما هي الحيّة والطاوس إذ ... كانا معينين لإبليس الحسر؟
وما هي الحنطة إذ حذّرها ... آدم، من بين النبات والخضر؟
وكيف لمّا ذاقها بدت له ... سوأته وكان قبل مستتر؟
وكيف تعليم الغراب أوّلاً ... قابيل دفناً لأخيه إذ حفر؟
وما هو الطوفان إذ عمّ، وما ... سفينة الألواح فيه والدسر؟
وما هي النار الّتي كانت على ... ذي الكبش إبراهيم برداً إذ شكر؟
وما هي الطير الّتي أنشرها ... له الإله بعد موت حين صرّ؟
وما قميص يوسف وذئبه ... والدم إذ جيء بكذب مشتهر؟
والجبّ إذ أُلقي في غيبته ... والحبس إذ خصّ بما منه بهر
وكيف بيع مع حسن باهر ... بالثمن البخس وبالشيء النزر
وما هو البرهان إذ أبصره ... قال: إلهي! السجن خير فظفر
وشاهد منه قد استشهده ... فقدّ أحوال القميص واستتر
وكيف كان بعد ذا قميصه ... بشرى ليعقوب النبيّ بالبصر؟
وما هو العجل الّذي خار، وما ... الصفراء إذ أحيت قتيلاً في البقر؟
وما دمٌ فاض فصار مشرباً ... لمن عليه لا على الماء اقتصر؟
وكيف تاهت أُمّة عظيمة ... دهراً وأرض التيه كالدار صغر؟

---

(١) إشارة إلى ما سبق من أن الرؤيا جزء من أجزاء النبوة .

والجبل المرفوع فيهم ظلّة ... يشهده من غاب فيهم وحضر

وجنّ ذي الملك سليمان، وما ... خاتمه وما العصا ساعة خرّ؟

وما هو الكرسيّ في إلقائهم ... له عليه جسداً لمّا اختبر؟

وما هو الطير، وما منطقها، ... والريح تجري به، وماء ينسجر؟

والعرش إذ أحضره عالمه ... قبل ارتداد طرفه لمّا ادّكر؟

ويونس إذ بلعته حوته ... فشاهد الأبحر فيها واعتبر؟

وما المسيح الروح والمهد الّذي ... كلّم فيه الناس في وقت الصغر؟

وصلب هاروت وماروت وما ... يعلّمان السحر منّا من سحر؟

ونوم أهل الكهف والبعث لهم ... لمّا انقضى دور الرقاد وانحسر؟

وكيف أخفى المصطفى حديثهم ... فقال في الظاهر منه اختصر؟

وسدّ يأجوج ومأجوج، وما ... يلحسه من زمر بعد زمر؟

وكيف سمّاه حجاباً موثقاً ... نفخ المعينين وإفراغ القطر

وكيف إذ يقرّب الوعد لهم ... [تشخص أبصارهم إذا انغفر][1]؟

وما طلوع الشمس من مغربها ... ما بين قرني مارد لا ينزجر

وكيف بعد نورها تكويرها ... والأنجم الزهر عليها تنكدر

وما هو الدجّال قد حذّره ... كلّ النبيّين على مرّ الدهر

وكيف تجري عن جنابي جيشه ... من الجبال شامخات في الكبر

فالجبل البصريّ فيه جنّة ... مثمرة ذات رياض ونهر

والإصفهانيّ عليه أبداً ... نار تلظّى ودخان معتكر

هيهات لا يعلم ذا إلّا الّذي ... أشهد خلق نفسه فيما غبر؟

وكان في خلق السماوات العلى ... قد عاضد الحكمة أو كان حضر

فالحمد للّه الّذي أشهدني ... ما لم أكن أعلم إلّا بالخبر

تمّت القصيدة .

---

(١) من النسخة (ر) .

واعلم يـا أخي أنّ هذه القصيـدة ومـا فيهـا من المسـائـل إنّمـا هـو إرشـاد للمتأدّبين بإصلاح الأخلاق ، وتنبيه للمرتاضين بعلم النفس على أسرار النبوّات ، وما في موضوعات الشـرائع من الـرموز ، ولا ينبغي لأحـد من إخواننـا أن يجيب أحداً إذا سئل عن هذه المسائل إلاّ من قد هذّب نفسه ، فـأصلح أخلاقهـا ، لأنّ صداء النفس ورداءة أخلاقها تمنع عن فهم معاني هذه ، فينبغي التسليم لصاحب الأمـر ولحكمـه المـاضي أو المستقبـل إن كـان من إخـوانـنـا المؤمنين وشيعتنـا المخلصين .

الفصل السادس والعشرون

في كيفية آداب دعوة الأنفس إلى الله سبحانه وتعالى، وإلى صفو الايمان والاخوّة وبيان جواهر النفوس وطبقات الناس

اعلم يا أخي أيّدك الله وإيّانا بروح منه بأنّ شيعتنا وإخواننا المؤمنين المتفرّقين في البلاد وسائر من ينتسب إلينا فإنّهم في أحوالهم ومراتبهم على منازل ثلاث : فطائفة منهم خواصّ عقلاء متديّنون أخيار فضلاء ، وطائفة منهم ذوو آراء ومذاهب ، هم فيها مختلفون وأقاويل مفنّنة منهم بها مشعوفون ، وأخلاق وسجايا هم بها متغايرون ، فنريد أن نذكر كلّ طائفة بأوصافهم ، وندلّ عليهم بعلاماتهم ، حتّى إذا دخلت مدينة أو بلداً من البلدان ولقيت منهم أحداً تبيّنتهم بعلاماتهم ، وعرفتهم بسيماهم ، فلتقّيتهم بالتحيّة والسلام ، وداخلت كلّ طائفة منهم بألطف ما تقدر عليه من الرفق والمداراة ، وذاكرتهم علمنا بحسب ما تقبله قلوبهم وألقيت عليه من أسرارنا حسب ما تحتمله عقولهم ، وتتّسع له نفوسهم ، وتبلغ إليه هممهم وتتصوّرها أفهامهم ، وتكون في ذلك كمثل الطبيب الحكيم الرفيق .

واعلم أنّ من خواصّ إخواننا الفضلاء أنّهم العلماء بأُمور الديانات العارفون بأسرار النبوّات المؤدّبون بالرياضات الفلسفيّة ، فإذا لقيت يا أخي أحداً منهم وآنست منه رشداً فبشّره بما يسّره ، وذكّره باستيناف دور الكشف والانتباه ، وانجلاء الغمّة عن العباد بانتقال القرآن من برج مثلّثات النيران إلى برج النبات والحيوان ، في الدور العاشر الموافق لبيت السلطان وظهور الأعلام .

واعلم بأنّ من إخواننا وأهل شيعتنا طائفة أُخرى مقرّون بوجودنا ، شاكّون في بقائنا ، متحيّرون فيما يعتقدون من موالاتنا وطائفة أُخرى موقنون ببقائنا ، لكنّهم غافلون عن أمرنا ، غير عارفين بأسرارنا ، وكلّهم منتظرون لظهور أمرنا ، مستبطئون لمجيء آياتنا ، مشتهون نصرة أمرنا ، فإذا لقيت منهم أحداً فبشّره بما يسرّه ، وقرّب عليه ما يظنّه بعيداً ممّا يؤمّله ، وعرّفه أنّ ما يرجوه غير بعيد ، وذاكر من وثقت به من إخواننا بما ألقينا إليك من علمنا ، وأطلعه على ما أطلعناك عليه من أسرارنا ، كيما تطمئنّ به نفوسهم بما يعتقدون فينا ، ويتبيّن لهم صدق ما هم مقرّون به من أمرنا ، وأخرج إليهم من رسائلنا ، ما يرغب نفوسهم فيه وترتاح إليه ، وليكن ذلك على النظام والترتيب كما بيّنا لك ، فلعلّهم إذا استمعوا لقراءتها وفهموا معانيها انتبهت نفوسهم من نوم الغفلة ، ورقدة الجهالة ، وحييت بروح المعارف ، كما ذكر الله جلّ ذكره فقال : **﴿أفمن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها﴾**[1] .

واعلم يا أخي أنّ في النّاس طائفة من أهل ملّتنا مقرّون بفضلنا وفضل أهل بيتنا ، لكنّهم جاهلون بعلومنا ، غافلون عن أسرارنا وحكمنا ، فمن ذلك أنّهم يجحدون وجودنا ، وينكرون بقاءنا ، فإنّهم يزرءون بشيعتنا ، المقرّين بوجودنا ، المنتظرين ظهور أمرنا ، وهم معاندون لهم متعصّبون عليهم ، مبغضون لهم .

واعلم أنّ أحد الأسباب في ذلك هو أنّ أقواماً من شرار النّاس جعلوا التشيّع ستراً لهم عمّا يجحدون من الآمرين عليهم بالمعروف والناهين عن المنكر فيما يفعلون ، وذلك أنّهم يرتكبون كلّ محظور ، ويتركون كلّ مأمور به ، وإذا نهوا عن منكر فعلوه ، بادروا بإظهار التشيّع ، واستفزّوا العلويّة على من ينكر عليهم أو ينهاهم عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يصنعون .

ومن النّاس طائفة ينسبون إلينا بأجسادهم وهم برءوا منّا بنفوسهم ، ويسمّون أنفسهم العلويّة وما هم من العلويّين ، ولكنّهم من أسفل السافلين ، لا

---

(١) سورة الأنعام ؛ الآية : ١٢٢ .

يعرفون من أمرنا إلاّ نسبة الأجساد ، ولا من القرآن إلاّ اسمه ، ولا من الإسلام إلاّ رسمه ، لا علماً يتعلّمون ، ولا فقهاً يدرسون ولا صلاة يقيمون ولا زكاة يؤدّون ، ولا البيت يحجّون ، ولا الجهاد يعرفون ، ولا حراماً يتجنّبون ، ولا عن منكر ينتهون ، وكلّ قبيح يركبون ، ولا هم يذكّرون ، ومع هذا كلّه على الناس يستطيلون ، وإليهم يتبغّضون ، ومن شيعتنا ينفرون فهم أبعد الناس عن أهل ملّتنا ، وأعدى الناس لشيعتنا ، وأجهل الخلق بعلومنا ، وأغفل الناس عن أمرنا وأسرار حكمتنا ، وإليهم أشار بقوله صلى الله عليه وآله وسلم[1] «لا يأتيني الناس بأعمالهم وتجيئوني بأنسابكم ، فإنّي لا أُغني عنكم من الله شيئاً» .

ومن الناس طائفة قد جعلت التشيّع مكسباً لها مثل الناحة والقصّاص ، لا يعرفون من التشيّع إلاّ التبرّي والشتم والطعن واللعن والبكاء من النياحة ، وحبّ المتديّنين بالتشيّع ، ممّن قد يرى طلب العلم وتعلّم القرآن والفقه في الدين ، وجعلوا شعارهم لزوم المشاهد وزيارة القبور كالنساء والثواكل ، يبكون على فقدان أجسادنا وهم بالبكاء على نفوسهم أولى .

ومن الشيعة من يقول : إنّ الإمام المنتظر مختف من خوف المخالفين ، كلاّ بل هو ظاهر بين ظهرانيّهم وهم له منكرون كما قيل :

يعرفه الباحث من جنسه وسائر الناس له منكر

وكلّهم مقرّون بأنّ الأنبياء خزّان الله ، وأنّ الخلفاء هم الأئمّة المهديّون ، وارثون علم النبوّات ، ولكنّهم لا يعرفون حقيقة ما يقرّون به ، ولا تصديق ما يعتقدونه فأُعيذك أيّها الأخ أن تكون منهم ، بل كن هادياً مهديّاً رشيداً طبيباً رفيقاً لإخوانك وأصدقائك وجيرانك ، ترشد الضلال وتبرىء الأكمه والأبرص وتحيي الموتى بإذن الله .

وذكروا أنّ ملكاً من ملوك الهند كان عظيم الشأن ، عزيز السلطان ، واسع المملكة حسن السيرة في رعيّته محبّاً للعدل والإنصاف [ولكن][2] كان متديّناً

(١) سبق تخريجه من البرهان .

(٢) من النسخة (ر) .

بعبادة الأصنام ، معظّماً لها مقرّباً لأهلها ولم يكن يعرف شيئاً من أخبار الأنبياء ولا ما جاءت به من حديث ملكوت السماء ، وأمر الوحي والتنزيل ، والسنن والتأويل ، وأمر المبدء والمعاد ، والبعث والقيامة والحشر والنشر والحساب والميزان والصراط ، والنجاة من النيران ، ودخول الجنان ، ومجاورة الرحمن ذي الجلال والإكرام .

ثمّ إنّ ذلك الملك رزق على رأس الكبر ابناً سعيد المولد ، فأمر المنجّمين بالحساب والحكم على موجبات أحكام النجوم في مولده ، فحكموا بأنّه يتربّى ويعيش ويطول عمره وينال ملكاً وسلطاناً لا يشبه ملك الأرضين ، ولا سلطان الجسمانيّين، بل ملك السّماويّين وسلطان الروحانيّين ، فلمّا تربّى ذلك الغلام ونشأ أفرد له أبوه منزلاً ، وبنى له قصراً فأسكنه فيه ، ووكّل به حفظة ، وأشحنه بالخدم والظئر[1] والخصيان ، ومنع أن يصل إليه أحد من العامّة .

فلمّا نشأ الغلام وترعرع رزق من الفهم والذكاء ما لم يرزق أحد غيره من أهل بلده ثمّ علّم آداب الملوك من القراءة والكتابة والشعر والفصاحة والنحو واللغة والحساب والهندسة ، وما يليق بأولاد الملوك من العلوم والآداب ، وكان صافي النفس ، حيّ القلب ، كثير التفكّر في ملكوت السماء ، ومن الصانع ، وكيف المبدأ والمعاد ، وأحوال القرون الّذين مضوا وانقرضوا ليرى إلى ماذا ما صاروا ، وأين ذهبوا ، حتّى منعته الفكرة عن الأكل والنوم والتمتّع بلذّات النّعم وشهواتها ، فأسهر ليله ، وأطال نهاره ، ويتمنى أن يجد أحداً يسأله عمّا في نفسه ويذاكره ما في قلبه ، فلم يجد أحداً حتّى فشا حديثه في الناس وكثر الثناء الجميل عليه وانتشر ذكره في الآفاق .

وسمع خبره حكيم من حكماء سرنديب وطمع في رشده ورجا له أن يكون هادياً رشيداً وفيلسوفاً حكيماً ، فقصد نحو بلاده ، وحمل معه كتباً من كتب الحكمة وأسرار النبوّة ملفوفاً في ثوب في جوف سفط[2] مختوم .

---

(١) حاضنة الولد ومرضعته .

(٢) وعاء من جلد .

ثمّ أتى تلك المدينة فطاف فيها فلم يجد أحداً من أهلها يصلح أن يسمع حكمته غير ذلك الغلام ، فطاف ببابه فرأى الوصول إليه أمراً متعباً من كثرة الحرّاس والحفظة حول القصر ، فأقام زماناً يفكّر كيف يكون الوصول إليه حتّى عرف الداخلين والخارجين من عنده وإليه ، فوقع اختياره على أحد الخدم المختصّين به ، فرصده يوماً حتّى وجده خالياً ، وأخذ بيده إلى جانب من الطريق وقال له : اسمع ما أقول واكتم عليّ سرّي ، واعلم بأنّ عندي نصيحة لابن الملك ، وقد وقع اختياري عليك بما توسّمت فيك من الخيريّة ، قال الخادم : ما هذه النصيحة ؟ أسمعنيها حتّى أعرفها ، فقال : أنا رجل من تجّار البحر ، وقد وقع إليّ جواهر نفيسة لا تصلح إلاّ للملوك وأبناء الملوك ، وقد قصدت هذا الفتى لأعرضها عليه ، فإن كانت تصلح له واختارها فهي له مبذولة لديه ، وإن لم يكن يريدها رددت إليّ سرّاً ولا يعلم بها أحد من الناس فإنّي لست آمن أن يشعر بها بعض اللصوص أو الطرّارين فيحتال عليّ في أخذها فقال الخادم : أرني جواهرك أنظر إليها ، فإن كانت تصلح له حملتها إليه فقال الحكيم : لجواهري بريق وشعاع لا تستطيع النظر إليها لأنّ في عينيك ضعفاً[1] أشفق عليك منها وأمّا ابن الملك شابّ جيّد النظر ، حادّ البصر ، لا أخاف عليه منه ضرراً فقال الخادم : إنّ هذا الّذي تصف لأمر عظيم ، وما أرى بكلامك بأساً ، وأنا شاكّ فيما تقول فكيف أصنع ؟ فقال الحكيم : لا يسعك أن تحرم ابن الملك هذه النصيحة إذ بذلتها . واعلم بأنّك إن لم توصلني إليه مع سفطي هذا توسّلت بغيرك إليه ، فذهب الخادم ، وعرّف الفتى ، فلمّا سمع ابن الملك تهلّل وجهه ودخله من الفرح والسرور ما لم يتمالك نفسه أن قام من مجلسه ومشى في الدار ، وعلم أنّه ظفر بحاجته ووجد طلبته ، وقال للخادم نعم ما رأيت حتّى عرّفتني هذا الحديث ، فالآن أوصله إليّ ، وليكن في سرّ وكتمان .

فلمّا وصل الحكيم إلى الفتى ورأى شخصه تفرّس فيه النجابة والفلاح ، وقام الغلام من مجلسه ، وسلّم عليه ورحّب به ، وأقعده وقعد بين يديه ، وقال

---

(١) في الأصل «ضعف» سهواً .

للخادم : تنحّ الآن عنّا لأسأله عمّا في نفسي . ثمّ ابتدأ فسأله عن حاله ومجيئه وقصده ، وأخذ في حديث طويل .

وقد بيّنّا في فصل بعد هذا أشياء ممّا جرى بينهما من الخطاب .

فهكذا ينبغي لإخواننا الفضلاء الأخيار الحكماء أن يقتدوا بذلك الحكيم في اختيارهم بحكمهم الأحداث والفتيان الأخيار النجباء المتأدّبين المهتدين الفهماء الأذكياء لأذكار علومنا وأسرار حكمنا ، اقتداء بسنّة الله تعالى ، وذلك أنّه لم يبعث نبيّاً إلّا وهو شابّ ، ولا أعطى الحكمة لعبد من عباده إلّا وهو حدث من الفتيان ، كما ذكرهم الله تعالى وأثنى عليهم ، فقال تعالى : **﴿إنّهم فتية آمنوا بربّهم وزدناهم هدى * وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربّنا ربّ السماوات والأرض لن ندعو من دونه آلهاً لقد قلنا إذاً شططاً﴾**[1] وقال تعالى في قصّة خليله **﴿سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم﴾**[2] وقال موسى لفتاه : **﴿آتنا غداءنا﴾**[3] هكذا ينبغي لإخواننا إذا وجدوا صديقاً بهذا الوصف أن يغتنموا ذلك ، ويعرّفوا إخوانهم الباقين حديثه ويستبشروا باليقين والتأييد من الله ، كما وعد الله جلّ ثناؤه : **﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم والله وليّ المؤمنين﴾**[4] .

وكان ممّا جرى بين ذلك الفتى والحكيم أن قال له :

أخبرني لمَ تذمّ الحكماء أُمور الدنيا ، ويزهّدون في نعيمها ، وهي دارهم الّتي نشؤوا فيها ومسكن آبائهم الّذين ربّوهم .

فأجاب : لأنّها تصغر في أعينهم إذا شاهدوا أمر ملكوت السماء ويستقلّون نعيمها في جنب ما يعرفون من نعيم الآخرة ، كما صغر حال ذلك المسكين في

---

(١) سورة الكهف ؛ الآية : ١٣ .
(٢) سورة الأنبياء ؛ الآية : ٦٠ .
(٣) سورة الكهف ؛ الآية : ٦٢ .
(٤) سورة محمد ؛ الآية : ٧ .

عين الملك ووزيره .

قال الفتى : وكيف كان ذلك ؟

قال الحكيم : ذكروا أنّه كان ملك من ملوك الهند عظيم الشأن ، عزيز السلطان واسع المملكة ، حسن التدبير والسياسة ، عادل السيرة في الرعيّة ، صادق الحجّة في الحكومة ، بصيراً بأُمور الدنيا ، راغباً فيها متمنّياً للخلود فيها ، ولم يكن يعرف أمر الآخرة ولا المبدء ولا المعاد ، ولا البعث ولا القيامة ، ولا الوحي ولا النبوّة ، وكان مع ذلك يعبد الأصنام ، ويقرّب لها القربان ، ويعظّم شأنها ، ويحسن إلى أهلها ، على عادة جارية قد اعتادها منذ الصبى من غير فكر في أمرها ، ولا رويّة في شأنها .

وكان له وزير خيّر عارف بصير قد عرف خبر ملكوت السماء وبناء الملأ الأعلى وأمر المعاد والمبدأ ، وكيفيّة الوحي ومجيء الأنبياء ، وعلل سنن الديانات ، ومرامي مرموزات النواميس وأسباب أحكام الشرائع ، وما الغرض الأقصى منها وما حقيقة معانيها وخفيّات أسرارها ودقيق إشاراتها ، وما قصد واضعها من النفع العاجلِ منها ، وما المطلب والمغزى في الآجل منها .

وكلّما رأى ذلك الوزير الملك أنّه يسجد لتلك الأصنام ويستلمها ويعظّم شأنها من غير معرفة بحقيقة أمرها ، ولا بصيرة بشأنها وما المغزى بذلك ، انعصر قلبه عمّا عليه ، لغفلته وسهوه فيما يفعله تقليداً ، ويعمله جهالة ، وكان يرثي له سرّاً ، ويرحمه شفقة عليه ، لطول الصحبة وحسن المعاشرة له ، وكان يهابه إن ينهاه عن ذلك أو ينبّهه عن غفلته أن لا يسمع لقوله ، لشدّة سكره وغفلته ، ولا يقبله لتمكّنه من نفسه واستمراره عليه طول الزمان .

فشكا ذلك إلى صديق له ، فقال : قد طالت صحبتي مع هذا الملك وما رأيت منه إلّا خيراً وله عليّ إحسان كثير وأنعام وأفضال لا أقدر أن أُؤدّي شكرها ، ولست أُنكر من أمره إلّا ما هو فيه من الغفلة عن أمر الدين والمعاد ، وقلّة الرغبة في الآخرة ، وترك النظر في المنقلب بعد الموت ، ولا أدري إن ذكرته له كيف يقع منه .

فقال له صاحبه : أنت أخبر بصاحبك ، وأعرف بأخلاقه ، وأعلم بعاداته ، فكن طبيباً رفيقاً لا تضع الدواء إلاّ على الدّاء حيث ينفع ، واطلب الفرصة .

قال : فإن رأيت للكلام موضعاً وللخطاب موقعاً فاغتنم ذلك ، وإن لم تر فلا تضيّع الجرم . واعلم بأنّ الملوك لهم سكرات وغفلات من عدّة وجوه :

فمنها سكر السلطان والأمر والنهي ، ومحبّة الرياسة ، والعزّ والأنفة والكبر والاستطالة .

ومنها سكر الشباب والنشاط والجلد والتفاخر والشجاعة والشطارة[1] ، ومحبّة الغلبة والرياسة والسمعة .

ومنها حبّ الشهوات المركوزة في الجبلّة ، والتمكّن منها ، والميل إلى اللّذات المعتادة والرفاهية والرأفة ، والاستمرار على العادات المعتادة ، من الصبى .

ومنها الجهالات المتراكمة من أوّل الأمر والأخلاق المنشأة من الطبع ، وكلّ هذه سكرات تمنع من استماع الحكمة ، والنظر في العاقبة ، والفكر والرويّة في المعاد ، والمنقلب في الآخرة بعد الموت .

ثمّ إنّ ذلك الوزير ملك دهراً طويلاً يطلب الفرصة لخطابه إلى أن اتّفق أن قال له الملك ذات ليلة بعد أن فرغا من النظر في أمر الرعيّة ، وكتب النوبة ، وتدبير السياسة : هل لك أن نخرج الليلة متنكّرين فنتعرّف حال المدينة ، ونتجسّس أخبار الرعيّة ، وننظر إلى آثار وكيفيّة زيّ البلاد ومصالح العباد ، وكان من سنّة ملوك تلك البلاد أن لا يركب الملك إلاّ في كلّ سنة مرّة ، ولا يظهر للرعيّة إلاّ يوماً واحداً ، كلّ ذلك تعظيماً لأمر الملك وسياسة الرعيّة ، فخرجا يطوفان حول المدينة متنكّرين .

فبينا هما كذلك إذا هما بضوء من بعيد ، فأقبلا نحوه حتّى إذا دنوا منه ،

---

(١) الشطارة : الإتصاف بالدهاء .

فإذا هما بمزبلة منتنة رابية عظيمة عليها جيف مرميّة ، وسمادات[1] طريّة منتنة الرائحة ، وإذا في أسفلها نقب يشبه المغارة ، وإذا في أقصى داخلها رجل قاعد مشوّه الخلقة ، على دكّة قد أصلحها من لين سماد ورماد تلك المزبلة ، وقد فرش تحته من خرق تلك المزبلة شبه بساط وعليه مدرعة قد خاطها شبه مرقّعة وفي رجليه تبّان ، وعلى رأسه شملة مثل ذلك ، وإذا بحذائه امرأة تشبهه بالخلقة والتشويه ، عليها كداوات شبه درع وخمار ، وملحفة مثل ما عليه من خرق تلك المزبلة ، وإذا بين أيديهما سراج من خزف فوق آجرّات شبه منارة ، وبجنبه جرّة مكسورة فيها درديّ قد مزجه بشيء من ماء ، وإلى جنبه سلّة خوص فيها باقات كرفس وكرّاث ، وبيد كلّ واحد منهما شربة مكسورة ، يغرفان من تلك الجرّة ويشربانها ، وإذا على فخذه قصبة قد مدّ عليها خيطاً يشبه قوس الندّاف ، وهو ينقر عليها بقضيب في يده ، ويغنّي بأبيات غير موزونة خارجة من الإيقاع ، وإذا به يذكر في كلّ الأبيات حسن المرأة ، ويصف جمالها ، وشدّة عشقه لها ، وإفراط محبّته إيّاها ، وإذا بيدها خشبة غربال مكسورة ، قد مدّت عليها قطعة جلدة غير مدبوغة جائفة منتنة الرائحة تشبه الدفّ ، وهي تنقر إذا غنّى هو ، وترقص بين يديه ، وإذا شرب كلّ واحد منهما سارّ صاحبه وحباه بباقة من ذلك الكرفس والكرّاث ، وهي تثني عليه بالحسن والجمال كأنّه يوسف الصدّيق وتسمّيه بشاهنشاه ملك الملوك ، وهو يسمّيها كدبانو سيّدة النساء ، ويشرب ويثني عليها بالحسن والجمال ما يقصر وصف الحور العين في ذلك ، وإذا شربا سألا ربّهما أن لا يعدمهما ما هما فيه ، ولا يغيّر ما بهما من نعمة ، وأن يبقيهما على تلك الحالة ما بقي الدهر !

ولمّا أبصر الملك والوزير ما هما فيه من اللّذّة والسرور والفرح ، طال وقوفهما متعجّبين من حال المسكينين، ثمّ قال عند ذلك الملك للوزير : ما أظنّ أنّي في طول حياتي وعزّ سلطاني ونعيم ملكي وأيّام شبابي ومجالس لهوي مع تمكّني من شهواتي بلغ منّي الفرح واللّذّة والسرور كما يصف هذان المسكينان

---

(١) السماد ـ بفتح السين ـ : ما تصلح به الأرض من زبل ونحوه .

الحقيران الوضران من حالهما ، ومع هذا كلّه أظنّ أنّه لا تفوتهما هذه الحالة كلّ ليلة إذا أرادا ، لأنّهما لا يعرض لهما شيء من العوائق الّتي تعرض لنا من الأشغال المانعة لفراغ مجلس اللّذّة واللهو ، مثل خروج الخوارج في أطراف المملكة ، واضطراب النواحي ، وشعث الجند ، وطلبهم للأرزاق ، ومثل النظر في تظلّم الرعيّة وهيج العامّة ، ومثل النظر في محاسبة الكتّاب وتولية العمّال ، ومثل النظر في التعازي والتهاني ، والنظر في أمر الخاصّة وإصلاح أمر العامّة ، ومثل النظر في التوقيعات والقصص وحفظ الخزائن وتفقّد الرسل الواردين من الأطراف ، وإكرامهم والتجمّل لهم ، ومثل النظر في الكتب الواردة من أصحاب الأخبار وكتب أجوبتها ، وما شاكل هذه من الأشغال المنغّصة للعيش ، المنغّصة للّذّات ، الموردة للهموم والغموم والأحزان .

ثمّ قال الملك : أظنّ لو كان هذان المسكينان دخلا منازلنا، ولبسا ثيابنا ، وأبصرا منازلنا ، وذاقا من أطعمتنا ، وعاينا أحوالنا ، وشاهدا عزّ سلطاننا ، وعرفا لذّة نعيمنا مرّة واحدة مقدار ساعة ثمّ ردّا إلى منزلهما وحالهما لما تهنّا بالعيش بعد ذلك ، ولا وجدا لهذه الحالة النكدة الّتي هما فيها لذّة ، ولصغر في أعينهما ما هما فيه من السرور والفرح .

فلمّا سمع الوزير قول الملك تذكّر ما قاله صاحبه لمّا شكا إليه : «واطلب الفرصة وضع الدواء حيث الداء فإنّ لكلّ مقام مقالاً» فقال الوزير للملك : أخاف أيّها الملك أن نكون فيما نحن فيه من عزّ سلطاننا ونعيم ملكنا ولذيذ شهواتنا وسرورنا بأحوالنا وفرحنا بما خوّلنا مغرورين كغرور هذين المسكينين عند أحوالنا .

فلمّا سمع الملك قول الوزير استنكره واستعظمه ، فقال له : وهل تعلم في الأرض اليوم مملكة أوسع من مملكتنا ، أو سلطاناً أعزّ من سلطاننا ، أو بلداً أكبر من بلدنا ، أو مروءة أحسن من مروءتنا ؟

قال الوزير : لا .

قال الملك : فمن هؤلاء القوم الّذين زعمت أنّه يصغر حالنا في أعينهم ،

ويستحقرون أمرنا ؟

قال : قوم يقال لهم «النسّاك» :

قال الملك : أين بلدهم ، ومن أيّ ناس هم ؟

قال : هم يراع من قبائل متفرّقين في المدن ، وفي آفاق البلاد ، يجمعهم دين واحد ، ومذهب واحد ، ورأي واحد .

قال : صف لي مذهبهم وحالهم .

قال : هم أُمناء الله في خلقه ، وخلفاء أنبيائه وأئمّة لعباده ، وليس في الناس منهم إلاّ نفر يسير ، لأنّهم في الناس كالملح ، بسؤالهم ينزّل الله المطر من السحاب ، والبركات إلى الأرض ، وبدعائهم يرفع الله عن عباده القحط والغلاء والوباء ، وهم حفّاظ كتب الله وعلماء تأويلها .

قال الملك : مَن أنبياء الله ؟

قال : طائفة من بني آدم اصطفاهم من عباده وقرّبهم وناجاهم وكشف لهم من مكنون أسرار غيبه وجعلهم أُمناء وحيه وسفراء بينه وبين خلقه أرسلهم من عالم الأرواح إلى ملكوت السماء إلى عالم الكون والفساد في الأرض وأنزل معهم الكتاب ليدعوا عباده إلى جواره في جنّته الّتي كان أبوهم آدم فيها بدءاً .

فقال الملك : وماذا يصفون من عالم الأرواح وملكوت السماء ؟

قال : يقولون : إنّ هناك فضاء فسيح[1] وأفلاك دوّارة ، وكواكب سيّارة ، وأنوار ساطعة ، وبهجة ونسيم وروح وروحان ، ونعيم الجنان ، ورضوان وجواري حور حسان ، عين ، وولدان وغلمان ومردان ، وطيب ونسيم ولا يخالطها هجر الصيف ، ولا زمهرير الشتاء ولا ظلمة الأجسام ، ولا فناء الأجرام ولا مزاحمة في مكان ، وملك دائم ، وعزّ سرمد ، وأهلها أحياء لا يموتون ، وشبّاب لا يهرمون ، وأصحّاء لا يمرضون ، وأغنياء لا يفتقرون ، وجيران لا

---

(١) كذا ، والصواب فيه وفي ما بعده النصب .

يحاسدون ، وأصدقاء لا يختلفون ونعيمهم لا يكدره بؤس ، ولذّاتهم لا يخالطها ألم ، وسرورهم لا يشوبه حزن ، وفرحهم لا يداخله هموم ولا غموم ، ولا نوائب ولا حدثان ، ولا تغيّر زمان .

فقال : وماذا يقولون ، وهل إلى هناك وصول ؟

قال : لا تشكّنّ ، مَن طلبها كما يجب وصل إليها .

قال : وكيف وجه الطلب ، وكيف المسلك وكيف الوصول ؟

فوصف له ما قد ذكرنا طرفاً في رسائلنا الناموسيّة ، وما أخبرت به الأنبياء في كتبها وما أشارت به الفلاسفة في مرموزاتها .

فقال الملك للوزير : منذ متى عرفت هذه القصّة ، واعتقدت هذا الرأي ، وعلمت هذا المذهب ؟

قال : منذ زمان .

قال : فما منعك أن تذاكرني بهذا الأمر الجليل العظيم الخطير في طول صحبتك معي ؟

قال الوزير : إنّي لم أترك مذاكرة الملك بهذا الأمر الجليل لأنّي بخلت عليه به أو لم أره أهلاً لذلك ، ولكن انتظاراً لوقت الفرصة لوجه الخطاب ، وموضع الكلام لأنّ النظر في هذا العلم والبحث عن تحقيق هذا الأمر والتصوّر له وكنه المعرفة يحتاج إلى قلب فارغ من أشغال الدنيا ، ونفس صافية من العوارض المكدّرة من الآراء الفاسدة ، والعادات الرديئة ، وهمّة عالية في طلب الأمور الشريفة ، والزهد في الشهوات الجسمانيّة المذمومة وترك اللّذّات المحسوسة والجرمانيّة الفانية حتّى يتصوّرها بحقّها وصدقها ، لأنّه لا يكون المقرّ بهذا الأمر مقلّداً كالعوامّ الّذين لا يعلمون من القول إلّا زوراً ولا من العلم إلّا ظاهراً ، ولا من العلوم إلّا قشوراً ، ولا من الدين إلّا تعصّباً . وإنّ الملوك أكثر الناس اشتغالاً في أُمور الدنيا وأطولهم أملاً وأرغبهم في الخلود في الدنيا وأكثرهم تمنّياً للبقاء فيها لشدّة تمكّنهم من التمتّع بنعيمها ، واستغراقهم في شهوات لذّاتها ، ولا

يصلح للمذاكرة بهذا العلم إلّا فتيان أذكياء ، لهم نفوس صافية وقلوب واعية ، بريئين من الآراء الفاسدة ، غير معتادين للعادات الرديئة ، أو مشائخ مهذّبون بالنظر في العلوم الرياضيّة ، غير متعصّبين في المذاهب المختلفة والآراء المتناقضة ، أو نفوس ملكيّة لها همم عالية في طلب مراتب الملائكة ، والأُمور السماويّة ، والمعقولات الروحانيّة ، والوجود المحض والبقاء الدائم ، والدوام السرمد .

فقال الملك : ما يسعنا بعد اليوم إلّا أن نجعل أكثر عنايتنا في الكشف عن حقيقة ما ذكرت على صحّة وبيان ، من غير تقليد ولا تكذيب ، فإن بان أنّه حقّ طلبناه حقّ الطلب ، وتركنا ما نحن فيه من أُمور هذه الدنيا الّتي كلّها إلى فناء وزوال ، كما فنيت أعمار الّذين كانوا قبلنا ، وزال ملكهم ونعيمهم .

ثمّ قال : أخبرني ماذا يصف الحكماء من أصناف الخلائق الّذين هم في الأرض من أجناس الحيوان من الأنعام والسباع والوحوش والطير والهوامّ والحشرات والدوابّ وحيوان الماء والبحار أجمع ، وأصناف بني آدم من أجناس الأُمم من الترك والحبش والزنج والنوبة والعجم والعرب والفرس والروم والهند والسند والصين والحبش والأكراد ويأجوج ومأجوج والسيسان ، وأُمم أخر غير معروفة عند كثير من الناس ، وكلّ هؤلاء مختلفي الألسن والألوان والأخلاق والطباع والعادات والأعمال والأفعال والصنائع والآراء والمذاهب من أهل المدن والقرى والسوادات والسواحل والجزائر والبراري يشملها نحو من عشرة ألف مدينة ، يملكها نحو من ألف ملك ، هذا كلّه في الربع المسكون وعلى الأرض بجميع ما عليها من البحار والجبال والبراري والأنهار والعمران والخراب ما في فسحة الهواء إلّا كحلقة ملقاة في بريّة صحراء . وفضل سعة فلك واحد من السبعة على الهواء كفضل البرّيّة على الحلقة .

قال : أفترى أيّها الملك أنّ الخالق جلّ ثناؤه ترك ذلك الفضاء الواسع مع جوهر شرف تلك الاجرام وطيب نسيم ذلك المكان فارغاً خالياً لم يجعل فيه أهلاً وسكّاناً وخلائق تليق به ؟ وقد ترى أنه لم يترك البحار الأُجاجة المرّة حتّى جعل في قرارها الزاخر أجناساً من الحيوانات ، وأنواعاً من السموك والحيتان ،

وهكذا حقّ هذا الهواء الرقيق لم يتركه فارغاً حتّى خلق فيه أجناساً من الطيور تسيح فيه كما يسيح السمك في الماء ، وكذلك هذه البراري اليابسة الجافّة لم يتركها خاوية ، وجعل فيها أجناساً من الوحوش والسباع والأنعام ، وكذلك في الآجام والآكام ورؤوس الجبال وبطون الأودية وشطوط الأنهار حتّى خلق في النبات ، وفي ثمر الشجر وفي جوف الحبّ حيوانات مختلفة الصور والأشكال .

واعلم بأنّ صورة هذه الحيوانات مع اختلاف أشكالها وساير هيآتها مثالات وأشباح لتلك الصور الّتي في عالم الأفلاك غير أنّ هذه في هيولى جسمانيّة وتلك في جواهر روحانيّة ، وما نسبة هذه الخلائق الّتي في عالم الكون وأحوالها إلاّ كنسبة الصور المنقوشة على وجوه الحيطان وأبواب الحمامات بالأصباغ المختلفة ، وكما أنّ تلك الصور أشباح المتحرّكة[1] والحيوانات الحسّاسة فإنّ تلك الصور ميّتة وهذه حيّة ، وكذلك تلك الخلائق روحانيّة وهذه جسمانيّة ، تلك شفّافة وهذه مظلمة ، وتلك باقية وهذه فانية وتلك صافية وهذه كدرة ، وتلك نورانيّة وهذه ظلمانيّة ، وتلك حافظة وهذه فاسدة .

فقال الملك : لمَ أُخرج آدم وذرّيّته من هناك ، وأُهبطوا إلى الأرض ؟

قال : لجناية كانت منهما .

فقال حدّثني كيف كانت القصّة ؟ قال هي سرّ خفيّ لا يجوز كشفه ولكن أضرب لك مثلاً تفهمه ، ألا ترى أيّها الملك إلى عبدك فلان الّذي ربّيته صغيراً ثمّ لمّا نشأ وربا أدّبته وعلّمته كثيراً ، فلمّا كبر اصطفيته وفضّلته وشرّفته ، ثمّ ولّيته بعض مملكتك وجعلته خليفة على بعض بلادك وأمرت بطاعته أكبر عبدك ورعيّتك ، ومنحته أكبر نعمتك ونهيته عن معصيتك ، فخالفك وترك وصيّتك وارتكب نهيك ، كيف حططت مرتبته وكيف تكشف عورته ، وكيف حبسته في حبسك هو ومن ساعده على ذلك ؟ ثمّ انظر كيف رضيت عنه لمّا ندم وتاب ورجع هو ومن معه ، وكيف رددته إلى حالته الأُولى ، وكيف خلّدت من لم يعترف ولم يرجع ، فهكذا قياس آدم وإبليس وذرّيّتهما .

---

(١) كذا في الأصلين .

فقال الملك : أكلّ ذرّيّة آدم وحوّا جنوا وعصوا .

قال : لا ولكن كنّا ذرّيّة من بعدهم ، فلمّا جاءت الأنبياء عليهم السلام بالرسالة قامت الحجّة علينا أن نقول يوم القيامة إنّا كنّا عن هذا غافلين .

قال الملك للوزير : ما تقول هذه الرسل إذا بلّغوا ، والأنبياء إذا أخبروا في دعوتهم الناس وتذكارهم لهم لما قد نسوه ، وإعلامهم إيّاهم ما قد جهلوه ؟

فوصف له ما قد ذكرنا طرفاً منه في رسالة النواميس الإلّهيّة ، وما يفعلونه في رسالة اعتقاد إخوان الصفاء .

فقال : كيف [عشرتهم] مع أهل دعوتهم وعشرة أهل دعوتهم بعضهم مع بعض ؟

فذكر له ما قد ذكرنا طرفاً منه في رسالة «عشرة إخوان الصفاء بعضهم مع بعض» .

فقال : بماذا يمتازون أهل دعوتهم من غيرهم ؟

فوصف له ما ذكرنا طرفاً منه في رسالة «خصال المؤمنين وشرائط الإيمان» .

فقال : أخبرني عن كتب الأنبياء بأيّ لغة تكون ؟

قال : بلغة القوم الّذين نشؤوا فيها ، وبألفاظ الّذين بعثوا إليهم .

قال : عرّفني معاني ألفاظها .

قال : تكون منها أخبار القرون الماضية وأحاديث الأُمم السابقة ، وبدء خلق السماوات والأرض وكيفيّة انطباقهما ، ووصف أصناف الخلائق فيهما وأخبار ما يأتي في المستقبل من حديث الأيّام ، وتغييرات الدهور والأزمان ، وفناء عالم الأجسام وكيفيّة نشوء الآخرة والحشر والحساب والميزان والقصاص ، والجواز على الصراط والنجاة ، وما شاكلها من الأمر المنتظر في الزمان المستقبل ، ويكون فيها الأوامر والنواهي والتعليم والتأديب وبيان الحلال

والحرام ، والحدود والأحكام ، والفرائض والسنن ، من الصوم والصلاة والقربات والزكاة ، وفنون التعبّدات ، بالترغيب إلى نعيم الجنان ، والمدح والثناء على أهل الخير والزجر والنهي عن المساوي والشرور ، والجور في الأحكام ، والوعيد بعذاب النيران ، بضروب الأمثال والإشارات والرموز ، ويكون فيها آيات بيّنات محكمات للقلوب وأُخر متشابهات محنة للعقول .

فقال : فأخبرني بكلّ أوامرهم ونواهيهم وتحريمهم وتحليلهم وفرائضهم وسننهم هل تكون مساوية ؟

قال : لا ، بل مختلفة .

قال : ولمَ ذاك ومرسلهم واحد ؟

قال : لأنّهم أطبّاء النفوس ومنجّموها ، فمحرّماتهم حمية النفوس ومحلّلاتهم أدوية وشراب ، وفنون التعبّد هي العلاجات ، ومداواة كلّ ذلك بحسب ما يعرض للنفوس من الأمراض الّتي هي الآراء الفاسدة والأخلاق الرديئة ، والعادات الجائرة ، والجهالات المتراكمة ، كلّ ذلك بحسب اختلاف طبائع الأُمم وأهوية البلدان ، وتغييرات الزمان ، وموجبات النجوم ودلائل القرانات .

وكان ممّا سأل الفتى ذلك الحكيم أيضاً أن قال له : أخبرني ما يرى الحكماء حال النفوس بعد مفارقة هذه الأجساد على الشرائط الّتي ذكرت إلى ملكوت السماء ، هل تشتاق إلى هذا الجسد أو تتمنى العود إليه ؟

قال الحكيم : ذكر أنّه كان ملك من الملوك وكان له ابن كريم ، فزوّجه ابنة ملك وزفّها إليه على أحسن ما يكون من الكرامات ، كما تزفّ بنات الملوك ، وأصلح للحاشية دعوة سبعة أيّام ، وكانوا مشغولين بالأكل والشرب والغناءِ والفرح والسرور .

فلمّا مضى من الليل قطعة ونام أكثر الناس قام من مجلسه ودخل الحجرة للخلوة وقام الفتى يمشي في الدار حتّى خرج من باب الدار وحصل في الشارع ، ومشى حتّى خرج من المدينة ، فوقع في الصحراء ولم يدر أين هو .

ثمّ إنّـه رأى ضوءاً من بعيـد فذهب نحـوه حتّى قرب منـه ، فإذا هـو بباب مردود ، والضوء من داخله فـدفع فـإذا هو بقـوم نيام مـطرحين يمنة ويسـرة ، كلّ واحد ملفوف في إزار ، فـظنّ أنّها حجـرة العروس ، وأنّ أُولئـك النيام جـواريها وخـدمهـا ، فجعـل ينـاديهم ، فلم يجبـه أحـد منهم ، فـظنّ أنّ ذلـك من شـدّة سكـرهم ، فجعـل يلتمس العـروس من بينهم حتّى وقعت يـده على واحـدة هي أطراهنّ ثياباً وأطيبهنّ ريحاً فظنّ أنّها عروسه فاضطجع معها ، وجعل طول الليـل يلثمها ويمصّ ريقها ويتلذّذ ولا يرى أن يكون لذّة أطيب ممّا هو فيه .

فلمّا أصبح وزال سكـره نادى إلى الخـادم فلم يجبه أحـد ، وجعل يحـرّك العـروس فلا تجيبـه ولا تنتبه ، فلمّـا طـال ذلـك عليـه فتـح عينيـه فـإذا هـو في ناؤوس[١] عجوز قـد ماتت منـذ مدّة ، وعليهـا أكفان جـدد وحنوط طـريّ ، وإذا الدماء والصديد قد سال منهـا ، وقد تلوّثت ثيـابه ويـديه ووجهـه من تلك الدمـاء والصديد والقاذورات ، وهو متفكّر في أمره كيف وقع هناك .

فلمّا رأى تلك القاذورات هاله وورد عليه أمر مهول ، فقام مـرعوبـاً وطلب الباب وخرج هارباً متنكّراً مخافـة أن يراه أحـد على تلك الصورة ذاهبـاً في طلب الماء ليغسل ثيابه ، حتى ورد إلى نهر فنزع ثيابه ، ووقـع في الماء يغسـل ما بـه من الدم والصديد والقاذورات ، وهو متفكّر كيف كـان خروجـه من مجلسه ، ولا يدري أين هو من البلاد وما خبر أهله من بعده .

فما زال كذلك إذ مرّ به مجتاز في الطريق ، فلمّا رآه لم يعرفه ، قـال له : ما قصّتك قاعداً في الماء ؟ فاستحيا منه أن يعـرّفه خبـره فقال : زلقت في مـزبلة وتلوّثت ثيابي ، وأنا قاعد هنها منتظر أن يوجّه أهلي [إليّ] بثياب ألبسها .

فقـال له ذلـك المجتاز : إنّ النـاس في شغل عنـك ، فقال : ومـا الّـذي أصابهم ، قال : يقـولون : ابن الملك اختـطفه الجنّ البـارحة ، وهم محـزونون عليه مستوحشون لفقده فقال له عندي خبر ابن الملك فهل لك أن تعيرني ثيابـك ودابّتك حتّى أمرّ وأُبشّرهم به ، والبشارة بيني وبينك بنصفين ، فدفع الرجل إليـه

---

(١) الناؤوس : مقبرة النصارى . وقد سبق .

بعض ثيابه وأركبه دابّته وأوصله إلى دار الملك ، فدخل الغلام متنكّراً من باب الحجرة فلمّا رأوه فرحوا به وسألوه عن خبره ، فقال : القصّة طويلة أُحدّثكم بها وقتاً آخر ، عودوا إلى ما كنتم عليه ، فعاد القوم إلى السرور والفرح أضعاف ما كانوا عليه .

ثمّ قال الحكيم للفتى : ما تقول وما ترى ؟ هل ذلك الغلام يرتدّ بعد ما نجّاه الله من مبيته تلك الليلة في الناؤوس مع تلك المرأة ، أو يشتاق إليها وإلى عناقها مرّة أخرى ؟ قال : لا ، قال الحكيم : فكذا يرى الحكماء حال النفوس بعد مفارقتها الجسد ، وصعودها إلى ملكوت السماء ، أنّها لا تشتاق إلى هذا الجسد ، ولا تريد العود إليه بل تأنف من الفكر فيه ، وتشمئزّ من ذكره ، كما اشمأزّت نفس الغلام من ذكر مبيته في الناؤوس تلك الليلة وما عليه من العار عند أبناء الملوك إن عرفوا حديثه .

واعلم أيّها الأخ أنّه كما أنّ المعاونة بقوّة الأجسام على أُمور الدنيا من أبلغ ما يكون لأبناء الدنيا فيما يريدون ، وأسهلها عليهم فيما يقصدون ، فهكذا نرى أنّ المعاونة بين إخواننا بالعلوم والمعارف على أمر الدين ، في طلب الآخرة من أبلغ ما يقصدون وأسهلها عليهم فيما يرومون .

واعلم بأنّا لا نستعين بأحد من إخواننا على أمر الدين قبل أن نبذل له المعاونة على أمر الدنيا ، فإن كان مستغنياً عن معاونتها ، فذاك الّذي نريد له ، وإن كان محتاجاً إلينا فذاك الّذي نريد منه حتّى إذا كفيناه ما يهمّه من أمر دنياه ، وفرغ لنا قلبه ، وجمع لنا رأيه ، استغنى عند ذلك بقوّة نفسه ، وتمييز عقله وصفاء جوهره ، فإن كان عنده علم ليس عندنا تعلّمناه منه تعلّم صبيان الكتّاب ، واستمعنا منه استماع المنصتين لخطب الخطيب يوم الجمعة ، فإن كان حقّاً ما يقول اتّبعناه اتّباع المأموم للإمام ، وإن كان يرغب فيما لدينا من العلم علّمناه بحسب رغبته وطلبته .

واعلم أيّها الأخ البارّ الرحيم أيّدك الله وإيّانا بروح منه بأنّه لا يحسن بنا أن ندّعي معرفة حقائق الأشياء ونحن لا نعرف نفوسنا لأنّ مثل من يدّعي ذلك وهو

لا يعرف نفسه كمثل من يطعم الناس وهو جائع ويكسو الناس وهو عريان ، وكمن يداوي غيره وهو عليل أو كمن يهدي الناس الطريق وهو لا يعرف طريق بيته ، وقد علم أنّ الإنسان في مثل هذه الأشياء ينبغي له أن يبتدىء أوّلاً بنفسه ، ثمّ بغيره .

دليل آخر أنّ الإنسان إذا لم يعرف ربّه لم يعرف نفسه ، فينبغي لنا أن نسعى أوّلاً في المعارف الإلهيّة ، فإذا وفّقنا الله لمعرفته عرفنا أنفسنا بتفضّله ورأفته وهذا سرّ قوله صلى الله عليه وآله وسلم[1] : «من عرف نفسه فقد عرف ربّه» .

وفي هذا الحديث تفسير مختصر دون ما ذكروه وهو أنّك تعرف أنّ صفات نفسك على الضدّ من صفات ربّك ، فمن عرف نفسه بالعبوديّة عرف ربّه بالربوبيّة ، ومن عرف نفسه بالفناء عرف ربّه بالبقاء ، ومن عرف نفسه بالجفاء والخطاء عرف ربّه بالوفاء والعطاء ومن عرف نفسه كما هي عرف ربّه كما هو .

فكأنّه عليه السلام أراد بمعرفة النفس أنّ الإنسان يعسر عليه معرفة نفسه إلّا من وفّقه الله ، فقال على سبيل الندور والقلّة ، فصار النادر كالمعدوم فكأنّه في قوله عليه السلام : «من عرف نفسه عرف ربّه» علّق مستحيلاً على مستحيل ، لأنّه يستحيل أن تعرف نفسك وكيفيّتها ، فإنّك إذا كنت لا تطيق أن تصف نفسك الّتي بين جنبيك بكيفيّة وأينيّة ولا شبحيّة وَلا هيكليّة ، فكيف يليق بعبوديّتك أن تصف الربوبيّة بكيف وأين وهو مقدّس من الأين والكيف ؟

وروى المفضّل عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام في حديث طويل قال : كان عيسى بن مريم على نبيّنا وعليه السلام يقف بين الحواريّين فيعظهم ويقول : ليس يعرفني من لا يعرف نفسه ، ومن لم يعرف النفس الّتي بين جنبيه لم يعرف النفس الّتي بين جنبي غيره ، ومن عرف نفسه الّتي بين جنبيه عرفني ، ومن عرفني عرف الّذي أرسلني .

يا مفضّل ! قال الله تعالى : **﴿يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله ولتنظر نفس ما**

---

(١) رواه له ورام في مجموعته . وذكره الطريحي لعليّ عليه السلام .

قدّمت لغد ـ إلى قوله ـ أولئك هم الفاسقون﴾[1] والفاسق هو الّذي فسق عن معرفة الله وخالف أمره ، ولو عرف لأطاعه .

يا مفضّل ! إنّ أمير المؤمنين عليه‌السلام كان يقف في أصحابه ويقول : ما هلك امرؤ عرف قدره ، فاعرفوا أقداركم تعرفوا أقدار غيركم ، وكان يقول عليه‌السلام[2] : «العالم ثلاثة عالم ربّانيّ ومعلّم على سبيل النجاة وهمج رعاع أتباع كلّ ناعق لم يستضيئوا بنور الحكمة ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق» .

شعـر :

قل لمن يفهم عنّي ما أقول	ضربت والله أعناق الفحول
أنت لا تعرف إيّاك ولم	تدر من أنت ولا كيف الوصول
لا ولا تدري صفاتاً ركّبت	فيك ، حارت في خفاياها العقول
أين منك الروح في جوهرها؟	هل تراها؟ فترى كيف تحول؟
هذه الأنفاس هل تحصرها؟	لا ، ولا تدري متى عنك تزول
أين منك العقل والفهم إذا	غلب النوم؟ فقل لي يا جهول
أنت أكل الخبز لا تعرفه	كيف يجري منك أو كيف تبول؟
فإذا كان طواياك الّتي	بين جنبيك كذا فيها ضلول
كيف تدري من على العرش استوى	لا تقل كيف استوى كيف النزول؟
كيف تحكي أم ترى كيف ترى؟	فلعمري ليس ذا إلّا فضول
فهو لا أين ولا كيف له	فهو ربّ الكيف والكيف يحول
هو فوق الفوق لا فوق له	وهو في كلّ النواحي لا يزول
جلّ ذاتاً وصفاتاً وسما	فتعالى قدره عمّا أقول

واعلم أنّه من عرف نفسه عرف ما يراد منه ، فاشغل نفسك واستعملها فيما خلقت له فأوقفها في مواقف العبوديّة للقيام بحقوق الربوبيّة ، ومتى اشتغلت بمعارضة الربوبيّة فاتتك العبوديّة ، ولم تدرك الربوبيّة .

---

(١) سورة الحشر ؛ الآية : ١٨ .

(٢) شرح النهج لعبده (٢ : ١٧٨) من الكلمة القصيرة ١٤٧ فيما خاطب به كميل النخعي .

وها أنا أشرح لك صفات ذاتك لتعلم ما يراد منك في حياتك ومماتك ؟ واعلم أنّ الله سبحانه وتعالى لمّا أراد أن يبتني صورة آدم من زمن تقادم ، ابتناها على صورة مدينة ، وأتقن فيها من المباني ما يدلّ على قدرة الباني ، وحرّك فيها مثالث ومثاني ، تشير أن ليس له ثاني .

ثمّ نصب في هذه المدينة قصر المملكة وبثّ حوله أشراك المهلكة ، وسمّي ذلك القصر القلب إذ هو بيت الربّ ، وجعل مدار هذه المدينة عليه ، ومرجع الكلّ إليه بإشارة ، ألا وإنّ في الجسد مضغة إذا صلحت صلح بها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسد بها سائر الجسد ، ألا وهي القلب .

ووضع في هذا القلب سرير العزّ والسلطان ، وأجلس عليه ملكاً يقال له الإيمان وبثّ الجوارح في خدمته كالغلمان ، فقال اللسان : أنا الترجمان ، فقال العينان : ونحن الحارسان ، فقال الأذنان : ونحن الجاسوسان ، فقال القدمان : ونحن الساعيان ، فقال اليدان : ونحن العاملان ، فقال الملكان : ونحن الشاهدان ، وقال صاحب الديوان : وكما تدين تدان .

ثمّ جعل له وزيراً وهو العقل ، فقال الوزير : أيّها الملك لا بدّ لك من خاصّة تصطفيهم لنفسك خلاصة ، يؤثرونك على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ، فأوّل ما تحتاج إلى تاج وهو الولاية . وإلى المعراج وهو العناية ، وإلى دليل وهو الهداية ، ثمّ لا بدّ لك من مركوب وهو الصدق ، ومن حلّة وهو السكينة ، ومن حاجب وهو العلم ، ومن بوّاب وهو الورع ، ومن سيّاف وهو الحقّ ، ومن كاتب وهو المراقبة ، ومن سجن وهو الخوف ، ومن ميدان وهو الرجاء ، ومن سراج وهو الحكمة ، ومن نديم وهو الفكر ، ومن خزانة وهو اليقين ، ومن كنز وهو القناعة ، ومن صاحب بريد وهو الفراسة .

ثمّ أيّها الملك تنظر إلى رعيّتك بعين الرحمة وتفتح خزائن النعمة وتعدل بينهم في القسمة ، وتبعث لكلّ واحد منهم قسمة يقيم به رسمه ، فقال له الملك : انظر أنت في الرعيّة وأزل عنهم الشكيّة وتولّ تفرقة الجامكيّة ، فقال اليدان : أنا عليّ جميع الآلة ، وقال الأسنان : وأنا أطحن وأعزل النخالة ، فقال الريق : أنا أعجن وأتولّى للمعدة إرساله ، فقالت المعدة : وأنا أطبخ وما أُريد

على ذلك عمّالة ، فقال الكبد : وأنا آخذ ما صفا وأترك الحثالة ، فقالت القدرة : وأنا أتولّى تفرقتها وقسمتها بالعدالة ، وأبعث إلى كلّ عضو ما يطيق احتماله .

فلمّا فرّقت الجامكيّة نقداً لا حوالة وصحّح الملك أحواله ، فقال له الوزير : ما بعد التفقّه إلّا العرض وأداء الفرض ، فناد في جيشك بالطول والعرض ، لينذر البعض البعض قبل أن تبدّل الأرض غير الأرض . فنادى :

يا معشر الرعيّة ! إنّ الملك قد أقسم بالإلهيّة ، أنّ من عدل عن الطريق السويّة وكفر نعمة العطيّة وأنفقها في الخطيئة ، فلقد أفسد النيّة ، ونقض البنية ، أُولئك هم شرّ البريّة .

وإنّ للملك عدوّاً قد سكن جواره ، يقال له النفس الأمّارة ، وهي تنازع الإمارة واستنصرت عليه بالدنيا الغدّارة ، وظاهرهما الهوى وبعث إليهما أنصاره ، وجاء الشيطان وكتبت له منشور الوزارة ، وقد شنّوا في أرض الملك الغارة[١] .

فيا خيل اللّه اركبي[٢] ومن الإغراء لا ترهبي .

فهناك ركب القلب بين ميسرة خوفه ، وميمنة توكّله ، وساقة التجائه ، متحمّلاً أثقال إيّاك نعبد ، متمسّكاً أذيال إيّاك نستعين .

فلمّا فصل بجنوده إلى معبوده بصدق النيّة ومناديه ينادي في ناديه : إنّ الله مبتليكم بنهر الدنيا الدنيّة ، فمن شرب منه فليس منّي ، ومن عوّل عليه فليتنحّ عنّي .

فقال أهل الضرورة : لا بدّ من إقامة الصورة ، فجاءت من وجه الراحة بإباحة إلّا من اغترف غرفة بيده ، فأمّا من عدم الفطنة ووقعوا في شرك الفتنة ، فشربوا وتروّوا حتّى أورثهم البطنة فلمّا قابلهم القوم قالوا : لا طاقة لنا اليوم ، فقال الّذين صبروا ابتغاء وجه الله : كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله .

---

(١) شن الغارة عليهم ـ من باب مد ـ : وجهها عليهم من كل جهة .

(٢) أول من قالها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم على ما ذكره الجاحظ في البيان والتبيين (٢ : ١٥) .

فالتقتا بجيشهما في مجمع بحريهما ، هذا عذب فرات ، وهذا ملح أجاج ، فكان التوكّل موكّلاً بالحرص ، والزهد محاذياً للدنيا ، والتواضع مدافعاً للعجب ، والإخلاص ماحياً للرياء ، والتقوى منافياً للدعوى ، والخوف مواقفاً للهوى ، والتسبيح والتقديس في محاربة إبليس .

فتقدّم حزب الله وشعارهم : اللّهمّ إنّا جعلنا بك إقدامنا ، فإنّا لا ندري ما قدّامنا ، فهزموهم بإذن الله واستنصروا ، وما النصر إلاّ من عند الله ، فلم ير منهم إلاّ مولّ دبره ، وقاسم عمره ، وأصبحت منازل الهوى والنفس كأن لم تغن بالأمس ، وما زالت النفس بأسرها في أسرها حتّى اعترفت بخسرها ، واتّصفت بكسرها ، وناداها من له المنّة : يا أيّتها النفس المطمئنة .

شعر :

يا نفس توبي اليوم من قبل أن   تفتضحي في الغد بين العباد
وخالفي يا نفس حكم الهوى   وجاهدي في اللّه حق الجهاد
وادّرعي درع التقى واصبري   وصابري في حرب أهل العناد
يا نفس! إنّ اللّه منك اشترى   بشرط تسليم جميع القياد
فاستبشري بالبيع واستسلمي   وأصلحي يا نفس منك الفساد
أفلست والسلعة معيوبة   لا تشتري والسوق سوق الكساد
والركب قد جدّ مسيراً، ولا   لهول يوم العرض قدّمت زاد
وكلّما ابيضّ مشيبي فلا   يزداد وجه القلب إلاّ سواد
واخجلتى واحسرتى! إن أكن   من بين صحبي قد عدمت الرفاد

واعلم بأنّ هذا الجسد لهذه النفس بمنزلة دار تسكن ، أو دابّة تركب أو آلة تستعمل وما دامت هذه النفس مع هذا الجسد مربوطة إلى الوقت المعلوم ، فلا بدّ لنا من النظر فيما يصلح معيشة الحياة الدنيا وما ينال به الفوز والنجاة في الآخرة ، وذلك باتّباع أهل الذكر .

فعليك أيّها الأخ البارّ الرحيم أيّدك الله بأهل العلم الّذين هم أهل الذكر من أهل بيت النبوّة ، المنصوبين لنجاة الخلق ، وقد قيل : استعينوا على كلّ

صنعة بأهلها .

واعلم أنّ الذكر في بعض الوجوه هو العقل الّذي يذكّر النفس ما غاب عنها من أمر عالمها الروحانيّ ومحلّها النورانيّ ويحثّها على الأعمال الصالحة ، والمتاجر الرابحة وأنّ النفس متى عدلت عنه وخالفته ، وتركت وصيّة ربّها وما أمرها به وأقبلت على الطبيعة ومالت إلى مستحسناتها ، وطلب الرياسة والعلوّ والغضب والتعدّي أصابها مثل ما أصاب الأعمى والمقعد اللّذين خالفا وصيّة صاحب البستان .

مثل ما ذكروا فيما يروى من الأمثال أنّه كان ببلاد الهند رجلان أعمى ومقعد اصطحبا في طريق فعبرا ببستان فمالا إليه ، فرآهما صاحب البستان ورأى فقرهما ومسكنتهما فرحمهما وقال : يا هؤلاء ما تقولان في أن أُدخلكما بستاني فتأويا فيه وتنالا منه بحسب الحاجة ما يكفيكما ممّا آتيكما أنا ، ولا تؤذيا بالثمار فتفسدا ؟ فقال أحدهما : وكيف نؤذيك على بستانك ونحن على ما ترى من الزمانة وسوء الحال ، أحدنا أعمى والآخر مقعد ، وأيّ حيلة لنا في تناول شيء من الثمار وهي في رؤوس الأشجار ؟

فقال لهما : ادخلا ، فدخلا إلى ذلك البستان وأوصى بهما الناظر الموكّل بالبستان وقال لهما : كونا كما ضمنتما وقال للناظر : احفظهما وأحسن إليهما وآتهما من ثمار هذا ما يكون به صلاح شأنهما فقال : سمعاً وطاعة .

ومضى صاحب البستان لسبيله فأقاما على ذلك مدّة، والناظر يتعاهدهما بما يكفيهما وأينع الثمر وكبر وحسن فقال المقعد للأعمى : ويحك إنّ في هذه الأشجار الّتي في البستان أنواعاً من الثمرات وأجناساً من الطيّبات ، وهذا الناظور فليس يحمل إلينا من هذا لنأكل منه فما حيلتنا في تناول شيء من ذلك ، من غير أن يعلم الناظور ؟ قال الأعمى للمقعد : لقد شوّقتني إلى ما ذكرت ممّا ترى ، وتعاينه من هذه الطيّبات وأصناف الثمرات فما الحيلة في ذلك ؟ فلم يزالا يجيلان الرأي في ذلك إلى أن قال المقعد للأعمى : أنا صحيح العينين أرى ما غاب عنك فاحملني على كتفك لأطوف في البستان ، فكلّما رأيت ثمرة

مليحة طيّبة قلت لك قدّمني يسرة ويمنة ، وتطاول وتقاصر فأقطعها أنا ، فآكل منها وأُطعمك منها ، وما يتعذّر وصول يدي إليه أضربه بعصاك إلى أن يقع فتأخذ أنت ولكن نفعل ذلك إذا غفل الناظور ، فقال الأعمى : نعم ما رأيت ، وأنا أفعل ذلك غداً إن شاء الله .

فلمّا كان بالغد ذهب الناظور في بعض حوائجه وأغلق باب البستان ، فحينئذ قام المقعد فركب ظهر الأعمى وطاف به البستان ، وأفسدا فيه ذلك اليوم ما قدرا عليه ووصلا إليه ، ثمَّ رجعا إلى بقعتهما فرقدا .

فلمّا جاء الناظور ودار في البستان لم يخف عليه ما حدث فيه من الفساد ، لأنّه قد كان عينّ على ثمار منها في أشجار معروفة أراد قطافها في ذلك اليوم ، ليهديه إلى بعض الرؤساء ، فلم يره في الشجر فأتى إليهما وسألهما هل دخل البستان أحد في غيبتي ؟ قالا : ما ندري ، قال الأعمى : أنا لا أُبصر ، وقال المقعد : أنا كنت قاعداً ، فصدّقهما الناظور .

فلمّا كان الغد خرج الناظور على الرسم ، فقاما وفعلا أقبح من فعلهما الأوّل ، وعاد الناظور ، ورأى الفساد قد تضاعف على ما كان بالأمس ، فخاف اللاّئمة من صاحب البستان أن يقول له ما هو ذا ؟ تبيع ثمري وليس تحفظها ، فقال : كيف أعمل حتّى أعلم من أين هو ذا أتى ، ومن هو ذا يفسد البستان ؟

فلمّا كان بالغد أوهم أنه قد خرج كما جرت به العادة ، وكمن في بعض حيطان البستان ، وظنّ الأعمى والمقعد أنه قد خرج كعادته ، فقاما إلى ما قد تعوّدا إليه من الفساد وارتكاب المنهيّ .

فلمّا رآهما الناظور علم أنّ الفساد من جهتهما وكان غلاماً حليماً عاقلاً فتركهما حتّى رأى جميع ما عملاه وقبيح ما صنعاه إلى أن رجعا إلى مكانهما فأقبل إليهما وقال : ويحكما ويحكما ما الّذي استحقّ به مولاي صاحب البستان حتّى تفعلا هذا الفعل ببستانه ؟ فأنكرا ذلك وباهتاه ، فقال : إنّي نظرتكما وقد قمت أيّها المقعد ، فركبت على ظهر الأعمى ، فلمّا سمعا ذلك حقّقا أنّه قد رآهما فقالا له : قد فعلنا ذلك ، ولا تُعلم صاحب البستان ، فإنّا نتوب على يدك

ولا نعاود فقبل منهما وأقبل يعظهما ، وقال : أنا آتيكما بكلّ ما تريدانه من الثمار والفاكهة من حيث لا يضرّ ببستان مولاي ، ولا أضرّكما ولا أرتكب ما نهيتكما عنه ولا تأكلا إلاّ ما حملته لكما فقالا : سمعاً وطاعةً وتركاه حتّى غاب الناظور ، وعادا إلى أقبح ما كانا عليه ، فرجع الناظور فرأى أثر فسادهما ، فعاودهما النصيحة ووعظهما وخوّفهما بالله ، فلم يقبلا منه وارتكبا ما نهاهما .

فاتّفق دخول صاحب البستان ذلك اليوم إليه ، فلم ير الناظور بدّاً من إعلام صاحب البستان ، فقال : قد علمت ذلك ولم يغب عنّي شيء ممّا فعلاه ، وكأنّي بهما وقد ركب المقعد ظهر الأعمى وطاف به في البستان ، فما وصل إليه من الثمر أخذه ، وما لم يصل إليه ضربه بعصاه ، قال الناظور : كذا فعلا وقد نهيتهما فما انتهيا .

فقال صاحب البستان : إنّهما قد استحقّا العذاب بما فعلاه ، وقبح ما ارتكباه ، ثمّ أمر عبيده أن يمضوا إلى البستان فيعاقبوا الأعمى والمقعد أشدّ عقوبة تكون ، ويخرجونهما من البستان إلى البرّيّة بحيث لا يجدان مكاناً يعتصمان به ولا يأويان إليه حتّى تأكلهما السباع والوحوش ، فيهلكا ففعل ذلك بهما في البرّيّة كما فعل بأبينا آدم وأمّنا حوّا لمّا ذاقا الشجرة .

وإنّما ضرب حكماء الهند هذا المثل لأنّهم شبّهوا النفس بالمقعد ، وذلك أنّها لا تبطش إلاّ بآله جسدانيّة وبهذه الآلة تتمكّن من فعل الطاعة والمعصية ، والجسد بالأعمى وذلك أنّه ينقاد حيث تقوده النفس ويأتمر لما أمرته ، والبستان بدار الدنيا ، والثمار مثل طيّبات الدنيا من الشهوات ، وصاحب البستان هو الله سبحانه مالك الدنيا والآخرة ، وناظر البستان هو العقل الّذي يدلّ على المنافع والمضارّ ، ويأمرنا بالمنجيات ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، وهو ينصح النفس ويدلّها على ما يكون لها فيه الصلاح والسلامة في الدين والدنيا جميعاً ، وأخذ الإنسان من حيث يحبّ ، وإذا لم تقبل منه وعدلت عنه إلى شهواتها الحيوانيّة والمحاسن الجسدانيّة الّتي يكون بها صلاح الجسم ، وحسن حاله في الدنيا ، وبذلك يكون زمانتها وخسرانها آخرتها ، وتحيط بها سيّئات ما عملت وقبائح ما اكتسبت في الدنيا ، وفي ألذّ ما يكون من تناول الشهوات غافلة

على جهالتها متردّدة في ضلالتها ، حتّى تأتيها ملائكة الله الغلاظ الشداد ، وزبانية جنوده وتخرجها من دار الدنيا بالكره والجبر ، فعند ذلك تقدم على سوء ما عملت ، وقبيح ما اكتسبت ، وإذا بها قد خسرت الدنيا والآخرة وذلك هو الخسران المبين ، وعند التقدير يأتيها الخبر ، قال الله تعالى : **﴿وينجّي الله الّذين اتّقوا بمفازتهم لا يمسّهم السوء﴾**[1] .

فاحرص أيّها الأخ أن لا تغترّ بهذه الدنيا ، ولا بمصاحبة هذا الجسد الفاني المضمحلّ البائد ، فإنّما هي أيّام يسيرة ، ولذّة حقيرة ، ومدّة قصيرة ، واعدل إلى الحقّ واقتد بالعقل فإنّه يقودك إلى ربّك ، ويدلّك على الأعمال الصالحة الّتي تكون بها الدرجة العليا والوصول إلى الجنّة المأوى في مقام الكرام ، بحيث لا تحتاج إلى جسدك الفاني ولا تذوق الموت ، ولا يصل إليك الألم ، ولا تحلّ بك الأسقام ، ولا تبلى بمفارقة الأحباب ومباينة الأصحاب ، ولا ينالك ذلّ ولا فقر ، ولا أسف فراق ، ولا كرب اشتياق ، وتكون في حظيرة القدس وروضة الأُنس آمناً من المصائب والنكبات والأُمور الحادثات ، والأحوال الّتي لا تختارها نفوس العقلاء ، ولا تؤثرها أرواح الفضلاء من المصائب الزمانيّة ، وما أهل الدنيا إليه مدفوعون من الكدّ والنصب والعناء والضرّاء والبأساء وخوف الزمان ، وجور السلطان وحسد الجيران ، وما هو موجود بين أهل الديانات والمقالات من العداوات والمباغضات والملاعنات ، وما يستحلّه بعضهم من سفك الدماء وأخذ الأموال .

وإذا وجدت أُمور الدنيا وتأمّلتها صادفتها كدار قد ملئت من أجناس الحيوانات ، يعادي بعضها بعضاً ، ويغلب بعضها على بعض كغلبة السباع للكلاب ، وكما يفعل الملوك والسلاطين بمن دونهم إذا غلبوهم ، وأخذوا أموالهم ، وكما يفعل الكلاب بالسنانير الّذين هم بخلافهم في الصورة ، إذا وصلوا إليهم وقدروا عليهم ، جزاء لهم على ما يأكلون من الملاذ . وما هم عليه من الدعة والرفاهة الّتي هم فيها ، ومحبّة الناس لهم وإكرامهم إيّاهم ، فهكذا

---

(١) سورة الزمر ؛ الاية : ٦١ .

أمور أهل الدنيا : الأشرار أبداً أعداء الأخيار ، والفقراء أعداء الأغنياء ، يتمنّون لهم المصائب ، وإذا قدروا على شيء من مالهم وأمتعتهم أخذوها وانتهبوها ، وكذلك أهل الشرائع المختلفة يقتل بعضهم بعضاً ، ويغزو بعضهم بعضاً ويلعن بعضهم بعضاً ، وكذلك تجد أهل الشريعة الواحدة المختلفين في الآراء والاعتقادات أيضاً ، يقتل بعضهم بعضاً ، مثل الشيعة والناصبيّة والجبريّة والقدريّة والمرجئة وغير ذلك من شريعة الإسلام ، وكذلك في الشريعة المسيحيّة ، وكذلك في الملّة العبرانيّة كالعينيّة والسمعيّة والسامرة ، وفي الملّة السريانيّة كالنسطوريّة واليعقوبيّة والملكيّة ، وما بينهم من الخلف ، وكذلك في كلّ ملّة وشريعة تجد المختلفين في اللغات مستوحشين بعضهم من بعض ، ويثقل على كلّ واحد منهم ما لم يألفه من لغته ، وهذا لا يخفى على من تأمّله ونظر فيه .

واعلم يا أخي أنّه لا يصلح بين أهل الديانات ، ولا يؤلّف بين المتعاديات ، ولا يزيل من النفوس العداوات والأحقادَ الطبيعيّة إلّا المعرفةُ بالحقّ ، الّذي يجمعهم على كلمة التقوى ، ويدعوهم إلى الله سبحانه ، كما قال عزّ وعلا : ﴿**إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً**﴾[1] وقال عزّ من قائل لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿**لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألّفت بين قلوبهم**﴾[2] وقال تعالى : ﴿**أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم**﴾[3] وقال : ﴿**إخواناً على سرر متقابلين**﴾[4] وقال : ﴿**يحبّون من هاجر إليهم**﴾[5] وقال لهم : ﴿**هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتّبعني**﴾[6] فمن رأى نفسه معادياً لطائفة من الطوائف حنقاً عليها فهو ممّن لم ينزرع الحقّ في قلبه ، ولا خالطت الهداية لبّه .

---

(١) سورة آل عمران ؛ الآية : ١٠٣

(٢) سورة الأنفال ؛ الآية : ٦٣ .

(٣) سورة محمد ؛ الآية : ٢٩ .

(٤) سورة الحجر ؛ الآية : ٤٧ .

(٥) سورة الحشر ؛ الآية : ٩ .

(٦) سورة يوسف ؛ الآية : ١٠٨ .

واعلم أنّه إنّما وقع الاختلاف في الشريعة بعد ذهاب النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لمّا تنازعوا فيما بينهم لطلب الرياسة والمنزلة وكان منهم ما كان إلى أن جرى ما جرى من هتك حرمة النبوّة وقتل أهل الرسالة وحفّاظ الوحي ، وما فعله ابن زياد يوم كربلاء وما كان من الفتنة والبلايا ، الّتي شملت أهل الشريعة المحمّديّة ، والعصبة الهاشميّة من قتل بعضهم بعضاً ، فلذلك كثرت الآراء والمذاهب فقال قوم : لم يجر ذلك إلاّ بقضاء الله وقدره ، ويرى أنّ الأمر كما قالوا ، ولكن إنّما كان قصدهم بهذا القول انتباه لخلاص أنفسهم ممّا عملوه ، فإنّهم ما فعلوا ذلك إلاّ بما حكم الله به عليهم ، فإذا كان ذلك كذلك فلا ذنب عليهم ولا وزر لهم .

واعلم يا أخي أنّ هذا الرأي يجسّر الإنسان على فعل المعصية ، وارتكاب الفاحشة وإنّما استخرج هذا الرأي وبثّ هذا الاعتقاد في الناس أصحاب الكبار من الذنوب لما علموا أنّ ذنوبهم إذا ظهرت وانتشرت بعد ذهابهم وانقراض ذرّيّتهم ، يكثر لعنهم وسبّهم وشتمهم ، فإذا جرى ذلك في العالم من يحفظ هذا الرأي منهم فينهى عن ذلك ويقول لمن سمع هذا منه : أمسك فإنّ هذا كان بقضاء الله وقدره وحكمه عليهم وإنّ ما حكم الله لا يقدر أحد على دفعه ، فيكون تسكيناً لما يشنع من ذكرهم وأفعالهم وأعمالهم وقبائح سيرهم فسوّغوا الجهّال من الناس والنساء خصوصاً أنّ ما يفعلوه إنّما هو محكوم عليهم ولا يمكنهم دفعه فجعلوا هذا اعتقاداً . وأقدموا على المعاصي بحجّة ، وإن رادّهم فيه أحد قيل له : أنت كافر قدريّ تقول : إنّ قضاء الله وقدره لا يمكن أن يحترز عنه ، ولم يعرفوا ما القضاء وما القدر ، ولا طلبوا علم ذلك من أهله فنشأ على ذلك الصغير ، ودان به الكبير إلى حيث انتهينا فهو مذهب أكثر العوامّ ، وبعض من عنده أنّه متميّز ، وإنّما ذكرت هذا بحسب ما أوجب دعوة في هذا القصد .

واعلم أيّها الأخ أنّك إن أقبلت على شهوات الدنيا وملاذّها واغتررت بما فيها من الطيّبات ومحاسن الزينة واشتغلت عمّا لك فيه صلاح ونجاح في دار المعاد يوشك أن يصيبك ما أصاب رجلاً اشتهى سمكاً ، فإنّه قيل في أمثال الهند :

إنّ رجلاً اجتاز في طريق كان يجتاز فيها بنهر خرّار يتحدّر من جبل عليه

جسر يعبر الناس عليه ، وإنّه لمّا صار على ظهر الجسر ، فبينا هو كذلك إذ نظر إلى سمكة كبيرة من أحسن أجناس السموك ، فقال في نفسه : ما أنصرف في يومي هذا إلى بيتي بأحسن من هذه السمكة فأشويها فأجتمع عليها أنا وأهلي وآكل منها أكلة طيّبة ، ولكن أخشى من شدّة جريان الماء أن يحول بيني وبين السمكة ، ثمّ قويت شهوته ودام مقام السمكة بحيث يراها ، فقوي طمعه في أخذها فنزع ثوبه ورمى بنفسه إلى الماء وغاص وراءها إلى أن قبض على السمكة بإحدى رجليه ويديه ، وفرح بظفره بها واشتغل عن السباحة مخافة أن تفلت السمكة منه وغلبه الماء بشدّة جريانه ، فأخذه عن الموضع الّذي نزل فيه وأشرف على الهلكة ،وشحّ على السمكة ولا يرى أن يخلّيها ، وينجو بنفسه ، فلم يزل ذلك حاله وهو يروم الخلاص بالسمكة إلى أن أخذه الماء إلى تنّور عظيم ينصبّ إلى وهدة تحت الأرض فغاصت به فأتاه عامر النهر ـ وكان سكن ذلك الموضع ـ فقال له : ما أوقعك في هذا المكان الّذي لا يقع منه أحد إلّا هلك وغرق ؟ فقال له : أنا الّذي تركت الطريق الواضحة والمحجّة اللائحة الّتي فيها النجاة والسلامة ، ووقعت في هذه الحركة من أجل لذّة يسيرة وشهوة حقيرة ، قال له هلاّ خلّيت ما في يدك ونجوت بنفسك ؟ قال : الطمع منّي في السلامة ، وفوت ما كان حدّثت به نفسي ، قال له : إنّك جاهل وما أرى أحداً بالغرق أولى منك ووضع يده على رأسه وغرقه .

فإذا تفكّرت أيّها الأخ في هذه الأمثال وقرأتها على إخواننا أيّدهم الله كان هذا ذكراً لك ولقومك وأعوذ بالله أن تكون ممّن تطرد عليه هذه الصفة ، ولا على أحد من إخواننا ، ولكن قد اقتدينا بقول الله سبحانه لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿**وذكّر فإنّ الذكرى تنفع المؤمنين**﴾[1] .

واعلم أنّ من سنّة الناموس والأدب الحسن تناول الطعام الّذي هو غذاء الجسد بثلاث أصابع فهذه السنّة، كأنّها إشارة من واضع الناموس للنفوس وتنبيه لها ، وحثّ على أنّه واجب طلب العلوم من ثلاث طرقات ، لأنّ العلم غذاء

---

(١) سورة الذاريات ؛ الآية : ٥٥ .

للناس كما أنّ الطعام غذاء للجسد، وأحوال النفس مماثلة لأحوال الجسد لشدّة اقتران ما بينهما ، فإحدى الطرق الّتي تنال بها النفس العلوم الفكرة الّتي بها تدرك النفس المعقولات ، ومن هذا الطريق أخذت الأنبياء عليهم السلام الوحي من الملائكة ، والطريق الآخر السمع الّذي تنال به النفس معاني اللّغات ، وما تدلّ عليه الأصوات من أخبار الغائبات والآخر طريق البصر الّذي تشاهد به النفس الموجودات الحاضرة ، فبهذه الطرقات الثلاثة يجب أن تنال العلوم كما نبّهنا الله سبحانه عليها فقال : ﴿**وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون**﴾[1] وذمّ من لا ينتفع بهذه العلوم فقال : ﴿**لهم قلوب لا يعقلون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلّ**﴾[2] وقال عزّ وجلّ : ﴿**صمّ بكم عمي فهم لا يعقلون**﴾[3] معاني المعقولات والمبصرات والمسموعات وليس يريد بهذا الذمّ أنّهم لا يسمعون الأصوات ، ولا يبصرون الألوان ، ولا يفهمون أمر المعاش ، بل إنّما ذمّهم لأنّهم لا يعقلون أمر المعاد ، لأنّه قال تعالى : ﴿**يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون**﴾[4] .

واعلم يا أخي أيّدك الله أنّ العلم قنية النفس كما أنّ المال قنية الجسد ، لأنّ المال يراد لصلاح أمر الجسد ، والعلم لصلاح أمر النفس ، فمن لم ينل العلم من هذه الطرقات الثلاث إلّا من طريق واحد ، فمثله كمثل المريض الّذي ليس له من ماله إلّا الثلث لأنّ المريض واقف بين رجاء الحياة وخوف الممات .

وهذا مثل لأهل التقليد الّذين لا يعرفون علم الدين إلّا بطريق السمع ، فهم موقوفون بين الشكّ واليقين ، فالنفس مرض واليقين صحّتها ، فهم ليس لهم من العلم إلّا الثلث لأجل مرض نفوسهم .

---

(١) سورة فصلت ؛ الآية : ٩ ، سورة الملك ؛ الآية : ٢٣ .
(٢) سورة الأعراف ؛ الآية : ١٧٨ .
(٣) سورة البقرة ؛ الآية : ١٧١ .
(٤) سورة الروم ؛ الآية : ٧ .

واعلم يا أخي ـ أيّدك الله ـ أنّ السائلين اثنان : سائل يسأل عن حاجة من غرض الدنيا لصلاح الجسد المستحيل الفاني ، وسائل يسأل عن العلم لخلاص النفس من ظلمة الجهالة ولصلاح الدين من أمر المعاد وطلب نعيم الآخرة الباقية ، وهكذا المجالس اثنان : مجلس للأكل والشرب والتنعّم باللّذّات الجسمانيّة من نبات الأرض ولحوم الحيوان لصلاح هذا الجسد المستحيل الفاني ، ومجلس للعلم والحكمة والسماع واللّذّات الروحانيّة من نعيم الآخرة الباقية للنفوس الخالدة الّتي لا تبيد جواهرها ، ولا تفنى لذّاتها ، ولا ينقطع سرورها .

واعلم أنّ كلّ ما يؤكل من الطعام والشراب يبيّن النقصان في مال صاحب المائدة ، وإذا أكل وشرب قدر ما يبلغ الآكل والشارب من الشبع والريّ فإن زاد على ذلك صارت اللّذّة ألماً ، وإن مكثت تلك المأكولات المشتهيات في المعدة ساعة واستمرأ وأخذت الأعضاء كلّ واحد قسطه من الغذاء تغيّر ما بقي ونتن ، ويحتاج إلى إخراجها وإلّا صارت اللّذّة ألماً وسقماً . وأمّا مجلس العلم والحكمة والسماع فليس يملّ منها لأنّها لذّات روحانيّة من نعيم الآخرة ، ولا تنقص من علم العالم وإن كثر المتعلّمون والسامعون لأنّها من كنوز الآخرة .

واعلم يا أخي أنّه ليس في كثرة الأكل افتخار ، لأنّه يحتاج من الأكل والشرب إلى قدر ما يسكن ألم الجوع والعطش ، وإن سكن ذلك سواء كان سكونها بألوان الطعام والشراب أو بكسرة من خبز الشعير ، كما قال المسيح ﷺ للحواريّين : «إنّ أكل خبز الشعير وشرب الماء القراح اليوم في الدنيا لمن يريد أن يدخل الفردوس غداً» .

واعلم أيّها الأخ البارّ الرحيم أنّ الافتخار والتنافس ينبغي أن يكون في اقتناء الفضائل الحكميّة وفنون العلوم والاستبصار بالآيات والدلالات على معرفة حقائق الأشياء والتفلسف والتألّه والتزهّد والتعبّد ، ولزوم مذهب الربّانيّين ، والتهاون بأمر الجسد ، والاهتمام بأمر النفس ، والحرص على صلاحها من ظلمة الجهالة ، واستنقاذها من بحر الهيولى وعتقها من أسر الطبيعة ، والخروج من قعر الأجسام ، والصعود إلى عالم الأرواح والدخول في زمرة الملائكة كما

قال سبحانه : **﴿إليه يصعد الكلم الطيّب والعمل الصالح يرفعه﴾**[1] يعني روح المؤمنين .

وقال تعالى[2] : **﴿كلّا إنّ كتاب الأبرار لفي علّيين﴾** يعني أنفس الأبرار لفي علّيين **﴿وما أدراك ما علّيون * كتاب مرقوم﴾** وقال تعالى : **﴿حتّى إذا جاؤوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين﴾** [3] وقال تعالى : **﴿والملائكة يدخلون عليهم من كلّ باب * سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾**[4] .

واعلم يا أخي ـ أيّدك الله وإيّانا ـ أنّ الأنفس الجزئيّة ينفصل بعضها من بعض بإحدى هذه الخصال الأربعة : إحداها : سعاداتها الّتي استفادت في كونها مع الجسد ، والأُخرى أخلاقها الّتي اعتادت ، والثالثة : آراؤها الّتي اعتقدت ، والرابعة أعمالها الّتي اكتسبت ، فإذا كانت النفس كثيرة العلوم والمعارف ، حسنة الأخلاق ، جميلتها صحيحة [الآراء اعتقادها ، صالحة الأعمال خبرتها ، أكسبتها هذه الخصال صوراً صحيحة][5] جميلة حسنة بهيّة بهجة روحانيّة ، فإذا فارقت الجسد واستقلّت بذاتها ، واستغنت بجوهرها عن التعلّق بالأجسام انفصلت عن الهيولى وانجلت عنها صدأ الطبيعة وأبصرت عند ذلك ذاتها وتراءت لها صورتها ، وعاينت جمالها ، وأشرقت أنوارها ، وتهلّلت بهجتها وحسنها ورونقها ، فرأت كلّ ما عملت من خير محضراً وكلّما لحظت ذاتها وأبصرت جمالها ازدادت فرحاً وسروراً ولذّة ، فذلك هو جزاؤها ونعيمها ، وجنّتها الّتي لا تفارقها أبداً ، كما قال الله سبحانه : **﴿يوم تجد كلّ نفس ما عملت من خير محضراً وما عملت من سوء﴾**[6] وإذا كانت أعمالها سيّئة ، وسيرتها جائرة ،

---

(١) سورة فاطر ؛ الآية : ١٠ .
(٢) سورة المطففين ؛ الآيات : ١٨ ـ ١٩ ـ ٢٠ .
(٣) سورة الزمر ؛ الآية : ٧٣ .
(٤) سورة الرعد ؛ الآيتان : ٢٣ ـ ٢٤ .
(٥) الزيادة من النسخة (ر) مع تصحيفات .
(٦) سورة آل عمران ؛ الآية : ٣٠ .

وآراؤها فاسدة ، وأخلاقها رديئة ، ومعارفها باطلة ، أكسبتها هذه الخصال صوراً سمجة وحشة ، وهي لا تحسّ بها ما دامت مربوطة بالجسد ، مشغولة بالمحسوسات ، مستروحة إلى بهجة الطبيعة وزينة الهيولى ، حتّى إذا جاءت سكرة الموت الّتي هي مفارقة النفس الجسد وفارقته على رغم أنفه ، وبطلت آلات الجسد والحواسّ الّتي كانت تنال بها اللّذّات الجسمانيّة ، وبقيت فارغة ، نظرت عند ذلك إلى ذاتها فرأت ما عملت من سوء محضراً صورة قبيحة سمجة وحشة ، واغتمّت وحزنت واستوحشت ، وآلمها ذلك ، وتودّ لو أنّ بينه وبينها أمداً بعيداً ، وتبقى على تلك الحال متألّمة معذّبة من ذاتها ، فذلك هو جزاؤها وأليم عذابها وجحيمها وعقابها ، كما قال النبيّ ﷺ : «إنّما هي أعمالكم تردّ عليكم» أعاذنا الله وإيّاكم يا إخواني من عذاب النار وجميع إخواننا حيث كانوا في البلاد .

واعلم أنّ النفس بمجرّدها لا تلحقها الآلام والأسقام والأمراض والجوع والعطش والحرّ والبرد والغموم والهموم والأحزان ونوائب الحدثان ، لأنّ هذه كلّها تعرض لها من أجل مقارنتها الجسد لأنّ الجسد جسم قابل للآفات والاستحالة ، والفساد والتغيير وأمّا النفس فإنّها جوهرة روحانيّة فليس ينالها من هذه الآفات شيء .

واعلم بأنّه ذهب على كثير من العلماء معرفة أنفسهم ، لتركهم النظر في علم النفس والبحث عن معرفة جوهرها ، والسؤال من العلماء العارفين بها وبعلمها ، ولقلّة اهتمامهم بأمر أنفسهم ، وطلب خلاصها من بحر الهيولى وهاوية الأجسام ، والنجاة من أسر الطبيعة والخروج من ظلمة الأجساد ، لشدّة ميلهم إلى الخلود في الدنيا واستغراقهم في الشهوات الجسمانيّة ، والغرور باللّذّات الجرمانيّة ، والأُنس بالمحسوسات الطبيعيّة ، ولغفلتهم عمّا وصف في الكتب النبويّة من نعيم الجنان ، وما في عالم الأفلاك من الروح والريحان .

وإنّما قلّة رغبتهم عنها لقلّة تصديقهم بما خبّرت به الأنبياء وما أشارت إليه العلماء والحكماء ممّا يقصر الوصف [عنها] من لطيف المعاني ودقيق الأسرار ، فانصرفت همم نفوسهم كلّها إلى هذا الجسد المستحيل ، وجعلوا كلّ سعيهم

لصلاح معيشة الدنيا من جمع الأموال والمآكل والمشارب والملابس والمراكب والمناكح ، فصيّروا نفوسهم عبيداً لأجسامهم ، وأجسامهم مالكة لنفوسهم ، وسلّطوا الناسوت على اللاّهوت ، والظلمة على النور ، والشياطين على الملائكة ، وصاروا من حزب إبليس وأعداء الله .

فهل لك يا أخي ـ أيّدك الله ـ أن تنظر لنفسك وتسعى في صلاحها ، وتطلب نجاتها وتفكّ أسرها ، وتنقذها من الغرق في بحر الهيولى وأسر الطبيعة وظلمة الأجساد ، وتخفّف عنها أوزارها وهي الأسباب المانعة لها من الترقي إلى ملكوت السماء ، والدخول في زمرة الملائكة ، والسيحان في فسحة عالم الأفلاك ، والارتفاع في درجات الجنان ، والتنسّم من ذلك الروح والريحان المذكور في القرآن ، بأن ترغب في صحبة أصدقاء لك نصحاء ، وإخوان لك فضلاء ، وادّين لك كرماء ، حريصين على إصلاح لك ونجاة لك مع أنفسهم ، قد خلعوا أنفسهم من خدمة أبناء الدنيا وجعلوا كرمهم لطلب نعيم الآخرة ودارها ، بأن تسلك مسلكهم وتقصد مقصدهم وتخلص سرّك معهم ، وتتخلّق بأخلاقهم ، وتسمع أقاويلهم لتعرف اعتقادهم ، وتنظر في علومهم ، لتفهم أسرارهم وما يخبرون به من العلوم النفسيّة والمعارف الحقيقيّة ، والمعقولات الروحانيّة ، والمحسوسات النفسانيّة ، إذا دخلت [في مذاهبنا الروحانيّة][1] وسرت بسيرتنا الملكيّة ، وعملت بسنّتنا الزكيّة ، وتفهّمت في شريعتنا العقليّة ، فلعلّك تؤيّد بروح الحياة لتنظر إلى الملأ الأعلى وتعيش بعيش السعداء مسروراً فرحاناً ملتذّاً مبقى مخلّداً مؤيّداً بنفسك الباقية الشريفة النيّرة الشفّافة ، لا يحسدك الثقيل المظلم المتغيّر المستحيل الفاسد الهالك ، وفّقك الله أيّها الأخ وجميع إخواننا للرشاد ، وأوصلك وإيّانا دار السلام برحمته ومنّه ، إنّه على ذلك قدير وبالإجابة جدير .

واعلم أنّ لله تعالى خواصّاً من عباده المؤمنين العارفين المستبصرين ، يعاملون الله بالصدق واليقين ويحاسبون أنفسهم في ساعات الليل والنهار فيما

---

(١) من النسخة (ر) .

يعملون ، كأنّهم يشاهدون الله ويرونه ، فيجدون ثواب أعمالهم ساعة فساعة ، لا يتأخّر عنهم لحظة واحدة ، ويرون جزاء سيّئاتهم أيضاً بعقب أفعالهم ، لا يخفى عليهم إلّا قليل ، وإليهم أشار بقوله تعالى : **﴿إنّ الّذين اتّقوا إذا مسّهم طائف من الشيطان تذكّروا فإذا هم مبصرون﴾**[1] وبقوله تعالى : **﴿إنّ عبادي ليس لك عليهم سلطان﴾**[2] وبقوله تعالى : **﴿إلّا عبادك منهم المخلصين﴾**[3] وآيات كثيرة في القرآن في ذكر هؤلاء ، ومدحهم وحسن الثناء عليهم .

ذكروا أنّ واحداً منهم اجتاز يوماً في بعض سياحته براهب في صومعة له على رأس تلّ فوقف بإزائه وناداه : يا راهب ! فأخرج الراهب رأسه من الصومعة وقال : من هذا ؟ قال رجل من أبناء جنسك الآدميّين قال : ماذا تريد ؟ قال : الطريق ، قال الراهب : في خلاف الهوى ، قال له : فما خير الزاد ؟ قال : التقوى ، قال : لِمَ تباعدت عن الناس وتحصّنت في هذه الصومعة ؟ قال : خوفاً على قلبي من فتنتهم وحذراً على عقلي من سوء عشرتهم ، وخفت الجرءة من فساد آرائهم ، وطلبت راحة نفسي من مقاساة مداراتهم وقبيح أفعالهم ، وجعلت معاملتي مع ربّي فاسترحت منهم .

قال : وأخبرني كيف وجدتم يا معشر أتباع المسيح معاملتكم مع ربّكم ، واصدق في القول ودع عنك تزويق الكلام وزخرف الأقاويل والألفاظ ، فسكت الراهب ساعة متفكّراً فقال : أسوء معاملة تكون ، قال : وكيف ذاك ؟ قال : لأنّه أمرنا بكدّ الأبدان ، وجهد النفوس ، وصيام النهار ، وقيام الليل ، وترك الشهوات المركوزة في الجبلّة ، ومخالفة الهوى ، ومجاهدة العدوّ المسلّط ، والرضا بخشونة العيش ، والصبر عند الشدائد والبلوى ، مع هذه كلّها جعل الأجر بالنسيئة في الآخرة بعد الموت ، مع بُعد الطريق وكثرة الشكوك والحيرة وخوف الناس ، فهذه حالنا في معاملتنا مع ربّنا .

فخبّرني عنكم يا معشر أُمّة أحمد كيف وجدتم معاملتكم مع ربّكم ؟ قال :

---

(١) سورة الأعراف ؛ الآية : ٢٠٠ .

(٢) سورة الحجر ؛ الآية : ٤٢ وسورة الإسراء ؛ الآية : ٦٥ .

(٣) سورة الحجر ؛ الآية : ٤ وسورة الصافات ؛ الآية : ٣ .

خير معاملة تكون وأحسنها ، قال الراهب : صف لي كيف هي ، قال : إنّه أعطانا سلفاً كثيراً ومواهب جزيلة لا تحصى فنون أنواعها من النعم والإحسان والإفضال ، فنحن ليلنا ونهارنا نتقلّب في أنواع من نعمه وفنون من آلائه ، ما بين سالف معتاد وآنف مستعاد قال الراهب : كيف خصّصتم بهذه المعاملة دون غيركم والربّ واحد ؟ قال : أمّا النعمة والإحسان والإفضال فعموم للجميع وقد غمرتنا كلّها ، ولكن نحن خصّصنا بحسن الاعتقاد ، وصحّة الرأي ، والإقرار بالحقّ ، والإيمان والتسليم ، فوفّقنا بمعرفة الحقائق لمّا أعطينا القياد للإيمان والتسليم ، وصدق المعاملة ، مع محاسبة النفس وملازمة الطريق ، وتفقّد تصاريف الأحوال الطارقة من الغيب ، ومراعاة القلب بما يرد عليه من الخواطر والوحي والإلهام ساعة ساعة .

قال الراهب : زدني في البيان . قال : نعم ، اسمع ما أقول وافهمه واعقل ما تفهمه ، إنّ الله تعالى لمّا خلق الإنسان من طين ، ولم يك شيئاً مذكوراً ، ثمّ جعل نسله من سلالة من ماء مهين ، ثمّ جعله نطفة في قرار مكين ، ثمّ قلّبه حالاً إلى حال في أطوار متعاقبة تسعة أشهر إلى أن أخرجه من هناك خلقاً سويّاً ، وبنية صحيحة ، وصورة تامّة وقامة منتصبة وحواسّ سالمة ، ثمّ زوّده من هناك لبناً لذيذاً خالصاً سائغاً للشاربين حولين كاملين ، ثمّ ربّاه وأنشأه وأنماه بفنون لطفه وغرائب حكمه إلى أن بلغ أشدّه واستوى ، ثمّ آتاه حكماً وعلماً وقلباً ذكيّاً وسمعاً دقيقاً وعقلاً صحيحاً وفهماً جيّداً وذهناً صافياً وتمييزاً وفكراً ورويّة ومشيّة واختياراً ، وجوارح طائعة ، ويدين صانعتين ، ورجلين ساعيتين ، ثمّ علّمه الفصاحة والبيان والخطّ والقلم والصنائع والحرف والحرث والصياغة والزراعة والبيع والتجارة والتصرّف في المعاش ، وطلب وجوه المنافع ، وقوّة دفع المضارّ ، واتّخاذ البنيان ، وطلب العزّ والسلطان ، والأمر والسياسة والرياسة والتدبير ، وسخّر له ما في الأرض جميعاً من الحيوان والنبات ، وجواهر المعادن ، فصار متحكّماً عليها تحكّم الأرباب ومتصرّفاً فيها تصرّف الملاّك ، متمتّعاً بها إلى حين .

ثمّ أراد الله أن يزيده من فضله وإحسانه وجوده وإنعامه فنّاً آخر هو أشرف وأجلّ ممّا عدّدنا وذكرنا ، وهو ما أكرم به ملائكته وخالص عباده وأهل جنّته من

النعيم الّذي لا يشوبه نقص ، ولا يخالطه تنغيص ، إذ كان نعيم الدنيا كلّها مشوباً بالبؤس ، ولذّتها بالآلام ، وسرورها بالحزن ، وفرحها بالغمّ ، وراحتها بالنصب ، وعزّها بالذلّ ، وصفوها بالكدر ، وغناؤها بالفقر ، وصحّتها بالسقم ، وأهلها فيها معذّبون في صورة المنعمين ، متحاسدون في صورة المغبوطين ، مغرورون في صورة الواثقين ، مهانون في صورة المكرمين ، وجلون غير مطمئنّين ، خائفون غير آمنين ، متردّدون بين الأضداد ، من نور وظلمة وليل ونهار وشتاء وصيف وحرّ وبرد ورطب ويابس ونوم ويقظة وجوع وشبع وعطش وريّ وراحة وتعب وشباب وهرم وقوّة وضعف وحياة وموت وما شاكل ذلك من الأمور الّتي أهل الدنيا وأبناؤها متردّدون بينها متحيّرون فيها ، مدفوعون إليها .

فأراد ربّك أن يخلّصهم من هذه الآلام المشوبة باللّذّات وينقلهم منها إلى نعيم لا بؤس فيه ، ولذّة لا يشوبها ألم ، وسرور بلا حزن ، وفرح بلا غمّ ، وعزّ بلا ذلّ ، وكرامة بلا هوان ، وراحة بلا تعب ، وصفو لا يخالطه كدر ، وأمن بلا خوف ، وغنى بلا فقر ، وصحّة بلا سقم ، وشباب بلا هرم ، وحياة بلا موت ، ومودّة لازمة بين أهلها ، ونور لا يشوبه ظلام ، ويقظة بلا نوم ، وذكر بلا غفلة ، وعلم بلا جهالة ، وصداقة بلا عداوة بين أهلها ولا حسد ولا غيبة ولا نميمة ، إخواناً على سرر متقابلين آمنين مطمئنّين ، أبد الآبدين ودهر الداهرين ، ولم يمكن أن يكون الإنسان هناك بهذا الجسد الحيّ ، والجسم الثقيل المستحيل الطويل العريض العميق المظلم المركّب من أجزاء الأركان المتضادّات المؤلّفات من الأخلاط الأربعة ، المتغيّرات الأمشاج ، المرتفعات الامتزاجات ، إذ كان لا يليق من هذا سبيله بالأوصاف الصافية ، والأحوال الباقية .

فاقتضت العناية بواجب حكمة الباريء جلّ جلاله أن ينشئه نشأة أُخرى كما ذكر الله تعالى في كتابه : ﴿**ولقد علمتم النشأة الأُولى فلولا تذكّرون**﴾[1] يعني النشأة الأُخرى ، وقال تعالى : ﴿**وننشئكم فيما لا تعلمون**﴾[2] قال الله تعالى : ﴿**ثمّ الله ينشيء النشأة الآخرة**﴾[3] فبعث أنبياءه ورسله إلى عباده يبشّرونهم بها

(١ و ٢) سورة الواقعة ؛ الآيتان : ٦١ و ٦٢ .

(٣) سورة العنكبوت ؛ الآية : ٢٠ .

ويدعونهم إليها ، ويرغّبونهم فيها ، ويدلّونهم على طرائقها كيما يطلبونها مستعدّين قبل ورودها ، ولكي يسهل عليهم مفارقة مألوفات الدنيا من شهواتها ، وتخفّف عليهم أيضاً [شدائد الدنيا و] مصائبها[1] ، إذ كانوا يرجون بعدها ما يغمرها ، ويمحي ما قبلها من نعيم الدنيا وبؤسها ، ويحذّرونهم أيضاً الهوان في طلبها كيلا يفوتهم ما وعدوا من نعيمها ، فإنّ من فاته فقد خسر الدنيا والآخرة جميعاً وضلّ ضلالاً مبيناً .

فهذا رأينا واعتقادنا يا راهب ، وبهذا الاعتقاد طاب عيشنا في هذه الدنيا ، وسهل علينا الزهد فيها ، وترك شهواتنا ، واشتدّت رغبتنا في الآخرة ، وزاد حرصنا في طلبها ، وخفّ علينا كدّ العبادة ، فلا نحسّ بها بل نرى أنّ ذلك نعمة منه تبارك وتعالى ، ولنا كرامة وعزّ وشرف إذ جعلنا أهلاً أن نذكره ، وهدى قلوبنا ، وشرح صدورنا ، ونوّر أبصارنا ، لما عرفناه به من كثرة إنعامه ، وفنون ألطافه وإحسانه .

قال الراهب : جزاك الله خيراً من واعظ ما أبلغه ، ومن ذاكر أنعاماً ما أحسنه ، ومن هادٍ رشيد ما أبصره ، وطبيب رفيق ما أحذقه ، وأخ ناصح ما أشفقه !

ولنذكر في آخر هذا الفصل طرفاً في كيفيّة عداوة أولياء الله تعالى مع إبليس ، وكيفيّة محاربتهم مع الشيطان ومخالفتهم له ومجاهدتهم معه طول أعمارهم ليلاً ونهاراً وسرّاً وجهراً ، وأنّهم لا يخفى عليهم مكايدته ، ولا يذهب غرورهم وأمانيّهم أصلاً .

فائدة : فيما حكاه وليّ من أولياء الله تعالى من كيفيّة معرفة مكايدة الشيطان ومحاربته إيّاه ومخالفة جنود إبليس أجمعين .

قال العارف المستبصر : إنّي لمّا نشأت وتربّيت وفهمت من الآداب طرفاً ، وأخذت من العلوم نصيباً وعقلت أمر المعاش ، وعرفت أمر المنافع

---

(١) من النسخة (ر) .

والمضارّ وتبيّنت ما يجب عليّ من أحكام الناموس من الأوامر والنواهي والسنن والفرائض والأحكام والحدود والوعد والوعيد والمدح والذمّ على الأعمال والأفعال أو على تركها .

ثمّ قمت بواجب جهدي وطاقتي بحسب ما وفّقت له ، وقضي عليّ ، وتيسّر لي ، ثمّ تفكّرت في قول الله : **﴿إنّ الشيطان لكم عدوّ فاتّخذوه عدوّاً﴾**[١] وقوله تعالى : **﴿إنّه لكم عدوّ مبين﴾**[٢] وآيات كثيرة في القرآن في هذا المعنى وتفكّرت في قول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم[٣] : «رجعنا من الجهاد الأكبر» يعني مجاهدة النفس ، وتصديقه قول الله تعالى : **﴿ومن جاهد فإنّما يجاهد لنفسه﴾**[٤] ثمّ تفكّرت في قوله صلى الله عليه وآله وسلم[٥] : «إنّ لكلّ إنسان شيطاناً» وقوله[٦] : «إنّ شيطاني أعانني الله عليه فأسلم» وقوله[٧] : «إنّ الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم من الجسد» وتصديقه قوله تعالى : **﴿من شرّ الوسواس الخنّاس * الّذي يوسوس في صدور الناس * من الجنّة والناس﴾**[٨] وقوله : **﴿إنّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم﴾**[٩] وآيات كثيرة في القرآن في مثل هذا المعنى وأحاديث مرويّة أيضاً في هذا المعنى كثيرة ، فلمّا نظرت عند ذلك بعقلي ، وتفكّرت بقلبي ، وتأمّلت برويّتي فلم أر أحداً في ظاهر الأمر يضادّني في هذا الأمر ، ولا يخالفني ولا يعاديني من أبناء جنسي ، وذلك لأنّي وجدت الخطاب متوجهاً عليهم كلّهم ، مثل ما هو متوجّه عليّ ووجدت حكمهم في ذلك مثل حكمي سواء لا فرق بيني وبينهم في هذا الأمر . فعلمت أنّ هذا هو أمر عموم يشمل جميع بني آدم ويعمّهم كلّهم .

ثمّ تأمّلت وبحثت ودقّقت النظر فوجدت حقيقة معنى الشياطين وكثرة

---

(١) سورة فاطر ؛ الآية : ٦ .
(٢) سورة يسّ ؛ الآية : ٦٠ .
(٣) قاله حين رجع من غزوة ، وفيه تصحيف وسيأتي صحيحه بعيد ذاك .
(٤) سورة العنكبوت ؛ الآية : ٦ .
(٥ ـ ٧) رواها الغزالي (٣ : ٢٨ و ٢٩) .
(٨) سورة الناس ؛ الآيات : ٤ ـ ٦ .
(٩) سورة الأعراف ؛ الآية : ٢٦ .

جنــود إبليس أجمعين ، ومخـالفتهم لبني آدم ، وعــداوتهم لهم ، ووسـاوسهم إيّاهم هي أمور باطنة ، وأسرار خفيّة مركوزة في الجبلّة ، مطبوعـة في الخليقة ، وهي الأخـلاق الرديئـة والطبـاع المذمـومة المنتشيـة منـذ الصبى مـع الجهـالات المتراكمة واعتقاد الآراء الفاسدة من غير معرفة ولا بصيرة وما يتبعهـا من الأعمال السيّئة ، والأفعال القبيحة المكتسبة بالعادات الجـارية ، الخـارجة عن الاعتـدال بالزيادة والنقصان ، المنسوبة إلى النفس الشهوانيّة ، والنفس الغضبيّة .

ثمّ تـأمّلت ونظرت فـوجدت الخـطاب في الأمر والنهي والـوعـد والـوعيـد والمـدح والذمّ متـوجّهـاً كلّهـا إلى النفس النـاطقـة العـاقلة المميّـزة المتبصّـرة ، ووجـدتهـا هي بمـا تـوصف بــه من الأخـلاق الجميلة ، والمعـارف الحقيقيّـة ، والآراء الصحيحة ، والأعمال الـزكيّة ، ملكـاً من الملائكـة بالإضـافة إلى النفس الشهوانيّة والنفس الغضبيّـة جميعاً ، ووجـدت هاتين النفسين[1] أعني الشهـوانيّة والغضبيّـة بما يـوصفان بـه من الجهالات المتـراكمة ، والأخـلاق المـذمـومـة ، والـطباع المـذكورة ، والأفعـال الّتي لهما بـلا فكر ولا رويّـة ، كـأنّهـا شيـطانـان بالإضافة إلى النفس الناطقة ، إنّما هي لها بحسب آرائها الصحيحة ، واعتقاداتها الجميلة .

ثمّ وجـدت تلك الآراء والاعتقادات هي لهـا بحسب أخـلاقهـا المحمـودة المكتسبة بالاجتهاد والرويّة ، وبالعادات الجارية العادلة أو بما كانت مركـوزة في الجبلّة ، فتبيّن لي عنـد ذلك وعـرفت بهـذا الاعتبـار أنّ أصـل جميـع الخيـرات وصلاح أمور الإنسان كلّها هي الأخـلاق المحمودة المكتسبـة بالعـادات الجاريـة منذ الصبى من غير بصيرة[2] ، أو بما كانت مركوزة في الجبلّة .

فلمّـا تبيّن لي وعرفت حقيقـة قول الـرسـول صلى الله عليه وآله وسلم : «رجعتم من الجهـاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» وقول الله تعـالى : **﴿إنّ الشيطان لكم عـدوّ فاتّخـذوه عدوّاً﴾** يعني خالفـوه وحاربـوه كما تحـاربون أعـداءكم من الكفّار والمشـركين ، فتبيّن لي من قــول النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أنّ العـدوّ جنســـان ، والعــداوة نــوعـــان ،

(١ ـ ٢) كذا في النسخة (ر) وفي الأصل : النفس . ضرورة .

والجهاد قسمان : أحدهما ظاهر جليّ وهو عداوة الكفّار المخالفين في الشريعة وحربهم وجهادهم ، والآخر باطن خفيّ وهو عداوة الشياطين المخالفين في الجبلّة ، المنقادين في الطبيعة ، وتبيّن لي أنّ حربهم وعداوتهم وخلافهم هي بالحقيقة ، وعداوة الكفّار هي من أجل السبب الدنياويّ وأنّ غلبتهم وظفرهم يعرض شقاوة فيها ، ويفوت العزّ والسلطان ، والتمتّع باللّذّات الدنياويّة ونعيمها وطيب عيشها يزول يوماً فيوماً . وأمّا عداوة الشياطين وغلبتهم وظفرهم فيعرض منها شقاوة الآخرة وعذابها ، ويفوت عزّها وسلطانها ونعيمها ولذّاتها وسرورها وفرحها وروحها وريحانها ودوامها .

فبحسب تفاوت ما بين الأمرين قال النبيّ : «رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» وما ذكر الله سبحانه في القرآن في عدّة سور في آيات كثيرة من التحذير من مكر الشياطين ، والغرور بخطواتهم ، والأمر بمخالفتهم وعداوتهم ، والجهاد لهم ، إذ كان هذا الخطب فيه أجلّ ، والخطر أعظم بحسب تفاوت ما بين السعادة في الدنيا والآخرة والشقاوة فيهما ، فلمّا تبيّن لي ما ذكرت ، وعرفت حقيقة ما وصفت ، تبيّن لي أعدائي وشياطيني ، ومن يريد أن يغويني عن رشدي ، ويضلّني عن الهدى الّذي دعاني إليه ربّي وإلّهي ، وما وصّاني به ربّي ونصحني به نبيّي ببيانه لي ، وعلمت أنّي إن لم أقبل وصيّة ربّي ونصيحة نبيّي ، وتوانيت فتركت الجهاد في مخالفة أعدائي وعداوتهم ومحاربتهم غلبوني وظفروا بي وأسروني وملكوا عقلي ، واستعبدوني واستخدموني في أهوائهم وإراداتهم المشاكلة لأفعالهم القبيحة ، وأعمالهم السيّئة ، وصارت تلك الأشياء عادة لي وجبلّة فيّ ، وطبيعة ثابتة فتصير نفسي الناطقة الّتي هي جوهرة شريفة شيطانيّةً مريدة مثلهم ، فأكون قد هلكت وبقيت في عالم الكون والفساد مأوى الشياطين معذّباً ، كما قال الله تعالى : **﴿كلّما نضجت جلودهم بدّلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب﴾**[1] وقوله تعالى : **﴿لابثين فيها أحقاباً * لا يذوقون فيها برداً ولا شراباً﴾**[2] ثمّ تفكّرت وعرفت .

---

(١) سورة النساء ؛ الآية : ٥٥ .

(٢) سورة النبأ ؛ الآيتان : ٢٣ و ٢٤ .

ثمّ تبيّن لي إذا قبلت نصيحة ربّي ونصيحة نبيّي واقتديت به ، واستعنت بربّي واجتهدت ، وفوّضت إليه أمري وخالفت هوى نفسي الشيطانيّة[1] وعاديت نفسي الغضبيّة وحاربت أعدائي المخالفين لنفسي الناطقة فإنّي أظفر بهم وأغلبهم بقوّة ربّي ، فأملكهم بإذنه ، وأستعبدهم بحوله وقوّته فأكون ملكاً مسلّطاً عليهم ويصيرون عبيداً لي وخدماً وخولاً فأصرفهم تحت أمر نفسي الناطقة ونهيها وهي تكون عند ذلك ملكاً من الملائكة بإظهار أفعالها الحسنة وأعمالها الزكيّة ، وأخلاقها الجميلة ، وآرائها الصحيحة ، ومعارفها الحقيقيّة ، فتكون هاتان النفسان الباقيتان أعني الشهوانيّة والغضبيّة عبدين مقهورين لها وتحت أمرها ونهيها ، وجميع أخلاقها وطبائعها وسجاياها كالجنود والأعوان والخدم والعبيد لنفسي الناطقة ومسوّسين سياسة جارية كالسداد ، كما رسم في الشريعة المرضيّة أو في الموجبات العقليّة ، فأكون عند ذلك قد فعلت ما أوصاني به ربّي بقوله تعالى : **﴿وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه ولا تتّبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله﴾**[2] الآية وقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : **﴿قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتّبعني﴾**[3] .

فلمّا تبيّن لي ما ذكرت وعرفت حقيقة ما وصفت ، نظرت عند ذلك في أحوالي ، وتذكّرت في تصاريف أمر ربّي ، فوجدت بنية هيكلي مركّبة من أخلاط ممتزجة ، متضادّة القوى ، مركوزة فيها شهوات مختلفة ، فتأمّلتها فإذا هي كأنّها نيران كامنة في أحجار كبريتيّة ووجدت وقودها هي المشتهيات من ملاذّ الدنيا ونعيمها ، ووجدت اشتعال تلك النيران عند الوقود كأنّها حريق لا يطفأ ، ولهيب لا يخمد ، أو كأمواج بحر متلاطمة ، أو كرياح عاصفة تدمّر كلّ شيء بأمر ربّها ، أو كعساكر أعداء حملت على الغار والنهب .

وذلك أنّي وجدت حرارة شهوات المأكولات والمشروبات في نفسي عند هيجان نار الجوع كأنّها لهب نيران لا تطفأ ، ووجدت نفسي الشهوانيّة عند الأكل

---

(١) في النسخة (ر) : الشهوانية .

(٢) سورة الأنعام ؛ الآية : ١٥٣ .

(٣) سورة يوسف ؛ الآية : ١٠٨ .

والشرب من الشره كأنّها كلاب وقعت على جيف تنهش ، ووجدت حرارة الحرص في نفسي عند هيجان نار الطمع كأنّها مزاريق[1] نيران في يابس القصب ، ووجدت نفسي عند ذلك كأنّها وعاء لا يمتلىء من جميع ما في الدنيا من المتاع وحرارة الغضب في نفسي الحيوانيّة عند هيجان نار الحركة كأنّها حريق يرمي بشرر كالقصر ، ورأيتها عند هيجان حرارة الكبد كأنّها جبّار قد أقبل يدّعي الربوبيّة لنفسه ، ورأيتها عند هيجان نار الافتخار والمباهاة كأنّها أفضل الخليقة وأشرفهم، ورأيتها عند هيجان نار شهوة الرياسة وتمليكهم لها كأنّ الناس كلّهم عبيد لها وخول ، ورأيتها عند هيجان نار شهوة الكرامة وطلبها لها كأنّها دين لها لازم حالّ ، ورأيت عند طلب خدمة خولها كأنّها ترى أنّها طاعة الله حتم واجب فريضة ، ورأيتها عند قضاء ما عليها من حقّ غيرها متوانية في تأديته كأنّها نافلة ، أو كأنّها أحمال ثقيلة ، ورأيت حركتها عند اللهو واللعب كأنّها مجنونة والهة ، ورأيتها عند محبّة المدح والثناء عليها كأنّها أعقل الناس وأفضلهم وأحكمهم ورأيتها عند هيجان نار الجسد كأنّها عدوّ يريد خراب الدنيا وزوال النعم وحلول النقم ، وعلى هذا المثال وجدت ورأيت حكم سائر أخلاقها الرديئة ، وخصالها المذمومة ، وأعمالها السيّئة وأفعالها القبيحة .

فعلمت عند ذلك أنّ هذه كلّها نيران لا تخمد ، وحريق لا يطفأ ، وأعداء لا يصالحون وحرب لا تهدأ ، وقتال لا يسكن ، وداء لا يبرء ، ومرض لا يشفى ، وعناء طويل ، وشغل منه لا يفرغ إلى الموت ، فتشمّرت عند ذلك بالعزم الصحيح ، وشددت وسطي بإزار الحزم ، وأخذت سلاح الاجتهاد ، وارتديت رداء الورع ، ولبست قميص الحياء ، وتسربلت سربال الجدّ ، ووضعت على رأسي تاج الزهد في الدنيا ، وأثبتّ قدمي على التقوى ، وأسندت ظهري إلى الله تعالى في التوكّل عليه ، وجعلت شعاري الخوف والرجاء ، ورممت قوى نفسي بالنهى ، وفتحت عيني بالنظر إلى إشارة العلم ، وجعلت دليلي حسن الظنّ بربّي ، وسلكت منهاج السنّة ، وقصدت الصراط المستقيم

---

(١) جمع المزراق ـ بالكسر ـ الرمح القصير .

إلى البارىء وناديته نداء الغريق ، ودعوته دعاء المضطرّ ، وأقررت بالعجز والتقصير ، وطرحت نفسي بين يديه بأن لا حول ولا قوّة إلّا بالله العليّ العظيم ، وتضرّعت إليه تضرّع الصبيّ إلى والده الرفيق والشفيق .

فلمّا رآني ربّي على تلك الحالة سمع ندائي ، وأجاب دعائي ، ورحم ضعفي ، وأعطاني سؤلي ، وأيّدني بجنوده ، ودلّني على مكائد أعدائي ، فغزوتهم مع ملائكته ، فأظفرني على أعدائي وغلبتهم ، وحرسني من غرورهم ، وأحرزني من خطواتهم فسلمت من كيدهم ، وفزت بالغنيمة سالماً ، وكفى الله المؤمنين القتال ، وكان الله قويّاً عزيزاً ، وجند الله هم الغالبون ، وحزب الشيطان هم الخاسرون ، كلّ هذا من فضل ربّي ليبلوني ءأشكر أم أكفر ، ومن شكر فإنّما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإنّ ربّي غنيٌّ كريم ، وهو حسبي .

واعلم بأنّ النفوس الناقصة تكون قصيرة الهمّة لا تحبّ إلّا زينة الحياة الدنيا ، ولا تشتاق إلّا إليها ، ولا تتمنّى إلّا الخلود فيها ، لا تعرف غيرها ، ولا تتصوّر سواها ، فأمّا النفس الشريفة المرتاضة فهي تأنف من الرغبة في الدنيا ، بل تزهد فيها ، وتريد الآخرة وترغب فيها ، وتتمنّى اللحوق بأبناءِ جنسها وأشكالها من الملائكة ، وتشتاق إلى الترقّي إلى ملكوت السماء ، والسيحان في سعة فضاء الأفلاك ، ولكن ذلك لا يمكن إلّا بعد فراق الجسد على شرائط ممدودة ، كما ذكرنا في رسالة البعث والقيامة .

وممّا يدلّ على أنّ أهل بيت نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم كانوا يرون ويعتقدون بقاء النفس ، وصلاح حالها بعد مفارقة الجسد ،تسليمهم أجسادهم إلى القتل بكربلاء ، ولم يرضوا أن ينزلوا على حكم يزيد وابن زياد لعنهما الله ، وصبروا على الطعن والضرب والعطش حتّى فارقت نفوسهم أجسادهم وارتفعت إلى ملكوت السماء ، ولقوا آباءهم الطاهرين محمّداً وعليّاً والمهاجرين الّذين اتّبعوهم في ساعة العسرة ، الّذين رضي الله عنهم ورضوا عنه ، فلو لم يكونوا متيقّنين ببقاء نفوسهم بعد مفارقة أجسادهم لما تعجّلوا إتلاف أجسادهم ، وتسليمها إلى القتل والضرب والطعن وفراق لذيذ العيش في الدنيا ، ولكنّ القوم قد علموا وتيقّنوا ما دعوا إليه من الحياة في الآخرة ، ونعيم الخلود فيها ، والفوز

والنجاة من غرور الدنيا وبلاياها ، فبادر القوم إلى ما تصوّروا ، وتحقّقوا يسارعون في الخيرات ، وكانوا يدعون ربّهم رغباً ورهباً وكانوا من خشيته مشفقين .

وممّا يدلّ على بقاء النفوس وصلاح حالها بعد مفارقة أجسادها ذهاب الناس إلى الصالحين والأنبياء والأولياء والأخيار لطلب الغفران ، واستجابة الدعاء ، والتوسّل بهم إلى الله وما يرجون من شفاعتهم عند ربّهم ، وما يطلبون أيضاً من قضاء حوائجهم من أمر الدنيا والآخرة عند قبورهم .

أفترى أن أهل الديانات كلّها اتّفقوا على شيء لا حقيقة له ؟ كلاّ بل هذا علم غامض ، وأسرار خفيّة لا يعقلها إلاّ العالمون ، كما ذكرهم الله ومدحهم بما علموا ممّا خفي على غيرهم حيث يقول : **﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون * ما لبثوا غير ساعة كذلك كانوا يؤفكون * وقال الّذين أُوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث فهذا يوم البعث ولكنّكم كنتم لا تعلمون﴾**[١] .

(١) سورة الروم ؛ الآيات : ٥٥ ـ ٥٧ .

خـاتمة
نبدأ فيها أولا في خطاب الشاكين في أمر النفس المتحيرين في اختلاف أقاويل العلماء

قد فهمنا أيّها الأخ ما ذكـرت ممّا جـرى بينك وبين شيـخ من مشائخنـا من المذاكرة في أمـر النفس وماهيّـة جوهـرها ، وكيفيّـة وجودهـا ، وأين مكانهـا من الجسـد ، وما علّة ربـاطها ، وكيف تكـون مفارقتهـا للجسد ، والّـذي أنكـره من معرفة جوهرها بقوله : «علم لا يمكن أن يعلم» والّذي أنكره من معرفـة جوهـرها واحتجاجه بقول جالينوس : «إنّي لا أدري ما جوهر النفس» وقـوله : «إنّي مـا أنا بأعلم من جالينوس» .

والّـذي نسألـك أيّها الأخ البـارّ الرحيم أن تتفضّـل وتلقـاه وتقـرأ عليـه منّـا السـلام، وتعرّفـه من شدّة شـوقنا إليـه ، وطالعتنـا لمعرفـة أخباره ـ أطـابهـا الله ـ ورغبتنا في مشاهدته ومجاورته وتبلّغه عنّا مـا ألقينا عليـك من الجواب عمّـا سأل وهو أن تقول له : يتفضّل سيّدنا الشيخ ويعيننا بجودة رأيه ، وقوّة نفسه ، وصفـاء جوهره ، ويفرّغ لنا قلبه ساعة ، ويجمع لنا همّته ، ولا يشغل فكرنا بالشبهة الّتي يـوردهـا علينـا من أقـاويـل الفـلاسفــة ، واختـلاف آرائهم وروايــات العلمـاء وأسـانيدهم ، وتشبيهـات الشعـراء وهيمـانهم ، واختـلاف العـوامّ وتشنيعـاتهم ، وينصفنا في القول ، وينـاصحنا في الضميـر ، ويجعل الحـاكم بيننا وبينـه العقل الّذي رضينا بحكمه وموجبات قضاياه .

فإنّا إذا سألناه أو سأل هو أحداً منّا فقـال له : مـا أنت وما حقيقتـك ، ومن

هـذا الّـذي يكلّمني ويسمـع منّي ؟ ويفهمني ويستفهم منّي ؟ أفتـرى وتـرضى الجواب منّا بأن تقول : إنّ هذا الجسد الّـذي يرى المحسـوس المؤلّف من الدم واللحم والعصب والعظام وما شاكله ، المبنيّ كأنّه منارة راهب إذا وقـع لا يمكنه أن يقوم ، وإن برك لا يمكنه أن يتحرّك وإذا نام لا يحسّ بأنّه موجـود ، وإذا انتبه لا يدري أين كان ، فجائز في العقل أنّ من هذا حـاله يسـأل عن خفيّات الأُمـور من المحسوسات والمعقولات ، وما غاب عن الحواسّ بالمكان ، وما مضى كونه مع الزمان ، وما يكون في المستقبل من الكائنات أو يتساهل أن يسمـع منه قـوله إذا خبّر عن تركيب الأفلاك ونظامه وأقسام البروج وأوصافها ، وحركـات الكواكب ومجاريها ، وعن أركان الأُمّهات وطبـائعها واختـلاف جواهـر المعادن وخـواصّها وفنـون أشكال النبـات ومنافعهـا ، وعجائب أحـوال الحيوان واختـلاف أخـلاقهـا وأصواتها .

فيا عجباً ممّن ظنَّ أنّ هذه الأشياء كلّهـا هو هـذا الجسم الطويـل العريض العميق الأعمى الأصمّ الأخرس الّذي لا يحسّ ذاته ، ولا يشعر بـوجوده ، فكيف يجوز أن يعلم هذه الأشياء العجيبة البائنة عن ذاته ، الغائبة عن حواسّـه ، وهو لا يعلم ذاته ، ولا يحسّ بوجود نفسه .

هيهـات بعـد عن الصـواب من ظنّ أنّ هـذه العلوم يعلمهـا هـذا الجسـد المؤلّف من اللحم المستحيل الفاسد .

واعلم أيّها الأخ بأنّ الإنسان الباحث عن أمر النفس الطالب معرفة جوهرها لو أنّه أنصف بعقله ، ورجع إلى حكمه ، وقبل قضاياه ، وفكّر في نفسه ، وتأمّل تمييـزه ، وتصفّح حـالات جسده من القيـام والقعود والحـركـة والسكـون والنـوم واليقظة والحياة والممات لاستبان له أنّ مع هـذا الجسد جـوهراً آخـر هو أشـرف منه ، وأنّ هذا الجسد بالنسبة إليه مـا هو إلاّ كـدار مبنيّة فيهـا ساكن ، أو كـدكّان فيهـا صانـع ، أو كسفينة فيهـا ملاّح ، أو كـدابّة عليهـا راكب ، أو كمدينـة فيهـا ملك ، ونحن قد شرحنا من هذه الأمثال طرفـاً في مقدّمـة هذه الـرسالـة الّتي في تركيب الجسد .

واعلم أيّها الأخ بأنّ النفس إذا انتبهت من نوم الغفلة ، واستيقظت من رقدة الجهالة وأبصرت ذاتها وعرفت شرف جوهرها ، وأحسّت بغربتها في عالم الأجسام ، ومحنتها وغرقها في بحر الهيولى ، وأسرها بالشهوات الطبيعيّة ، وعاينت عالمها واستبان لها فضل نعيمها على اللّذّات الجسمانيّة ، وتنسّمت روح عالمها وريحانها ، اشتاقت إلى هناك ، ومقتت الكون مع الأجساد ، وزهدت في نعيم الدنيا ، وتمنّت الموت الّذي هو مفارقة الجسد ، والخروج من ظلمة الأجسام ، فيكون مثلها عند ذلك كمثل قوم خرجوا من الحبس والمطامير ، مع ضوء الصبح ، فشاهدوا هذا العالم بما فيه دفعة واحدة وأمّا النفوس الغير المستبصرة فمثلها كمثل العميان ، عندهم ضوء النهار وظلمة الليل واحدة .

واعلم أنّ النفس إذا لم تستبصر ذاتها ، ولم تعرف جوهرها ومبدءها ومعادها ، ولا أحسّت بغربتها وما هي فيه في هذه الدنيا من المحنة والبلوى ، ما دام يمكنها البحث والاجتهاد في التعلّم ، ولها تمييز وعقل وحواسّ صحاح ، ويمكنها الاعتبار والفحص والبيان ، فلم تجتهد حتّى تبقى عمياء إلى الممات ، فهي بعد الممات أعمى وأضلّ سبيلاً أعاذنا الله وإيّاك أيّها الأخ ، وجميع إخواننا من هذه الصفة إنّه ودود رحيم .

واعلم يا أخي أنّ النظر في أمر النفس مجرّدة من الجسد والتصوّر لذاتها خلواً منه عزّ على المرتاضين بالرياضات الفلسفيّة ، فكيف على غيرهم ، ولكن إذا نظر إلى ما يظهر من أفعالها في الجسد ، واعتبر أحوالها ، وتصرّفها مع الجسد سهل ذلك وقرب من فهم المتعلّمين والتصوّر في أفكار المتفكّرين وجودتها وبيان شرفها وجوهرها . ونريد الآن أن نبيّن من ذلك طرفاً ونضرب له أمثالاً لكيما يكون أوضح للبيان وأقرب إلى فهم المبتدئين ، وأبلغ للتصوّر في أفكار المتعلّمين .

واعلموا أيّها الإخوان بأنّ هذا الجسد لهذه النفس كدار لساكنها بنيت ، فأُحكم بنيانها ، وقسّمت بيوتها ، وأُكملت خزائنها ، وقسّمت سطوحها ، وفتحت أبوابها ، وغلّقت ستورها ، وأُعدّ فيها كلّما يحتاج إليه صاحب المنزل في بيته من الفرش والأواني والأثاث والمتاع ، على أتم ما يكون وأكمله وأتقنه ، فرجلا

الجسد ـ وقوامه بهما ـ كالأساس للدار ، ورأسه في أعلى بدنه كالغرفة الّتي في أعلى الدار ، وظهره من خلفه كظهر الدار ، ووجهه قدّامه كصدر الدار ، ورقبته وطولها كرواق الدار ، وفتح حلقومه وجريان الصوت فيه كدهاليز الدار ، وصدره في وسط بدنه كصحن الدار ، والأوعية الّتي في صدره كالبيوت والخزائن في الدار ، وريته وبردها كبيت صيفيّ وجريان النفس في الحلقوم كالباذهنج[1] وقلبه مع الحرارة الغريزيّة كالبيت الشتويّ ، ومعدته ونضج الغذاء فيها كالمطبخ ، وكبده وحصول الدم فيه كبيت الشراب ، ومجاري عروقه وجريان الدم والنقص إلى سائر أطراف البدن كمسالك الدار ، وطحاله وحصول عكرم الدم فيه كخزانة الآلات ، ومرارته وحدّة الصفراء فيها كبيت السلاح ، وجوفه والحجب الّتي فيه كبيت الحرم ، وأمعاه وثفل الطعام فيها كبيت خلاء ، ومثانته وحصول البول فيها كبيت البرء ، وسبيله في أسفل البدن كمجاري الدار ، وعظامه وقوام الجسد بينها كالحيطان في الدار ، والعصب الممدود على المفاصل كالأجذاع والعوارض على حيطان الدور ، ولحمه في خلل العظام والعصب كالملاط ، وأضلاعه كالأساطين في الدار ، والتجويفات الّتي في جوف العظام كالصناديق والأدراج في خزائن الدار ، والمخّ فيها كالجوهر والمتاع في الصناديق ، والأدراج والثقب الّتي في رأسه كالروازن في غرف الدار ، وتنفّسه كالدخان ، ووسط دماغه كالإيوان ، وجانباه كبيتي العرض والغشاوات الّتي بينهما كالستور ، وفمه كباب الدار ، وأنفه كطاق باب الدار ، وشفتاه كمصراعي الباب ، وأسنانه كالبوّابين ، ولسانه كالحاجب ، وعقله في وسط دماغه كالملك القاعد في صدر المجلس ، وحواسّه الباطنة كالندماء ، وحواسّه الظاهرة كالجنود ، وعيناه كالديدبان ، وأُذناه كأصحاب الأخبار ، ويداه كالخدّام ، وأصابعه كالصنّاع .

وبالجملة ما من عضو في الجسد إلّا وله مثال في الدّار ، وما من فعل في الجسد إلّا وله مثال من فعل ربّ الدار في داره .

واعلموا أيّها الإخوان ـ أيّدكم الله ـ بأنّ هذا الجسد لهذه النفس من جهة

---

(١) ثقب في جدار البيت لتغيير الهواء .

أخرى بمنزلة الدكّان للصانع ، وأنَّ جميع الأعضاء للنفس بمنزلة الأدوات للصانع في دكّانه ، وأنّ النفس بكلّ عضو من أعضاء الجسد تُظهر ضروباً من الأفعال ، وفنوناً من الأعمال ، كما أنّ الصانع بكلّ أداة يعمل ضروباً من الأعمال ، وفنوناً من الحركات كالنجّار فإنّه ينجر بالفأس ، وينشر بالمنشار ، ويثقب بالمثقب ، ويبرد بالمبرد ، وينقر بالمنقار ، وكذلك الحدّاد فإنّه ينفخ بالمنفاخ ، ويأخذ بالكلبتين ، ويطرق بالمطرقة ، وعلى هذا القياس سائر الصنّاع ، كلّ واحد منهم يعمل بأدوات مختلفة ، وحركات متباينة ، فهكذا حال النفس مع الجسد وأعضائه المختلفة، فإنّها بكلّ عضو تفعل فعلاً مبايناً لما تظهره وتفعله بعضو آخر .

مثال ذلك أنّ النفس تبصر بالعينين ، وتسمع بالأذنين ، وتشمّ بالمنخرين ، وتذوق باللّسان ، وتتكلّم بالشفتين ، وتمسّ باليدين ، وتعمل الصنائع بالأصابع ، وتمشي بالرجلين وتبرك بالركبتين ، وتقعد على الإليتين ، وتنام على الجنبين ، وتستند بالظهر ، وتحمل الأثقال على الكتفين ، وتتفكّر بوسط الدماغ في الأشياء ، وتتخيّل بمقدّم الدماغ المحسوسات وتحفظ بمؤخّر الدماغ المعلومات ، وتصوت[1] بالحلقوم ، وتستنشق الهواء بالخياشيم ، وتمضغ الطعام بالأسنان وتزدرد بالمري ، وما شاكل ذلك وبالجملة ما من عضو في الجسد إلّا وللنفس فيه ضروب من الأفعال ، وفنون من الأعمال .

واعلموا أيّها الإخوان بأنّ هذا الجسد لهذه النفس الساكنة فيه يشبه تصرّف حالات أهل المدينة ، وذلك لأنّ لهذا الجسد أعضاء ومفاصل تشدّ المحالّ في المدينة ، وفي تلك الأعضاء والمفاصل أوعية ومجاري تشبه المنازل في المحالّ ، وفي تلك الأوعية والمجاري حجب وأغشية تشبه البيوت في المنازل والأسواق في المحالّ والدكاكين في الأسواق .

وبيان ذلك أنّ الأعضاء والمفاصل الّتي تشبه المحالّ في المدينة ، فالرأس وما حوى والصدر وما وعى ، والبطن وما ملا ، والرجلان واليدان .

---

(١) في الأصلين وتصورت .

وأمّا الأوعية والمجاري الّتي تشبه المنازل في المحالّ فالدماغ والقلب والرئة والكبد والطحال والمرارة والمعدة والمصارين والمعى والكليتان والعروق .

فأمّا الحجب والأغشية الّتي تشبه البيوت في المنازل ، والدكاكين في الأسواق ، فالتجويفات الّتي في الدماغ والّتي في الرية والّتي في القلب والّتي في العظام وغير ذلك .

واعلموا أيّها الإخوان ـ أيّدكم الله ـ بأنّ لهذه النفس الّتي هي كالساكنة في الجسد قوى طبيعيّة ، وأخلاقاً غريزيّة منبثّة في أعضاء هذا الجسد ، تشبه قبائل أهل تلك المدينة ، وشعوبها النازلين في محالّ تلك المدينة ، وإنّ لتلك القوى ولتلك الأخلاق أفعالاً وحركات منبثّة في أوعية أعضاء الجسد ، ومجاري مفاصله تشبه أفعال أهل تلك المدينة في منازلهم ، وحركاتهم في طرقاتهم ، وأعمالهم في أسواقهم .

تفصيل ذلك : أمّا القوى الطبيعيّة والأخلاق الغريزيّة الّتي تشبه القبائل والشعوب فهي ثلاثة أجناس :

فمنها قوى النفس النباتيّة ونوازعها وشهواتها وفضائلها ورذائلها ، ومسكنها الكبد وأفعالها تجري مع الأوراد إلى سائر أطراف الجسد .

ومنها قوى النفس الحيوانيّة وأخلاقها وحواسّها وحركاتها وفضائلها ، ومسكنها القلب وأفعالها تجري مع العروق الضوارب إلى سائر أطراف الجسد .

ومنها قوى النفس الناطقة ، ومسكنها الدماغ ، وتمييزها وفضائلها ورذائلها ، وأفعالها تجري مع الأعصاب إلى سائر أطراف الجسد .

واعلم يا أخي بأنّ هذه النفوس ليست منفردات متباينات بعضهنّ من بعض ولكنّها كلّها كالفروع من أصل واحد ، متّصلات بذات واحدة ، كاتّصال ثلاثة أغصان من شجرة واحدة يتفرّع من كلّ غصن عدّة قضبان ، من كلّ قضيب عدّة أوراق وثمر، أو كعين واحدة ينشقّ منها ثلاثة أنهار ، كلّ نهر ينقسم عدّة أعمدة ، من كلّ عمود عدّة جداول أو كقبيلة واحدة يتشعّب منها ثلاثة شعوب ، من كلّ شعب يتفرّع عدّة بطون وأفخاذ عشائر، أو كرجل يعمل ثلاثة صنائع يسمّى بثلاثة

أسماء ، فيقال : حدّادٌ نجّارٌ بنّـاءٌ ، إذا كان يحسنهـا بثلاثتهـا ، أو كرجـل يكتب ويقرأ ويعلّم ، فيقال : كاتبٌ قارئٌ معلّم ، لأنّ هـذه الأسماء تقـع على الفاعـل بحسب مـا يظهـر منه من الأفعـال والحركـات والصنائـع والأعمال ، فهكـذا أمـر النفس فإنّها واحدة بالذات ، وإنّما تقـع هذه الأسمـاء بحسب ما يـظهر منهـا من الأفعـال وذلك أنّهـا اذا فعلت في الجسم الغذاء والنمـوّ فتسمّى النفس النباتيّـة ، وإذا هي فعلت في الجسم الحسّ والحـركة والنقلة ، فتسمّى النفس الحيـوانيّة ، وإذا فعلت الفكر والتمييز فتسمّى النفس الناطقة .

واعلموا أيّها الإخوان أنّ لكلّ عضو من أعضاء الجسد قوّة من قـوى النفس مختصّة به ، وهي تدبّر ذلك العضو وتفعل فيه أفعال الأخلاق ما تفعل قـوّة أُخرى من عضو آخر ، وإنّ تلك القوى تسمّى نفساً لذلك العضو المختصّ به .

مثال ذلك القوّة الباصرة ، فإنّهـا تسمّى نفس العين ، والقوّة السـامعة نفس الأُذن والقـوّة الذائقـة نفس اللسـان ، والقـوّة الشـامّـة نفس الأنف ، وعلى هـذا القياس سائر الأعضاء والقوى الّتي تدبّرها وتفعل بها .

واعلم يا أخي بأنّ هذه النفوس الثلاثة هي كالأجناس ، وقواهنّ كالأنواع ، وأفعـال تلك القوى كـالأشخاص ، فـأمّا القـوى الّتي هي كـالأنـواع فهي خمسـة وعشرون نوعـاً فأربعـة منها مفـردات كالـرؤساء ، وثمـانية متعـاونات كـالصنّاع ، وخمسة كالجلّابين وثلاثة متناولات كالخدّام ، وثلاثة آمرات كالأرباب .

وأمّا أفعالها أعني أفعال هذه القوى الّتي هي كالأشخاص فكثيرة ، لا يعلم عددها إلّا الله تعالى ، ولنذكر طرفاً من ذلك ليكون دليلاً على الباقي .

وذلـك أنّ أفعـال هـذه القـوى في الجسـد بعضهـا يشبـه أفعـال النبهـاء[1] والأشراف والرؤسـاء في المدينـة ، وبعضها يشبـه أفعال التجّـار والباعـة وجلّابي الأمتعـة إلى المدينـة ، وبعضهـا يشبـه أفعـال السـلاطين والجنـد والمتغلّبين في المـدينـة ، وبعضهـا يشبـه أفعـال القضـاة والعـدول والمصلحين في المـدينـة ،

---

(١) في الأصل «النباء» وفي نسخة (ر) البنّاء .

وبعضها يشبه أفعال الصبيان والعبيد والنساء والحمقاء ، وبعضها يشبه أفعال العقلاء والأحرار والكرماء ، وبعضها يشبه أفعال الشطّار والفتيان والجهّال ، وبعضها يشبه أفعال العلماء والفقهاء والقرّاء وأهل الدين .

تفصيل ذلك : أمّا القوى الأربعة المفردات الّتي هي كالرؤساء فهي قوى النفس النباتيّة وهي الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ، وعليهنّ تدور حالات الجسد من الصلاح والفساد .

وذلك أنَّ أفعال هذه القوى في أفعال الجسد إذا هنَّ اعتدلن وتساوين فاستقام أمر الجسد على الصحّة والسلامة ، وهي تشبه أفعال النبهاء[1] والتجّار والأشراف والرؤساء الّذين هم ملّاك المدينة وأربابها ، وبهم قوام أمر المدينة وصلاحها ، واستقامة أحوالها وأفعالها ، أعني لهذه القوى عند ورود الطعام والشراب إلى الجسد ، وتناول كلّ واحدة من هذه القوى ما شاكلها من الغذاء على ما ينبغي ، تشبه أفعال أهل تلك المدينة في أخذهم وإعطائهم وبيعهم وشرائهم ، وتناصفهم في معاملاتهم فيما بينهم .

وأفعالهم[2] إذا كانت على غير ما ينبغي تشبه أفعال أهل تلك المدينة إذا تنازعوا فيما بينهم ، وتخاصموا في مطالباتهم ، وتظالموا في معاملاتهم ، وأفعال القوّة المميّزة الّتي تقسط على كلّ عضو ما يشاكله من الغذاء لتستوي القوى ، وتعتدل الأخلاط في بنية الجسد ، يشبه أفعال القضاة والعدول والمصلحين في المدينة بين الناس .

وأمّا أفعال هذه القوى إذا هنّ هجن وتعادين وأدخلن السقم والأمراض على الجسد يشبه أفعال العيّارين وأصحاب العصبيّة ، إذا ثاروا وأثاروا الفتن ، وتقاتلوا وأحرقوا الأسواق وخرّبوا المنازل ونهبوا الأموال ، وأفسدوا في المدينة ، وأمّا أفعال هذه القوى عند ورود الدواء والأشربة وإخراج فضول الأخلاط من الجسد يشبه أفعال السلطان والجند إن قاتلوا العيّارين وتنكّبوا الفتن ، وأخذوا

(١) في الأصل «النباء» وفي نسخة (ر) البنّاء .
(٢) كذا والصواب : وأفعالها .

القُطّاع على أيديهم وأخرجوهم من المدينة .

وأمّا أفعال هذه القوى عند فضول خروج الأخلاط من الجسد ، وذهاب الأمراض ، وصلاح حال الجسد بعد السقم يشبه أفعال رؤساء تلك العصبيّة إذا تصالحوا فيما بينهم وتهادنوا وأصلحوا ما أفسد العيّارون من حالات المدينة ، وعمروا ما خربوا منها .

وأمّا القوى الثلاثة الّتي هنّ كأرباب فهنّ القوّة الشهوانيّة ، والقوّة الغضبيّة والقوّة الناطقة .

فأفعال القوّة الشهوانيّة في أعضاء الجسد إذا لم ترسها وترمّها[1] القوّة الغضبيّة تشبه أفعال الصبيان والنساء والعبيد والحمقاء ، إذا لم ترمّهم أزواجهم وآباؤهم ومواليهم .

وأمّا أفعال القوّة الغضبيّة إذا لم ترسها وترمّها القوّة الناطقة تشبه أفعال الشبّان والشطّار والجهّال والسفهاء إذا لم ترسهم عقلاؤهم ، وترمّهم مشائخهم ويأمر وينهى عليهم علماؤهم .

وأمّا أفعال القوّة الناطقة إذا لم يرسها العقل تشبه أفعال العلماء والفقهاء إذا تنازعوا في أحكام الدين واختلفوا فيها وصاروا مذاهب وآراء وبدعاً ومقالات إذا لم يرسهم ويرمّهم إمام عادل من خلفاء الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وأمّا القوى الخمس الّتي هي كالجلّابين فهي الحواسّ الخمس ، فمنها القوّة السامعة الداركة للأصوات ، ومجراها في الأذنين ، ومنها القوّة الباصرة المدركة للألوان والأنوار والأشكال ومجراها في الحدقتين ، ومنها القوّة الذائقة المدركة للطعوم ومجراها في اللسان ، ومنها القوّة الشامّة المدركة للروائح ومجراها في المنخرين . ومنها القوّة اللامسة المدركة للخشونة واللين والصلابة والرخاوة والحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة ومجراها في الأعصاب في جميع الجسد ، وأفعال هذه القوى في إدراكها صور المحسوسات من خارج الجسد ،

---

(١) راس الشيء يريسه : ضبطه . ورمّه جمعه .

وحملها جميع القـوى المتخيّلة في مقدم الـدماغ تشبـه أفعال الحشّـاد والجلاّبين الّذين يحملون الأمتعة من النواحي ، ويجلبونها إلى المدينـة ، ويعرضـونها على التجّار .

وأمّا القوى الثلاثة الّتي هي كالتجّار والباعة فهي القوّة المتخيّلة ، ومسكنها مقدّم الدماغ ، والقوّة المفكّرة ومسكنها وسط الدماغ ، والقـوّة الحافـظة ومسكنها مؤخّر الدماغ .

وأمّا أفعال القوى المتخيّلة وتناولها رسوم المحسوسات من الحواسّ ودفعها إلى القـوّة المفكّرة يشبـه أفعال السمـاسرة والبـاعة الّـذين يكونـون في عـرصـات الأسواق الّذين يكون[1] في المربعات .

وأفعال القوّة المفكّرة وتناولها رسول المحسوسات وتمييزها وتفصيل بعضها من بعض ودفعها إلى القوّة الحافظة الّتي مسكنها مؤخّر الدماغ تشبه أفعال التجّـار الّذين يشترون الأمتعة ويحملونها إلى البيوت والدكاكين والخان إشارات .

وأفعـال القوّة الحـافظة وتنـاولها رسـوم الأشياء من القـوّة المفكّرة وحفـظها وتمسّكها إلى وقت التذكار يشبه أفعال الخزّان والوكلاء .

وأما القوى الثمانية المتفـاوتة الّتي أفعـالها في أعضـاء الجسد تشبـه أفعال الصنّاع في أسواق المدينة ، فهي الجاذبة والماسكة والهاضمة والـدافعة والغـاذيه والمصوّرة والنامية والمولّدة ، وذلك أنّ هذه القوى تخدم بعضها بعضاً كما تخدم التـلامذة الأُستـاذين والأُجراء المستـأجرين ، وبعضهـا يعاون بعضـاً كمـا يعـاون الصنّـاع بعضهم بعضاً في الأسـواق ، وكتعاون الحـدّادين للنجـارين والنجـارين للبنـائين وكتعاون الحـلاّجين للندّافين والنـدّافين للغزّالين والغـزّالين للنسّاجين ، والنسّـاجين للخيّاطين ، وكتعـاون الطحّـانين للخبّازين ومـا شاكـل ذلك فـإنّ كلّ واحد من هؤلاء يهيّىء صناعة صاحبـه ويضبطهـا له فهكـذا أفعال هـذه القوى في أعضاء الجسد وتعاون بعضهم بعضاً فيما يفعل .

---

(١) كذا في الأصلين .

وذلك أنّ القوّة الجاذبة من شأنها جذب الطعام والشراب إلى المعدة ، وجذب الكيموس من المعدة إلى الكبد ، وجذب الدم من الكبد إلى العروق ، ومن العروق إلى سائر أطراف الجسد .

ومن شأن القوّة الماسكة إمساك ما يرد على العضو من الأخلاط .

ومن شأن القوّة الهاضمة أن تنضج ذلك الخلط وتهيّئه للقوّة الغاذية .

ومن شأن الدافعة أن تدفع من العضو ما لا يصلح له من الأخلاط إلى عضو آخر .

ومن شأن الغاذية أن تحيل الغذاء إلى مشابهة المغتذي ليخلف بدل ما يتحلّل .

ومن شأن النامية أن تناول تلك المادّة ، وتزيد في أقطار ذلك العضو طولاً وعرضاً وعمقاً .

ومن شأن القوّة المصوّرة أن تأخذ من كلّ عضو أفضل تلك المادّة وتصوّر مثل ذلك العضو ، وهذه القوّة مختصّة بالرحم .

وهذه القوى الثمانية لها أفعال كثيرة في أعضاء الجسد ، في كلّ عضو ضروباً من الصنائع ، خلاف ما في عضو آخر ، يشبه أفعال الصنّاع في أسواق المدينة ، ولكن نذكر من ذلك طرفاً ليكون دليلاً على الباقي .

من ذلك : أفعالها في المعدة من جذب الطعام والشراب إليها ، وإمساكها وهضمها ونضجها بالحرارة الغريزيّة ، يشبه أفعال الخبّازين والشوّائين ومن شاكلهم في أسواق المدينة .

وأفعالها بعد نضج الكيموس في المعدة وتصفيتها واستخراج لطيفها من الطعم واللّون والرائحة والحلاوة والدسومة ، وتمييزها ودفعها إلى الكبد ، ودفع عكرها إلى الأمعاء ، يشبه أفعال العصّارين الّذين يستخرجون الشيرج من ثمر الأشجار ، والأدهان من حبوب النبات ، والزبد والسمن من لبن الحيوان في أسواق المدينة .

وأفعالها في الكبد وطبخها صفو الكيموس مرّة ثانية ونضجها حتّى تصير دماً ، ثمّ تصفيتها بعد ذلك وتمييزها ، ودفع عكر الدم المحترق إلى الطحال ، واللطيف إلى المرارة والرقيق إلى المثانة ، والمعتدل الصافي إلى القلب يشبه أفعال الجلابين والدبّاسين ، والّذين يعملون السكّر والجلّاب وما شاكل ذلك في أسواق المدينة .

وأفعالها في القلب في تلطيف الدم مرّة ثالثة وتصفيته وإجرائه في العروق ، يشبه أفعال الذين يعملون الماورد ، ويصعّدون الخلّ ، ويقطّرون الرطوبات اللطيفة ، وما شاكلها في أسواق المدينة .

وأفعالها في الدماغ وتلطيفها الدم الّذي يصعد إليه ليصير رطوبات لطيفة روحانيّة كالّذي يجري في أعصاب العينين والأذنين والمنخرين واللّسان ، والبخارات الّتي منها يكون التخيّل ، وانفعالات الحواسّ ، تشبه أفعال الّذين يعملون الأدهان اللطيفة كدهن البنفسج ، ودهن الورد والزنبق ، وما شاكل ذلك في أسواق المدينة .

وأفعالها في دفع ثقل الكيموس من المعدة إلى الأمعاء والمصارين وإخراجها من الجسد ، تشبه أفعال الكنّاسين والزبّالين والسمّادين في المدينة .

وأفعالها في إجرائها الدم في الأوراد إلى سائر أطراف الجسد يشبه أفعال الّذين يحفرون الأنهار والآبار والقُنيّ ويجرون فيها المياه في خلل المنازل في المدينة .

وأفعالها في تعقيد الدم حتّى يصير لحماً وشحماً ودماً وما شاكلها ، تشبه أفعال الّذين يعقدون المايعات كالناطفين والحلاويين والعجّانين وما شاكلهم في المدينة .

وأفعالها في تجفيف المادّة وتصليبها حتّى تصير عظاماً يابسة ، يشبه أفعال الّذين يطبخون الآجرّ والخزف والزجاج وما شاكل ذلك .

وأفعالها في تركيب مفاصل الركبتين والفخذين والذراعين والأصابع ، تشبه تركيب المفاتيح والصناديق وما شاكل ذلك .

وأفعالها في تركيب خرزات الظهر والرقبة والأضلاع تشبه أفعال الّذين يبنون المسماريّات والسفن وما شاكل ذلك .

وأفعالها في تركيب عظام الفخذ وهنداماتها[1] تشبه أفعال الصفّارين ، الّذين يعملون القماقم والأباريق في تركيبها .

وأفعالها في خلقة الإنسان وتركيبها وتصفيتها تشبه أفعال النجّارين ، الّذين ينظمون خرز الدواليب والأرحية في تركيبهم زنداجاتها .

وأفعالها في خلقة الأعصاب وتمديدها وفتلها ولفّها على العظام والمفاصل تشبه أفعال الغزّالين والفتّالين والحبّالين ، وما شاكلهم في المدينة .

وأفعالها في خلقة الجلود والغشاوة تشبه أفعال الحاكة والنسّاجين وما شاكلهم .

وأفعالها في إلحام الجراحات والقروح تشبه أفعال الخيّاطين والرفّائين والخرّازين .

وأفعالها في نبت الشعر على الجلد يشبه أفعال الزرّاعين وما شاكلهم .

وأفعالها في خلقة الأظفار تشبه أفعال الّذين يعملون المساحي والمجارف وما شاكلها .

وأفعالها في خلقة الكروش والأمعاء والمصارين تشبه أفعال الّذين يعملون الطنافس والمسوح والغليظ من الثياب .

وأفعالها في خلقة الحجب والرباطات تشبه أفعال الّذين يعملون ثياب القطن والكتّان .

وأفعالها في الغشاوات الّتي تحت قحف الرأس تشبه أفعال الّذين يعملون الشباك وما شاكل ذلك .

وأفعالها في الغشاوات الّتي في العينين يشبه أفعال الّذين ينسجون الحرير

---

(١) الهندام ـ بالكسر ـ : حسن القد واعتداله .

والرقيق من الثياب .

وأفعالها في تبييض العظام وتحمير اللحم وتصفير الشحم وتسويد الشعر تشبه أفعال المصوّرين والصبّاغين والمزوّقين والدهّانين ومن شاكلهم .

وأفعالها في خلقة الرحم وفي تصوير الجنين وفي خلقة الفراخ والبيض تشبه أفعال المصوّرين والنقّاشين وأصحاب اللعب وما شاكل ذلك .

فإن قال قائل من الأطبّاء والطبيعيّين : إنّ هذه كلّها أفعال الطبيعة .

فليعلم بأنّ الفلاسفة قد قالت : إنّ الطبيعة فعل النفس .

فإن قال قائل من الشرعيّين : إنّ هذه الأفعال كلّها للبارىء الخالق المصوّر .

فليعلم أيضاً بأنّ النفس من فعل البارىء سبحانه .

وإنّما ذكرنا هذه الأفعال ونسبتها إلى النفس لكيما ينتبه الإنسان من نوم الغفلة ورقدة الجهالة ويتفكّر في نفسه ، ويشاهد من أفعالها هذه فيعلم بأنّ الصانع حكيم لأنّ المصنوع المحكم المتقن يتبيّن أنّ الصانع حكيم كما قال تعالى : ﴿**وفي أنفسكم أفلا تبصرون**﴾[1] .

وبالجملة هذه النفس مع هذا الجسد وانبثاث قواها في جميع أعضائه الباطنة والظاهرة وإظهار أفعالها وفنون حركاتها في مجاري مفاصله وحواسّها في مجاري ثقب رأسه في حال يقظته يشبه مدينة عامرة بالنهار مأنوسة بسكّانها قد فتحت أسواقها ، وسلكت طرقاتها ، وقصرت تجارتها ، واشتغلت صنّاعها ، وسعى متعيّشوها ، وتحرّكت حيواناتها ، وسمع منها دويّ وجلبة ، وأفعال هذا الجسد في وقت النوم وهدوء الحواس وسكون النفس عن الحركات يشبه حال تلك المدينة بالليل إذا غلّقت أسواقها ، وتعطّلت صنّاعها ، وخلت طرقاتها ، ونام أهلها ، وسكنت حركاتهم ، وهدأت أصواتهم .

---

(١) سورة الذاريات ؛ الآية : ٥٣ .

وأيضاً حال النفس عند مفارقة الجسد له يشبه حال تلك المدينة إذا رحل عنها أهلها وخلت من سكّانها ، وباد حيوانها ، وتبقى خراباً ، وتصير مأوى السباع والبوم ، ثمّ تتساقط حيطانها ، ويخرّ سوقها وتصير تلال تراب ، لا تبين إلاّ الحجارة والآجرّ ، كذلك حال الجسد عند الموت الّذي هو فراق النّفس إيّاه فإنّه يتغيّر وينفخ وينتن ويصير مأوى الديدان والنمل ، ثمّ يبلى ويصير تلّ تراب ، لا يبقى إلاّ عظام تلوح كما تلوح حجارة تلك المدينة وآجرّها .

تفكّر يا أخي فيما ذكرنا من نبأ هذه المدينة والدكّان وحالاتها ، واعتبر تصاريف قوى النفس فيها وعجائب أفعالها ، وفنون حركاتها لعلّك تنتبه من نوم الغفلة ورقدة الجهالة فتفتح لنفسك عين البصيرة فترى ذاتها ، وتبصر جوهرها ، وتعاين عالمها ، ومبدأها ومعادها كما رأيت بعين جسدك هذه الدكّان والدار والمدينة ، فترى أيضاً تلك الدار وتشاهد أحوالها وتعاين حقائقها ، وتعرف فضلها ، وتبيّن لك شرفها ، فترغب فيها، وتقصد نحوها وتطلب درجتها فتنال نعيمها ، ونفوز بسعادتها ، وتنجو من بحر الهيولى وهاوية الأجسام ، وأسر الطبيعة .

فاغتنم يا أخي قبل خراب هذه المدينة الجسمانيّة بأن تتّخذ في المدينة الروحانيّة لك منزلاً ، وبناء محكماً ، وداراً مخلّدة ، فقد علمت بأنّ هذه الدار ليست بدار مقام ، بل هي دار فناء وزوال ، وكون وفساد ، وتغيّر واستحالة ، وجوع وعطش ، وأمراض وأسقام ، وفقر وذلّ ، وتعب ونصب ، وأعداء وحسّاد ، وحرّ وبرد ، وظلمة ووحشة ، وفرقة وغربة ، وغموم وأحزان ، ونوائب في حدثان .

فارغب يا أخي عن هذه الدار إلى دار ليس فيها خوف ولا حزن ، ولا فناء ولا تغيّر ولا زوال ، وأهلها شباب لا يهرمون ، وأصحّاء لا يمرضون ، وأغنياء لا يفتقرون ، وجيران لا يتحاسدون ، وإخوان على سرر متقابلين ، لهم فيها ما يشتهون ، وهي الدار الحيوان ، لو كانوا يعلمون أهل الدنيا ، وهي ملكوت السماوات وفسحة عالم الأفلاك الّتي فضاؤها كلّها روح وريحان ، وجنّة ورضوان ، فاجتهد يا أخي لعلك توفّق للصعود إلى هناك فتجازى بأحسن

الجزاء ، وتستعين على ذلك بالأعمال الصالحة ، فإنّها ترفعك إلى هناك كما ذكر الله سبحانه بقوله : **﴿إليه يصعد الكلم الطيّب والعمل الصالح يرفعه﴾**[1] يعني بالكلم الطيّب روح المؤمن ، واحذر أن تكون ممّن قال فيه : **﴿لا تفتّح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنّة حتّى يلج الجمل في سمّ الخياط﴾**[2] .

واعلم أيّها الأخ بأنّ الشيخ أبا عليّ ابن سينا صنّف رسالة في معرفة النفس فأردت أن أذكرها بلفظها وجعلها مرتّبة على ثلاثة فصول :

الفصل الأوّل في إثبات أنّ جوهر النفس مغاير لجوهر البدن . والثاني في بقاءِ النفس بعد خراب البدن . والثالث في مراتب النفوس في السعادة والشقاوة بعد المفارقة عن البدن ثمّ ألحق فيها خاتمة ذكر فيها العوالم الثلاثة الّتي هي عالم العقل وعالم النفس وعالم الجسم ، وترتيب الوجود من لدن الحقّ الأوّل تعالى إلى أقصى مراتب الموجودات ، على الترتيب النازل من عنده تعالى ، ليكون الناظر في هذه الرسالة مطّلعاً على جمل من أجناس الموجودات ، وشطر من أنواعها .

فابتدأ بهذه الرسالة الّتي هي مشتملة على أهمّ المطالب وهي معرفة الإنسان نفسه وما يؤول إليه بعد الارتقاء عن هذا العالم ، وأيضاً فإنّ معرفة النفس مرقاة إلى معرفة الله سبحانه وتعالى ، كما أشار إليه شارع العرب والعجم بقوله عليه الصلاة والسلام[3] : «من عرف نفسه فقد عرف ربّه» ولو كان المراد بالنفس في هذا البدن الحديث هو هذا لكان كلّ واحد عارفاً بربّه أعني خصوص معرفته ، وليس كذلك فهذه الرسالة تهديك إلى الأسرار المخزونة في علم النفس ، الّتي غفل عنها الدهماء من الناس ، بل أكثر العلماء عنه غافلون ولهذا أوحى الله عزّ وجلّ إلى رسوله صلى الله عليه وآله وسلم لمّا سئل عن حقيقة الروح[4] : **﴿قل الروح من أمر ربّي﴾** ثمّ قال تعالى عقبه : **﴿وما أُوتيتم من العلم إلاّ قليلاً﴾** تنبيهاً

---

(١) سورة فاطر ؛ الآية : ١٠ .

(٢) سورة الأعراف ؛ الآية : ٣٩ .

(٣) سبق تخريجه ص ٢١٢ .

(٤) سورة الإسراء ؛ الآية : ٨٥ .

على أنّ أكثر الناس عن علم النفس وحقيقة الروح غافلون ، فهذه هي الإشارة المختصرة إلى فوائد هذه الرسالة فلنشرع فيما ذكرناه من الفصول :

الفصل الأول : في إثبات أنّ جوهر النفس مغاير لجوهر البدن . فنقول : المراد بالنفس ما يشير إليه كلّ أحد بقوله «أنا» وقد اختلف أهل العلم في المشار إليه بهذا اللفظ هل هو هذا البدن المشاهد المحسوس أو غيره ، أمّا الأوّل فقد ظنّ أكثر الناس وكثير من المتكلّمين أنّ الإنسان هو هذا البدن ، وكلّ واحد إنّما يشير إليه بقوله «أنا» وهذا ظنّ فاسد ورأي باطل ، كما سنبيّنه إن شاء الله تعالى .

والقائلون بأنّه غير هذا البدن المحسوس اختلفوا أيضاً فمنهم من قال : إنّه لا جسم ولا جسمانيّ بل هو جوهر روحانيّ فاض على هذا القلب وأحياه واتّخذه آلة في اكتساب المعارف والعلوم حتّى يستكمل جوهره بها ، ويصير عارفاً بربّه ، عالماً بحقائق مخلوقاته ، فتستعدّ بذلك للرجوع إلى حضرته ويصير ملكاً من ملائكته في سعاد لا نهاية لها ، وهذا هو مذهب الحكماء الإلّهيّين والعلماء الربّانيّين ، ووافقهم في ذلك جماعة من أرباب الرياضة وأصحاب المكاشفة ، فإنّهم شاهدوا جواهر أنفسهم عند انسلاخهم عن أبدانهم واتّصالهم بالأنوار الإلّهيّة .

ولنا في صحّة هذا المذهب من البحث والنظر براهين :

البرهان الأوّل : تأمّل أيّها العاقل في ذاتك الزم[1] في نفسك أو الّذي كان موجوداً جميع عمرك ، حتىّ إنّك تتذكّر ما جرى من أحوالك فأنت إذاً ثابت مستمرّ لا شكّ في ذلك وبدنك وأجزاء بدنك ليس ثابتاً مستمرّاً بل أبداً في التحلّل ، ولهذا يحتاج الإنسان إلى الغذاء ليصير بدلاً لما يتحلّل من بدنه ، فإنّ البدن حارّ رطب ، والحارّ إذا أثّر في الرطب تحلّل جوهر الرطب حتّى يفنى بكلّيّته ، كما توقد عليه النار دائماً فإنّه يتحلّل إلى أن لا يبقى منه شيء ، ولهذا لو حبس الإنسان عن الغذاء مدّة قليلة هزل وانتقص قريباً من ربع بدنه ، فتعلم

---

(١) العدم . ظ . في الأصلين .

أنّ في مـدّة عشرين سنـة لم يبق شيء من أجزاء بـدنك ، وأنت تعلم بقـاء ذاتك في هذه المدّة ، بـل جميع عمـرك فذاتـك مغايـرة لهذا البـدن وأجزائـه الظاهـرة والباطنة ، فهذا برهـان عظيم يفتـح لنا بـاب الغيب فإنّ جـوهر النفس غـائب عن الحواسّ والأوهام ، ومن تحقّق عنده هذا البرهان وتصوّره في نفسه تصوّراً حقيقيّاً فقد أدرك ما غاب عن غيره .

البرهان الثاني هو أنّ الإنسان إذا كان مهتمّاً في أمر من الأُمور فإنّه يستبصر نفسه حتّى يقول : إنّي فعلت كذا وأفعل كذا وفي مثل هـذا الحال يكـون غافـلاً عن جميع أجزاء البدن ومن المعلوم أنّ ما يفعل غير مـا هو مغفـول عنه ، فـذات الإنسان مغايرة لهذا البدن .

البـرهان الثـالث هو أنّ الإنسـان يقـول : أدركت الشيء الفـلانيّ ببصـري فاشتهيته ، وأغضيت عنه ، وكذا يقول : أخذت بيدي ومشيت برجلي ، وتكلّمت بلسـاني وسمعت بأُذني وتفكّـرت في كـذا وتخيّلتـه ، فنحن نعلم بـالضـرورة أنّ الإنسـان [يكون] شيئـاً مجمعاً لجميـع هـذه الصفـات والإدراكـات لجميـع هـذه الأفعال ، ونحن نعلم أيضاً بالضرورة أنّه ليس شيء من أجزاء هذا البدن مجمـع هذه الإدراكات والأفعال فلأنّه لا يبصر بالأُذن ، ولا يسمع بالبصر ولا يمشي باليد ولا يأخذ بالرجل ، ففيه شيء مجمع لجميع الإدراكات والأفاعيل ، ولا شيء من أجزاء هذا البدن جامع لذلك البتّة فالإنسان الذي يشير إلى نفسه بأنا مغاير لجملة أجزاء هذا البدن فهو شيء وراء البدن .

ثمّ نقول : هذا الشيء الّذي أثبتنا أنّه هويّة الإنسانيّة مغايـرة لهذه الجثّـة لا يمكن أن يكون جسماً ولا جسمانيّاً قائماً بالجسم ، لأنّه لو كان كذلك لكان أيضاً قابلاً للكون والفساد بمنزلة هـذا البدن فلم يكن بـاقياً من أوّل عمـره إلى آخره ، فهو ذا جوهر فرد روحانيّ ، بل هو نور إلٓهيّ فاض على هذا القلب المحسوس ، ليتمّ[1] استعداده وهو المـزاج الإنسانيّ الإنسيّ ، وإليـه أشار في كتـابه العـزيز : ﴿**فإذا سوّيته ونفخت فيه من روحي**﴾[2] فالتسوية هو جعل البدن بالمزاج الإنسيّ

(١) في الأصلين : ليتب .

(٢) سورة الحجر ؛ الآية : ٢٩ ، سورة صٓ ؛ الآية : ٧٢ .

ليستعدّ لأنّ يتعلّق به النفس الناطقة ، وقوله : ﴿من روحي﴾ أضافها إلى نفسه لكونه جوهراً روحانيّاً غير جسم ولا جسمانيّ ، فهذا ما أردنا أن نذكره في هذا الفصل .

الفصل الثاني : في بقاء النفس بعد خراب البدن ، اعلم أنّ هذا الجوهر الّذي هو الإنسان في الحقيقة ، لا يفنى بعد الموت ، ولا يبلى بعد المفارقة عن هذا البدن ومدبّره والمتصرّف فيه والبدن المنفصل عنه مسخّر له تابع ، فإذا لم تضرّ مفارقته عن هذا البدن وجوده فإنّ الجوهر موجود باق بعد الموت ، فإذا لا يضرّه وجود النفس فبقاؤه كان أولى وأحرى ، ولأنّ النفس من مقولة الجوهر ومفارقته من البدن من مقولة المضاف ، والإضافة أضعف الأعراض المحتاجة إليها ، لا يتمّ وجودها بموضوعها بل يحتاج إلى شيء آخر وهو المضاف إليه .

ومثاله أن يكون مالكاً لشيء ومتصرّفاً فيه ، فإذا بطل ذلك لم يبطل المالك ببطلانه ولهذا إنّ الإنسان إذا نام بطل عنه الحواسّ والإدراكات ، وصار ملقىً كالميّت ، فالبدن النائم في حاله شبيه الموتى ، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم : «النوم أخ الموت» .

ثمّ إنّ الإنسان في نومه يرى أشياء ويسمعها ، بل يدرك المغيب في المنامات الصادقة بحيث لا يتيسّر له ذلك في اليقظة ، فذلك برهان قاطع على أنّ جوهر النفس غير محتاج إلى جوهر البدن بل هو يضعف بمفارقة البدن ، فإذا مات البدن وخرب تخلّص جوهر النفس عن حبس البدن ، فإذا كان كاملاً بالعلم والحكمة والعمل انحدرت الأنوار الإلّهيّة وأنوار الملائكة والملأ الأعلى على انحدار أثره إلى جبل عظيم من المغناطيس وفاضت عليه السكينة ، وحقّت له الطمأنينة ، فنودي من الملأ الأعلى : **﴿يا أيّتها النفس المطمئنّة * ارجعي إلى ربّك راضية مرضيّة * فادخلي في عبادي وادخلي جنّتي﴾** .

الفصل الثالث : في مراتب النفوس في السعادة والشقاوة بعد المفارقة عن البدن .

اعلم أنّ النفس الإنسانيّة لا تخلو عن ثلاثة أقسام لأنّها إمّا أن تكون كاملة

في العلم والعمل ، وإمّا أن تكون ناقصة فيهما ، وإمّا أن تكون كاملة في أحدهما ناقصة في الآخر ، وهذا القسم الثالث على ضربين : لأنّها إمّا أن تكون كاملة في العلم ناقصة في العمل وبالعكس ، فتكون أصناف النفوس بحسب القسمة الأولى على ثلاثة أقسام كما ورد في الذكر الإلّهيّ بقوله : **﴿وكنتم أزواجاً ثلاثة * فأصحاب الميمنة ما أصحاب الميمنة * وأصحاب المشأمة ما أصحاب المشأمة * والسابقون السابقون * أُولئك المقرّبون﴾**[1] .

فنقول : أمّا الكاملون في العلم والعمل فهم السابقون ، ولهم الدرجات العلى في جنّات النعيم ، فيلتحقون من العوالم الثلاثة بعالم العقول ، ويتنزّهون عن أن يقارنوا الأجسام ونفوس الأفلاك مع جلالة قدرها . فقوله تعالى هم السّابقون الّذين هم في الدرجة العليا .

وأمّا أصحاب اليمين فهم في الدرجة الوسطى ، فهم يرتقون عن عالم الاستحاله ، ويتّصلون بنفوس الأفلاك ، ويتطهّرون عن دنس عالم العناصر ، ويخلّدون في النعيم الّذي خلقه الله في السماوات والحور العين وألوان الأطعمة اللّذيذة ، وألحان الطيور الّتي تقصر أوصاف الواصفين عن ذكرها وشرحها ، كما قال صلى الله عليه وآله وسلم حكاية عن الله تعالى : أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أُذن سمعت ولا خطر على قلب بشر فهذه مرتبة المتوسّطين من الناس ، ولا يبعد أن يتمادى أمرهم إلى أن يستعدّوا للفوز بالوصول إلى الدرجة العليا ، فينعّمون في اللّذّات الحقيقيّة ، واصلين إلى السابقين ، والناس بعد انقضاء دهر يأتي عليهم ، فهذه مرتبة أصحاب اليمين .

وأمّا أصحاب الشمال فهم النازلون في المرتبة السفلى ، فهم المنغمسون في ظلمات الطبيعة ، المنكوسون في قعر الأجرام العنصريّة ، المسجونون في دار البوار جهنّم يصلونها فبئس القرار ، الّذين **﴿دعوا هنالك ثبوراً ، لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً﴾** .

---

(١) سورة الواقعة ؛ الآيات : ٧ ـ ١١ .

(٢) سورة الفرقان ؛ الآيتان : ١٣ ـ ١٤ .

فهذا شرح مراتب أحوال النفوس البشريّة بعد المفارقة عن الأجسام ، والمهاجرة إلى دار الآخرة ، وقد اتّفق على صحّته الوحي الإلهيّ والرأي الحكميّ كما شرحناه والله أعلم .

خاتمة الرسالة : في ذكر العوالم الثلاثة الّتي هي عالم العقول وعالم النفس وعالم الجسم ، وترتيب الوجود من لدن الحقّ تعالى إلى أدنى مراتب الموجودات ، على الترتيب النازل من عنده تعالى فنقول وبالله التوفيق :

إنّ أوّل ما خلق الله تعالى جوهراً روحانيّاً هو نور محض لا في جسم ولا في مادّة ، درّاك لذاته ولخالقه تعالى ، وهو عقل محض ، وقد اتّفق على صحّته الحكماء الإلّهيّون والأنبياء عليهم السلام ـ كما قال نبيّنا صلى الله عليه وآله وسلم[1] : «أوّل ما خلق الله تعالى العقل فقال له : أقبل فأقبل ثمّ قال له : أدبر فأدبر ، قال : فبعزّتي وجلالي ما خلقت خلقاً أعزّ عليّ منك فبك أُعطي وبك آخذ ، وبك أُثيب وبك أُعاقب» فنقول : إنّ هذا العقل له ثلاث تعقّلات : الأوّل أنّه يعقل خالقه ، والثاني أنّه يعقل ذاته واجبة بالأوّل تعالى ، والثالث يعقل كونه ممكناً لذاته ، فيحصل من تعقّل خالقه عقل آخر بحصول مزاجه من مزاج آخر ، وحصل من تعقّل ذاته واجبة بالأوّل ، ثمّ نفس هو أيضاً جوهر روحانيّ كالعقل إلاّ أنّه في المرتبة دونه ، وحصل من تعقّل ذاته ممكنة لذاته جوهر جسمانيّ هو الفلك ، وهو العرش العظيم بلسان أهل الشرع ، فتعلّقت تلك النفس بذلك الجسم فتلك هي النفس الكلّيّة المحرّكه للفلك الأقصى كما تحرّك روحنا جسمنا ، وتلك الحركة شوقيّة ، بها تتحرّك النفس الكليّة الفلكيّة شوقاً وعشقاً إلى العقل الأوّل الّذي هو المخلوق الأوَّل ، فصار العقل الأوّل عقلاً للعقل الثاني ، والعقل الثاني عقلاً للفلك الأقصى مطالعاً له .

ثمّ حصل من العقل الثاني عقل ونفس وجسم ، فالجسم هو الفلك الثاني وهو فلك الثوابت فهو المسمّى بالكرسيّ بلسان أهل الشرع ، وتعلّقت النفس الثانية بهذا الفلك وهكذا حصل من العقل الثالث عقل ونفس وفلك ، وهو فلك

---

(١) روى مثلها في أُصول الكافي (١ : ٣) وبها افتتاح الكتاب .

زحل ، والنفس نفس زحل ، ثمّ حصل من العقل الرابع عقل ونفس وفلك وهو فلك المشتري والنفس نفس المشتري ، ثمَّ حصل من العقل الخامس عقل ونفس وفلك ، وهو فلك المرّيخ والنفس نفس المرّيخ وحصل من العقل السادس عقل ونفس وفلك ، هو فلك الشمس والنفس نفس الشمس ثمَّ حصل من العقل السابع عقل ونفس وفلك ، وهو فلك الزهرة والنفس نفس الزهرة ثمَّ حصل من العقل الثامن عقل ونفس وفلك ، هو فلك عطارد والنفس نفس عطارد . ثمَّ حصل من العقل التاسع عقل ونفس وفلك ، هو فلك القمر والنفس نفس القمر . ثمَّ حصل من العقل العاشر عقل هو عقل العالم العنصريّ ، وهو من السطح المقعّر لفلك القمر إلى مركز الأرض .

والعناصر : الماء والهواء والنار والأرض ، وحصلت المواليد الثلاثة : المعادن والنبات والحيوان . وأكملها الإنسان الّذي هو أكمل الموجودات السفليّة وهو بنفسه يشبه الملائكة ، ويمكن أن يبقى بقاء السرمد إذا تشبّه بالملائكة في العلم والعمل ، ويصير هو أيضاً أخسّ من البهائم إذا اتّصف بأخلاقها ، وأخلد إلى الأرض واتّبع هواه وكان أمره فرطاً ، وأمّا إذا تنزّه عن طرفي الإفراط والتفريط في الأخلاق ، وتوسّط بينهما فلا شغباً ولا خاملاً في القوّة الشهويّة ، ولا يكون مقهوراً ولا جباناً بل يكون شجاعاً وهو تحت القوَّة الغضبيّة فإنّ الشجاعة توسّط بين التهوّر والجبانة ، وكذلك يكون له حسن المعيشة وحسن التدبير بينه وبين الناس إمّا بحسب منزله الخاصّ به وهو حكم المعيشة بين الزوج وزوجته وأتباعه وولده ومالك ومملوك ، أو بحسب أهل بلده في المعاملات ، أو في السياسات إن كان له رتبة السياسة ، وهذه الحكمة بين تدبير نفسه وغيره دون البلاهة والحماقة والرعونة وهذه الحكمة غير الحكمة الّتي هي العلم بالحقائق ، فإنّ تلك الحكمة كلّما كانت أشدّ إفراطاً كانت أحسن ، وهذه الحكمة لا ينبغي أن تكون بالافراط وإلاّ كانت غريزة ولا بالتفريط وإلاّ كانت بلاهة .

وهذه الخصال الثلاثة أعني العفّة والسخاوة والشجاعة وهي الّتي تسمّى عدالة ، وهي مجموع هذه الثلاثة ، فمن اتّصف بها وكان أيضاً حكيماً بالحكمة النظريّة الّتي هي العلم بحقائق الأشياء فقد صار كاملاً في العلم والعمل ، وصار

من جملة من قيل في حقّهم ﴿والسّابقون السّابقون * أولئك المقرّبون * في جنّات النعيم﴾[1] .

فإن قلت : وهل يمكن أن توجد الحكمة بحدّ لا يمكن أن يكون أقلّ منها حتّى تستعدّ النفس لتلك السعادة فتكون من السابقين المذكورين .

قلت : يمكن ذلك التحديد بالتقريب ، فنقول : ينبغي أن يكون عالماً بواجب الوجود تعالى ، وصفات جلاله ونعوت كماله ، وينزّهه عن التشبّه ، وهو أنّه لا يشبهه شيء ولا يشبه شيئاً ، ولا يتصوّر عنايته بالمخلوقات ، وإحاطة علمه بالكائنات ، وشمول قدرته على جميع المقدورات ، ثمَّ يعلم أنّ الوجود يبتدىء من عنده ، صائراً إلى الجواهر العقليّة ، ثمَّ إلى النفوس الروحانيّة الفلكيّة ، ثمّ إلى الأجسام العالية السماويّة ثمَّ إلى الأجسام العنصريّة ومركّباتها من المعادن والنبات والحيوان ، ثمَّ يتصوّر جوهر النفس الإنسانيّة وأوصافها ثمّ إنّها ليست بجسم ولا جسمانيّ ، وإنّها باقية بعد فناء البدن ، إمّا منعّمة وإمّا معذّبة . فهذا القدر والعلم مجمله ومفصّله هو القدر الّذي إذا حصل للإنسان استعدّ بالسعادة الّتي شرحناها لها ، أعني سعادة السابقين المقرّبين الكاملين ، وبقدر ما ينتقص من علمه وعمله ينقص من درجاته وقربه من الله تعالى .

وأمّا الّذين قد انحطّت درجتهم عن درجة هؤلاء الكاملين علماً وعملاً وهم المتوسّطون فيكونون إمّا كاملين في العلم دون العمل ، وإمّا بالعكس ، فإنّهم يكونون محجوبين عن العالم العلويّ هنيئة ، ثمّ تنفسخ عنهم تلك الهيئة الظلمانيّة بتلك الرديئة الّتي كانوا يعملونها في حياتهم الدّنيا ، وتطرقهم الهيئة النوريّة قليلاً قليلاً ، فيلحقون إلى عالم القدس والطهارة ، ويلحقون بهؤلاء السابقين .

وأمّا الكاملون في العمل دون العلم ، ونسبة المتوسّطين وهم المتزهّدون من أهل الشرائع ، الّذين يعملون الصالحات ، ويؤمنون بالله واليوم الآخر ، ويتّبعون الأنبياء عليهم السلام فيما أمروا ونهوا عنه ، لا يكون لهم زيادة حظّ من حقائق

---

(١) سورة الواقعة ؛ الآيات : ١٠ ـ ١٢ .

العلوم ، ولا يعرفون أسرارها ، ولا أسرار التنزيلات الإلَهيّة وتأويلاتها ، وهم إذا تخلّصوا عن أبدانهم انجذبت نفوسهم إلى نفوس الأفلاك ، وعرجوا إلى السماوات ، فشاهدوا جميع ما قيل لهم في الدّنيا في غاية الشرف والرتبة ، ويلبسون فيها ثياباً من سندس وإستبرق ، وحلّوا أساور من فضّة متّكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهريراً ، ولا يبعد أن يقصر فيهم الأمر إلى أن يرتقوا إلى العالم العلويّ والسفر الإلَهيّ ، فينغمسون في اللّذّات الحقيقيّة الّتي لا يمكن أن يشرحها بيان ، ولا يكشف عنها مقام ، ولا يوازى بها حال .

وإذ قد وصلنا إلى هذا المقام وكشفنا هذه الأسرار الّتي عميت عنها أكثر الناس ، وغفلوا عن أنفسهم وإخوانهم على الحقيقة ، فلنكتف بهذا القدر من الاستبصار للطالبين المسترشدين .

تمّت الرسالة في معرفة النفس الّتي هي مفتاح معرفة الربّ والحمد لله وحده .

واعلم بأنّ فصول هذه الرسالة الّتي صنّفها الرئيس أبو عليّ ـ رحمه الله ـ قد ذكرها مجملة صاحب إخوان الصفاء ، وذكرتها من الكتاب المذكور في ما سبق ذكره قبل هذه الرسالة ، إلّا أنّ هذه مفصّلة أحسن تفصيل ، وأبهى تمثيل ، فلهذا كرّرت في هذه الخاتمة ، نسأل الله سبحانه حسن الخاتمة لنا ولإخواننا المؤمنين إنّه وليّ ذلك والقادر عليه .

واعلم أيّها الأخ أنّ مثل صاحب هذه الرسالة المجموعة في آداب النفس مع طالبي العلم كمثل جواد له بستان ، فيه من كلّ الثمرات والفواكه رطباً ويابساً ممّا تشتهيه الأنفس ، فنادى في الناس : هلمّوا وادخلوا هذا البستان ، وكلوا ما شئتم من كل الثّمرات ، فلم يجبه أحد ، وما صدّقوه في قوله هذا ، بل ربّما ظنّوا به ظنوناً سيّئة ، فرأى هذا الحكيم من الرأي أن يقف على باب البستان ، فكلّ من مرّ به شهّاه في بستانه ، وأطعمه منه ما يشتهيه حتّى أن علم علماً يقيناً أنّه وقف عليهم جميع ما في البستان ثمَّ قال له عند ذلك : ادخل البستان فكل منه ما شئت رغداً .

وهكذا ينبغي لمن حصلت عنده هذه الرسالة أن لا يعرضها إلاّ على طالبي العلم كيف كان ، ومحبّي الحكم ، ومن يريد أن يداوي نفسه من أمراضها فإذا وجد مسترشداً دفع إليه ما ينفعه من هذه الأدوية ما يقرب من فهمه ، حتّى إذا تمكّنت الحكمة من نفسه طلب عند ذلك كلّ مسترشد راغب في علاج أمراضه ، فيكون طلبه لمداواة المرضى حينئذ قربة إلى الله عزّ اسمه ، وما عنده من جزيل الثواب ، ليبارك في العالم أو المتعلّم والمتأدّب ، ويتأدّب بقوله صلى الله عليه وآله وسلم[1] «قوام الدين بأربعة : عالم مستعمل علمه ، وجاهل لا يستنكف أن يتعلّم ، وغنيّ لا يبخل بمعروفه ، وفقير لا يبيع آخرته بدنياه فإذا منع العالم علمه ، واستنكف الجاهل أن يتعلّم ، وبخل الغنيّ بمعروفه ، وباغ الفقير آخرته بدنياه فالويل لهم سبعين مرّة» .

وأُعيذك أيّها الأخ أن تكون بهذه الأوصاف في حال الإفادة والاستفادة والتعليم والتعلّم ، بل كن طالباً للآخرة ورضا الله تعالى والإخلاص لوجه الله تعالى ، فإنّما الدنيا دار فناء وعناء وتغيّر وتحيّر ، أعانك الله وإيّانا وجميع إخواننا إنّه على ما يشاء قدير وبالإجابة جدير .

واعلم أيّها الأخ أنّا لمّا رأيناك مهيّأً لقبول الفوائد العلميّة ، والصنائع العمليّة ، واسع النفس الناطقة لقبول الفوائد العقليّة ، والذخائر العلميّة الربّانيّة ، زاهداً في الدنيا قليل الرغبة فيها ، متهاوناً بما لا يهمّك منها من لذّاتها ومحبوباتها ، منصرفاً منزّهاً عن شهواتها ، مترفّعاً عن مزلّاتها ، قانعاً باليسير من أقواتها ، منصرفاً بعنايتك كلّها إلى إصلاح نفسك الزكيّة ، وروحك الطاهر المضيء ، تنتقل من بلد إلى بلد ، ومن بقعة إلى بقعة ، طالباً للعلم ، مشتملاً بُرد الحلم ، حسن العبادة ، كامل الزهادة بأخلاق رضيّة ، وآداب ملكيّة ، ونفس أبيّة ، وصورة جميلة ، وخلقة معتدلة ، وآلة كاملة ، وذهن صاف ، وخاطر مدرك ، وقلب خاشع ، وطرف دامع ، وتأمّلناك تأمّل من حقّق فيك ظنّه ، وصدقته عنك فراسته ، لمّا استجلاك الله بنوره الّذي أودعه فيك ، تنظر به إلى

---

(١) الخصال (١ : ٩٢) .

مخلوقاته ، وتحسن به قراءة آياته ، كما قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم[1] : «المؤمن ينظر بنور الله عزّ وجلّ» وقال الله سبحانه : ﴿يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم﴾[2] .

ولمّا نظرنا بهذا النور الموهوب لك المجعول أوّلاً في إبراهيم عليه السلام حتّى رئي ملكوت السماوات والأرض ، وصار وراثة في ولده ينتقل في ذرّيته ، الّذين اتّبعوه كما قال : ﴿فمن تبعني فإنّه منّي ومن عصاني فإنّك غفور رحيم﴾[3] .

ولمّا رأيناك بهذه الرؤية الصادقة بعد اجتهادك وحرصك على الوصول إلينا وشدّة الطلب لنا ، وخلاصك من دياجي ظلمات الجور ، وغلبة الشياطين ، وكثرة أعوان الظالمين وخمول الحقّ وأهله ، وانقطاع طرقه وسبله ، وكنت بين أهل زمانك كقادح زناد في ليلة ظلماء ذات رياح عاصفة ، وظلمات متراكمة ، وأهوية باردة ، تريد الاستضاءة بنوره في طريق فقدت أدلّتها ، واندرست معالمها ، وذهبت دلائلها ، فلم يبق فيها إلاّ طرق وعرة ، وعلامات داثرة ، يصعب السلوك فيها ، والقصد إليها إلاّ على أصحاب اقتفاء الآثار الخفيّة ، بمعرفه قد سبقت عندهم بها ، وعلامات وصفت لهم ، وخفيت على الّذين يريدون إطفاء نور الله بأفواههم ، بذهابهم بها وإزالتها ، لترتفع حجّة الله من أرضه ، وتنمحي آثار حكمته .

فلمّا أورى لك الزناد بنوره دلّك الدليل بظهوره حتّى وصلت إلى بقعة من بقاع الجنّة ، وروضة من رياض الأرض ، بل روضة من رياض الجنّة ، وهو مشهد مولانا وسيّدنا ، ثامن الأئمّة ، وسراج الأُمّة عليّ بن موسى الرضا ، عليه أفضل الصلاة وأكمل السلام .

فلمّا وصلت ـ أيّها الأخ السعيد ـ إلى زيارة الإمام الضامن ، واطّلعنا عليك وامتحنّاك بحيث رأيناك كما يجب علينا أن نمتحن مثلك ، ممّن يصل إلينا ويرد علينا فرأيناك صابراً ، نعم العبد لله سبحانه ، فإذا صرت من حيث سرت من

---

(١) النهاية لابن الأثير مادة (فرس) .

(٢) سورة الحديد ؛ الآية : ١٢ .

(٣) سورة إبراهيم ؛ الآية : ٣٦ .

بلدك إلى هٰهنا ، فينبغي لك أن تبني لنفسك داراً من القناعة ، وشيّدْ بنيانها ، وارفع حيطانها ، واجعل بابها من الزهادة ، وحاجبك عليها من الفقر ، واجعل غطاءك ووطاءك ترك القينة ، إلاّ ما تسدّ به الجوعة وتستر به العورة .

واعلم أنّك إذا سكنت هذه الدار أمنت من قطّاع الطريق واللصوص ومصادرة السلطان ، وحسد الإخوان ، وقلّ جارك ، وبعد على الناس مزارك .

فإذا بنيت هذه الدار على هذه الأركان فليكن مقامك فيها على خوف ووجل من التواني عن شيء من إقامة السياسة النفسانيّة ومن التغافل عن الديانات الشرعيّة وليكن مقعدك من هذه الدّار في صدرها ، بعد إحكامك جميع أمرها ، فأمّا السياسة النفسانيّة فتكون أخلاقك رضيّة وعاداتك جميلة ، وأفعالك مستقيمة ، تؤدّي الأمانة إلى أهلها كائناً من كان من وليّ أو عدوّ ، وتعوّد نفسك عمل الخير لأنّه خير ، لا تريد بفعلك عوضاً ، ولا يحملك على فعله خوف ، فمتى عملت الخير لطلب المكافاة عليه لم يكن خيراً ، فإن لم تطلب المكافاة وإنّما أردت الذكر والاسم كنت أيضاً منافقاً ولم يكن خيراً ، والمنافق ذو الوجهين غير مستأهل لمساكنة الروحانيّين ، وتريد للغير ما تريد لنفسك .

وقد وجد في كلام بعض الناس أنّ المؤمن لا يكون مؤمناً حتّى يرضى لأخيه ما يرضى لنفسه وليس هذا من جيّد الكلام ، وإنّما قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم[1] : «انّ المؤمن لا يكون مؤمناً حتّى يرضى لغيره ما يرضى لنفسه» وهذا من شريف الكلام فسبيلك أن تعوّد نفسك بحفظها وتراعي حقّ من استرعاك حقّه ، وتحسن مجاورة جارك ، وتصفي مودّة صديقك ، وتخلص المحبّة لمحبّك مع قلّة الطمع .

حديث محاسبة النفس بحذف السند

عن حفص بن غياث[2] قال قال أبو عبد الله عليه السلام : «إذا أراد أحدكم أن لا

---

(١) بعبارات مختلفة في باب «إنصاف الناس» .

(٢) أنظر تفسير البرهان (٤ : ٣٨٣) ذيل الآية : ٤ سورة المعارج .

يسأل ربّه شيئاً إلاّ أعطاه فليأس من الناس كلّهم ، ولا يكون له رجاء إلاّ من عند الله جلّ ذكره ، فإذا علم الله ذلك من قلبه لم يسأله شيئاً إلاّ أعطاه ، فحاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا عليها ، فإنّ للقيامة خمسين موقفاً كلّ موقف مقام ألف سنة ، ثمّ تلا **﴿مقداره خمسين ألف سنة﴾** .

ولقد صنّف الكفعميّ رحمه الله رسالة في محاسبة النفس اللّوامة مختصرة مفيدة جيّدة بأسلوب حسن مخاطباً لها «يا نفس يا نفس» إلى آخرها فمن أراد أن يحاسب نفسه فليقف عليها فإنّها تجاوزت الغاية .

قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : «النفس على ستّة أقسام : الأوّل النفس الأمّارة ، الثاني النفس اللّوامة ، الثالث النفس المطمئنّة ، الرابع النفس الملهمة ، الخامس النفس الراضية السادس النفس المرضيّة ، أمّا النفس الأمّارة فخاصيّتها بخل وحرص وكبر وحسد وغضب ، وأمّا النفس اللوّامة فخاصيّتها هوس ومكر وعجب وعشرة وتمنّ وقهر ، وأمّا النفس المطمئنّة فخاصّيّتها كرامة وزهد وإخلاص وتضرّع ورياضة[1] وأمّا النفس المرضيّة فخاصيّتها خُلق وخوف ويقين وتلطّف وتقرّب وتفكّر وصفاء» .

روي عن الصادق عليه السلام عن أبيه عن آبائه عليهم السلام عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى : **﴿لا يملكون الشفاعة إلاّ من اتّخذ عند الرحمن عهداً﴾**[2] إذا كان يوم القيامة نادى مناد من قبل العرش : ألا من كان له قبلي حقّ أو له عندي عهد فليدخل الجنّة بلا حساب وعذاب ، قيل : يا رسول الله وما العهد ؟ قال : بسم الله الرحمٰن الرحيم «اللّهمّ فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة ، الرحمن الرّحيم ، إنّي أعهد إليك في هذه الحياة الدّنيا أنّك أنت الله لا إله إلاّ أنت ، وحدك لا شريك لك ، وأنّ محمّداً عبدك ورسولك ، وأنّ عليّاً وليّك وصفيّك ، اللّهمّ لا تكلنا إلى أنفسنا طرفة عين فتقرّبنا من الشرّ وتباعدنا من الخير ، فإنّا لا نثق إلاّ برحمتك ، واجعل لنا ذلك عندك عهداً تردّه إلينا يوم

---

(١) بالهامش «النفس الراضية سقطت من قلم الناسخ» .

(٢) سورة مريم ؛ الآية : ٨٨ .

نلقاك ، إنّك مولانا لا تخلف الميعاد» ذكره ابن باقي في اختياره . الخ .

ورأيت في بعض نسخ حواشي المصباح أنّ هذا الدعاء يسمّى دعاء العهد وأنّ من كتبه يوم الأحد ودخل على سلطان قضيت حاجته ، وفي الاثنين من كتبه وحمله في سفره ربحت تجارته ، وفي الثلثاء من كتبه وحمله وطلب التزويج من قوم زوّجوه ، وفي الأربعاء إذا كتبه المحبوس وحمله أُطلق ، وفي الخميس من كتبه عند طلوع الشمس وحمله وخاصم قهر خصمه ، وفي الجمعة من كتبه وعلق على دكّان كثر ذيونه[1] وفي السبت من كتبه وعلّقه على أحد المتخاصمين اصطلحا بإذن الله .

وفي الأدعية المأثورة عن أئمّتنا عليهم السلام ورد كثير مثل هذا التضرّع والالتجاء إلى الله سبحانه من شرّ النفس ، خصوصاً ما ورد عن زين العابدين عليّ بن الحسين عليه السلام كلّ ذلك تعليماً للأُمّة وترغيباً لهم في تحصيل الثواب ، والنجاة من أليم العذاب ، وتحريضاً لهم على تأديب هذه النفس اللوّامة ، وتنبيهاً لهذه الرمّة النوّامة .

وإنّما ذكرت هذا العهد لكثرة فضله على غيره من الأدعية ، ولشدّة احتياجنا إليه نسأل الله سبحانه أن يجعله لنا عهداً مذكوراً وكنزاً مذخوراً إنّه وليّ ذلك والقادر عليه .

واعلم أنّ معرفة النفس من المهمّات لأنّه يترتّب عليها التكليف والمعاد وغير ذلك ، ولهذا قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم[2] : «من عرف نفسه عرف ربّه» ذكر في توجيه هذا الخبر وجوه :

أحدها أنّ من عرف أنّ نفسه حادثة عرف أنّ ربّه ليس بحادث بل قديم ، لأنّ الصانع غير المصنوع ، ومن عرف نفسه أنّها محتاجة عرف ربّه أنّه غنيّ ، ومن عرف نفسه أنّها ممكنة عرف أنّ ربّه واجب الوجود . إلى غير ذلك وقد مرّ سابقاً .

---

(١) أي من يراجعه ويشتري عنه .

(٢) سبق تخريجه ص ٢١٢ .

ثانيها أنّ من عرف نفسه أنّها ليست بجسم ولا عرض ولا في مكان ولا في جهة ، عرف أنّ ربّـه كذلـك ، ومن عرف أنّ نفسـه قادرة وعـالمة وحيّـة ومريـدة وكارهة وسميعة وبصيرة ومتكلّمة عرف أنّ ربّـه كذلـك ، لأنّ صفات النفس إنّمـا حصلت من الله ، فالله جلّ جلاله بذلك أولى .

ثـالثها أنّ من عـرف أنّ البدن لا يتحـرّك إلّا بـإرادة النفس عـرف أنّ جملة العالم وهو الفلك الأعظم بتوابعه لا يتحرّك إلّا بإرادة الله تعالى .

والحاصل ، ينبغي لكلّ عاقل أن يسلّط عقله على نفسه وهواها ، ولا يغتـرّ بمـا يعتاده الإنسـان من الأفعال الحميـدة الّتي لا تنفكّ عن آفـات مهلكة ، كمـا روي عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنّه قال :

«إذا رأيتم الرجل قد حسن سمته وهديـه ، وتخاضع في حركاته ، وتساكن في منطقه ، وتطامن في شخصه ، وشمّر من ثوبه ، وقصّر من خـطوته ، فـرويداً لا يغرّنّكم ، فإنّ كثيراً من يفعل ذلـك لضؤولة شخصـه ، وقصر همّتـه ، فينصب الدين فخّاً للدنيا يستجذب به حطامها.

فإن وجدتموه يزهـد في مال حـرام وإن كثر ، ويـرغب في مال حـلال وإن نـزر ، فرويـداً لا يغرّنّكم حتّى تنـظروا كيف حبّـه الـدّنيـا وزينتهـا ، وزخـارفهـا وشهواتها ، لأنّ كثيراً من يترك ذلك كلّه ، ثمّ يحمل نفسـه على شوهـاء قبيحة ، فيأتي منها محرّماً ، فإنّ شهوات الخلق مختلفة .

فـإن وجدتمـوه لا يرغب في الـدنيا ، ولا زينتهـا ولا في زخـارفهـا ولا في شهواتها فرويداً لا يغرّنّكم حتّى تنظروا كيف حبّه للرياسة الباطلة ، حتّى إذا قيـل له : اتّق الله أخذته العزّة بالإثم ، فحسبه جهنّم ولبئس المهاد .

فإن وجدتمـوه يشنأ السمعـة ولا يحبّ الرفعـة ولا يحبّ الريـاسة بـالباطـل فرويداً لا يغرّنّكم حتّى تنظروا ماذا عقد عليه عقله ، فإنّ كثيراً ممّن ترك ذلـك ثمّ لا يرجع إلى عقل متين ، ولا رأي سديد ، ولا حكم رشيد فيكون ما يفسـده أكثر ممّا يصلحه بفعله .

فإن وجدتموه يرجع إلى عقل متين ، ورأي سديد ، وحكم رشيد ، فرويداً لا يغرّنّكم حتّى تنظروا مع هواه يكون على عقله ، أم مع عقله يكون على هواه . فإن وجدتموه مع هواه على عقله فعنه فانفروا ومن جهته فلا تقربوا ، وبه إلى ربّكم فلا ترغبوا ، وإن وجدتموه مع عقله على هواه فذلكم الرجل ، نعم الرجل ، كلّ الرجل ، فبه تمسّكوا وبسنّته فاقتدوا ، وبه إلى ربّكم فارغبوا ، فإنّه والله لن يدخلكم في ردى ، ولن يخرجكم عن الهدى» صدق عليه السلام .

قال هرمس : إنّي تأمّلت اللّذّات كلّها ، فلن أجد اللّذّة إلاّ من ثلاثة أشياء وهي : الأمن والعلم والغنى ، فمن طلب العلم فليذهب إلى معنى التوحيد ، فإنّ بالتوحيد يكون المعرفة والعلم والتحقيق ، وبالإشراك يكون الكفر والجهل والشكّ ، ومن طلب الغنى فليذهب إلى رتبة القنوع ، فحيث لا قنوع فلا غنى ، ومن طلب الأمن فليعتقد التمنّي لمفارقة عالم الطبيعة ، وهو الموت الطبيعيّ .

يا نفس ! ما دمت في عالم الطبيعة فاحذري حالتين وهما النساء والمكر ، فالواقع في مصائد النساء كالطائر الواقع في كف صبيّ لا عقل له ، فالصبيّ يلهو به ويفرح ، والطائر في خلال ذلك يتجرّع غصص الموت ، ويلقى أنواع العذاب . والمكر يجعل النفس كسفينة المال في تيّار الماء وأمواجه ، وليس فيها ملّاح يدبّرها ، كذلك النفس إذا فارقت العقل جرت الطبيعة بها جرياناً هائماً ، لا ترتيب له ولا نظام فهلكت .

قال أرسطاطاليس : السعادة ثلاثة : [إمّا] سعادة في النفس وهي المعرفة والحكمة والشجاعة والفقه والعفّة ، وإمّا في البدن وهي الصحّة والقوّة والجمال ، وإمّا خارج البدن والنفس وهي المال والجاه والحسب .

وقال الشيخ اليونانيّ : النفس جوهر كريم شريف يشبه دائرة قد دارت على مركزها غير أنّها دائرة لا بعد لها ومركزها هو العقل وكذلك العقل دائرة استدارت على مركزها وهو الخير الأوّل المحض ، غير أنّ النفس والعقل وإن كانا دائرتين ، لكن دائرة العقل لا تتحرّك أبداً ، بل هي ساكنة دائبة شبيهة بمركزها .

وأمّا دائرة النفس فإنّها تتحرّك على مركزها وهو العقل حركة الاستكمال ،

وعلى أنّ العقل وإن كانت دائرته شبيهة بمركزها ، لكنّها تتحرّك حركة الاشتياق ، لأنّها تشتاق إلى مركزها وهو الخير الأوّل .

وأمّا دائرة العالم السفليّ فإنّها دائرة تدور حول النفس ، وإليها تشتاق ، وإنّما يتحرّك بهذه الحركة الذاتيّة شوقاً إلى النفس كشوق النفس إلى العقل وشوق العقل إلى الخير الأوّل المحض ، ولأنّ دائرة هذا العالم جرم والجرم يشتاق إلى الشيء الخارج منه ، ويحرص على أن يصير إليه فيعانقه فلذلك الجرم الأقصى الشريف حركة مستديرة لأنّه يطلب النفس من جميع النواحي لينالها فيستريح إليها ويسكن عندها .

وقال تاوفرسطيس : الغنى شيء يختصّ بالنفس دون الجسم ، فيشغلها عن مصالحها ، كما أنّ لذّة المأكول والمشروب شيء يختص بالجسم دون النفس .

وقال : الحكمة غنى النفس ، والمال غنى البدن ، فطلب غنى النفس أولى ، لأنّها إذا غنيت بقيت ، والبدن إذا غني فني ، وغنى النفس ممدود وغنى المال محمود .

وقال أبو عليّ عبد الله ابن سينا في مقالته الخامسة : إنّ النفس الإنسانيّة جوهر ليس بجسم ولا قائم بجسم ، وإنّ إدراكها قد يكون بآلات ، وقد يكون بذاتها . وإنّها واحدة وقواها كثيرة ، وإنّها حادثة مع حدوث البدن ، وباقية بعد فناء البدن .

أمّا البرهان على أنّ النفس ليس بجسم هو أنّا نحسّ من ذاتنا إدراكاً معقولاً عن الموادّ وعوارضها أعني الكمّ والأين والوضع .

ثمّ قال بعد كلام طويل : خصائص المعجزات ثلاثة :

خاصيّة في قوّة النفس وجوهرها ليؤثّر في الهيولى العالم بإزالة صورة أو إيجاد صورة ، وذلك أنّ الهيولى منقادة لتأثير النفوس الشريفة المفارقة ، مطيعة لقواها السارية في العوالم ، وقد تبلغ نفس إنسانيّة في الشرف إلى حدّ يناسب

تلك النفوس فتفعل فعلها ، وتقوى على ما قويت هي فتزيل جهلاً عن مكانه ، وتذيب جوهراً صلباً ، فيستحيل ماء وتجمّد جسماً سائلاً ، فيستحيل حجراً ، ونسبة هذه النفوس إلى تلك النفوس كنسبة السراج إلى الشمس ، وكما أنّ الشمس تؤثّر في الأشياء تسخيناً بالإضاءة ، كذلك السراج يؤثر بقدره ، وأنت تعلم أنّ للنفس تأثيرات جزويّة في البدن فإذا حدثت في النفوس صورة الغلبة والغضب حمي المزاج ، واحمرّ الوجه وإذا حدثت في صورة مشتهاة فيها حدثت في أوعية المنيّ حرارة مبخرة مهيّجة للريح ، حتّى تمتلىء به عروق آلة الوقاع ، فيستعدّ له والمؤثّر هٰهنا مجرّد الصور لا غير .

والخاصيّة الثّانية أن تصفو النفس صفاء يكون شديد الاستعداد للاتّصال بالعقل الفعّال حتّى يفيض عليها العلوم ، فإنّا قد ذكرنا حال القوّة القدسيّة الّتي تحصل لبعض النفوس حتّى يستغني في أكثر أحواله عن التفكّر والتعلّم ، فالشريف البالغ منه يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار .

والخاصيّة الثالثة للقوّة المتخيّلة بأن تقوى النفس وتتّصل في اليقظة بعلم الغيب كما سبق وتحاكي المتخيّلة ما أدرك النفس بصورة جميلة وأصوات منظومة ، فترى في اليقظة ، وتسمع فتكون الصورة المحاكية للجوهر الشريف صور عجيبة في غاية الحسن ، وهو الملك الّذي يراه النبيّ ، وتكون المعارف الّتي تتّصل بالنفس من اتّصالها بالجواهر الشريفة يتمثّل بالكلام الحسن المنظوم الواقع في الحسّ المشترك فيكون مسموعاً .

قال : والنفوس وإن اتّفقت في النوع إلّا أنّها تتمايز بخواصّ ، وتختلف أفاعيلها اختلافات عجيبة ، وفي الطبيعة أشكال، ولاتّصالات العلويّات بالسفليّات عجائب ، وجلّ جناب الحقّ أن يكون شريعة لكلّ وارد ، وإن يرد عليه إلّا واحد بعد واحد ويعدّ ممّا يشتمل عليه هذا الفنّ ضحكة للمعقّل ، وعبرة للمحصّل ، فمن سمعه فاشمأزّت عنه فليتّهم نفسه لعلّها لا تناسبه وكلٌّ ميسّر لما خلق له . انتهى .

واعلم أنّ النفس البشريّة جبلت على أخلاق لا تحمد جميعها ولا تذمّ كلّها ، بل الغالب على النفس الشقاوة وإن كان بعض الأخلاق محمودة وبعضها

مذمومة ولهذا قيل :

وما هذه الأخلاق إلّا طبائع   فمنهنّ محمود ومنهنّ مذموم

ومن أراد أن تكون أخلاقه محمودة فليُرض نفسه رياضة تأديب وتدريج فما يشعر إلّا وقد استقامت له أخلاقه بعضها طبعاً وبعضها تطبّعاً لأنّ شريف الأعمال لا يدرك إلّا بأشرف الخصال ، ولذلك قال الله تعالى لنبيّه صلى الله عليه وآله وسلم : ﴿**وإنّك لعلى خلق عظيم**﴾[1] لأنّ النبوّة لمّا كانت أشرف مراتب الخلق بعث لها من قد حاز فضائل أشرف الأخلاق ، ولهذا ، قال صلى الله عليه وآله وسلم[2] : «**بعثت لأُتمّم مكارم الأخلاق**» .

إذا تقرّر ذلك فاعلم أنّ مرتبة العلم بعد مرتبة النبوّة والإمامة هي المرتبة القصوى ، لأنّ العلماء ورثة الأنبياء بل هم كالأنبياء في زماننا ، وقد أشار نبيّنا إليه صلوات الله عليه وآله بقوله : «علماء أُمّتي كأنبياء بني إسرائيل» فينبغي لكلّ إنسان خصوصاً من يتّصف بالعلم أن يأخذ في إصلاح نفسه وتهذيبها في جميع أحواله ، في أفعاله وأخلاقه وأقواله ، فإنّه متى قدر على سياسة نفسه كان على سياسة غيره أقدر ، ولذلك قيل : لا ينبغي لعاقل أن يطمع في طاعة غيره وطاعة نفسه ممتنعة .

أتطمع أن يطيعك قلب سعدى   وتزعم أنّ قلبك قد عصاك !

وقد تزيّن نفس الإنسان حسن الظنّ بها ، فيعتقد أنّه متّصف بمحاسن الأخلاق ، فيعرض عن تفقّد أحوال نفسه ، ويرضى بكلّ ما صدر عنه من غير رعاية لما مرّ ، فيبقى مصدوداً ومطروداً عن قرب السعادة الأبديّة ، والفوز باللّذّة السرمديّة ، فيكون ممّن زيّن له سوء عمله فرآه حسناً ، فيصير عقله لهواه مرتهناً فلا يشعر إلّا وقد أشرف به الصلف على التلف ، ومتى استظهر على هذه الحالة من مبدء أمره فقطعها ، واجتبّ عروقها وقلعها انقلبت أخلاقه الذميمة حميدة ، وطرائفه المتباينة سعيدة .

---

(١) سورة القلم ؛ الآية : ٤ .

(٢) سبق تخريجه في الجزء الأول ص ٥ .

ولا يدرك هذا الاستظهار بعين اليقين إلّا إذا أحاط علماً بأسباب التـزيين ، وهي خمسة ذميمة عاقبة كلّ منها مشومة :

الأوّل الكبر وهو جالب لسخط الله تعالى قال الله تبارك وتعالى : **﴿كذلك يطبع الله على كلّ قلب متكبّر جبّار﴾**[1] وقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم حاكياً عن الله تعالى «الكبرياء ردائي ، والعظمة إزاري فمن نازعني واحداً منهما أدخلته النار» وفي رواية أُخرىٰ «فمن نازعني شيئاً منهما قصمته» ومعنى الكبرياء الترفّع عن الانقياد لغيره ، واحتياج الخلق إليه واستغناؤه عنهم ، ومعنى العظمة شرف الذات ، وعلوّ الرتبة ، والمعنى أن هذين الوصفين مختصّان به تعالى فلا يليق لأحد من خلقه تعاطي شيءٍ منهما ، كما لا يشرك الإنسان فيما لابسه من الإزار والرداء أحد ، وقال صلى الله عليه وآله وسلم : «لا يدخل الجنّة من في قلبه مثقال حبّة من خردل من كبر» .

الثاني العجب وهو من المهلكات قال تعالى : **﴿ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم﴾**[2] الآية ، وقال عليه السلام[3] : «ثلاث مهلكات : شحّ مطاع وهوى متّبع وإعجاب المرء بنفسه» والكبر ينشأ من رؤية النفس ، واعتقاد عظم المنزلة ، وعلوّ المكانة ، ونفاذ الأمر ، وقلّة رؤية الأمثال والأكفاء ، فيكون سبب الكبر حضور أوائل هذه الأشياء في النفس ، فإن أصرّ عليها كان مستكبراً ولهذا قال تعالى في حقّ إبليس لعنه الله : **﴿فسجدوا إلّا إبليس أبى واستكبر﴾**[4] نعوذ بالله من العجب ، فانظر كيف صار كبراً وتكبّراً واستكباراً .

واعلم أنّ العجب ينشأ من اعتقاد رجحان الصفات النفسانيّة ، فلا يتوهّم أنّ لغيره كمالاً مثل كماله بل فضلاً عليه ، فيصوّب بذلك المقت إليه ، ويحتقب ما يورث الندامة يوم يعضّ الظالم على يديه .

الثالث الغرور وهو مطيّة العطب ، وحقيقته أن يرى الأحوال في مباديها

---

(١) سورة المؤمن ؛ الآية : ٣٥ وانظر في الكبر في الفصل ١٣ من الجزء الأول .

(٢) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٦ .

(٣) سبق تخريجه من الخصال (١ : ٤٢) .

(٤) سورة البقرة ؛ الآية : ٢٤ .

منتظمة والأمور على وفق المراد ملتئمة ، فيظنّ اطّراد هذه الأحوال ، وأنّها مستمرّة مدى الأيّام والليالي ، فيغترّ بذلك ، فيهمل التأهّب والاستعداد فتهجم عليه حوادث الخلل والفساد وأعظم مواد هذه العلّة مدح المنافقين ، وتقرّب المتملّقين الّذين اتّخذوا النفاق والكذب وسيلة ، وجعلوا المكر والخداع في ذلك أحبولة وحيلة ، فمتى وجدوا لنفاقهم نفاقاً وسوقاً ولكذبهم قبولاً وتصديقاً نصبوه سلّماً إلى مرامهم ، وأقاموا المغترّ بهم عرضاً لسهامهم ، فينبغي لمن فضّله الله بالعلم أن ينتبه لمن يجعل أمره سخريّة وهزؤة ، ويتحفّظ منهم غاية التحفّظ ، ويعرض ما ذكروه فيه على الواقع ، فإن كان حقّاً حمد الله وأثنى عليه ، وإن كان كذباً زجر من نافقه ولا يركن إليه .

[الرابع[1] الشحّ المطاع ومن شؤمه أنّ الفلاح مقرون بالسلامة منه قال تعالى : ﴿**ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون**﴾[2] وهو من جملة المهلكات ، ويقال : الشحيح عدوّ نفسه ، ومتّهم لربّه ، ومنقبض عن صديقه ، ومبغّض في حياته ، ومنكّد في معيشته ، وشقيّ في دنياه وآخرته . فهو مطرود عن مقامات الكرام ومعدود من سيّئات الأيّام ، ومقصود بسهام الملام بين الأنام ، لا يسود في مدّة عمره أبداً ، ولا يقضي وطراً ، ولا يبلغ مقصداً .

الخامس الكذب ويكفي في ذمّه أنّ صاحبه ملعون مطرود عن باب الإيمان .

قال الله تعالى : ﴿**فنجعل لعنة الله على الكاذبين**﴾[3] وقال تعالى : ﴿**إنّما يفتري الكذب الّذين لا يؤمنون**﴾[4] الآية ، فقد أسقط الوثوق به ووصل إليه المقت بسببه ، وهو قبيح من كلّ أحد .

فهذه الخمسة يتعيّن على كلّ عاقل صون نفسه منها فإنّها أمّ النقائص ، وينبوع الرذائل والعالم أولى أن يقي نفسه الشريفة من تطرّق شيء من هذه

---

(١) من هنا سقط في النسخة (ر) .
(٢) سورة الحشر ؛ الآية : ٩ .
(٣) سورة النحل ؛ الآية : ٦٢ .
(٤) سورة آل عمران ؛ الآية : ٦١ .

إليها ، فإذا اجتنبها فعليه أن يتحلّى بما يزداد به مهابة ووقاراً ، ويكسبه عظمة وفخاراً ، وذلك بأن لا يسارع إلى اتّباع الشهوات ، وأن يتثبّت عند تعارض الشبهات ، وأن يجانب سرعة الحركات وخفّة الإشارات ، وأن يديم إطراق طرفه وملازمة صمته إلاّ عند الحاجات ، فإنّ أنفاسه ملحوظة ، وألفاظه محفوظة .

قيل لأبي يزيد : متى يكون الرجل متواضعاً ؟ قال : إذا لم ير لنفسه حقّاً مّا ولا حالاً من علمه بشرّها وازدرائها (كذا) ، ولا أنّ في الخلق شرّاً منه .

وقال الترمذيّ : التواضع على ضربين : الأوّل وهو أن يتواضع العبد لأمر الله تعالى ونهيه ، فإنّ النفس تستعلي في أمره ، والشهوة الّتي تهوى في نهيه ، فإذا وضع نفسه لأمره ونهيه فهو متواضع . والثاني أن يضع نفسه لعظمة الله ، فإن اشتهت نفسه شيئاً ممّا أُطلق له من كلّ شيء نوع من أنواع منعها ذلك بترك مشيّته لمشيّة الله تعالى .

واعلم أن التواضع يرفع الوضيع ، كما أنّ التكبّر يخفض الرفيع ، وقد ذكر كيفيّة التواضع في الاثنى عشريّة فمن أراد الاطّلاع عليه فليطالع الرسالة المذكورة .

سئل بعض فضلاء المعتزلة كيف تاب الله على آدم ولم يتب على إبليس مع اشتراكهما في المخالفة ؟ قيل : لأنّ إبليس أسند الإغواء والإضلال إلى الله تعالى ، لقوله[1] : ﴿**ربّ بما أغويتني**﴾ وآدم أسند الغواية إلى نفسه فقال[2] : ﴿**ربّنا ظلمنا أنفسنا**﴾ الآية .

وقال بعض الفضلاء شعراً :

ما بال نفسي تطيل شكواها … إلى الورى وهي ترتجي اللّه؟
يفسد إخلاصها شكايتها … ذلك الّذي رابها وأرداها
لو وثقت بالإله أنقذها … من كلّ ما شانها ونحّاها[3]

---

(١) سورة الحجر ؛ الآية : ٣٩ .
(٢) سورة الأعراف ؛ الآية : ٢٢ .
(٣) شانه : عابه .

لو أنّها من مليكها اقتربت ... وأخلصت ذكره لأدناها

لكنّها آثرت بريّته ... عليه، جهلاً منها، فأقصاها

افتقرت للورى، ولو لجأت ... إليه من دونهم لأغناها

تشكو إلى خلقه كأنّهمُ ... قد ملكوا نفعها وضرّاها

لو فوّضت أمرها لخالقها ... وصحّحت شكرها وتكلاها

عوّضها من همومها فرجاً ... ولم يدعها بطول غمّاها

تسخطه في رضا بريّته ... تبّاً لها ما أجلّ بلواها!

لو أنّها للعباد مسخطة ... مرضية ربّها، لأرضاها

لديّ نفس أُريد أنعتها ... ليعرفوا نعتها وأسماها

اسمع صفات لها لعلّك أن ... تعلم ـ ذا اللّب ـ سرّ معناها:

تسعى إلى اللهو وهو غايتها ... يا ويلها! ما أضلّ مسعاها

تنظر في عيب غيرها سفهاً ... وكم عيوب لها فتنساها

قد ظلمتني بسوء عشرتها ... فلم تدع لي تقىً ولا جاها

كثيرة اللهو في][1] مجالسها ... قليلة الذكر في مصلاّها

قليلة الشكر عند نعمتها ... ضعيفة الصبر عند بؤساها

بطيئة السعي في مصالحها ... سريعة الجري في بلاياها

كثيرة المين في مواعدها ... كذوبة في جميع دعواها

بصيرة بالدنا وفتنتها ... عميّة عن أُمور أُخراها

نشيطة عند وقت لذّتها ... كسلانة عند وقت ذكراها

نوّامة العين عن عبادة من ... أتقن تصويرها وسوّاها

حليفة الكبر والرّياءِ فقد ... أفسدها كبرها وطغياها

عظيمة المدح والثناء لمن ... يرفع مقدارها وذكراها

تفرح في أكلها ومشربها ... وحبّها للمنام أشقاها

ذاكرة للورى مساويهم ... ناسية ما جنته كفّاها

قد ظلمتني بسوء عشرتها ... ولم تدع لي تقىً ولا جاها

كم بين نفسي وبين نفس فتى ... طهّرها بالتقى وزكّاها

---

(١) انتهاء ما سقط من النسخة (ر) .

علّمها رشدها وبصّرها ... وبالحلال القليل غذّاها
أقامها في الدجى على قدم ... فانهملت بالدموع عيناها
إن اشتهت شهوة توعّدها ... بخوف معبودها فأثناها
وراضها بالصيام فانقمعت ... بالرّغم عن غيّها وطغواها
ذاكرة للإلـه شاكرة ... مخلصة سرّها ونجواها
أمرضها خوفها لخالقها ... وذكر يوم المعاد أضناها
للّه نفس امرىء موفّقة ... آوت إلى ربّها فآواها
شرّفها ربّها وأكرمها ... ومن مياه اليقين أرواها
سمت إليه بحسن فكرتها ... ثمَّ صفا ودّها فأصفاها
تلك الّتي إن دعت لحاجتها ... أجابها مسرعاً ولبّاها
ليست كنفسي تكون عاصية ... آمرها جاهداً وأنهاها
إنّي لنفسي أبغي كرامتها ... وأن تكون الجنان مأواها
كيف إلى ربّها تنيب وقد ... ذلّت لشيطانها فأغواها
وهي لأمر الإلـه عاصية ... ويل لما قد جنت وويلاها!
وكلّما قلت: نفسي انزجري ... وراقبي في أُمورك اللّه
صمّت عن الحقّ وهي سامعة ... كأنّني ما أُريد إيّاها
لو علمت بعد ما له خلقت ... أحزنها علمها وأبكاها
لو تعرف اللّه حقّ معرفة ... لصحّحت برّها وتقواها
لكنّما جهلها بخالقها ... أغفلها رشدها وألهاها
يا ويح نفسي! والويح حقّ لها ... إن صدّها رأيها وخلّاها
تغرّها لذّة الحياة، وما ... تدري إلى ما يؤول عقباها
قد ضقت ذرعاً بها وأحسبها ... لم أك أعصي الآلـه لولاها
إن قلت: همّي بطاعة، فترت ... وأظهرت قسوة وإكراها
صرت مع النفس في مجادلة ... تأمرني بالهوى وأنهاها

وقلت:

ويحك يا نفس دعي ... ما عشت ذلّ الطمع

وارضي بما جرى به ... حكم القضاء واقنعي
إيّاك والميل إلى ... شيطانك المبتدع
أو تركني إليه أو ... تصغي له فتخدعي
وجانبيه واحذري ... خطاه أن تتّبعي
واقتصدي واقتصري ... كي ترتوي وتشبعي
فإن قنعت تسلمي ... وإن طمعت تصرعي
كي ترشدي وتحمدي ... وتسعدي وترفعي
أين السلاطين الأُولى ... من حمير وتبّع
شادوا الحصون فوق ... كلّ شاهق مرتفع
وجمّعوا خزائناً ... لغيرهم لم تجمع
وجنّدوا الجنود من ... كلّ فتى مشبّع(١)
ليمنعوا من الردى ... فلم تكن لتمنع
أفناهم الموت فما ... أبقى الشريف والدعي
وجرّعوا كأس الردى ... فيا لها من جرّع
لم يبق من ديارهم ... غير رسوم خشّع
فهل تحسّي منهم ... من أحد ، أو تسمعي
كفا بذاك واعظاً ... وزاجراً لمن يعي
حسبك يا نفس اقبلي ... نصحي، ولا تضيّعي
إن أقبل الدهر أحسني ... وإن نبا تورّعي(٢)
وإن رماك بالخطو ... ب صرفه لا تجزعي
أو شبّثت أيدي الرزا ... بابك لا تروّعي
فإنّما همُ سحابٌ ... إن أضلّ يقشع

---

(١) بهامش الأصل : المشبع الذي يدعي في نفسه أن له فضايل ومحاسن وهو عادمها قال الشاعر :

كل من يدعي بما ليس فيه ... فضحته شواهد الإمتحان

(٢) بهامش الأصل : قوله «نبا تورعي» نبا الدهر بفلان أي بخسه حقه ولم يعطه ما يرجو ويطلب .

وإنّ للصنيف زما ... ن ليس بالمتّسع
كذاك طبع الدهر لا ... يغلب بالتطّبع
وإن دهاك حادث ... إلى الإلّه فافزعي
واستسلمي وسلّمي ... الأمر إليه واخضعي
واحتسبي الخطب به ... وأبصري وأسمعي
واعتصمي بحبله ... يقيك هول المطلع
والجي إلى اللّه وغير ... بابه لا تقرعي

وقلت[1] :

جاهد النفس ما استطعت جهاداً ... واحذرنها فإنّها شرّ طاغي
كلّما رمتُ طاعة أو صلاحاً ... أنظرتني إلى وجود الفراع

وقلت :

لا تحقرن قدراً لنفسك إنّها ... علويّة ترقى لما هو شبهها
والنفس كالمرآة يصقلها التقى ... قسراً، ويظلم بالمعاصي وجهها

وقلت :

للنفس في الطاعات حظّ ولا ... يدرك هذا غير أهل الكمال
وفي المعاصي حظّها ظاهر ... لكن خفي الدّاء صعب الزوال

وقلت :

ذلّل النفس بالرياضة واترك ... كلّ خلق تدبّ فيك شروره
واجعل السرّ دائماً ذا صفاء ... فبقدر الصفاء يشرق نوره

وقلت :

حلّي النفس بالفضائل واعلم ... أنّ من طبعها اكتساب الرذائل
لا ترى عالماً عن النفس يرضى ... من يكن راضياً عن النفس جاهل

---

(١) هنا ينتهي النسخة (ر) فقد سقط من آخره ورقتان .

وقلت :

لازم نهج الصدق فما عنه مناص ... إن كنت تريد من هوى النفس خلاص

أعمالك كلّها تحاكي صوراً ... والروح لها وجود سرّ الإخلاص

وقال عليّ عليه السلام[1] :

صن النفس فاحملها على ما يزينها ... تعش سالماً ، والقول فيك جميل

ولا تريّن الناس إلّا تجمّلاً ... نبا بك دهر أو جفاك خليل

وإن ضاق رزق اليوم فاصبر إلى غد ... عسى نكبات الدهر عنك تحول

يعزّ الكريم النفس إن قلّ ماله ... ويلقى اللئيم النفس وهو ذليل

ولا خير في ودّ امرىء متلوّن ... إذ الريح مالت مال حيث تميل

جواد إذا استغنيت عن أخذ ماله ... وعند احتمال الفقر عنك بخيل

وما أكثر ـ الإخوان ـ حين نعدّهم ! ... ولكنّهم في النائبات قليل

وقال عليه السلام[2] :

أدّبت نفسي فلم أجد أدباً ... بغير تقوى الإلٓه من أدب

في كلّ حالاتها وإن قصرت ... أفضل من صمتها عن الكذب

وريبة الناس إنّ ريبتهم ... حرّمها ذو الجلال في الكتب

لو كان من فضّة كلامك يا ... نفس لكان السكوت من ذهب

وقال بعض الصلحاء وأجاد :

قرأت كتابه وعصيت أمره ... وقد عرّضت نفسي للمضرّة

أتوب إليه ثمّ أعود جهلاً ... فمن لي بالنجاة من المعرّة

وما أبغي سوى مال وجاه ... وأهل اللّٰه قد قنعوا بكسرة

وقد ولي الشباب بغير نفع ... وما استكملت أسباب المسرّة

فلا الدنيا بلغت بها الأماني ... وآخرتي تركت لها مبرّة

---

(١) الديوان المنسوب إليه ص ٩٩ .

(٢) الديوان ص ١٥ .

ولـي عـمـل عـلـيّ بـه شـهـود وما يسوي على التقديم ذرّة
فحالي لا يسرّ بها صديق ونفسي في هواها مستمرّة
ولو فكّرت في عقبى أموري قطعت العمر بين أسىً وحسرة

وممّا نسب إلى أمير المؤمنين عليه السلام[1]:

الغنى في النفوس والفقر فيها إن تجزّت فقلّ ما يجريها
علّل النفس بالكفاف وإلاّ طلبت منك فوق ما يرضيها
ليس فيما مضى ولا في الّذي لم يأت من لذّة لمستجليها
إنّما أنت طول عمرك ما عمّرت في الساعة الّتي أنت فيها

وله عليه السلام[2]:

غنى النفس يكفي النفس حتّى يكفّها وإن أعسرت حتّى يضرّ بها الفقر
فما عسرة - فاصبر لها إن لقيتها - بدائمة حتّى يكون لها يسر

وقال عليه السلام[3]:

والنفس تجزع أن تكون فقيرة والفقر خير من غنى يطغيها
وغنى النفوس هو الكفاف وإن أبت فجميع ما في الأرض لا يكفيها[4]

وقال عليه السلام في الوصيّة[5]:

ومحترس من نفسه خوف ذلّة تكون عليه حجّة هي ما هيا
فقلّص بُرديه وأفضى بقلبه إلى البرّ والتقوى فنال الأمانيا
وجانب أسباب السفاهة والخنا عفافاً وتنزيهاً فأصبح خاليا
وصان عن الفحشاء نفساً كريمة أبت همّة إلاّ العلى والمعاليا
تراه إذا ما طاش ذو الجهل والصبى حليماً ووقوراً صائن النفس هاديا

---

(١) الديوان ص ١٤٦ .
(٢) الديوان ص ٥٢ .
(٣) الديوان ص ١٤٦ .
(٤) في الأصل «وغنى النفس في الكفاف» والإصلاح من الديوان .
(٥) الديوان ص ١٤٥ .

لـه حـلمٌ كهـل فـي صـرامـة حـازم وفي العين إن أبصـرت أبصـرت سـاهيا
يـروق صفـاء المـاء منـه بـوجهـه فـأصبح منه المـاء في الـوجـه صـافيا
صبـوراً على ريب الـزمـان وصـرفـه كتـومـاً لأسـرار الضـميـر مـداريـا
لـه همّـة تـعـلو عـلى كـلّ هـمّـة كمـا قـد عـلا البـدر النجـوم الـدراريـا

وقال عليه السلام[1] :

إنّ الـمـكـارم أخـلاق مـطهّـرة فـالـدين أوّلهـا والعقـل ثـانيهـا
والعلم ثـالثهـا ، والـحلم رابـعهـا والجود خامسها ، والصدق سـادسها
والبـرّ سـابعهـا ، والصبـر ثـامنهـا والشكـر تـاسعهـا ، واللين بـاقيهـا
والـنفس تـعـلم أنّـي لا أصـدّقـهـا ولـست أرشـد إلاّ حـين أعـصيـهـا

وقال عليه السلام[2] :

إنّـي أقـول لـنفسـي وهـي ضـيّـقـة وقـد أنـاخ عليهـا الـدهـر بـالعجب :
صـبـراً عـلى شـدّة الأيّـام إنّ لـهـا عقبى ، ومـا الصبر إلاّ عنـد ذي الحسب
سـيفـتـح الـلّه عـن قـرب بـنـافـعـة فـيهـا لـمثـلك راحـات مـن الـتـعـب

وقال بعضهم :

ألا لا يـلام الـمـرء في خبـث نـفـسـه فـأوّل شـيء يـغـتـذيـه دم الـطمـث

وقال آخر :

والـظلم من شيم النفـوس فـإن تجـد ذا عـفّـة فـلعـلّة لا يـظلم

فرغ من تأليفه وتسويده العبد الأقلّ محمد بن محمد بن حسن الشهير بـابن القـاسم الحسينيّ العيثانيّ العـامليّ عامله الله بلطفـه الخفيّ في العشر الأوّل من شهـر ربيع الأوّل من شهـور سنة ثمـان وسبعين بعد الألف من الهجـرة النبويّـة ، على مشـرّفها أفضـل الصلاة والسـلام ، وكان بـالطالـع القويّ الأسعـد وبـالحظّ الوافي الأجود إتمامه بالمشهد الرضويّ على ساكنه الصلاة والسلام .

---

(١) الديوان ص ١٤٥ والمستطرف (١ : ١٥) .
(٢) الديوان ص ١٢ .

ونختم بدعاء شريف نقل عن عدّة مشائخ لو أُقسم به على الجبال لدقّها ، أو على القدود لقدّها وهو : «اللهمَّ ربّ السماوات الأرفعة ، وربّ الأرضين الممرعة ، وربّ محمّد والثلاثة المحاميد معه ، وربّ العليّين الأربعة ، وربّ الحسن والحسين البرعة ، وربّ موسى وجعفر تبعه ، وربّ فاطمة البضعة ، درسة الأناجيل ، ومحاة الأباطيل ، وعدد النقباء من بني إسرائيل صلّى الله عليهم أجمعين ، واجعلنا ممّن ختمت له بالحسنى ، ودفعت عنه مكاره الأُولى والعقبى ، إنّك بالإجابة جدير ، وعلى كلّ شيء قدير ، اللّهمّ نجّنا من شرور أنفسنا وسيّئات أعمالنا ، واغفر لنا ذنوبنا ، وتوفّنا مع الأبرار ، والحمد لله وحده والصلاة على من لا نبيّ بعده» .

وكان الفراغ من تسويد هذا الكتاب المبارك يوم الخميس تاسع ربيع الأول سنة ثمان وثمانين بعد الألف من الهجرة النبوية عليه وآله أفضل الثناء والتحية ، على يد أقل العباد محمد رحيم بن عبد الله البجشتاني . غفر الله له ولوالديه ، ولجميع المؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، والحمد لله رب العالمين .

الفهـرس

المقدّمة في النفس وقواها والفضائل وأقسامها ٩

الفصل الأوّل : في الترغيب في الطاعات والزهد في الدنيا ٣٦

الفصل الثاني : في العزلة والخلوة ٤٨

الفصل الثالث : في صحبة الأنفس الطاهرة والأُنس بالأخلاق الباهرة ٧٣

الفصل الرابع : في آداب النفس بالعفّة والتقوى والزهد والورع ١٠٢

الفصل الخامس : في أشياء متفرّقة ١٤٩

الفصل السادس : في الشكر ١٥٥

الفصل السابع : في المعارف والسعادات النفسيّة ١٦٠

الفصل الثامن : في آداب النفس ١٧١

الفصل التاسع : نذكر فيه نبذة من آداب السفر ١٨٣

الفصل العاشر : يشتمل على مواعظ ١٩٣

الفصل الحادي عشر : في العجب وأحوال الزهّاد ٢٢٤

الفصل الثاني عشر : في الموت وما يتّصل به ٢٥٢

الفصل الثالث عشر : في التواضع والتكبّر ٣٠٤

الفصل الرابع عشر : في الحياء والوفاء ٣٣٩
الفصل الخامس عشر : في الخوف والرجاء ٣٧٣
الفصل السادس عشر : في الفقر والجوع ٣٨٧
الفصل السابع عشر : في الحرص والأمل ٤٠٢
الفصل الثامن عشر : في قمع الأنفس ومخالفتها في شهواتها ٤١٤
الفصل التاسع عشر : في الغضب والحلم ٤٤١
الفصل العشرون : في استصلاح نفس الإنسان ٤٥٧
الفصل الواحد والعشرون : في الخير والشّر ٤٧٢
الفصل الثاني والعشرون : في أنّ أسباب الشرور بالعرض ٥٠٤
الفصل الثالث والعشرون : في كميّة أنواع الخيرات والشرور ٥٠٧
الفصل الرابع والعشرون : في كيفية معاشرة إخوان الصفاء ٥١٤
الفصل الخامس والعشرون : ماهيّة الإيمان وخصال المؤمنين ومناماتهم .. ٥٢٩
الفصل السادس والعشرون : في آداب الدعوة إلى الله تعالى ٥٨٥
الخاتمة في النفس وما قيل فيها ٦٣١